الأعمال النثرية

MAHMOUD DARWISH

2

محمود درويش

الأعمالُ النَثريّة

مكتبة




محمود درويش
الأعمال النثرية
2



مؤسسة محمود درويش
Mahmoud Darwish Foundation
رام الله - فلسطين
هاتف: 2408587 2 970+، فاكس: 2408587 2 970+
www.darwishfoundation.org
info@darwishfoundation.org



الأهليّة للنشر والتوزيع
المملكة الأردنيّة الهاشمية، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore

دار الناشر
DAR AL-NASHER
هاتف: 2961911 2 970+ رام الله، فلسطين / 5694861 6 962+ عمّان، الأردنّ
info@enasher.com www.enasher.com

الأعمال النثريّة الكاملة (2)
في وصف حالتنا؛ في انتظار البرابرة؛ الرسائل مع سميح القاسم؛ عابرون في كلام عابر
محمود درويش / فلسطين
الطبعة الأولى، 2019

الخطوط وتصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، هاتف: 95297109 7 962+

الصفّ الضوئيّ والإخراج الداخليّ: **مؤسّسة الناشر**

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 9950 - 385 - 81 - 8



t.me/soramnqraa

محمود درويش

الأعمال النثرية

2

في وصف حالتنا
في انتظار البرابرة
الرسائل مع سميح القاسم
عابرون في كلام عابر



تتقدم مؤسسة محمود درويش بخالص شكرها

إلى عائلة الشاعر محمود درويش

لمنحها حقوق الطبع لكامل أعماله الخالدة

الأعمال النثرية



محمود درويش

في وصف حالتنا



مدخل



ثَمَّـةَ تَبِعَاتٌ في جمع الكتابـة الآنيَّة، بجوهـرِ خاصِّيَّتها الدَّالة علـى برهةٍ ما من أحداث الواقع؛ برهةٍ حميمةٍ في الخطاب المتَّجه إلى ماضيـهِ أبداً، لأنَّه يتذكَّرُ ويُذكِّر. لكننـا، في جَمْعِ مقالات هذا الكتاب، بما تحمله من تَبِعَةِ الآنيِّ، لسنا في حاجة إلى تبريرٍ توفيقيٍّ يحملُنـا إلى تقديمها، لسببٍ مُوْجَزٍ وهـو أن بُرهتها تملك خاصِّيَّةَ التعميم في التراجيديا الفلسطينية.

إنَّ ما يُقالُ، هنا، لا يُقالُ لمـرَّةٍ واحدة. والواقعُ المُقْتَنَصُ في الكلام، وسط السطور وحولها، متدحـرجٌ كالكُرةِ من النَّصّ إلى المشيئـة، ومـن المشيئةِ إلى النّصـ، بالتواريخ اليوميـة المتابعة، وغيـر المتتابعـة، في الأسى الأشمل من حصـارٍ إلى حصار، ومن نفيٍ إلى نفي؛

إن ما يُقال، هنا، هو الأنينُ الواحدُ في هبوب الفجيعةِ المتعدِّدَة.

لقد آثرنـا نشر هذه المضمومـةِ المختارة مـن المقالات لأن الواقـع يؤكِّدهـا بفضيحتـه المتكّررة، يومـاً بعد يـوم؛ وبإصراره

العربـي، تحديداً، على أن يكون – فـي مستقبله المنظور – صورةً لهذه الكتابـة المُنْجَزَة عن ماضيـه، كأنّما تتـوارثُ الخيبةُ الخيبةَ، والحـكامُ الحكامَ، والشهيدُ الشهيدَ، والروحُ التي لا تنكسر – في العمق الفلسطيني – أختَها التي لا تنكسر؛

إنها كتابةٌ تتأكَّدُ بثوابِ المستقبلِ الأبعدِ على أَلَمِها.

أيحتاج الألمُ إلى تعريف؟ ذلك ما تقدّمه هذه المقالات التي لا تُعَرِّفُ الألَمَ إلّا بوصفِهِ مَدْخلاً.

الإِرهَاب الأسود

لا وقت، لا وقت. المشنقة تسبق السؤال، والرصاصة تبحث عن صدر أو ظهر. ونادراً ما يرى القتيل وجه قاتله، كأنه يخرج منه على قوس الظلال ويختفي فيه. أو كأن القتل انتحار، رياح تهب ورمل. وغالباً ما تدرك أن الأشجار العربية، المتعانقة أو المتفرقة، جنازة ثابتة وصامتة. ودائماً نعرف أن أضلاعنا مشانق. ونحمد اليوم التالي على معجزة التكرار. ومن الهواء يأتي زوار لا نعرفهم. يأخذوننا من ذاتنا، وينصرفون، فندافع عن تهمة لم يوجهها إلينا أحد، ونتعذب في سجن لا جدران له. ومن الشوارع تنفجر أسرار لا تعنينا وتنكسر قامات لا نودعها ونادراً ما نحزن. وحين نبحث في السجون عن أسمائنا لا نجد لها أثراً ولا شبهاً. وعندما نتحرى الجدران عن دمنا لا نجد غير هتافات جميلة تعدنا بصباح حتمي، يكتبها زوار الليل نيابة عن الشهداء. وتتاح لنا أحياناً فرص لمحاورة الجلادين، فنجدهم أذكياء وطيبين، يعرفون لغتنا وأحلامنا وينحتون لنا المستقبل في الصخر. وكلما خاطبناهم بلغة عاطفية سبقونا إلى البكاء. وكلما عاتبناهم على ظلم لحق بالأبرياء أخذونا إلى الشرفة لنرى صفوف الشهداء تبايعهم، فنعتذر أو

نكاد، ونفتش عن القاتل في مكان آخر، وننبش جلودنا لنلمس دمه فينزلق. وتبقى التهمة مسألة نفسية وترجأ الأسئلة إلى زمن آخر. الكل يعرف الخطر الذي يتربص بالرجاء، والكل يتفق على أن تحول الشمس إلى احتمال يومي صار موضوعاً قابلاً للخلاف. فأين الخطأ وأين الصواب؟ والجلادون ظرفاء يحبون الأغاني وأنيقون بلا حدود. وحين يمرض الواحد منهم يؤتى إليه بجماهير حزينة لتعوده وتودعه، فيسأل مترجمه الشعبي عن اللغط فيجيب: جاء الشعب مودعاً، فيتساءل ببراءة صادقة: إلى أين يسافر الشعب؟ هل يستطيع وزير واحد أن يبلغ الحاكم أن الشعب لا يسافر؟ لماذا تسبق المشنقة السؤال إذن؟ ولماذا يبنون لنا مزيداً من السجون إذا كنا جميعاً طلقاء؟ تنزل الأسئلة إلى الهمس فيسمعها العصفور ويشي. ولكن الوجدان يشتاق إلى محاكمة يتلو فيها المدعي العام لائحة الاتهام لننجو من هذا الكابوس، ولنستمع إلى محامي دفاع واحد بلغته القانونية القديمة التي كدنا ننساها. وكم نشتاق إلى مظاهرة واحدة، في عاصمة واحدة، نحتج فيها على خيانة واحدة، أو نحيي فيها بطولة مضادة! وكم نحنُّ إلى افتتاحية ساخنة تعيد إلينا ذكريات خلاف ما، وقع يوماً ما، بين حاكم ومحكوم. هل انتهت الحرب الطويلة مع العدو، الذي ما زال يحتل الأوطان، لينتهي الفارق بين الليل والنهار؟ وهل يكفي أن يصدر الحاكم بياناً جباناً عن آخر الحروب، ليحل السلام بين المتخم والمحروم وبين السجين والسجان وبين الظالم والمظلوم؟ هل كانت سعادتنا بسيطة وقريبة إلى هذا الحد ولم نعرف؟ وهل نندم على عمر ضاع أمام شعار لم يتحقق، لا لشيء إلا لأن أحد الأقزام قفز على الشجرة وطال في الظلال! وإذا كان عمرنا قائماً على هذا الوهم فمن أين الحاكم جاء. لماذا لا يسقط الساقط وحده؟ لا وقت للسؤال، ولا

وقت للجواب، لأن المشنقة جاهزة، ولأن الحوار إضاعة لوقت الحاكم المشغول... بماذا؟ كان شعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» كابحاً للتعبير عن الحاجة إلى الخبز والحرية، لأن قيدنا كان شرطاً لحرية الوطن. فأي صوت يكبح الآن وأية معركة تعلن؟ دائماً كانت المشنقة صدى، وتتحول اليوم إلى افتتاح. لقد أعلن الحاكم الحرب علينا من الوريد إلى الوريد. وهو الذي يبشر بانهيار السلطة ويعد المشانق للاحتمالات. إنه زمن الإرهاب الأسود. إرهاب يميني ولو وقف على يسار الضحية. إرهاب أصيل، عروبي، نابع من ذواتنا، غير مستورد. مستتر خلف حجاب رغم انه ذكر. ويصلي خمس مرات في اليوم، إذا شئتم، تقي، أصولي، يقطع اليد الممتدة إلى الرغيف والحرف بحد السيف، وفق الشريعة. وأحياناً متمدن: يستخدم أرقى أدوات التعذيب البشري ومراقبة الأحلام على الشاطئ. وسري: ليجعلك القاتل والقتيل في جسد واحد. وعلني: كمنشآت النفط التي تجتاح القيم، وكصحف هذه الأيام، وكشاشة التلفزيون التي لا يغادرها وجه الحاكم الذي ألغى الفكاهة. وجاهل: يكره الكتابة والصحافة فيشتريها ويرميها في المرحاض. ومثقف: يعلن أن الحروب الوطنية والأهلية هامشية، لا تدخل في الجوهر. وشاعر: يضع السحر والشعوذة بديلاً للمعرفة العلمية، ويحدد التناقض الرئيسي بين حنجرة الشاعر وخصر الراقصة. وديموقراطي: يعدد أسماءه ويحدد جوهره، ثم يوحد صورته حين يعم الاجتهاد العيون. وفاشي: لا يتقن المهنة فلا يبني ولا يحارب إلا الفقراء. واشتراكي: ولكن طبيعة الإنسان التي يتنازعها الخير والشر هي العائق، ولأن التناقض الرئيسي بين الإنسان والله. إنه الإرهاب الأسود. إنه الإرهاب الأسود الذي يخاف الشفق الممكن في عروق الأمة، الإرهاب الجارف الذي

يعرف من هم أعداؤه من فرط ما يعرف نفسه وطريقة استيلائه على السلطة. إنه الإرهاب الأسود الذي استسلم للغزاة بلا ثمن فخاف سؤال الشارع فجعل المشنقة تسبق السؤال. إنه الإرهاب الأسود الذي يدعونا إلى المعركة ويخذلنا في أوج المعركة لأنه لا يعادي سوانا. طالبناه بأن يعامل «العبيد» كما يعامل «طائفة اليهود»، على الأقل، فجن واتهمنا بالخلاعة، لأن لليهود أمريكا تحميهم وخطوط دفاع مشتركة. إنه الإرهاب الأسود الذي يستبق العاصفة التي تتأهب للانفجار فينا، ويعرف سر فلسطين فيجعلها سراً أو عيباً من عيوب القرية. إنه إرهاب السلطة، بميوعة صفاتها الطبقية، وبوضوح تجلياتها في تسليم الأرض، وفي تحريم النبض، وفي تعميم القبض. لها حرس، وعسس، وأدباء وشعراء محمولون على الأوراق وعلى ناقلات الجنود، إنه الإرهاب الأسود الذي يعي أزمته فيسبق السؤال بالمشنقة ويحول الكتاب إلى كلاب، ويحول القمع إلى إرهاب، فلنعلن إننا في زمن الإرهاب، في زمن الإرهاب الأسود.

سَيُحرَق هذا المسْرح

لا زرقاء اليمامة ولا الأنبياء الغاضبون هم الذين ينذرون بالانهيارات القادمة. إن ما ينهار ينهار. المسرح يعج بالممثلين العاجزين عن مواصلة النص، والنص دموي، والجمهور المقيد بالمقاعد يحاول أن يحرر أيديه ليحرق المسرح، ويستولي على دوره التاريخي. البديل يتكون تحت الرمل والقهر. والرؤيا ملك الجميع، لأن الانهيارات ساطعة.

عرق كثير، وخيبات. دم غزير وانفجارات. أرض تصغر وجراح تكبر. أوطان ذات قابلية لإعادة النظر. وأمريكا تدخن الغليون ورئيسها يبتسم. الشاي في موعده المحدد ولا قوت للوطن. العبيد يتظاهرون بالانحناء. وكان للرغيف شكل فلسطين ووجه الفلاح. ذكريات وانهيارات. صمت يخبئ براكين. ويفاجأ الممثلون العاجزون بأن المسرحية تقترب من النهاية، والغزاة يجلسون على حافة المسرح. تنتشر الفضيحة. تعجز البلاغة عن التبرير. يقترب الممثلون قليلاً من الأمة: في هذه اللحظة الحاسمة من التاريخ عجزنا عن تحرير الأرض، ونجحنا في حماية الحكم.

لا أحد يصفق. يقال وعـد آخر: ما زال الحل في يد أمريكا، ولكن أمريكا مشغولة بانتخابات الرئاسة الجديدة.

وحزيران يتجدد ويتمدد، يثأر من تشرين السريع. تبنى سجون جديدة. تخاض حروب أخرى بعيداً عن الأوطان المحتلة. فيواصل الغزاة السباحـة في مياه جلودنا. يزداد انتشار الكوكاكولا والأدب المنحـط. تبتكـر وسائل جديـدة للتعذيـب العربي. يمنـع الطلبة مـن تقاليد الهتـاف للخبز والحريـة. يرتفع الحجـاب على وجوه النسـاء. فيعلق بعض الأدباء: إن الحجـاب أكثر إثارة. يزداد الإقبال علـى قارئات الفناجين. وتعقد الـوزارات جلسات طارئة لتحضير الأرواح. يعاد الإيمان إلى الأمة بقرار جمهوري. وتعم الخرافة.

ولكن ما ينهار سينهار.

مـاذا لم يقدم عرب أمريكا إلى أمريكا؟ حتى التصوف قدموه مقابل مديح زائل. تصير شعارات الجيل نكتة ممجوجة. التضامن، الوحـدة، الاشتراكيـة، العروبـة، العدالـة الاجتماعيـة، فلسطين، الثورة، ذكريات... ذكريات. الإسرائيليون أو العبرانيون أو سكان فلسطيـن الجدد، ولا يقال الصهيونيـون، يعتنون ببيوتهم الجديدة فـي المستعمرات الجديدة علـى أرض عربية جديـدة. يأتون إلى الأسـواق العربية ليشتـروا الديكور والتحف والهدايـا: السيوف العربيـة المرصعة بماء الذهب أو بماء الفضة أو بماء الوجه. ويتعلم الباعـة كلمات عبريـة تنفعهم في وقـت الانفـراج. أليس هذا هو السلام؟ وفـي الأرض متسع للجميع. يستولـون على منابع المياه والاحتمـالات، ويقتربون مـن منابع النفط. وفـي وسع الحجاج

العرب أن يزوروا القدس. أليس هذا هو السلام؟ فالذين يستطيعون أن يفرضوا الحرب التي يريدون، يستطيعون أن يفرضوا السلام الذي يريدون.

ولكن ما ينهار سينهار.

يخرج سكان الأرض المحتلة إلى الشوارع. يبحثون عن سلاحهم الوحيد: حجارة وفخار وأغصان زنزلخت. يشتبكون مع الدبابات وينشدون لأعياد قديمة. تعلن حالة الطوارئ في الإذاعات العربية. الصمود الصمود. يتدخل الشعراء ليحسموا المسألة لمصلحة القصيدة. وتشن حرب أخرى على مواقع الثورة. النشاز الفلسطيني يتصاعد، فيتصاعد الحرص العربي الرسمي على تأمين شروط التسوية، بضرب الشروط الفلسطينية والأجساد الفلسطينية. يتدخل الرئيس الأمريكي مرة أخرى ليترجم إيمانه بالله إلى عدل. يطلب تعميق قبول قرار 242. نقول: عدل. يعدل تصريحاته، ويعدل عن إيمانه. نلتمس قرارات جديدة. نذهب إلى مجلس الأمن. نأخذ فيتو أمريكياً جديداً. نذهب إلى الجمعية العامة. نحصل على قرار جديد. يكبر ملف العدالة والاعتراف بالحقوق. نأتي إلى ساحة الصراع الأصلية. ميزان القوى مختل. العدالة من دون قوة. والقرارات في سلة المهملات.

ولكن ما ينهار سينهار.

ميدان المعركة لا يستطيع أن يظل بعيداً عن مناخ البيت. التفكك، التمزق، الطائفية، الإقليمية، الفساد، الرشوة، انبعاث القديم، الردة، الاستهلاك. تخلى الممثلون عن سلاحهم وذهبوا

إلى العراء. ولكنهم يحتفظون بسلاح استراتيجي ثقيل: وعد جميل قد يقدمه رئيس أمريكي مؤمن. الأمل محاصر من الوريد إلى الوريد. الثروة ضد الثورة. الفقراء يزدادون فقراً. الانعزالية القادمة من جنوب المعركة الجنوبية تترسخ في جنوب لبنان. لم تعد الصهيونية نموذجاً يحارب، بل مثالاً يحتذى. ندخل في الحروب والمذابح. يتقزز المثقفون من تخلف الأمة. الشر من طبيعة الإنسان. وماذا يستطيع النظام أن يفعل؟ الكأس والمرأة هما الحقيقتان الوحيدتان والباقي باطل الأباطيل. لا أحد يسمي الأزمة. لا أحد يقول إن الطبقة إياها توغلت في طبيعتها التاريخية... خانت. يدرك الممثلون أن أمريكا لا تنقذ الأوطان. ولكنها لن تتخلى عن الإخوان تخذلهم مرة أخرى. يتقدم ضابط وسيم من الإذاعة. يتسلق حائط المبكى والانقلابات – فلسطين. فتلك مقدمة حتمية للبلاغ رقم 1. يعيد العلاقة العربية – السوفياتية إلى خطها التاكتيكي. يستبدل السجناء. ينذر أمريكا ويعطيها مهلة للضغط على إسرائيل. ينتظر معركة انتخابات الرئاسة الأمريكية ثم انتخابات الكنيست الإسرائيلي. لا شيء. لا شيء. يغضب. يسحب سفيره من واشنطن ويبقى الملحق التجاري لتصريف الأعمال. لا يضحك الجمهور ولا يبكي. يختلف وزيران إسرائيليان على سيدة أو رشوة. يكتشف الباحثون مصادر ضعف الكيان الصهيوني من الداخل. يعلن عمال مطار اللد الإضراب ساعتين عن العمل. يتحمس الباحثون في الشؤون الإسرائيلية ويضعون خطة لتعميق الانهيار الصهيوني. تأتي انتخابات جديدة. ينتصر المتطرفون: لا انسحاب، ولا أرض، ولا سلام، ولا حقوق. لا تغضب كثيراً، فتلك مسألة عابرة، ننتظر. ننتظر. ولا تتمكن المحامية الإسرائيلية التقدمية من تقديم البديل.

المسـرح يعـج بالممثليـن العاجزيـن عن مواصلـة النص، والنص دموي. والجمهور المقيد بالمقاعد يحرر أيديه. يحرق المسرح. يستولي على دوره التاريخـي. ويجد البديل. لأن ما ينهار ينهار.

أيها النسيان، إنك تليق بكل الأسماء، ولكنك لن تكون تل الزعتر

يفلت منا تـل الزعتر. وهذه اللغة للتفاصيل. كيف نحمي النص من الانفجار. وأسئلة أخرى. ويتكرر سوء التفاهم الذي لا ينتهي بين البطولة وعناصرها. البطل هو آخر من يعرف أنه بطل. وتل الزعتر لا يعرف تل الزعتر. ولا نعرف، في هذا الخضم، كيف نسمي. سنجتهد كالمعتـاد، وأسئلة أخرى. ولكن الذي أتيح له أن يحدث الحدث لا يستطيـع أن يشهـد حدود دمه. والذين ساروا فـي الحنين إلى ما هو آخـر لن يروا في صفـوف الكلمات المنهالة عليهـم إلا مجموعات غريبة من الحشرات. بعضهم ذهـب إلى الصمت الأخير، وبعضهم يذهـب إلى الحياة بشـروط محكمة. ويفلت منا تـل الزعتر. وليس كل مـن جاء من هناك كان هناك. وسنقول الآن: تل الزعتر تراكمات بساطـة، وثقافة علاقـة بالمعجزة في أشد مقوماتهـا ألفة. تل الزعتر معجزة الماء. اختيار الذي يختـارون والذين لا يختارون. استدراج البشـر إلى سـر التاريخ، وترويضـ الدهشة. فيصيـر كل شيء عظيم في متنـاول اليد. تل الزعتـر شمول لا يكبر حبـة العدس، وقارة من الفـوارق بين الانفجار والانتحار. تل الزعتر أسماء كثيرة لا اسم لها. حالـة ترهق حاملها وقاتلها. من يضبط هذه الصيغة بعد الآن، وأسئلة أخرى. وهو ولذلك يفلت منا ومن ذاته. تل الزعتر أكبر من الزعتر.

... وسنقـول كلاماً كثيراً. سيقـال كل شيء ولا شيء. وستمر الأيـام الأخرى على هذه المدينة - بيـروت - التي لا يقيم فيها إلا الذين ماتـوا والذين سيموتون بشظية طائشـة أو باقتحام، ويعقبهم فـرح. ومع ذلك، يظـل حزنها من الخارج أكبـر. لا أدري إلى أين تقودني هذه الملاحظة، ولكنني ركبت كيس طحين ومشيت على الماء الليلـي من قبرص إلى صيدا، لاقترب مـن انفجارات اللحظة التـي حبلـت بها مئات السنين مـن تاريخ أمة. علـى سطح السفينة شبـاب غادروا الكتب والسفر في طريقهم إلى بيروت ليدافعوا عن الحلـم. كنت في إسبانيا قبل أيام، ولكـن إسبانيا لم تكن إسبانيا إلا على ظهر هـذه السفينة. إن الذين يحلمون يشبهون بعضهم البعض ولهـم وطـن واحد، وفي بيـروت أيـام مشابهة: بالأمـس تركيب المولدات والمحـركات الكهربائية، وإقامة الخطوط الحديدية في الصحراء/ بالأمس المحاضـرة العلمية عن أصل الإنسان/ أما اليوم فالصـراع/ بالأمس الإيمان بالقيمة المطلقـة، للإغريقية/ وانسدال الستـار على موت البطـل/ بالأمس الصلاة للشمـس في الغروب/ أمـا اليوم فالصراع. / غداً إعادة كشف الحب الرومانسي/ وتصوير الغربـان وكل البهجة/ في ظـل «الحرية» السائد/ غـداً ساعة قائد العرض ولاعب الموسيقى/ غداً للفتية الشعراء يتفجرون كالقنابل/ والتمشـي علـى حافة البحيـرة/ غداً سبـاق الدراجـات/ أما اليوم فالصراع. (أودن).

اليـوم تل الزعتر. وتل الزعتر يستجمـع بؤسه ويقف على قمة تفاصيلـه التي يخفيها، فيحفظـه الذين يعرفون والذيـن لا يعرفون والذين لا يريدون أن يعرفوا. اليوم يسمون شرق المتوسط تل الزعتر. فـي نيويورك ولندن وباريس وروما: سقط. لم يسقط. سيسقط. لن

يسقـط. اجتهادات صحافة، وأعـداء، وأحلام جيـل آخر. لم يعد ذلـك مهماً. العالم كله تحول إلى انعكاس لوهج الزعتر. تل الزعتر يفلـت من الاحتمـالات. ينزلق مـن الصواب والخطـأ. إنه يحول الكرة الأرضية إلى مخيم. تل الزعتر يستولي على الوقت.

لا رحمة. لا رحمة. قال لـي صديق مشغول بملاحظة الظلم الأوروبـي: تعبت منهم هـؤلاء الذين لا يكفون عـن سؤالي كيف تهجـي اسمـك. وتفاخـر: هـؤلاء لا يسألونك كيـف تهجي تل الزعتـر! اخرس! فليس ذلك دليـلاً على علاقـة المتناقضات التي تجمـل، فليس لأحد شأن في الألم الـذي يصيب إنساناً تشد ساقه اليمنـى سيارة في اتجاه، وتشد ساقه اليسرى سيارة في اتجاه آخر. لا. ذلـك عـادي... عادي لأنه من تل الزعتـر. لا. لا. هل فكرت هـذه الضحية بأن ما يرفعها إلـى هذا الوجع يرفعهـا إلى الشهرة؟ هـل تعيدها إلى الحيـاة أو إلى فلسطين شفقـة جنتلمان إنجليزي؟ أيها العالـم، إني أرفضك. وماذا تستطيعـون أن تقدموا لنا! سؤال يواجهـه الفلسطيني على شاطئ الباسفيـك من غاضب على القهر الاجتماعـي. وأنت تجيب وتحاول أن تلم في صدرك أشلاء طفلة مـن تل الزعتر. وفـي مجلس الأمن يرفع المنـدوب الأمريكي يده ليقول في أدب: لا – لحق الفلسطينيين في عودة أو وطن... أو في أي شـيء خارج الموت. ولكن تل الزعتـر يقاوم. وفي كندا يتلذذ رجال الأمن والجمارك بتفتيش مسام جلودنا، لأنهم يخافون على دورة الأولمبيـك. وتنهمر الأخبار: سقط. لم يسقط. سيسقط. لن يسقط. تل الزعتـر يقاوم. وفي فانكوفر تقـول الصحافة إن الفيلم الفلسطيني هو أجمل أفلام العالم في هذا المؤتمر. وفي اليوم التالي كانـت سيدة فلسطينية تسـأل رجل الأمن الكنـدي: هل تفتشون

الجميع كما تفعلون بنا؟ قال في حسم: لا. فلماذا تخبره إذن أنهم ذبحوا أباهـا وأمها وأختها دفعة واحـدة؟ إن الذين يرفضون حقنا في أن نكون عاديين هم الذين يستدرجون نومهم بأقراص تحولهم إلى حراس. إن مبتكرات كثيرة قد أنجزت من أجل مراقبة الطريقة التي يتنفس بها الطفل الفلسطيني. إن علماً بأكمله قد جند لترويض هذا الدم. كانت أدوات الحجب أكبر من أن تحجب. وفي خمس دقائق زعترية توقف العالم عن الرقص والإهمال. وتحولت أنظاره إلـى هذه المباراة... في خمس دقائـق. قادم من هناك. ذاهب إلى هنـاك. نحب أو نمشـي. سيموتون. لن يموتـوا. لا يريدون لهذه الـدورة أن تنتهـي لأن الضحية تلعـب بإتقان. ومـا زالت الأفلام الأمريكيـة تجيـد صناعة الإبادة السهلة. وفي جنـوب شرق آسيا، وحيـن صار دمهم شريكاً في اللعبة، أرادوا لها أن تتوقف، وأرادوا للكاميـرا أن تلجم ذكاءها. أما في تـل الزعتر، فقد طالت أكثر مما وعدوهـم، والـدم ليس دمهـم. فلتستمر رياضة المـوت. تصفيق تصفيق... وكتابة.

كل السفـن بطيئة. ولكن هذه السفينة السائرة على الماء الليلي مـن قبرص لا تجد صيدا. ولا ترى إلا أضواء القراصنة القادمين من ميناء حيفا. يحتلون البحر أيضاً. حوالي مائة طالب غادروا سنواتهم الجامعيـة الأخيرة لينتموا إلى الحلم. منذ فترة طويلة لم نسمع هذه الأغانـي. والسفينـة لا تصـل. يدفعونها بالهتـاف والأناشيد. ولم يتدربوا على حمل السلاح. وعلى طريق تل الزعتر تقف المرأة إياها ذات السـواد. تختار أجمل الأطفـال وتذبح تذبح وتنتشي. تنتشي وتعـود إلى البيـت لتنام. وعلى طريـق آخر يقف العمـلاق العاجز ويختـار العـذراء. يضاجعها بسكيـن المطبخ الكبيـرة، في هدوء

في هـدوء. المشاهدون لا يتحركون. الصليـب الأحمر. التضامن العربي. الله. الوطـن. العائلة. النساء الأنيقـات. ثم يمسح السكين بالبنطلون الأبيضـ. يزدان بعلامات فحولة السكين. العذراء ترشح دماً. العملاق العاجز يرتاح.

كل السفـن بطيئة. ولكن هذه السفينة أبطأ. كانوا مائة. سيعود منهم عشرون.

تل الزعتر. أسمـاء كثيرة لا اسم لها. لا أحد يحب كالآخر. لا أحد يموت كالآخـر. ثلاثة آلاف قتيل ليسوا رقمـاً. سيدة البشرية تقتحم طريقة الفهم الشائعـة، تنقض على التاريخ: إنك تكذب. لا يسمعهـم التاريخ. يعطيهم رقماً ولا يجمـع الأشلاء. لا يرى كيف التقطـوا دماءهم، قطرة قطرة، من بيـن عشرات السنين ومساحات الرمل. يضعهم في جملة واحدة: ثلاثة آلاف قتيل ماتوا في معركة. ولكـن... لا أحد يموت كالآخـر. والكتابـة، كالتاريخ، تكذب. نحـن هنا نرتكـب أكثر من مخالفة. نروي عنهـم ونخفي بعض ما قالـوا وما يقولـون لننقذ اللحظـة السياسية العابرة مـن الحرج. لا وصيـة لهـم ولا قبر. رسونا علـى دمهم وكان الأرضـ. وفي أوج الكتابـة كانوا يموتون بـدلاً منا. كانوا هـم الذيـن يكتبون. وظلت الكتابـة تكذب. وفي ساعات الدم الكبرى... في ساعاتهم نتساءل عـن جدوى الكتابة، ونمضي في السؤال لنسأل عن جدوى الحياة ذاتهـا. نعم، سنشك فـي كل شيء، سنشك في الحيـاة من فرط ما ماتـوا. وسنسـأل: إلى متى نرسـم المواعيد ونسقـط؟ وسيعيدون أسئلتنا إلـى التوازن. سيعيدون لنا الحياة ذاتهـا. سنؤمن ونتابعهم. هؤلاء الذيـن لا جدران تكفي لصورهم، ولا اسـم لأسمائهم، ولا

حبر، لا حبر يكفي لتقليد دمهم. إنهم مرميون على الأرصفة والساحات والبذور، مرميون على الشمس وفي الظلال، مرميون في الحنان والظهيرة، مرميون في الذاكرة والنسيان. وما علينا إلا أن نشهر الأقلام ونغمسها في الإيقاع الدموي الجاهز وفي الصور المجانية، فيصير الكذاب فينا مخلصاً والركيك متيناً ويزدهر الأدب الفلسطيني على دماء تل الزعتر. وتنهال باقات الورد ويمنع النقد، لأننا نكتب عن تل الزعتر. أن بطولتهم شيء، والكلام عن هذه البطولة شيء آخر. فلينصرف الذين يقيمون من أشلائهم متاريس إلى هواياتهم الحقيقية. وليتحدث تل الزعتر عن تل الزعتر. لهم، وحدهم، حق الكلام. هذا الكلام لهم. وسنجد في كلامهم كتابة تنفي الكتابة. سنرى في هذه الصفحات العفوية الخارجة من المذبحة والبطولة سقوط الكتابة وازدهار الكتابة. لنتعلم أبجدية الصدق والفن من هذه البساطة. إن لغتهم هي التي تغير. أشعر وأنا خارج من هذا النص أنني قادم لتوي إلى الحياة. أي كاتب يستطيع العودة إلى تقاليده بعد قراءة هذا النص الدموي، ولا يكون كاذباً أو قاتلاً. سأتوقف عن الكتابة. سأتوقف عن الكتابة إلى أن يهدأ دمي وأجد كتابة أخرى.

إن تل الزعتر أخطر حادث بطولة في تاريخ العرب. وأسأل نفسي كثيراً: هل يكون الوطن وحشياً إلى هذا الحد؟ نعم، وقبيح أيضاً ومقدس حين يكون رئة الحياة. لم يقتل وطن أبناءه كما يفعل الوطن الفلسطيني، ولم يبدع شغيلة وطناً كهذا الحلم الذي يغير عصراً، وحين يكون الحصار هو الحصار الأخير. وحين يكون الخندق هو الخندق الأخير تصبح مساحة الصفيح الصغيرة هي الكون، ويكون سقوط هذه البقعة سقوط الكرة الأرضية في فراغ

لا ينتهي. من علمهم ذلك؟ القيد والثورة. ومن أيضاً؟ وجدوا أنفسهم يموتون فماتوا تماماً كما يجد المرء نفسه حياً فيحيا. وكانوا أكثر حرية من الحرية ذاتها حين انصهروا في الموت وهم يعرفون أن موتهم ليس شعراً كما لم تكن الحياة شعراً. لا جمال لهذا الموت... لا جمال، لا جمال إلا هم. كانوا يدافعون عن كوب الماء وعن قابلية الجرح للشفاء، ولا يهمنا أن نعرف إن كانوا يعرفون أنهم يدافعون عن القارة العربية المهددة بالتخلي عن أحلامها. لا شروط للبطولة إلا شروطها ذاتها حين ترمينا الحياة إلى لحظة لا نستطيع فيها إلا أن نبدع البطولة دون أن ندري. كانوا يحولون الملايين المنتشرة على أرض خائفة إلى قبضة يد تتحفز لتغيير مسار المرحلة. كانوا يعطون للفعل الفلسطيني معناه العلني المتكامل الممتد إلى كل الحدود وميزان المدفوعات والنفط والطبقات والشعر والأمية والكبت الجنسي والخيانة. كانوا يفضحون السر الفلسطيني ويزيلون عن البيان الفلسطيني غشاء المجاملة. وكانوا يقولون للأمة إنها ليست هي المهزومة، وإن كل موقع فيها يحمل شروط تل الزعتر. ولذلك، قاتلوا حتى جرعة الماء الأخيرة وبرزت وجوه أعدائهم الكثيرة. خرجوا من اللحظة الرائجة إلى زمن آخر. وأخرجوا الوطن الفلسطيني من حواجز البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الميت ونهر الأردن والصحراء.

وحين خرجوا إلينا من بوابات جراحهم الواسعة لم ندخل معهم في عناق متكافئ. كان المستقبل مرمياً على الطرقات. وكنا نغطي وجوهنا بأفراح سرية. كان السكون يغطي المدينة، وكانت السفينة البطيئة تفرغ أكياس الطحين وتحمل الجرحى وبقايا الطلبة والأعراس. وكانت إسبانيا تمر تحت قوس الظلال. ندخل مرة

أخرى في وعي البدايات. سنواصل الرحلة ونصدق أحلامنا. تل الزعتر. سقط. لم يسقط. لن يسقط. كانت قوافل الجراح تصب في المدينة الرياضية وتصفيقنا وتلون فلسطين والمدن العربية الخائفة. وكانت ظواهر الأشياء تعود إلى سياقها الطبيعي: فصل آخر ينتهي وتنزل البطولة إلى تفاصيل أخرى.

لا، لـن يسدل الستار على نهاية بطـل، لأنه يزرع الأرض الآن بدايات، وأسئلة أخرى. يرحل تل الزعتر عن الأرض ليدخل المحيط الكبير في دورة التدريب. ويعرف الثائر أنه لن يستطيع أن يكون إلا ثائـراً. ولأن فلسطين ليست زانية، ولأنهـا لا تقيم في حجرة، فلن تكـون حبيبة الجميع. إنها صراع الجميـع. ويصير اسم صغير مثل تل الزعتـر مفترق طرق لكل الجهات. ومـن طريق تل الزعتر، من طريق الثورة نصل إلى فلسطين وأخواتها، والطريق الآخر يؤدي إلى طريق آخر... إلى سيطرة الكاز على الدم.

أيها النسيان! إنك تليق بكل الأسماء، ولكنك لن تكون... تل الزعتر.

قبل الزيارة وبعد الزائر

عشنا ورأينا

كانت شاشة التلفزيون واضحة أمس. وكانت لعبة المهرجين، المصري والإسرائيلي، واضحة أيضاً.

لم يلتق على مسرح من مسارح التاريخ مثل هذه الخصمين. الكنيست عامرة بالجنرالات والسياسيين الذين أسسوا تاريخ الهزيمة العربية منذ ثلاثين عاماً، يستمعون بدهشة وتقدير إلى أول حاكم عربي بينهم. التعبير على الوجوه متأرجح. إنه يعرض عليهم السلام الكامل والاعتراف الكامل مقابل أن يقنعوا بحدود الهزيمة العربية الثالثة. يعجبون من هذا الكلام الغريب. ويصفقون لأن الخطيب رئيس أكبر دولة عربية. ونبي الاعتراف. ومع ذلك، فإن المهرج الإسرائيلي يرفض ويرفض. وتنتهي المبارزة الودية بالنتيجة التالية: انتحر الحاكم العربي عربياً، وربح أمريكا، وحقق الاكتشاف التالي: إسرائيل لا تريد الانسحاب ولا تريد الاعتراف بالفلسطينيين.

الآن، دورنـا لنصفق. هل كان الحاكم المصري في حاجة إلى هـذه المقامرة وتقديم وعد بلفور جديـد، ليحقق هذا الاكتشاف؟ لمـاذا ذهب إلـى القدس؟ لماذا ذهب إلى الكنيسـت؟ لماذا اغتال أحلام جيل كامل؟

نعرف أن هذه الأسئلة وما يرافقها من تساؤل حول كرامة الأمة والوطـن غريبة عن رجل فـي مثل هذا الحجم. ولكننـا سنواصل: إلـى أين يذهب الآن؟ إلى الرئيس الأمريكـي ليعاتب أم إلى الجبهة ليحـارب؟ وإذا كانت المفاوضات المباشـرة جداً جداً في القدس المحتلة قد أوصلت إلى هذه النتيجة، فماذا سيأتي من جنيف؟

ومـع ذلك... مع ذلك. إن شيئاً خطيراً قد حدث. والجريمة تم ارتكابها، وعلى مرأى من ملايين العيون وعلى جثث آلاف الشهداء.

لنعتـرف، منـذ البداية. بـأن زمناً جديـداً للصـراع العربي – الصهيونـي قد بدأ. ولنعترف أيضاً بأن يـوم السبت الأسود لم يكن افتتاحيـة هذا الزمن. كان يوم السبت يوم حفلة الزفاف الكبرى بين القتلة الإسرائيليين وبين القاتـل العربي الأول، والقتلة دائماً يلتقون فـي أول المبارزة وقد يلتقون في نهايتهـا لأنهم من جوهر متشابه. ورئيسـ مصر الحالي واحد منهم. واحـد من قتلة أحلام شعوبهم. ظـل يعبر، ويعبـر، ويعبر، حتى ارتمى في أحضـان عزيزه الجديد: مناحيم بيغن.

الدهشـة تدوخنا على السطح. وفي الأعمـاق... لا شيء يثير الدهشة. فإن الذي يزحف بهـذه النشوة وبهذا الإصرار إلى البيت الأبيضـ، لتقديم الاعتذار عمـا فعلته مصر بأعـداء الأرض العربية

والإنسـان العربـي، سيصل إلى أصـل العائلة ويدخلهـا واحداً من أفرادها، متساوي الحقوق، وكامل الذل.

إنه واحد منهم، منذ أخرجه رحيل عبد الناصر من عقدة الظل، مليئـاً بالعاهـات النفسية وشهـوة المسرح، وهو يكـدح من أجل هـذا الانتماء. فرعـون بلا مجد ومن دون جـدارة. يدلك حنجرته ويبحـث عن منبر شاغر في التاريـخ ولا يجده إلا في الكنيست. ما الذي يبعده عن الشطـارة الصهيونية؟ سيعرف كيف يزاحمها على دورها ويتفوق. يستطيع العودة إلى الوراء بإيقاع حاسم. حاكم في العالـم الثالث، ولا من يقاوم. يغطي النيل والأرياف بتأتأة جهورية، ويحقق المعجزة. صفقوا له. إنه الأول.

أول حاكم عربي يعتـرف بإسرائيل في أحضانها. وأول حاكم فـي العالم يعتـرف، نفسياً ومعنويـاً، «بأورشليـم القدس» عاصمة لإسرائيـل. إنه ساحر، مدهش، عنـوان لكل الصحف في كل أنحاء العالـم، إنه اللاعب الأول والأول في سيـرك لا يجرؤ اللاعبون فيه على مثل هذه المجازفة. كاميرات وكاميرات. هذا هو المهم، وما قيمـة الأرض؟ سيناء رمال ميتـة، والجولان جبال وعرة. والقدس؟ لقـد وجد الحل، إنها مسجـد وكنيسة. وعمر بن الخطاب لم يكن واقعيـاً ولم يفهم الوفاق الدولي جيداً. جاءها عمر راجلاً يجر ناقة. أمـا هو، فيجيئهـا بمصفحـة إسرائيلية تحميه من حجـارة الأولاد فـي القدس. وهكذا، ينتهي الصـراع. وبعد قليل، قد لا يجده أحد ليذكره بأنه كان أسيراً ذليلاً في القدس. كان مهرج الغزاة.

نحن نشمئز، وهـو ينتشي: هل وقف جنرالات صهيون لغيره من الحكام العرب؟

نحـن نبصق، وهو يسكـر: هل استطاع حاكـم عربي آخر أن ينجـز هذه الصداقة، على يمينه بطل ديـر ياسين وأمامه الذين أبادوا عشرين ألف جندي في رمال سيناء.

نحن نحتقر، وهو يفاخر: هل استطاع الملك سليمان أن يحلم في نشيد الأناشيد بهذا العناق مع الفتاة الإسرائيلية المدهشة غولدا؟

إنه الأول، الأول، الأول.

وإذا قـال فعل. قـال سأذهب، فذهـب: حبيـب الأعداء، عدو الأصدقـاء، يغطي صورة عبـد الناصر فوق السـد العالي، ويمسح العرق أمـام صورة هرتسل في الكنيست. يفـرم معارضيه، ويعانق قتلـة شعبـه. تجوع الملاييـن إلى الخبـز والفول، فيغـرق القاهرة بالكوكاكـولا وسجائر كنت الفلتر الميكرونايت الأبيض. وينفتح، ينفتـح، ينفتح على كل الغزاة وعلـى نشيد «الأمل» الصهيوني، ولا حرام عنده، لا حرام إلا أسئلة الطلبة ومطالب الفقراء.

لقد فعلها وانتهت الزيارة. فماذا بعد، ماذا بعد؟

فـي عالـم آخـر، غير هـذا العالـم الثالـث الغارق فـي القمع والاستبداد، لا تقع هذه الجريمة في مثل هذه الوقاحة، لقد انقرض هذا الصنف من المهرجين في عصرنا. هنالك أحزاب، برلمانات، ديمقراطيـة. صحافة. رقابة شعبية. أما هنـا، فالحاكم هو الوطن، والوطن هو الحاكم. لذلك فإن ما يفعله هذا الحاكم المصري، منذ سبع سنين خطير، يعادل الكارثة.

لقـد أدخل الصراع العربـي – الصهيوني في زمن جديد. زمن

التسامـح والاستسـلام. لنعترف بذلـك، ولندبر أمورنـا على هذا الأساس. وسواء أعطاه الإسرائيليون شيئاً يعادل ما أعطاهم، وهم لا يملكـون مثل هذا الشيء، أم لم يعطـوه، فإن شيئاً جديداً قد حدث في مسيرة الخطأ والخطيئة المستمرة منذ حرب تشرين.

لا يكفـي أن نقول اليوم إن حاكم مصـر لا يمثل العرب ولا يمثـل مصـر. دقت ساعـة الحقيقة لتنـذر بالكارثـة الناجمة عن هـذه العلاقـات القائمة فـي بنية المجتمـع العربي. دقـت ساعة إعـلان الصـراع من أجـل الديمقراطيـة التي صارت فـي أهمية الخبـز وفلسطين في هذه اللحظات. ففـي غيابها يفعل الحاكـم، أي حاكـم، ما يشـاء. يجوّع الناسـ ليفرغها من ضغـط المسألة الوطنية، ويلجم القوى المؤهلـة للتحرير، ويقفل الطرق المؤدية إلـى فلسطين. إن بقـاء حريات الجماهيـر الديمقراطية على هذا المستـوى من القمع يهـدد أي وطن وأية أرضـ، ويوفر لنموذج الاستبداد العربي إمكانية تحويل الأمة إلى أمةٍ من دون دور، ومن دون شخصية، ومن دون مستقبل.

لنعترف بأن شيئاً خطيراً قد حدث، وبأن الصهيونية قد حققت انتصاراً كبيراً: فإن حاكم مصر، بزيارته الذليلة، قد يكسر في النفسية العربيـة جدار الحـرام. ويخلق ثغرات في الوجـدان القومي يصبح الاعتـراف بالكيان الصهيوني فيه شأنـاً قابلاً للاجتهاد. لقد وفرت زيـارة حاكم مصـر المرفوع على حـراب الغزاة وعلـى احتقارنا، قابليـة رائدة للتعايش غير المتساوي بيـن العرب مسلوبي الحقوق والأرضـ وبين الغزاة في شروطهم التـي يملونها. لقد كسر الجرة كما يقولون، وصارت الصهيونية إمكانية عربية.

ولنواصـل الاعتراف بأن شيئاً خطيـراً قد حدث، حتى لو عاد الزائر صفر اليديـن والضمير: إن احتمالات ابتعاد مصر عن معركة الأمـة ودخولهـا في الصدفـة الإقليميـة، سيغدق علينـا إمكانيات ضاغطـة، مدججة بوسائـل الدفـاع الفكرية، لشرعيـة الدعوات الانعزالية فـي أنحاء الوطن العربي. إننا نواجـه الآن اختمار تحول إسرائيـل مـن موضوع صراع إلـى نموذج يحتـذى، لقد أدخلت مسيـرة الحاكم المصـري الجنين الصهيوني إلـى مناطق الضعف، وهي كثيرة، في الجسد العربي الذي يبدو في هذه اللحظات العابرة عاجزاً عن النبض والومض والرفض والحركة الحرة.

شـيء لا يصدق. ولكنه وقـع. علينا أن نبدع زمننـا وأن نبذل جهـداً ضخمـاً لتحصيـن النفسية العربيـة من احتمـالات انتهاك قوانيـن الصراع مع العـدو الصهيونـي. إن دماً جديـداً، قادماً من استبداد الحاكم ومن قيـادة الرجعية، يصب الآن في عروق الكيان الصهيوني ويمنحه حياة جديـدة. ويذهب الإسرائيليون إلى الحياة الآن باطمئنـان لـم يعرفوه منذ ثلاثين سنة، علـى الرغم من إمكانية «الحـرج الإعلامي» الذي سيسببه لهم ذل الحاكم المصري!! لقد ذاقوا طعم الاعتراف المجاني، وسيعتادون على سلسلة الاستسلام العربـي. ومن حق التاريخ الصهيوني على أرض فلسطين أن يتباهى باعتمـاده على شرعية العنف والنزعـة الانتحارية التي جرت حاكم أكبـر دولة عربية، ومن دون سبب موضوعي، إلى أرخص استسلام في مطار بن غوريون.

إن ما شاهده الإسرائيليون أكبر من انقلاب في تاريخ علاقاتهم بالعـرب. أكبر مـن وعد بلفور. أكبـر من انتصـار عسكري. فهل

أنقـذت إسرائيـل مـن مأزقها التاريخـي؟ لا. ولكن السـؤال صار مؤجلاً الآن بعدما ارتبط مأزق إسرائيل بمأزق أكبر نظام عربي.

والسـؤال الأهم: هل ترضى مصر بهـذه الكارثة؟ إن حاكم مصر هو المسـؤول عن استسلامه الشخصي الذي جرده من أية شرعية. ومصر هي التي تعرف، كما عرفت دائماً، كيف تواصل دورها المؤسس. وتعرف أن بقاء حاكمها الحالي على المسرح هو الخطر اليومي عليهـا وعلى فلسطين وعلى الأمة. لا يستطيع أي حاكـم أن يجعـل مصـر صغيـرة وأن يسجنها فـي الحدود واللحظة الراهنة.

إن رحيـل حاكم مصر إلـى الجحيم، أو إلـى أي مكان يشاء، سيغير كل شيء، ويفجر كل شيء.

ومصر هي التي تغير

وهي التي تفجر.

المعنى والمبنى

هل أدركت العـرب الآن أن الطريق إلى واشنطن تؤدي إلى تل أبيب؟ وأن حروباً كثيرة ستندلع من جنين هذا السلام الطاحن، الذي ولد في ساعة متأخرة من ليلة أمريكية أعدت لتكون فجر العرب؟

شيء من المسرح، وأشياء كثيرة من الواقع. ولا أحد يستطيع أن يقف خارج الحلبة. لا أحد يبرئ نفسه من الواقعة. ولا أحد يسلم من انهيار ما. لأن لحمنا هو النص، ولأن الثلاثة قد يكثرون. ذكريات وانقلابات. هل كنا بعيدين عن تلك العبارات الحماسية إلى هذا الحد؟، وهل ألفنا هذه اللغة الرائجة؟ سقطت بنايات كثيرة في القاهرة بسبب الغش في كمية العلاقة بين الإسمنت والحديد ودم الشهداء، فتساءلنا: هل البناية معنى أم مبنى؟ وقال آخر: متى يكون النيل الأزرق أزرق؟ هل كانت دير ياسين حادثة سير دون أن ندري؟ وهل كانت سيناء إسرائيلية ليتم شراؤها بالعروبة؟ الدخان الأبيض سيخرج من النافذة. وأكثر من ذلك: إن للأهرام بناة آخرين. ومن سيصحو على اكتشاف الخطأ: الذي قال إن إسرائيل لن تشتري الصلح بالرمل، أم الذي قال إن فرعون الصغير لن يرتكب النصف الآخر من الخيانة؟ غداً نعرف، ولكن الحاكم المصري يستولي على

الجمعة ويصلي. والحاكم الإسرائيلي يستولي على السبت ويصلي. والحاكم الأمريكي يستولي على الأحد ويصلي. ولا أحد يسأل: لماذا يؤمن القتلة بالله! ثلاثة عشر يوماً محاطاً بكاميرات السرية، وصلوات البابا الجديد، وأمريكا، وباعة الكاز، والصامتين من فرط الأمل، واليمين المتحفز للنجاة. معادلة النجاح والفشل تلعب بالناس كالمباراة، ولا يخرج من كامب ديفيد إلا هدير السكون، وافتتاح يقول: «على العرب أن ينسوا القومية العربية، وعلى الفلسطينيين أن يدركوا أنهم بلا مستقبل». يزدحم الصمت، ويثرثر المذيعون، وإعلانات البضائعِ الاستهلاكية، وهي دائماً أمريكية أو يابانية، ولا يفعل أحد شيئاً غير فضيلة الانتظار. وفي اللحظة الأخيرة حين استطاع كل من الحاكم المصري والإسرائيلي أن يضمن حب أمريكا (أو صداقتها) هجم عليهما كارتر بتحديد موعد النهاية. ويقول شهود عيان أن ذلك قد جرى بسبب هطول الأمطار، وعدم تمكن الحكام الثلاثة من ركوب الدراجات، وانخفاض درجة الاستمتاع بالطبيعة في كامب ديفيد. عندها... انحلت عقدة النص، وانتهى الصراعٍ المصري – الإسرائيلي، إذ تعانق السادات وبيغن طويلاً طويلاً، وفي حرارة العناق ذابت الخلافات الشخصية، وضحى كل منهما بكرامته في سبيل الوطن (كان السادات قد وصف بيغن بأنه مر. وكان بيغن قد وصف السادات بأنه سوقي ورخيص). وسافر الثلاثة إلى واشنطن ليعلن كارتر، وهو يمشي كالطاووس كما تقول وكالات الأنباء، انتصاره الشخصي، وليعلن بيغن انتصار الصهيونية في هذه الجولة بقطف الثمار الأولى لنتائج الخامس من حزيران، وليعلن السادات تعهده بسحب مصر من العروبة ومن دائرة الصراع العربي – الإسرائيلي، وليوحي الثلاثة بقيام حلف جديد في المنطقة، وبأنهم سيكثرون.

فهل أدركت العرب الآن أن الطريق إلى واشنطن تؤدي إلى تل أبيب؟ وأن حروباً كثيرة ستندلع من جنين هذا السلام الطاحن، الذي ولد في ساعة متأخرة من ليلة أمريكية أعدت لتكون فجر العرب؟

يرقص الإسرائيليون حتى الفجر... كان الهيكل اليهودي الثالث القائم على جماجم الآخرين قد توطد هذه المرة بقيامه على دعائم الأهرام، بعدما أنجز الوعد بتحويل سيوف مصر إلى محاريث لدفن العروبة في الرمل، وبتحويل رماحها إلى مناجل لحصاد السراب في سيناء، وبتحويل ما تبقى من السلاح إلى قمع الجائعين في مصر، والمتمردين على أمريكا، وعلى العنصرية في أفريقيا. (ولا تكون حروب بعد اليوم) كما قالت التوراة مرة، وقالت ثانية: (لا سلام – قال إلهي – للأشرار). يرقص الإسرائيليون حتى الفجر. سيرقصون قبل أن يمتحنوا قدرة هذا الفرح على الاستهتار باحتمالات مصر والشرق العربي، وقبل أن يختبروا مدى شرعية الحاكم المصري في تمثيل مصر. فهل يستطيع هذا الفرد الذي لا يشبه أحداً في تاريخ التنازل، أن ينزع مصر من ذاتها ومن عروبتها، وأن يبيع جسدها مقابل أصبع واحدة من قدمها؟ وهل يستطيع أن ينقل القدس من تاريخها وصخورها المقدسة إلى رسالة ضائعة في بريد الأحلاف الجديدة؟ وهل يستطيع أن يخمد معجزة الانبعاث الفلسطيني التي تجاوزت مذابح لا نهايات لها، ووصايات لاتحصى، حتى استقرت كأحد عناصر الطبيعة في هذا العالم؟ وهل يستطيع أن يلجم روح الأمة التي صاغتها التجارب والحروب لتصقل إرادتها وتبدع ذاتها من جديد؟ أسئلة لا تطرح على إيقاع الرقص الإسرائيلي، ولا على نشوة الحاكم المصري

بألقـاب حسنة أسبغهـا عليه الصليبيـو ن الجدد، بل تطـرح علينا، وعلى الأمة، وعلى قوى الصمود، وعلى النبض والأرض والرفض، لنجتـاز امتحان الكارثـة، ونعرف كيف يتم عـزل النظام المصري بواسطـة شعب مصـر، وبدعم شعـب مصر، ونعـرف كيف نهيئ أنفسنا لحرب ديفيـد المعلنة. ويرقصـ الإسرائيليون حتى الفجر، لأنهـم دائماً يعرفـون كيف يعبدون تماثيل الوهـم، ويعرفون كيف يحتفلـون بفتات من يعطي بلا ملكية، فتاريخهم الجديد سلسلة من الرقصـ حول هدايا قـدت من لحمنا، وكنا نخـرج في وجوههم. وسيرقصـون لمعنى آخر للسـلام، هو خروج مصر مـن المعركة، وتوفر شروط أفضل لحروبهم القادمة ضد الشرق العربي، فالجبهة الجنوبية تنتهي بسفارة إسرائيلية في القاهرة. ولهم في أفريقيا حليف جديد. وبغداد بعيدة عن دمشق. وفي لبنان لهم جنود. وسيرقصون حتـى الفجر، لأن رئيسهم قال لهـم: لا ترقصوا حتى الفجر. وقال أيضاً: «لن يرفرف بعد الآن أي علم عربي فوق القدس. لن ننسحب من الضفـة الغربية وقطاع غزة، ولن تعود الجولان أبداً إلى سوريا. وستبقـى القدس عاصمة إسرائيل ما دام الشعب اليهودي حياً. هذه اتفاقية كامب ديفيد».

... وهذه هي أمريكا، وهذه هي التسوية التي تطرحها موازين القوى الراهنة، وهذه هي فضيحة قرار 242 في التفسير الأمريكي. هل يستطيع العرب، الآن، البرهنة على استقلالهم الوطني؟ إن قدرة اتفاقيـات كامب ديفيد علـى التطبيق هي التي تشـكل تحدي هذا السـؤال، والسؤال الذي يليه: هـل يستطيع العرب صياغة جبهتهم الثوريـة وعلاقاتهم الدولية في مواجهة الحملـة الصليبية الجديدة؟ إن مئـات من الأسئلـة يطرحها صلـح كامب ديفيـد على الحرب

الوطنية، وعلى الصراع الاجتماعي، ولا يطرح سؤالاً حقيقياً على السلام. هل سيحل العلم الإسرائيلي المرفرف على ضفاف النيل، بعد قليل، المسألة الاجتماعية في مصر، ويؤمن لفقراء مصر مزيداً من الخبز والفول؟ لم يتمكن كامب ديفيد من مجرد الاحتيال على فلسطين والأرض العربية المحتلة، فلم يطرح أمامنا إلا الحرب. لقد هتك هذا الطراز من التسويات. هتك الطريق إلى سلام بلا سلاح وبلا عدل وبلا فلسطين. هتك البدايات والاجتهادات واحتمالات تحييد أمريكا بلا قوة. وعرف عبيد الاستهلاك الأمريكي على أبجدية الإمبريالية. وكشف للجميع الدور التدميري الذي مارسته اللغة السياسية العربية الجديدة المتحررة من لغة التحرير، مستعيضة عنها بلغة «التسوية العادلة» فتم اختراق وجدان الأمة ليتسلل إليها بعض القنوط وعادة تعميم الشك والشبه، فكان الشارع هادئاً، والجريمة في الشارع. هل نستحق الحياة؟ هكذا يسأل المواطن العاجز عن الحركة والاعتراض، ويضيف: لماذا لا نضرب أمريكا الموجودة فينا، على الأرض وفي النفوس؟ لماذا لا نقاطع أمريكا؟ لماذا لا نسحب أحلامنا، قبل سفرائنا، من أمريكا وهي أم إسرائيل؟ كل الأسئلة مطروحة على الحرب، ولا سؤال واحد يميل إلى السلام. ومن الذي تدهشه نتائج كامب ديفيد؟ ألم تكن زيارة السادات واضحة، من قبل ومن بعد؟ وسيبقى السؤال القديم – الجديد واقفاً، كالندم، على أكثر من بلد، وعلى أكثر من قارة: من أية ثغرة يأتينا هذا الغياب الذي يجعل إرادة فرد، طائش أو خائن، قادرة على مقايضة أوطان دون أن تهتز أعمدة الهيكل؟ ومن أي خداع يقاد الضحايا إلى طريق المطار للتصفيق لقاتلهم؟ هل سألنا عن الحرية؟ نعم، لأنها شرط لخوض حرب التحرير. هل قلنا حرب التحرير؟ نعم، لأنها الخيار الوحيد. فإما أن

يتحول العرب إلى حرس للاحتلال، وإما أن يخوضوا الحرب حتى النهايـة. لقد أعلنت حرب ديفيد على من يرفض الاستسلام، وعلى من يحلم بالوطن، وعلى من يتحرر بالثورة. وعاد الثلاثة من كامب ديفيد بحلف جديد. وبوعد سينـاء وبالحرب. أما الأرض المحتلة فستبقـى محتلة، والقدس فـي الرسائل. فهل تغيـر شيء؟ بالحرب وحدها نستطيع السير إلى السـلام. وبتحرير فلسطين نجد الفارق بين الاستسلام والسـلام. والذين ما زالوا يحلمون بإمكانية إحلال السلام تحت حراب الاحتلال، محكومون بالسير إلى واشنطن.

فهـل أدركت العـرب الآن أن الطريق إلـى واشنطن تؤدي إلى تـل أبيب؟ وأن حروباً كثيرة ستندلع من جنين هذا السلام الطاحن، الـذي ولد فـي ساعة متأخرة مـن ليلة أمريكية أعـدت لتكون فجر العرب!

هـامش

... وهـا نحـن يمتـد بنا الأجـل ونـرى إلى انسحـاب مصر الاحتفالي منـا ومن المعركة، ونرى عملية سحـب مصر من ذاتها إلـى المجهول لفترة ما من الزمن. فليتـرك السلام جثة هامدة على الأرضـ والـورق، أو لفظة ضروريـة لنشر الوعي الزائـف. إن ما يحـدث هو هجوم أمريكي على رياح ستهـب. وأن ما يحدث هو انتهـاء شهر العسل بين الرجعية العربيـة ودورها في إنجاز «السلام العـادل». فلم يعد في وسـع التضامن العربي، الهـادف إلى تحرير الأوطان المحتلة، أن يتسع للذين يغذون شريان آلة القمع الأمريكية والإسرائيليـة، بعدمـا تحررت أمريـكا من المهـام المستحيلة في الاحتفاظ بصداقتها الاستثنائية للصهيونية وللقومية العربية!

لقـد انتهى الصراع العربـي – الإسرائيلي من حول أمريكا إلى النتيجـة الوحيدة الممكنة: الوصول إلى معاهدة صلح مع إسرائيل. أو إلى النتيجة الأخرى المعدلة عن الأولى: العجز عن تدمير الأسس التي نشأت عنهـا المعاهدة التي تعلن الحلـف الجديد، أو الوحيد حتـى هذه اللحظة، في هذه المنطقة الثمينة من العالم التي لا تعادل هزيمة أمريكا فيها إلا هزيمة العرب في مصر.

سيئـال الحاكم المصري من هجاء اللغـة العربية ما يعجز الإعلام الغربـي عن تعويضه. ولكن الدهشـة لا تستطيع الشفاعة للذين يقفون علـى الرصيف فـي انتظـار التوبة. فهـذا الحاكم الفرد الـذي يسرق الشرعيـة من ملايين الفقراء، والذي يمثل أحد تجليات المزاح الكريه الـذي تفرج بـه ساعة من التاريخ عـن سأمها، لا يستطيـع العودة إلى الوراء، أو إلى «حظيرة» الأمة كما يقول الوزراء المتحررون من حاسة الدلالـة. ولذلك فـإن الصبر الجميـل الذي يتحلى به عـرب أمريكا، القادرون علـى لمس «التناقض» بين واشنطن وتل - أبيب، هو بمثابة المشاركـة في وضـع سياق المعاهدة على الرغم مـن الاعتراض على بعض بنودها. وأن بحث العرب الرصين عن مدى الربح، أو الخسارة، الذي تقدمه المعاهدة الأمريكية - اليهودية - المصرية لهذا الطرف أو ذاك، أو التساؤل عـن قابليتها للتطبيق، وعن صلاحية بنودها الغامضة فـي التفاصيل والواضحة في الجوهر، لفتح باب الصراع على التفسير على غـرار قرار 242 الشهير، أو طرح عشرات مـن الأسئلة في إطار المعاهـدة المرجعي، سيكـون بمثابة غض الطرف عـن الواقع الذي لـم يخلقه التوقيع علـى المعاهدة، بـل إن هذا الواقع هـو الذي خلق المعاهدة. ولذلك فإن الخـروج العملي من منطقة المعاهدة، يتطلب أولاً محاكمـة الواقع الذي أنجبها، لكي يكون النقد الذاتي دليلاً على صدق التحرك العربي لتجنيب الأمة حتمية السادات.

فما الذي كان ينظره التضامن العربي ليتحرك؟ أليس خط السادات السياسـي، منـذ انقـلاب 15 أيار، نذيـراً بالتخلص مـن كل الكوابح الوطنيـة وإحكام تبعيـة الوطن لأمريكا. ألم يكن فـي زيارة القدس ما يشير إلـى أن خطوات السياسة المصرية، داخليـاً وخارجياً، مرسومة بدقة في اتجاه إخراج مصر من المعركة العربية ضد القلعة الصهيونية، واستبدال العدو الإسرائيلي بعدو وهمي هو الشيوعية الدولية؟

لقـد وجد السـادات في التشجيـع العربي العـام لهذا الخط الإستراتيجـي العام مـا يمنحه الشجاعـة الكافية لفضـح التطبيق العملـي والحرفـي لصيغة التسويـة الأمريكية التـي اندرج تحت صياغتهـا الكثيـرون. فهـل بقي الخـلاف كبيراً إلـى درجة تتفق مع هذه الدهشـة التي تضرب القارة العربيـة؟ صحيح أن مؤيدي السـادات ومموليـه العـرب يكابدون مـن أجل حلـف علني أو مبطن بيـن أمريـكا والرجعية العربيـة، ولكن لياقـة الإدمان على ترديـد اسم المسجـد الأقصى تحـول دون أن يجلس المسلمون واليهـود في معاهدة واحدة. فكيف ستحل هذه المعضلة؟ ليست تلـك مشكلتنا. ولكننـا نستطيع أن نـرى أن الحلف الأمريكي – المصـري – اليهـودي الذي قد يعوضـ أمريـكا وإسرائيل بعض أحزانهما الفارسية، وقد يضـع حجر الأساس لمبنى من العلاقات والتحالفـات لحماية النفط العربي من العـرب والأمن الإسرائيلي من السـلام والأمن المصري من الإسـلام، يدفع صيغة «التضامن العربـي» المفتوح بشروط هي لا شروط إلى امتحان الفضيحة في مواجهة السؤال الذي يتعرضـ للطمس: ألا يزال العرب يعتبرون إسرائيل عدوهم القومـي؟ إذا كان الجواب «نعم» فهل يستعدون لإعـداد شـروط محاربتـه والضغط المـادي عليـه لإرغامه على قبـول الحد الأدنى من شروط السـلام العربي على الأقل؟ إذا كان الجـواب «نعم»، فهل يعرفون أن الـذي يحارب إسرائيل يختلف مـع أمريكا؟ إذا كان الجـواب «نعم»، فهل يعرفون أن أمريكا هي صانعـة الحلف الإسرائيلي – المصـري؟ إذا كان الجواب «نعم» فهل هم علـى استعداد لإنزال العقوبات الممكنـة بأمريكا وليس بمصر فقط، هذا إذا افترضنا أنهم سينزلونها بمصر؟

نحن نسأله، ونتساءل لأن الحملة الأمريكية – المصرية لنشر الوعي الزائف، تقابلها حملة مضادة من الوعي الزائف أيضاً بقطع المعاهد عن جذورها الاجتماعية التي لا يشكل الوضع المصري تجليها الوحيد، وبحرمان مناقشتها من حق مناقشة الذات العربية التي مال زالت معلقة بسراب علاقة خاصة بأمريكا تحمي سياج «حظيرة» الأمة من خطر التوسع الصهيوني والفزاعة الشيوعية. ولأن هذا الوعي الزائف قد زيف تاريخية المعاهدة، وحولها إلى مسرحية على شاشة التلفزيون، جعل المواطنين في هذه الأمة مشاهدين محايدين في مباراة رياضية عنيفة، استطاع كارتر في الدقائق الأخيرة أن يسجل الهدف في مطار القاهرة.

فكم من الوقت سيمر لنعلم أن لحمنا هو الميدان، وأن إصابة كارتر التي مررها له الجناحان السادات وبيغن قد استقر عميقاً في شبكات عيوننا!

والسادات هو الخائن، وهو العدو. ولكن، هل يوافق «التضامن العربي» على أن كارتر عدو أيضاً؟ وبيغن يذكرهم بشيلوك الذي لن يتوقف عن ابتزاز ثمن باهظ للمعاهدة. ولكن، من أي نفط ومن أي مال سيدفع كارتر لبيغن؟ كيف نكون جادين في معاقبة نظام مصر إذا كنا نعطي أمريكا كل شيء، ونمطاً من الحكم يخرج الناس من السياسة ومناقشة مصائرهم ومصير أوطانهم، ويحول الدولة إلى أداة قمع للناس، فلا يكون السادات هو الفرد الوحيد الذي يتصرف بالوطن كما يتصرف إقطاعي بمزرعة. إن الثلاثين ساعة التي استغرقتها مناقشة البرلمان الإسرائيلي للمعاهدة قبل التوقيع عليها هي، بالنسبة لنمط الحكم العربي، فضيحة ودعوة ملحة لإعادة النظر في أمور البيت.

فـإذا كان إيماننا بشعب مصـر العظيم صادقـاً، وإذا كانت المعاهدة تعبيـراً عن خيانـة فرد يمثـل طفيليـات المجتمع، فكيـف أتيح لهذا الحاكـم الفرد أن يحدث هذا الانقلاب في منطقة الشرق الأوسط؟ إن الإجابة الديمقراطية عـن سؤال الحكم هي التي تضمن للوطن مصيراً لا يقـرره فرد. أما القمع السائـد وملاحقة الأفكار والأحلام، الإعدام بلا محكمة وتهمة، وتفتيت المجتمع وسيادة الطفيليات على الدولة، فإنهـا حجـر الأساس فـي المبنى الفاسـد لاتخاذ القـرار، مما يحول إسرائيل من عدو إلى ذريعة حكم في أكثر من وطن.

إن ظاهـرة السـادات، الذي سيجمع مجلسـ الشعب المصري للتصديق على المعاهدة، وسيمنع أي اعتراض عليها، ويطلق الشرطة والجيش فـي الشوارع والمصانع والبيوت، هـي دعوة ملحة لوضع مسألـة الحريـة والديمقراطية البند الأول على جـدول أعمالنا، لكي لا يكـون الملك هو الوطن ولكي لا يكون الملـك قادراً، بمثل هذه السهولة، على تحويل مسألة في خطورة الصراع العربي – الإسرائيلي، إلى صـراع إسرائيلي – عربي ضد العـرب، ولكي لا يتحول الجنود العرب إلى صيادي ثوار. فإن أسرى الدولة، أسرى المقاولين والتجار والسماسرة لا يستطيعون الدفاع عن دولة تسحقهم.

وأخطـر ما في السادات أنـه ظاهرة مألوفة، تتحـول إلى جزء من حياتنا اليوميـة، وإلى طراز متوفر، متيسر، ومنتشر كانفجارات بيـروت التي يرتفع في سمائها دخان المطـاط المحترق، الذي قد يصل جزء منه إلى الضفة الغربية، ليبلغ أهلنا هناك أنه ما زال فينا شيء يتنفسـ، وأن السادات هـو الناطق الشرعي عـن طفيليات الحكم العربي، ويا ليته يكون الناطق الوحيد.

القفص

وأخيراً، محاكمة.

سألنا: هل يحضر المتهم؟ فابتسمت قافلة المسافرين إلى دمشق. وقال ضابط على الحدود: ماذا ستفعلون به؟ قلنا: سنتلو أو نستمع إلى تلاوة لائحة الاتهام.

وكنا نتساءل في صمت: هل تأخرنا قليلاً أم كثيراً؟ لقد دق جرس الإنذار مبكراً، وكان على النيل أن يعرف أن مجرد تحول هذا الفرد – هذا النوع من الأفراد – إلى احتمال حكم، يعني أن نواطير مصر نامت عن ثعالبها. ويعني أن في العالم الثالث كله خللاً. ويعني أن المحاكمة ستشمل البناء، والمرحلة، وشروط الطاعة.

ولكن النيل لا يصب في نهر آخر. وكان واضحاً لمن اكتوى بالرمل أن إقامة الجندي في هذه الرمضاء ستحوله إلى يد فولاذية لاقتحام الماء الأزرق المغسول بالدم، ليس من أجل الوطن وحده، بل من أجل الخلاص من مقبرة الرمل. ولكن القناة على الأرض شيء، وعلى خارطة الحاكم شيء آخر، فهي ليست أكثر من خيط

رفيع من الماء يفضي إلى رمل آخر. إن مثل هؤلاء الحكام غير قادرين على التمييز بين حبة الرمل وبين التاريخ الإنساني الذي يحمله قلب فـلاح من الصعيد، لأن له طريقة خاصة في تحديد أعدائه. فأعداؤه هـم أولئك الحفاة الذين يمـرون بالقصر على مهل دون أن يسألوا: لماذا نطيع؟ وأعـداؤه هم أولئك الطلبة الذين يتدربون على صياغة السؤال: لماذا نطيع؟ أما الغزاة الذين يذلون مصر والأمة فهم أصدقاء المستقبل، هم الشهوة المكبوتة، والوعد الأمريكي الجميل.

إلـى أين تتجـه المدافع إذن؟ وأية حـرب نخوض؟ لذلك كان على الذين لم يعرفوا حقيقة انقلاب الخامس عشر من أيار أن يعرفوا أن هـذه النهاية لـم تأتي من زاوية الإنعطاف، بـل من نقطة البداية. وأن زيـارة القدس، كانت حتمية المسار دون أن تحتاج إلى ارتداء هـذا الشكل مـن الطقوس والتفاصيل. وأن الحاكـم المصري لم يعلـن الحرب على مصر من مطار اللـد عندما كان يعانق جنرالات إسرائيـل، وإنما أعلن عليها الحرب حين منـع جنود مصر العظيمة من اجتياز الرمال.

ولنا تقاليد. نحن دائماً نأتي إلى السؤال متأخرين. لذلك نسأل: هل حضـر المتهم؟ تصمت قافلة المسافريـن إلى وقت الإعلان عن المحاكمـة. ولكن رئيس وزراء الغـزو الصهيوني السابق يجيب عن السـؤال، ومصر ذاهبة إلـى ذكرى 23 يوليـو: «إن هدف السادات البعيد المدى هـو أن يضم إسرائيل إلى مجموعة دول الشرق الأوسط التـي ستتصدى للمـد السوفياتي. وإن الخطـر السوفياتي يقوم مقام الصراع العربي – الإسرائيلي في نظر المصريين. والسادات مشغول البال من التغلغل السوفياتي في البحر الأحمر وفي القارة الإفريقية».

إنه ذاهب حتى آخر الشـوط، متفائل حتى الجنون. ولا أحد يوقفـه. لا أحد يوقف هذا التدهور. ونحن نقرأ لائحة الاتهام التي يغذيهـا كل يوم بجريمـة جديدة، لأن الحاكـم العربي لا يحاكم. ألهـذا السبب يتسم الجميـع؟ ولا تكفي أصابـع اليدين لإحصاء عـدد المتهميـن؟ ولمـاذا لا يسقـط الساقـط وحـده، ولا ينهار المنهـار؟ وهل تعوض قوة القانون عجـز السياسة الذي جعل من مسـار النظام المصري انعطافاً لاتجـاه المنطقة في غياب الفاعلية الثورية المضادة؟

لـن نحزن على رجال القانـون والباحثين الذين يسهرون الليل ليبرهنوا لنا على أن الحاكم المصري قد خالف القانون.

إن كلمـة مـا يجب أن تقال، لكي لا نكـون جميعاً موتى. لا أحـد يرجو مـن الحاكم شيئاً، لا أحـد يتوقع منه غيـر المزيد من الخيانـة، ولا أحد يوقف التدهور. ولكن كلمة ما يجب أن تقال، لكي لا يكون المناخ كله فاسداً، ولكي لا يصدق مزيد من الأبرياء الذيـن يأتيهم الوعـي الوحيد من إذاعة القاهـرة أن الخبز يأتي من فرن الاستسلام.

وهذا هو حزني الوحيد: كيف تخرج قرية في الصعيد، بنقرها وقبرها، بأهلها ورملها، لتهتـف: يحيا بيغن! أية عملية بناء نفساني استطاعـت أن تضع جائعـي مصر أمام رجاء نبوي بـأن يأتيهم هذا الحاكم بصحن فول من قبر الجنـدي الإسرائيلي المجهول، الذي دفـن الأفا من بنيهم فـي رمال سيناء، وعلى امتـداد مدن السويس، فحمل إليه حاكمهم باقة ورد؟

من أجل حماية هذا الوعي تكون المحاكمة. وأخيراً محاكمة. ولا أحد يتوقع شيئاً، لأن الجميع يسألون عن الجدوى والفاعلية، وعن السبب الذي حول الرد على إخراج مصر من المعركة ومن السياسة إلى مسألة قانونية لا تغطي العجز عن بناء الجبهة المضادة، وعن إعادة الصراع العربي – الإسرائيلي إلى محور العلاقات العربية وتحديات الأمة. فمنذ الزيارة حتى الآن تفككت مقولة الصراع، وصارت أكثرية الأنظمة العربية تحارب على جبهات أخرى، وصار الاستقلال الوطني يعني التوغل في إلغاء التناقض بين حركة التحرر العربية وبين الإمبريالية من جهة، والتخلص الأحمق من علاقات الصداقة والتحالف مع القوى الثورية العالمية من جهة ثانية. واستبدل عدو الأمة الصهيوني بابتكار الخطر السوفياتي.

... فوضى في المفاهيم واللغة والتحالفات، ولم يعد التحدي الصهيوني يوحدنا. وتتم الوحدة على مستوى آخر: اقرأوا قرار الجامعة العربية ضد اليمن الديموقراطي جيداً. وراقبوا ما تحت سطح التحركات العربية، بعد أحداث أفغانستان، ملياً. واقرأوا الخطب الرسمية بقليل من سوء النية. فليس التضامن العربي مستحيلاً إذا كان محتواه الجديد ادعاء الخوف من الخطر الشيوعي الذي أصبح اسماً مستعاراً للتخلي عن المهام الحقيقية. ولا تسألوا. من هم أعداء العرب؟ فكل الأرض حررت، وعاد اللاجئون إلى أوطانهم، وعم الرخاء القارة الممتدة من البحر إلى البحر، ولم يبق في السجون معتقل سياسي واحد، ولم تعد الكوكا كولا حلماً، ولم يعد شرطي عربي واحد يشكو البرد بعدما استقر في عظم المواطن. ولا ينقص الاستقلال العربي الآن إلا مواجهة الزحف السوفياتي الأحمر!! ألهذا السبب عم الإرهاب الأسود الأرض؟

وهـل انتصر السادات إذن؟ إن مصيره مرتبـط بقابلية هذا الخداع علـى الشيوع، وبمـدى ما سيظـل الصراع العربـي – الإسرائيلي ضائعاً في عمـى الألوان السياسي. فمن سنحاكـم إذن؟ والحاكم يملـك النفط والقاضي وهيئة الادعـاء والشهود والمتفرجين. هل تمـر الجريمة بلا محاكمـة إذن؟ إن الشعـوب لا تحاكم جلاديها بقوانيـن جلاديهـا. إنها تحـرر نفسها فتكون حريتهـا هي عقوبة الجلاد. ومع ذلك، فإن محاكمة السادات باسم الآخرين، تتحول إلـى إمكانية لوقاية المناخ من التردي والتـردد. إنها لحظة الكلمة التي يجـب أن تقال، لحظة السؤال عن سبب الطاعة، لحظة حرية في زمن القمع وعلى مـرأى من العبودية. سنسمع صوتاً، سنفضح أكذوبـة، وسنعـي من جديـد أن المحكمة تشمل زمنـاً، وأن قارة بأكملها تجلس في قفص الإتهام.

وفي طريق العودة سألنا ضابطُ الحدود: ماذا فعلتم بالسادات؟

قلنا: سنحاكمه في بغداد.

قال: متى؟

قلنا: في أوائل آب، والحر شديد.

تساءل: بأية تهمة؟

أجبنا: الخيانة العظمى.

سأل: ومن سينفذ القرار؟

قلنا: مصر.

قال: وأنتم، ماذا ستفعلون؟

قلنا: سنحاول العودة إلى بيروت.

سَلام سَلام... ولا سلام

... ولا نلتفـت إلى الوراء قليلاً إلا لأنه يحاول أن يتقدم، ولأن سنة واحدة من عمر الزيـارة الشهيرة التي قام بها الحاكم المصري لنصـب الجندي الإسرائيلي المجهول، كانت كافية لإقناع الجميع بأنهـا لم تؤسس انعطافاً بقدر ما كانت محصلة انعطاف عن قواعد الحـد الأدنى من إدارة الصراع العربي مـع الشركة الصهيونية على أرض فلسطين، وتعبيراً عن فلسفة الحاكم المصري الجديد بخلق توازن قوي جديد، يتعهد فيـه الأصل العدواني بالقيام بمهمة إنقاذ الأرض العربية من سيطرة فرعه الممتد في منطقة الشرق الأوسط.

كان علـى أمريـكا، فـي اجتهـاد السـادات، أن تقـود حركة التحرر العربية فـي معركة تحرير الأوطان المحتلـة، وإقامة الدولة الفلسطينية التي تشكل البديـل التاريخي الكامل للنشاز الصهيوني العابـث في الجسد العربي. وكان عليها، في سياق هذه العملية، أن تشيـع الرخاء والرفاهية وأن تستأصل الأمية والكوليرا، وأن تستنبط الجنة في الصحراء، فيتأهب الإنسان العربي لدخول القرن الحادي والعشرين أمريكيا مؤمناً، وتنتهي معاناة جيل كانت العقلية العربية، خلالـه، انتحارية النزعة بربطها الصهيونيـة بالإمبريالية، مما ذهب

بالدم والنفط هباء، وجعلنا عرضة «للخطر الشيوعي» الرابض على سيناء والقدس والضفة الغربية والجولان وعمان.

هل كان السادات بسيطاً إلى هذا الحد؟ إن السؤال ذاته يبدو أبسط من صياغته، إذا ما جرت محاكمة مسيرة السادات على مستوى الاجتهاد، وما يحمله من احتمالات الخطأ والصواب. وتزداد المسألة تبسيطاً، إذا بقيت المسألة على المستوى ذاته، فنسأل: هل انقلبت أمريكا على ذاتها وحددت لنفسها هذه المهمة الثورية الكبرى: تحرير الشعوب وتطويرها؟ لا شك في أننا نمزح، أو نسخر. ولكن السخرية تزداد فتكاً بالنفس وبالقدس، ونحن نقرأ الواقع العربي الذي ينتظر عودة السادات من أحضان بيغن، أمام نصب الجندي الصهيوني المجهول إلى نصب الجندي العربي المجهول أو لإقامة نصب لشهداء دير ياسين المعروفين!

إنه ينتمي إلى وعي آخر، إلى عالم آخر، وإلى لغة أخرى، ولكن الواقع العربي يقف في محطة انتظار أخرى، لعل السادات يعود من الساعات الأخيرة في الإسماعيلية بعد نشوب خلاف مفاجئ، شخصي أو قومي، مع بيغن. ولا يعود. ولا يذهب المتفرجون إلى الرصيف المعاكس. ففي محطة إنتظار ثالثة، كان الواقع العربي ينتظر عودة السادات من اللحظات الأخيرة في كامب ديفيد. وحين نكث بالوعد ولم يعد، أخذ ملوك النفط والصمت المبادرة، وتوجهوا إلى القاهرة لشراء احتمالات وطن في السادات. لا شيء، والآن ماذا ينتظر الواقع العربي ليطور الحد الأدنى من الرد على الحد الأقصى من الصد؟ ألعل الدقائق الأخيرة في بلير هاوس تعيد إلينا السادات، وهو الذي يعلن كل يوم، كمذيع ثرثار في راديو

الجيران، إنه قطع أكثر من تسعين في المائة من طريق الصلح مع إسرائيل، ووصل إلى نقطة اللاعودة؟

إنه يقف، أو يريد أن يوقفنا، أمام أكداس من التفاصيل. الربط... الربط. مرة ربط الضفة الغربية وقطاع غزة بالمعاهدة. ومرة ربط غزة وحدها. وفي كل أنواع الربط التي تفترض غياب الإرادة الفلسطينية، لا معنى للربط إلا محاولة ربط الجميع بعربة المعاهدة، لكي لا يكون الاستسلام جزئياً. ولكي تكون هزيمة حاكم واحد تعبيراً عن هزيمة أمة.

إن كل هذه المباراة الدائرة في واشنطن لا تغير طبيعة ما يجري، واتجاه المسار الذي توغلت فيه السياسة المصرية في تحولها إلى أداة في الإستراتيجية الأمريكية. هل بقيت هنالك حاجة للبرهنة على أن عودة سيناء لا تجري ضمن عملية السلام الذي لا يستطيع الاحتفاظ بماهيته إلا إذا تأسس على الشرط الفلسطيني؟ لأن أية عملية لصياغة السلام في الشرق الأوسط ستحمل طبيعة نفي السلام إذا لم يتح لمحور الصراع على هذه الأرض إمكانية التعبير عن شروطه.

وأكثر من ذلك، إن سيناء لا تعود أيضاً ضمن عملية التسوية السياسية التي من شروطها أن تعكس توازن القوى بين أطراف الصراع العربي - الإسرائيلي، لأن حجم الهزيمة السياسية والحضارية الذي يتقدم به السادات، مفاوضاً، أكبر بكثير من وقائع القوى على أرض الصراع، هذه الوقائع التي تتيح للعرب حداً أدنى من تحقيق مطالبهم: الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي العربية المحتلة عام 1967، وإقامة دولة فلسطينية مستقلة.

مـا حدث طيلة عام كامل من عمـر الزيارة المعبرة عن محصلة انعطاف في الدور المصري في إدارة الصراع يتجاوز، إذن، شروط السلام الكامل، وفي مقدمتهـا مفهوم السلام الفلسطيني، ويتجاوز أيضـاً شروط التسويـة السياسية، ليضع السياسـة المصرية في صف التصدي لمقومات الحيـاة العربية. إن الإسرائيليـن، أنفسهم، أقل اندفاعـاً مـن السادات نحـو التفاؤل، فـإذا تجاوزنا مظاهـر البكاء اليهودي التقليدي، والذكريات الحقيرة التي أقاموها مع مستوطنات سينـاء. لأدركنا أنهـم لا يعتبرون ما يجري عمليـة لإحلال السلام. إنهـم يسمونه سلاماً جزئياً مع مصر. «هآرتس» مثلاً: «لقد تم شراء السـلام المصـري الإسرائيلي بالإنسحـاب من سيناء ممـا يتيح لنا إمكانية توطيد سيطرتنا على الضفة الغربية وقطاع غزة. لقد حققت الصهيونية الدولـة بالتوسع. والسلام مع مصـر يوطد هذا الانجاز. وعلينا أن نعترف بأن السلام الجزئي ليس سلاماً حقيقياً».

لا يخفي أحد مـن المسؤولين أو المراقبيـن الإسرائيليين طبيعة هذه العلاقات الخاصة مع مصر. إنها إخراج مصر من معادلة القوى العربية، مما يمكن إسرائيل من إحكام السيطرة والثبات في الأراضي العربيـة المحتلـة. وإن الاختـلاف فـي صفوفهـم هو حـول مدى استعدادهـم لمساعـدة السادات علـى تزيين الحـل المنفرد بروابط توحـي للآخرين بوجود حل شامل، يشمـل الموضوع الفلسطيني، ممـا يخفف الضغط العربـي على مصر. إن البعضـ الإسرائيلي يريد إنقـاذ السادات (وربما أمريكا) من الحرج العربي. وبعضهم يريد أن يسمـي الأشياء بأسمائها الحقيقة ويطمس كمائن الإغراء الأمريكية التـي تدعو العرب للسير في طريق كامـب ديفيد لضمان انسحابات إسرائيليـة، لا تريدها إسرائيل. ولا يكف رئيس الحكومة الإسرائيلية

عـن التعبير عن «نوبة الأبـد» التي أصابته رداً علـى حاجة مصر إلى الربـط وإعطاء العلاقة الثنائية صفة الشموليـة. «الجيش الإسرائيلي، استنـاداً إلـى كامب ديفيـد، سيبقى فـي الضفة الغربيـة وقطاع غزة إلـى الأبد». و«لن تتخلى إسرائيل عـن القدس، وهي عاصمتها التي توحدت إلى الأبد». و«سنواصل الاستيطان اليهودي إلى الأبد».

لـم يشفق بيغن على نائب السادات الذي يلهث وراء أي رابط يربط أي شيء بشيء آخر، والذي قال في حديث خاص مع صحيفة «يديعوت احرونوت» الإسرائيلية معاتباً: «إننا نتعثر بقضايا صغيرة. ما هـو وجه الخطر فـي بضع رجـال شرطة وبضعة رجـال مراقبة حـدود؟ لا نريـد أن تكون لنـا سيادة في غزة. ولكـن، هل مكتب اتصالات مصري سيفسد الأمر كله؟ مم تخافون؟ إن وجودنا هناك في غزة سيساعـد في المحافظة على النظام فـي مواجهة منظمات الفدائيين والإرهابيين والمظاهرات».

أسوأ من ذلك، إن الواقع العربي ما زال يقدم تعابير على انتظار عودة السادات المحروم من «شرف» قمع المظاهرات الفلسطينية في غزة، والعاجز عن ممارسة حقه الإنساني في إخراج خيانته بزي حسـن. فالإسرائيليون الساديـون التدميريون لا يريـدون، على ما يبدو، إغراء العرب بإمكانيات كامب ديفيد منقح، لأنهم لا يريدون سلامـاً لا مع مصر ولا مع العـرب. إنهم يطالبون السادات بالتوقيع على سحـق مصر ليتسنى لهـم تحسين شروط حروبهـم الشرقية. ومن الجائز أن يكون الاضطهاد الإسرائيلي للسادات موجهاً لقمع احتمـالات انتظار عربي بتصحيـح بعض البنود فـي كتاب كامب ديفيد بحيث تتسع لمخاطر التجربة. فمتى ينتهي الإنتظار؟

موجة في النيل

يوم عادي في حياة القاهرة...

يصحو الخبز قبل الناس ويفلت، ليبدأ السباقُ اليومي في معركة الحياة البسيطة. كأن الرغيف وُلد قبل الإنسان.

وفي التـواءات المـوّال الذي ينام متأخراً ويصحو قبل الجميع، تحاسـب مصرُ أقدارها. وتكون الشمس قـد طلعت دفعة واحدة. تلتـفُ الأرضُ بالجسد، فلا تعرف كيف يبدأ العناق وكيف يتحوَّل إلى عراك.

يوم عادي في حياة القاهرة...

إنه اليوم العادي الذي لا يتغيّر إلى درجة لا تعرف منها، وأنت تنظر إلى أبد الأيام، هذا النيل، إن كان يقف أم يسير. وعندما تتسلَّل الريـح الهادئة من مكان ما في القلب، لتفتـح موجة أو تجاعيد في هذا الجسد المائي المصقول، فإنك لا تعرف إلى أية جهة يسير هذا الجسد من الأزل إلى الأبد.

إنه اليوم العادي الذي لا يغيّر ضجرَهُ غيرُ هذا الشجر الذي ينام أخضر، ثم يصحو حاملاً قبعة حمراء من الأزهار الاستوائية. تسأل أحد المارة، ما اسم هذه الشجرة؟ فيجيبك بازدراء: إنه شجر...

وهو اليوم العادي الذي يتأهب لتحويل وُجهة الأيام كُلّها، عندما تتكوم الأيام على الأيام وتختنق من الصبر الطويل، فتخرج الوجوه من الجدران والأزقة وتتحول المدينة إلى بحر. إذا كان النهر لا يفيض هذا العام، فإن الناس هي التي تفيض. ولا تكون انحناءة السجود التقليدية إلا شكلاً لقوس توتّر... توتّر كثيراً وانطلق.

هكذا هي مصر. تحبس، تنحبس ثم تنبجس بلا طقوس. لم تعد تفتدي النهر بالعرائس، بل تقبض على الفراعنة الجدد، كما تقبض على الحشرات، وتقذف بهم إلى سلّة المهملات...

إنه يوم عادي في حياة القاهرة، يومٌ لا يُلهم حتى بنكتة، يوم مُعَدٌّ للنسيان ولو كان طوله عشر سنوات حدَّده خداع البَصَر...

هكذا هي المدينة العملاقة، مدينة النيل والمآذن والقباب والناس التي تتشابه أسماؤها كما تشبه الشمس ذاتها. هكذا هي القاهرة في لعبة خداع البصر مع كافور وبيغن وسائر سلالة الضآلة يظنونها مفتوحة بلا أسوار. ولا أحد منهم يعرف... لا أحد... كيف تنصب شراكها البيضاء، وكيف تحوّل خيوط الضوء إلى سلاسل، وخيمة الليل إلى قفص...

مصر!

واصلي يومك العادي الذي يبدو لنا طويلاً ولكنه أقصر من موّال فلاّحة!

لك الزمن، ونحن أسرى اللحظة

مصر!

ماذا يعنيك من أحزاننا السريعة

مصر!

إن صوتنا لا يصل، وصمتنا أيضاً لا يصل...

* * *

وهو يوم عادي من حياة القاهرة...

– هل حدث هذا من قبل؟

● لا. لم يحدث في تاريخ مصر الحديث ولا القديم.

– ولماذا لا تخرجين إلى الشرفات لتشهدي الهزة الأرضية؟

لا تخرج. لأنها لا تصدِّق أن شيئاً ما قد حدث.

إنه يوم عادي... عادي في حياة القاهرة:

الساعة الحادية عشرَة إلا ربعاً...

صباح الإثنين 18 شباط (فبراير) عام 1980...

– ألم تشاهدي شيئاً؟

● لا. هل مشى النخيل؟

– لا.

● هل تغيَّر القلب؟

– لا...

● إذن، مـاذا حدث، لمـاذا تدعوني إلى البـكاء وقد شرقت دموعي وع أطفالي الذين ينتظرون الخبز الهارب.

«لأن الوطن في خطر»؟

● ومـا هـو الوطن... ومـا هو الخطـر؟ هـل كان لي وطن ليتهددني خطر؟

– أين كانوا يموتون إذن!

● في البيت، قرب الترعة، فـي ازدحام الباص، في السجن، في البلهارسيا، وفي مخافر الشرطة.

– وعلى حدود الوطن... في سيناء مثلاً؟

● كان فائض الموت يُستثمر في سيناء.

– سيدتي! هل أنت عربية؟

● هذا سؤال لا يُسأل. ولكنك لم تقل لي: ما هو الوطن؟ هل تعني المزرعة أم الشركة أم المقاولين؟

– أعني الأرض، والكرامة الإنسانية، والحقوق.

● لا. ليس لي وطن...

– ألا يعنيك ما يحدث في شارع محيي الدين أبو العز؟

● أين هذا الشارع؟

– في الدقي.

● آه... الدقـي... حي الخواجـات... تلك ليست، بلادي لأني لا أعرفها... تلك بلاد الرئيس.

– أليس هو رئيسك. ألم تنتخبيه؟

● جاء رجال المباحث. أعطوني ورقة وقالوا أدخليها في الصندوق، ففعلت.

– وصار رئيساً للجمهورية.

● من هو؟

– شخص اسمه السادات.

● ماذا يشتغل هذا الشخص؟

– يشتغل رئيساً للجمهورية.

● وأنا مالي وماله. من فضلك أنت تؤخرني عن شغلي.

– ماذا تشتغلين؟

– في تنظيف البيوت. راتبي الشهري 5 جنيهات وأولادي عشرة...

* * *

يوم عادي في حياة القاهرة...
18 شباط (فبراير) 1980.
الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً من صباح الاثنين.

يدخل بعض العمال شارع محيي الدين أبو العز في حي الدقي. يصلون إلى أحد البيوت. يقفون. يثبتون لوحة برونزية تحمل اسم «سفارة إسرائيل» باللغات الثلاث حسب الترتيب: العبرية، العربية، الانجليزية. ويعودون إلى مطاردة الخبز في مكان آخر.

يخرج رجل إسرائيلي اسمه يوسف هداس من شرفة البناية برفقة زوجتـه. يحرّك حبلاً مربوطاً بسارية، فيرى كيف يطلّ علم إسرائيل ذو اللونيـن الأزرق والأبيض على سماء القاهرة. يصفق حوالي مائة شخص من السياح اليهود القادمين من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسـا وبعض أفراد الجالية اليهودية في مصر. يصفقون ويشعرون بأنهم شهود على حدث تاريخي... على عملية استرخاء الصهيونية، في أمان، على الجسد العربي.

يطـلّ بعض جيـران البناية مـن شرفاتهم علـى الضجيج ولا يعبـرون عن شيء. رجـال الشرطة والمباحث يمـلأون الشارع. سـت عربـات نقـل محمّلـة بالجنود وقفـت في أحـد الشوارع الجانبية لحراسة الطريقة التي تغتصب بها مصر، دون أن يلاحظوا أن المغتصبة لم تكن هناك. كانت في الشارع الموازي على ضفة النيل، كانـت في غرفة السـادات وحده. الإسرائيليـون ينشدون نشيد «هتكڤا» (الأمل):

«لا يخيب أملنا

في أن نكون شعباً حراً في بلادنا

بلاد صهيون

أورشليم».

تُسمـع صرخـات احتجاج تطلقهـا فتيات عربيـات من بناية الطالبات المجاورة، يندفع رجال الشرطة ويعتقلون الاحتجاج.

تصرخ فتاة: إنه يوم أسود يا أبي...

يمـرُّ عامل مصـري مصادفة في الشارع. يشاهـد علماً غريباً. يسـأل: أي علم هذا؟ يقولون: علـم إسرائيل. يقول: هذا لا يجلب السـلام... هـذا لا علاقة له بالحمـام... هذا غراب فـي المدينة. ويذهب لمطاردة الخبز من طريق آخر.

يقف الرجـل الإسرائيلي ويعلن أنه يتطلع إلـى أن يرفرف علم نجمة داود في العواصم العربية الأخرى.

يمشـي الصـوت. يكبـر الصـدى. يخدشـ حياءنـا. فنهزمه بالصمت!

يواصـل الرجـل الإسرائيلـي خطابـه المكتوب بلغـة عربية، سليمة، ليوحي لنا بـأن «الضاد» أيضاً تحمل المعنى الصهيوني ولا تشـكّل مناعة كافية: «إننا نأمل فـي التغلب على العقبات في طريق السلام الشامـل، لأنه لا يمكن لأحد أن يتجاهل ما يحدث اليوم». مـاذا يحدث اليوم يا يوسف هداسـ؟ يقول: «مجرد خطوة واحدة في طريق السلام بين إسرائيل وكافة الدول العربية».

يرتفـع الصوت. يكبـر الصدى. يدق جرسـ الإنذار. يخدش حياءنا، فنحتقره بالصمت...

ولكن مـدن الضفة الغربية تواصل يومهـا العادي... تتظاهر. تعلن الإضـراب. تقاوم الاحتلال. يترك الطلبـة دفاترهم ويذهبون إلـى الدرس الحقيقـي: حرب الحجارة. ويواصـل الاحتلال يومه العادي: يغلق أبواب غـزة. يعتقل. يعذّب، يشوه الأجساد. يفرض الإقامة الجبرية على رؤساء البلديات.

يمــرُّ مواطن مصري مصادفة في شــارع محيي الدين أبو العز يســأل: ما هذا؟ يقولـون: سفارة إسرائيل في القاهــرة. يقول: إنه يوم حزين يضاف إلى أيامنــا الحزينة. ويمضي لمطاردة الخبز في مكان آخر...

يواصــل الرجــل الإسرائيلي خطابــه: «منذ هــذه اللحظة صار لإسرائيل بيت في القاهرة. وفي غضون أيام قليلة سيصبح لمصر بيت في إسرائيل». ولكن السادات يقول إنه لا يعترف بأن القدس عاصمة إسرائيل، لذلك سيذهــب سفيره «الذي لا يشعر بالحرج» كما قال، إلى القدس ليسلّم أوراق اعتماده لرئيس الدولة الصهيونية المقيم في القدس! ولكن السادات قال: إنه لا يعترف بالقدس عاصمة!

* * *

يـوم عادي في القاهرة وفي الوطن الكبيـر. البيت الإسرائيلي هنــاك لا يدهشـ. الصلح المنفـرد يُعالج بالصلح الشامـل، يُعدَّل: يُنَقَّح ويعود الخائن إلى بيت الطاعة الذي يتّسع للجميع. لم لا تقود إسرائيل هذه الحملة الإيديولوجية إذن؟ لا يشعر الكثيرون بالحرج حين يذكرهـم السادات بأنهم يتبعون خطاه العملية ويعترضون على طريقتــه السينمائية، فالسؤال يضيق ويحاصر ليصبح: « أيّ الحرس أجدى لأمريكا!

وفــي إحــدى استراحاتــه الكثيــرة يدلــي الســادات بتصريح للتلفزيـون الايطالي: «اعتقــد أن الصراع العربــي – الإسرائيلي لم يعــد هو القضية الكبــرى، بل إن السؤال هو: ومــاذا عن تحركات السوفيــات! من هو القادر على أن يبعد عنــه هذه الكأس؟ ومن هو

القادر على النجاة مما يصيب الجسد الكبير من انهيارات؟

ينتهي الاحتفال يبدأ الصمت الطويل.

ينتهي اليوم العادي، وتذهب مصر لتهيئ مفاجأتها، لتبدع اليوم الكبير الذي يبدأ بمليون علم فلسطيني في القاهرة...

تخرج «إلكترا» المصرية من سجنها لتصرخ في وجه الحاكم القاتل:

«أتظن أنني من ذلك النوع الذي يمكن أن يقال له: إذا كذبت وتركت غيرك يكذب ستظفر بوطن سعيد؟ وإذا أخفيت الجرائم فإن وطنك سينتصر؟ ما هو هذا الوطن المسكين الذي تدسُّونه. بغتة بيننا وبين الحقيقة؟».

سيقول لها الحاكم القاتل: «إن الوطن في خطر».

ستقول إلكترا المصرية: «نحن نختلف في معنى الخطر»، فما هو خطر عليك هو خلاص الشعب.

سيحدث الانفصال الأخير بين الشعب والحكم...

وتطلق إلكترا العربية صرختها الكاملة:

«ليس لأحد الحق في إنقاذ الوطن إلا بيدين طاهرتين».

هزيمة الإنتصار



لا ننظر إلى الوراء لنرى الليل الذي ساقونا اليه، يوم كنا صغاراً ووحيدين، ويوم انتصب لاستقبالنا نصف مليون خيمة مطرزة باللغة الفصحى وأناشيد السيوف والرماح. كانت السلطات الكريمة التي فتحت لنا المنافي على رحبها، باعتبارها بيوتنا المشتركة، هي التي أمنـت لنا الإقامة السعيدة على حافة الوطن وعلى حافة الأمة. وهي التـي أحكمـت سياج البنـادق المصوبة على خطانـا التي حاولت التحـرك فـي اتجاه العـودة أو في اتجـاه العروبـة. كان كل واحد منـا يسأل: هل أنـا العربي وحدي؟ أو يتساءل: هـل أنا الفلسطيني وحدي؟ وفـي السجون الإسرائيلية كنا نعلم كـم صرنا عرباً. وفي السجـون العربيـة كم صرنـا فلسطينيين. ولم نكن هنـا، أو هناك. نحمل عبء الأرض وحدها، كنا نحمل عبء الاسم.

وبعـد ثلاثين عاماً مـن جدل الحضور والغيـاب الذي يسجل فيه الحضور الفلسطينـي لغته الحاسمة، على حساب استقرار اللغة الصهيونيـة في غياهـب الماضي، تحـاول الرجعيـة العربية، ذات الصفات المملوكيـة، العودة بنا إلى الأسئلة الأولى وإلى الذكريات الأولى: استبدال الصراع العربي– الإسرائيلي بنقاط خلاف تنصب

فيها الإمبريالية حكماً. وتغييب الأمة عن ساحة الصراع. واستبدال الأمن القومي، أو حتى الوطني، بالأمن الاجتماعي الذي يعني في ظروف أغلبية الكيانات العربية مزيداً من قمع الكادحين لتأمين تضخم الطفيليات، وحرمان المواطن من التساؤل عن مستقبل الرغيف وعن مصير الوطن.

إن أشياء كثيرة تنتهي.

وإن شيئاً ما جديداً... سيبدأ.

ومن لا يذكر الخامس عشر من أيار، سيستقبل الخامس من حزيران غداً. ومن لا يذكره سيواجهه، بعد حين، كارثة التفريط بنتائج السادس من تشرين. والسنة العربية الرسمية مليئة بمزيد من الإنقلابات على التاريخ وعلى الذات، وبآيات لا تنتهي على المهارة الفائقة في جعل الهزيمة هدفاً سهل المنال، وفي تقديم الشروط الدائمة لانتصار الهزيمة.

هكذا يتبخر التضامن العربي. وهكذا تأتي الذكرى الثلاثون للخامس عشر من أيار ليجد المصير الفلسطيني نفسه محاصراً بمهمات الدفاع عن النفس أمام الهجوم المضاد الذي تشنه الرجعية على القوى الثورية والديموقراطية العربية، مستبدلة مهام تحرير الأرض العربية المحتلة، بتطهير أرض العرب وإفريقيا من فكرة الثورة ومن فكرة الديموقراطية ومن محاولات التحول الاجتماعي، لنشهد على ميلاد طراز فريد من الفاشية العربية، المحمية بالطائرات الأمريكية.

ويجد المصير الفلسطيني نفسه، من ناحية أخرى، يواصل صراعه التاريخي مع العدو الصهيوني محروماً من مساندة عناصر التأييد العربية المعرضة للملاحقة والتفتيت. وهكذا يتبخر التضامن العربي من حول فلسطين ليتحول البحث عن صياغة تضامن القوى الوطنية والديموقراطية إلى شرط حياة لفلسطين وللديموقراطية، لكي يتمكن الحضور الفلسطيني المنجز على مستوى جدل الحضور والغياب الدموي مع العدو الصهيوني إلى حضور ثابت وغير قابل للخلخلة على مستوى العلاقات العربية.

لقد تجاوزت الثورة الفلسطينية مراحل الخطر في صراعها مع العدو الصهيوني. وأكثر من ذلك: إن هذا الصراع الذي يخوضه الشعب الفلسطيني بشجاعة وعطاء نادرين هو الذي جعل الشخصية الفلسطينية الجديدة شرط السلام أو الحرب في هذه المنطقة الحيوية من العالم، وهو الذي جعل محاولات الفصل بين القضية والشعب والثورة مستحيل الإدراك. ومع ذلك، فإن المفارقات تطل بألسنة ساخرة: هل تستطيع الرجعية العربية، باجتياحها الصحراوي المملوكي الفاشي، في محاولة الاستيلاء على رياح الشرق، أن تنجز مهمة تغييب فلسطين الثورة - لا فلسطين المسجد الأقصى - عن حلبة الصراع المفتوح، أو هل تستطيع أن تلجم الصراع، وتصون الأمن الصهيوني الذي صارت عملية الانقضاض عليه انقضاضاً على أمن الرجعية بما تخلق هذه العملية من تغيير في التوازنات والموازين ومن فتك بأمن الطبقات الحاكمة؟

إن الصراع المفتوح على المستوى الوطني وعلى المستوى الاجتماعي، وبعد مسيرة ثلاثين عاماً من التغير العميق، غير خاضع

لرغبـة أمير أو ملك جديد عجز عن حـل أية قضية من قضايا الوطن وقضايـا الحكم. وإذا كانت الحركة الصهيونية قد عجزت عن وأد الفلسطيني والفكرة الفلسطينية في المهد، فلن يتمكن من تشبه بها أن يعود بالحضور الفلسطيني وبحركات الجماهير العربية الواسعة الملتفة حول المسألة الديموقراطية والفكرة الفلسطينية إلى الوراء.

أرادوا أن يكون الفلسطيني غائبـاً عن أرض فلسطين، ليتأسس المشروع الصهيوني في مناخ الشرعية. وغائباً عن ناموس العلاقات العربيـة لكي لا يسرق حقـاً أو لكي لا يذوب ولا تذوب القضية فلا يجد الانقلابيـون افتتاحية للخطاب. وغائباً عـن الحرب الرسمية، لكي لا ينال جدارة أو نتيجة. وغائباً عن السلم لكي لا يضع شروطه.

ولكن الحاضر يحضر والغائب يغيب.

وإن أشياء كثيرة تنتهي.

وإن شيئاً ما جديداً يبدأ.

وسيظـل المشـروع الصهيوني هـو العدو الرئيسـي للشعب الفلسطينـي وللأمة. وإن قراءة ما فشـل هذا المشروع عن تحقيقه فـي مهمة تصفية نقيضه التاريخـي المباشر تشكل حجر الزاوية في مراقبـة الأزمات وآفاق تخطيها، على الرغم مـن أننا لن نجد القوة الأساسيـة التي يتحلـى بها هذا العـدو في مقوماتـه الذاتية ولا في مصـادره الإمبريالية، بقدر ما نجدها فـي ضعف الكثير من عناصر الجبهة المرشحة لمحاربته وهي الجبهة العربية.

هـل نجـح المشـروع الصهيوني؟ سـؤال صعب، يـرد عليه الصـراع المفتوح للاحتمـالات والحسابات التـي ترجح – على

المستوى النظري - حتمية انتصار الأمة العربية التي تمتلك شروط النهوض والتطور والتحرر، بينما تعج الظاهرة الصهيونية بكل عوامل الانكماش والتحجر، إذا نظرنا إلى الصراع من منظور صراع الأمة العربية مع الإمبريالية. ولكن التفاعل المتبادل بين المشروع الصهيوني والرجعية العربية والذي يتمثل بمد أحدها الآخر بالحياة يصرف الإجابة عن السؤال إلى جدلية الصراع في الداخل العربي دون أن يحرمها من استيعاب قدرة العامل الخارجي من التأثير في هذه الجدلية. وسيكون من التبسيط أن تعفى العلاقة الصهيونية - الرجعية العربية من عوامل التناقض في المصالح، وإن كان هذا التناقض لا يفتك بالإستنتاج القائل إن طول عمر المشروع الصهيوني رهن بانتصار الرجعية العربية، وأن طول أمد الرجعية رهن بقدرة المشروع الصهيوني على الانتصار.

هل نجح المشروع الصهيوني؟ سؤال صعب أيضاً تجيب عليه - على المستوى العملي - حرب الثلاثين سنة التي لم تقدم للعرب إمكانيات تحقيق وحدتهم التي يقتضيها الإحساس بالخطر المشترك وبالمصلحة المشتركة، وانتهت في العقد الرابع للصراع بإنقلاب خطير في الإستراتيجية تحول فيه الأصدقاء الحقيقيون إلى أعداء، وتحول فيه الأعداء إلى منقذين، وصار العجز عن إدارة الصراع بعقلية جديدة صفة الأيام العربية الراهنة.

ولكن حرب الثلاثين سنة لم تقدم - على المستوى الإسرائيلي - حل مشكلة العمر اليهودي الضائع. لم يتمكن اليهود من التحول إلى سكان شرعيين في المنطقة. ولم يتمكنوا من صياغة حياتهم الطبيعية. ولم يتمكنوا من تحقيق سلام مع أحد. ولم يحققوا استقلالهم المستحيل. كان عيدهم الثلاثون أمس شراً من جنازة،

فلم يعد أحـد منهم قادراً على القول إن فلسطين لا وجود لها. وإن الفلسطينيين مـن هم؟ لا نعرف أحداً بهذا الاسم. كما كانت تقول رئيسـة وزرائهـم السابقة. علـى العكس من ذلـك، كانت حربهم الخامسة – عشية عيدهم الثلاثين – مع هذا الشبح الفلسطيني الذي حـارب أحـدث طائراتهم ودباباتهـم لمدة ثمانية أيـام في جنوب لبنـان، دون أن يتمكنـوا من خدش حضوره الساطـع في يومياتهم وفي مستقبلهم الذي يدفعه هذا الحضور إلى الغياب.

إن المنطـق الإسرائيلـي هـو الذي يلغـي الوجـود الإسرائيلي باشتراطـه حضوره بغياب الفلسطينيين. لقد حضر الفلسطينيون ولم تكـن الطائفة اليهودية تحارب الصحراء والأشباح. لقد حشد الفكر الصهيونـي نفسه بمقولات خلاء أرض فلسطين من السكان. ونجح المستوطنـون اليهود في إخلاء مناطق واسعـة من أرض فلسطين من السكان. كانت دير ياسين وكفر قاسم شرط حياة الكيان الصهيوني، كمـا كانت مذابح النازية الشرط ذاته – كيـف يصير اليهودي نازياً، تماماً كما يصير العربي صهيونياً – ولكن لإنجاز المشروع الصهيوني والقيـام بدوره الذاتي ودوره الصليبـي شروطاً أخرى هي المزيد من الأرض. لم تكن الأرض خالية، فلم يتمكن الفكر الصهيوني والواقع الإسرائيلي من التعامل مع الفلسطينيين على أساس أنهم غائبون. لقد استحضرهم التوسع في الوعي وفي الصراع.

لا. ليـس صحيحـاً القـول إن المشروع الصهيونـي قد خلق نقيضـه الفلسطيني، فـإن هذا النقيض موجود قبـل المشروع وهو الـذي يعرقل صيـرورة المشروع إلى ثبات، وهـو الذي يستقطب اللحظة الثورية العربية، ويغذي الأمة بنبض المواجهة.

هل نجح المشروع الصهيوني إذن؟ على المستوى الإسرائيلي الذاتي، لم يكن تاريخ المشروع تاريخ بناء دولة، إطاراً لتطور شعب يمارس حريته وحياته وإبداعه الحضاري. إنهم مشغولون بعرقلة حياتنا، فلا يستطيعون تطوير حياتهم. مشغولون ببناء هيكل الخوف النفسي والجسدي وعاء وحيداً لتوحيدهم. لقد كان تاريخ المشروع ولا يزال تاريخ بناء جيش. إسبارطة جديدة لا قيمة للإنسان فيها إلا قيمة الاعتداء. وخارج هذه الصيرورة لم تفعل الطائفة شيئاً ذا شأن غير بعث اللغة. وهكذا كان «تحررها» نضالاً قاسياً لاختيار العبودية. فيبقى السؤال عن النجاح أو الفشل محكوماً بمعايير الآخرين. أما في شروط الغزو فيبقى السؤال متأرجحاً على موازين القوى.

وخارج هذا الشرط يرد السؤال الصعب: هل «تحررت» الطائفة اليهودية على أشلاء فلسطين التي لم تعد أشلاء؟ قد يقولون إنهم تحرروا من المنفى، فأي وطن هذا الذي لا يشبه ميدان قتال آخر. لقد جمعوا «منافيهم» في منفى واحد مسدود النوافذ على الجهات كلها إلا جهة الانتحار. وقبل ذلك وبعده، هل يصلح مثل هذه الأسئلة للطرح على الصهيونية خارج عناصرها العدوانية والتدميرية؟ لا. فأي كيان هذا الذي تجري محاكمته ضمن منظور عادي وخارج ساحة الصراع! وأي مستقبل - حل يصوغه هذا الجندي المدرب في حرب بلغت ثلاثين عاماً ولم تتوقف؟ ليست الحرب هدفاً إلا للمنتحرين.

ويأتي الحضور الفلسطيني النقيض الذي كان غيابه شرط حياة الكيان الصهيوني ليحول الأسئلة إلى مصير. لا يأتي الفلسطيني من

الصفـر ومن الليل السري والبحر الغامض. إنه يأتي من أرض إقامته ومـن الحق ومـن نهوض الأمة الكبيـرة ومن مستقبلهـا. إن تطور الشخصيـة الفلسطينيـة النقيض لتحالف الماضـي هو الذي يحدد وجهـة المستقبل، علـى الرغم من امتـلاء اللحظة العربيـة الراهنة بمظاهر العـودة إلى الماضي. لقد انقسم العـرب لأنهم منقسمون منـذ البداية إلى قوى متعارضة فـي المصالح الاجتماعية والوطنية. وقـد آن الأوان لأن يوقى الرجاء العربي من إغراء الكم واحتمالات الضغط على الإمبريالية بالثروة التي هي ليست لنا، فها هي تعلن عن وجههـا وتبذل كل شيء من أجـل أن تعطى دوراً أمريكياً أفضل في مكافحة الثورة. ومن أجل أن تنجز «التسوية الاجتماعية» الداخلية شرطاً لإقامة علاقات طبيعية مع العدو.

ونحـن لا ننظر إلى الوراء لنرى الليل السابق، والحصار الراهن، بـل لنـرى التطور المذهـل الـذي حققته مسيـرة تبلـور الشخصية الفلسطينيـة المقاتلة على كل جبهات الصراع، ولنرى المأزق الذي يضـع الحضور الفلسطيني عدوه التاريخـي فيه، حيث يجعله عاجزاً عـن توظيف انتصاراتـه العسكرية، ويعطي للنصـر الصهيوني صفته الحقيقيـة «هزيمة الانتصار». ونحن، لا ننظـر إلى الوراء لنرى الليل الـذي ساقتنا إليه الصهيونية والرجعية، يوم كنا صغاراً ووحيدين، بل لنرى نقطـة الضوء المتناسلة في المدى العربـي الواسع، ولندرك أن المأزق الذي يسم الوقت العربي الراهن بالعجز، ليس مأزق الجماهير والأمة، بل هو مأزق الحكام الذين انتصرت عليهم الهزيمة.

إن أشياء كثيرة تنتهي.

وإن أشياء كثيرة تبدأ.

ربيع الدكتاتور
خريف الغضب

كان لا بُدَّ للدكتاتور مـن السقوط عن المنصة، على مرأى من جنـوده، وعلى شاشـة التلفزيون التي يعبدهـا، ليتمكّن الكاتب من وضع الفصل الأخير من كتاب العمر: «خريف الغضب».

لم يَسْلَم أحد منا، نحن أبناء الجيل الذي رأى عكس كل شيء، من انهيار ما في المعنى وفي الروح، ومن صَدْمِة ولادةٍ ما نحتاجها في خطوة مجهولة على طريق واضح.

نتخبَّـطُ في الحلم وفي الأنقاض. نُبَدِّل الآلهة التي نحتاج إليها لتتـوازن. نَضَعُ الكرة الأرضيـة أمامنا في الزنزانـة. نُثْقِبُ ما يُثْقَبُ لننفـذَ إلى سؤال الوجود الكبير، الذي يحدِّده سؤالُ البيت الصغير، سؤال السؤال: لماذا نقفُ في تاريخنا، خارج التاريخ؟

وبين الكاتـب والدكتاتور - من هو هـذا، ومن هو ذاك؟ لأن لكليهمـا آخرَهُ، وفيه أيضاً حالـه - توتُّرُ العلاقة التي لا ترسو إلا في انتحار الآخر، وفي سقوطه وهو في ربيع البطش.

سَـمِّ الدكتاتـور مـا شئت فهـو حالُ شهـوة أو رغبـة مكبوتة

ومتفجـرة معـاً، لا تثير فينا مـن تعبير الغريزة إلا مـا نتعته به: عادلاً أو ظالمـاً، إذن نحـن في هذا الشـرق الجميل، بشمسـه وامتثاله، وتاريخ آلهته، قد اعتدنا، وبقابلية غريبة على الطاعة الحرة، ألّا نعتبر «الدكتاتور» نعتاً، لأنه حالٌ نهائية، مقبولة، شعبية، تاريخية، مُسَلَّم بها كأنها قدر أو واقع موضوعي.

إنَّ صِفَةَ هذه الصفة هي التي تردُ إلينا الانتباه: ظالم أو عادل! هل تلاحـظ إلى أيـن وصلنا نحن عُشَّاق، أو عبيـد، الفصل الأخير من أي شيء، من أي تاريخ، أو أرض، أو سياسة، أو قصيدة، أو طباع رجل.

هكـذا يحـبُّ الكاتب الدكتاتـور. يرى فيه القـدرة على التغيير الشامـل، أو النشيد الشامل؛ العملية الجراحية الكبرى في روح الأمَّة وفي انغماره في ورق أبيض، وفي كينونة بيضاء إذا مَسَّهما حبرُ الإلهام غَيَّر، سواء أكان الورق للكتابة أم لتسجيل قرار الحرب والسلام.

كأنـه يقـول: الدكتاتور الجميل هـو أنا في سُلْطـة لغتي، التي تتحول فـي شبيهي إلى مصانع، ودبابـات، وسجون، تقنع خصوم لغتي بإعادة النظر. والدكتاتور القبيح هو ذلك الرجل الجالس على عرش بشع لا يشبهني في شيء.

الكاتب لا يحب الدكتاتور إلا بقدر ما يحرَّكه، وبقدر ما يجد فيه ترويجاً لأحلامـه الخاصة. قد تكون هذه الأحلام الخاصة استقطاباً لأحـلام جماعية، عندئذ يتم التطابق أو التصالح بين النار والماء، بين ما هو فردي وما هو جماهيري. ويصبح من واجب الحقيقة أن تضيع فـي زحام العواطـف الجميلة. وتُسـاقُ الأمة إلى الطاعـة المختارة بجنون المبدعين، الذي يتصورون أنهم صاغوا قرار الحاكم.

عَمَّ نبحث؟

عن جمال اللحظة العسكرية، حين تمتحن الأمة صدق تاريخها، وسلامة روحها، بنشيد واحد على حدود المواجهة مع عدوّ خارجي، يهدِّد العرش والشارع معاً: إما الحرية وإما الموت – هذا هو نشيدنا.

ومن مفارقات الطاعة أن الحرية لا تمتحن إلا هناك، بينما الموت بلا حرية شائع في الداخل. كأننا نُسلِّم بأننا لم نولد من أجل الحرية إلّا على الحدود؛ على حدود الأشياء. أما الداخل – داخل الأشياء وداخلنا – فهو ليس لنا. إنه من اختصاص الحاكم، ومن محض شؤونه.

الآن يتمُّ الفراق، أو آن له أن يتمّ. ولعل هذا الفراق هو المناسبة الوحيدة الصالحة لتثبيت الأسئلة على أرض صلبة. فعندما يندرس المكان الذي كان، وحده، امتحان الحرية – وهو حدود المواجهة مع العدو الخارجي، ويُسَوَّى بالوحل والمعاهدة، وترفع عليه لافتة تقول: الدخول ممنوع، والكتابة ممنوعة، والتذكر ممنوع؛ وأكثر من ذلك: يصير مزاراً يحج إليه الحاكم الدكتاتور يداً بيد مع عدوٍّ صار صديقاً، بلا سبب، لوضع إكليل من الورد على قبر الصراع والكرامة... عندها تتمرد الطاعة. تنتهي حالة الطوارئ. تمتد الأسئلة كالسهام الجارحة نحو الخبز، والمساواة، والحرية الفريدة، ونظام الحكم، وحرية التعبير، وحق العمل. ويتم الطلاق بين الكاتب والدكتاتور.

عندها يقول الكاتب: هذا هو أنور السادات.

وعندهـا يضع السادات كاتباً كبيراً هـو محمد حسنين هيكل في السجن.

وعندهـا يتقدم جنـدي مصري، صـار عاطلاً عـن العمل في صياغة حرية مصر، من منصة الدكتاتور... ويطلق عليه النار.

انتهـت أشياء كثيرة فـي لحظة. وسننتبه بعد قليـل إن ما انتهى يصـرُّ على البحث عن بدايته الجديدة، لأن الدكتاتور ليس شخصاً. ولكـن الـذي انتهى، ونريد لـه أن ينتهي، هـو التباسـ العلاقة بين الكاتب والدكتاتور، وبالتالي انتهى سؤال الحرية المموَّه.

الكاتـب يوطِّد دوره: دور الشاهـد، دون أن نتساءل الآن عن دور المنخـرط منـذ البداية في جنيـن البدائل، التـي تنشط خارج النص، نصِّ السلطة.

لا نتسـاءل، لأن الانحطـاط السياسـي الذي بلغ حـدَّ تشريع التماثـل، أو الالتحـام بيـن الحاكـم - الدكتاتـور، وبيـن الأرض - التاريـخ - الشعـب، حظر حتـى دور الشاهـد. أن تشهد على ما يحـدث، أن تشهد على مـا تعرف، أن تسجِّـل الشهادة الباردة والمحايـدة، فذلك نوع مـن الإلحاد لا يدفع الكاتـب إلى خارج دوره فحسب، بل يدفعه إلى خارج قرائه، الذين حوصرت مصادر وعيهم، ومعرفتهم، بأجهزة اتصال يحتكرها الدكتاتور.

مـن يستطيع أن يكون شاهـداً هو الشهيد ذاتـه. ولذلك، فإن مـن يثيرون هذه العاصفـة الأخلاقية، الدينية، علـى شهادة هيكل، لا يثيـرون إلّا ما يجعـل سـؤال الديموقراطية سجنـاً. لأن «حرمة

الموتى»، التي يؤثرونها على حرية الأحياء، هي دعوة سياسية لإلغاء الكتابة، ولإلغاء كتابة التاريخ، لأن من شروط هذه الكتابة أن تكتمل دائـرة السيرة، مـن الولادة إلى المـوت. أي كان على السادات أن يموت لكي يكتب هيكل سيرة حياته. وهذا السؤال الأحمق: لماذا لـم يكتب الكاتب كتابه أثناء حياة الدكتاتور؟ إما أنه يحفل بالجهل وسوء النية المتجه إلى صرف النظر عن الأساس، وإما أنه يدير سؤال الحريـة بطريقة تجعل حرية الرأي امتيازاً للسلطان، الذي سيواصل الحكم والتحكم من القبر.

لسنا محايدين في هذه الزوبعة.

فهي ليست خلافاً على وقائع. ولا يعنينا منها تضارب العواطف بيـن الكاتب والحاكم في مرحلـة من مراحل العلاقـة بينهما. ولا نتوقف أمام دور يبدو لنا أنه كان سلبياً، لم يقنعنا الكاتب في تبريره، حين ساعـد بكتابته، أو بنشاطه الخفي، على إرساء سلطة السادات في انقلاب الخامس عشر من مايو.

مـا يعنينا هو الـدور التاريخي الـذي أُعِدَّ للسـادات، وأعد له نفسه بكامـل العُدَّة والشبق، من إعادة بنـاء الداخل المصري حتى العلاقات الدولية، بما يوفر شروط انعطاف الوطن العربي، أو منطقة الشرق الأوسط، في اتجـاه معاكس لحركة تاريخها، وللتضحيات والحروب التـي خاضتها من أجل صياغة حريـة إنسانها، وتحرير أرضها، وبناء مستقبلها المستقل.

لسنا محايدين في هذه المسألة، فهي سؤال عمرنا كله.

إن الظاهـرة الساداتية، التـي يشرحها هيكل بكل ما يملك من أدوات المعرفة، والتحليل، والمعلومـات والمعايشة المباشرة، قد جـرَّت المنطقـة العربية من سـؤال الحرية، والاستقـلال، والحلم الجميل، إلى سؤال الفساد والاستعباد الخارجي المباشر، بتحويلها الصراع مـع إسرائيل إلى تنافس معها على لعـب الدور الأمريكي. لقـد نقل السـادات المسألة العربية في صراعهـا التاريخي مع أشد معوقـات تطورها – إسرائيل – إلى منافسة إسرائيل، أو مشاركتها، في العملية الأمريكية في الشرق الأوسط.

مـات السـادات دون أن يعثر على جواب للسـؤال الأمريكي: هل الدول العربيـة قادرة على مشاركة إسرائيـل، بكفاءة، في خدمة الـدور الأمريكي؟ وهل الوضع العربي مؤهـل للانخراط في العملية الأمريكيـة، وهو ـ والسؤال ما زال سـؤالاً أمريكياً ـ يتميز بالتخلّف، وعـدم الاستقرار، وعدم القدرة على استيعاب التكنولوجيا الحديثة، وحامل بشتَّى الاحتمالات، والمفاجآت، وعوامل التغيير والتفجير؟

ماذا يعني هذا السؤال الكارثة الذي أوصلت الساداتية المسألة العربيـة إليه؛ السـؤال الذي ستتضـح مأساويته فـي منتصف طريق تصعب العودةُ عنه؟

يعنـي، فـي بساطـة: إن علـى الحكم العربـي أن يعـد نفسه، وطاقاته، وثرواته، لخوض المزيد من المعارك مع ذاته، مع شعوبه، مـع فلسطينه، مـع طلبته، مع لغته، مـع تاريخه، مـع أصدقائه، مع رغيـف الخبز، مع أحلامه السابقة، لكـي يبرهن لأمريكا صلاحيته فـي أن يكون تابعـاً لها. أرأيتم كـم من جهد يبذله الخـادم ليموِّل ارتباطه بسيِّد يفتقد فيه جدارة الخدمة بلا مقابل!

هذه هي لوعة الحكم العربي الباحث عن أب.

لقد قضـى السادات عمره ليقول لأمريكا فكـرة واحدة: إنه، ومصـر، والنفط، والأمة العربية، خيرٌ لها من بيغن، وحزب ليكود. قضـى عمـره وهو يحـاول الدخـول مع شـرق المتوسـط في لغة المصلحة الأمريكية المعقدة.

والغريب أنـه كان يخوض معركة الحب والكسل هذه مجرداً مـن سـلاح الخيـارات، وبمزيد مـن العـري المـادي والسياسي والأخلاقـي. فكلما قالت لـه إسرائيل: هات، قـال خذي وخذي حتى ماء النيل، ولبنان، والتوزيع الطائفي للمجتمع العربي، والعداء المشتـرك للاتحاد السوفياتي. وكانـت إسرائيل تنهب مواقع القوة العربيـة، وتبلّغ واشنطن أنهـا، وهي قوية متفوقـة، وحدها القادرة على امتصاص الجسد العربي، والفكـر العربي. فلولا قدرتها على إخضـاع العـرب لما نشـأت الظاهـرة الساداتيـة، ولولاها، وهي المجتمع العسكـري المتماسك المستقر، الـذي لا تهدده عوامل تغييـر داخلي، لما اصطـفّ الوضع العربي في صـلاة جماعية أمام أبـواب البيت الأبيض. لا ضمان لأمريكا، إذاً، إلا الاحتفاظ بوكيل واحـد لها في الشرق، هو إسرائيل القوية. أما القضايا الصغرى مثل احتـلال لبنان، وضم الأرض الفلسطينيـة، والجولان، فلا تستحق أن يحسـب لها حساب أمام الاعتبـار الاستراتيجي الشامل، الذي تتحدث إسرائيل من داخله وفي شروطه.

فهل على العرب، بعد السادات، أن يواصلوا هذه المعركة؟

هـل سنواصل مشاهـدة التي تلتذّ بكونهـا عبودية، لا من باب افتتان المستلب بالسالب وتقليده، بل من باب انفتاح غرائز الشهوة

البدائية على ما هو رخيص، ومن باب إيمان مشروط بوقف الإيمان علـى جمود مراتب تعطي «رب العائلـة» الحق الوحيد في الكلام، وفي القرار، وفي التصـرف العابث بمصير الوطن؟ ألا يُطرح سؤال الديمقراطية إلا على هذا الجانب؟ أما زال ممكناً أن نساوي بين من باع العائلة، والأرض، والنهر، والأمة، وبين من شهد على ذلك؟

إن الحملـة على «خريف الغضب» ليست حملة أخلاقية، لأن السـادات يلخص تاريـخ سياسة عربية ما زالـت متواصلة وسائدة. وليسـت حرمـة الموتى هي مـا يثير نقـاد هيـكل المتكاثرين، بل الحرص علـى حرية الساداتيين الأحياء، في مصـر والعالم العربي، الـذي يواصلـون دفـع المركـب الأمريكي فـي دمنا، وفـي شتى مستويـات حياتنا السياسية، والثقافية، والأخلاقية. فهذا الانحطاط الشامل في بيت النظام العربي الواحد، نعم الواحد، ليس إلا مظهراً من تجليات الساداتية، أو نتيجة من نتائجها.

والقدح والهجاء؟ لم لا؟

هل رأى المصري والعربي من المدرسة الساداتية، أو المزرعة الساداتيـة، إلا مـا يستحق الهجـاء؟ لِمَ نكون مهذبيـن في مواجهة هذا النهـب المنهجي للأرض والروح والمصيـر؟ إن رمز الفساد، والانحطاط، وفتح الوطن العربي للاحتلال المباشر، لا يُعاقب الآن بمـا هو أكثر من تقديم الشهادة عليه. أليست وقائع حياة السادات، وأسرته، وسياسته، وخضوعه الكُلّي لمرآة الغرب، هي التي تهجوهُ وتُشهِّـر بـه، وتزيح الضباب عـن عيون قطاع مـن الشعب تعرض للخديعة حين قيل له: إن صداقة الأعداء، ومعاداة الأصدقاء، ستزيد وجبة الفول، وإذا بالفول مفقود من مصر.

ليس كتاب هيكل المدهش قصة عن فترة مضت من تاريخ مصر والعرب، إنها شهادةُ الآن... وهذا ما يجعل كُتَّاب أرباب العائلات الحاكمة خائفين، لأن ما تقوله سيرة حياة هذا الدكتاتور الرخيص تقوله حياة حكام آخرين، تقوله سياستهم، يقوله اندفاعهم المجاني على واشنطن. والذين يدافعون عنه، عن السادات الحي فيهم، يدافعون عن فسادهم وعن عبوديتهم. فالسادات ليس عبداً لأن أمَّهُ أَمَةٌ - كما أرادوا أن يفهموا- بل لأنه كان يبيع الأمَّة إلى من هو أكثر عبودية منها، ظاناً أن صورة الحرية لا تقاس إلا بمرآة الغرب، ولأنه استبدل الصراع بالامتناع عما يوهم حكمه الأمريكي بأننا طرف في الصراع.

إن محاكمة المرحلة الساداتية هي محاكمة ضرورية، وثورية، لمعرفة اتجاه المفاوضات الدائرة بين وضع عربي يعذّبه العجز عن أن يكون شبيهاً لإسرائيل في علاقتها بأمريكا، وبين سراب قادر على تجريد الطرف العربي من أي سلاح، حتى سلام الحلم.

محاكمة السادات هي محاكمة الوضع العربي الذي انعطف دون أن يجرؤ على التعبير عن نفسه، فكان السادات ناطقه الرسمي. وهي محاكمة ومراقبة الانهيار التدريجي الذي أصاب بنُى المجتمع العربي دون أن يتمكن الفكر العربي من مراقبة الظاهرة في نموها، وفي علاقات أطرافها، من تفريغ القطاع العام في مصر، إلى تغيير موسيقى النشيد الوطني، إلى ظهور الصليبيين الجدد في لبنان، إلى اتفاقيات كامب ديفيد، إلى احتلال بيروت، ومذابح الفلسطينيين في كل مكان، إلى توقيع اتفاقية إنهاء الحرب، وملحقاتها، بين إسرائيل ولبنان.

لقد وقعت الكارثة. ما سيتلوها سيكون تنويعات على إيقاعها المهيمن، منذ استدرج الوضع المصري الداخلي، بقِيادة السادات ولهفته، إلى وضع الأوراق كلها في يد أمريكا، وأُسلم إلى خيار وحيد: توقيع الصلح، أو الاستسلام، أو القفز السعيد في قيود السيطرة الأمريكية، الذي عنى، حتى الآن، إخراج مصر من الساحة دون أن ينجح هذا النوعِ من السلام في مداواة جراح مصر، فتوفرت لإسبارطة اليهودية فُرص أسهل لتحسين ديمقراطيتها العائلية، وتفتيت الحال العربية اليتيمة بعد مصر، الحال المحرومة حتى من نِعَم كامب ديفيد.

كنا دائماً نقول: إن كامب ديفيد ليس للجميع، بل هو لمصر ولبنان، لأن سائر المناطق «المتنازع عليها» – هكذا صاروا يسمون أوطاننا – غير قابلة للتفاوض، إلا إذا أضيفت إليها مناطق أخرى سيُقايض الجلاء الإسرائيلي عنها بالتسليم بالاحتلال الإسرائيلي السابق.

هذه ثمرة الدكتاتور، الرئيس المؤمن، الرئيس مدى الحياة، الذي استطاع في غياب الحد الأدنى من الديمقراطية أن يجثم على صدر وطن سماه عائلة، وسمَّى نفسه رب العائلة، وفَصَّلَ ما يشاء من الثياب الدستورية على مقاس شهواته.

فهل يكون الرئيس مدى الحياة رئيساً مدى الموت؟

هذا ما يسعى إليه أشباهه، أرباب العائلات العربية الأخرى، الذين يريدون حرمان الوعي العام من الاطلاع على الكيفيةِ التي تربط بين خطوات السادات السياسية، المترابطة بمنهجية مُحْكَمة.

السـادات لـم يمت تماماً. فهـل يفكر الكثيـرون، بعمق، في الدلالـة الخطيرة التي يشي بهـا منع «خريف الغضـب» في العالم العربـي، ووقف نشره في أغلبيـة الصحف التي باشـرت النشر ثم أوقفته بأوامر عليا؟ هل نتجنى على أحد، أو على وضع، إذا لاحظنا أن للساداتيـة، بما تعنيه من مصلحة أمريكيـة - إسرائيلية - عربية، مركزيـة قرار، فنسأل: مـن الذي يحكم الوضـع العربي؟ فلا نجد فارقاً بين الرئيس مـدى الحياة والرئيس مدى الموت. لأن الرئيس ليس هذا ولا ذاك. إنه قابع في مكان آخر غير العرش وغير القبر.

للكاتـب، إذاً، أن يـزداد افتراقاً، وأن يجادل بيـن قوة الكتابة المستمـدة من الالتصاق بالحقيقة، وبيـن قوة الدكتاتور التي تتزوَّد أيضـاً من ضعف الكتابة. فالضحالة المميزة لكل مستويات النشاط الثقافي هـي شرط من شروط نمو الدكتاتـور، الذي ينهب الثقافة. فَلْيَفترِق الكاتـبُ، لِيَفْتَرِق لكي يعرف كمـا يعرف محمد حسنين هيكل طاقته. إنه قادر على تحطيم الصنم. شهادات الكتاب العرب على زمنهم الوغد كافية لأن تخلخل وتغير.

الأصنام كثيرة في الساحات والعقول. فليتقدَّم الكاتب. ولينهرِ الخديعة المهيمنة، فإن خريف الغضب سيجتاح ربيع الدكتاتور.

في وصف حالتنا :

أنا لا أُريدُ دعاءَكُمْ
أنا لا أُريد سيوفكُم
فدعاؤكُم ملحٌ على عَطَشي
وسيفكُم عليّ

* * *

... لأن الطائـرات قـد هيمنـت علـى الفضاء، وعلـى أصابع الأطفال، بطريقة محكمة محكمـة، واستخرجت أحشاءهم، كما اتفق كما اتفق، ونثرتها على أغصان حديد منحنية.

لأن الطائـرات، الحيوانـات المعدنيّـة المفترسـة تهبط بلهفة وخفّـة، من أَزقَّة الغيـوم الضيّقة، ومن بين أغصـان الشجر الجافة، والممرات الصغيرة بين شبابيك متجاورة متقابلة، ومن بين عبارتين قصيرتين في حوارٍ سريع بين فارس يرحل وامرأة تقشِّر البطاطا،

لأن الطائـرات تعـرف طُرقها من بيـن أصابع يدنـا المفتوحة

فـي هيئة خطاب، وتستولي على قتلـي استيلاء السماء الصافية على شجرة وحيدة في حقل مفتوح،

وتُحيل بيروت إلى سؤال من دم وبحر يبتعد،
لأنها تهيمن على الأشياء والأسماء من فوق،
لأنها تُسمِّي الزمن العربي الرسمي بما يستحقُّ من مديح،
ولأنها تترك في خرائب العاصمة الوحيدة، التي لم تعد عاصمة لشـيء، وفـي خرائـب الضمير، وفـي كل مدينة أخـرى، من مكة المكرمة إلى طنجة الآثمة، قنابل من الأسئلة السريعة الانفجار،

فإني أنتهز هذه الفوضى، لأطرح سؤالاً أنيق الشكل:
ماذا
تبقى
من
الهيكل؟

* * *

عشرون مملكةً... ونَيِّف
كوليرا وطاعون... ونَيِّف
من ليس بوليساً علينا
فليشرِّفْ!
من ليس جاسوساً علينا.
فليشرِّفْ!

* * *

لا. ليس عُرساً آخر هـذا المهرجان الدمويّ. يسقط الشهداء، ولا يسقـط الوطن عن الـورق أو يسقط الوطن، ولا يسقط الشهداء عن الخيل. لا. ليس عرساً بلا موت،

لأن الفلسطينـي / اللبناني المقيمين فـي شظيّة واحدة، في جُثَّةٍ واحـدة هـي الضوء الوحيـد، لا يرقصـان لانتصارٍ مُسيَّـج بهزيمة شاملة، لأنهما لا يؤسسان غيتو جديداً يجعل اغترابهما عن الآخرين احتفالاً بهوية واحتفاء بقبو.

لأنهما وعدٌ.
جسرٌ
ألف باء الأُفق
ولأن الغيتو نموذج انحطاط.

لذلـك يناديان، من بيـن الأنقاض ومن بين أعضـاء جسدهما المتطايـرة: إلينا أيها العـرب المسحوقون، المنسيـون في ملفات الغبـار، المطمورون تحت صخـرة القمع... إلينا يـا أسرى الغزو الحـر، من المحيط إلى الجحيم ومن الجحيـم إلى الخليج. فإن لم تصلـوا سيبقـى الأفق الذي نراه من ثقب أحمر فـي صدرنا الواحد مفتوحاً للطير الأبابيل، المزوَّدة بوقود الملك الجالس على البرميل، وسيبقـى مفتوحاً لغزوة الولايات العربيـة – الأمريكية، حسنة النية والطويـة، لمواصلة مُهمـة الغـارات اليهودية، بلغـة عربية عربية، وبأسلوب أخوي... أخوي... أخوي حتى القتل.

* * *

صوتٌ وراء التلْ
يا أيها الأوَّلْ
فَلْتُسقطِ الهيكلْ!

* * *

لا. ليس عرساً آخر هذا المهرجان الدموي. إنه افتتاحية النشيد. سطوة السؤال. امتحان نهائي، ربما نهائي، للشعار البديع الذي حوَّل الملايين إلى قطيع. استئصال الفكرة التي كانت تُسند القارة من السقوط أو مدها بجسور لا تراها الطائرات والمخابرات. مواجهة السؤال الذي يأتيك ولو كنت في برج مُشَيَّد: من أنت بالضبط؟ مع الحرية أم مع النفط؟ شرح فلسطين على الملأ: فهي ليست ببلاد بقدر ما هي سرٌّ بقاء الجمرة، حيَّة حيةً، في الرماد. الاختيار بين غيتو القبيلة ومسادة الجديدة المحورة. خروج إلى الأفق أو انتحار شمشوني المعنى، والمبنى آخر...

للفلسطيني أن يُوسِّع أُفق الهوية:
للعربي أن يكون فلسطيني البداية والوعد،

وللبناني أن يحتفي، بلا وجل، بالجسر الذي يمده بين المعاني التي تتشرّد، ويسند الفكرة التي لجأت إليه...إليه وحده بعدما عادت القبائل إلى حظائرها.

إنه قَدَرٌ وابتكار وحرية.
لا. ليست بيروت إلا لأصحابها
وللشهداء الغرباء مُتَّسع في المعنى الأخير.

بيروت القلعة.

بيروت النزيف.

بيروت الموجة التي يحملها طفل من البحر إلى البيت، يحملها بيد مرتجفة، يسهر معها، ويعيدها إلى البحر سالمة.

فليقـف النشيد الطويل، على قدميـه المقطوعتين، ليقف على الألم الحقيقي أو على الألم الشبح، أو فليخلع جلده لُيغطي به جسم بيروت المحروق،

بيروت القلعة، الموجة، الفكرة الأخيرة، بيروت المعجزة... منذ بدء الخليقة حتى قلعة الشقيف!

* * *

أرضٌ من الشهوات يحملها صبيٌّ
فوق كفيهِ ويركض في غرائزنا... وأرضٌ من خرائط روحنا
اتَّبعتْ مساراً واحداً.
دمنا ومجراه الصغيرْ.
أرضٌ من الإسمنت والبرقوقِ والقتلى على الراياتِ،
أرضٌ، آخرُ الأرضِ، انبجاسُ الضوءِ من حجرٍ أخيرْ.
هذا الطريقُ هو الطريقُ
ولا طريقَ سوى الطريق إلى الجنوبْ
الرومُ قد قطعوا الدروب عليكُمُ
واستأجروا أسماءَكْم

ونساءَكمْ
وهوى القناعُ
هوى القناعُ
هوى القناعْ

* * *

فـي النشيد الطويل الذي يُعاند نهـاراً لم يُرَوَّض، في خمسين سنـة من عملية انفصال القامة عن الظل، في مساحة يملأها الرحيل عكس الوطن من أجل تصويبٍ أدقّ...

فـي النشيـد الطويـل، المتعـرِّج كجمـال الخرائـط الملونة، كاندفاع القلب إلـى وراء وإلى أمام، كزواج العناصر ذات الروائح المالحة في خريف مرتقب،

في النشيد الطويل كمنديل أمّ على شاطئٍ
كانفلات السفينة البطيء من كتف اليابسة،
في النشيد الطويل الذي يُحبُّ أن يوصف، أكثر مما يصف،
المنعوت، الملعون، المجنون كأي شاعر مصاب بحرف النون،

النشيد الطويل الذي يمرُّ بحوادث عابرة عارضة، مثل إسرائيل، وتحليـق العباءات على جنـاح الكونكورد، وتحـوّل العلماني إلى عثماني، والثوري إلى قدري، والطائفة إلى عاصفة،

النشيـد الطويل الذي يدافـع عن حقِّ المحارب فـي استراحة اسمها النصر، ولا شيء غير النصر.

إلّا النصر،

النشيد الطويـل الذي لا يفهم لماذا تكون الكوكا كولا حتمية تاريخية،

ولمـاذا يكون بنطلـون الجينز دكتاتورية أكثـر شرعية من حق العمال في الإضراب،

في النشيـد الطويل الذي ينضبط بقواعـد الإعراب ولا يدقق، طويلاً، في الفوارق بين الأحزاب،

في النشيد الطويل...

النشيد الذي الذي الذي

لا أعرف ماذا... أقول!

* * *

وحدي أُنظِّفُ ساعديَّ من الشظايا

والصلاةِ عليَّ،

وحدي أخرجُ الصاروخَ من رئتي

وأُشعل من بقاياهُ

بقايا التبغ في شفتي

وأطـردُ أقربائـي من مآذن روحـي الملأى بسـرب الطائرات القادمات مـن السماءِ ومن نوافذ إخوتي، واسـم النبيّ، عليه صلَّى ثم سَلَّمْ.

إنَّ الصلاةْ

خيرٌ من التفكير بالبلد البعيد وبالضحايا.

إنّ الزكاة
بفارقِ الأسعارِ والبترول خير من مساعدة السبايا.
خبأتُ جسمي في الشظايا
والشظايا ملءُ جسمي
فاختلطنا: المعدن البشريُّ واللحمُ والحديديُّ
اختلطنا.
أنا لا أُريد دعاءكم
وحدي أنظف ساعديَّ من الشظايا
والصلاةِ عليَّ... وحدي.
أنا لا أريد سيوفكم
فدعاؤكم ملحٌ على عَطشي
وسيفكم عليّ

* * *

تقودنا صورتُكَ، سيدي، إلى الاعتقاد الأكيد بأن السماء واطئة. وفي وُسع أية لاجئة كأمِّي، سيدي، أن تعلِّق جواربي المقطوعة على عرش. لماذا يطول المؤقَّتُ، سيدي، إلى الحد الذي يجعلني أذكر اسمك بلا أخطاء، وأفقد ذاكرتي إلى درجة لا أعرف معها كيف انبرى الشرطي لاسمي وصوره لينشره على إحدى وثمانين مئذنة تطالب، خمس مرات في اليوم الواحد، سيدي القائد، بتحويله إلى سبب انتشار الطاعون، سيدي، الطاعون يأتي من العلاقة ما بينكم ومن هم دونكم، ولم أدخل في هذه المساحة قط، ولم أدرك المبتغي ولا المبتغى الذي أنشأه، سيدي، الحاجبُ بين الحق والواجب.

لكنني كاتب خائب يحبكم، سيدي، انصياعاً لمرسومكم سيدي سيدي سيدي، عندما تتعبون من المفاجأة مروني لكي أأتمر. هل يدوم المؤقت، سيدي، إلى درجة لا أتعرف معها على قلبي الذي يسبقني بالدعاء لكم بلا سبب، فامتثل إلى ما يتركه هذا الشارع من خداع البصر، البصر الذي علَّق القمر على بابكم العالي ومنع زهرة البرتقال من التنفس إلا لكم، سيدي، عندما تمرون في جنازة تشييع قتلاكم. سيدي هل يطول المؤقت إلى الحدِّ الذي أعتقد معه أن خطوتكم وحكمتكم توأمان يسألان: بأي آلاء ربكما تكذبان؟ سيدي، أنت والمؤقت، لا وطني يتفتت حين تغيبان عنه، ولا بدني يتشتَّت حين تجيئان، سيَّان سيَّان يا سيدي، فهل لي وقد بلَّلتني بدموع البكاء على الرعية أن اسألك بلا صنعة وتكليف:

لماذا تحكم

ومن تحكم

وإلى متى ستحكم؟

* * *

الكراسي/ المآسي

المآسي / الكراسي

فإمَّا المماتُ

وإمَّا الكراسي

وإمّا الكراسي

وإما الكراسي.

* * *

في وصف حالتنا أقولْ:
وطني حقيبة
أو بندقيةْ.
في وصف حالتنا أقولْ:
وطني سحابٌ
أو شظيَّةْ

* * *

وحاربتُ وحدي، انتصرتُ على الخوف من سُحُبٍ قد تغطِّي عروشكم أيها الجالسون على كتفيّ.

خفراءَ برتبة أُمراء.

... وسأُحارب مـن أجل مملكة البصـل الأخضر، والبقدونس الـذي ينمو في حوض صغيـر، وشرب الخمـرة، وتحليل الأحزاب وتحريم الحزب الواحد والعائلة الواحدة والشركة الواحدة. سأحارب من أجل تحليل لحم الخنزيـر وتحريم لحم السجناء. وسأحارب في مملكـة البصل الأخضر وسائر الصفـات التي ذكرتُ أعلاه، من أجل حـق الناس في النـوم في الساعة التـي يريدونها، وحقهـم في الحلم بـلا وجل وآلـة تسجيل، وحقهم في ألا يرفعـوا أغاني الحب إلى من لا يحبـون، وحقهم في أن يعتقلـوا في الساعة التـي تحددها العدالة فـي المحكمة التـي لا تغلق أبوابها أكثر من يـوم واحد في الأسبوع، وحقهم في أن يموتوا بالسبب الذي يصيبهم. فقد يحدث في مملكة ما، في سجن ما، في شارع ما، أن يموت الإنسان بلا مشنقة!

* * *

وحدي أغطِّي البحر من نظراتكُمْ
وحدي أعيد بناء روحي بعدما حطمتموها
بالخطابةِ والقنوطِ
وحدي أُعيدُ إلى السقوطِ
ملكاً
ومملوكاً
ومملكةً
وسفّاحاً بزيّ إمام مكةْ
وحدي سأمتلك الضجيج
وحدي سأهتفُ في الخليجِ
أَنا الحصارُ
أنا الحصار
عود الثقابِ
دمي
وأحذية النهار
دمي
وقاموسُ الترابْ
وأنا الحصارُ
ولا حصارَ
سواي،
لا ضوء سوايا
خبأتُ جسمي في الشظايا

والشظايا ساعدايا...
أنا لا أريدُ دعاءكم.
أنا لا أريد سيوفكم.
فدعاؤكم ملحٌ على عَطَشي.
وسيفكُمُ عليَّ
وأنا نبيُّ جراحكمْ ولكُلِّ جرحٍ فيكُمُ قَبرٌ صغيرٌ للنبيّ:
عارٍ من الراياتِ
والصلواتِ
أسترُ عورتي بقذيفتي
وأخبِّيءُ الأسماءَ فيَّ...
حافٍ من الأوطانِ
أمشي فوق هامات الملوكِ
وما تبقّى من ملوكْ
ومآذنٍ تعلو كأعمدة المشانقِ
فوق بارات الشيوخ،
إليَّ
إليَّ يا عربَ البعيدِ
إليَّ
كي نحمي الجزيرة من قبائلها... إليَّ.

غزال يبشر بزلزال...

* مقدمـة المجلد الثالث مـن الأعمال الكاملـة للأديب الكبيـر الشهيد غسان كنفانـي. ويضم هذا المجلـد دراسات غسان عـن الأدب في الأرض المحتلة.

مـن الطبيعي أن يكـو ن دمه قد جف. ومـن الطبيعي أن يكون أصدقاؤه قد عادوا إلى لغتهم. ومن الطبيعي أن نستعيد قدرة الكلام عنه كما نتحدث عن الأنهار التي اخترقتنا وذهبت.

وهـذا مـا يحدث لـي: أيام وأيـام أحـاول فيهـا أن أعتاد هذا «الطبيعـي» لأكتب عنه في هدوء. ولكنـه يطردني عن الورق، فإن حبره لـم يجف. هو الـذي يمنعني من أن أفي بوعـدي، هو الذي يمنعني عن الكتابة.

الكتابـة! كـم نتساءل: ما هي؟ ونتعثر. ذبـاب كثير يحط فوق الـكلام الجميل. وكأنـه الفلسطيني الوحيد الـذي أعطى الجواب القاطع الساطع، وكانت الشهادة شهادة، وكأنه أحد النادرين الذين أعطـوا الحبر زخم الدم. وفي وسعنا أن نقول: إن غسان كنفاني قد نقل الحبر إلى مرتبة الشرف، وأعطاه قيمة الدم.

فيه حسم لتعدد أشكال سوء الفهم والتفاهم. وفي كتابته سطوة اليقين. من تيقن قراءته يطرح الأسئلة على مستويات مختلفة.

هنالك من يعتبر الحياة اتهاماً وخيانة، فيثني الكتابة عن فعاليتها لأن الحرية لا تأتي بغير الموت! ومن هنا، يتحول الموت لدى هؤلاء إلى هدف في حد ذاته. «أنت متهم إلى أن تثبت موتك». داء شاع في حياتنا الفلسطينية، فاتخذ الفاشلون فينا جثث الشهداء متاريس وخنادق وقاعات محاكم. أطلقوا النار على الذات مرة، وانتظروا رصاص الأعداء، مرة أخرى، ليكون معيار الجدارة. هذا الطراز ذاته من النظر إلى الحركة وإلى الأشياء يحول جثة غسان كنفاني إلى قاعدة لاغتيال الكتابة. وهي، بذلك، تجرد كاتبنا الكبير من أية قيمة خلاقة عدا الموت.

وهنالك، هنالك من يعطي الكتابة قدسية الانفصال، وشرعية الطلاق عن المغامرة، والاحتيال على الحياة والخطر. هنالك من يعتبر الكتابة غاية في حد ذاتها.

ولكن غسان كنفاني هو كاتب الحياة. كان يكتب لأنه يحيا. وكان يحيا لأنه يكتب ويحيي ذاكرة الفلسطيني لتكون مكان المستقبل. لم يكن الموت هدفه لأنه لم يكن عاجزاً عن الحياة في الكتابة، ولأنه لم يكن بعيداً عن حركة الفعل الفلسطيني الثوري التي تبلور حياتها في الصراع. وكان توحده في الفعل الكتابي، والذي يبلغ حد التصوف، نوعاً من استرداد حياته في حياة شعبه وصياغتها في مسرى الحلم العظيم.

لقد سقط غسان كنفاني في ميدان الصراع. سقط وهو يسيطر على موقعه الكتابي. وقد اغتاله الأعداء لأنه حمل فاعلية الكتابة

التي تصنـع جيلاً سيعثر علـى أداة التعبير عن فاعليتـه في السلاح. ولذلك، فإن الدفـا ع عن غسان كنفاني، أمام أخطاء من لا يرى فيه غير موته، هو دفاع عن الكتابة وعن الحياة.

ويعـرف الكاتب الثوري أن أداة التعبير عن فاعليته الاجتماعية تأخذ شـكل الكتابة لأنها تميزه وسلاحه. وليـس بوسع الكتابة أن تحقق أثرها النضالي إلا إذا كانت كتابة ناجحة. فالفن الرديء الذي يروج له الصغار في حياتنا الآن، تحت أي شعار كان، لا يقل ضرراً عـن السلاح الرديء. وقد كان غسان كنفاني فعـالاً ومؤثراً بإتقانه مهنة الكتابـة، بخصوصيته الفنيـة الجميلة، وبطريقـة توظيفه هذا الجمال. وليس بانقلاب المعادلة.

لن نلتقي به بعـد... لن نسمع مزيداً من تعليقاته الساخرة على الذين يأتون إلـى الكتابة بفضيلة القضية. ولكنه يقتحمنا دائماً بقوة كلماته التي لا تموت. كم كتب الفلسطينيون وماتوا. ولكن حبرهم كان يجـف مع دمهـم. كتابته هو قد تكون هي النـادرة التي تصلح للقـراءة بعد العودة من جنازة كاتبها. وتاريخ تبلور النثر الفلسطيني الجديد يبدأ من غسان كنفاني.

لمـاذا هـو... لا سواه؟ تلك هي الهدية. ذلـك هو النجم. هو الموهوب الذي عرف كيف يربي موهبته وفي أي نهر يضعها.

لقـد تمكن غسـان كنفاني من أداء دوره، لأن لـه دوراً، ولأنه مؤهـل، فنياً، للقيام بهذا الدور. كان نتاج رحلة العذاب الفلسطيني مـن السقوط المتمثل فـي وعاء المخيم حتى الصعـود المتمثل في واقعيـة البندقية. وفي عملـه الكتابي الذي مارس مـن خلاله دوره

الاجتماعي والوطني تأريـخ الحركة الفلسطينية في قلب فنان. لقد كان ثوريـاً مـن حيث هو كاتب ثـوري. لم تنتزع هـذه الصفة من لحظة الاستشهاد.

كان يعـرف لماذا يكتب ولمن يكتب. ولكنه كان يعرف أيضاً أن قيمـة هاتيـن المسألتين مشروطـة، لإنتاج الفـن، بإتقان تطبيق المسألة الأخرى: كيف يكتب.

لم تسلـم كتابة غسان من الاتهام حين ارتقـى بشكله الكتابي مـن حالة السكـون الوصفي إلى حالـة أرقى وأصعـب بتأثير تعقد القضيـة التي تحتويه. ولم تسلم من مواجهة هـذا السؤال الأبدي: مـن يفهم هـذا الأسلوب؟ لم يكـن غسان كنفاني سهـلاً كما يبدو لقرائـه السطحيين. صحيـح أنه كرس كل طاقتـه الخلاقة ونشاطه الاجتماعـي في خدمـة قضيته الكبرى. وصحيـح أن هذه القضية، بجماهيرهـا وأشـكال صراعهـا، كانـت هاجسه العظيـم. ولكن الكتابـة، كقضية كانـت أيضاً هاجسه. وأن التعامـل مع سؤال مثل «قضية الكتابة» جعله قادراً على التطور الدائم وحياً إلى هذا الحد.

لم يستطـع غسان كنفاني أن يكون مؤثـراً وفعالاً إلا لأنه كان كاتبـاً محترفـاً... حتى في كتابتـهِ الصحفية أو اليوميـة كان شديد الخصوصية والتميز والإتقان. رشيقاً ومتوتراً كغزال يبشر بزلزال.

كان ممتلئاً بحيوية نادرة في هذا الجيل. كان مسكوناً بكهرباء لا تنضب. ولم يترك لنشاطه الواعي مجالاً واحداً للراحة. لم يقض إجازة لاستعادة قواه بيـن رواية وأخرى، أو عمل وآخر. لم يذهب للامتلاء بالتأمل من أجل تنفيذ عمل كتابي جديد. كان يجدد وقوده

الإبداعي بتبذير قواه. كان يتزود بالطاقة تلقائياً، فالذاكرة الجماعية لا تستنزف. وكان يستعيد ملء طاقاته بعمليات تفريغها الدائم.

هـل كان حقـاً يشعـر بموته المبكـر، فأطلق ينابيعـه إلى هذه الدرجة مـن الإسراف؟ هل كان هاجس المـوت يستدرجه لصب طاقاتـه في وقت قصير؟ هـل كان استشرافه لهـذه النهاية – البداية دافعاً لتناول كل أشـكال التعبير من قصة ورواية ومسرحية ودراسة وبحـث ونقد، ليسجل دمه على أصابعنا وذاكرتنا؟ وهل كان يسبق الموت إلى الحياة في الكتابة.

ربمـا. وربما كان هذا السباق أحـد أجمل تجليات «الأنانية» الخلاقـة والتفاني في آن واحد. إنها شـكل نادر من أشكال تحقيق حياتـه في سياق تبذيرهـا في حياة الآخرين. وهكـذا تتحول أنانية الفنان إلى نهر كريم.

إن الذين عرفوه، عن كثب، كانوا يعرفون مدى حيويته وقدرته الثمينة على العمل. وكانوا يعرفون أيضاً حرصه المرهق على تحقيق ذاتـه الفنية. كان يقـوم بكل الأعمال العامة طيلـة النهار. وفي آخر الليل... في أول الفجر كان يذهب إلى كتابته «الخاصة»، إلى كتابه الفنيـة، فلم يكن متاحاً له أن يتخصـص بشكل علني. كان يحترف الكتابة سراً. لماذا؟ لأنه فلسطيني... ببساطة لأنه فلسطيني.

لم يقـل أحد أن الفلسطينيين لا يرحمون أدباءهم. سأقول: إن الفلسطينيـن لا يرحمون أدباءهم. ذلك من فـرط إيمانهم بفاعلية الأدب الـذي قدم لهم، ومنهم، تعويضاً عن مهانات، عندما فقدوا كل شـيء ولم يملكـوا إلا كلمات. وذلك لأنـه استمد منهم القوة ليؤسـس لهم العلاقة. نادراً ما يسطو الوطن، كما يسطو على أدب

الفلسطينيين. ولذلك، يدرك الفلسطينيون، وبحق، أنهم هم الذين خلقوا أدباءهم... ولذلك أيضاً يطالبونهم دائماً بالمواطنية المثالية وبالطاعـة الفولاذيـة، ولا يسمحون لهـم في أن يكونـوا أقل من جنـود أو قديسين. ومن هـذه العلاقة الصارمة، مـن هذه المطالبة التي تشمل كل شيء يجد الأديب الفلسطيني نفسه «يسرق» حرفة الأدب سراً. وفي النهـار عليه أن يمارس أشكالاً أخرى للتعبير عن التزامه بسلطة الوطن!

هكـذا كان غسان كنفاني يغتصب كتابتـه الفنية من الساعات المخصصة لنومه. ولـم تكن تلك الكتابة إلا نتاج علاقته بفلسطين - الوطـن والحلم والصـراع والجماهير والمنفـى. كان أكثر من كاتب. ولكن ما أفدح الخطأ الذي يرتكبه صغار النقاد والصحفيين ويخدعون به الناس حين يضعون واو العطف (للتمييز) بين الكاتب والمناضـل. كأن يقولـوا: كان كاتباً ومناضـلاً. ليس الأمر في مثل هذا التفصيل، فقد كان غسان كنفاني كاتباً مناضلاً.

كثيراً مـا يجابه الكاتـب الفلسطيني بأسئلة تأتيه مـن البراءة أو الاتهام. هل أنت كاتـب أم مناضل؟ في مرحلة تاريخية معينة يحدد الكاتب المناضل بأنه الكاتب الذي يعبر عن حركة القوى الثورية... عن حركة الجديد. وغالباً مـا تكون أداة تعبير الكاتب عن اندماجه بقـوى الثـورة هي الكتابـة. وقد بقي غسـان كنفاني مطـارداً بهذا السؤال إلى أن بلغ الشهادة، فهزم السؤال وانتصرت كتابة غسان.

كان نشاطـه الكتابي متعـدداً. والطريقة التي سفـك فيها دمه محرومـة من الوصـف. لقد رسم جسده الممـزق حالات القضية الفلسطينية... لقد حقق الأسطورة.

كم من صديق رثيت. ولكن لم أحس بأنني أرثي نفسي، فأعيد صياغة حياتي، إلا عندما حاولت الإمساك بطرف هذا البركان. غسان كنفاني. ماذا بوسعك أن تفعل؟ حقاً، ماذا بوسعك أن تفعل؟ هكذا ينقض الكاتب على نفسه في حضرة الكارثة التي لا يردها قلم. ولعل مثل هذه الحالات التي تنتقص من جدوى الكلمة وقوتها في سياق المقارنة مع عناصر الطبيعة أو الفعل الهائل هو الذي خَلق، منذ القدم « تقليد عقد المقارنة الظالمة بين الكلمة والفعل. ليس الخطأ، دائماً، أن نقدم إجابة مخطئة. أحياناً وفي مثل هذه الحالة بالذات يأتي الخطأ من مجرد طرح هذا السؤال.

وإن الموت حادث. ولكن هنالك نوعاً من الموت يأخذ شكل الإجابة على معضلة أو مقارنة. وهكذا يتحول مصرع الكتاب المناضلين إلى دلالات ورموز. وهكذا كان مصرع غسان كنفاني شهادة على فاعلية الكتابة لا نفياً لها كما يتصور الميكانيكيون والعاجزون أمام حركة العلاقات، كهؤلاء الصبية القادمين إلى اسم الثورة من أقاليم العجز والإحباط والقبح، ليعمموا عاهاتهم على الورق وعلى نفسية البشر، فيتهمون الفن بالردة، ويتهمون الحياة بالخيانة.

صديقي غسان! كم من صديق ودعت، ولكن لم أودع مرحلة من حياتي إلا في وداعك الأخير. كان آخر ما أنتظر من كوابيس هو أن أقدم لإعلانك السابق عن وجودي منذ عشر سنين. لقد ولدت قبل ذلك، ولكنك أنت الذي أعلن ميلادي. لم أقل لك: شكراً، فقد كنت أحسب العمر أطول.

الآن نقـول: أدب الأرض المحتلة... ها... ها! ولكن الحالة كانت تختلـف عامئذ. فقد كنا مجموعة مـن شباب دون الثلاثين نفتقـر إلى أدنـى مقدمات الرد العملي على الهزائـم التي يعاصرها وعينـا وعارنا. وكنـا نحاول كتابـة الشعر دون أن نعـي أنه شعر. كنـا نصرخ، نتوجع، نحتج، فلم نملـك أداة تعبير أخرى. وكانت أغلبية مواطنينا تسخـر منا، لأنها تعرف طفولتنا ومراهقتنا وصبانا معرفـة لا يليق بها الإعجـاب. صبيان يكتبون شعـراً. وكان لقب «شاعـر» طموحاً قاسيـاً يعذب. وفي أحسن الأحـوال كان بعض المعلميـن يقول: مبتدئون لهـم مستقبل. حتى العدو نفسه لم يكن يكتـرث بنا بشكل جاد. وفي الأمسيـات الشعرية التي كنا نقيمها في القـرى كان الفضول والاعتبار السياسـي وبنات المدرسة هي التـي تشجعنا. فقد كان الشعر «المعتبر»... الشعر المقبول، آنئذ، لدى الناس والصحف هو الشعـر القادم من الخارج... هو الشعر المصنوع خارج الأرض المحتلة.

وكانـت النجوم الشعريـة الرائجة في العالـم العربي هي ذاتها الرائجـة لدى صحف العـدو باستثناءات قليلة. ولـم نسأل يومها: كيف يملـك الشعر كل هذه القدرة علـى الاحتيال فيكون مطرب الأضداد؟

وبقينا مجهولين...

إلـى أن قام غسـان كنفاني بعمليته الفدائيـة الشهيرة: الإعلان عن وجود شعر في الأرض المحتلة، فانقلبت العلاقة داخل الأرض المحتلـة وخارجها. ومشى التطرف إلى نقيضه المتطرّف: لا شعر إلا في الأرض المحتلة!

الفضيحـة معروفـة. ولا أضيف هنـا جديـداً. وسأعترف بأن شهادتـي لا تتمتع بأيـة قيمة عدا قيمـة الاعتراف: نحـن الذين كنا نكتب ما سمـاه غسان «شعر المقاومة» لم نكـن نعرف أننا نكتب «شعـر مقاومة» وقد دهشـت، قبل سواي، بهـذا الشغف السياسي بمـا نكتبه. كل شيء قابل للتفسيـر كأن نقول: مرحلة تاريخية معينة انفتحـت فيها النفسية العربيـة الجريح على تقديس كل ما يرد من أرضـ فلسطين. ولكن... ولكن بعضنا داخ من اللذة، وبعضنا صار يصمم القصائد لحناجر المذيعين، وبعضنا خاف المسؤولية وقلق. وبعضنا أدرك أنها موجة وتنكسر ولا يبقى من هذا الزبد غير الشعب الحقيقي. ويومها... يومها كتبت: «أنقذونا من هذا الحب».

ولكننـا نعرف جيداً أن محاولات إلغـاء الشعر العربي الثوري كله بواسطة خطب حماسيـة أو بكائيات يكتبها شباب في الأرض المحتلـة، قيمتهم الفنيـة الأساسية هـي أنهم يعيشـون في الأرض المحتلة، ليست من صنع غسان كنفاني.

إن ما فعله غسان هو كسـر الحصار المضروب حول أوضاع العرب في الأرضـ المحتلة، وإضاءة كل موقع صمود يمارسه أبناء الشعـب الفلسطينـي هنـاك. وكان الشعر، ولا يـزال، أحد وسائل التعبير عن هذه المواقع وعن هذا الصمود.

وكان اكتشـاف العـرب بـأن العـرب فـي فلسطيـن المحتلة يتكلمـون اللغة العربيـة ويحبون بلادهم ويكرهـون الظلم اكتشافاً مذهـلاً... مذهلاً حتـى الخزي. ومع ذلك، أتـاح هذا الاكتشاف للصوت العربي القادم من هناك سعادة الإحساس بالانتشار والتغلب على الأسوار. وكان وعي أصحاب هذا الصوت بوجود من يستمع

إليهـم حافزاً لنموه وتطويره لـدى البعض، وعقبة أمام تطويره لدى البعض الآخر الذي اكتفى بالجغرافيا موهبة غير قابلة للمناقشة.

لقـد دل غسـان كنفاني الرأي العام العربـي على أدب الأرض المحتلـة. وأما المبالغـات واختلال الموازين فتلـك مسألة تخص الذيـن درسوا ما قدمـه غسان. لم تكن لفظـة «مقاومة» رائجة في الشعـر هناك قبل أن يطلقها غسـان عليه. وهكذا أيضاً دل المسمى على اسمه...

وإذا كان غسـان كنفاني قد شمـل، بهذه الصفة، كل من كتب باللغـة العربيـة في الأرض المحتلـة، فلأن أفراحه بمـا يجد كانت تشمـل الكتـاب وأشباه الكتـاب، والمقاوميـن واللامقاومين لأن أفراحـه كانت تشمـل اللغة العربية في فلسطيـن المحتلة. ولذلك، يمكن لفت الأنظـار الآن إلى أن بعض الأسماء الواردة في مقالات غسـان كنفانـي عن الأدب فـي الأرض المحتلة لا تحتـل أكثر من فاصل هامشي في حياة العرب هنالك، وبعضها يحتل هامشاً سلبياً يتناقض مع تقدير الوهلة الأولى.

وفـي الوقت الذي كان يكشف فيه غسـان كنفاني غطاء السر عمـا يكتبه كتاب الأرض المحتلة العـرب، كان يدرس نقيض هذه الكتابـة وإحدى مواد محاوراتها: الكتابـة الصهيونية، ودورها في تشكيل الوعي والكيان الصهيونيين. وبكلمات أخرى: كان يدرس فاعليـة الكتابة لدى العدو. فقدم بذلك أول دراسة عربية عن واحد من أخطر الموضوعـات الصهيونية. وكان بذلـك جديداً وكاشفاً ورائداً كعادته.

وإذا كانـت الصورة التي قدمها غسان عـن الأدب الصهيوني تفتقـر إلى تصوير بعضـ الجوانب المهمة فذلك يعـود إلى إعتماد غسـان على النصوص الانكليزية المختارة من الأدب العبري. وإذا كانـت هذه النصوص المنتقـاة وحدها كفيلـة بالتدليل على الدور التدميـري للثقافة الصهيونيـة، فكم ستكون الصـورة حالكة حين نطلع على الأصل العبري الصريح الذي لا يراعي متطلبات الحرص على الرأي العام خارج الوطن المحتل!

إن دراسة غسان تتمتع بقدرة كبيرة على التقاط الجوهري وإدراك الخصائصـ الأساسية للأدب الصهيوني، وتشكل حافزاً لدى دارسي اللغة العبرية لمواصلة خط الكشف الذي أسسه غسان كنفاني.

وقد يكـون من المفيد أن نعرف أن الأدب الصهيوني هو أحد وسائـل غسيل الدماغ الـذي يتعرض له طلبتنا العـرب في الأرض المحتلـة. ولذلك فإنه يحمـل إمكانية تشكيـل المكونات الثقافية للشـاب العربي الواسع تحت الاحتـلال، بغض النظر عن اتجاه رد فعلـه عليه. فهو قـد يؤثر في شـده إلى مقدمـات التعايش مع نمط الحياة الإسرائيلية ومن ثم إلى التخاذل أو التساهل تجاه ادعاء الحق الصهيونـي على أرض فلسطين. ومن ناحيـة ثانية يؤثر في شده إلى موقع الرفض لكل جوانب الحياة والفكر الصهيونيين.

* * *

ويا صديقي غسان!

إن البياضـ أمامـي كثير. ودمـك الذي يجف مـا زال يلون. لقـد ودعت مرحلة من حياتي حين كنـت أودعك. جئت ورأيت.

ورأيتـك كيف تذهب. لقـد اتسعت مساحة الأرضـ المحتلة ولم يعـد ذلك ميـزة. ودورة السجون تدور... تـودع وتستقبل. وكل أرض تـرى استشهاد أبناء شعبي. ونحن مطـاردون في كل مكان. والكاتـب ملعون ومتهم بالحياة والكتابـة. والوطن هو الوطن ولم تكتب فيه حرفاً واحداً. وأين هي الأرض غير المحتلة في السكون؟ وأين هي الأرض المحتلة في الثورة؟

ويا صديق غسان!

لـم نتناول طعام الغداء الأخير. ولم تعتذر عن تأخرك. تناولت سماعـة التلفون لألعنك كالمعتـاد: «الساعة الثانية ولم تصل! كف عن هذه العادة السيئة».

ولكنهم قالوا لي: قد انفجر!

والآن، أكتب إليك دون أن أخشى يد كمال ناصر التي خطفت رثائي لك. وقـال مازحاً: لا تنشر هذا الـكلام عن غسان كنفاني. هذا الكلام يليق بي... وسأقتل قريباً.

كان يمزح؟ نعم. ولكنه انفجر أيضاً.

لا أحد يحيا لنفسه كما يشاء.

ولكننا نراك في كل مـكان... تحيا فينا ولنا. وأنت لا تدري، ولا تعلم.

صباح الخير يا ماجد

صباح الخير يا ماجد

صباح الخير

انهضْ، واشرب قهوتكَ الفاترةَ علـى عَجَلٍ... على عَجَلٍ، يا حبيبي، لأن جُثَّتك الساخنة تنتظرنا على الدرجة الأخيرة، في ساحة الحَمَام، لنحملها ونغادر المدينة المطوَّقة بالعشاء الأخير.

انهضـ، لنسألـك في أيَّ ريـحٍ نسترسل، وأني نـذرفُ صلاةَ الزيتـون، والتوبـة عـن السفر خـارج الشرنقة، وفـي أي منحدرٍ، أو تـلٍّ، نُهيلُ عليك الـوردَ والمدائحَ، وفي جناح أيـة فراشةٍ نحفرُ نشيـدَ الحديـدِ، وبدايةَ الوطن الذي لا ينسلُّ من بدايتـه إلّا لُيطَمْئِنَ المدلجيـن، على رسلهم، إلـى أنهم حصى الطرقـات إليه، حصى الطرقات إلى الغامضِ المقدَّس.

انهضْ، لنسألكَ السؤالَ الأخير، يا حبيبي:

أين نفترقُ؟

انهضْ، فهذا صباحُ الأحدِ الصاحي على رائحة الأرغفة، نهارٌ مصقولٌ كمرايا أوائل الخريف، نظيف مُوَرَّدٌ بدمك الأول. الشرطةُ المعدنيَّة تصطفُ على جوانب نومك القصير، إشارة المرورِ خضراءُ مـن أَجلِكَ، روما لا تسمعُ إلّا صمتنا العاصـفَ. طائرة الأَرْزِ تفتحُ بطنها، منذ الفجر، لتأخـذك عن أكتافنا وتُقْلعَ. وأنت هناك، تحت مقاعد الدرجة الأولى تنام؛ في حقيبةٍ خشبيةٍ تنامُ، لا تدخِّن معنا ولا تتذكَّر، وشهادة الطبيب الشرعـي، ذي الغليون المشتعل، ترقد في جيب أحد المرافقيـن المدجَّجينَ باسمكَ. والقاتل هناك، يحتسي قهوة الأسبرسو على مائدة الرصيف، ويفكر في الجائزة.

وداعاً تماثيل روما
وداعاً حمامات روما
وداعاً نوافير ورما
وداعاً لكُلِّ هواءٍ يجيءْ...

... وإلـى أين نذهب، يا حبيبي، بـكَ؟ إلى أين تأخذنا في هذا الصبـاح الصافي كاليـوم الذي يتلـو المذابح. إلى أيـن تأخذنا في الصبـاح الصالح لكُلِّ رحلةٍ سوى رحلة البحث عن ضريح مُمْكِنٍ، وإلى أين نذهب؟

* * *

صباحُ الخير يا ماجدْ
صباحُ الخيرْ...
تلك هي تحيَّتُنا المكسورة كغصنٍ،
تلك هي نارنا المُعْلَنَة،

تلك هـي مرثيتنا السُكَّرِيَّةُ لفارس منحـوتٍ من فولاذٍ وسُكَّر، عليه سحابٌ خفيفٌ، عليه أطباق من نسورٍ...

مليون ناي تتوقَّـف عن العويل دفعةً واحدة. مليون نايٍ تتبخَّر في البـراري. سماءٌ تتَّسعُ لأوقيانوس من الغيـومِ الراكضة. عصافيرُ تختنـق فـي الحلق، ويصيـر الزفيـر نحاسـاً كلَّما ضربـه الصمت انفتحتْ جهاتُ الأرض عن جنازاتٍ، صباحُ الخير يا حبيبي، ذلك هو خطابنا إلى الملأ على أُذْنٍ لا سرَّ فيها ولا فضول.

إلى الأمام... إلى الأمام حتى ونحن تائهون. إلى الأمام لكي لا يبقى للندم دمعةٌ ولا ساعـةٌ. خطانا تهرسُ قلوبنَا كما تُهرسُ حبَّاتِ العنـب. ودروبنا تلتهمُ خطانا كمـا يلتهم المساءُ غابـةً من نخيلٍ. وبلادنا تَحتفلُ بألفِ قتيلٍ، في الدقيقة، كما تحتفي بمليون أقحوانةٍ تنفجرُ من باطن المطرِ الأولِ...

إلى الأمام، ليبقى الأمـام أَمامنا. لنختلف عَمَّا حولنا، لنختلف عَمَّا فينا.

إلى الأمام، حتى ونحن تائهون، ذلك هو خطابنا، تحيتنا، نارنا المُعلنة، مرثيتنا السُّكَّرِيَّة لفارس منحوتٍ من فولاذ وسُكَّر.

أيها العكس.

يا فضاءَ الكلمات المتصاعدةِ، من لحم الذين لا كلمات لهم،
يا خيمةَ النجومِ المثقوبةَ السقف، أيها البركان المُغطَّى بوردة، وبقـدم طفل يولد، يا كُلَّ الوصف الذي يحتاج إليه الإنسان ليكسر نظامَ الهزيمة المستتبّ.

يا فم العنقود المقطوع.

أيها العكس ترجَّل، ترجَّلْ قليلاً على أغصان القلب التي تيبَّسَت فاشرأبَّتْ لتتلقَّف خطاك. ترجَّلْ قليـلاً، أو تَطَايَرْ سريعاً، تطايَرْ لَعلَّ الرياحَ تضلُّ الطريقَ، بكَ فتسندكَ على سياجٍ هناكَ... هناكَ فيتبعها الموكـبُ الصامتُ، الواقف في ساحـة الحَمَام، في عطلة الأسبوع الإيطاليِّ، في مدينةٍ لا تحتملُ معادن هذا الصمت.

* * *

صباحُ الخيرِ يا ماجدْ
صباحُ الخيرْ
قُمِ اقْرَأْ سورةَ العائدْ.
وحُثَّ السَّيرْ
إلى بلدٍ فقدناهُ
بحادثِ سَيرْ.

لروما النُعاسِ، وعدوى الأزقةِ، والسَّرْنَمَهْ.
سأرفو الغيومَ الشريدة، روما، سأفتحُ قلبيَ حتى مداهُ،
وأشرب هذا النبيذَ السماويَّ، هذا النبيذ المؤدي إلى الله،
ألمسُ ظِلَّ الذين أحبُّوا وتاهوا،
وأسمعُ نبضَ يدٍ سُجنت في الرّخامِ وحَرَّرَها «انجلو»...
لروما النُعاسُ، وقلبيَ رادار كُلِّ العبيد علـى عتبات المسارحْ وكُلِّ الفتوحاتِ،

روما تُسَلِّم روما إلى غيرها.
وأنا لصديقي
وصديقي ليْ.
غريبان فيها...
نضيف خطانا إلى مسرحِ العَبَثِ البشريّ.

* * *

أتبحث عني
لِتُشْهِدَني كيف أنَّ الحمامةَ تحملُ في ريشها قمراً من ذهبْ
وترسمُ روما على هيئة القلبِ،
وهو يَعُدُّ الطفولةَ والماءَ في سَلَّةٍ من قَصَبْ؟
أتبحث عني
لتخبرني أنَّ روما رخامُ النساءِ، وقد مَسَّنا، وانْسكَبْ؟
أتبحث عني
لِتُبْصِرَني كيفَ أقضم تُفَّاحةَ الأرضِ خارجَ أرضِ العَرَبْ؟
أتبحث عني
لنمضْي إلى مطعم هادىءٍ، لتقولَ: كَبُرْنا
ولَمْ يذهبِ العمرُ في دربِ حيفا سُدَى

- أتحسَبُها الأندلسْ؟
- ولكنها طائرٌ في يدٍ مزَّقتها الرِّماح ولم تنبسِطْ

سأرجعُ بعد قليلٍ إليها

وأزرع متراً من الروحِ والخضرواتْ
وأبني على عُنُقي غرفة لـ «سماء»
وأبني على رُكبتي غرفةً لـ «سلام»
وأبني على تلَّةِ الروحِ داراً لـ «داليةْ»
– قريباً؟
– قريباً، ثلاثون حيفا تعودْ

أتبحث عني
لأشهد كيفَ تفرُّ العصافيرُ من قبضةٍ اليَدِ،
كيف يكون الفرَحْ
خطيئَتنا في المكان الأمينْ؟
أتبحث عني
لأحملَ ما يجعلُ القلبَ، بعدكَ، كيسَ طحينْ
أتبحث عني لِتُشْهِدَني مَصْرَعَكْ؟
أتبحث عني لتقتلي، يا حبيبي، مَعَكْ؟
لماذا، إذن، لم تجدني
لماذا
إذن
لم
تجدني؟

* * *

صباحُ الوردِ يا ماجدْ
صباحُ الوردْ،
قُم اقرأْ سورةَ العائدْ
وشُدَّ القيدْ
على بلدٍ حملناهُ
كوشم اليدْ.

* * *

مِنَ الصعبِ أَن أتأمَّل وجْهَ حبيبي
ولا أغمرَ الأفقَ المستديرَ
عَسَلْ.
من الصعب أن أتحسَّس كفَّ حبيبي
ولا أحْفَنَ السِّلْمَ منها
كَرَفِّ حَجَلْ.
مِنَ الصعبِ أنْ يتدفَّقَ صوتُ حبيبي
ولا يتحوَّل قَلبِي
إلى فرسٍ من أَمَلْ.
حبيبي، من الصعب أن أتأمَّلَ موتَ حبيبي
ولا أرميَ الأرضَ
في سلَّةِ المهملاتْ.

* * *

صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كانَ من حَقِّنا أن نسيرا
على شارعٍ من ترابٍ تفرَّعَ من موجةٍ متعبهْ
وسافر شرقاً إلى الهند،
سافرَ غرباً إلى قُرطبهْ...
أما كان من حقِّنا أن ننامَ ككُلِّ القِطَطْ
على ظلِّ حائطْ...
أما كان من حقِّنا أن نطيرا
ككُلِّ الطيور إلى تينةٍ متربهْ.

صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كان من حقنا أن نغنِّي
لعينينِ بُنّيتين تقيمان ما بيننا والالهْ
معاهدةً للسلامْ؟
أما كان من حقنا أن نُحبَّ، ونلعنها أُورشليمْ
إذا ما ادَّعى الكِذْبَ فيها نبيُّ الظلامْ؟
فقد يكذب الأنبياءُ،
وقد يصدقُ الشعراءُ كثيراً.

صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كان من حقنا أن نرى ما يراه
وما لا يراه أولو الأمرِ فينا؟
أما كان من حقِّنا أن نقول الكلامَ الذي لا يُقالْ
الكلامَ الذي ينتقي من غموضِ الفصولِ

وضوحَ النِّصالْ
الكلامَ الذي ينتقي من وضوحِ السيولِ
غموضَ قوى الروحِ فينا؟
صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كان من حقِّنا أن نداعب قِطَّةْ؟
أما كان من حقنا أن نرى وردةً
دون أن نتوجَّسَ فيها دماً قادماً من مكان قريبْ؟
أما كان من حقنا أنْ نَصدِّق أنَّ لروما قَمَرْ
وأنَّ لروما شَجَرْ؟
أما كان من حقِّنا أن نسافرَ داخل هذا السفر؟
أما كان من حقنا، يا حبيبي،
أن نسندَ التعبَ الحَلْوَ فوق حَجَرْ؟
أما كان من حقنا أن نسيرا
صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا؟

* * *

صباح الرَّفضِ يا ماجد
صباحُ الرَّفْضْ
قُم اقرأْ سورةَ العائدْ
وَصُبَّ النَّبضْ
على جسدٍ دعوناهُ
كتابَ الأرضْ.

* * *

...وماذا بعدَ هذي الأرضِ، ماذا
وزندك شارعٌ، وأنا رحيلُ
ثقبتَ الأرض بحثاً عن سواها
فأسندني، لأسندها، الجليلُ
فضاءٌ، أنتَ صرَّتُهُ، وحيداً
وحقلٌ، أنتَ طائرهُ الجميلُ

ولو...
لو استطيعُ حميتُ قلبي
من الآمالِ، لكني عليلُ
لنا جسدان من لُغَةٍ وخيلٍ
ولكن، ليس يحمينا صهيلُ
وكان السجنُ في الدنيا مكاناً
فحرَّرنا، ليقتلنا البديلُ
أنا أرضُ الأغاني، وهي ترمي
بمدحِكَ حنطةً. وأنا القتيلُ
أنا أعلى من الشعراء شنقاً
وأدناهم إلى عشب يميلُ
أحبُّكَ، إذْ أحبُ طلاقَ روحي
من الألفاظِ، والدنيا هديلُ

ولو...
لو أستطيع رفعت حيفا

كقنطرةٍ، لتبلُغَكَ الخليلُ
أحقاً أنَّ هذا الموتَ حقٌّ
وأنَّ البحرَ يطويهِ الأصيلُ
وإن مساحةَ الأشياء صارتْ
حدود الروحِ مُذْ غابَ الدليلُ؟
صديقي، يا صديقي، يا صديقي
أتعلم أن صمتك مستحيلُ؟

* * *

صباحُ الخيرِ يا ماجدْ
صباحُ الخيرِ والأبيضْ...
قُمِ اشربْ قهوتي وانهضْ...

... فـإنَّ جنازتي وصلـتْ، وروما كالمسدسِ، كُلُّ أرض الله روما، يا غريـب الدار، يا لحماً يغطي الواجهات وسادة الكلماتِ، يا لحمَ الفلسطينيِّ، يا خبزَ المسيح الصلبَ، يا قربانَ حوضِ الأبيض المتوسطِ... اختصر الطريـقَ عليك، يا لحمَ الفلسطينيِّ، يا سجادةَ الوثنـيِّ، يا كهف الحضارات القديمـة، يا بلاطَ الحاكم البدويِ، يا درعَ الفقيـرِ، ويـا زكاة المليونير، ويا مـزاداً زادَ عن طَلبات هذي السـوقِ. يا لحم الفلسطيني في الطرقـاتِ، يا نهراً من الأجسادِ في واحد تَجَمَّعْ، واجمعِ السَّاعدْ.

... ويا لحـمَ الفلسطينيِّ فوق موائد الحُكَّام، يا حجرَ التوازن والتضامن بين جلاديك، حرفُ الضادِ لا يحميكَ، فاختصرِ الطريق

عليـك يا لحم الفلسطينيِّ، يا شرعيـة البوليس والقديس إذ يتبادلان الاسـم، إذ يتناوبان عليك، يمتزجان، يتحدان، ينقسمان مملكتين، يقتتـلانِ فيـكَ، وحيـن تنهضُـ منهمـا يتوحـدان عليـكَ، يا لحم الفلسطينـيِّ، يا جغرافيا الفوضى، ويـا تاريخ هذا الشرق، فاختصر الطريـقَ عليكَ... حقلَ التجارب للصناعات الخفيفة والثقيلة، أيها اللحم الفلسطينيُّ، يا موسوعة البارودِ، منذُ المنجنيقِ إلى الصواريخ التي صنُعت لأجلك في U.S.A وأوروبا.

ويـا لحم الفلسطينيِّ في دول القبائل والدُويلات التي اختلفت على ثمن الشمندر، والبطاطا، وامتيـاز الكاز، واتّحدتْ على طردِ الفلسطيني من دمهِ.

تَجَمَّعْ أيها اللحم الفلسطيني في واحدْ
تجمَّعْ واجمعِ السَّاعدْ
صباحُ الخير يا ماجدْ
صباح الخيرْ
قُم اقرأْ سورةَ العائدْ
وصُبَّ الفَجرْ
على عُمرٍ حرقناهُ
لساعةِ نَصرْ.
صباح الخير يا ماجدْ
صباحُ الخيرْ!

معين بسيسو لا يجلس على مقعد الغياب

لا يترك مقعداً لغيابه. ولا نقوى على توجيه الخطاب المألوف، لأن قُوَّة الحضور فيه هي ما يدلُّ عليه، وعلينا أحياناً. إنه يجلس الآن أو يقف وسط بياض الورق والوداع زحاماً كاملاً لينشر علينا الصعوبة. وها أنذا أُعلن أنه يحاصرني تماماً، ويدلق عليّ حبر تاريخ لا يتماسك في كتابةٍ أولية، إذ لم أفتح دهشتي وصدمتي لاحتمال هذا الغياب الصاعق. هو لا يخرج مني ومن أيّ باب. كان شديد الشبه بعادات تُجاوزُ الألفة إلى الإدمان، وكان صديقاً شديد الالتباس؛ كان صديقاً يُحيِّر الصداقة، لأنه كان تَوَقُّعاً لا ينتهي إلّا ليفاجئ.

لا، لا أستطيع الكتابة في هذا الضجيج الذي يُثيره فيّ. كم مرة سأحاول، كم مرة سأرجوه أن ينصرف عني قليلاً لأراه بطريقة أدق، وكم مرة سيضعني في كتابة أولية؟ إن ما يطفوا عليّ من دم التجربة، الساخن، الطازج، يدلني، أيضاً، على أننا لم نبدأ كتابتنا منذ اللحظة التي لم نتمكنْ فيها من تلاوة وصيتنا الأخيرة على مكان، أو على أحد.

الشاعر يموت على طريقته الخاصـة؛ الشاعر ينفجر؛ يتطاير؛ يريد مفتـاح الغروب، ولكنه لا يعلم ماذا فعـل بنا. وللشاعر جَسَد أيضاً، ونبيذ، لأن للنشيد امرأة ونافذة... للنشيد فضاء. ولم يحدث أن انفصـل النشيد عن الجسد بمثل الفجيعـة التي تتمُّ في الحادث الفلسطيني الـذي صار، من فرط ما هو مألـوف، تراجيدياً بطريقة غير مألوفة. فهـل كان معين بسيسو – وهو يلتهم الحياة كما يلتهم طفلٌ جائع إجاصَةً – يدرك أيضاً أنه لا يمتلك مقعداً للموت؟

لقـد كَلَّفنا بهـذا الترتيب الإجرائـي ليدفع كُلَّ واحـدٍ منا إلى التفكيـر بتأميـن قبره. إن المنافي التي فَتَّش فيهـا عن الطمأنينة – و الطمأنينـةُ في قاموسنا هي حرية الصـراخ أو فوضى الانفجار – لا تُحصى بضربات قلب، إذ كان دائماً يبتعد عن غزة فيصارع النشيد الـذي لا يمتثل ولا يمتدُّ جسراً، فلا يكون الرصيف عندئذٍ إلّا إلقاء النفس فـي العاصفـة، دون أن نُحَرِّك سؤالنا العسيـر: هل يستطيع الفلسطينيُّ أن يكون شاعراً؟

لقد قُدِّمت الإجابة على السؤال المُعدَّل: نعم، يستطيع الشاعر أن يكـون فلسطينيـاً. ومـاذا يعني ذلـك؟ يعني أن يتخبَّـط السؤال الأول في المجرى العاصف، فـي المذبحة والوحشة والخيبة، في البحث عن شروط الكتابة وعادات لا تستوي، لأن الأوطان تُحمل في القلـب، ولكن القلب لا يسكن النشيـد، لأن النشيد لا يُصطاد ولا يُسْتَلهـم؛ لأن النشيـد لا يكون فينا غير ما هـو فينا؛ لأنه ينزلق: مطالـع يبترها الرحيل، مقاطع تتأرجح بين جنون الشاعر وواجبات الممرّضة، واستغاثة أفق لا يُغَطِّي أَحداً.

وهـا هو... ها هـو النشيد يدفعنا إلى بحـث آخر: عن محطة الانفصـال الفاجع بيـن النشيد والجسد، وكأن هـذا الانفصال في حياتنا هو الالتحام الممكن لحياتنا، كأنه هو فضاء النشيد الممكن، أو اللغة التـي لا تأتلف مع ظلالها المحروقة، لأن الجسد هو الذي يقول... هو القول.

أنظروا إلى تألُّب معين بسيسو على الأمكنة التي لا مكان له فيها، لتـروا غربة الروح في شـكل لا يوافقها. إن سيرة المنافي والزنازين كمـا عاشها، ورواها، وأنطقته الوضوح الحـاد، والغرابة الخشنة، وجعلتـه أحد المعبرين، بامتياز، عن لعنة المـكان الفلسطيني، هي سيرة الانتقـال المعاكس للبطل التراجيدي من النصّ إلى الواقع. إذ لا نستطيـع أن نماثـل بين ما نقرأ وما نعيشـ، لا في النص الماضي الـذي روى عذاب غيرنا، ولا في النصـ الحاضر الذي لا يستطيع مقاربـة عذابنا. لا، ليس لهذا الرحيل من مثيل. وليس لاندفاع هذه الخيول إلى هذه الهاوية، الجنة، من موروث.

لذلـك كان البطـلُ فينا، لا البطـل التراجيدي، هـو مَنْ يقوى علـى مواصلة حلم مُسَيّج ببنادق الأعداءَ، الذين تعددت أسماؤهم، واختلطـت لتُعمّق حاسَّة الفلسطيني بأنـه وحيد على هذه الأرض، وحيد مع الأرض الوحيدة مع ذاتها.

إن معيـن بسيسو، مواطناً بلا وطن ومنشـداً بلا نشيد، يمثل هذه الصلابة الخارقة، صلابة الحلم في جسد يمزقه الرصاص من كُلِّ جهة ونظام. كان يدرك أن المنفى يأخذه إلى منفى آخر، وكان يـدرك أنه يـدور حول غزة، مجموعتـه الشمسيـة الخاصة، التي تمثّل ملكيـة أحلامه الخاصة وذكرياتـه الخصوصية، ولا ترتخي قبضة يده الممسكة بجمرة الحلم. وكان يؤمن بأن للقصيدة طاقة الملموس الفاعل.

لقـد ضرَجَّته الخيبات، ولعله كان أكثرنـا انتباهاً لخطر الثورة المضـادة ولتربُص الأنظمـة بالحلم، فتحدى بشراسـةٍ لا تُضَاهى. كان أشدنا شراسة في استخدام الشعر في معارك الدفاع عن اليوميّ الفلسطينـي، وعـن الحلم الفلسطينـي، وكان أشدنـا بحثاً عما هو ليس بمألوف: ليس من حَـقِّ سيبويه أن يتدخل في طريقة استشهاد الفلسطيني، وليس من حَقِّ البرتقال الفولكلوري، الذي كان يمقته، أن يستعبد وجدان شعب، وليس من حق الشعراء أن يتباروا على ما هو شكل وعلى ما ليس بواضح.

كل شـيء واضـح – كان يقـول – القاتل واضـح، والضحية واضحـة، فلمـاذا الغموض؟ كان يخلـط بيـن الغموض والردة والهروب. و وكان يقيس الشعر بمدى فاعليته الراهنة، وجماهيريته الشائعـة، لأنه عَـدُوُ الغُرف المغلقة. لذلـك، كان يتفادى الانفراد بذاتـه الشاعرة. كان ينفر من المكاشفة الشعرية الداخلية، فقد ألَقى بهذه الذات إلى العام، إلى أدوات حكم الشارع؛ إلى اليومي.

ولذلـك، أيضـاً، كان حضـوره كامـلاً فـي يوميـات الحياة الفلسطينيـة، الأمـر الذي يُفَسّر امتـزاج أدواره المتعـددة، لتكون للشاعـر سيادةُ المسـرح. هاجس السبـق هو هاجسـه: بالأغنية، بالمقالـة، بالمسرحية، بالبرنامج الإذاعـي والتلفزيوني كان ينشب مخالب دوره في زمن سماه زمن الكلاب. يريد أن يهيمن على كل منعطـف وعنوان، ليعيد للشاعر وظيفة سابقة ظَنَّها أفلتت من أيدي الشعراء، لنذالتهم من جهة، ولرداءة زمانهم من جهة أخرى.

يتحـد الشاعر والسياسيُّ فيه في قبضة واحدة وخطاب واحد، لأن الشاعر يُطَوِّر فيـه المناضل، ولأن المناضل فيه يُطَّور فيه يُطَور

الشعـر ليحلّق بجناحيه: الشعر والموقـف. الشعر – بالنسبة إليه – لا يُحاسـب خارج دوره ورسالته، ولـو كان جميلاً، فليس هنالك من جمال لا يفيـد، جمال مجاني. والشعر الـرديء، بالنسبة إليه، ولو تلبَّـس دوراً متقدماً هو شكل من أشكال الثورة المضادة، إذ لا تستطيـع فلسطين أن تغفر الإساءة التي تلحقها بجمالها، وعدالتها، قصيدة فلسطينية رديئة.

صرخ ذات مرة في وجوه الكُتّاب الفلسطينيين: قبل أن تكتبوا لفلسطيـن بالدم تعلّموا كيف تكتبون بالحبر. وهكذا كانت قصيدة معيـن بسيسو دائمـاً بمثابة ذخيرة حيـة في معركة حيـة، متوترة، مباشرة، شرسة، وسبّاقة. وأنا لم أعرف شاعراً عربياً معاصراً في مثل هـذه الشراسة. لا ينطقه غيرُ التحـدي، ولا يتوهج إلّا في المعارك. وهـو محتـاج دائماً إلى ثنائيـة: يحتاج إلى خصـم محدد وملامح محددة، وكان أحياناً يحتاج إلي... يحتاج إليّ للصداقة وللمبارزة. وأشعر أنـه منذ التقينا وَجَدني... وجدني طرفاً للمحاورة المباشرة أو الملتويـة، طرفاً للاعتـراف وللاختلاف. وكنا دائمـاً على سفر دائم، على ظهر موجة. وكنت أراقب فيه شهية حياةٍ مجنونة.

سنقتـرب، عما قليل، مـن صدمة عالية: ليس مـن حَقّ الحالة الفلسطينيـة أن تختار مهداً لولادة. نولد كيفما اتفق، وحيثما اتفق. ولكـن، مضى علينا عمر طويل وموت كثير لنعـرف مأزقاً آخر، إذ ليـس لأحدٍ منا قبر. كان معين بسيسـو، المجبول بشهوات كُلِّ ما يشيـر إلى الحيـاة، يتحاشى هذه الملاحظة. كان يهـرب منها لأنه كان يخافهـا، أو كان مسكونـاً بهاجسٍ آخـر: أن يُعمِّق ختمه على الزمـن، وأن يضـع توقيعـه على كل مـكان، أن يغرسـ شجرة، أن

يترجـم غزة إلى أكبر عدد من اللغات. أن يبني كوخاً من المطر، أن يجبل قامة من ريح. كان يطرد فكرة الموت كما يطرد ذبابة. وكان يمازحنـا ويهددنا جميعاً بالرثاء. كان يكره الرثاء، ويمقت المشهد الفلسطينـي اليومي في طابور المـوت. كُلُّ أثاث الغياب مرميٌّ في سخريته الشهيرة: الجنازة، الملصق، كلمات الرثاء التي لا تشير إلى تعديـل على اسم المسافر... الأشياء ذاتها ذاتها تتكرر. وكان يستثني صورته من المشهد، ويعبُّ الحياة والسخرية.

فهـل كان انطباعنـا السريـع حـول خُلُـوِّه من فكـرة الموت صحيحاً؟ لا أظن... لأن من شاهد معين بسيسو، في أيامه الأخيرة، شاهـد خدوشاً في تمثال الضوء. كان حزيناً كوقفة وداع منكسرة. لـم تكن بيـروت أندلُسَهُ كمـال قال، ولكـن ما تعرضَّ لـه الحلم الفلسطينـي على أيدي بعض حُرَّاسه وجّـه إلى روح معين رصاصة الاكتئـاب. لقد هرم قليلاً حارس النـار. ولعلّه ذهب هذه المرة إلى ذاته التي كان يُحكم عليها إغلاق الرتاج واستعرض الشريط. حاول أن يحصي منافيه، وسكاكينه، فأخطأ وما زالت غزة تبتعد...

ومـاذا يفعل الشعر؟ كانت أحلامـه الشخصية الأخيرة هي أن يشيخ هناك: على ساحلٍ تخيَّله أرض الشهوة المحققة، أو القصيدة النهائية. لقد اصطدم بوحشة الروح، وتعب الجسد، وامتداد النشيد في أُفقٍ ينغلق. وكان يكابر ويكابر. ومنذ البداية، منذ البداية البعيدة كنتُ أفسِّر شبق الحياة فيه بخوفٍ خفيّ من موت لم يُعِدَّ له إطاره، فـكان يسابق مـا ليس لائقاً بـه - الموت، وذلك مـا يشرح خوفه العميق من الطب، إذ لا يريد أن يرى صورة قلبه إلا في الكتابة. كان يعالج نفسه وأوجاعه بالتهام الحياة.

وحين كان يتجول بين قذائف بيروت كان يدرك أنه لن يموت لأنه لا يريد أن يموت؛ لأنه يكتب ويمتلئ حياة. كان موت الأشياء فيه يتمُّ في اللحظة التي يكمل فيها غناءه أو صرخته. كان الحب يضربه أحياناً بسيفٍ من برق، وكانت القصيدة هي التي تُشفيه ليموت الحب. لماذا سمّى عمله الأخير بهذا الاسم «القصيدة»؟ ألأنه كان عرضةً لإحساسٍ بالنهاية التي تُكَلِّل حياته بهذا العنوان النهائي؟

نعم، ليس من حق الفلسطيني أن يكون شاعراً ما دام مجهول المهد واللحد، فالفلسطيني ذاته هو القصيدة، هو النشيد المقطوع، وعلى غيره أن يصوغه أو يكمله، فهو مشغول باختيار وحيد هو اللحظة الممتدة من مهد لم تختره أمه إلى لحدٍ لا يعرفه؛ مشغول بصياغة حياةٍ تفيض عن أدوات العمل الشعري، وعليه أن يختار حياة الحرية في مكان ليس له، ليس له أبداً، وأن يؤسس مشروع الحرية ودولة الحلم – إذا كان للحلم دولة – على محطة قطار أو في قاعة انتظار في مطار، أو على رصيف ميناء؛ وأن يكون جاهزاً أَبداً لرحيل آخر عكس الوطن وعكس الذات. فبم أُسيِّجُ ذاتي؟ ومن أين أستمدُّ لغتي؟ لذلك لا يُرى الفلسطيني إلّا في جلوسه على لحظة الموت. لا يدلُّ علينا سوى موتنا. أما أن يحيا، أن يدخل في دورة المألوف البشري، أن يكتب شعراً، أن يحمل ورداً إلى امرأة – فتلك إدانة الآخر له، وعقدة الذنب فيه.

وهكذا لا يعتدي الآخر على حقّنا في مكان، وعلى فكرة البطل فينا، بل يعتدي على الإنسان فينا، ويستشري الآخر حين يُجاوز مساحته ويدخل في «أنا» يَ ليمزقني. عليك أن تختلف،

وأن تختلف، وأن تختلف لتكون - تلك مطالبةٌ تشي ببراءة وبنيّة اغتيالٍ معاً. لذلك يخشى الفلسطيني أن يموت في غرفة، لأن الغرفة إن لم تكن غرفة تعذيب تكون قفص اتهام. علينا أن نكون ملائكة أو شياطين، فهل تمَّ إدراك مثل هذا الظلم بتحويل الفلسطيني من إنسان إلى نمط؟ وهل يستطيع الفلسطيني بعد ذلك أن يكون شاعراً؟ نعم، يستطيع الفلسطيني أن يكون شاعراً إذا نهض من عقدة إثم الحياة والقدرة على فرح طائش، إذا ما تمرد على ما حوله، وما فيه، من نمطية، إذا عاش حياته وصاغها بتوازنٍ لا توازن إلا بانكسار أحد عناصر التوازن، كأن يهيئ للمطلق حاسّة تتعايش مع اليومي الذي يصعب التعايش معه، أو كأن يُجَنّ.

من هنا أقدم استغرابي ظاهرة انصراف الكتابة الفلسطينية إلى تمجيد الموت، الأمر الذي يُفَسِّر هشاشتها، لأن هذا الميل الشائع هو ابتعاد بريء عن مصدر القوة الروحية الفلسطينية وهي قوة الحياة. لقد عاش معين بسيسو في هذه القوة، وحاول أن يحيا، حاول أن يكسر محاولة الآخر تحويل الفلسطيني من إنسان إلى نمط. وهكذا كان ابن حية تتوتر، وتبحث عن حياتها في الحرية.

يجلس على نظرتي إليه

ما زلتُ أمزِّق الصيغة المألوفة لرسم مشهد. لقد مضى الشاعر ساحباً خلفه عاصفته الخاصة، تاركاً لنا أن نتتبَّع آثار الشجر المكسور والنوافذ المعلقة على فضاء؟ وتاركاً لنا أن نقرأ النشيد المعفى من تطابق مع الجسد، النشيد الممتحن لذاته، النشيد العاري من أية حماية خارج قوته الذاتية؟ النشيد الباقي بلا وساطة.

فتلك حرية القارئ الصغيرة، يحتاجها ليخرج سليماً من زحام الانطباعات، والألفة، وضغط الشاعر أو إلحاحه الذي أدمنّاه، ليتساءل: ماذا يترك لي الشاعر، لي أنا البريء، حين يخرج من نشيده، حين يُخلي مشهده الشعري من ضجيجه. وحين يُزوِّدني بقليل من نسيانٍ ينفع ذاكرتي؟

لست ذلك القارئ الذي يهددني، ويتوعد أي شاعر كان في وسعه ألا يكون فلسطينياً بشروط أقلها الجنون. فما أصعب أن يكون الشاعر فلسطينياً، وأصعب من ذلك ألّا يكون ما وَهَبَتْهُ اللعنة: فهو مطالب بسباق مع إيقاع اليومي وبإدراك لا يدرك بذاك الإيقاع: مُطالب بالشرط ونقيضه؛ منبوذ، ملتبس، ناجح فاشل معاً سلفاً، مختوم، محكوم، مُدلَّل، مظلوم، متنازع عليه في الشعر كتنازع

البورصة على وطنه في السياسة، كان يسأله قارئ بريء: ماذا ستكتب بلا فلسطين أو بعد فلسطين؟ وكان يسأله طالب آداب: هل أنت شاعر أم مناضل وأين الحدود بين الجوابين؟ أو... كأن تخرج اليد، من صفوف الجنازة، بنت شهيد لتطالبه برؤية أبيها في أول قصيدة قادمة، أو كأن تخدعه الأسئلة فيسأل: أهناك شعب يحب الشعر إلى هذا الحد؟ لا، ليس ذلك هاجس الشعر بقدرة ما هو تَلَهُّفُ شعبَ إلى الإمساك بهوية وطنية يخشى عليها من الإفلات. وجود يتفكك ويعاد تركيبه في وطن القصيدة – الهوية.

أين معين بسيسو من مأزقه؟ لقد اكتمل المقطع الفردي في النشيد العام؛ ولكنه لم ينفصل عن مجرى ما زال يجري فيَّ وفي المشهد. لذلك يصعب النظر من خارج. تحاصرني الصعوبة من كل ناحية، وتحاصرني أولاً حاجتي إلى صياغة هويتي الثقافية... لأن هذا الحصار الذي أعيه يُحرِّرني من ذوبان لا أريده الآن؛ فعلى الشتات الفلسطيني أن يؤلف وحدة الإحساس بحالته ووعيه بها قبل أن ينتقل إلى اختلاف أعلى، فنحن في حاجة غريزية إلى أرض خرافة؛ لنؤسِّس شرط تكوُّنٍ لم يتم تَكوُّنُهُ في وعي سابق؛ وعي لم نكن وحدنا ضحاياه إلا بقدر ما كنا، أكثر من غيرنا، عرضة للتضحية.

لذلك لا نؤرخ حاضرنا التجريبي الممتد، لأنه يفتقر إلى مرجعية خاصة متبلورة. ألهذا السبب أمزِّق صيغتي المألوفة لرسم مشهد؟ ألهذا السبب لم أتمكن بعد من الكتابة عن معين بسيسو في الصياغة التي تتطلبها أطراف شخصيةٍ عاصفة تشير إلينا كما تشير حالتنا إليه بطريقة مُلخِّصة؟

رُبَّما؟

ولكنني أكابد صعوبة خاصة في خصوصية علاقتي به؛ خصوصية تجعلني أمزِّق اقترابي من محاولة تفتيت شخصيته إلى عناصر. حتى وداعي له لم يتم لأنني لم أجد الغياب الذي يمنحني القدرة على تفقد ما فعلت بي العاصفة، وعلى النظر – من بعيد ما – إلى المشهد الذي وضعني فيه طرفاً في ثنائية كانت ترهقني أحياناً. لقد اختار سباق الخيول، وكان رهانه على اليومي. وكانت متعته أن يفتح الملعب للمتفرجين. وحين نلتقي، ويقدم لي قلبه على طبق الخيبة من الآخرين، كنت أنتقي أكثر الألفاظ رقة، أو خشونة، لأقنعه بسرية الكتابة الشعرية: هنالك – يا صديقي – فارق بين أن يكتب الشاعر عن الناس وللناس وبين أن يكتب قصيدة أمام الناس! هل كان من المجدي إسداء هذه الملاحظة لشاعر مليء بالمظاهرة والشوارع، مزدحم بهتاف متدفق؟ كلا، إذ كيف تلجم شاعراً يؤمن حتى التديُّن بأن للقصيدة قوة حركة، قوة حزب، قوة قادرة على التغيير الفوري.

كنتُ أغبطه. هذا الشاعر المتميِّز لا يصلح للسكون وفلاحة الكلمات. كان يمتثل مایاكوفسكي – كما أتاه مترجماً في لغة التبشير الثوري في الشعر – وهو يبتلع الشوارع. يخوض معاركه الأدبية بموهبته الفذة، وقميصه الأصفر، ويديه إذا لزم الأمر ضد نقاد الصفحة الأدبية في «برافدا». هذا الشاعر لا يصلح لترويض نفسه ولغته والتساؤل عن إشكالية دور الشعر، لأنه لم يُخْلَقْ للداخل ومراجعة الذات. ينقضّ كما الطلقة لأنه لا يستطيع أن يعترف باللحظة التي التبست فيها فاعلية القصيدة وفاعلية العمل. القصيدة – قصيدته تقود، هنا والآن، حركة شعب. لقد اعتاد ذلك. القصيدة هي القراءة الحالية بتفاصيل شروط إنتاجها الآنية. القصيدة هي لحظة الحاضر الصارخة، وهي التي تحدد طريقة قراءتها من زاوية واحدة، فإما أن تستجيب وإما أن تخيب.

وكنتُ أغبط هذا الإيمان الذي يُسلطه عليَّ اتهاماً. ولم نفترق. كنا نذهب إلى الدعابة. ولماذا نفترق ما دامت السنبلة تدل على القنبلة؟ هكذا كان يمزج الأصدقاء. تداعي القافية يتطابق مع وصف ثنائية. وها هو معين بسيسو يجلس هنا على نظرتي إليه، فأخفي عنه قصيدة الرثاء التي لم تعجبني لأنها لم تلتقط ما فيه من نحل ومفارقات. بدلاً من ذلك يأخذني إلى كل قطار. لا نستطيع أن نحكي عن سفر إلّا وكان أحدنا شاهداً: لم يكن رسول حمزاتوف معجباً بشعرنا – كما ظن معين – حين ألحَّ علينا أن نصعد معه إلى أعلى جبال آسيا الوسطى، مزداناً بأوسمته التي حطمت تقاليد البيروقراطية واستطاعت أن تفتح المقهى. شعر معين بزهو. ولكن ما كدنا نجلس على المقاعد حتى بادرنا حمزاتوف بالسؤال: من أين أنتما؟ لم يصدق معين بسيسو أن شعره لم يدل عليه، بل دلت عليه المرافقة الطويلة التي أعجبت حمزاتوف فدعانا من أجلها! قال لي معين: في المرة القادمة سأثق بريبتك! ولم يغادر حمزاتوف المقهى إلا بعدما أجهز على الكاتب الهندي سجاد ظهير، أجهز عليه بمزيد من كؤوس الكونياك الأرمني. وكان عليَّ حين ترأست جلسة المساء في مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا أن أعلن أن سجاد ظهير استشهد اليوم وهو يدافع عن مبادئنا! لم يعرف معين كيف يميِّز بين البكاء والضحك لجريمة حمزاتوف البريئة إلا بعدما أجهز على صديقه يوري الذي لقي مصير الهندي بعد أيام. ومرة أخرى، لم يصدق معين ريبتي حين قال بزهو: أنظر كيف يعاملون الشعراء؟ وهو يتقدم من فتاة جميلة تحمل الورد على رصيف محطة القطار في تالين اسْتُونيا لتأخذنا إلى الفندق. بعد قليل اتصل بي معين ليقول: نحن في ورطة وعلينا أن نغادر الفندق فوراً، فتلك الفتاة استقبلتنا باعتبارنا راقصين من كوبا! قلت له: لن نخرج إلى ثلج

يبلـغ ارتفاعه مترين حتى لو كلَّفنا ذلك أن نرقص. فلنرقص إذن، ما الفارق: راقصان من كوبا أم شاعران من فلسطين؟ و... ومفارقات وسفر... وسفر... ومرايا تحمل وجوهاً أخرى.

... وكان معيـن بسيسـو يحيا حياته كُلها، فـي لحظة، من أجل قصيدة يعيد إنتاجها حياة يحياها باندفاع وشغف. كان يخترق حصار بيـروت ليبقى تحت الحصار: ليكتب قصيدة الحصار، ليحقق هوس التطابق بين الشعـر والموقف، وبين الموقـف والموقع، لأن الموقع عنـده هو الجوهر، هو معيار الحقيقة والصدق والشعر. وكان يكتب القصيـدة ليصمد في بيـروت، ليخلق أسباب حيـاة لا يعتقد أنها هبة بقـدر ما هي إنجاز. كان يخلط الواقع بشـكل التعبير عنه ليوتّر ذاته، ليجدها، ليبرر ويفسّر ما لا يُفسّر من طاقات المقاومين. وكان مسكوناً بهاجس أن التاريخ قد يتفرّغ لمراقبة الشاعـر وللبحث عن التناقض بيـن موقعه وبين شعـره. دور الشاعر هو أحـد المفاتيح الأكثر أهمية لفهـم تميّز شعر معين بسيسو، فحين يجـد دوره يجد صوته. وكنت أغبطه، كنـت أغبط كيفية تفجـر طاقاته كلها، الشعريـة والإنسانية، فـي المعارك الساخنة. هناك يولد دائمـاً وهناك يعثر على سره. هناك يصدق المواطن الشاعر فيه. هناك تأخذ «الكذبة» الفنية معنى التطابق الكامـل بين القصيـدة والواقع فـي عملية تفاعل معاكسـة، إذ يصبح الواقع هو انعكاس القصيـدة لدى معين بسيسو. فمن كان قادراً على إقنـاع معين بأن الإسرائيليين قد يدخلون بيروت؟ كان يفقد صوابه لا لسبـب إلا لأنه خلق واقعاً حين قـال لهم: «لن تدخلوا بيروت». لقد تحوَّل القرار الشعري الذي اتخذه الشاعر لاستنفار روح مقاومة إلى قوة مادية لا يمكن اختراقها. وهكذا قد يكذب الواقع لتبقى القصيدة علـى صواب. وحين اهتز صمود المطلع الشعري أمام عنف القصف

الجوي والبحـري والبري ارتبك الشاعر خوفاً مـن هزيمة صرخته، فخرج يبحث عـن أمل أسطوري، راح يتطلع إلـى البحر لعله يحمل النجدة للقصيدة! ومن كان من قبل قادراً على إقناع معين بسيسو بأن قصائـده اليوميـة، الساخنة والجميلة، أثناء حصار تـل الزعتر لا تُغني المحاصرين في المخيم عن الماء والغذاء والذخيرة؟

لقد خلق الشاعر وهمه الخلاّق الضروري لتفجير ذاته الشعرية، مـن الموقع الذي اختاره، فهذا الوهم الجميـل كان أداة من أدوات التنقيـب عن القصائد. وإلا، فكيف يكتـب الشاعر إذا فقد الإيمان بفاعليـة الكتابـة – الاستجابـة؟ الفاعلية – لا الجماليـة. الآن – لا التاريـخ. هنا – وهنا فقط هي أدوات تطابق القصيدة والموقع الذي هـو شاغله. وأكاد أقول إن قوته الأدبية – والإعلامية – في المعارك الحادة تعود إلى قوة إيمانه بدور الشاعر التي تتجاوز اهتمامه بجمالية الشعر. وأشهد أنني كنت أعارض دائماً تقليدية طرح السؤال في كل معركـة: والآن، مـا هو دور الشاعر؟ وكان معيـن بسيسو يُعفينا من هـذا العذاب. كان يقدم جوابه الخاصـ نيابة عن كل الشعراء. فهذا هو الشاعر، وهذا هو دوره، وها نحن نتبرأ من التقصير...

شاعر الدور، وشاعـر المبارزة، دون كيشوتي الدلالة النقدية، ضـد هذا السائد فـي الخطاب السياسي الرسمـي الأجوف. لعله، أو أنـه أكثـر الشعـراء العـرب المعاصرين هجـاء لمساحة الطلاق المكشوفة بيـن الواقع العربي وبين خطاب هـذا الواقع كما يقدمه النظام. لقد أشهر كل أدواته الهجائية، من صفات الحيوان إلى مزايا الطبول، ليشهد بكل هذا الكـذب، كان شاعر الرازحين تحت نير هـذا «الاستقلال» العربـي. كان يحطم الأصنـام السياسية، وكان

يحطم أصنام الشعراء لأنهم يكذبون بطريقة تختلف عن طريقته هو في الكذب. فكذبته الفنية تتأسس على ما في شعر اللحظة الراهنة من طاقات تفجير وتغيير، بينما تتأسس كذبة سواه على المستقبل الكامن في القصيدة، فاعلية وقراءة. وهذا الشاعر الذي أراد أن يكون فارساً كان يقاوم فروسية سواه. إذ لم تكن فلسطين فرسه العرجاء، لذلك كان خصماً لرداءة الكتابة الفلسطينية عن فلسطين، ولكل رموزها الجاهزة. كان يريدها قصيدة هاربة هو فارسها، ويرفض جلوس الثورة على مقعد السلطة. هكذا يقول شعره، دون أن ينسى الدفاع المستميت عن استقلال الإرادة، والقرار الفلسطينيين، فسيادة فلسطين للشعر، على الرغم من أنه كان سياسياً في الشعر، وشاعراً في السياسية. كان يقول السياسة شعراً، ويقول الشعر سياسة. هدم حدود التمايز بين المستويين، ليوحد طبيعة نشاط من الصعب أن تتوحد مع خصوصية نشاط آخر. هل فعل ذلك استجابة لصعوبة أن يكون الفلسطيني شاعراً؟ أم لاختلاط حدود العمل الفلسطيني التي تطالب الشاعر بدور مباشر في شروط هذا الجحيم؟ أم لأنه لم يتمكن من الاعتراف بوجود شعر خارج النضال المباشر؟ أم لأنه وقف في المرحلة الأولى من أسئلة الشد والثورة. كان يراوح بين شروط خاصة لعالمين يلتقيان ولا يتطابقان، ولكن كان يحاول أن يحدث عملية التطابق شبه المستحيلة، لأنه كان يريد أن يصون حضوره الدائم في قلب المشهد حتى تحول هو نفسه، بشعره ونشاطه ومفارقاته، إلى مشهد.

وما زلت أمزِّق هذه الصيغة المألوفة لرسم مشهد، فالعاصفة لم تهدأ وما زالت الأشجار تنحني وتقف. وما زال هو يجلس على نظرتي إليه: «هذا ليس أنا. حاولني من جديد. اكتب وداعاً آخر».

لعله يريد كمال صورته أمامنا. نعم، هذا المشهد ليس هو. سنحتاج إلـى قليل من الغياب لنرى بشكل أوضح. وهو يرفض أن يتزحزح. لقد حـوَّل حياتنا إلـى خلية نحـل ذات طنيـن. كان الخبر اليومي وصانـع الخبـر. وكاد يقتلني أكثر من مـرة، لا كما قتل حمزاتوف سجاد ظهير، فقد استلَّ مسدسه، ذات مرة، ليحسم نقاشاً مع قارئ خبيث قال له إن المحاصرين في تل الزعتر محتاجون إلى الماء أكثر من حاجتهم للشعر، فمـرت الرصاصة – فوق كتفي. ومرة أخرى حين وضـع على باب غرفته في لندن شـارة «رجاء عدم الإزعاج» لـم يزعجه أحد... ليموت على مهل، فنبَّهنـي إلى أننا قد ننجو من القذائـف لنقع في غدر القلب، لنمـوت بطريقة. أزعجت خالد بن الوليد. شكـراً لحاسة النسيان الضروريـة للحياة. ومنذ وضع تلك الإشـارة نزعتُها من أبواب غُرفي في كل الفنادق. أريد من يزعجني وأنا أموت. ثم ناداني كثيراً إلى أن انقضَّ قلبي علي. سألني الطبيب: ما هي العلامة الأولى لإصابتك؟ قلت: شعرت بأن قلبي يناديني... ينادينـي منذ شهرين؟ سأل الطبيب: هـل فقدت عزيزاً؟ قلت: نعم، فقدتُ معين بسيسـو. قال الطبيب: من حسن حظك أنك وجدت من أزعج غيبوبتك. هل تعلم أنك مُتَّ لمدة دقيقة ونصف... ما هو لون الموت؟ قلت: أبيض!

أمـا زال معين نائمـاً في ذلك البياض؟ أما زلـتُ أحاول وضع المشهد في مشهد؟ سأحاول مرة أخرى... وسأمزق هذا الورق...

1986

هكذا كتب السجين قصيدته الأولى عن القدس

- لماذا القدس الآن؟

لأن الذين يبحثون عن الطفل، الليلة، لن يجدوه في المغارة قرب بيت لحم.

مطر وأجراس، شموع و نبيذ، مطر وجنود. أجراس كثيرة تدق في البعيد الذي يعتقد أن الميلاد قد بدأ. أما الأجراس القريبة فتختبئ في الصدأ لأن الميلاد لم يولد، ولأن المغارة محاصرة بالبنادق.

هو في القدس أوضح
وهي فيه تذبح،
ولكن حجارتها أعطت لرائحة البخور لوناً، لأنها بيت الروح.

لماذا القدس؟

لأنني لم أتمكن من إحصاء التلال التي يدخلها الزائر من جرح قديم، كما يدخل أقبية القلب.

ولأنه، هو، لم يولد إلا من دمه.

● أمن هذه الحجارة تأتي الريح؟

– ومنها أنْحَتُ القلب وأعلِّقُه على هيئة الصخرة الطائرة.

لتنسني يميني إذا نسيتك يا أورشليم.

● وهل نسيت؟

– أنا لا أعرف القدس!

* * *

لم أكن قد شربت قهوة الصباح حين اقتحم غرفتي ضابط إسرائيلي يلفظ الحروف الحلقية بلهجة عراقية: لماذا لم تقدم نفسك للشرطة؟

● لم يطلب مني أحد ذلك.

– كان عليك أن تتطوع. نحن الآن في الثاني عشر من حزيران، الحرب توشك على الانتهاء وما زلت طليقاً.

● كيف أكون طليقاً في هذه الغرفة؟

– لا تتفلسف، وأمش أمامي، فإن جنودنا قد حرروا القدس

● ممن حرروها؟

– من الغرباء، وعادت كما كانت يهودية.

● وماذا بعد؟

– ستكون محررة إلى الأبد

● سيدي الضابط أنت غبي!

– سيدي الشاعر أنت حالم!

علـى درج السُلَّـم الحجـري ودَّعتني عيـون الجيـران بشفقة لـم أفهمها، فتلك الزيارة كانت عادية. كنا في تلك الليلة السابقة قد بكينا معاً لسقوط القدس. كان الكهنة ينفخون فـي الأبواق ويفحون كالأفاعي، وكان الجنرال يختلـط بالكاهن ويأكل الحجارة. كانوا ينطحون حائط المبكى، وكان عبد الناصر يعلن الهزيمة ويستقيل. وكنتُ أهبط الدرج برفقة الضابط وأربعة جنود إلى سجن معلّق على قمة الكرمل.

لماذا القدس؟

لأن بيت لحم لـم تعلن الميلاد، لأن المغارة محاصرة، ولأني أرث القدسـ كما أرث الهزيمة، ولأني أعرف كفر قانا كما أعرف دمي الذي حوَّله الغزاة إلى ماء،

والليلة عيد الميلاد

والليلة قبل الميلاد

* * *

ما أجمل هذه الزنزانة. كأن حزيران لا يصل إليها، كأنها الدليل الوحيد على أن الحريـة لم تقمع تماماً كل أصدقائي هنا. يهجمون عليَّ كما يهجمون على البشارة. وعبر الدخان الأبيض، أعني دخان سجائرهم أعلـن بانكسار: لقد سقطت القدسـ وانتهت الحرب. أتحوّل إلى غراب، ثم يصفحون ويصافحون. ونصير مسيحيين إلى حدّ الصلب وتحوُّل الإنسان إلى فكرة.

وكثيراً مـا أسال: لماذا يأخذك المسيح إلـى هذه اللغة، وأنت من أنت؟

وكثيراً ما أجيب: هذا هو تاريخي، أي هذا هو بلدي.
وكثيراً ما أسأل: لماذا الصليب؟
وكثيراً ما أجيب: هذه هي دلالتي، أي هذا هو جسدي.

وأظن: لا تكتمل معاني المسيحية، في تطابقها الراهن، إلا في الفلسطيني. ولا يحق لأحد أن يكون فلسطينياً في هذه الدقة إلا للمسيح الذي جعل هذه الأرض قادرة على تقديم عطاياها للعالم بلا عبادة. إن سيرة عذاب المسيح يلخصها الآن أطفال فلسطين المسروقون من المغارة إلى الصحراء، وتلخصها قيامة الفلسطيني من ذبح يتكرر على أيدي الأعداء وأنبياء الكذب على السواء. وسواء دخلنا في طقوس الإيمان أم لم ندخل، فإن يسوع الناصري تراثي ومواطني وقاموسي وتطابق حياتي المعاصرة ووعدي بالخلاص. «ولد لكم مخلص...» أليس نور الطلقة الفلسطينية في هذا الليل الحزيراني إشارة الخلاص للمعذبين الفلسطينيين والعرب ولمعذبي المسيحية الغربية المتحالفة أو المتسامحة مع قاتل المسيح الجديد وقاهر القدس؟

وحين أخرج من جسدي إلى الشهادة فأعطي الحياة للجميع، كحبة الحنطة حين تموت، ألا أسير في خُطى المسيح. وحين انفض عن السلام شوائبه الزائلة وأعد الجميع بالحب، ألا أعلن بدمي رسالة الناصري.

وألف سؤال وألف جواب مطابق.

وهذه الأرض التي ولد عليها ومات عليها ألا تستحق القداسة لأن الفكرة فيها كانت تحتاج إلى تجسيد وإلى وطن؟

إننا نسخـة معاصرة عن هذا الدم الذي أضـاء العالـم، وخطوة جديدة فـي هذه السيرة، وعلى خطى قدميـه المتعبتين في الناصرة وبيت لحم والقدس وكفر قانا نمشي...

ولكن الذبح يـزداد، والقدس تسقط، فننـزع مسامير الصلب عـن أجسادنا ونحوّلها إلى بندقيـة، لندافع عن وطن الفكرة وأرض الناس ونعمة السلام المهان، ولنحرر هذه الأرض من الذين سفكوا دمنا الواحد.

* * *

البندقية، هكذا علمنا حزيران.

البندقية، هكذا عملتنا اللهفة على أمة قتلت باريها!

* * *

بعد شهر قال لي سجاني: اذهب فأنت حر.

لم أذهب من السجن إلى بيت أهلي، بل ذهبت إلى قطار القدس.

● إلى أين أنت مسافر؟

– إلى زيارة أهلي في القدس قبل أن يجلو الاحتلال، وأنت؟

● إلـى القدس لأضيء قلبي بحجر، أو لأهرسه بحجر. كيف نطأ سماءً نزلت إلى الأرض تحت بنادق الاحتلال؟

– ماذا نفعل. سيأتي صلاح الدين.

أتذكر: سيدي الضابط أنت غبي. سيدي الشاعر أنت حالم.

من نافذة القطار أرى بلادي، أرى الأرض التي لا تكترث. هذا هو الساحل الفلسطيني، أو الساحل السوري، مغروس كخنجر من الياسمين في البحر. يُقدّم إليك النخيل والبرتقال والأنبياء والغزاة في قبضة واحدة. نتساءل: ما هي الجنة إذا لم تكن هذه البلاد. وما هي اللعنة إذا لم يكن الخروج. أين هبط آدم المعاقب؟ – على قمة جبل هندي. آه، لو رماه الله هنا لما أحس بالندم، ولما طلب التوبة.

تتألب عليك القصائد كما يتناوب عليك الغزاة، فليأخذوني إلى الاعتقال. من أجل هذا الجمال الذي لا أعرف أصعد الصليب ثانية «لأن الرب هو الروح، وحيث روح الرب هناك الحرية». ولكن كيف أرى أورشليم التي أعدوا لها الأغاني قبل أن تسقط «يا أورشليم من ذهب ومن نحاس وضياء». أتبنّى مطلع النشيد وأرمي سائر الكلمات في سلة المهملات. ولا تكون القدس شمس الجميع كما يرى البابا الذي وجد حلاً في هذا التشبيه البديع: كالشمس يراها الرائي فيحسبها ملكيته الخاصة، ويراها الرائي المضاد فيملكها أيضاً، وهكذا تكون القدس لكل فرد ولا تكون لأحد. لا، كيف تكون القدس لمن يهدمها ويسرق أنبياءها ويشرد أهلها ويصلب فتيانها.

القدس شمس السلام العربي: «هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها، ألّا تسكن ولا تهدم كنائسهم ولا ينتقص منها ولا من حيزِّها ولا صليبهم ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم...»

***

لماذا القدس الليلة؟

لأن الطفـل سرق من مغارة بيت لحم، وعُلِّـق على خشبة هنا قبل أن يولد. ولأني لا أعرف القدس.

«وقد نـرى تقلُّب وجهك فـي السماء فلنولّيـك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره».

وعن النبي محمـد: «من صلّى في بيت المقدس فكأنما صلَّى في السماء».

والقدس لا تصلّي الليلة
القدس تُصلَب.

* * *

خمس جنديات، أعرف إحداهن، تحتل ساحة القدس. بنادق رشاشة خفيفة، تنانير قصيرة، وألوف السياح.

أسال عابر سبيل هل هذه هي القدس؟

- نعم، هذه هي القدس.
- ● أين نكهة التاريخ... أين النار التي تحكُ الدم؟
- في الكتب
- ● ماذا حدث؟
- لا شـيء. سمعنا الرصاص في الأزقة، لم يكن معنا سلاح،

فرفعنا الملابس الداخلية رايات السلام.

● هل أنتم العاصمة؟

– في الماضي والمستقبل. على أي حال، هذه سمة العواصم.

● ما هي مهنتك يا أخي؟

– بائع متجـول، أبيع الصحف العبرية والمعلبات الإسرائيلية بأسعار منخفضة.

اقتربت مني الجندية وقالت: متى أراك؟

– عندما تخرجين من القدس.

● أنا سأخرج، ولكن الجيش لن يخرج

– لن أراكِ

● ما زلتُ أحبك

– ارمي هذا السلاح

● خذه وقاتلني

– لا أستطيع

● لا أحبك إذن

مشيت إلى المسجد الأقصى فكان غريباً، ومشيت إلى كنيسة القيامـة فكانت غريبة. فذهبت إلى قطـار حيفا في الغروب، وكان البحر من يافا إلى حيفا على يساري أسود.

* * *

القدس في القلب. القدس تفاصيل أنبياء وشهداء. حجر إذا عاد إلى عناصره الأولى رشح إلهة وتراتيل وسُوَراً. القدس كتاب البشر.

والليلـة يهطل المطر. الليلـة تدخل الأجراس فـي الصدأ لأن الميـلاد لم يبـدأ، لأن القدس عاجزة، تحت القهـر، عن اختراق الناس إلـى المعنـى، لأن المسيح يرفض هذا الميـلاد الاحتفالي، يرفض هذه الشجـرة المضيئـة بدموعه ودمـوع أبنـاء فلسطين، ويرفض هذا النبيذ الممزوج بالدم. فحين يولد العدل وتولد الحرية ويولد السلام يولد المسيح.

القدس الليلة في ذروة الهزيمـة، لأن أهلها غرباء في كنائسهم ومساجدهـم وبيوتهـم، غربـاء في أنبيائهـم، أسرى فـي منافيهم. والبشـارة تطحنهـا الدبابـة على باب المغـارة، والطفـل ليس في المغارة وليس في فلسطين.

● هل كتبت القصيدة؟

– لا، لأني لم أجد القدس

● ما هي القدس؟

– رمز

● ما هو الرمز؟

– جرحي في أول الليل

● ما هو الليل؟

– أن انكسر

● ما هو الانكسار؟

– أن تذهب إلى القدس في أول الاحتلال

● هل ذهبت بعد ذلك؟

– لن أذهب، لأني خائف

- مَمِ؟

– مـن ضياع المعانـي، فالناس بشر لا أساطيـر والقدس في القدس مدينة لا خرافة.

- والصخور؟

– صخور.

- والريح؟

– تهب من القلب، فتفكِّك الحجر

- هل كتبت القصيدة.

– سأكتبها في الميلاد القادم إذا وُلد.

أيتها القدس!

كم أنت بعيدة عن القدس كم أنت عبادة!

1979/12

حجر من الجليل

«رسالة إلى صديق في الجليل في يوم الأرض»

لا أعـرف لمن أُعرِّي القلب في هذا اليـوم. يغريني بياضُ هذا الورق بالبـوح. ولا أشتاق إليك لتنصرني على الوحدة، بل لنمشي قليلاً في النوم، حيث كانـت مشيُتنا المشتركة في أول الصعود، أو الهبوط، ترسم الجليل مطلعاً للأرض.

اليوم هو يـوم الأرض. لا أدري كييف أستمـع إلى هذا النبض الـذي يشبه الحشرجـة، فأضرب روحي على قفاهـا ضربةً خفيفة لتهـدأ. هو اليوم الـذي يستولي على أيـام عمرنا كُلِّهـا، لا ليكون للأرض عمـر - فذلك أمر لا نريده لها ولا نريـده لنا - بل ليكون لعمرنـا أرض كسائر البشر والطيور أو الزواحف. وليكون للأرض سيـاجٌ مـن فضاء نعرف داخلـه أن صياغة الحيـاة - كما نريدها - ممكنـة وبسيطة كعملية تنفُّـس، وأن الحرية في صياغة هذه الحياة ثمينة إلـى درجة نرتاح معها، ولو قليلاً، من وضعهـا مرادفاً أو نداً دائمـاً للمـوت. فقـد آن للموت أن يمـوت أو يعوِّض، وآن له أن يكفَّ قليلاً عن مؤآخاة الحرية بلا شروط. لا لأن الشهداء سيخلون الساحة فيكبر الفراغ، ولا لأننا تعبنا، بل لأننا نستحقُّ أن ننتصر.

يا ليـوم الأرض، مهرجـان شقائق النعمان التـي تخطف دمنا فتصطـف جروحنا على جانبي طـرق لا أراها الآن. يا ليوم الأرض الذي يجدِّد ولادتي، لكـي لا أميِّز. بعد الآن بين جرحي وزهرتي، ولا أميِّـز بيـن فضاء يتمادى وكـوخ يصغر عن نبتة. إنـي أمتثل إلى رائحة جنسية تطلـع من جذر صُبَّيرة تتفسَّخ. وأنصاع إلى ما يُحرِّم النـدم. هل نحن من هذه الأرضـ، هل نحن من هذا الملح ونتشرَّد حتى الذبح؟

وُلـدت هنـاك. ولم أكبـر إلا ليلتبسـ عليَّ الأمـر: هل كانت الصخرة هي التي أنجبتني أم امرأة من زيتون؟

لا تسألني. لا ترد عليَّ لتسألني إن كنتُ قد بلغتُ عمر الالتفات إلـى وراء، لأداعب الماعز الذي يتمـوَّج على السفوح كشعر امرأة يتسرَّح، يعلن الليل أو انتهاءه على جبل الجرمق. ثق أنَّ لي ذكريات أخـرى تتكـون ولا أربِّيها لئـلاَّ تكون العلاقة ماضيـاً يبتعد. ولكن للقلب بئراً ينزل إليه ليشرب. فهل تسقيني الأرض، في يوم الأرض، قطرة من ماء يغسل كل خطيئة ممكنة؟

هنـاك - أعني حيـث تُسند ظهـرك الآن إلى خنجـر أو وردة ضخمة - ولدت. أرى تماماً كيف كانت الأرض تخرج من البحر، عبر أنقاض سور تأكله الطحالب في هذا الموسم، وتتّجه شمالاً... شمـالاً إلى شمال لا ينتهـي إلا عند حدود الله. هنـاك الجليل، بين البحـر والله، زيتون نقش عليه الرومـان معاركهم الكبرى. صخر. عشـب يُطلع زهراً أزرق. مربعات فوضوية مـن البرقوق. ريحان. تصادُمُ أوديـة وتلال. تصادم جماجم وتيجان. ولا يمشي المرء ألا ليصعـد ويصعد. يترك أثراً يمحـوه أثر آخر. كأنَّ الخطوة دائماً هي

الأولـى. وتعرف قصـة الحبِّ الأولى لألف شهيـد على الأقل. أما زلـتَ تشعر أنك أول إنسان جاء إلـى الأرض من قمة جبل هندي؟ وكأنَّ السمـاء لحـافٌ شخصي لم يستعمله أحـد من قبل. أما زلت تصعـد تصعد حتى نهايـات الجليل التي تغريـك، على حين غرة، بهبـوط تحت سطح البحـر، فلا تعرف متى انتهـى صعودك ومتى بلغتَ بحيرة طبريًا!

ألم أكبر إلّا ليلتبس الأمر عليَّ؟

هل كان المكان من صلصال أم كان غيمة تحملك وتحملها؟ أرجوك أن تتأكد لئلا يطول غيابي. أرجوك أن تخرج الآن من الباب لتحمي الفخَّار من الانكسار الذي تهدِّد به شهواتي المكبوتة...

كنـتُ أتساءل: متى تعرفت إلى الكلمـة الأولى، متى نطقت؟ فتجيبنـي أُمـي التـي لا تتكلم إلا لتنهـر: اذهب إلـى الحقل ولكن الحقل محاصر بالثعالب والبنادق.

أما زالت سيِّدة الزيتون، أُمي، تدخل غابة الزيتون سرّاً في نهاية الخريـف لتلتقط مـا أهمله الآخرون من زيتونهـا ومن شعرها على الشوك! وأبي يندم على رحلتـه الوحيدة إلى لبنان، فيعلّمني القراءة والكتابة لكي لا أندم مثله.

هذا هـو الجليل. ولا أسأل نفسي كثيـراً إن كنتُ أندم. ولكنَّ يـوم الأرض لم يحوِّلني - كما أردت - إلى حشرة سعيدة تنام على لحاء شجرة في الجليل. لماذا؟ ألأنَّ الأرض ما زالت تؤثر الدم على النداء، أم لأن العمر قصير فلا تبدِّل سكانها في مثل هذه السرعة؟

إنـي أتنقَّل من مدينة إلى أُخـرى ومن قارة إلى قارة، كما تنتقل المومس من رصيف إلـى رصيف. أحوِّم مثل نحلة فلا أقع إلّا على طحلـب لزج. أؤَلِّبُ عواطفي كلهـا لأنجو من توبة لا أُريدها، لأن الأعـداء يحتاجون أصواتنا المنكسـرة، فأخبئ جراحي في جيوب معطفـي وأصمـد لابتسامة. وسأقـول لك... سأقـول لك وحدك إنـي أغبطك على حارس لا تأذن له بالنوم، وعلـى زنزانة لا تتسع للأسئلـة. وأُحبُّ دائماً أن أقـول إني أبتعدُ لأقترب! وهل حدث أن اقترب من ابتعد؟ وهل عاد من هاجر؟

وهذا هو الجليل يغطِّي وجه السين والتيمز والدانوب الرمادي. فهل أُشهر شهادة ميلادي في وجه هذه المرايا المتألبة عليَّ، لأسْتَرِدَّ الفرح المتربِّص بسواي؟ ولدت هناك. ولدت هناك. هكذا أواصل البحـث عن جدوى أي شـيء قد يجدي. أمن عشـر سنين لم أُولد ثانية هناك؟

أردُّ على مـوت لا يقهرني ولا أقهره: ولدت هناك. وأدور فلا أُسـدِّد خطوتي إلا في اتجاه الـدم الأول. وهنا يتشابه هذا المسرح الـذي يعجُّ بكلمات انفصلت عن معناها لأنها تقال في سياق آخر، وتنفصل عن قائلها تماماً تماماً.

وُلـدت هنـاك معك. وُلـدت على تلـة تبسط ذراعهـا الغربية فتحمـي حقلاً واسعاً من النزول إلى البحـر. هناك مرَّ الغزاة وأكلوا مـن خوابينا وماتوا في مقابرنا. وبنى الجنود الفرنسيون تلة ليقفزوا منهـا إلى ساحة عكا المنيعة. ولدت على تلة تبسط ذراعها الشرقية فتصطدم بالسمـاء، تكسر غيمة. تجرحها. يسيل ماؤها على حجر فيرتعش ويزهر.

– ألا تبدأ إلا من هناك؟

□ لأني لا أموت إلا هناك.

– وهذا الموت الكثير؟

□ ليس أكثر من إحصائية

وهناك تساءلت: ماذا تفعل هذه الطيور؟

قالوا: تهاجر

قلت: إلى أين؟

قالوا: إلى الشمال.

قلت: ماذا يعني هذا الأمر؟

قالوا: إنها بوصلة الفصول، فيعرف الأتراك أن الربيع قد بدأ.

قلت: وتموت هناك؟

قالوا: تعود على الساحل إياه، تعود متعبة، فيبسط لها المصريون الشباك. ويعرفون أن الخريف قد بدأ.

لم أكبر إلا ليلتبس عليَّ الأمر...

وهذا هو الجليل. هذا هو يوم الأرض. ولا أسألك: كيف تغيرتم؟ فأنتم أيها الأسرى الأحرار لم تتغيّروا. ولكن الآخرين تغيَّروا من فرط ما هزموا. إلا نلتقي إلّا على هزيمة. ومن أي قلب أبوح؟ هل تذكر كيف كنا نعانق أخوتنا القادمين إلى أسرنا المشترك، فنبكي ونضحك لأن السجن يجمع شمل العائلة. نقولها في القلب لئلاّ يسمعها الغزاة فيقولون إنهم حررونا من الجدار. تُبّاً لهذا الزمن! ألم تغضب الأرض من قبل! ومتى كفَّت عن الصراخ، ولكن صراخ

الإذاعــة كان أقــوى. ألم نمتْ من قبــل في سهل البطــوف. لماذا يستمعون إلى دمنــا الآن؟ لماذا تسكت القــارة العربية... تسكت تمامــاً لتستمع إلى دمنا الذي يسندها من السقوط. أيها الراسف في الأغلال... حرِّرنا من القلعة! أيها المسجَّى على مدخل سخنين... مُدَّ جسدك متراساً لحماية نفط العرب من النهب الذي يدير محرِّك الطائرة التي تحرقنا!

ولم أكبر إلا ليلتبس الأمر عليَّ...

لأرى كيــف يتقنَّع فرعون مصر، ويتسلــل من بين الصفوف، فتُصــاب القارة بالذهول والعجز. ولا أحد... لا أحد غير صبيّ في الجليل يحمل حجراً فلا ينسف دبابة فقط، بل يهدم الهيكل. حجر واحد من الجليل يعادل ألف دبابة يعلوها الصدأ في صحراء العرب. قــال لي أحدهم: أنتم تهدِّدون بسلاح ليس لكم، وبنفط ليس لكم. عليكــم السلاح والنفط عليكم. قلت: نحــن نهدِّد بسلاح آخر... نحن نهدِّد بسلاح لا يصدأ. نحن نهدِّد بحجر من الجليل.

هو يــوم الأرضــ، الأرض التي هــي الموضــوع والإنسان، هــي الصراع كلّه. الأرض التي لم يتمكــن الغزاة من تدجينها ولم يتمكنــوا من حُبِّهــا. وها هم يهربــون من الأرض إلــى المكتب، يهربون مــن الأرض إلى سيارة تاكسي فــي نيويورك، يهربون من الأرضــ إلى الدبابة التي صارت وطنهم الوحيد. كم من مستعمرة زرعوهــا فتقيَّأتها الأرض. كــم مرة صاح كهنــة الخرافة: هَوِّدوا الجليــل، وظلَّ الجليل عربيّــاً، لأن الأرض لنا إلى الأبد وإلى الأبد وإلى الأبد لنا.

الجليل الجليل
تجيء الطيور وترحلْ
وتُنفى وتقتلْ
ولكن لي صخرة في الجليل
وقبراً مُؤجَّلْ...

ولا تسألني إن كنت أحنُّ إلى تفاصيلي، وإلى فُتات جسدي الموزعة على الشجر، فعليَّ أن أُخفي حنيني الشخصي لئلا أخرج عن السياق الفوضوي، ولئلا أصرخ إني أتأهب للاندفاع إلى أول زنزانة على أرض الجليل، فليس في كل هذا الوطن العربي وطن لمواطن واحد.

اليوم يوم الأرض. وأنا حي إلى حد النشوة، وحُرٌّ إلى درجة التسامح. هل تذكر حوارنا القديم عن الحقد. كنت دائماً أقول لك ان الانتصار يصحِّح كل الخطايا غير خطيئة واحدة هي: إن عناد القلعة المحاصرة، إذا طال طويلاً، يؤجِّل نموَّ السري فينا، ويحاصر نشاط إنسانيتنا في حقل واحد هو اختبار انتمائها إلى وطن، كأن تكون الحرب هي الامتحان الوحيد. وكنتَ تخاف: أتعني السلام؟ وكنتُ أقول: إن إنسانيتنا تتوق إلى التفوق في تجارب أخرى أيضاً... وإن حقدي على الأعداء ناجم عن خشيتي من أن يقربوني من طريقة احتكامهم إلى الجدارة الوحيدة التي تسلّط «الأنا» على الآخر، أي آخر، في علاقة عداء. إن وطني هو حقل لنشاط إنسانيتي في مجال إنسانيتها، أي أن لا يكون الوطن قيد الإنسان بل مدى حريته. وبهذا يتفوق مفهوم الوطن الفلسطيني الجماعي الحر عن مفهوم الوطن الصهيوني الغيتو.

يسألني أحدهم: وماذا لو كان لك وطن؟

إنـه سـؤال لا يطرح على مـن ليس له وطن مُنجـز إلا لاختبار حيويـة الخيـال. لو كان لي وطـن، لكان عليّ - مثـلاً - أن أرحل بحرية وأن أُسافر بلا حياء وبلا ذنوب.

لـو كان لي وطن، لأعلنت أنـي ضد الحكومة دون أن تتهمني الناس بالعدمية.

لـو كان لـي وطـن، لقلـت إن الوطن ليسـ هدفـاً إلّا لخدمة الإنسان.

لـو كان لي وطن، لقلت أن الوطن لا يتأسس إلا بالديموقراطية والحرية، وإلّا صار سجناً.

لـو كان لـي وطـن، لناديـت بمقاطعـة الكوكاكـولا، وبفتح الحدائق للعشّاق.

إنَّ لـي وطناً يقع وسط دائرة موتي وحياتي. أُصارع لاسترداده وحمايته من عجزي الذي لم يعد ذاتياً.

فليس في وسع أحد أن يموت كما يموت الفلسطيني

ومـن سطوة الآخريـن. أليس هذا الصراع هـو مجال النشاط الوحيـد لحريتي وإنسانيتـي حين أعي أن الوطـن ليس مساحة من حجـر وشجر بل هـو ميدان انطـلاق الإرادة الإنسانيـة في مجال فاعليتها وإبداعها؟ هنا يرجأ التساؤل لتنصب كل الأسئلة والطاقات في عملية تحرير الحقل القادم للسباق..... تحرير الأرض من أجل

تحريـر الإنسان، ولا يحرر الأرض إلا إنسان حر، ولا قيمة للأرض إلا لخدمة الإنسان الحر.

فيا أيها السجين الحر...

هـل تدرك الآن ان الضوء يطلع مـن نافذة الزنزانة. وأن الظلام قد ينهمر من آفاق مفتوحة؟

فـارم علينا حجراً آخر، لعلنا نمشي في النوم وفي اليقظة، لعلنا نوقظ العالم من النوم، لعلنا نرى الجليل.

ارم علينا حجراً آخر.

حلم مسيَّج بالمدى المفتوح

مـن نيقوسيا، هذه المـرة، يأتي صوتنا. من عنـوان مؤقت في سياق الرحيل الطويل على أرض البشر. لا نبدأ من صفر، بل نواصل البدايـات من خلاصـة التراكم؛ تراكـم التجـارب، والتضحيات؛ والإنجـازات، التي تصوغ تقاليدها وليسـت كلماتنا أثقل من هذا الوطـن الساحـر والمسحور، الذي يحملـه الفلسطيني، حتى آخر الشوط الإنساني، روحاً وجسداً وفكرة. لذلك لا نلتفت إلى الوراء إلا لنتعلّـم، مرة أخـرى، كيفية إضفـاء الديمومة على مـا صحّ من وسائلنا في العمل، وفي القول، في تصويب الخطى، دون أن نحذر الدخـول في جحيم النقـد الذاتي، الذي يطمح إلـى تحقيق تطابق أرقـى بين طهارة الرسالة وبين أيـدي حامليها. وقد يكون الصليب الذي وُلدنا عليه جميعاً، بين مساميره والخشبة، شيئاً من قدر الذين اختـاروا أن يذهبوا فـي طريق النبـوءة، والبشارة، فـي نشر رسالة الحريـة، وتغيير المساحـات، والعلاقات، والقيـم، فرفعوا علامة اختلافهـم عما يسود من حولهم، هوية حياتهم أو جوهرها. لهذا، لـن يكون لنا مؤقت أخير، أو غربة أخيرة، أو منفى أخير، إلا داخل الوطـن الـذي نحمل بإبداعه علـى شاكلة الحلـم المسيّج بالمدى

المفتـوح، القادرة علـى استيعـاب الاختلاف والآخـر، والتفوق علـى مذاق المـرارة، التي تزودنـا بها مسيرة هذا الحلـم الشرس، المفترسـ، المقدّس. ونحـن الذين حاورنا ساحـة قدرنا، في أكثر مـن مكان، بتحويلهـا إلى ميدان امتحانات فـذّة لا ننظر إلى الوراء إلا لنختبر اليقين بفاعلية الطريقـة، والرسالة، اللتين حاولنا بهما أن نصـوغ حريتنا، ونُحَرِّر مـا يجاورنا من انحطـاط، وأن نشدَّ خيط الضوء الطالع من دمنا حتى مداه الأوضح، ليهتز، أو ينهار، المفهوم الخامـل الذي احتلَّ فكـر القارَّة السائد حـول المعالجة - النظرية - لموازيـن القوى، التي يتكئ على توازنها، الراهن أو المرتقب، كسإلى الخيـال والإرادة... في محاولة بريئة أو متهمة، لقتل فكرة الحرية الحية فـي تلَهُّف هذا الجيل وحرمانه مـن حيوية الاختبار، ولإغـراء السـلاح الحديث - الـذي كتب علينـا أن يملكه سوانا، لأسبـاب لا تُشرح، ولا تُوَضَّـح، لأن الأمر لا يعنينا - بالقدرة على نشـر الفكرة الميتة في أعدائنا، وفينا، معاً. وهذا ما يعنينا حين نُطل مـن منافينا الجديدة على بيروت، التي صارت بعيدة، على ما يبدو، عن لبنان وفلسطين وعن ذاتها. نعم، لقد تمكنّا... لقد تمكن أطفالنا من القتال مائة يوم متواصل، بما امتلكت أيديهم من سلاح تقليدي حولتـه طاقاتهم الروحية إلى سلاح حديـث وفتّاك، وعلى مساحة من الأرض لا تزيد عن ثقب الإبرة، قياساً إلى مساحة القارة العربية التي يغط عليها عملاق مادي عاجز. نعم، استطعنا واستطاع أطفالنا أن يتحدّوا آلـة السلاح الحديث، أو الأحدث، التي يدثر بها الفكر الميـت، بأن يوجعوا، حتى البكاء، جنـرالات الظلام البشري - أو الحيواني - فـي أطول حصار عرفه تاريخنـا المعاصر، حتى نقلوا وعي الحرية الفلسطينية إلى داخل البيت الإسرائيلي - بيتنا سابقاً - وإلى داخل الفكر الصهيوني الذي اضطر للانقسام على نفسه بين:

وعي زائف ووعي شقي. فهل كنا نعلم أن أحداً لن يتحرك، ليس من أجل تحسين شروط الصمود، بل من أجل إقناع واشنطن بتوسل تل أبيب أن تفرج، لمدة ساعة واحدة في الأسبوع، عن مياه بيروت المعتقلة؟ وهل كنا نفتقر إلى حاسة انتباه أكثر يقظة لما استطاع النظام العربي الواحد... نعم الواحد أن يحدثه من شرخ بين الناس، وبين توثّبهم إلى حريتهم التي صار دمنا أحد معاييرها؟ نعم. كنا ندرك، ولكننا لم نقبل الاكتفاء بصمود الإذاعة وحدها، لأن ذلك معناه أننا كنا نلعب كما كان سوانا يلعب. وهكذا وطّدنا الفكرة والإشارة وصواب لغة الصراع. أما الأمر الذي لم ندركه بدقة فهو أن لنا أبناء بهذه القوة، التي حولت معارك لبنان، ومعارك بيروت، بخاصة، إلى أساطير بطولة، وأن المحارب الإسرائيلي المدرع هشّ وفاسد إلى هذا الحد، لأنه يدافع عن شيء مات فيه، ولأن صراع الفكرة الحية مع الفكرة الميتة، الذي يدور بيننا وبين الإسرائيليين المسيّجين بحلفاء السرّ العربي، والمنطوي على حاسة المصلحة المشتركة على مستوى الأفكار الميتة، المرشحة للانبعاث من جثة الفلسطيني، بلغ حالة من نضج الوعي، المحلي والعالمي، جعلت السّلاح قاضياً من درجة ثانية، لايقوى على احتلال المسرح. لقد امتدت الفكرة الفلسطينية وانتشرت، خلال هجومها الأسطوري في حصار بيروت، إلى مساحة كامل الكون الإنساني، دافعةً بالفكرة الصهيونية الانعزالية – مع أخواتها العربيات الشقيات... إلى أضيق حدود الغيتو. وهكذا كان صليبنا، الذي حولناه إلى أرض معجزة، مسرحاً في حجم الكرة الأرضية، شاهده سُكّانُ القرن العشرين، في صالوناتهم ومقاهيهم وغرف نومهم. وصار الموقف من عدل الفلسطيني – الضحية المقاتلة – أحد المقاييس التي لا تُدحض لمدى ما يستحقه المواطن العالمي من مؤهلات حرية. لذلك،

أيضاً، لا تتخذ النظرة إلى الوراء قليلاً شكل الدمعة إلّا على ما تهدره الإمكانيـة العربية من طاقـات نصر، وما توفره مـن شروط عبودية واستعبـاد. وهكـذا أيضاً لم تكن بيروت رهينتنـا، بل كانت ساحة اختبارنـا المشترك. ولماذا تكون رهينـة؟ وهي مدينة تبحث معنا، ونبحث معهـا، عن حرية ممكنة، وديموقراطيـة محتملة، لا لأنها مدينـة عربية، فذلك مصطلح يخلو تدريجياً من الجدوى والمعنى، بـل لأنهـا كانت تتـزوَّد بالدلالة الدمويـة، وتتحرر بقـدر ما تقاتل للحريـة، ولأنها كانت مشروع حرية يتبلور في الصراع. كانت... وكانت، ولم تكن هي، ولا نحن فيها، المسؤولين عن تحولها الآن إلـى رهينة في أيدي الصهيونيين - اليهود، أو الصهيونيين - العرب الـذي يفتقرون إلى أدوات الذبـح التكنولوجي فليجأون إلى البلطة لأنهـا توفر وقتاً للنشوة! كانت... وكانت... وقد يُقام الآن بوتيك جديد علـى قبر كل شهيد. وقـد يضع الإسرائيليـون بضائعهم إلى جانـب جثثنا. وقد تنشط خيانة بعض المثقفين، الذين يشعرون بأن شـارون جاء لإنقاذهم من الضحالة، فشربـوا له، ولدميته المحلية، كأس الانتصار علينا، كما شربوا معنا من قبل. وراحوا يؤمنون الآن بحيوية دورهم، يؤسسون مشروعهم الثقافي. كل شيء ممكن، كل شـيء جائز في هذا العالـم العربي الخرافي الذي أعـاد بيروت إلى الحظيرة. ولكن بيروت قالـت معناها. قالت محاولتها الملحمية. ومـا زالـت تقول فـي شرطهـا الجديـد. الاحتلال فـي كل مكان عربـي. وكل وطن منفـى. وكل إقامةٍ رحيلٌ فـي الغربة في شروط هذه العلاقات. وفي منفانـا الجديد الذي هو فصل آخر من فصول البحث الفلسطيني الأوديسـي عن صخرة يثبت فوقها، من جديد، قدم آشيل مواصلاً دورة الصراع سويةً مع نصفه المزروع في أرض فلسطيـن، التي هـي موقعنا الراسـخ، سنهزم مرة أخـرى إحساس

النفي بالإدراك أن المنفى الحقيقي ليس وضعاً جغرافياً. المنفى هو انفصـال الوعي. سنواصل السير في أضيـق الممرات وأشد البحار هياجـاً. ونحن لا نحمل ذاكرة الورق، فقد لملمنا بعض أوراقنا عن شـوارع بيروت. بعضها احترق. بعضها ضاع. وبعضها مزقناه عن عمـد مزقنا فيه الأوهام، ولم تكن قليلة. وصحيح، أننا، في المنافي الجديدة، لا نملك أرضاً نزرع فيها غرسنا أو شهداءنا، ولكننا نملك ما هو هدف العلاقة بين الأرض والإنسان: الحرية، ورسالة الحرية. ونملـك ما هو هدف العلاقة بين الإنسان والأرض والتاريخ: إنتاج ثقافـة الحرية، وشيئاً من شهادة الأنبياء علـى عصرهم، حتى تخلق كل قطـرة دم لغتهـا الجديدة، ونشيدها الجديد، الـذي يعيد إنتاج حوافز الحرية، فتكون اللغة ما تكونه وما تقوله معاً. وتكون الحرية فـي الوطن وفي المنفى معاً. ولا تكون الحرية إلا ذاتها... لا تكون إلا الحريّة.

في اللحظة المريضة

بيـن «تشـاؤم الفكـر» و«تفـاؤل الإرادة» تَتوتَّـرُ الكتابةُ في طريقة اقترابها من هـذا الفصل المأساوي الجديد في سيرة المصير الفلسطيني. فالكتابة التي هي اعتراض، أو لَعِبٌ فعّال خارج السلطة، تجد نفسها أمام هـذه اللحظة الحرجة راضية بما لا يُرضيها عادةً، تجد نفسها في حالة دفاع عن بناءٍ مُعَرَّض للتدمير من ناحية، وتجد نفسهـا في حاجة إلى تكبيل واجبها الراهن بسلسلة من الاعتبارات الدبلوماسيـة الغريبة عن طبيعتها من ناحية ثانية. ذلك، لأنها تسْتَنْفِرُ في صاحبها صفة المواطن المحمَّل بكلِّ أشكال الواجب أمام بحر يهدّد السفينـة، بجميع ركابهـا وتناقضاتهم، بالغـرق. الإنقاذ، أو محاولة الإنقاذ – ولا شيء آخر – هو هدف الكتابة.

لا يجُرّنا هذا التحفظ إلى التساؤل عمّا جرى للكاتب الشاهد، فليس من مزايا هذا السؤال التحلّي بالصبر، لأن الانخراط هو خياره الوحيـد، الانخراط في العُضْويّ لا فـي العَرَضيّ. ولكننا نواجه في الزمـن الفلسطيني ما قد نسمّيه «اللحظة المريضة»... اللحظة التي تهـدّد، إذا ما تورَّمتْ، بتحويل ما يجري بنا وفينا إلى تحلّل يصعب تمييـزُ خصائصه عن تحلُّل الوضع السياسيِّ العربي، فيتحوَّلُ الجزءُ

المرشَحُ للإِضاءة إلى جزء من الظلام الشامل، فتتحقق عروبتنا على الطريقة التي تَحَقَّقَتْ فيها سائر أشكال العروبة.

لحظة مريضـة... كان يمكن لها أن تكون طبيعيةً ومحاصرة بكثيـرٍ من عناصر الشفـاء، لأن التجمعـات الفلسطينية – وإن لم تكـن منصهرة في مجتمع يخلق تقاليـده وقيمه وأيديولوجيته، إذا شئتم– كانت مؤهّلـة، بتوحدها حول الحلم والمعنى والمستوى المعنـوي والسياسي الذي كان يمتلك مركزيةً في بيروت، لإدارة خلافاتها، ومصير تبعثرها بطريقـة لا تؤدِّي إلى إنفتاح الساحات أمام سؤال المصير.

ما حدث فـي بيروت يختلـف، جذرياً، عما يليـه. الأسطورةُ لـلأدب. أما صانعُ الأسطورة التي أضافت إلى عصرنا معاني روحيةً مُفْتَقَدة، فإنه عاجز عن إقناع حارس الحدود العربية بأنه إنسان. من فرط الإغتراب بين المعجزة وصاحبها لا يستطيع صاحب المعجزة الاستغناء عن الخبز. مـاذا أردت أن أقول؟ أردت أن أقول إن بطولة الفلسطيني في بيروت لـم تمنحه حَصَانَةَ البقاء أو الاستمرار خارجها. ولهذا يتحرك الخلاف في الرأي في مناخ لا يوفِّرُ «للحظة المريضة» إمكانيـة الشفـاء العادية. ومن هنا نقلق لأن في وسـع الفلسطيني أن يعلـِنِ الخلاف، ولكن ليس في وسعـه أن يحله، لأنه أسيرُ شروطٍ لا يتحكم بأدوات التأثير فيهـا؛ لأنه يُقَدِّمُ الخلاف للآخرين... وليس مُهمّاً إن كان يدري وإن كان لا يدري.

لحظـة مريضة في حياتنا يَمْتَحِنُ التعاملُ معها، بسلامةٍ، صدقَ أطرافهـا الثوريّ، ونكاد نقول وطنيَّتُهـمْ. نحن في حاجة ماسّة إلى مراجعـة شاملة للضمير شرط ألاّ يكـون الضمير هو الثمن. فما بعد

بيروت لا يمكن أن يكون امتداداً ميكانيكياً لما قبل بيروت. ولكنّ المنـاداة بالبدايـة البيضـاء، أي بالصِّفْر، هـي ضَرْبٌ مـن العَدَميَّة، والتخلّي عـن تجربةٍ، وتراكـم، يُشكِّل التفريطُ به نوعـاً من أنواع العزاء الانتحاريّ، لأن كل الأسئلة المائلة إلى الشكّ أو التشكيك لا تستطيع الانتصار على السؤال: كيف... ولماذا استطعنا أن نخوض أطول حرب صمود في تاريخ العرب الحديث؟

لحظة مريضة في حياتنا تألَّبَتْ على تأزيمها عواملُ داخلية، يمكن للتعامل معها أن يكون صحيّاً ومنشِّطاً، ويضيف امتيازاً جديداً إلى ما يدّعيـه النشاط الفلسطيني من ديموقراطيـة تصل حد الإباحية – لولا انكشاف هذا العامل الداخلي إلى تداخلٍ طبيعيّ مع عوامل خارجية، عربية ودولية، وجدَتْ فيه فرصةً مريحة لإدارة الخلاف المتراكم بين البنـد الفلسطيني في مَلَفِّ الشـرق الأوسط – وهذا المفهوم الرسمي للصراع – وبين بنودٍ عربية أخرى يحتويها هذا الملف...

من مظاهر الخَلَل في حياتنا السياسية هو هذا التحوُّل التدريجيُّ – الذي ابتلعناه – لمفهوم الصراع العربي – الإسرائيلي، واستبداله ببنُـودٍ وطنيةٍ في ملف «أزمـة الشرق الأوسط». إذْ لـم تُقدِّم وقائع السياسـة العربيـة أدِلّتها الكافيـة على إعادة الصـراع التاريخي إلى طبيعتـه الصداميّة، ففي مثل هذا الحسـاب العظيم تنصرف الأسئلة الصغيـرة حـول التعارضـ، أو التناقض، بيـن التمثيـل الفلسطيني وبين مَنْ هُمْ أكثـرُ، أو أقلُّ، استحقاقاً له، إلى هوامشها الصغيرة في إيقـاع مسيرة المعركـة الكبرى، التي تتحوَّلُ فيهـا منظمة التحرير الفلسطينيـة إلى أحـد فصائل حركة التحرر العربيـة «الزاحفة» إلى صياغة مستقبل العرب الجديد.

مـن هذا السكون الـذي لا يَذُلّ، حتى هـذه اللحظة، على أنه يسبـقُ «عاصفة الزحـف» ومن افتقـاد الخطـوة الفلسطينية، بعد بيروت، إلى صخْرة تُثْبِتُ عليها دمَها، وحقّها في النقض، وتواصل منها دعوتها، التي هي شرط حياتها، إلى تحريك القوى والبواعث الكامنـة في القـارة المترامية الأطـراف، تتخذ مسألـة العلاقة بين الثورة الفلسطينية وبين الوضع العربي العام طابع المأزق.

لا، ليـس الاختـلاف أو الخـلاف المتّخـذُ شـكل الفضيحة الإعلاميـة حول هـذه العلاقة هو الانعكاس لخـلاف البيت، بقدر ما يشـكّل خلاف البيت انعكاساً معاكساً. كما أن هذا الاختلاف، أو الخلاف، لا يقتصر على العلاقـة بين منظمة التحرير الفلسطينية وبيـن سياسة هذه الحكومة العربية أو تلك. فنحن نخشى أن يكون الوعـي العربي الرسمي قد تبلور عند نقطـة القلق من التعارض بين المعانـي التي يُشيعُها مجرد وجود الثـورة الفلسطينية، وبين الميل الرسمي الشائع إلى الاعتقاد بعَبثيّة هذه المعاني، التي تُورِّطُ أوضاعاً غير مُعدَّة في صراع خاسر، أو تُفرّطُ بأمن الحكمة السياسية العربية التـي تستبعد الحرب من خيارات السعي الـدؤوب إلى حل «أزمة الشرق الأوسط» بأقلِّ قدرٍ ممكن من الخسائر الاستهلاكية!

من هنـا، تقْترحُ علينا قـراءة الوضع العربي العـام العاجز عن وقْف تدهوره، فـي اللحظة الراهنة الطويلة جـداً، أن نتأمّل خلافاً أوسـع ممـا يبدو على سطـح الكلمات، وهو الخـلاف بين فكرة الثـورة الفلسطينية، بما تحركه في الداخـل العربي المستتر، وبين مجمـل وضع عربـي لا يُحـارب، ولا يَتَوَحّـدُ، ولا يتحمل حرية الكلام والإضراب.

ولكن ما يثير الدهش والإحباط هو أن يَتَبَرأ هذا الوضع العام مما هو فيه حين تُوفر له فرصة الفرح السلبي الشامت على خلاف، يجب أن يكون ثانوياً، بين قوتين سياسيتين ومعنويتين كبيرتين هما الباقيتان في منطقة الصراع المباشر، وهما المرشحتان بموقعيهما وتحالفهما وأصدقائهما الدوليين المشتركين للقيام بالدور الرئيسي في عملية وقف الاندفاع الصهيوني، والانصياع العربي. فكيف حدث ذلك... ولماذا؟

هنا المعضلة. هنا الشوكة. هنا السؤال البريء.

فإذا كان الخلاف دائراً على تصويب اتجاه المنطقة من مسار الانهيار، فلماذا تكون الحركة الوطنية الفلسطينية هي أحد أهداف هذه العملية، وهي التي ترفع هذه المعاني بسياستها وممارستها ودم شهدائها الذي لا يجف؟ وكيف يؤمِّنُ الطرف العربي، لنفسه ولمقتضيات الصراع القومي، قُوّةَ الحرب وقُوّةَ السلام بتدمير هيبة منظمة التحرير الفلسطينية وفاعليتها، وبالتشكيك في وطنية رئيسها ياسر عرفات، وهو كما يقول الإجماع الفلسطيني والعربي والدولي، قد بلغ مرتبة الرمز، بوصفه أحد إبداعات الشقاء الفلسطيني وبطولته.

من المؤلم أن الخلاف بين أبناء «الخندق الواحد» يكون دائماً أشدّ الخلافات عنفاً. تلك مسألة أخلاقية تحتاج معالجة حلها إلى مستوى أخلاقي آخر. نحن لا نعرف كيف نختلف، ولا نعرف كيف نتفق. ألأنّ فينا من موروث الطبع العشائري ما يجعل لغة تخاطبنا مع المبادئ والأفكار الكبرى هشّة لا تملك مُقَوّمات الصمود أمام امتحانات المسؤولية، حين نتبارى على أوسمة البطولة أو الهزيمة،

أم لافتقـار الحياة السياسية العربية إلـى إطار مرجعي، حين غادرَتنا الضوابط القوميّة في هجرةٍ قد تطول؟

علـى الأسئلـة أن تبقى بريئـة لتوفير ما هو شـرط حياتنا معاً: تأسيس العلاقـات الفلسطينيـة – العربيـة علـى قاعـدة تصـون شـروط الاتفاق وتصون حدود الخـلاف، وتجعل للعلاقة بين ما هو اختصاصٌ وطنيّ وشأن قومـيٌّ إطاراً محـرراً من احتمالات الالتباس، وتعتـرف بشرعية القرار الوطنـي الفلسطيني المستقل المعرض الآن للسخرية والتشكيك.

كان الفكـر السياسي الفلسطيني – وهـو يراوح بين الغموض والوضـوح – عُرضـةً لاتهـام المعارضـة العربية، لأنـه كان يأبى التدخـل في الشـؤون العربية الداخلية، حين كان هـذا الفكر قادراً علـى الهجوم. إنه مـا زال قادراً، ولكنـه يشحـذ الآن كلّ أسلحته ليتعـرف على ذاته، وليحمي ساحته الداخلية من التدخل الخارجي فـي شؤون بيته الداخليـة، ويُجْهِدُ نفسه للبرهنة علـى أن ما انتزعه الفلسطينيـون من اعتراف عربـي باستقلالية قرارهـم الوطني ليس ضربـاً مـن ضـروب «الانعزالية»، وليـس غطاء لوقـف «الزحف القومي العربي الشامل» لتحرير القدس.

نحـن، من جانبنـا، لا نستطيع أن نفترق. نحـن عاجزون عن الافتـراق عن شـروط حياتنـا العربية. نحن قُوّةٌ مـن قوى حركات التحريـر والتغيير العربية، ولا نطمـح لأن نكون بديلاً لأحد. فليس فينا قوة الأنبياء، أو رغبتهـم، في الإدلاء بشهادتهم للمُطْلَق الإنساني والسير في الجلجلة. ولا نريد أن نستشهد مجاناً، فليس دمنا رخيصاً إلـى حد التبذير. ولا نرغب في الموت في المكان الذي تُحَدِّدُهُ لنا

أقـدارُ التراجيديا العبثية، ففي بعضـ البراري لا صدى للصوت. لا صدى للصوت في هذه البرية التي يُراد لنا أن نُساق إليها كما كانت تُساق القرابين الإغريقية إلى المذبح. لقد استردّتْ الضحيةُ وعيها، وهـي تعرف أن الكاهن، وقائد الجيش، لا يريدان تحويل دمها إلى مطر على الصحراء العربية، في هذه اللحظة المريضة.

... ومع ذلك، ومع ذلـك أيضاً لا نريد ولا نستطيع أن نتخلى عن جبروت إرادتنا الحرة، وعـن قوتنا المعنوية الاستثنائية في هذا الزمـن ومع هـذا الجيل، وعمّا أنجزناه من تكريسـ معانٍ لا تُهزم، ومن انقلاب في الوعي العالمي، وحتى في وعي الأعداء.

لذلـك، نطالـب أنفسنـا بتحمُّل كل تبعـات اللقاء مـع بُعدنا العربـي. ونطالـب أنفسنا بمراجعـة كل ما هو قابـل للمراجعة في مسيـرة مرحلة كاملة من تاريخ نشاطنـا يبدو أنها وصلت إلى حلقة تحتاج إلى الإنعطاف. ونطالب أنفسنا بالصبر على التفكير الصعب في وسائلنا وأخلاقنا، في علاقتنا بأنفسنا وبالأمة، في التوازن الدقيق بين عروبتنا وفلسطينيتنا، بين السلاح والفكر، بينا الحلم والشعار. ونتسـاءل عما إذا كنا قادرين على الاستمرار في استعمال لغة قديمة للتعامل مع واقـع جديد، وهل نستطيع التمييز بين الخيمة والدولة، بين المقاتـل والشرطي، بين السفارة والعمل السري... باختصار، نحـن نطالـب أنفسنـا بالتغييـر والتغيُّر فـي خدمة خـطّ التطوُّر لا التدهور. ونطالب أنفسنا بتكيُّفٍ لا يكسرنا ولا يعصرنا، فليس في وسعنا أن نواصل هذا النمط من التشابه والبراكين تتفجر. ونتساءل عـن حسابات المواجهة مـع ظرفنا العربـي المائل إلـى السكينة. ونتساءل أيضاً عن حسابات الانحناءة...

وهـل نسينا العـدو، أو هل شُغلنا عن العدو فـي معارك جانبية لا نريدهـا ولا نريدهـا؟ إنّ فينـا لحظـةً مريضة، صحيـح، ولكننا نناشد أنفسنـا الارتفاع بالمعاني على جناحيـن: جناح الإصلاح، وجناح الوحـدة والاستقلال، لأن سقوط جناح الوحدة لا يُبقي لنا شيئـاً لنصلحه. وهذا ما يفسر انصـراف الانتباه الشعبي الفلسطيني عـن مطالب الإصلاح، التي أقُـرِّت شرعيتُها، إلى القلق على ما هو أخطر. شعب يضع يده على قلبه:

الجسد في خطر

القلب في خطر

الفكرة في خطر

والروح في خطر.

فمتى نعرف، متى ندرك أن: ما لا يَعْنيني لا يَعْني من لا أعنيه؟

ومـن التراشق بالـكلام، خارج الأطـر وخـارج التقاليد، إلى التراشق بالدم...

دَمُ أبطـال بيـروت، الخارجيـن مـن إحـدى أساطيـر القرن العشريـن الفذّة أو آخرها على الإطـلاق، دمٌ مرميٌّ في البقاع. مَنْ يـراه، من يصفّق له؟ من يزغرد لانتصار الضحية على الضحية. من يكتـب لها الأناشيـد. وأيُّ أمّ سترقص لسَفَرِ ابنهـا – شهيدها إلى فلسطين أو الجنة؟

لا أحد... لا أحد. إذ لا صدى للصوت في هذا البرية.

مـن المفيد، قليـلاً، أن ننظر في حالة العـدو الذي ينظر في حالتنا. إن محاكمة الذات التي يجريها، بعد بيروت، توصله إلى إدراك الهزيمـة في الوعي وفي الهويـة. فذلك المجتمع الغارق فـي الديون والأسئلة التي لا أجوبة لها لا يجد من إشارات الأمل حـول مصيره غير مـا يُحْدِثُهُ الفلسطينيـون بالفلسطينيين. وهو بالتأكيد أمل شَقِـي، لا يعنينا من مراقبته غير الأسف على براعتنا في تلَقُّف أزمـات العدو ونشرها فينا. إذ فـي مقدور المدافعين عـن السياسـة الإسرائيلية أن يبلغوا نقّادهـم أنّ الفشل في سحق الهويـة الفلسطينية والروح الفلسطينية في بيروت قد يتحول إلى نجاح على يـد الفلسطينيين أنفسهم في مكان آخر. ولكن كاتباً إسرائيلياً بارزاً يقول: صحيح أن الإسرائيلي يحمل بطاقة، ولكنه لا يمتلك هويـة، على عكس الفلسطيني الـذي لا يحمل بطاقة ولكنه يمتلك الهوية.

كيف نحافظ على هويتنا؟

أن نكـون – مجـرد أن نكون. ولكن ما يجـري فينا وبنا الآن يصفعنـا بالسؤال: نكون، أو لا نكـون. إن الخطر لا يُهدّد برامجنا السياسية، ولا يُهَدِّد شرعية خلاف الرأي بيننا، بل يُهدّد هذه الهوية المرشحـة – بعد بيروت – إلى الارتفاع بمعانـي الأشياء إلى سُمُوٍّ روحـي لا يتحقق كثيراً في كلّ مراحـل التاريخ البشري، إلى مطلق إنساني يحول الاقتراب، أو الابتعاد البشري، من المعنى الفلسطيني، إلى المعايير الأساسية لجدارة الانتماء إلى الخيْر أو الشر.

في أوج هذا الارتقاء جَرحَنا الفارقُ بين مَنْ نحن... وما نعني... معنانـا أكبرْ منا، وكأنه ينفصل ويستقـلُّ، وجُرحنا أحقُّ بالكلام من

ضآلـة لغتنا السياسية التي بقيتْ بعيدةً عما جرى ويجري. يبدو أننا لـم نُؤَهِّل أنفسنا لنكون في حجم ظـلال دلالاتنا التاريخية. ويَبدو أننا نفتقر أكثر ما كنا نتصور إلى السياج وإلى ثقافة المعاني. وضعْنا حفنـة من لصوصنا في مرآة الآلاف من شهدائنا وأبطالنا، فانقضّتْ علينا الكاميرات لتقتل صـورة البطل فينا، وتستبدلها بصورة اللص ففرحنا بهـا واستعدنا مشهد التزوير المجـرم... فيديو من صناعة قتل الـروح وخلق الأوهـام، توّجناهـا بصورة شهيد يقتـل شهيداً ويرفع على جُثّته إشارة النصر!

مَـنْ ينتصر على مَنْ؟ كيف اخترنا عارنا بمثل هذا الشبق! أهذا هـو جوهر بطولة بيروت؟ أهذه هي رسالتنا إلى العالم وإلى الأهل، لأن فينـا مـن مركب النقصـ، ونزعة تدمير الـذات، والخوف من النجـاح ما يجعلنا مرضـى إلى هذا الحد؟ إن هـذا المشهد، مهما تألـب عليه المخرجون، لا يقول غير شيء واحد: نحن أعداء دمنا. نحن أعداء روحنا. ولا شيء أشدّ فساداً من هذا الفساد.

الصورة رماد أسود. الأفق يقع على رؤوسنا من فرط ما هو ضيّق وبعيـد. الحافز مُهَدّدٌ بالشلل. كأننـا أمام عملية انتحار كبرى تفتقر إلى الفروسية والشعر. دَمٌ مرميٌّ في البقاع. الطريق إلى فلسطين يمرُّ الآن فـي جثّة الفدائي وعلى أنقاض منجـزات الشعب الفلسطيني. كأننا وحيدون وحيدون حقاً بعدما نجح الوضع العربي الراكد في تحويـل السلبية إلى خوف فامتثـال. وصار علينا أن نتراجع لنراجع صـواب الفكـرة المطروحة في سـوق السخرية. وصـار علينا أن نكدح لنصدّق وعودنا التي صدّقناها، وصدّقتها ملايين من البشر، الذين كنا كلمة سرّهم، ثم شاهدوا خنجرنا في وسط الكلمة.

وهـذه المرة، هـذه المرة لن يتمكن الانفصـال «المعتاد» بين السبـب والنتيجة من دفع العوامل الخارجة عـن إرادتنا إلى العمل، فلـن يهطل المطر، ولن تهبّ الريـح نتيجة عوامل طبيعية لا شأن لنا بها. لن تمضي السفينة من تلقاء نفسها هذا المرة.

كيـف نُنْقِذُ الجسد؟ كيف ننقذ الفكـرة؟ وكيف ننقذ الروح؟ هـذه الأسئلة لا تُحال هذه المرة على الفكـر، بل على الإرادة التي تحشد طاقتها لتقهر السؤال الوجودي: نكون أو لا نكون. إذ ليس في وسـع شعب أن يتقدم من هذا السـؤال بطريقة محايدة وباردة. وليسـ في وسع شعـب يحمل مثل هـذه الهويـة الفلسطينية الفذة أن يكـون غير ما يكون عليه أصحـاب الرسائل التاريخية الكبرى: رسائل الحرية.

لغة حوار أم لغة اغتيال؟

حسناً، ماذا بعد؟

ماذا بعد هذه اللغط الذي يشترط صياغة المصير الفلسطيني كله فـي سؤال واحد، هو: اتحاد الكتـاب والصحفيين، دون أن يقترب من الموضوع، أيِّ موضوع، يخصُّ ماهية الكتابة أو معنى الثقافة؟

العكس هـو الـذي يتقـدم. السـؤال يقمـع السـؤال. وبكاء الديموقراطية يذكرنا بالمفارقة الساخرة التي يخفي فيها القاتل وجهه في هوية الضحية: «إذا لم تسمح لي بأن أقتلك، أتهمك بالقتل»!

هنا، في هذا العبث، وهـو عبث فلسطيني الشكل هذه المرة، تتجلـى كل عاهات الكتابة؛ كل إباحية الديمقراطية، إلى أن يصحو الفلسطيني وهو خارج من ركام الكلام على سؤاله: أين أنا في هذه اللغة؟ أو ما هي لغتي؟ أو، لماذا لا أنتحر بشكل أكثر فروسية؟

قد تشيخ الأشيـاء والأفكار، ولكن الحريـة، أو البحث عنها، هـي امتلاء الباحثين بطفولة الدَّهَشـ، وبالقدرة على إعادة الظواهر العابرة إلـى ينبوع السؤال، لكي تكون لنـا بوصلة واحدة؛ بوصلة

لتوازن الروح والموضوع، ما دام المكان الذي نسعى إليه لإسناد الأسئلة المكبوتة عن ضراوة التكوين وهشاشته، ما زال بعيداً عن متناول الجسد. فلماذا يكدُّ بعضُنا الكثيرُ، ويجتهد لإضاعة الروح والموضوع بابتعاد المكان، أي لعقد الصفقة العدمية مع النفس بإضاعة السؤال ما دام وعاء السؤال قد ضاع؟ لماذا نقامر بموضوع الحرية، إذا كانت الحرية صعبة المنال؟ لماذا نفقد موضوع الأرض إذا كانت الأرض محتلة؟

وأكثر: لماذا يسعى بعضُنا الكثير لإبعاد المكان عن الذاكرة نفسها، وعن الحلم إيَّاه؟ لماذا ينفصل هذا البعض الكثير عمّا يشكِّلُه ويصوغ ملامح هويته ليزيد مساحة البياض، الذي يعزل الفكرة عن جسدها؟ لماذا نختلف على فلسطين بدلاً من الاختلاف على ما يبعدها؟ وهل يحقُّ لأيِّ فلسطيني مهما توغل في شيخوخة المراهقة، أن يقتل فينا فكرة فلسطين بالطريقة التي يدافع فيها عن كارثة الحراسة العربية لحدود الأمن الإسرائيلي، وينفي فرسان فلسطين إلى قرطاج، وعدن، والسودان؟

للقلب أن يصاب من فرط الخوف على الروح وعلى الفكرة. لا، لم نخش قذائف التلموديين التي لم تجرح إلا قشرة الجسد في بيروت، بقدر ما نخشى هذه اللغة السهلة؛ اللغة المريضة التي يستخدمها بعضُ الفلسطينيين ضد أكثرية الفلسطينيين لتصيب الروح الوطنية لشعب يتكون في التجربة، ولتُحوِّلَ الحلمَ الجماعي إلى بضاعة وفضيحة، إذ كيف نقنع الأُمَّةَ والعالم بفلسطينية العصر، إذ كان بعضُنا الكثيرُ يحاول أن يُقنع البداية الفلسطينية بأنها بداية الضَّلالِ الموصل إلى الخيانة؟

مـاذا تقول هذه اللغـة الفلسطينية الدارجـة الآن، إنها لا تقول أقلَّ من الدعوة إلى الانفضاض: لِيَذْهَبْ كلٌّ واحد، إذاً، إلى بوليسه العربـي، لقد كنا نلعب، كنا نمزح، كنـا نرقص في عرس الدم، وما على الشهداء إلا أن يقدّموا اعتذارهم.

وهـذه اللغـة لا تقـول غير مـا يشبـه القـول إن فلسطين غير موجودة في هـذا الوعي، وإن الشعب الفلسطيني، في هذا الوعي، أيضـاً، مـا زال غير مؤهل للحريـة والاستقلال، لأنه لـم ينتج نظام القيـم، والتقاليد التي تَسِمُ أيَّ مجتمع، ولم ينتج لغته المختلفة عمّا لم يتحَرَّرْ.

نعـم. أنا حزين لأني عاجز عن كبت إعلان الفضيحة، فضيحةِ اللغـة الفلسطينية في تخاطبها بيـن الفلسطينيين الذي حوّلتهم هذه اللغة إلى مرتديـن، ومستسلمين، وخونة. كأن يقول قائد فلسطيني بـارز، مثلاً، «إن عرفات هو سـادات فلسطين»، وكأن تقول مجلة «ثوريـة» فلسطينيـة «إن عملية خطف باص إسرائيلي هي رد على خـط الاستسلام والانحراف»، لا رداً علـى الاحتلال الإسرائيلي، وكأن يقال مثل هذا الكثير.

كل فلسطينـي في هذه اللغـة الفلسطينية خائن. لا تحتاج اللغة التي تتهمـه إلى سرد ما يدين لأنها هي ذاتها خائنة. هكذا تعلن هي عن نفسها، وعن دلالتها، التـي لا ترشح دلالةٌ غيرها من سهولتها. فهـذه اللغة، لو أحصينـا نظام دلالاتها، لما عثرنـا الآن، ومن قبل، علـى بريء واحد، فهل نبالغ كثيـراً إذا عبّرنا عن الإحساس بأن من أولويات عملنا الوطني، الراهنة، هو التأمل في مأزق اللغة الفلسطينية لإدراك المـأزق الذي تعبّر عنه في كل مستويـات استخدامها، من

البلاغ السياسي إلى الخطاب الثقافي، إلى شعر الهجاء؟ ولعل أخطر مـا يجرحنا في هذا التأمل السريع هو أن هـذه اللغة تتقدم بوصفها لغة الثوريين الجذريين، لغة اليسار، لغة الديمقراطيين، في مقابل خصمها الجاهز أبداً: «اليمين العفن»، «البورجوازية الصغيرة الحقيرة»، وغيرها من التعابير السهلة، السطحية، الملتقطة من فتات ثورية الخمسينات، حين كان الحقل السياسي العربي ينقسم إلى قمح وزؤان؛ إلى شر مطلق، وإلى خير مطلق.

ولأول مرة يتقدم الثقافيُّ فينا ليوبّخ السياسيَّ. إن مناسبة الحديث تحمل مثل هذا التضليل، لأنه حديث عن اتحاد الكتاب، أما باطن الأمر فيحتاج إلى تمهُّل.

فجأة، وبلا أية مقدمة ظاهرة، تراجع السياسيُّ ليتقدَّم الثقافيُّ، وهذا حسن؛ حسن لأن البند الثقافي، في حياتنا الوطنية، كان أبداً بنداً هامشياً، لأنه تابع وصدى، لأنه ابتهاج بقرار، أو احتجاج على قرار. كلبٌ ينبحُ، أو ببغاءُ تتلو، وفي أحسن الأحوال كان صورة لما لم يُصوَّرْ. حسن إذاً، أن ينقضَّ الثقافيُّ على فسحة الانهيار، على فرصته الفقيرة، فلعله يوقظ حاسة انتباه للتاريخ؛ لعلّه يحرّك وعياً سائداً يغرق في اليوميّ ولا يجاورُ الأفقَ؛ لعلّه ينشّط سؤال العلاقة المزمن بين المثقف والثورة؛ لعلّه يقترح طريقة جديدة من خلال تجربة جديدة، بالغة الخصوصية، عن دور المثقف في العالم الثالث، ولعلّه يذكّرنا بسعي الكتابة إلى إعادة خلق العالم من خلال عالم ينهار؛ لعلّه يعوِّض ما انهارَ من مستويات أخرى؛ ولعلّه، إن تواضع، يستولي على فراغ الهامش.

حسناً، وماذا بعد؟

تأَمَّلْ جيداً لئلاَّ تذهبَ كثيراً في الوهم. إذْ سرعان ما تدرك أن هذا الثقافيَّ ليس إلا السياسيَّ الساخِرَ القديم، الذي يحطم آخر البيوت، والمعاني، ويُنْزِل ما من شأنه أن يرفع في لحظة حياة شعب خسر زخم الامتداد على مستويات ما، وربح عدم خسارته المشروع الثقافي، الذي يلمّ شتات الروح والموضوع، وفتات الأفق الساقط على انفجار اللحظات، ويفتح في ما ينهارُ حيزاً معنوياً لوجودٍ لم يوجدْ على رقعةٍ أخرى، إذْ نُريدُ، ونُريد، ونُريدُ، بعنادٍ لا يتعب، أن نفكّ الاشتراط الميكانيكي لعناصر الانهيار، فماذا يبقى للكاتب إذا أطفأ حاسّة الاستثناء؟ ماذا يبقى له لو تراجع عن شبق الحاجة إلى ريادةٍ تُجاوزُ العلاقة الميكانيكية بين نمو النَّص واستقرار المكان، أو ازدهار علاقة أخوية مع نظام قرَّر ألا يطردنا من الصراع فحسب، ومن المكان فحسب، بل قرر أيضاً إلغاءنا من الوجود الثقافي؟ ماذا يبقى لكاتب الحرية إذا اشترط علاقته بها بأن يقوم حارسه الليلي بتأمين ظروف أفضل للكتابة؟

من هنا تصلح مراقبة الطريقة التي تناقش فيها مسألة اتحاد الكتاب الفلسطينيين - من جانب المعترضين على التشكيل الجديد، وفي معزل عن السؤال الثقافي - تصلح لأن تكون دليلاً على تَبَطُّنِ السياسيِّ في الثقافيِّ من ناحية، وعلى فضيحة اللغة الثقافية والسياسية ليتحوّل الآنيُّ السياسيُّ إلى أفق رحب أمام ضحالة الكتابة الفلسطينية من جهة أخرى. تلك ملاحظة نشعر بها منذ مدة، ونقولها، الآن، في حياء. لأن الحرص على الثقافة الفلسطينية، الذي يقتضيه أي تناول لموضوع كموضوع اتحاد الكتاب، هو الذي ينبغي أن يصوِّب لغة الحوار، أو المناقشة، وبما أن هذا الحرص المُفْتَقَد قد تَّم تغييبُهُ تماماً، وتَّمتْ محاصرةُ

السـؤال الثقافي بـكل أدوات البطش السياسي، بمـا فيه بطش لغة الاتهـام، فقد صار من واجبنا أن نـرى أن المسألة كلها قد وُضعت فـي سياق الانقلاب العام، الذي يسعى مدبِّروه الواعون، والأبرياء، على السواء، لأن يشمل كل مستويـات العمل الوطني الفلسطيني، الأمـر الذي يُجيزُ لنا أن نُدْرِجَ لغة هـؤلاء الكتّاب، الذين لم يكتبوا حتـى الآن، في ظاهرة الفساد والتآكل التي تصيب اللغة الفلسطينية في تعبيرها عن أزمة أعمق.

ماذا تقول لغة الاعتراض على اتحاد الكتاب؟

إنهـا تحصر «إدانتهـا» في القـول إننا «مخدوعـون بشرعية عرفـات»! أليست هـذه «الإدانة» هي التلخيصـ الساطع للمسألة برمَّتها؟ إن السـؤال المطروح، إذاً، على وعي المعترضين، والذين يحيلونـه إلى وعي الوعي العام، ليس هو السؤال النقابي أو الثقافي، ولكنـه سؤال بعضـ الحكام العـرب المتعلّق بـكل شرعية منظمة التحريـر الفلسطينية، وليس اتحاد الكتاب إلا مثلاً صغيراً في سياق أكبـر وأخطـر. لا، لسنا قادريـن على إدارة هذا الحـوار من ضمن الإطار الواحد، فأصحاب أداة الحكم على الشرعية ينسَوْن أنهم قد تخلّوا عن شرعيتهم فـي اللحظة التي زلزلوا بها ماهيّتهم السياسية، التـي كانـت مستمدة ممَـا لم يعد شرعيـاً في حكمهـم، فهم، في معظمهم، كُتَّاب بالتعيين، ونقابيون بالتعيين، من وراء الكواليس، أو بالانتخاب المقرر سلفـاً. والناخبون الذين انتخبوهم هم الناخبون الذيـن لم ينتخبوهـم. المسرح هو ذاته، فلماذا تكـون الأنا عديمة الذاكـرة أحياناً؟ المسرح هو ذاته، لكـن البوصلة هي التي تغيرت، وهكذا لم يَعُد اليسار يساراً تماماً، ولم يَعُد اليمين يميناً تماماً.

إن المسألـة الثقافية الفلسطينية هـي التي تستحق البحث حين نبحث مسألة اتحاد الكُتّاب، وما دامت هذه المسألة لا تعني هؤلاء الإخـوة، أو الرفـاق، لأن مجـرّد بحثها يطرد معظمهـم من ساحة البحـث، لاغترابهم الحزين عن الثقافة، فلنذهب معهم حتى النهاية فـي بحث ما يخصّهـم لنقيس السؤال على المقاس المحدّد: ماذا لو تمـت المصالحة بين عاصمتيـن متخاصمتيـن، أو بين عاصمة وسفينـة؟ مـاذا لو تطور، أو تدهـور، الوضع السياسـي في بلد ما؟ ماذا يبقى من السؤال الثقافي الفلسطيني المركَّب على هذه اللحظة العابـرة؟ وماذا لو التقت الفصائلُ – أو الفسائلُ– الفلسطينية نتيجة انفـراج ما في التوتر القائم بيـن ميناءٍ وسفينةٍ؟ ماذا يبقى من السؤال الثقافيً المطروح بمثل هذا الاستخفاف؟

أهكـذا يصـوغ المثقفـون الفلسطينيـون سؤالهـم الثقافي؟ أهكـذا ينظـرون إلـى دورهم فـي بلـورة الموقع التاريخـي لهوية شعـب يمـوت يومياً ليحدِّدَ ملامـحَ هويته الوطنيـة؟ أهكذا يحمل المثقفـون الفلسطينيـون مسؤوليتهم المُضْنية فـي المعركة الثقافية التي يخوضها شعب لم يتمكّن، حتى الآن، من البرهنة على وجوده المـاديّ، والثقافـيِّ، من فرط ما يتعرض له الوعـي العربي والغربي لضغوط التزوير؟

ولْيَكنْ أنَّنا نختلفُ. إن هذا الخلاف هو ما يميزنا عن القطيع. والتعبيـر عن هذا الخلاف هـو ما يميزنا عن القبائـل المحيطة بنا. ولكـن بأية لغة نعبِّر؟ بأية لغة نصوغ ما يفرّق في إطار الإدراك العام بأننـا شعب واحد، ينتجُ القيم، فهل هذه اللغة التي تحاكم السياسي والثقافي فينـا، كما تحاكم الأعداء، وتحاكم الجوهريَّ بالشائعات

الأخلاقيــة، والتشهير الشخصي؛ هل هذه اللغة هي لغة حوار أم لغة اغتيال، وبخاصة عندما يستخدمها من يزعمون أنهم مسؤولون عن صياغة اللغة الروحية لشعب يبدع الحرية.

أين، أين السؤال الثقافي؟

أين سؤال التميُّز عن المؤسسة الثقافية العربية الرسمية؟

أين العلاقة الأخرى بين المعرفة والموقف؟

أين قدرة الحياة الثقافية الفلسطينية على خَلْق حيِّز فعّال لنشاط الدعوة العربية الحية، والتمرّد على السائد، والمألوف، إذْ لا سيادة إلّا لما هو ليس بسائد.

هذه هــي الشرعية التي تعنينا، وليســت شرعية ما يشبه جامعة الدول العربية الثقافية.

أين سؤال الثقافة؟

أين سؤال الحرية؟

خطاب قصير
في أسبوع طويل

لـم تبـدأ آلام الفلسطيني في الأسبوع الماضـي، ولا يبدو أنها ستنتهي مع نهايتـه. ولكن الدم الفلسطيني الذي يُغَطي شاشة العالم الآن يمنحه فُرصة الكلام قبل أن يُختم على الذاكرة الدولية بالشمع الأحمـر. لقـد اختلط المسرح الدمـوي بكُلِّ ما هـو مُثير للدهشة وبما يشبـه العجز عن الفهم. ولكن هوية القنابـل التي تتقن تمزيق الجسد البشـري لا تستطيع أن تخفي عن أحـد هوية الضحية التي تعيد تركيب جسدها وروحها لصياغة هويتها المعرضة لمحاولات الإبادة منذ حوالي نصف قرن.

الفلسطيني يريد أن يحيا، يُصرُّ على أن يحيا. ولعلَّ ما قَدَّمُه من ثمـن لهذه الرغبة ولهذا الإصرار على الحياة يستحقُ ما هو أرخص من هذه التضحية: الحرية. ولكننا نخشى من قابلية الضمير العالمي علـى النسيان، فلقـد اعتاد هذا الضمير على النـوم الهادئ إلا حين يهاجمـه دمُ الضحايـا البعيدة في غرفة نومـه، تماماً كما حدث في مجـزرة صبرا وشاتيلا التي عكرت صفـو القلب البشري، فسمعنا من تعاير الغضب والتعاطف ما أغرانا بالاعتقاد أن في وسع الضمير

العالمـي أن يصحو مرتين في قرن واحـد(!)، وأن ينتقل من حاسة التعاطف إلى فاعلية الاعتراف بحق الضحية الفلسطينية في أن تحيا، وأن تحـرر. ولكن مجـزرة الصمت التي تـمَّ ارتكابها في الذكرى الأولـى لمجزرة صبـرا وشاتيلا جعلتنا نرتعش مـن قدرة اللامبالاة على أن لا تُبالي.

هـا هو الـدم الفلسطيني يصـرخ مرة أخرى في مـكان آخر. الفلسطينـي الباحث عن مكان لهويته يموت دائماً في مكان آخر. لعلَّ طريقته الخاصة في الموت هي تعبيره الوحيد المُتاح، و الكُلّ يـرى ويسمع. قد يُصَفق الإسرائيليـون من الشماتة، ولتحقُق نبوءة جنرالهـم الذي قال قبل عشر سنوات: سنجعل العربي يقتل العربي بسلاح العربي على الأرض العربية... وقد يخجل العرب من تاريخ استقلالهم الحديث الـذي انتهى إلى ما انتهى إليه من اعتذار. وقد يستشهد آخـر الرجال العرب الذين يصدِّقـون أحلامهم ويؤمنون بالحريـة، أعني قد يُقتـل ياسر عرفات في مـكان لا يُشبه القدس، لكن الحرية لن تكن غير ذاتها، لأنه كثيراً ما يحدث أن يتغلب الدم على السيف.

مـن البحث عن الوطن إلى البحـث عن منفى، إلى البحث عن قبر، تُسَجِّل الخطوة الفلسطينيـة إشارة حياة شبه وحيدة في منطقة تشبه قلب العالم، منطقة لم يُسمح لها بالتعبير عن نفسها إلا بما هو فولكلـوري أو دليلٌ على سيطرة الآخر، منطقةٌ طردتْ من زجاجها شعوبٌ لا تشبه شيئاً فـي الصورة. ولقد وافق الغرب، وافق بطريقة لا تُـدرك، على أن تصوغ إسرائيل صورتـهُ وصورة الشرق معاً في مرآة لا تعكس إلا البترول، والجمل، والوحدة العربية «المهدِّدة».

ألـم تكن هـذه الصورة المثلثـة الأطراف أحـد الأسلحة التي دُفـع بها الشعب الفلسطيني إلى خارج تاريخ الوعي، وإلى «العائلة العربية» الكفيلة بتوفير «الجنة» للفلسطينيين؟ ألم يكن هذا السلاح هـو الذي جعـل الغرب صانعـاً للقـوة العسكريـة الإسرائيلية التي تحولت إلـى المندوب الغربي الوحيد في الشـرق الأوسط، والتي نجحت، بتحولها إلى نموذج لدمـى الحكم العربي، في أن تجعل العربي يقتل العربي، بسلاح عربي، على أرض عربية؟

لكـن بعضـ النجـاح أسـوأ مـن الفشـل. إذ أن دورة البحث الفلسطينـي، المأساوية والبطولية معـاً، من وطن إلى منفى إلى قبر، وهـي تعبيرٌ عن مفارقة اختلاط مصالح القمـع الإسرائيلي بمصالح القمع العربي، تثبـت حاجة الفلسطينيين الملحـة إلى وطنهم، ولا تثبـت استعـداد المجتمـع العربـي لاستيعابهم كما تقـول المقولة الصهيونية الكلاسيكية والراهنة.

إن رفضـ الحكـم العربـي توفيـر إمكانيـة التعبيـر السياسي للفلسطينييـن، وتصعيد هذا الرفض إلى حـدّ المجزرة كما يحدث الآن، هـو نهاية الحـل الإسرائيلي للقضيـة الفلسطينية، القائم على أن الوطـن العربـي الكبير هو وطـن الفلسطينيين. وهـو أيضاً نهاية الخوف الإسرائيلي المصطنـع القائم على أن العنصر الوحيد الذي يُوحِّد العرب هو محاربة إسرائيل ودعم منظمة التحرير الفلسطينية التي لا تحركها حوافز الحرية بلا غرائز الانتقام!

إن ما يحـدث الآن من مذبحة ضد الشعب الفلسطيني، وضد وطنه المعنوي وهو منظمة التحرير، وما نراه من تفرج الوضع العربي علـى عملية طرد التعبير السياسـي الفلسطيني من لغة الصراع، يدل

علـى خُلُوَ النظام العربي، وهو شبـه واحد، من عناصر الالتقاء الآن على دعم القضية الفلسطينيـة وحلها خوفاً من تفاعلها مع مشروع ديمقراطيـة عربي. فهل سينجح الاختـلاط الساخر لمصالح القمع الإسرائيلـي ومصالح القمـع العربي في اغتيال الإطـار الفلسطيني والفكرة الفلسطينية، والموضوع الفلسطيني؟

إن حجـم الإصرار والبطولة الفلسطينية على الحياة تدفعنا إلى الاستهانة بقدرة القمع على إبادة روح شعب أعاد إلى معاني الحرية والكرامة الإنسانية بعض وهجها الضائع، وامتزج مصيره ليس فقط فـي إدراك العالم أن لا حرية في الشـرق إلا في حرية الفلسطينيين، ولا سـلام فـي الشرق إلا في إنجاز هذه الحريـة، بل امتزج مصيره بمصير الرغيف العربي، وبمسألة الديمقراطية في العالم العربي.

إن اعتـداء يـد القمـع العربيـة على الجـرح الفلسطينـي يرفع الشرعيـة عـن الحكم العربي، ويفتـح للعلاقة بيـن الناس والحكم مـدى كانت مظلة فلسطين التـي يرفعها الحكام العرب تغطية. لقد سقطـت ورقة التوت. كان اسم فلسطيـن في الميكروفون الرسمي وسيلة لتفريـق المظاهرات الداعية إلى شـرف الخبز وحقَّ التعبير. كان اسم فلسطين هو شرعية الانقلاب العسكري.

وظيفـة القمع هـي أن يقمـع، أن يعيد إنتـاج طبيعته، ولكن القمـع في حاجة دائمـة إلى ذريعة، في حاجـة إلى خطاب، ولم يكـن الفلسطيني المشـار إليه، المشار إليه دائمـاً، في حاجة إلى الدهشة، لأنه منذ ألقت بـه حراب الاحتلال الإسرائيلي «ضيفاً» علـى إخوته العـرب - هكذا سموا اللاجئ فـي البداية، قدموا له كل الوعـود التي لا تتحقق، وظلَّ مطارداً بما هو أكثر من التمييز،

كان موسوماً بالعار. إنه مُتَّهم ومطارد ومشار إليه، إنه لاجئ إنه «التائه الجديد».

لقد شيد النظام العربي الجدار الفاصل بين الفلسطيني، كموضوع، وبين الفلسطيني كإنسان، لذلك ازدهرت الخطابة العربية الرسمية بأصوات لا معاني لها، وازدهرت الانقلابات العسكرية، وصاغ القمع شرعية من نسيج الموضوع المرفوع إلى مرتبة القداسة. كان لصوص الحكم في حاجة إلى إعلان إيمانهم لكي تؤمن بهم شعوب تعتبر امتحان فلسطين امتحاناً وحيداً لجدارتها بالحياة ولشرفها.

أما مضمون هذا الموضوع– الفلسطيني إنساناً – فقد أرجئ كما أرجئت مسألة الديمقراطية. طرد من حق التعبير والمواطنة والحد الأدنى من المساواة لأن ألواح الصفيح، العارية أمام قصف الطائرات الإسرائيلية وقصف برد الشتاء وحر الصيف، ضرورية لإحياء ذاكرة لم تنقطع. كان الجحيم العربي شرطاً لتذكير الفلسطيني بفردوسه المفقود. من هذا التمييز العربي، ومن ذاك الإرهاب الإسرائيلي، خرج التميُّز الفلسطيني، تميُّز الدفاع حتى الموت عن الحرية في منطقة تشبه قلب العالم. وكان العالم لا يعترف إلا في المجازر الكبرى، المجازر التي لا تخفى، بأن الضحية هي الضحية.

فهل آن الأوان لأن يُمَيِّز العالم بين النظام العربي وبين الإنسان العربي الذي هو ضحية من نوع آخر، ضحية خوَّلت الضحية الفلسطينية بالتعبير عنها حين كان في وسعها أن تصوغ ديمقراطيتها المحاصرة بصحراء القمع؟ حين كانت متطلبات ترسيخ الحكم

العربـي توفِّر هامشـاً لنشاط تعبيـري فلسطيني حـرّ. لذلك كانت منظمـة التحرير جزيـرة الحرية والديمقراطية الوحيـدة في الشرق الأوسط. كانت كلمة سر العرب المضطهدين.

لعـلَّ ذلك مـا يُفَسِّر التقـاء النظـام العربي الآن علـى محاولة إغراق هـذه الجزيرة غير القابلة للإغـراق، لأنها لا تقوم في مكان محـدد. إنها جسد وفكرة. إنها عدوى البسالة. ولكن، ربما يكون في جنـون المحاولة ما يفيد انفتاح أسئلـة الشارع العربي على كل المستويـات. فجنون البطش لا يجابـه إلا بجنون التحرر. قد يجد الرغيف العربي البسيـط مُكَبِّر صوته، وقد يجد حقُّ الحلم بصوت عـال منبره المكسـور. وقد تتمرد الفتاة العربيـة على مساءلتها عن بكارتها، وقـد يرفض المؤمن مخاطبة الله عـن طريق الشرطي. قد يحدث كل شي... قد يحدث كل شيء...

لقد ارتفع المعنى الفلسطيني إلى المطلق البشري، كانت بيروت اسم مدينة. ولكـن التقاء الضحيتين الفلسطينيـة واللبنانية على طريق حريتهـا حولهـا إلى اسم معنـى. الآن تحوم على طرابلـس الأسماء. ليسـت هذه المدينـة موقعاً عسكريـاً ليكون سقوطـه – إذا سقط – سقوطاً للمعاني. وليست الحرية زيّاً لنستبدله بآخر. إنها روحنا.

ونحـن عشاق حرية إلى درجة الذوبـان، إلى درجة الانتحار. نحـن انتحاريون إلى حد التحرر. لا نملـك إلا دمنا، ومن حقنا أن نحوِّلـه إلى رصاص أو ورد. مـن حَقِّنا أن نقطع سواعدنا ونحارب بها من يحارب حقنا في البقاء. من حقنا أن نفعل بأعضاء جسدنا ما نشاء... أن نزّجها في عيـون القتلة والشهود. اعترفوا لنا بحق آخر لكي نمارس لعبة أخرى. اعترفوا لنا بحائط نُعلق عليه صور شهدائنا

كـي لا نعلقها على سهراتكم. اعترفوا لنا بقمر واحد كي نعرف أن السلام ليس لفظة ميتة في القاموس. اعترفوا لنا بساحة مدرسة على أرضنا لكـي نبرهن لكم على أن أولادنا يولـدون بساقين وذراعين وعينيـن، ثـم يفقدون أعضاءهم فـي بحثهم عن أثـداء أمهاتهم. ثم مـاذا؟ دمنا هو لغتنا. اسمحوا لنـا أن نتكلَّم لغة أخرى. اسمحوا أن نرقص قليـلاً. اسمحوا لنا أن نتبهج بالذهب الـذي يرميه الخريف علـى الشوارع. اسمحوا لنا أن نقيم في وطـن. اسمحوا لنا أن ننام فـي منفى. اسمحوا لنا أن نستقر في قبر. ثم ماذا، ماذا تريدون منا. نحـن لا نريد منكم شيئاً، فماذا تريدون منـا... ماذا تريدون. ليس السبـت نهاية الأسبوع. لأن سفر تكويننـا لم يكتمل. فمتى نخرج من الأحد، متى ندخل في الأحد! متى... متى؟

القتل الآخر، والأبجدية الجديدة

في ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا

صبـرا وشاتيلا اسمان للدم، يتخذان هيـأة السؤال – الجواب – الاتهام الشامل. قاطعان حادان كالبلطة والسكين، وسائر أدوات القتل البدائية التي تقيـم حفلة الموت للجسد الفلسطيني، أينما يتمُّ الانفـراد به. والهـدف أبعد مما وراء الجسـد. الهدف سؤال: هل يحـق للفلسطينـي أن يحلم في ما بعد؟ هل يحـقُّ للبطولة أن تتذكّر هيكلها العظمي؟

لأشكال القتـل أن تتعدَّد لمحو الجسم والذاكرة: من السكين الـذي يتيـح للقاتـل وقتـاً للنشـوة، ولإطـلاق الحيـوان الجنسي المكبـوت فيـه، واختبار فارق القوة الذي يوفِّـره النظر الطويل في عيون الأطفال المذبوحين، والنساء المغتصبات، إلى أحدث أدوات القتل الإلكترونية التي تمنح القاتل حصاداً أكبر في وقت أقل، دون أن تتعرّض استراحته التالية لأي ضغط من ضغوط الذكرى.

وللمحكمـة الإسرائيلية أن تثرثر – تثرثـر عدالتها المشروطة

بالحرص على جمال الصورة – صورة القاتل الذي لا يقتل إلّا بالدم الساخن، فليس في وسع مئات الجثث المعروضة للشمس وللذباب، أو المدفونة تحت رمال شاطئ بيروت الجنوبي، أن تكذب عدالة القتَلة. لقد كفَّت الضحايا عن الصراخ في الوداع الكبير الذي جرى للمدافعين عنها: المقاتلين الذين أبحروا في مياه البحر الأبيض المتوسط، في رحلة تحوِّل الأوديسا إلى تراث سياحي، تاركين وراءهم أكواخاً من الصفيح والإسمنتت الهشّ، يقيم فيها أطفالهم ونساؤهم في حماية القوة المتعدّدة الجنسيات، التي استقبلها المدنيون الخائفون بشيء من الرجاء، بعدما أخفى العرب عنهم مصادر رجاء آخر.

ساحة للقتل.

زمن للصمت.

لذلك كفّت الضحايا عن الصراخ والخوف في بقعة شاسعة وضيقة في آن، ساطعة الضوء، أنارتها الطائرات الإسرائيلية، ليتعرّف القتلة جيداً على ضحاياهم. جاء القتلة من الموقع، أيّ من الصفوف الإسرائيلية. وليس مهماً أن نتعرّف على ملامحهم، أو على الشارات العسكرية الحقيقية، أو المزيفة، التي يضعونها على أكتافهم. ليس مهماً إن كانوا يتكلمون اللغة العبرية، أو اللبنانية الدارجة، فالهيمنة على مداخل المخيمات هيمنة إسرائيلية مطلقة، وإضاءة ليالي القتل هي إضاءة إسرائيلية، والاحتلال احتلال إسرائيلي، ولو استعان كما يستعين أيُّ محتلّ بكلاب إرشادٍ محلّية، والقتلة هم نتاج العملية الإسرائيلية، فهل على العدالة، أيضاً، أن تكون عدالة إسرائيلية، لتجدَ التراجيديا بُعْدَها الساحر؟

للضمير الغربي، أو العالمي، أن يرتاح؛ له أن يستبدل صور ضحايا الآن، المطلة من شاشة التلفزيون، بصورة أخرى قديمة تحقّق التوازن المطلوب لهدو الضمير، بعدما أصدرت العدالة الإسرائيلية حُكْمَها الذي لا يُرَدُّ بتبرئة الإسرائيلي من القتل، فالسحر الزائف الذي تحتويه لفظة الديمقراطية المخصصة لضبط العلاقات، وحقول الاختصاص بين يهود إسرائيل وحدهم، كان تعويض الغرب عن تقصيره في مذبحة صبرا وشاتيلا.

لا. لا يمكن لضحية الأمس أن تتحول إلى قاتل الآن. هكذا يُسدَلُ الستار على المذبحة ليعاود الضمير الغربي محاكمة ذاته، وتبرئتها بفكرة واحدة قديمة: «لم نشاهد. لم نعرف». فهل يستطيع أحد أن يقول عن صبرا وشاتيلا: «لم أشاهد. لم أعرف؟».

من سوء طالع هذا الضمير أن زمن القتل الإسرائيلي المستمر منذ دير ياسين إلى صبرا وشاتيلا، ويجري على إيقاع ومرآى تطور مذهل في وسائل الاتصال العالمية التي ابتكرها الغرب. المجازر على الشاشة، وعلى الهواء، ولم تكن الضحايا تتساقط جنوب بيروت وحدها، بل كانت تقتحم، عبر شاشة التلفزيون، كل صالون وكل غرفة نوم في العالم. هل بكى عليهم أحد؟ بالتأكيد بكى عليهم الكثيرون، ولكن هل ساعدهم أحد على النجاة، الآن، من هذه المذبحة، أو بعد قليل، من المذبحة المستمرة؟ هل تطور العطف الإنساني، والإدراك البطيء بأن الفلسطيني هو الضحية، وهو البطل الطالع من الضحية، وليس القاتل، إلى تفكير جاد في مصير شعب، وإلى الاعتراف السياسي بحقوقه؟ كلا، لأن، المحكمة الإسرائيلية هي المرجع الوحيد لهذا الضمير، الذي ليس في وسعه أن يصحوا مرتين.

من المعروف أن المقاتلين الفلسطينيين قد غادروا بيروت إلى البحر، وبدأ الجيش اللبناني عمليته الكبرى في تنظيف شوارع المدينة، ورفع الحواجز والمتاريس. ومن المعروف أن القوة المتعددة الجنسيات، الأمريكية والفرنسية والإيطالية، قد دخلت بيروت، وكُلِّفَتْ بحماية المدنيين الفلسطينيين في مخيماتهم، ولكن لم يشرح لنا أحد، بوضوح، لماذا انسحبت القوة المتعددة الجنسيات قبل المدة المقررة لإقامتها؟ هل تم ذلك لتسهل اجتياح الجيش الإسرائيلي مدينةً ودّعت فرسانها؟ هل كان كل شيء مُعَدّاً لمسرح الدم الذي بلغ أوجه في المذابح؟ وهل يستطيع سؤالنا الاحتفاظ ببراءته من المسؤولية المتعددة الجنسيات عن مذابح صبر وشاتيلا؟ ومن يستطيع القول إنه لم يشاهد، ولم يعرف؟

لقد ضلّلت صحوة الضمير القصيرة جداً نفسها في البحث عن القاتل: من شقّ بطن الحامل بالحربة؟ من قطع الرأس بالبلطة؟ من علّق الضحية من قدميها كذبيحة العيد؟ من ساق البلدوزر على بيدر الجثث؟ من، ومن، ومن... وغيرها من أسئلة تحوم بحياء شديد حول صورة إسرائيل المثيرة للدهشة. كان من الصعب على القضاة أن يفصلوا زمن الاحتلال الأخير عن مسرح المذبحة المسيّج بهذا الزمن ليجدوا القاتل في الصورة التي توزعها إسرائيل عن جوهرها، في عرب حدّدوها مثالاً بعدما اختاروها حليفة. لا فرق، لا فرق. فالعملية ذاتها، بتفاصيل القتل ذاتها، وبالبطولة ذاتها، جرت قبل قليل في دير ياسين وغيرها، قبل أن ينتهي الإسرائيليون من صياغة عربهم الجدد، عندما كان شعارهم: «العربي الجيد هو العربي الميت»، وقبل أن يتطور عرب السلطة، من الاستقلال والوحدة

العربية، إلى صياغة شعارهم السرّي، الممارس بعلنيّة: «الفلسطيني الجيد هو الفلسطيني الميت».

وهكذا لا يندهش إلا الفلسطيني من دهشة العالم أمام ترجرج صورة إسرائيل، بعيداً عن الدهشة التي يثيرها تمازج الصورة في صور عربية. لقد وقع الجميع، بلا استثناء، في الرغبة الباطنية في تبرئة القاتل ومشتقاته، بمجرّد انتظار عدالته، وبمجرد التمييز الإنساني بين القتل الالكتروني والقتل البدائي، أيْ بمجرّد طرح التساؤل.

ولكن لصبرا وشاتيلا أكثر من قاتل.

فنحن الذين نعرف أجسادنا التي نحملها من مذبحة إلى مذبحة. نعرف، أيضاً، أن في وسع العربي أن يقتل الفلسطيني، سواء أكان خادماً للنموذج الإسرائيلي أم كان ممتثلاً لتراجع الحسّ العربي إلى كهفه الحلزوني، أم كان - في أحسن الأحوال - لا مبالياً تجاه مصيرنا.

لقد تمَّ هجاء الصمت بصمت أيضاً. وأحياناً تمّ تفسيرهُ، أو تبريره بالخوف والعجز، وصرامة الشرط الاستهلاكي، ومع ذلك فإن شلل الشارع العربي لم يحُلْ دون انفجار طاقات الحماسة عندما لامسها تعادلٌ عربيٍ أوروبي في ملعب كرة القدم، عندما كانت ملاعب الدم في بيروتً تغصّ بآلاف القتلى، وكان شهداء صبرا وشاتيلا يكدَّسون في الشاحنات، والأزقة، وتحت الرمال. أليست هذه السخرية، وهذه الصورة الساديّة، في اللامبالاة، شكلاً من أشكال القتل الآخر؟

ومن يستطيع أن يمرَّ مرور الساخر العابر على مشهد السيدات

الأنيقـات، اللائـي يتدافعـن ليرمين الـورد العاشق علـى الدبابات الإسرائيليـة شرق بيـروت المرحّبَ بُرسُل الحريـة الإسرائيلية، في طريقهم إلى مقاهي البحر، دون أن يربط المشهد بما سيقوم به أفراد العائلة المبتهجة ذاتها، غداً، في صبرا وشاتيلا؟

أليست التربية التي تنتـج عاهرات الاحتلال شكلاً من أشكال القتل الآخر؟

لقـد تلامس المحاذي الإسرائيلـي بالداخل الذي فتح المنصَّة لأمراضه الإقليمية، والطائفية، بطريقة مفضوحة جعلت إسرائيل في غنى، أحياناً، عن بعض المهام، ووفّرت لها منبر الدفاع عن النفس، القادر على تضليل الرأي العام.

لذلـك يتفـرّع القتلـة، ويتعـدّد اسم القاتـل في أسمـاء شتّى، دون أن نذكـر كل المجازر الكبيرة والصغيرة التـي أكلت أجساداً فلسطينية ولبنانية كبيرة. نعـم. نعي أن هنالك أكثر من اسم للقاتل، ونحن نحاول أن نصدّ هجوم بعض العرب الذي يطاردون الناجين مـن المذبحة، والمذابـح، ليجرّدوهم من حقّ النطـق باسم دمهم، وليحشروا الشعب الفلسطيني كلّه في حقيبة دبلوماسية موجهة إلى عنوان غامض ليس هو وطن الفلسطينيين.

إن مصادرة الجسد الفلسطيني، وفكـرة الحرية الفلسطينية، والاستقـلال المعنوي الفلسطيني، والتمثيـل الفلسطيني، في كل أصقاع المنافي، هي شكل من أشكال القتل الآخر، الذي يتعرض لـه شعـب بأكمله هو شعب صبرا وشاتيـلا. لا أرض لنا الآن، ولا سلطـة يدور حولهما الصراع مع النظام العربي شبه الواحد، الذي

يمارس بجبروت مدهشة ضيقه بتقدّم المعاني الفلسطينية في الوعي العربي، والوعي العالمي، وحتى في وعي العدو. المعركة، برمّتها، تدور حول تمثيل الفلسطيني لذاته، ولدمه. هل يمثل الفلسطيني ذاته؟وهل يحق له أن يمثل ذاته؟ هذا هو الشكّ الوقح الذي تطرحه علينا وحشية الهجوم الذي يشنّه النظام العربي شبه الواحد، لتخلو الساحة من الوجود الفلسطيني، ومن الموضوع الفلسطيني أيضاً.

هكذا يعي الفلسطيني، الوحيد حتى حاسّة الأنبياء، أن تمسُّكه بأداته السياسية، على علاّتها، هو تمسُّك بالذات؛ بالقدرة على انتحار عظيم؛ بقطعة جسد تجدّد للأرض بدايةً، بصواب يحمي من الجنون العام؛ بصرخةٍ تُخلْخل منتصف الليل؛ باسمٍ يحمل للأنقاض هويةً.

الفلسطيني وحيد في صراعه مع العدو، برغم أنهم أبعدوه عن ساحة مصارعته، في وقت تتم فيه المصالحة الرسمية، والعملية، بين النظام العربي شبه الواحد وبين العدو الإسرائيلي، الذي يتخذ الآن، في وعي هذا النظام، صفة عدوٍّ الفلسطينيين وحدهم. إنّ ما نراه الآن من هجوم عرب السلطة على الوجود الفلسطيني، المادي والسياسي، لا يحتاج إلى مجهر، وإن كان يحتاج إلى البرهان على أنه ليس تتمة للمهمة الإسرائيلية التاريخية، وتتابعٌ تلقائي يوحي بأن المصلحة الصهيونية، ومصلحة الأمن العربي الاستهلاكي، قد التقتا، وتشابكتا، هنا، هنا، الآن، الآن، في نقطة الوعي الشقيّ المشترك بضرورة الخلاص من الوجود الفلسطيني. هنا، الآن، في ما يشبه اندثار قيم الأمس، وفي ما يشبه السقوط المدوّي.

وهكذا، في هذه اللحظة، يتحوّل إحساس الفلسطيني بأنه وحيد، وحيد في ذاته، وحيد في أداته، وحيد في دمه، وحيد في حلمه، إلى وعي تمايز عن حال السقوط الضخم؛ إلى ما يشبه الهوية الدفاعية.

وهكذا، أيضاً، لا يخاف الفلسطيني من هذه الوحدة الروحية بقدر ما يطالب نفسه، وقادته التاريخيين، بتحويلها إلى وحدة وطنية، تنطلق من أبجدية جديدة مختلفة. فقد لاحظنا أن في وسع الفلسطيني، الخاضع روحياً، أن يقتل الفلسطينيّ فيه وفي أخيه، وبتطوير وعي الخطر التاريخي المشترك إلى تحالف الضحايا، كل الضحايا العربية والفلسطينية، وفي وجه معركة لا تتقدّم منا إلّا بصفتها معركة إلغاءٍ من الوجود.

جنون أن تكون فلسطينياً

لا شيء يتغيَّر، لا شيء يتغيَّر غير طعم الهواء.

في ظـلام الغابة الوحشية، يجري تعديل طفيف على نص الدم المفتوح،

المفتوح إلى ما لا نهاية...

غير أن المخرج يتكلَّم، هذه المرة، لغة عربية شديدة الحماسة،

والمكان هو المكان ذاته... المكان الذي يذكَّر بدم لم يجف، بجثة لم تنشف؛ بصرخات لم تنقطع ولم تصل.

والقتلة هم القتلة. الضحايا السابقة لقاتل لم تأخذ منه الضحية غير التقليد الطائش، تماماً كما قلَّد هو أيضاً قاتله السابق.

القتلـة يغيرون شارتهم ويتقدمون مـن الضحية ذاتها، الضحية التي لم تجد ما تغيره في المكان، ولا في عملية انتظار الموت.

صبرا وشاتيلا رقم 1

صبرا وشاتيلا رقم 2

هل نجح هذا الكابوس إلى هذا الحد ليجدد إنتاجه؟

يمـدُّ قاتل سابـق لسانه ساخـراً وشامتاً: ألم أقـل لكم إن هذا الشعب زائد؟

هـذا الشعب الزائد هو الشعب الفلسطيني. ماذا تفعل السكِّين بالدودة الزائدة؟

تستأصلها...

العملية ذاتها، عملية استئصال الشعب الفلسطيني: من أرضه، ومن أملـه، ومن جسده، مستمرة منذ حوالـي أربعين عاماً. ولكن طائـر الفينيـق، أو الطائـر الأخضر – كمـا تسميه الأغنيـة الشعبية الفلسطينية – لا يتوقف عن الولادة من رماده.

إن مسـرح العبث الدموي فـي الشرق الأوسـط يترك الخيال الأسود عاجـزاً عن ابتكار صوره السوداء! وعلـى جثة الفلسطيني أن تغيب؛ أن تغيـب تماماً عن المسرح، أولاً، ليتسنى للطوائف أن تلعـب أدوارها بطريقة أخرى أكثر تلقائية؛ أن تبتكر نصها الجديد، أن تواصـل تقاليدها التاريخية في أخذ ثأر آخر، وأن تتقاسم الغنائم الغامضة.

ولكن،

هل عرف شعـب آخر غير الشعب الفلسطينـي هذا العدد من الهجرات، هذا الكم من المنافي؟ وهذه الأعداد من المذابح؟ دون أن يكافأ بوطن... أعني وطنه؟ ودون أن يحظى بإعتراف، أو... أو بوعدٍ ما من بلفور جديد؟

إن بعض الشعوب، أو الطوائف التي حولت نفسها إلى شعوب، مدين بحقِّه في الحضور، أو بحقه في تغييب شعب آخر، لما لحق به من مجازر. فبماذا يكافأ هذا الشعب المطبوخ على نار صبرا وشاتيلا؟ وإلى أين يراد له أن يذهب لتنتظره مذبحة جديدة؟

وهل يُصدِّق الضمير الغربي، هل آن له أن يُصدِّق، أن القارة العربية، أو السجن العربي الشاسع الواسع، لا تشكل بديلاً عن وطن الفلسطينيين، ولا توفر لهم على الأقل إجازة واحدة من وظيفة الذبح؟

وهل آن له أن يجد علاقة ما بين إعلان القاتل الأول: إن فلسطين بلد بلا شعب، حتى إعلان القاتل قبل الأخير: إن الفلسطينيين شعب زائد!

لن يفهم غير الذين يريدون أن يفهموا: كيف يقتل العربيُّ العربيَّ؛ وللتمييز: كيف يقتل العربيُّ الفلسطينيَّ؟

لأن النظام العربي الواحد، على ما يبدو، يقاوم تطوّر الوعي والوجدان الفلسطينيين بهوية الفلسطيني الوطنية، إذ أن مثل هذا التطوّر يجعل الشعب الفلسطيني طرفاً أساسياً في الحرب وفي السلام على السواء، لا لأنه قد يدفع الفلسطينيين إلى ما وراء «المشروع العربي الكبير» كما يقول الإعلام القومي العربي الأجوف، بل لأنه يفضح غيابه. فأين هو المشروع العربي الكبير خارج الخطابة الإذاعية؟ أين هو على أرض الواقع؟ أين الزحف العربي، ذو اللون الواحد أو المتعدّد الألوان، نحو الوحدة والديموقراطية وفلسطين؟ أين هو لكي يحُلَّ الفلسطينيون منظمتهم ويذوبوا فيه ذوبان الجنود الصغار في المسيرة الكبرى؟

نعم، يقتل العربيُّ العربي،
ويقتل العربي الفلسطيني،
لأن قطعان الذئاب الطائفية هي التي تستولي على الأمة.

ولأن القضية الفلسطينية هي فضيحة الأمة؛ هي الإثم والكابوس المرهق الذي يتحول إلى عدو. وهي التي تُنَغِّص عليهم أمنهم الطائفي، وأمنهم العائلي، وأمنهم الشخصي، وأمنهم الاستهلاكي.

وهكذا تنتج شركات القتل العربي صبرا وشاتيلا رقم 2، ليكون للحرب السياسية على منظمة التحرير الفلسطينية مصداقيّة التصفية الجسدية؛ ليصدّق الفلسطينيون أن اختلاف النظام العربي عنهم ومعهم هو اختلاف عرقي أيضاً، وإنهم شعب زائد مطالب بالتلاشي، التلاشي المعنوي والتلاشي الجسدي.

سيصحو السيد المريض بيغن من اكتئابه العميق ليشاهد صبرا وشاتيلا2، على شاشة التلفزيون. سيقول مرة أخرى: أن غير اليهود يقتلون غير اليهود، فما ذنب اليهود؟

وسيكون في وسع وزير دفاعه، بطل غزو لبنان، أن يواجه معارضيه متسائلاً بقوة: هل فشلنا، حقاً، في لبنان؟ ألم أجعل الطوائف حراساً متطوعين لسلامة الجليل؟ ألم نصنع أدوات قتل مجانية، وعربية، ضد الفلسطينيين؟

وسيتساءل الإسرائيليون، وهم مرتاحون هذه المرة، عن نسبة الفوارق بين فوائد الاحتلال المباشر وفوائد الانسحاب غير المباشر من لبنان.

ولكن أحداً لن يسأل عن معاقبة أبطال مجزرة صبرا وشاتيلا رقم 2. ولن يطالب أحد بتشكيل لجنة تحقيق، ولا بإقالة وزير الدفاع العربي الذي ترتكب المذبحة في ظلِّ هيمنته، لأن لجان التحقيق هي صناعة صهيونية لتضليل الرأي العام! ولأن الديموقراطية الغربية البرجوازية تُفسد عملية بناء الاشتراكية العربية!

بدلاً من ذلك:

ستواصل صحف دمشق الشريفة اتهام ياسر عرفات بارتكاب المجازر ضد شعبه ليغطي «خيانته» الساعية إلى دولة – مسخ للفلسطينيين يزيد بها تفكيك العالم الموحد في دولة عربية واحدة!

وستواصل تلك الصحف قولها: أن تطهير المخيمات الفلسطينية من أنصار عرفات هو شرط حفظ الأمن والسلام في لبنان، وأن تسليم السلاح الفلسطيني للواء السادس اللبناني، المشارك في المجزرة، هو شرط أساسي لوقف المجزرة!

نعم، يقتل العربي العربي،

وتاريخ الحرب اللبنانية مليء بالمذابح المعبرة عن تمسك الطوائف بأصالتها! اللعب بالجثث والرؤوس المقطوعة المعلقة على الشجر وخلف نوافذ سيارة الجميِّل، ورقصات الشمبانيا والغيتارات بين الجماجم... هي أحدث أنواع الرياضة والتسلية في بلد ترشحه الطوائف لأن يتحول إلى سويسرا العرب.

ولكن لم تتوحَّد الوحوش على جسد كما توحدت على الجسد الفلسطيني. لم يمر عام واحد في تاريخ الشعب الفلسطيني الحديث دون مذبحة.

خذوا هـذه العناوين البـارزة، عناوين فقط فـي رواية ضخمة لـم تكتمـل فصولها، لتـروا بعض أختـام الموت علـى الجسد – المعجـزة: دير ياسين، كفر قاسم، قبية، عمان، تل الزعتر، بيروت، صبرا وشاتيلا رقم 1، طرابلس، صبرا وشاتيلا رقم 2. وكل أدوات القتل منذ تطور الحيوان إلى إنسان حتى عودة الحيوان إليه: البلطة، السكين، البندقية، المدفعية، الصواريخ، والأسلحة الالكترونية.

غيـر أن الطائر الأخضر يعاود الانبعاث في كل مرة، ويصوغ أسطورته الجديدة. فبأيِّ سلاح يقاتل هؤلاء الفتيان المحاصرون دائمـاً، المحاصرون في شارع أو بنايـة أو خندق؛ المحاصرون في هُويَّة؟

سلاحهـم الوحيد هو الجنـون، والجنـون، والجنون: جنون الحياة، وجنون اليأس، وجنون العُزلة.

وهـم الذين يعرفون وجوه قتلتهم الجـدد. يعرفونها جيداً وقد يكـون من المفارقة الجارحة: فهم الذيـن علّموهم جدوى القتال للحرية؛ هم الذيـن نقولهم بالأمثولة والزمالـة من دموع الشكوى والحرمـان إلى القتال دفاعاً عن حق وعن وطـن؛ هم الذين زرعوا جنـوب لبنان تقاليد صمود وبطولة؛ هم الذين أسسوا مناخاً جديداً لمقاومـة الاحتلال؛ هم الذين استشهـدوا معهم في مقاومة الغزو، وهم... هم الذين – أكاد أقول – ساهموا في تكوين قتلتهم!

وهـا هم القتلة، أبناء سلاح أمس القريـب المشترك، يتقدمون مقلِّدين القتلـة السابقين، قتلتهـم الإسرائيليين. لمـاذا تقلّد الضحية قاتلها كثيـراً، لماذا؟ يصطادون المدنيين مـن أطراف المخيمات. يحفرون القبور الجماعية. يمتصون دم الجرحى. يقتلون الجرحى

في المستشفيات. يسرقون الجثث ويخفونها. يطاردون الفلسطيني الحيَّ والميت.

فمن أين جاءت هذه الكراهية؟
ومن أين جاءت قوة الوحش الغامضة؟
ومن حوَّل محرومي لبنان الفقراء إلى قتلة فلسطين... مَنْ؟

لا يكفي أن نعرف أن الآفة الإسرائيلية قد تركت آثارها وراءها. علينا أن نعرف أيضاً أن غابة الطائفية السياسية قد أطلقت ذئابها الكامنة، وأَكَلَتْ حدود التمييز بين الأخوة، وبين الأعداء والحلفاء. كل شيء هنا جائز؛ كل قيمة مستباحة. والفلسطيني هو العدو الجاهز دائماً. هو العدو السهل الآن. هو الضحية التي تُرضي إبادتُها كُلِّ العواصم، وتُسَهِّل إبادتُها شروط التفاوض ودخول النادي السياسي الليلي. ولكن، أي تفاوض؟ وأي ناد؟ لا أحد يعرف. لأنه ليس من الضروري أن يكون السؤال والجواب واضحين لكي تقتل في لبنان الآن أو تُقْتَل. إذ لا مرجع الآن للغرب: لا مرجع وطني، أو قومي، أو أخلاقي، أو إنساني. لا رسالة لهم الآن ولا خطاب. والفوضى تفيض...

ويعرف الفلسطيني، المحاصر في أمتار مربعة، وظهره إلى حائط هش، يعرف أن ليس من حقه بعد الآن أن يطمئن إلى الوعي العربي المشترك تجاه الصراع العربي – الإسرائيلي، بعدما تحوَّل هذا الوعي إلى وعي سابق...

عندما احتلت المسرح السياسي العربي العصبيات الطائفية والأنانيات الإقليمية، وتحولت الأوطان إلى شركات خاصة

محدودة الضمان لا يشغلها إلا الخوف من الغضب الإسرائيلي خلف الحدود، ومن الغضب الشعبي داخل الحدود، فتواجه الخوف الأول بتقديم كل أشكال حسن النية وبمحاربة العدو الفلسطيني المشترك، وتواجه الخوف الثاني بمزيد من القمع والخطابة.

لهذا يسكت الشارع العربي. يسكت تماماً من وطأة الإرهاب ومن الصدمة، ولا يُعَبِّر عن طاقته المكبوتة إلا في حالات فوزه أو خسارته في ألعاب كرة القدم!

هل نقول إن صبرا وشاتيلا 2 أقسى علينا من صبرا وشاتيلا1؟

لن يستطيع الفلسطيني المقارنة، لأنه مزدحم بالموت؛ مشغول بالدفاع الشيطاني عن بقايا جسده، وعن كامل حلمه، لأنه مشغول بالتميُّز عن المناخ السائد،

ظهره إلى الحائط،

وعيناه إلى الوطن،

ولا يستطيع الصراخ أكثر، ولا التساؤل عن حكمة صمت العرب وعن لا مبالاة الغرب،

لا يستطيع أن يفعل غير شيء واحد: أن يكون فلسطينياً أكثر؛ فلسطينياً حتى الوطن والحرية، فلسطينياً حتى الموت؛ لأنه لا يملك خياراً آخر.

هل هذا هو الجنون؟

فليكن!

حنين مكبوت إلى بيروت

تعليق على شريط تسجيلي عن إعادة بناء مخيم شاتيلا

تعود إلى بيروت، تعود في الكتابة. إذ ليس في وُسْع أحد أن يعود إلى ما كان. وإذا عاد فليس في وسعه أن يجده، أو يجد نفسه، كما كان. لعل من حق الشعر أن يعيد استخدام السحر كأداة استحضار أو سيطرة على الغائب والمجهول. ولكن لا أحد يعود إلى ما كان. فلماذا تشدنا هذه المدينة كأنها بداية تاريخنا، كأنها طفولة فورية؟ ونكبح ما فينا من حنين ليس من حقنا أن نبوح به، لا لشيء إلا لأنه حنين مُهَدَّد!

لم يعد حُبُّ الأندلس يثير مخاوف الإسبان، بعدما اعتادوا تحولها التدريجي إلى ملكية جمالية للجميع، وبعدما صارت وطن المفقود، وطن الأغاني والغياب، وشوق رحيل الإنسان إلى لذة لا تتحقق. ولكن، ما إن يحل الشاعر العربي على حوار إسباني حتى يتم استجوابه: ماذا تفعل في قرطبة؟ ولماذا تحفر أغانيك هذه الذاكرة؟ ألأن اللغة، حتى لو كانت لغة شعر، ما زالت بنت شعبها الخاصة ولم تتمكن، بعد، من أن تتجرَّد؟ ألأنك انتهيت هناك إلى خروج؟

مرت ثلاث سنوات على خروج آخر لا يتشابه ولا يتطابق. وكنت تظن أن اللغة العربية هي بنت شعبها الواحد لولا الخناجر التي انهالت على ظهر النشيد: هل يحق للفلسطيني أن يحب بيروت وأن يغنيها؟ لقد وجدت الأغنية صامتة فحاولت أن تحركها. وما كادت السفن تمخر البحر حتى احتفل مراقب لبناني بضمور الشعر الفلسطيني في معرض الكتاب العربي. فهلّل: رحل الشاعر ورحل جمهوره. فلننشد إذن. لقد زال احتلال الأغنية!

ليس من حق المهاجر من الهجرة أن يجيب. فلتأخذ الفرصة مداها الأزرق، وليطلع العشب من كل حجر. تبهجك حاسة الشماتة، لأنك تحب الشعر إلى درجة التسامح: أعطوني شعراً، ولا تكتفوا بقتل الأب والأخ، بل اقتلوا الزميل أيضاً... اقتلوني شرط أن تولدوا...

لكن بيروت تواصل خرابها العام. وأنت تخفي حزنك على كل نافذة تسقط من النشيد. إذ لا يحق لمثلك أن يحزن على ما ليس له، خاصة إذا كان هذا الحزن متهماً بادعاء ملكية. ألست فلسطينياً؟ دع الموجة المريضة تمتد لتنحسر. دع احتفال الغياب يمتد حتى حضور الطوائف، بكامل عُدَّتها، لتدل على أن الوطنية تتشكل من مصادر أخرى غير كراهية الآخر الذي هو أنت. أنت الآخر، والجيوش زُوَّار أو خدم لمائدة الوفاق!

ولا يحق لك أن تتذكر بيروت، ولا أن تقول إن هذه المدينة الملتبسة، المدينة - المدن، المدينة - الجزيرة، المدينة - الغابة عاصية على الكتابة. لقد صاغت كُلَّ من مر فيها، ولم يقدر أحد على صياغتها. عشت فيها عشر سنين، أكثر مما عشت في حيفا.

ولا يأذن أحد لك – لو استأذنته – بأن تواصل الإصغاء إلى إيقاع ما فيها من أسرار، ولا أن تُنَمِّي حاسة العلاقة بتفاصيل شوارع سلخت منك مهابة الموت وفجاءته. فإن سيرتك الشخصية فيها مكرسة من أجل صياغـة شعار على جدار – سقط الجدار وظل الشعار – ومن أجـل صناعة مرآتها العلنية – السياسيـة أو السياحية. وهي لم تنظر إليك ولم تـرك إلا نمطاً أو نموذجاً يعلو ويهبط تحت تأثير تقلباتها وحـدود عقائدهـا المرنـة. فما كان مأثـرة أمس يتحـول الآن إلى عـار. وما هو عار اليوم يتحول غداً إلى وطن. وفي بورصة الأفكار والإيديولوجيـات يشتري المثقفون – وخاصة هواة أقنعة التقدم – هويتهـم اليومية باعتـذار عما سبق – من ماو إلـى عرفات إلى بول بوط إلى الخميني إلى ما لا تعرف – ولكنك دائماً تقول إن بيروت ليست هناك. ولكل منا بيروته. وان بيروت قد تختبئ في شارع أو وعي، وقد تحمل معانيها وترحل.

الصعوبـة هي أنك ما زلت تقارن البحـر الذي أدخلك بالبحر الذي أخرجك، وليست الموجة واحدة. ألهذا يتغير البحر. ألهذا لا تعرف تماماً إن كنت قد دخلت أو خرجت فأين تجلس؟ أين تطلق اسماً على مكان؟ أين مكان المكان؟

لـم تكتمل خطبة الوداع، لأن الـوداع النهائي في حاجة إلى لقـاء أصلـب، ولا لقاء. والأرض هشة. ولم يخـرج المكان من المخيلة ليجلس. ولا بُدَّ لعلاقة الجسد بالفكرة من مكان للزفاف أو مـكان للجنـازة. ألهـذا السبـب تشـدد القبضة علـى حنجرة الصرخـة، وتقاوم حنيناً يُوَرِّط حلفـاءك السابقين في شقاء التمييز بين خطوتك وخطى الغزاة؟

كـم كنت تظن أن سيدات القرنفل المنهمر على دبابات الغزاة – فـي الأشرفية – ستستنفر القوة الداخليـة للوطن الواضح، بدلاً مـن التصفيـق للرئيس الذي تمخضـت عنه دبابات الغـزاة، وبدلاً من تطهير ظاهرة رجمـك بالصواريخ والخطب الوطنية والاعتذار الجاهز عما سبق من التحام الشعبين الشهير!

كل الحـروب تبصق عاشقـات للجنـرالات. كل الحروب تولد عاهـرات. ولكن لم يحدث أبداً أن يتحـول أنين العاهرات إلى خطاب ثوري. كيف جفت دموع الوداع واسْتُبْدِلَت الذاكرة بجهاز نسيـان؟ كيف انقضَّ رفاق السلاح علـى شعبك هناك، كيـف أنتجوا الفصـل الثاني من صبرا وشاتيـلا، كأنهم يكنسون المدينة مـن معانيها وبطولـة فرسانها في الحصـار وفي ملاحقة الاحتلال، ويتدربـون على لذة الحقد في جسدك. يتدربون على القتل فيك...

ولا يحـق لك أن تصـرخ، لأن القائد اليسـاري، الذي سلحته أمـس وحميته، لا يتورع عن القـول أن الفلسطيني شديد الصراخ، يحـوِّل خلافاً على حادثة سير إلى كارثة، ويبالغ في وصف ما ينتابه مـن أذى، ويسمـي كل موت مجـزرة. يسمِّي كل مـوت مجزرة! أليس ما جرى في صبرا وشاتيلا مجزرة؟

لكـن القائد اليساري، يقول لك: ليس دم الفلسطيني أعزَّ علينا من دم اللبناني! لم يقل أحد ذلك. ولكن من يميل إلى هذه المقارنة يدخل الشارع فـي مناخ العنصرية. ألم تبـدأ العنصرية من مفاضلة الدم؟

وبيروت تواصل سفك دمها. دم يملأ الأرض والشاشة. دم يسيل سدى. اختلطت فيها قوى القتل وانفصلت لتتكاثر بوحشية. الوحش يملأ الحاضر والأفق. ولا نرى خطاباً أو رسالة. هل بقي أحد ليموت؟ من أين يأتون بكلِّ هؤلاء القتلى؟ كان الموت مطراً عادياً وذباباً عادياً، ثم تحوَّل إلى لغز. مَنْ يقتل من ولمن؟ مدينة تقف في أقصى الجنون والدهشة صاغت لها موسوعة جحيم يختلف عن موسوعات التراجيديات الإنسانية. مدينة تستنهض أول تاريخ الغابة. مدينة جميلة تستعصي على النسيان. مدينة يؤمنها من رآها يوماً واحداً. وفي استراحات الموت القصيرة تنبثق منها الحياة طليقة طازجة، تطبع الكتب وتنشر المآدب وتغني. كأن الحياة هي الاستثناء. إنها معجزة.

وفي كل واحد منا بيروت ما. في كُلِّ واحد منا جزيرةُ كلام مباح. كنا هناك، وما زلنا هناك. فالبذرة لا تهاجر. وليس سهلاً اقتلاعً بيروت من البناء العضوي لمن ساهم صياغة بيروت المضادة، كما يصعب اقتلاع المعاني والأجساد المتداخلة في إسمنت المدينة. البحر هو البحر. لذلك تعود إلى بيروت، تعود في الكتابة، وتعود في اجتياز الوعي مرحلة الطيش والشقاء، وسقوط الحروب التي حاولت أن «تُحرِّر» لبنان من فكرة فلسطين، وحاولت أن تُبعد حدود فلسطين عن تركيب لبنان. لذلك، تَعبِّر عن حنين إلى مدينة لم تكن مدينة ولا بديلاً، بل كانت عتبة الدخول إلى البيت الأول.

وهذا الشريط الذي يفجرك ويعيدك إلى بيروت في الكتابة، يعيد إليك طائر الفينيق الناهض من الرماد والدمار. شاتيلا ليست للبكاء ولا للماضي. شاتيلا ليست اسماً للدم وحده.

مـن يستطيع ترجمـة الصورة إلـى كلام؟ إنني أبكـي من قوة شعبي. لقد توقف الموت قليلاً. استراح من ضحاياه. انتهى الفصل الثاني من المجزرة. أنقاض تدل على نهاية. أنقاض تشير إلى بداية. أنقاض وصفيرٌ ريح. فتاة تكنس شظايا القنابل عن متر يصلح للنوم. فتــاة نضرة لا ترى الكاميرا، لذلك تخط مكنستها دلالتها الصامتة، فتــاة تنظِّف بقايا غرفة من الموت وتذهب إلى يومها بأناقة. أنقاض وصَفيرُ ريح. وجه طفل ينبثق كالقمر الشيطاني من الخراب. يلعب بما تبقى من أشياء أبيه. يرى الكاميرا فيصوب إليها شارة النصر، ثم يأخذ مطرقة ويدق مسماراً على خشبة لتنتقل الحياة إلى ورشتها.

لم يحدث هنا شيء. ذهب الموت. جاءت الحياة. طلع القمر غــاب القمر. طار الحمام حطَّ الحمام. مـرَّت المجزرة. انهار كل شــيء، فعلينــا أن نبني بيتاً لنسكــن. ليس للنهايات هنــا من إدراك. الحيــاة تواصل مهنتها، والبقاء للبدايــات. جاءت شاحنات الحديد والرمل والأسمنت. بدأت إعادة البناء. لا وقت. للذكرى ولا وقت للحقد. العمل... العمل... استجابة للطبيعي. باقون هنا للمرة التي لا تحصــى. لا يروون ما حدث. يتكلمــون عن الصواريخ والقنابل ببساطة من يتكلم عن عاصفــة مَرَّت. سقط الثمر عن الشجر. طلع القمــر غاب القمر. ينجون من المجــازر مرة أخرى. يخرجون من المجازر ويدخلون فــي حياتهم اليومية. يدافعون، يقاتلون، يبنون، وينجبــون الأطفــال. هنا. هنا. هنا. المخيم هــو المكان. لا مكان خــارج المــكان. وفي كل مــرة ينهــار وجودهم علــى رؤوسهم. وفــي كل مرة يعيــدون تركيب المكان، يعيــدون تركيب المشهد. منهمكــون في إعادة تركيب حياتهم المهددة بالتفكيك من جديد. قليل مــن الإسمنتــت والحديد والرمــل يكفي. يكفي لإعــادة بناء

المـكان. الآن، الآن خرجوا من المجـزرة الثانية، خرجوا بجمال ورشاقة وشبـه أناقة. ولا أثر للموت وللخوف عليهم. لقد اغتسلوا وجاءوا إلى البناء.

أيـة قوة فيهم؟ أي جنون؟ وأي سر؟ كيف يبني العاقل بيتاً على فوهة بركان؟ ماذا يفعلون إذن. أين يذهبون؟ لا يحصون شهداءهم، إلّا ليزيدوا النسل. هل هم ناس أم شياطين؟ أطفال يتفجرون من بين الشظايا والخرائب، يجرون قضبـان الحديد ليبنوا بيوتاً قد تتحول إلى قبور بعد قليل.

لا شيء يهمهم سوى مواصلـة الإمساك بنبض الحياة وبإيقاع العنـاد. وشيوخ يعرفون تفاصيل بلادهـم ويشمون روائح النباتات من بعيد. عائدون إليها هناك. ويبنون هنا. يبنون لأنه لا بُدَّ للعائد من نقطة يعود منها. فهم لا يستطيعون الإقامة في الهواء.

هنا نقطتهم. هنا صخرتهم. هنـا أرضٍ عنادهم. العناد العناد. و«الشعب الزائد» يتزايد، ويشهر حقيقته بكلّ ما فيها من مفارقات وقـوة حياة تلقائية. هنا البئر. هنا الملجـأ. يعيدون تركيب المكان فـي شروط أقوى. باقون وعائـدون، إذ كيف يعود العائد إن سقط؟ مفرداتهم قليلة لا يداخلها الموت إلّا في جُمَل معترضة. مشغولون في إعادة بناء المخيم – رحم الثورة. لا بكاء ولا صراخ ولا ذكرى. يستعـدون لما تأتي بـه الحياة والمؤامرات والحـروب القادمة. لا يُسَمّـون بطولتهم. لا يعرفـون أنهم أبطال، فالبطولـة للكتب. هم البطولـة ولا يعرفون. بطولتهم تنمو فيهم وحولهم كما ينمو البصل الأخضر والبقدونس والورد قرب ماسورة ماء مكسورة. ومن فرط ولعهـم بالتتابـع يعيدون بنـاء المشهد كأنهم يلعبـون بالأقدار. هم

الذيـن يسخرون إلى حد العبث. من أين جاءتهـم هذه القوة؟ ألأنه لا خيار لهم؟ ألأنـه الحصار؟ إنهم يعيدون بناء «بيروتهم» الخاصة ويمـلأون سماءها بطيـور الفينيق. إنهم يعينوننـا على الحياة وعلى الأمل الصعب.

قليل من الإسمنتت والحديد يكفي لإعادة تركيب المكان.

كفـى، أوقفوا هذا الشريط أوقفـوه لأعلم أنني قد خرجت من بيروت. أوقفوه لأعود إلى بيروت، لأعود في الكتابة!

في انتظار البرابرة

«والآن، ماذا سيحل بنا من دون برابرة؟
لقد كانوا نوعاً من الحل»
قسطنطين كافافي

1

متى يَضْربون؟ متى يضربون سيضربون؟ لقد اعتدنا هذا السؤال اللجوج منذ اعتدنا انتظار البرابرة، الذين لم يصلوا في القصيدة المذكورة إلى الإسكندرية، لينصرف الشاعر إلى حلّ عقدة ليله الشخصية، ولكنهم استوطنوا واقعنا ووعينا منذ مدة طويلة، لتنصرف المؤسسة العربية إلى حلّ عقدتها معنا. لقد وضع البرابرة الجدد الحدود في جيوبهم فصاروا يطلعون من حياتنا بشكلٍ أليف مألوف. ولكن متى يضربون هذه المرة، وأين يضربون هذه المرة؟ سؤال مشدود كأوتارِ الرعب من المحيط إلى الخليج. ليلة قَدْر معكوسة، وطويلة، يتطلّعُ حُرّاس الليل إلى قمرها الساخر في انتظار البرابرة الطالعين من مكان آخر، ربما من سلاحهم الشخصي، وربما من شاشة التلفزيون. دعوات، وصلوات، وقرابينُ أرخصُها لحمنا لتوجيه الضربة إلى مدينةٍ أخرى، أكثر عروبة أو أقل عروبة.

وتعاويـذ مضادة للقضـاء والقدر ترشـد الضربة الآتيـة إلى الجسد الفلسطيني وحده. متى يضربـون؟ متى يضربون ليخلص القاعدون علـى عروش الانتظار مـن هذا القلـق، ومن هذا الجسـد في غارة واحـدة، ولينصرفوا إلى إدارة شؤون الرثاء، والتفاوض المجاني بلا عقبـات. إنها لحظة متوترة تمد على مدار تاريخنا الحديث، تتكرَّر دائماً لتحـوِّل التراجيديَّ إلى كوميديٍّ أَسـود. وهذه اللحظة، هذه المـرة، تزخر بأقسى المفارقات في لعبـة أَقنعة طويلة وثقيلة. ولكن البدايـة واحدة: فكلّما فجَّـر شاب نفسه ليعبِّر عن عزلـة خانقة، أو لينسف طريقِ سياسة لا تعجبه. أَو ليقدِّم مساهمته الخاصة في الإساءة إلـى قضية، أو ليترجم بجسده حملة ثوريـة سمعها من إذاعة أو من معسكـر تدريب متخصص في اغتيال الفكـرة الوطنية المستقلة... كُلَّمـا حدث ذلك، وأصابت أشـلاء طائشة يهودياً مّا في أي مكان، مَـدَّدت الأمة جسمهـا العملاق في انتظار البرابـرة. واتخذت هيئة المضـروب قبل الضرب، دون أن تُعدَّ نفسها لبارقة دفاع عن النفس التي أَلفـت الضرب. وحين يطـول الانتظار الشديـد الشبه بعذاب فـأر أمـام صبر القط الذي يطيـل وقت الإعداد للشهـوة، استعجلنا الضربة: هيَّا اضربونا واضربونا لننصرف إلى أَعمال لا عمل فيها... لننصـرف إلى الخمـول. ولكن متـى يضربون وأَيـن؟ ليست قدرةُ الآخـر على بلوغنا أينما كنا هـي مصدر الإهانة الوحيد. فنحن جُرْمٌ ضخـم لا تحتاج إصابته إلـى مهارة حابلٍ أَو نابـل. لقد أنجزنا في هذا الإدمان اعترافاً شديـد الأَبَّهة؛ اعترافاً يعادل اكتشاف العناصر؛ اعترافاً لا يعتـرف به أحد؛ اعترافاً شخصياً بأننا نحن الضحية. نحن الضحية فلنرقص جذلاً. كأن العدو ليس هو العدو. لتطلع النرجسة، إذاً، مـن مرآة هذا الجرح. نحن الضحية صفّقـوا وتفرقوا، ولنخلد إلـى عزلة الآخـر، لأن الضحية هـي الجديرة بالعطـف. وسننتصر

في هذا المجرى، وهو مجرى تاريخي يبدأ من اعتراف الشهود بأن الضحية هي الضحية... وسنرجئ التساؤل عمّن هم الشهود. سننتصر أولاً على الوعي الذي زيّف دون أن نسأل من هو صاحب الوعي، ومن هو صانع الوعي؟ إنه خارجنا مرة أخرى، خارجنا تماماً، فصفقة التواطؤ اللذيذة التي عقدناها مع الذات على الذات قد فاضت عن شروط الاستلاب الكلاسيكية إلى العناية الخاصة به. نحن نربّي استلابنا لنكسر حدود العلاقة التقليدية بين العبد والسّيد؛ لنصوغ عبودية ذات أصالة وحداثة، عربية، شهمة، شريفة، عذراء يحتفل عبرها الإنسان بقدرته الفذّة على أن يتطوّر إلى عبد، في جهد مُضْن يمتد من حروب الاستقلال والوحدة والبناء الاشتراكي المسخ، عبر آلاف من الضحايا والشهداء والانقلابات، لينتهي عند صياغة الصورة المشتهاة: صورتنا في مرآة غرب نتوسله أن يقبل طاعتنا، بعدما حوّلناه في عنينا وتعاملنا من خصم إلى شاهد عادل؛ أن يقبل ما نرفع إليه من براهين على تُبَرُّئنا من كلام قلناهُ سهواً، ومن دم ضحّينا به سهواً؛ وأن يصدق أننا الضحية، ضحية ابنه الآخر، ضحية قابيل. نحن الضحية التي تتمختر بكل آيات العجز والبترول وحسن النية الكفيلة بالثقة. نحن الضحية التي لا عمل لها غير انتظار البرابرة وانتظار الضربة. ومع ذلك ليست هذه وحدها هي الإهانة. فإن حق العدو في الضرب؛ الحق المتداول دون تسمية، المعترف به، المقبول، الطبيعي، المنتظر، المأمول – يتطلّب شيئاً من سخرية الملاحظة. فكلما خدش موتُ عربيٍّ مهابة اليهود في أي مكان، وقف العالم أمام شاشة التلفزيون وأعدّ الفيديو – وهو سماجة عصرنا – لالتقاط المشهد القادم. والمشهد القادم هو تحرك المارد الإسرائيلي بخيلاء وصلافة لتأديب سُكّان شرق المتوسط وجنوبه. والمشهد يتحرك بأمان، وقبول، وهتاف حاد، لأنه تحوّل إلى حق

من فرط مـا تكرَّر؛ تحوَّل إلى حتمية! لم نعـد شباباً صغاراً، ولكننا نتذكـر ميكانيكية تحوُّل القدرة إلى حـق، وتقهقر الحق العاجز إلى عدوان، وتدرُّجَ وقوعنا سبايا لمرجعية العدو، أسرى صورته ولغته، وأسرى تحوُّله إلى مثال. لا. لا يعجبنا شيء البتة: لا خاصرة الغزالة، ولا رشاقـة الصياد، ولا التعليقـات الدائرة على المشهد، ولا انتظار البرابـرة في الساحات العامة، وعلى شرفات المنازل، وفي مجالس الـوزراء. ولا يعجبنا حياء العرب في محـاورة معنى الإرهاب، ولا قبولهـم حق أمريـكا، وهي دولة الإرهـاب الأولى، فـي اغتصاب مقاعـد القضاة في محكمـة الإرهاب. يعجبنا في هـذه اللحظة أن نفتـح أية موسوعـة لنقرأ تعريفـاً للإرهاب: «إنه شـكل من أشكال الحـرب التخريبية التي تقوم بها دولة قويـة تسعى إلى إعاقة نمو أُمة منافسـة أكثر وقـت ممكن، أو لإعاقة حرص الأمـة على المحافظة علـى استقلالها... والإرهـاب هو إستراتيجية تهـدف إلى إحداث خلل في توازن دولة أو نظام من أجل خلق الفوضى الضرورية لخلق نظام آخر»... لا تعليق... لأن البرابرة قادمون.

2

فـي شاحنات الـورد ينقلونـك مـن أَنقاض محطـة الإسمنت المؤقتة إلى سفح الخلود الذي لا زائر له غير الغربان. سفح يُطل على بحـرٍ يطل على أشلاء كُدِّسَتْ في شاحنـات سَميناها - من أجلك - شاحنات الـورد، وهي لم تشحن ورداً أو بشـراً من قبل. سفح يطل علـى آخر دنياك المليئة بالطلقات والأمكنـة التي ليست لك. وليس لـك هذا الجدث المحفور على عجل قبل نزول البرابرة من الفضاء. الريـح هي الريح لا تنطق بغير ما تُنْطِقها، وهي الساعة لا تقول شيئاً؛

ولا هـذا العشب اليابس يهمس. في وسع هذا الهواء أن ينساك للتوّ، وفـي وسع الشاطئ أن يستقبل السابحـات العاريات. لا لم تأت إلى هـذا المكان، ولم تطأ هـذا الرمل، ولعلّك لم تمـت هنا. الغربة في حدّهـا الأقصى تقصيك عن جلدك. من سيرمـي عليك الورد بعدما أفرغتك الشاحنات من هذا الصباح البطيء؟ ومن أنت من بين هؤلاء الشهداء الذين اختلطت أشلاؤهم وتوحدت في أكياس متشابهة؟ أي بَتْـر يدل عليك، وعلى مسائِكَ الشخصي، الذي لا يقول سوى كلام عـامٍ تتقدَّمُهُ شـارةُ النصر المرفوعة حتى في الظـلام. كم ستكبر في الليل، وإن كانت جنازتك صغيرة كقبضة رخوة. لا يؤذن للحزن بأن يحزن، ولا يسمح للغضب أن يغضب، ولا يُشَيِّع أَحدٌ أحداً على هذا السفح الوعر؛ فلستَ من هنا – أيها الغريب بين الموتى. نصف حذاء مقطـوع بدقة يحمل نصف قـدم محاطة بفرشاة أسنـان لم تنكسر، وصورة لم تخدش، وفكرة لا تلمس ولا تعبّر. أهذا ما يشير إليك... أهذا ما يدلّ عليـك؟ أوراق يداعبها النسيم بلا مبالاة تدفع المشاهد إلى اختصار الوداع. إلى أين؟ إلى أين يأخذونك بعدما كان في وسع خُطـاك أن تأخذ الأمَّة إلى الغفـران؟ أسمِّيك القربان حيناً، وأسمِّيك العنقاء، وتُنْسيني أنك إنسان، لتفلت من لغتي كالشبح. أما آن لك أن تعـود حقاً شبحـاً لنتمكن من رواية البداية مـن جديد، وبلا مسرح. تعال لِنُخْلِيَ هذا السفح من شروطه الإغريقية، فمثل سيرتك لم يُدَوَّن في نصّ سابق. عُدْ شبحاً إذا استطاع مُشَيِّعوك أن ينتشروا في أصقاع أخرى وفي شعاب تـؤدي إلى بيت. ولا تنصب دولة حيثما حللت. أرفع فكرتك وخَبِّئْ سَّرك. الجنازة قصيرة فتقدَّم إلى مثواك المؤقت، إذ ليـس من مثـوى أخير ولا معركـة أخيرة. لم تولـد تماماً لتموت تمامـاً؛ ولا بارقة على هذا السفـح لأيِّ مكان أو صرخة. عُدْ شبحاً. عُدْ شبحاً لنعود إلى نشيدٍ أوضح...

3

يعثر حرس الشواطئ العربية على كنز ضائع: يعثرون على جثة مُقْعَدٍ أمريكي. قيل إنه قُتل برصاصة أَطلقها شاب فلسطيني في ظروف بحرية شديدة الغموض. ولأن المتهم بالقتل فلسطيني فقد تمكّن حرس الشواطئ العربية من العثور على الجثة. جثة صارت في حرب الإرهاب النفسية أكبر من صورة فلسطين ومن تقاليد الشهامة العربية. جثة كفيلة بتغيير موازين العدل. جثة – طلقة قادرة على إصابة آخر شرعية في الخطاب الفلسطيني عن الحق والوطن. الجثة – الكنز. الجثة الهدية إلى منظمة العفو الدولية. الجثة – الوصية في خطاب شيكسبيري لا يقاوم. ألأن موت مُقْعد أمريكي يفوق كل موت عربي؟ لا نحسب ذلك ونحن نتقدم بأحر عبارات التعازي إلى عائلة الفقيد، ونشعر بالخزي من الحادثة المثيرة للاشمئزاز دون أن نقبل مقارنتها بجريمة اختطاف وطن، وتدمير مجتمع، وارتكاب المجازر المنظمة التي اقترفتها دولة! ولكننا نتساءل كيف استطاع حرس الشواطئ العربية انتشال جُثَة من قاع البحر الأبيض المتوسط، بعدما فشلوا في انتشال شهدائهم، وبعدما فشلوا في انتشال جثة الضمير العربي الرسمي من ساحة فسيحة مليئة بآلاف الجثث العربية الصارخة: من القاتل؟ نتساءل ونحن نعرف أننا مدفوعون الآن إلى خوض معركة الدفاع عن صورة الروح. فقد خُيِّل للبعض الكثير أَننا فقدنا كُلَّ شيء، ولم يبق لنا من سلاح سوى صورة الروح. وليس في وسع الإرهاب الكبير ولا الإرهاب الصغير، في التقائهما وفي افتراقهما، أَن يخدشا هذه الصورة. فبمدى ما يجرحون أجسادنا يقوّون روحنا. أَلهذا السبب، إذاً،

تــزج اللغة العربية الرسمية بأسلحتهـا المضادة للروح الفلسطينية فـي معركة دفـع الفلسطيني إلـى الغياب؟ إلى الغيـاب بطريقة لا مجـد فيها ولا فجيعة؟ أَلهذا السبـب يتخصص بعض المسؤولين العرب فـي صناعة قاتل فلسطينـي. ليقتـل الفلسطيني، وصورة الروح الفلسطينية، أمام نفسـه وأمام العالم؟ ألهذا السبب يحتاج القمـع العربي، في «صراعه» مع الإرهـاب الأمريكي الإسرائيلي علينـا، شاباً فلسطينياً ليخطف طائرة بالنيابـة عنه، وليقتل بالنيابة عنـه، ثم يتنصل منه ومن «قوميته» المكرسة لتدمير القرار الوطني الفلسطينـي حيـن يشهد قدوم البرابـرة؛ حين يرفع لـه الإرهاب الكبير إشارة الإنذار؟ نعم، يتنصل من الأداة التي استُغِلَّت ظروف مأساتهـا وحوافزهـا المتوترة لتدمير ذاتهـا، ويتنصل من خطاب الثـأر القومي، لكي لا يبقى غيـر الفلسطيني قاتلاً من أجل القتل. بيد أَن الساحات خالية من البرابرة الذين غيَّروا أَسماءهم، وبدَّلوا لهجاتهـم، إذ هم وصلوا منـذ زمن بعيد، واندسـوا فيما لا نراه. ونحـن في قلب المشهـد مدفوعون إلى غيـاب متميّز؛ غياب لا يغيـب؛ غيـاب حاضر مـن أجل عقـدة النص، من أَجـل اللعبة وجمهور المسرحية. لنا دور واحد: أَن يستدعى غيابنا للحضور قليـلاً من أَجل أي شـيء يطلبه اللاعبون: من أجـل مساومة على إدارة سجـن أمريكيـة، من أجل إضفاء شرعيـة على انقلاب، من أجل ارتفاع سعر الخبز والبنزين، من أجل تزويد الخطاب القومي بتقاليدبلاغـة رماديـة تسمـي الفلسطينيين مستسلميـن لأنهم لم يستسلمـوا، ولأنهم يؤمنون بجـدوى الدفاع عن خارطة يمزقها سواهـم كالخرقة، ولأنهم يتمسكون بالدفـاع عن صخرة قُدَّتْ من لحمهم، وعظمهم، يرفعون عليها هوية العرب الأخيرة.

4

ولكن، ماذا تفعل حين يختلـف الإرهاب الكبير مع الإرهاب الصغيـر عليـك؟ كيـف تصرخ حيـن تتكسـر نصال الأعـداء في خاصرتـك؟ وحين يكون جسـدك هو ساحة المعركـة بين قاتلك الكبيـر وبين قاتلك الصغير، فأين تطلق النداء؟ سؤال لا يسأل لأنك مغـدور، مقهور، أَيوب. وعليـك أن تغلق المساحـة بين الصرخة والجسـد، عليك أن تصغي إلى صمتك وحدك، فمن هذه الفسحة الصغيرة ستمر طائرات البرابرة، وقد تتَّهم، وستتهَّم إذا صرخت من الوجع ومـن الغدر بأنك شريك في المؤامـرة على قاتلك الصغير. أَيِّدْهُ، عانقْهُ، ساعدْهُ على إيلاج خنجره في كبدك ليتفرغ للدفاع عن نفسه أمام قاتلك الكبير، فتلك واجبات الأُخوَّة. لا تُسَمِّ من اغتالك فأصابـت أشلاؤك بعض المارة الأجانـب كي لا تسمع أمريكا هذا السـرّ العميق. لا تقل شيئاً. ساعد أَخاك علـى اغتيالك. أَو قل إنك قاتـلُ نفسك. لم يقتلك أحد. لم يقتل أَحدٌ أَحداً. قل إنه أَجرى لك عملية تصحيحية في الكبد فمت من فرط الاستسلام.

قـل مرة أُخرى إنـك قاتل نفسك. فأنت ثمـن كل شيء. أنت ثمن لا شيء. قل إنك قاتل نفسك لينجوَ بئر بترول، وصفقة سلاح، أو جملـة ثورية، مـن التضخم. ولا حصة لك فيمـا يجري تقاسمه فيك وفي جثتك، لأنك ضحيةُ الضحية. لم يقتلك أحد. أنت الذي فعـل. أنت الذي قتـل. قُلْ ولا تنـدم، فبعد قليـل سيتعانق القاتلان عليـك، وأنـت الثمن الـذي لا يبحث عن نتيجة. وعليـك الآن أن تقـف. بكامل جروحك، وتعتـذر للخنجر الـذي أَصاب جسدك وأصاب صورة روحك، لأنه قد يفضح القاتل، قد يفضحه قليلاً... هل وصل البرابرة؟ هل وصل البرابرة؟ لقد كانوا نوعاً من الحل...

الأعمال الأولى



محمود درويش

في انتظار البرابرة



جنون أن تكون فلسطينياً
ولكن لا نستطيع إلا أن نكون فلسطينيين أكثر

لا شيء يتغير، لا شيء يتغير غير طعم الهواء. في ظلام الغابة الوحشية، يجري تعديل طفيف على نص الدم المفتوح، إلى ما لا نهاية ...

غير أن المخرج يتكلم، هذه المرة، لغة عربية شديدة الحماسة. والمكان هو المكان ذاته، المكان الذي يذكر بدم لم يجف، بجثة لم تنشف، بصرخات لم تنقطع ولم تصل.

القتلة يغيرون شارتهم، ويتقدمون من الضحية ذاتها، الضحية التي لم تجد ما تغيره في المكان ولا في عملية انتظار الموت.

صبرا وشاتيلا رقم (1)

صبرا وشاتيلا رقم (2)

هل نجح هذا الكابوس إلى هذا الحد ليجدد إنتاجه؟ بمد سائق سابق لسانه ساخراً وشامتاً: ألم أقل لكم أن هذا الشعب زائد؟

هـذا الشعب الزائد هـو الشعـب الفلسطيني. مـاذا تفعل السكين بالدودة الزائدة؟

تستأصلها...

العمليـة ذاتها، عمليـة استئصـال الشعـب الفلسطيني من أرضـه، ومن أملـه، ومن جسـده، مستمرة منذ حوالـي أربعين عاماً. ولكن طائر الفينق، أو الطائر الأخضر ـ كما تسميه الأغنية الشعبية الفلسطينية ـ لا يتوقف عن الولادة من رماده.

إن مسرح العبث الدموي فـي الشرق الأوسط يترك الخيل الأسود عاجزاً عن ابتكار صوره السوداء، وعلى جثة الفلسطيني أن تغيب، أن تغيـب تماماً عن المسرح، أولاً، ليتسنى للطوائف أن تلعب أدوارها بطريقة أكثر تلقائية، أن تبتكر نصها الجديد أن تواصـل تقاليدها التاريخية في أخذ ثأر آخر، وأن تتقاسم الغنائم الغامضـة. ولكن هل عرف شعب آخر غيـر الشعب الفلسطيني هذا العدد من الهجـرات؟ هذا الكم من المنافي؟ وهذه الأعداد مـن المذابح؟ دون أن يكافأ بوطن أعني وطنه؟ ودون أن يحظى باعتراف أو... أو بوعد ما من بلفور جديد؟

إن بعضـ الشعوب، أو الطوائف التـي حولت نفسها إلى شعـوب، مدين بحقه فـي الحضور أو بحقه فـي تغييب شعب آخـر، لمـا ألحق بـه من مجـازر. فبمـاذا يكافأ هـذا الشعب المطبـوخ على نار صبـرا وشاتيلا وإلى أين يـراد له أن يذهب لتنتظره مذبحة جديدة؟

وهل يصـدق الضمير الغربي، هل لـه أن يصدق أن القارة العربيـة أو السجن العربـي الشائع الواسع لا يشـكل بديلاً عن وطـن الفلسطينييـن ولا توفر لهم على الأقـل إجازة واحدة من

وظيفة المذبح؟

وهل آن لـه أن يجد علاقة ما بين إعلان الأول: أن فلسطين بلـد بلا شعب، حتى إعـلان القاتل قبل الأخيـر أن الفلسطينيين شعب زائد.

لـن يفهم غير الذين يريـدون أن يفهموا: كيف يقتل العربي العربـي؟ وللتمييز: كيف يقتـل العربي الفلسطينـي؟ لأن النظام العربي الواحد على ما يبـدو، يقوم على تطور الوعي والوجدان الفلسطينييـن بهويـة الفلسطيني الوطنيـة، إذ أن مثل هذا التطور يجعل الشعب الفلسطينـي طرفاً أساسياً في الحرب وفي السلام على السواء، لا لأنه قد يدفع الفلسطينيين إلى ما وراء «المشروع العربـي الكبيـر» كما يقـول الإعلام القومي العربـي الأجوف، بل لأنه يفضـح غيابه. فأين هو المشـروع العربي الكبير خارج الخطابة الإذاعية، أين هو على أرض الواقع؟ أين الزحف العربي، ذو اللون الواحد أو المتعدد الألوان، نحو الوحدة والديمقراطية وفلسطين؟ أين هو لكي يحل الفلسطينيون منظمتهم ويذوبوا فيه ذوبان الجنود الصغار في المسيرة الكبرى؟

نعم، يقتل العربي العربي.

ويقتل العربي الفلسطيني.

لأن قطعان الذئاب الطائفية هي التي تستولي على الأمة.

ولأن القضية الفلسطينية هي فضيحة الأمة. هي الإثم والكابوس المرهـق الـذي يتحـول إلـى عـدو، وهي التـي تنغصـ عليهم أمنهم الطائفـي، وأمنهم العائلـي، وأمنهم الشخصـي، وأمنهم الاستهلاكي.

وهكـذا تنتج شـركات القتل العربـي صبرا وشاتيـلا رقم 2، ليكـون للحـرب السياسية علـى منظمة التحريـر الفلسطينية مصداقيـة التصفية الجسدية ليصدق الفلسطينيون أن اختلاف النظـام العربي عنهم ومعهم هو اختلاف عرقـي أيضاً، وأنهم شعـب زائد مطالـب بالتلاشي، التلاشي المعنـوي والتلاشي الجسدي.

سيصحـو السيد المريض بيغن من اكتئابـه العميق ليشاهد صبرا وشاتيلا على شاشة التلفزيون. سيقول مرة أخرى: إن غير اليهود يقتلون غير اليهود، فما ذنب اليهود؟

وسيكـون فـي وسع وزيـر دفاعه، بطل غـزو لبنـان، أن يواجه معارضيـه متسائلاً بقوة: هل فشلنا، حقاً، فـي لبنان؟ ألم أجعل الطوائف حراساً متطوعين لسلامة الجليل؟ ألم نصنع أدوات قتل مجانية، وعربية، ضد الفلسطينيين؟

وسيتسـاءل الإسرائيليون، وهم مرتاحون هـذه المرة، عن نسبة الفـوارق، بين قواعد الاحتلال المباشـر وفوائد الانسحاب غير المباشر من لبنان، ولكن أحداً لن يسأل عن معاقبة أبطال مجزرة صبرا وشاتيلا رقـم (2). ولن يطالـب أحد بتشكيل لجنة تحقيق ولا بإقالـة وزيـر الدفاع العربي الذي يرتكـب المذبحة في ظل هيمنتـه، لأن لجان التحقيق هي صناعـة صهيونية لتضليل الرأي العـام، ولأن الديمقراطية الغربيـة البرجوازية تفسـد عملية بناء الاشتراكية العربية.

بدلاً من ذلك:
ستواصل صحف دمشق الشريفة اتهام ياسر عرفات بارتكاب المجازر ضد شعبه ليغطي خيانته السباعية إلى دولة ـ مسخ للفلسطينيين يزيد بها تفكيك العالم العربي الموحد في دولة عربية واحدة.

وستواصل تلك الصحف قولها:
إن تطهير المخيمات الفلسطينية من أنصار عرفات هو شرط حفظ الأمن والسلام في لبنان؟ وإن تسليم السلاح الفلسطيني للواء السادس اللبناني، المشارك في المجزرة، هو شرط أساسي لوقف المجزرة.

نعم، يقتل العربي العربي.
وتاريخ الحرب اللبناني مليء بالمذابح المعبرة عن تمسك الطوائف بأصالتها، اللعب بالجثث والرؤوس المقطوعة المعلقة على الشجر وخلف نوافذ سيارة الجميل، ورقصات الشمبانيا والجيتارات بين الجماجم، هي أحدث أنواع الرياضة والتسلية في بلد ترشحه الطوائف لأن يتحول إلى سويسرا العرب.

ولكن لم تتوحد الوحوش على جسد كما توحدت على الجسد الفلسطيني.
لم يمر عام واحد في تاريخ الشعب الفلسطيني الحديث دون مذبحة...

خذوا هذه العناوين البارزة، عناوين فقط في رواية ضخمة

لـم تكتمـل فصولها، لتـروا بعض أختـام الموت علـى الجسد ـ المعجـزة: دير ياسيـن، كفر قاسـم، قبية، عمان، تـل الزعتر، بيروت، صبرا وشاتيـلا رقم 1 + ، طرابلس، صبرا وشاتيلا رقم 2، وكل أدوات القتل منذ تطور الحيوان إلى إنسان حتى عودة الحيـوان إليه: البلطة، السكين، البندقيـة، المدفعية، الصواريخ، والأسلحة الإلكترونية.

غيـر أن الطائـر الأخضـر يعاود الانبعـاث في كل مـرة ويصوغ أسطورتـه الجديـدة، فبأي سـلاح يقاتل هـؤلاء الفتيـان دائماً، المحاصرون في شارع أو بناية أو خندق، المحاصرون في هوية؟

سلاحهـم الوحيد هـو الجنـون، والجنون، والجنـون: جنون الحيـاة، جنون اليأس، وجنون العزلة. وهم الذين يعرفون وجوه قتلتهم الجدد. يعرفونها جيداً وقد يكون من ساهموا في تكوين قتلتهم.

وها هـم القتلة، أبناء سـلاح أمس القريب المشتـرك، يتقدمون مقلديـن القتلـة السابقيـن، لمـاذا تقلـد الضحيـة قاتلهـا كثيراً لمـاذا؟ يصطـادون المدنيين من أطـراف المخيمات. يحفرون القبور الجماعيـة. يمتصون دم الجرحـى. يقتلون الجرحى في المستشفيات. يسرقون الجثث ويخفونها. يطاردون الفلسطيني الحي والميت.

فمن أين جاءت هذه الكراهية؟
من أين جاءت قوة الوحش الغامضة؟

ومن حول محرومي لبنان الفقراء إلى قتلة فلسطين... من؟
لا يكفي أن نعرف أن الآفة تركت آثارها وراءها، علينا أن نعرف أيضاً أن غابة الطائفية السياسية قد أطلقت ذئابها الكامنة، وأكلت حدود التمييز بين الأخوة، وبين الأعداء والحلفاء. كل شيء هنا جائز. كل قيمة مستباحة، والفلسطيني هو العدو الجاهز دائما. هو العدو السهل الآن. هو الضحية التي ترضي إبادتها كل العواصم، وتسهل إبادتها شروط التفاوض ودخول النادي السياسي الليلي، ولكن، أي تفاوض؟ وأي ناد؟ لا أحد يعرف. لأنه ليس من الضروري أن يكون السؤال والجواب واضحين لكي تقتل في لبنان الآن أو تقتل. إذ لا مرجع وطنياً، أو قومياً، أو أخلاقياً، أو إنسانياً، لا رسالة لهم الآن ولا خطاب. والفوضى تفيض.

ويعرف الفلسطيني، المحاصر في أمتار مربعة، وظهره إلى حائط هش، يعرف أن ليس من حقه بعد الآن أن يطمئن إلى الوعي العربي المشترك تجاه الصراع العربي ـ الإسرائيلي، بعدما تحول هذا الوعي إلى وعي سابق... عندما احتلت المسرح السياسي العربي العصبيات الطائفية والأنانيات الإقليمية، وتحولت الأوطان إلى شركات خاصة محدودة الضمان لا يشغلها إلا الخوف من الغضب الإسرائيلي خلف الحدود، ومن الغضب الشعبي داخل الحدود، فتواجه الخوف الأول بتقديم كل أشكال حسن النية، وبمحاربة العدو الفلسطيني المشترك. وتواجه الخوف الثاني بمزيد من القمع والخطابة.

لهذا يسكت الشارع العربي. يسكت تماماً من وطأة الإرهاب ومن الصدمة، ولا يعبر عن طاقته المكبوتة إلا في حالات فوزه،

أو خسارته في ألعاب كرة القدم.

هـل نقول إن صبرا وشاتيلا 2، أقسى علينا من صبرا وشاتيلا 1؟ لـن يستطيع الفلسطيني المقارنة، لأنه مزدحم بالموت، مشغول بالدفـاع الشيطانـي عـن بقايا جسـده، وعن كامـل حلمه لأنه مشغول بالتميز عن المناخ السائد.

ظهره إلى الحائط
وعيونه إلى الوطن،
ولا يستطيع الصراخ أكثر، ولا التساءل عن حكمة صمت العرب وعن لا مبالاة العرب.
لا يستطيع أن يفعل غير شيء واحد:
أن يكون فلسطينياً أكثر، فلسطينياً حتى الوطن والحرية، فلسطينياً حتى الموت، لأنه لا يملك خياراً آخر.

هل هذا هو الجنون؟
فليكن...!

في انتظار البرابرة

«والآن، ماذا سيحل بنا من دون برابرة؟
لقد كانوا نوعاً من الحل».

– 1–

متى يضربون؟ متى يضربون وأين سيضربون؟ لقد اعتدنا هذا السؤال اللجوج منذ اعتدنا انتظار البرابرة، الذين لم يصلوا في القصيدة المأثورة إلى الإسكندرية، لينصرف الشاعر إلى حل عقدة ليلة الشخصية، ولكنهم استوطنوا واقعنا ووعينا منذ مدة طويلة لتنصرف المؤسسة العربية إلى حل عقدتها معنا. لقد وضع البرابرة الجدد الحدود في جيوبهم فصاروا يطلعون من حياتنا بشكل أليف مألوف، ولكن متى يضربون هذه المرة؟ وأين يضربون هذه المرة؟ سؤال مشدود كأوتار الرعب من المحيط إلى الخليج. ليلة قدر معكوسة وطويلة يتطلع حراس الليل إلى قمرها الساحر في انتظار البرابرة الطالعين من مكان آخر ربما من سلاحهم الشخصي، وربما من شاشة التلفزيون. دعوات وصلوات وقرابين أرخصها

لحمنـا لتوجيه الضربـة إلى مدينة أخرى، أكثـر عروبة أو أقل عروبة. وتعاويذ مضـادة للقضاء والقدر ترشـد الضربة الآتية إلـى الجسد الفلسطيني وحده. متى يضربون؟ متى يضربون؟ ليخلصـ القاعدون على عروش الانتظار مـن هذا القلق ومن هذا الجسـد في غارة واحـدة، ولينصرفوا إلـى إدارة شؤون الرثاء والتفاوض المجاني بلا عقبات، إنها لحظة متوترة تمتد على مدار تاريخنا الحديـث، تتكرر دائماً لتحول التراجيدي إلـى كوميدي أسود، وهذه اللحظة، هـذه المرة تزخر بأقسى المفارقـات في لعبة أقنعة طويلة وثقيلة. ولكن البداية واحدة: فكلمـا فجر شـاب نفسه ليعبر عـن عزلة خانقـة، أو لينسف طريق سياسة لا تعجبه، أو ليقدم مساهمته الخاصة في الإساءة إلى قضيـة، أو ليترجم بجسده جملة ثوريـة سمعها من إذاعة أو مـن معسكر تدريب متخصص في اغتيـال الفكرة الوطنية المستقلـة... كلما حدث ذلك وأصابت أشلاء طائشة يهودياً مـا في أي مكان، مـددت الأمة جسمها العمـلاق في انتظار البرابرة. واتخذت هيئة المضروب قبل الضرب، دون أن تعد نفسهـا البارقة دفاع عـن النفس التي ألفـت الضرب؟ وحين يطـول الانتظار الشديد الشبه بعذاب فأر أمام صبر القط الذي يطيل وقت الإعداد للشهوة، استعجلنا الضربة: هيا اضربونا، واضربونا لننصـرف إلي أعمال لا عمل فيها... لننصرف إلى الخمـول. ولكن متى يضربون وأين؟ ليست قدرة الآخر على بلوغنا أينما كنا هي مصدر الإهانة الوحيد. فنحن جرم ضخم لا تحتـاج إصابته إلى مهارة حابل أو نابل. لقد أنجزنا في هذا الإدمان اعترافاً شديد الأبهة، اعترافاً يعادل اكتشاف العناصر،

اعترافاً لا يعترف به أحد، اعترافاً شخصياً بأننا نحن الضحية. نحـن الضحيـة فلنرقص جـذلاً. كأن العدو ليس هو العدو. لتطلع النرجسـة إذن من مرآة هذا الجـرح. نحن الضحية... صفقـوا وتفرقوا، ولنخلد إلى عزلة الآخـر، لأن الضحية هي الجديرة بالعطف. وستنتصر فـي هذا المجرى، وهو مجرى تاريخي يبدأ من اعتراف الشهود بأن الضحية هي الضحية... وسنرجئ التساؤل عمن هم الشهود. سننتصر أولاً على الوعي الـذي زيف دون أن نسـأل من هو صاحـب الوعي ومن هو صانع الوعي. إنه خارجنا مرة أخرى. خارجنا تماماً، فصفقة التواطؤ اللذيذة التي عقدناها مع الذات على الذات قد فاضت عن شـروط الاستلاب الكلاسيكية إلـى العناية... الخاصة به نحن نربـي استلابنا لنكسر حدود العلاقـة التقليدية بين العبد والسيد، لنصـوغ عبودية ذات أصالة وحداثة، عربية، شهمة، شرفية، عـذراء، يحتفل عبرها الإنسـان بقدرته الفذة على أن يتطـور إلى عبد، في جهد مضن يمتـد من حروب الاستقلال والوحـدة والبناء الاشتراكي المسخ، عبـر آلاف من الضحايا والشهداء والانقلابات، لينتهي عند صياغة الصورة المشتهاة: صورتنا في مرآة غـرب نتوسله أن يقبل طاعتنا، بعدما حولناه في وعينا وتعاملنا من خصم إلى شاهد عادل، أن يقبل ما نرفع إليه من براهين على تبرئتنا من كلام قلناه سهواً ومن دم ضحينا بـه سهواً، وأن يصدق أننا الضحية، ضحية ابنة الآخر، ضحية قابيل، نحن الضحية التـي تتمختر بكل آيات العجز والبترول وحسن النية الكفيلة بالثقة. نحن الضحية التي لا عمل لها غير انتظار البرابرة وانتظار الضربة. ومع ذلك ليست هذه وحدها

هي الإهانة. فإن «حق» العدو في الضرب، الحق المتداول دون تسمية، المعترف بـه، المقبول، الطبيعي، المنتظر، المأمول ـ يتطلب شيئاً من سخرية الملاحظة، فكلما خدش موت عربي مهابة اليهود فـي أي مكان، وقف العالم أمام شاشة التلفزيون وأعـد الفيديو ـ وهو سماجة عصرنا ـ لالتقاط المشهد القادم. والمشهد القادم هو تحرك المارد الإسرائيلي بخيلاء وصلافة لتأديب سـكان شرق المتوسـط وجنوبـه. والمشهد يتحرك بأمـان وقبـول وهتاف حاد لأنـه تحول إلى حـق من فرط ما تكرر... تحول إلى حتمية، لم نعد شباباً صغاراً، ولكننا نتذكر ميكانيكيـة تحول القدرة إلى الحق، وتقهقر الحق العاجز إلى عـدوان، وتدرج وقوعنا سبايا لمرجعية العدو، أسرى صورته ولغتـه، وأسـرى تحوله إلى مثـال. لا. لا يعجبنا شـيء البتة: لا خاصـرة الغزالـة، ولا رشاقة الصيـاد ولا التعليقات الدائرة على المشهد، ولا انتظار البرابـرة في الساحات العامة وعلى شرفات المنازل وفي مجالس الوزراء، ولا يعجبنا حياء العرب في محاورة معنـى الإرهاب، ولا قبولهم حـق أمريكا، وهي دولة الإرهاب الأولى في اغتصاب مقاعد القضاة في محكمة الإرهـاب. يعجبنا في هذه اللحظـة أن نفتح أية موسوعة لنقرأ تعريفـاً للإرهاب: «إنه شـكل من أشكال الحـرب التخريبية التي تقوم بها دولة قويـة تسعى إلى إعاقة نمو أمة منافسة أكثر وقـت ممكـن، أو لإعاقة حرص الأمة علـى المحافظة على استقلالهـا... والإرهاب هو استراتيجيـة تهدف إلى إحداث خلل في توازن دولة أو نظام من أجل خلق الفوضى الضرورية لخلق نظام آخر»... لا تعليق... لأن البرابرة قادمون.

–2–

في شاحنات الـورد. ينقلونك من أنقاض محطة الإسمنت المؤقتـة إلـى سفح الخلود الـذي لا زائر له غيـر الغربان، سفح يطـل على بحر يطل علـى أشلاء كدست فـي شاحنات سميناها – مـن أجلك – شاحنات الورد، وهي لم تشحن ورداً أو بشراً من قبل سفح يطـل على آخر دنياك المليئـة بالطلقات والأمكنة التي ليسـت لك. وليس لك هذا الجـدث المحفور على عجل قبـل نزول البرابـرة من الفضـاء. الريح هي الريـح لا تنطق بغير الريـح ما ننطقهـا، وهي الساعة لا تقول شيئـاً، ولا هذا العشب اليابسـ يهمس فـي وسع هذا الهـواء أن ينساك للتـو وفي وسع الشاطـئ أن يستقبـل السابحات العاريات، لا لـم تأت إلى هذا المـكان، ولم تطأ هـذا الرمل، ولعلك لم تمت هنـا. الغربة في حدهـا الأقصـى تقصيك عن جلـدك. من سيرمـي عليك الورد بعدمـا أفزعتـك الشاحنات من هـذا الصباح البطـيء ومن أنت مـن بين هؤلاء الشهداء الذين اختلطـت أشلاؤهم وتوحدت في أكياسـ متشابهـة؟ أي بتر يدل عليك وعلـى مسائك الشخصي الذي لا يقول سوى كلام عام تتقدمه شارة النصر المرفوعة حتى فـي الظلام، كم ستكبر فـي الليل، وإن كانـت جنازتك صغيرة كقبضة رخوة لا يؤذن للحزن بأن يحزن ولا يسمح للغضب بأن يغضـب، ولا يشيع أحـد أحداً على هذا السفـح الوعر، فلست مـن هنـا ـ أيها الغريب بيـن الموتى. نصف حـذاء مقطوع بدقة يحمل نصف قدم محاطة بفرشـاة أسنان لم تنكسر، وصورة لم تخدشه، وفكرة لا تلمسـ ولا تعبر، أهذا ما يشير إليك... أهذا مـا يدل عليك؟ أوراق يداعبها النسيـم بلا مبالاة تدفع المشاهد

إلـى اختصار الوداع إلى أين؟ إلى أيـن يأخذونك بعدما كان في وسع خطاك أن تأخذ الأمة إلـى الغفران؟ أسميك القربان حيناً، وأسميك العنقاء، وتنسيني أنك إنسان، لتفلت من لغتي كالشبح. أما آن لك أن تعود حقاً شبحاً لنتمكن من رواية البداية من جديد وبلا مسرح تعال لنخلي هذا السفح من شروطه الإغريقية، فمثل سيرتـك لم يدون في نص سابق، عد شبحاً إذا استطاع مشيعوك أن ينتشـروا في أصقاع أخرى وفي شعاب تـؤدي إلى بيت ولا تنصب دولة حيثما حللـت، ارفع فكرتك وخبئ سرك، الجنازة قصيرة فتقدم إلى مثواك المؤقت، إذ ليس لك من مثوى أخير ولا معركـة أخيرة. لم تولد تماماً لتمـوت تماماً، ولا بارقة على هذا السفـح لأي مكان أو صرخة. عد شبحـاً، عد شبحاً، لنعود إلى نشيد أوضح...

– 3–

يعثر حرس الشواطـئ العربية على كنز ضائع، يعثرون على جثة مقعد أمريكـي قيل إنه قتل برصاصة أطلقها شاب فلسطيني فـي ظـروف بحريـة شديـدة الغموضـ، ولأن المتهـم بالقتل فلسطينـي، فقد تمكـن حرس الشواطئ العربيـة من العثور على الجثـة، جثة صارت في حرب الإرهاب النفسية أكبر من صورة فلسطين، ومـن تقاليد الشهامة العربية، جثة كفيلة بتغيير موازين العـدل جثة ـ طلقة قـادرة على إصابة آخـر شرعية في الخطاب الفلسطينـي عـن الحـق والوطن، الجثـة الكنز، الجثـة الهدية، الهديـة إلى منظمـة العفو الدوليـة، الجثة ـ الوصيـة في خطاب شكسبيري لا يقـاوم، الآن موت مقعد أمريكي يفوق كل موت

عربـي؟ لا نحسـب ذلك ونحن نتقـدم بأحر عبـارات التعازي إلى عائلة الفقيد ونشعر بالخـزي من الحادثة المثيرة للاشمئزاز دون أن نقبـل مقارنتها بجريمة اختطـاف وطن وتدمير مجتمع وارتكاب المجازر المنظمة التـي اقترفتها دولة، ولكننا نتساءل كيف استطاع حرس الشواطئ العربية انتشال جثة من قاع البحر الأبيض المتوسط بعدمـا فشلوا في انتشـال شهدائهم، وبعدما فشلـوا في انتشال جثة الضمير العربي الرسمي من ساحة فسيحة مليئة بآلاف الجثث العربية الصارخة: من القاتل؟ نتساءل ونحن نعرف أننا مدفوعـون الآن إلى خوض معركة الدفاع عن صورة الروح، فقد خيل للبعض الكثير أننا فقدنا كل شيء ولم يبق لنا من سلاح سوى صورة الروح، وليس في وسع الإرهاب الكبير ولا الإرهاب الصغير، في التقائهما، أن يخدشا هذه الصورة فبمدى مـا يجرحون أجسادنا يقوون روحنا، ألهـذا السبب، إذن، تزج اللغـة العربية الرسمية بأسلحتها المضـادة للروح الفلسطينية في معركة دفع الفلسطيني إلـى الغياب... إلى الغياب... بطريقة لا مجـد فيها ولا فجيعة؟ ألهذا السبب يتخصص بعض المسؤولين العرب في صناعة قاتل فلسطيني ليقتل الفلسطيني؟

مؤتمر تحت ضوء القمر

كان قمـر بغـداد الليمونـي يتسع لمزيد مـن الشعر. وعلى الجبهـة، كان العراقيـون يواصلـون تدوير أقمارهـم المعجونة بالـدم. بينمـا كان الأدباء والكتـاب العرب مشغوليـن بمعركة أخـرى، معركة انتقاء الألفاظ اللائقة بشروط العودة إلى بلادهم سالمين من التوتر بين الوعي والوعي الشقي.

ولعـل السؤال: مـن هو العربي؟ كان أجـدر بالمعالجة من سـؤال «التحـدي والاستجابة» الـذي اختاره مؤتمـر الكتاب العرب محـور الدراسة، ولكن السهولة فـي الزمن الصعب هي التي تتقدم الأسئلة، فلا بأس.

يخـرج الثقافي من السياسي متى شاء. ويدخل السياسي في الثقافي متى شاء، ويختلطان، فلا يكون هذا ولا ذاك، لقد تحولت لعبـة استبدال طبيعة النشاط الملتبس إلى حرفة مسلية، منذ عجز الثقافـي عن تحقيق استقلاله النسبي عن مؤسسة السلطة، أو منذ أنجـز اندماجه الهامشـي في السلطة بعدما ضللهـا ـ كما يظن ـ أو أغواهـا بجميـع مفـردات الديمقراطية المشتهـاة، ولكنه ما زال قـادراً علـى المراوغة، قادراً على تحريـك الثقافي فيه حين

يطرح السياسي موضوعه المخرج المختلف عن سياسة سلطته. ويتراجع فيه الثقافي مرة أخرى، حين تطرح الثقافة سؤالها الذي يحرك السياسة.

لقد ألفنا هذه اللعبة. جميعنا أذكياء- صرخ المغربي بسيدة من البحرين عزلت، بالتعاون مع وفدها، رئيس اتحادها، واقتحمت قاعة الاجتماع لتضع أمامنا كلمتين كبيرتين لا تعرف لهما معنى. قالت: «نحن كتّاب» وبرهنت على ذلك بسيل من الشتائم.

جميعنا أذكياء- صاح الكويتي وأضاف: نحن نؤيد منظمة التحرير الفلسطينية. ومن يمثل هذه الحركة الثورية يمثل الكتّاب الفلسطينيين. فلنحسم المسألة بالتصويت. لكن اليمني يناور ويطلب التأجيل لمدة أربع وعشرين ساعة.

سألناه: لماذا... هل ستتحقق الوحدة العربية في هذه الفترة القصيرة وينتهي الخلاف؟ فرد الأردني باقتراح لتشتيت الأصوات، ولإبقاء الكرامة الفلسطينية موضوعاً للوساطة.

وانتهى الأمر باعتراف الأغلبية بشرعية التمثيل الفلسطيني بعدما تم تذكير اليمني بأنه لا يتمتع، حتى هذه اللحظة، بحق الفيتو.

كانت معركة نوايا مشتركة، يطفح فيها الكلام بما يريد أن يخفيه. لقد قدم الفارق التقليدي بين «التقدمي» و«الرجعي» استقالته دون أن ننتبه، لأننا نواصل الاندفاع مع قوة استمرار الكلمات التي انفصلت عن معانيها. ولكن بعض المقيمين في أرياف المعرفة البعيدة ما زال يرضع من ثدي الأم التي تقتل أبناءها. كأن يتهمك صحافي عراقي بالردة لأنك تزور بلاده

التي تخوض الحرب منذ ست سنوات، لا لشيء إلا لأنه يؤيد احتلال إيران أرضه الوطنية، فبماذا ترد في زحام الجنون؟

كيف تشكلت عناصر هذا المسرح؟ الوصي على القومي ضد «الوطني» يتحالف مع «الإسلامي» لتحطيم القومي والوطني معاً. ودون أن نفهم: يتحالف الإسلامي مع التقدمي لإلغاء القومي والوطني معاً، دون أن نفهم يتحالف التقدمي مع القومي المتحالف مع الإسلامي للدفاع عن الديمقراطي. ودون أن نفهم أبداً، يحصل الإسلامي المتحالف مع القومي ضد القومي الآخر على السلاح من... الذي يهدد القومي والإسلامي والتقدمي والديمقراطي، يحصل منه على السلاح لتحقيق وعده بالقضاء على الآخر بعدما ينجز عملية القضاء على القومي العربي.

اللامعقول يهرب من الخيال الأسود ويلجأ إلى الواقع فكيف يستطيع الكتاب العرب، أو ممثلو الكتاب العرب، المجتمعون في بغداد أن يصوغوا نصوصهم؟ وكيف يستطيعون أن يسندوا خطابهم على عكاز المصداقية؟ لذلك نفذ صبر المغربي حين ذكر المؤتمر بأننا عاجزون عن الاحتجاج على القرار السوري بمنع الأمين العام لاتحاد الكتاب العرب من السفر إلى بغداد. ولذلك أضاف الفلسطيني أن القرار السوري منع الكتّاب الفلسطينيين المقيمين في دمشق من السفر إلى بغداد. وتساءل آخر: أين الوفد اللبناني؟

ومع ذلك، لم يكف اليمني الخارج من مذبحة انتصار الشعار على الشعب، عن تجاهل الواقع والوقائع، وعن تزويد الكلمات القديمة بالمعاني التي قتلتها مفارقات التحالفات

الشيطانيـة وانفصال اللغة عـن الواقع. ولم يكـف عن المطالبة باختيار دمشق مقراً لاتحاد الكتاب العرب.

كذلك لم يكف الأردني المثقل بعبء توازن لا يتوازن عن تقديم المواعظ الغامضة. أمـا السيدة البحرينية فقد ذكرتنا بأنها تحـب بردى كما تحب دجلة، إلـى أن وصلت شكوى رئيسها إلى القاعة فتم طردها بهدوء، لكـن شتائمها الفاضلة ظلت معنا ومـن حسن حظ «الإماراتي» أنه قليـل الكلام، لم يفتح عليه الله إلا بكلمـة واحدة هي الطعن بشرعية التمثيـل الفلسطيني... لا فض فوه.

لكن دخان الكلام والنوايا أسفر في نهاية الأمر عن إجماع، لقـد انتخب رئيس اتحاد كتّـاب العراق أميناً عامـاً بالإجماع، واختيـرت بغـداد مقـراً لاتحاد الكتـاب العـرب ـ بالإجماع ـ وصدرت جميع قرارات المؤتمر السياسية والإعلامية والثقافية بالإجمـاع، ولـم يجر تصويـت إلا مرتيـن: مرة علـى التمثيل الفلسطيـني، ومرة على ترشيـح الفلسطيني نائبـاً للأمين العام. أسجـل هذه الملاحظـة دون ملاحقة دلالاتهـا وأبعادها ودون عتـاب. أسجلهـا لتحرضـ الفلسطينيين المختلفيـن على إدارة خلافهم بطريقة أكثر التزاماً بمتطلبات الدفاع عن إطارها الوطني وعن روحهم الثقافيـة. لقد آن أوان الوحـدة الوطنية الحقيقية، بالشروط الديمقراطية، لا بالإجماع المستحيل.

وماذا بعد،

إن اتحـاد الكتاب العرب يواصـل تقاليده، يحاذي الثقافي ويقـول السياسي فـي حياء، إطـار معادل لإطـار جامعة الدول العربيـة. يختلف على فلسطين وعلى القضايـا الكبرى بالتوازن

إيـاه الذي تختلف فيه الدول مع تعديلات طفيفة نابعة من دوافع ذاتية ومصالـح صغيرة تليق بكتاب لا يكتبـون ولا يوسع إطاره ليشمل المعارض والمختلف، ولا يعكس من واقع الحياة الأدبية غيـر سطح الـكلام، يحكي عن حرية الكتـاب وعن مضطهديه دون أن يسمـي أحداً خشية أن يتفـكك. ويحذر، من الانعزالية والطائفيـة دون أن يشير إلى أحد خشية أن ينعزل. لذلك نتبارى في حذف مـا يخدش سمعة النظـام، أي نظـام، الفراغ يوضح المعنى الغائب، والغموض يطـرح الوضوح بالتأويل. هذا ليس أنا ـ هذا أنـت. ونتفاهم ونتضامن لأننا أذكيـاء. ضحكنا كثيراً، وانتصرنـا على الغياب، انتصرنا علـى الاستفزاز وعلى الابتزاز، وتواطأنـا على السؤال الثقافي لأننـا أذكياء. فهل ما زال من حق أحـد التعبير عن أمله في تطوير صيغة اتحاد الكتاب؟ أم أن ذلك يشبه الدعوة إلى تثوير الجامعة العربية؟

لكن قمر بغداد الليموني يتسع لمزيد من الشعر...

لا أحد يتعلم من أحد

أما زال فـي وسع أحد، بعد الآن، أن يرفـع الرجاء: أبعدوا عنـي هذه الكأس؟ أو أن يتقدم إلى الوراء صارخاً انج سعد، فقد هلك سعيد.

لا أحـد يتعلم من أحد، منذ انكسر سيـاج الحظيرة العربية أمام الذئاب والبرابرة، ومنـذ تقلص وعي الأمن القومي وتفتت إلى أنماط مـن الأمن الإقليمي الهش، تتراجـع عن الحدود إلى الداخـل وتحول جيوش الدفاع عـن الأوطان إلى شرطة حراسة للمصالح الصغيرة، لأن الوطن لم يعد وطناً، بل ورشة قهر كبيرة لتحسين تبعية السلطة إلى سلطة أكبر.

لا أحد يتعلم من أحد،

لقد طالـت التكهنات: متى يضربـون... وأين يضربون؟ وها هم يضربون... الإرهاب الكبير ذاته يتقدم بكل ما حاولنا أن ننساه من أدوات قوة كنا نظن أن مهام استعمالها قد أحيلت إلى دولة الإرهـاب المحلي فخيب ظنوننا، أمريـكا إياها التي وضعـت مخالبهـا في أيـدي سواهـا لتحفظ صـورة الوسيط

العادل، هـي التي تحن إلى صورة جوهرها السابقة التي تلهب حماسـة سكانها... لا لسبب وحيد هو أن الخارج من الشاشة إلى البيـت الأبيض يرغب في تحويل العالـم إلى مشهد عنيف يعيد الشيخ إلى صباه، ولا لأن «عقدة فيتنام» قد حلت، ولا لأن حرب النجـوم تتعرض لعقبات تقنية، ولا لأن البريد الأمريكي يـوزع الرسائل المتعلقة بتحسين شروط الانفراج الساخن، بل لأن أمريكا هي أمريكا...

ولا أحد يتعلم من أحد ...

وأمريكا تحارب ليبيا، لقد شاهدنا السيناريو على الشاشة، فمنـذ شهور وريغن يتقمصـ رامبو، أو يغبـط دوراً لم يمثله... يغار مـن نجم صاعد يدجج الحلم الأمريكـي المتجدد بغابات محروقـة ومستنقعـات... ويعيد إلـى مخيلة الرئيسـ العجوز، أحصنة تحولت إلى طائرات، وهنوداً حمراً يتكاثرون على وجه الكـرة الأرضية الضيقة، هنوداً حمراً هـم سكان «العالم الثالث» يتكاثرون ويجوعون ويغضبون بلا عقاب أمريكي...

وعلـى العالم بأسره أن يكـون أمريكياً أو لا يكون، عليه أن يخضـع منذ الآن وبلا شـروط، لا لإمبراطوريـة القرن الحادي والعشرين...

ولكن، هل سمحت أمريكا لهذا العالم المطرود من قمحه وارزه، المطرود من تاريخه ومن سياق ثقافته، أن يكون أكثر من جمهور سلبي لنجم السينما الأمريكي، المتحول من كابوي إلى رامبو، لكي يغضب عليه ريغان؟

لا أحد يتعلم من أحد...

وأمريكا تحارب ليبيا. لا نعرف سراً يختبئ في ما هو أبعد من الاعتبارات التقليدية العامة لإظهار هذه الغطرسة الأمريكية المسلحة والمباشرة، والتي لا داعي لها ما دام معظم العالم الثالث يحسن الدوران في الفلك الأمريكي ويكدح ليتأمرك. لا نعرف الشرارة الكافية لإعلان هذه الحرب ولا نفهم أهدافها ما دمنا قد رأيناها على الشاشة قبل إعلانها...

الأمريكيون قادمون إلى السماء الليبية... الأمريكيون قادمون إلى المياه الليبية، الأسطول السادس يستعرض حديد عضلاته... ما هذه الشهامة؟ ما هذه المفاجأة؟ كانت اللغة السياسية العربية تشكو دائماً غدر الأعداء، ولكن ريغن لم يغدر. لقد أعلن نواياه وسلاحه، ألم نصدق لندهش الآن؟ فماذا أراد من هذه الحملة الصليبية الحديثة المصاحبة بجميع وسائل السينما؟

هل أراد أن يغتال الكولونيل الليبي؟ كيف يتوافق هذا الهدف مع الحملة الإعلامية الأمريكية المتذرعة بمكافحة الإرهاب والدفاع عن حقوق الإنسان؟ كيف تقوم دولة كبرى بتشغيل هذا العدد الهائل من وسائل الموت في محاولة لتحقيق هدف واحد هو اغتيال فرد يحب الانتقال من خيمة إلى خيمة في الصحراء الليبية، ولا يطمح إلى أكثر من صياغة نظرية يتجنب فيها إنسان هذا العصر مساوئ الرأسمالية وعيوب الاشتراكية؟

وكيـف تتحـرك هـذه الآلـة الجبـارة المكرّسـة «الحماية البشريـة» مـن الإرهاب والشيوعيـة، للانتقام مـن أرواح أبرياء في بـار أو مطار بقتل عشـرات الأطفال والأبريـاء المدنيين في طرابلس؟ ما هو الحساب وما هو المعيار؟

لا أحد يتعلم من أحد...

وأمريكا تحـارب ليبيا، لتثبت أنها أقوى من ليبيا، أم لتوجه ضربة إجهاض إلى اللغة العربية التي تحض على محاربة المصالح الأمريكيـة على أرض هذه اللغة؟ لقد تجنينـا على لغتنا الجميلة حيـن غلبنا الطنين علـى الفعل، ولكن ذلك ليسـ شأناً أمريكياً، فلـدى أمريكا مـن المستشرقين والأصدقاء العـرب في السلطة وحولها ما هو كفيل بتوضيح التناقض بين المعنى والمبنى، وهي تدري - كما ندري - أن إعلان الحرب هو ضرب من ضروب رشـوة الناس وتزويق الخضـوع، وهي تدري ـ أكثر مما ندري ـ أن النفـط لها ومال النفط لها، وأن وأد الفكـرة الثورية هو شأن داخلـي لنا نمارسه نيابة عنها، فلماذا تخـاف أمريكا الخائفين؟ لماذا تستفرد بالدول الصغيرة وهي تعلم أن من يجرحني يقويني كما يقول نيتشه؟

لا أحد يتعلم من أحد...

وأمريـكا تغير علـى ما تبقى فينـا من إدراك الحـد الأدنى المشترك تغيـر على الإقليمي المستبـاح بانفصاله عن القومي، تغيـر على مغامـرة القومي فـي شوقه إلى التكـون وإلى دخول حسابات القـوى، أمريكا تغير على أحلامنا وعلى أوهامنا معاً. تغيـر على الأخـوة، وعلى شماتة الأخوة ـ الأعـداء ـ. تغير على

التحالفات وعلى شقـاء التحالفات. تغير على دفاع العرب عن أرضـ العرب، وتغير على دعم العـرب لاحتلال أرض العرب، أمريكا تغير على كل العرب.

ونـكاد أن نقول: أمريكا تطلع منا لتذكرنا كم هي فينا وكم نحـن خارجنا، فكـم أرضاً عربيـة سنوّدع ونحن نمـوّل وقود الطائـرات المغيرة علينا؟ وكم سماء عربية ستنكسر لنفهم كارثة التبعية المشتهاة لأمريكا. وكم عدواناً سنصد، كم شهيداً سندفن لنـدرك أن لا صديق لأمريـكا إلا إسرائيل، فنحـن لسنا مؤهلين لهذه الصداقة، لسنا جديرين بهذا الرضا القاتل.

كم آلمتنا جراح الصوت الليبي وهو ينادي الذين يسمعون، ينـادي الجيوش العربية للنجدة. كم نادينـا في بيروت وفي غير بيـروت فلم يأتنا هواء من أحد. لـم يأتنا غير الحصار الإسرائيلي والعقاب العربي الرسمـي على الصمود أمام الحصار. كم نادينا فلـم نسمـع إلا نصائـح الانتحار أو العـار، وحيـن خرجنا من الحصار نعتونا بالبهائم بعدما وصفنا بيغن بالدواب.

كم نادينا فلم نسمع سوى خيبة الصدى: وحدنا قلناها بقوة الغربة والعزلة، ثـم قالها كل شعب عربي على حده وحدنا. قالها فـي لبنان وفي العـراق، وفي ليبيا ـ يا للمفارقـة. نكون معاً أو لا نكـون. فليس في وسعنـا أن نكون على حدة. فهـل نتعلم هذه المـرة؟ هل نأخذ «عبرة التدهـور» أم نقول كالمعتاد إنها فرصة مواتيـة لمراجعة الذات والعثور على الحلقة الضائعة بين الوطني والقومـي، ثـم ننسـى ليضربونا فـي موضوع آخر مـن الجسد

المعد، جيداً للضرب؟

لا أحد يتعلم من أحد...
ولكن الكولونيل الليبي سيجد من يكتب إليه...

شاعر القمر والطين
في وداع صلاح جاهين

هو واحـد من معالم مصـر، يدل عليها وتـدل عليه نايات البعيد وشقـاء الأزقة ودفوف الأعيـاد. سخرية لا تجرح وقلب يسير على قدميـن. صلاح جاهين يجلس على ضفة النيل تمثالاً مـن ضوء، يعجن أسطورته من اليومي، ولا يتوقف عن الضحك إلا لينكسـر. يوزع نفسـه في نفوس كثيـرة، وينتشر في كل فن ليعثر على الشعر فـي اللاشعر، سلاح صلاح جاهين يأكل نفسه وينمو كل ظاهره، ينمو لينفجر...

وخيـط رفيع من ضوء القمر في حقل مفتوح، يعج بالقطن، والذرة والبؤسـاء هو أحد المشاهد التي يغدقها علينا هذا الغناء. غناء جديد يحاذي الخبر، كأنه يضع جدول أعمال للقلب. غناء كان يأخذنـا إلى السفـوح ونار المعجزة. غنـاء يحرك فينا الآن حنيناً واضحاً إلى ما ابتعد في الغموض، غناء يتلمس ما كان فينا مـن قوة العمل وقوة الأمل، غناء يتطلـع إلينا لنعود إليه، لنمسك بطرف الغناء السابق.

صـلاح جاهين، صـلاح جاهين، لا أعرف كيـف أستعيد ذلك الفصل الضائع من عمر جميل جرنا إلى اليقين. ولا أعرف كيف أجد الكلام الجديد باستعادة كلام تحول فينا إلى مصر ولا أعـرف كيف أمشي في وطن تحول إلـى شجن، وكيف أتحمل شجناً تحول إلى وطن...

ولا أعـرف كيف أمشي في وطـن تحول إلى شجن وكيف أتحمل شجناً تحول إلى وطن...

ومصر في مكانها. والنيل في مصر...
ما فينا من مصر هو الذي يشرق ويغرب... هو يقترب ويبتعد هو الذي ينكسـر ويلتئم. ومصر في مكانها وفي تاريخها، وصلاح جاهيـن هو الذي قـال لنا، بطريقة لم يقلها غيـره، إن ما فينا من مصر يكفي لنفرح...

فهل استطاع النشيد أن يفرح؟
عرفت صلاح جاهين منذ تعرفت على صواب قلبي الأول، منذ يمّمت مع أبناء جيلي شطر الصعود إلى أعالي الأمل، ولم يكن في مقدور ولد مثلي أن يسلم بأنه يتيم الوطن والهوية ما دامت مصر ذلـك الزمان تقدم للعرب هوية روحهم، وتقود القوافل المشتتة إلى شمال البوصلة. عبـد الناصر يصوغ مشروع الوعد الكبير، عبـد الحليم حافـظ ينشد للعمـل والموج والصعـود، أم كلثوم تشهر شوقنا للسلاح، وصـلاح جاهين يسيس حناجر المغنين، ويؤسس تاريخ الأغنية الجديدة ويحول العمل إلى ورشة أفراح.

لقـد انصهر الوطني فـي القومي في المشـروع التوحيدي الكبير الذي انكمشت على ضفافه لغة الاحتكام هنا وهناك، إلى مرجعية الخرافة، مرجعية السلالات الأولى الرامية إلى الاغتراب والاستـلاب، لتستبـدل بمرجعية واحدة هي وحـدة الوعي بما يتطلبـه الحاضـر العربي مـن استنفار مـا فينا من مشتـرك اللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيـا والمصلحة والخطر، كنا نتأهب، لأول مرة، للدخول في تاريخنا من بوابة الصراع الشامل... كنا نحلم بالحضور.

لذلك استطاع مطلع النشيد أن يفرح...

صاعـدون إلـى مغامرة الحريـة والجمال، صاعـدون إلى مدار الشعر، صاعدون إلى ترويض المستحيل...

«أنا اللي بالأمر المحال اغتوى
شفت القمر نطيت لفوق الهوا
طلته ما طلتوش؟ إيه أنا يهمني
وليه؟ ما دام بالنشوة قلبي ارتوى...

صـلاح جاهين يسير علـى الطريق الطويل، ونحـن نمشي، في معـارك لا تنتهي «يـا أهلاً بالمعـارك» دون أن يهمنـا القطاف السريـع بقدر ما تهمنا نشوة المحاولة فـي السير. تلك هي لذة الإبداع، وتلك هي متعة التضحية، أما حساب الربح والخسارة فلا يدخل فـي أقاليم المخاطرة الشعرية: هـل نقطف القمر؟ أم يخطفنـا القدر؟ أليس هذا التردد سـؤال القصيدة؟ المهم هو أن نلتصق بطريق لا بديل عنه سوى هزيمة الروح وهشاشة الدفاع.

إن محاكمة السير على طريق الحرية بمعايير سلامة الوصول المضمون هو المدخل الفكري، شديد الذكاء والخبث، للتراجع عـن الهدف وعـن الطريق معـاً، تماماً كمحاكمـة الشهيد على اندفاعـه واقتحامه، أليس هذا ما حدث فيمـا بعد؟ أليس هذا ما أشـاع لغة الاعتذار عن كل نقطة دم حاولت أن تستدرج القمر؟ ولكن سؤالنا، ذلك السـؤال الساطع الأول، مختلف، إن مهمة الطريـق هـي أن يواصل طريقـه دون مقايضـة، النتيجة بخوف الحساب، وما على الغناء إلا أن يغني «ثوار» ولآخر مدى ثوار، مطـرح ما نمشي يفتح النوار، ننهض في كل صباح بحلم جديد وطول ما إيد شعب العرب في الإيد، الثورة قايمة والكفاح دوار، ثوار، نهـزك يا تاريخ تنطلق، نحكم عليك يـا مستحيل تنخلق، نؤمر رحابك يا مدى تمتلئ والخطوة منا تسبق المواعيد...

ولذلك فرح النشيد...

هـل يطمح الشاعر إلى أكثر من تحول صوته الفردي إلى صوت شعب وإلى ختـم شخصي على مرحلة؟ لقد وقع صلاح جاهين على قلوبنا وعلـى فصل من عمر جيل الوعـود الباهرة، ومضى فجـأة بعدما تعرض العمر إلى صدمـات، ها هو يمضي، يحمل جسده المثقـل بالعسل المر وبارتفاع القمـر إلى أعلى وأعلى، ولكن هل يمضي وحده؟

كـم نظلم الشعـراء لنتماسك، لهذا نقـول للصديق الراحل إذهـب وحـدك. أما النشيـد فهو لنا. لنـا نشيدك، فهـو لنا، لنا نشيـدك. فاذهـب إلى حيث شئـت ما دمنا قـد امتلكناك وأنت صوتنا، وأحد أسمائنا الأولى...

صلاح جاهيـن، الشاعر الذي قال نيابـة عنا ما عجزنا عن قولـه بالفصحى، هـو الشاعر الذي قال لنا مـا عجزت عن قوله العاميـة، الشاعـر الذي حـل لجماليـة الشعر ولفاعليتـه العقدة الصعبـة: وعـورة المسافة بين لغة الشعر ولغـة الناس وما بينهما من تباين والتحام. صلاح جاهين، نتطلع الآن إلى غيابه المحملٍ بمـا يغيب منا، نتطلع إلى ما يحضر مـن غياب فلا ننكسر تماماً لأننـا نرى قامات الخطى الأولى وهـي تهيمن على الظل، ولأن ما تبقى من روح فينا يبحث عما تبقى من قوة النشيد، لا لنتذكر فحسب، بل لنصد عنا غزوات الاعتذار الرائجة.

لا، لـم نخطئ حين انتمينا بقوة البديهة والوعي معاً، إلى ما فينا من مصر، ولـم نخطئ حين اندفعنا بدافع الدفاع عن النفس وعن الحلم حين استندنا إلى ما فينا من واحد عربي، ولم نخطئ حيـن وجدنا الطريق في هتاف اللحـم البشري الجريح: ما أخذ بالقـوة لا يسترد بغيـر القوة. ولم نخطئ، حيـن أنشدنا من كل القبور المفتوحة والله زمان يا سلاحي...

فهل ابتعد النشيد؟

ليس تماماً يا صلاح جاهين، فقد التوى قليلاً ليلتف على صخور وليأخذ مساره الحاسم. القمـر ليس قريباً إلى هذا الحد، وليس بعيـداً إلى هـذه الكآبة، وليس محالاً إلى درجـة تعيدنا إلى البئر المهجورة. سلام... سلام، ولا سـلام، لأن مصر ليست ملكية شخصية لحاكم تمـزح الأقدار لتطبعه على شاشة أمريكية، فمن يعيدنـا إلى مصر؟ ومن يعيد مصر إلـى ذاتها من خارجها؟ ذلك سـؤال أحمق يقولـه موظفو الجامعـة العربية لتبريـر العجز عن

عقـد قمة علـى حضيض ولتحضر في غيـاب حرب... حرب، ولا حـرب، هل غابت مصر حقاً؟ هذا هـو سؤال الذين صدقوا النشيد لأنهم صدقوا دمهم، سؤال الناجين من المؤقت الطائفي والإقليمي والقبلي والذاهبين إلى معنى مصر الدائم...

فاذهـب يا صلاح جاهين، إلى حيث شئت، اترك صباحنا بلا ورد ساخن، فينا من نشيـدك ما يكفي لنواصل الغناء لمصر العرب ولعرب مصر، فينا منك ما يزود الذاكرة بمطلع العمر الجميل وبما هو جدير بأن نقبل مزيداً من العمر العنيد... اذهب إلى حيث شئت ولا تصدق أن حزيران هو أقسى الشهور فسنشهد بعدك على سنين أقسـى، طالما أن التدهـور لم يبلغ قاع تدهـوره. وطالما لم يفرغ ملـوك الطوائف، بعد، مـن تكوين طوائفهم، زمـن رديء ـ قالوا ـ زمـن وغد، فودعه بلا ندم واترك لنا ذاكرة البدايات المؤمنة بقدرة النشيـد وقـدرة سكان النشيد علـى إعادة صياغـة الواقع الجديد، وعلى استبدال شرعية الفصحى الرسمية، فصحى الكتاب الرسمي، وفصحى الحاكم بشرعية الشارع، والنيل والطين، بفصحى جديدة تعبر عن امتلاء الكلام بشرايين الحياة واستغاثة الروح...

صلاح جاهين، سنتسلح منك بما تشاء من وعود، سنختار مـن الأشجار أوفرها خضرة، سنأخذ منـك ما يجعلنا أقوى وما يصـل فينا ما انقطـع في علاقات الفصـول. وسنأخذ منك عبرة التطابـق بين الأغنية والمغني، لنشهد على براءة جيل من اختلال الشبه بين الواقع والمـرأة وبين الإرادة والأداة... ولنبقى قريبين حتى التلاشي من جوهر الشعر ومن جوهر مصر.

وسنواصل النشيد...

في ذكرى معين بسيسو

يجلس على نظرتي إليه

مـا زلتُ أمـزِّق الصيغـة المألوفة لرسم مشهـد. لقد مضى الشاعـر ساحباً خلفه عاصفتـه الخاصة، تاركاً لنـا أن نتتبَّع آثار الشجر المكسور والنوافذ المعلقة على فضاء؟ وتاركاً لنا أن نقرأ النشيد المعفـى من تطابق مع الجسد، النشيـد الممتحن لذاته، النشيـد العاري من أية حماية خارج قوتـه الذاتية؟ النشيد الباقي بلا وساطة.

فتلك حريـة القارئ الصغيرة، يحتاجهـا ليخرج سليماً من زحـام الانطباعـات، والألفة، وضغط الشاعـر أو إلحاحه الذي أدمنّـاه، ليتسـاءل: ماذا يترك لـي الشاعر، لي أنـا البريء، حين يخرج من نشيـده، حين يُخلي مشهـده الشعري من ضجيجه. وحين يُزوِّدني بقليل من نسيانٍ ينفع ذاكرتي؟

لسـت ذلك القارئ الذي يهددنـي، ويتوعد أي شاعر كان فـي وسعه ألا يكون فلسطينياً بشروط أقلها الجنون. فما أصعب

أن يكون الشاعر فلسطينياً، وأصعب من ذلك ألّا يكون ما وَهَبَتْهُ اللعنة: فهو مطالب بسباق مع إيقاع اليومي وبإدراك لا يدرك بذاك الإيقاع: مُطالب بالشرط ونقيضه؛ منبوذ، ملتبس، ناجح فاشل معاً سلفاً، مختوم، محكوم، مُدلَّل، مظلوم، متنازع عليه في الشعر كتنازع البورصة على وطنه في السياسة، كان يسأله قارئ بريء: ماذا ستكتب بلا فلسطين أو بعد فلسطين؟ وكان يسأله طالب آداب: هل أنت شاعر أم مناضل وأين الحدود بين الجوابين؟ أو... كأن تخرج اليد، من صفوف الجنازة، بنت شهيد لتطالبه برؤية أبيها في أول قصيدة قادمة، أو كأن تخدعه الأسئلة فيسأل: أهناك شعب يحب الشعر إلى هذا الحد؟ لا، ليس ذلك هاجس الشعر بقدرة ما هو تَلَهُّفُ شعبَ إلى الإمساك بهوية وطنية يخشى عليها من الإفلات. وجود يتفكك ويعاد تركيبه في وطن القصيدة – الهوية.

أين معين بسيسو من مأزقه؟ لقد اكتمل المقطع الفردي في النشيد العام؛ ولكنه لم ينفصل عن مجرى ما زال يجري فيَّ وفي المشهد. لذلك يصعب النظر من خارج. تحاصرني الصعوبة من كل ناحية، وتحاصرني أولاً حاجتي إلى صياغة هويتي الثقافية... لأن هذا الحصار الذي أعيه يُحرِّرني من ذوبان لا أريده الآن؛ فعلى الشتات الفلسطيني أن يؤلف وحدة الإحساس بحالته ووعيه بها قبل أن ينتقل إلى اختلاف أعلى، فنحن في حاجة غريزية إلى أرض خرافة؛ لنؤسِّس شرط تكوُّنٍ لم يتم تَكوُّنُهُ في وعي سابق؛ وعي لم نكن وحدنا ضحاياه إلا بقدر ما كنا، أكثر من غيرنا، عرضة للتضحية.

لذلـك لا نؤرخ حاضرنا التجريبي الممتـد، لأنه يفتقر إلى مرجعيـة خاصة متبلورة. ألهـذا السبب أمـزِّق صيغتي المألوفة لرسم مشهد؟ ألهذا السبب لـم أتمكن بعد من الكتابة عن معين بسيسو في الصياغة التـي تتطلبها أطراف شخصيةٍ عاصفة تشير إلينا كما تشير حالتنا إليه بطريقة مُلخَّصة؟

رُبَّما؟

ولكننـي أكابد صعوبـة خاصة في خصوصيـة علاقتي به؛ خصوصية تجعلنـي أمزِّق اقترابي من محاولـة تفتيت شخصيته إلـى عناصر. حتى وداعي له لم يتم لأننـي لم أجد الغياب الذي يمنحنـي القدرة علـى تفقد ما فعلت بي العاصفـة، وعلى النظر – مـن بعيد مـا – إلى المشهد الذي وضعني فيه طرفاً في ثنائية كانـت ترهقني أحيانـاً. لقد اختار سباق الخيـول، وكان رهانه علـى اليومي. وكانت متعته أن يفتح الملعب للمتفرجين. وحين نلتقي، ويقدم لي قلبه على طبق الخيبة من الآخرين، كنت أنتقي أكثـر الألفاظ رقة، أو خشونـة، لأقنعه بسريـة الكتابة الشعرية: هنالـك – يا صديقي – فـارق بين أن يكتـب الشاعر عن الناس وللناس وبين أن يكتب قصيدة أمام الناس! هل كان من المجدي إسداء هذه الملاحظة لشاعر مليء بالمظاهرة والشوارع، مزدحم بهتاف متدفق؟ كلا، إذ كيف تلجم شاعراً يؤمن حتى التديُّن بأن للقصيدة قوة حركة، قوة حزب، قوة قادرة على التغيير الفوري.

كنتُ أغبطه. هذا الشاعر المتميِّز لا يصلح للسكون وفلاحة الكلمات. كان يمتثـل ماياكوفسكي – كما أتاه مترجماً في لغة

التبشير الثوري في الشعر – وهو يبتلع الشوارع. يخوض معاركه الأدبية بموهبته الفذة، وقميصه الأصفر، ويديه إذا لزم الأمر ضد نقاد الصفحة الأدبية في «برافدا». هذا الشاعر لا يصلح لترويض نفسه ولغته والتساؤل عن إشكالية دور الشعر، لأنه لم يُخْلَقْ للداخل ومراجعة الذات. ينقضّ كما الطلقة لأنه لا يستطيع أن يعترف باللحظة التي التبست فيها فاعلية القصيدة وفاعلية العمل. القصيدة – قصيدته تقود، هنا والآن، حركة شعب. لقد اعتاد ذلك. القصيدة هي القراءة الحالية بتفاصيل شروط إنتاجها الآنية. القصيدة هي لحظة الحاضر الصارخة، وهي التي تحدد طريقة قراءتها من زاوية واحدة، فإما أن تستجيب وإما أن تخيب.

وكنتُ أغبط هذا الإيمان الذي يُسلطه عليَّ اتهاماً. ولم نفترق. كنا نذهب إلى الدعابة. ولماذا نفترق ما دامت السنبلة تدل على القنبلة؟ هكذا كان يمزج الأصدقاء. تداعي القافية يتطابق مع وصف ثنائية. وها هو معين بسيسو يجلس هنا على نظرتي إليه، فأخفي عنه قصيدة الرثاء التي لم تعجبني لأنها لم تلتقط ما فيه من نحل ومفارقات. بدلاً من ذلك يأخذني إلى كل قطار. لا نستطيع أن نحكي عن سفرٍ إلّا وكان أحدنا شاهداً: لم يكن رسول حمزاتوف معجباً بشعرنا – كما ظن معين – حين ألحَّ علينا أن نصعد معه إلى أعلى جبال آسيا الوسطى، مزداناً بأوسمته التي حطمت تقاليد البيروقراطية واستطاعت أن تفتح المقهى. شعر معين بزهو. ولكن ما كدنا نجلس على المقاعد حتى بادرنا حمزاتوف بالسؤال: من أين أنتما؟ لم يصدق معين بسيسو أن شعره لم يدل عليه، بل دلت عليه المرافقة الطويلة التي أعجبت حمزاتوف فدعانا من أجلها! قال لي معين: في المرة

القادمـة سأثق بريبتك! ولم يغادر حمزاتـوف المقهى إلا بعدما أجهـز على الكاتب الهندي سجاد ظهيـر، أجهز عليه بمزيد من كؤوس الكونياك الأرمني. وكان عليَّ حين ترأست جلسة المساء في مؤتمر كتـاب آسيا وأفريقيا أن أعلن أن سجاد ظهير استشهد اليوم وهو يدافع عن مبادئنا! لم يعرف معين كيف يميِّز بين البكاء والضحك لجريمة حمزاتوف البريئة إلا بعدما أجهز على صديقه يوري الذي لقَي مصير الهندي بعد أيام. ومرة أخرى، لم يصدق معيـن ريبتي حين قال بزهو: أنظر كيـف يعاملون الشعراء؟ وهو يتقدم من فتـاة جميلة تحمل الورد علـى رصيف محطة القطار فـي تالين اسْتُونيا لتأخذنا إلى الفنـدق. بعد قليل اتصل بي معين ليقول: نحن في ورطة وعلينا أن نغادر الفندق فوراً، فتلك الفتاة استقبلتنـا باعتبارنـا راقصين مـن كوبا! قلت له: لـن نخرج إلى ثلـج يبلغ ارتفاعه مترين حتى لـو كلَّفنا ذلك أن نرقص. فلنرقص إذن، ما الفارق: راقصان من كوبا أم شاعران من فلسطين؟ و... ومفارقات وسفر... وسفر... ومرايا تحمل وجوهاً أخرى.

... وكان معيـن بسيسـو يحيا حياته كُلهـا، في لحظة، من أجـل قصيدة يعيد إنتاجهـا حياة يحياها باندفـاع وشغف. كان يختـرق حصار بيروت ليبقـى تحت الحصـار: ليكتب قصيدة الحصـار، ليحقـق هوس التطابق بيـن الشعـر والموقف، وبين الموقـف والموقـع، لأن الموقع عنـده هو الجوهـر، هو معيار الحقيقـة والصدق والشعـر. وكان يكتب القصيـدة ليصمد في بيـروت، ليخلـق أسباب حيـاة لا يعتقـد أنها هبة بقـدر ما هي إنجاز. كان يخلط الواقع بشكل التعبير عنه ليوتِّر ذاته، ليجدها، ليبرر ويفسِّر ما لا يُفسّر مـن طاقات المقاومين. وكان مسكوناً

بهاجس أن التاريخ قد يتفرّغ لمراقبة الشاعر وللبحث عن التناقض بين موقعه وبين شعره. دور الشاعر هو أحد المفاتيح الأكثر أهمية لفهم تميّز شعر معين بسيسو، فحين يجد دوره يجد صوته. وكنت أغبطه، كنت أغبط كيفية تفجر طاقاته كلها، الشعرية والإنسانية، في المعارك الساخنة. هناك يولد دائماً وهناك يعثر على سره. هناك يصدق المواطن الشاعر فيه. هناك تأخذ «الكذبة» الفنية معنى التطابق الكامل بين القصيدة والواقع في عملية تفاعل معاكسة، إذ يصبح الواقع هو انعكاس القصيدة لدى معين بسيسو. فمن كان قادراً على إقناع معين بأن الإسرائيليين قد يدخلون بيروت؟ كان يفقد صوابه لا لسبب إلا لأنه خلق واقعاً حين قال لهم: «لن تدخلوا بيروت». لقد تحوَّل القرار الشعري الذي اتخذه الشاعر لاستنفار روح مقاومة إلى قوة مادية لا يمكن اختراقها. وهكذا قد يكذب الواقع لتبقى القصيدة على صواب. وحين اهتز صمود المطلع الشعري أمام عنف القصف الجوي والبحري والبري ارتبك الشاعر خوفاً من هزيمة صرخته، فخرج يبحث عن أمل أسطوري، راح يتطلع إلى البحر لعله يحمل النجدة للقصيدة! ومن كان من قبل قادراً على إقناع معين بسيسو بأن قصائده اليومية، الساخنة والجميلة، أثناء حصار تل الزعتر لا تُغني المحاصرين في المخيم عن الماء والغذاء والذخيرة؟

لقد خلق الشاعر وهمه الخلاَّق الضروري لتفجير ذاته الشعرية، من الموقع الذي اختاره، فهذا الوهم الجميل كان أداة من أدوات التنقيب عن القصائد. وإلا، فكيف يكتب الشاعر إذا فقد الإيمان بفاعلية الكتابة – الاستجابة؟ الفاعلية – لا

الجمالية. الآن – لا التاريخ. هنا – وهنا فقط هي أدوات تطابق القصيدة والموقع الذي هو شاغله. وأكاد أقول إن قوته الأدبية – والإعلامية – في المعارك الحادة تعود إلى قوة إيمانه بدور الشاعر التي تتجاوز اهتمامه بجمالية الشعر. وأشهد أنني كنت أعارض دائماً تقليدية طرح السؤال في كل معركة: والآن، ما هو دور الشاعر؟ وكان معين بسيسو يُعفينا من هذا العذاب. كان يقدم جوابه الخاص نيابة عن كل الشعراء. فهذا هو الشاعر، وهذا هو دوره، وها نحن نتبرأ من التقصير...

شاعر الدور، وشاعر المبارزة، دون كيشوتي الدلالة النقدية، ضد هذا السائد في الخطاب السياسي الرسمي الأجوف. لعله، أو أنه أكثر الشعراء العرب المعاصرين هجاء لمساحة الطلاق المكشوفة بين الواقع العربي وبين خطاب هذا الواقع كما يقدمه النظام. لقد أشهر كل أدواته الهجائية، من صفات الحيوان إلى مزايا الطبول، ليشهد بكل هذا الكذب، كان شاعر الرازحين تحت نير هذا «الاستقلال» العربي. كان يحطم الأصنام السياسية، وكان يحطم أصنام الشعراء لأنهم يكذبون بطريقة تختلف عن طريقته هو في الكذب. فكذبته الفنية تتأسس على ما في شعر اللحظة الراهنة من طاقات تفجير وتغيير، بينما تتأسس كذبة سواه على المستقبل الكامن في القصيدة، فاعلية وقراءة. وهذا الشاعر الذي أراد أن يكون فارساً كان يقاوم فروسية سواه. إذ لم تكن فلسطين فرسه العرجاء، لذلك كان خصماً لرداءة الكتابة الفلسطينية عن فلسطين، ولكل رموزها الجاهزة. كان يريدها قصيدة هاربة هو فارسها، ويرفض جلوس الثورة على مقعد السلطة. هكذا يقول شعره، دون أن ينسى الدفاع المستميت عن استقلال الإرادة،

والقـرار الفلسطينيين، فسيادة فلسطين للشعر، على الرغم من أنه كان سياسياً في الشعر، وشاعراً في السياسية. كان يقول السياسة شعـراً، ويقول الشعر سياسة. هدم حدود التمايز بين المستويين، ليوحـد طبيعة نشاط من الصعـب أن تتوحد مع خصوصية نشاط آخر. هل فعل ذلك استجابة لصعوبة أن يكون الفلسطيني شاعراً؟ أم لاختـلاط حدود العمل الفلسطيني التـي تطالب الشاعر بدور مباشـر في شروط هذا الجحيـم؟ أم لأنه لم يتمكن من الاعتراف بوجـود شعر خارج النضال المباشـر؟ أم لأنه وقف في المرحلة الأولـى من أسئلـة الشد والثورة. كان يـراوح بين شروط خاصة لعالميـن يلتقيـان ولا يتطابقـان، ولكن كان يحـاول أن يحدث عمليـة التطابق شبه المستحيلة، لأنه كان يريد أن يصون حضوره الدائـم في قلب المشهد حتى تحول هـو نفسه، بشعره ونشاطه ومفارقاته، إلى مشهد.

وما زلت أمزِّق هذه الصيغة المألوفة لرسم مشهد، فالعاصفة لـم تهدأ وما زالت الأشجار تنحنـي وتقف. وما زال هو يجلسٍ على نظرتي إليه: «هذا ليس أنا. حاولني من جديد. اكتب وداعاً آخر». لعلـه يريد كمال صورته أمامنا. نعـم، هذا المشهد ليس هـو. سنحتاج إلى قليل مـن الغياب لنرى بشـكل أوضح. وهو يرفضـ أن يتزحزح. لقد حوَّل حياتنا إلى خلية نحل ذات طنين. كان الخبـر اليومي وصانع الخبـر. وكاد يقتلني أكثر من مرة، لا كما قتل حمزاتوف سجاد ظهير، فقد استلَّ مسدسه، ذات مرة، ليحسم نقاشاً مع قارئ خبيث قال له إن المحاصرين في تل الزعتر محتاجـون إلى الماء أكثر من حاجتهم للشعر، فمرت الرصاصة – فوق كتفي. ومرة أخرى حين وضع على باب غرفته في لندن

شـارة «رجـاء عدم الإزعاج» لـم يزعجه أحـد... ليموت على مهل، فنبَّهني إلى أننا قد ننجو من القذائف لنقع في غدر القلب، لنموت بطريقة. أزعجت خالد بن الوليد. شكراً لحاسة النسيان الضرورية للحيـاة. ومنذ وضع تلك الإشـارة نزعتُها من أبواب غُرفي في كل الفنادق. أريـد من يزعجني وأنا أموت. ثم ناداني كثيـراً إلى أن انقضَّ قلبي علي. سألني الطبيـب: ما هي العلامة الأولى لإصابتك؟ قلت: شعرت بأن قلبي يناديني... يناديني منذ شهريـن؟ سأل الطبيـب: هل فقدت عزيزاً؟ قلـت: نعم، فقدتُ معين بسيسو. قال الطبيـب: من حسن حظك أنك وجدت من أزعج غيبوبتك. هل تعلم أنك مُتَّ لمدة دقيقة ونصف... ما هو لون الموت؟ قلت: أبيض!

أمـا زال معيـن نائماً فـي ذلك البياضـ؟ أما زلـتُ أحاول وضع المشهد في مشهد؟ سأحاول مرة أخرى... وسأمزق هذا الورق...

إني أعترف

... ولم لا تكتب إلى نفسك؟ لم لا تبوح وتعترف طالما انقطع الحوار، وخرج القارئ من عملية البحث عن حريته في الكتاب إلى محاكم التفتيش؟ يحقق مع كل كلمة. يقرأ نواياك كما تؤولها نواياه، يرميك بما فيه من داء وينسل إلى قراءة أخرى وصمت آخر لتكريس الإدانة.

لقد بتر الهامش الذي كان يوفر للعلاقة نعمة الحوار... وفاعليته: الرأي والرأي الآخر يتفاعلان يختلفان، يتعايشان ليفتحا معاً ثغرة ضوء في جدار حياتنا الصارم. فهل انتهت هذه الجدلية واستبدلت بصلابة اليقين النهائي القادر على امتلاك الحق هنا، والباطل هناك؟ منذ حملت كل عاصمة عربية، بجميع ما فيها من صخب وسكينة واختلاف وغموض صورة قائدها التي تشير إلى هوية شعب وانضباط وجدان؟ هل تحولت أية عاصمة عربية إلى رمز للخير المطلق تارة والشر المطلق تارة أخرى؟

وهل انقسمنا واغتربنا وانفصمنا إلى هذا الحد؟

أعني هل تدهورنا إلى هذه الدلالة الشمولية المطلقة ليصير

للموقـف وللفكـر مرجعية مـكان، يتعرض الـذي يقترب منها إلـى الإثم، أو إلى التوبة؟ تلك دعـوة إلى الانقطاع والانسلاخ، واستبدال العلاقة بالمدن إلى سكنى قبيلة أو معسكر جيش.

لست من هناك، ولست من هنا...

وليس من عادتك أن تستدرج إلى منبر السؤال الآخر وليس من عادتك أن تدافع عن نفسـك إلا أمام اضطراب نفسك: هل أخطـأت كثيراً؟ هل اقتربت قليلاً من الحقيقة؟ وقبل هذا وذاك: هل اجتهدت كما ينبغي لي أن أجتهد؟

فـي خاصرتك سهم ثابت يدفعك إلى الركض، أماماً أماماً، خلـف نشيد لا ينجز، وخلف رغبة لا تتحقق... باحثاً عما ليس هنـا، باحثاً عما ليس هناك، تخترق (المؤقت) ـ العملاق الجاثم علـى ساعات لا تعمـل إلا لتشير إلى وقت لا لـزوم له... وقت للزينة، وتنقلب على نفسك حين يدلك حدسك إلى أن الهامش قـد ضاق قليلاً بينـك وبين ما حولك إذا اشتـد الإطار، إطارك، على خاصرتـك. كأنك شاعر للشعر وآخـر الخراب: لا، ليس هذا وطني. ليس هذا زمني وأكثر من ذلك: ليس هذا أنا.

وليس من عادتك أن تنظر إلى الوردة النازلة عليك من نافذة، لأن ما فيك من شقاء الغناء الحر لا يصدق هذه التحية الطارئة، ولا يصدق هذا الوقوف المضلل، لا ليس هذا كل شيء. ابحث عن ورد أقل تجد شعراً أكثر...

لقـد كنت في عمر واحد، أنت وأبنـاء مدرستك وحارتك وفكرتك وانصرف واحد إلى الطب، وواحد إلى حزب، وواحد

إلـى الفضاء. لم تعد لغتكم واحدة، لأنك غامرت وقامرت بكل شيء حتـى العبث والجنون واستدرار الشفقـة لتعزف أغنية من قبـر، وخارج ذلك... = خارج ذلك قد يتسع وقت ما للمزاح، للحب العابر، للزواج السريع، ولمؤتمر الأقنعة.

وأنت مطالب... مطالب بأن تكون ملاكاً...

وليسـ من عادتـك ان تُبالي بخنجـر جديد يغـرزه أخ أو ... صديـق في ظهـرك، فتلك هي مهنة العاطليـن عن الجمال ـ العاجزين عـن الاحتفال بنهار المذاق، البعيدين عن التماهي مع شاعرية اليأسـ والشهادة، المحرومين من نعمـة التوتر والقلق، متـى يموت لنراه بطريقـة أفضل؟ هكذا يهمسـ الأخوة ـ القتلة الـذي اعتادوا لغـة التأبين، ولم يجـرؤ الشهـداء إلا في حضرة زوجاتهم. الغدر... الغدر لا يصلح لواجب القصيدة. لقد ألفناه وصار غيابه دليلاً آخر على تشابه الرمال. فلا تطلب الرحمة من خناجر الأخوة المتربصين بك. لقد انتفخت النميمة وحضرت بمقـدار ما غـاب الوطن، صـار كل واحد وطنـاً. أليست تلك حياتنـا؟ أليس ذلك هو المشهد اليومـي لروح ممدة على مائدة التشريـح في مسرح العبث الصبياني، الـذي تحول فيه الشهود أنفسهم إلى قتلة؟

وأنت مطالب... مطالب بأن تكون حشرة...

فاكتـب إلى نفسك الموزعـة في نفوس كثيـرة، لا تعرف أصحابهـا، إلـى نفسك المتجمعة من كل نقطـة غياب وواصل اختلافـك عن ذاك الورد وهـذا الخنجر، لتكـون أنت... أنت الـذي لا يرضى بالهتاف ولا يبتهج للضفـاف، ولا تقبل وسيطاً

بينـك وبيـن الينابيـع، ولا وكلاء للمدى، ولا تستمـع إلى أحد يخاطبـك باسم الجماهيـر، فليس للجماهير منـدوب غير هذه الشرطة المتخفية بأسماء «مناضلين» عاطلين عن النضال خارج الـوزارة المنهـارة. ألـم تعرف هـذا القمع المتحـول إلى طاقة عـدوان على مناضليـن آخرين، باندماجه في بسطـة قمع لنظام آخـر، وبتأليب معاني «التقدميـة» و«الرجعية» على وعي الناس المستبـاح لثقة المنبر الـذي يئن تحته ضحايـا أخر؟ تحت كل منبـر ضحية، فلماذا يصفقون لهذا الخطاب ولماذا ينسون ذلك الشهيد؟

وأنت مطالب... مطالب بالعزلة والاندماج...

«لـو لم تكـن شاعراً لكنـت شرطياً» هكـذا اتهمك قارئ ثوري «لمـاذا؟» «بمجرد زيارتك بلادنا صـرت بسبطة شعرك شاعـر السلطة. الجـلاد يسوط الناس بالحديد والنـار، وأنت تسوطنـا بالكلمات أيهـا الجلاد» كيف تتعامل مـع هذه البراءة المنسوخـة عن بعض صحفنـا الفلسطينية القـادرة على تأويل الكلام، والقادرة على نفس التأويل في عددين متتاليين؟ دون أن تدخل في ترف التساؤل الـذي توفره أية محكمة برجوازية أين هـذا الكلام الذي قلته في مدح أي نظام كان، ومتى كان؟ إلا إن كان حلـم الحرية هو الجلاد، فهذا الحلم ـ سيرته الذاتية الغاصة بتراجيديـات الحالميـن وصحاريهم وزنازينهـم ـ هو مقدسك الوحيد، في شعرك ونثـرك، المقدس الوحيد المنزه عن أي دنو مـن السلطة، أيـة سلطة، رجعية أم «تقدمية» عـدا سلطة الشعر. لذلك فإن شرطـة النظام هي المطالبة بقمع هذا النشيد المضاد، إلا إذا تمكنـت «المعارضة» من صياغـة أدوات قمعها الفاضلة

بتحويلها إلى سلطة...

وهنـا، وهنا، تدخل فـي المفارقة. فالشعـراء يتحولون في حياتنـا الجديدة، حياتنا المسلية حد التقيؤ، إلى «عدو مشترك» لقمع السلطة ولقمع بعض أنمـاط المعارضة المنتمية إلى سلطة قمـع أخرى... وتلك هي إحدى إنجـازات تبعية هذا النوع من المعارضـة العربيـة للنظام العربـي، حيث لا يُعارضـ النظام إلا بأدوات نظام آخر تتحول فيه المعارضة إلى وسيط وهنا تتداخل الشرطة، ويتحول بعض الضحايا إلى شرطة تخدم في بلاط آخر وما على الشاعر، المطالب بالغباء، إلا أن يمجد إرهاباً آخر ضد الإرهـاب الأول، ليتلقى من شرطة المركـز الاتهام ذاته الموجه من شرطة الطرف الآخر. عليـه أن يشتري عبودية بعبودية، وإن اختلفت سمات الزي.

لست ذاك الشاعر الباحث عن فاتيكان...

ولكن ما يجـرح القلب هو أن يخرج بعضـ الحالمين من نشيـد الحلم بسكين. تلك هي أقصى حـالات الشقاء الإنساني والإبداعي تلك هـي إحدى تجليات الحرية عن عبودية مشتهاة تحول الكتابة إلى هشاشة في زمن الكتابة الذي لا حوار فيه ولا حوله.

إن المنـاخ مفتـوح لمحاكمـة أخلاقية لا أخـلاق فيها، لا لـدى القاضي والمحامي والشهـود ولا لدى الضحايا. مرجعية ـ نظامهـا الأخلاقي الوحيـد هو العصبية بجميـع تفرعاتها، هل هذا هو بؤس ديمقراطية السلطة؟ لقد سخرنـا منها وهجوناها

كثيـراً لنمجد ديمقراطيـة معارضة تستخـدم الإرهاب الفكري إياه، ولا تعبر في كتابتها إلا عن سلطة مقهورة مخلوعة تنتقم من ذاتهـا ومن تكوينها، وتستأسد فـي ضراوة الهجوم على أبنائها، لأنها استمـرأت آفة العنكبـوت، وسيجت أزمتهـا بكتبة ليسوا عاجزيـن عن الكتابة فحسب، بل هم عاجزون عن القراءة أيضاً، بتسليطهم نواياهم على النص، أي نص ليس نصهم، ليستخرجوا منه كنـز العداء المفقود، من ليـس أسير لغتهـم يعتبرونه عدواً. وهم قادرون على احتكار الحقيقة كلها، ومن خالفهم الاجتهاد وزاويـة الرواية فهو عـدو الجماهير. وليسـت الجماهير فيهم، أكثر من حفنة من سكان المقاهي.

لقـد سقط الشاعـر، انحاز إلـى الفاشية ـ هكـذا يقولون ـ بلذة من يحتسي كوباً مـن الجعة، سقط الشاعر، لأنه انحاز إلى الشرعية فـي منظمة التحرير الفلسطينية، سقـط الشاعر لأنه قرأ شعراً في السودان، سقط الشاعر لأنه انحاز إلى الدفاع عن أرض العراق ضد مشـروع الظلام الخميني، سقـط الشاعر لأنه ليس بوقنا...

لست ملكاً لأحد...

وحين تلاحظ اختلاط الثقافي في السياسي وذكاء المثقفين في إدارة لعبة الأقنعة ينقضـون عليك بملاحظتك الساخرة التي تطـرح النقـد والنقـد الذاتي في سيـاق التأمل فـي ظاهرة عامة تشمـل مستـواك الوطنـي، ولا يشيرون إلى أن هـذه الملاحظة هـي ملاحظتك أنت، يسرقون لغتك وموقفك ولا يتورعون عن تبجيل الحماقة، ثم يدعون إلى حرية الرأي شرط أن يكون رأيهم

خـارج هذا الـرأي، لا حرية لك ولا لسـواك ولا حرية للقارئ في قراءة جملتك المؤولة، ينتقدون الإرهاب الفكري ليمارسوه ضد الآخريـن، وباختصـار، يشرعون القمع، يعمونـه ليزودوا أجهـزة القمع الرسمية بحسن سلـوك مقارب. وهكذا يحولون المسألـة مـن بحث عن الديمقراطيـة والحرية إلـى تنافس على ملكية سجون وأدوات قمع...

ويريدونـك أن تكـون منهـم، أو مـن السلطـة ليصفقـوا لهزيمتهم فيك...

لست منهم، ولست من السلطة، ولكن القارئ له براءة... أخرى، يريد للشعر أن يمتلك قوة السحر، وحين يعجز عن القيام بهذا الدور يصاب القـارئ بالإحباط، فيحيل إحباطه الشخصي والعـام الذي خذل، على الشاعـر الذي عجز عن إنجاز ما عجز عنه الأنبيـاء، لأن الشاعر مطالب بأن يحقق المعجزة، فهل أنت قادر؟

لا... لا تستطيـع، فلتواصـل الخناجـر خدمـة غريزتهـا، وليواصل الشاعر نزيفه وخدمة نشيده، وليعتذر لمن يطالبه بأكثر من ذلك...

وليعترف... إني أعترف...

خمسون عاماً بلا لوركا

لم يكن المغني يغني، كان ينبثق من بلور لوركا المكسور لم يكن أمانيثيو برادا يغني لنا، كان يلم لنا شتات الروح وكان علينا أن نصرخ لنشفى من حريق الورد: أولي... الله في مساء مدينة البرتقال الإسباني فالينسيا...

ولم يكف خوان غويتسولو عن تأكيد البهجة: أن سوناتات الحب المعتم هذه، هي أحب قصائد لوركا إلى قلبي.

إسبانيا في جميع أرجاء الذاكرة، إسبانيا في تمام إيقاعها المحاذي لموت يقدس، ونحن على هامش الهامش، لا ندخل ولا نخرج، نتحرر قليلاً من عقدة الخوف من الطرب، ولكن من هو هذا المغني الذي يتلاشى جسدياً، مع الأغنية؟

إنه متخصص في غناء قصائد لوركا... إنه يسبح ضد التيار الجارف الذي يعزل الغناء عن الشعر، كما فعل لوركا وهو يقاوم عزل الشعر عن الغناء.

كان لـوركا ينشد، كان لوركا يقـول: إن الشعر يحتاج إلى ناقل، يحتاج إلى كائن حي. سواء كان هذا الناقل مغنياً أو منشداً، وكان لوركا يمتحن حاسة الذوق ويمتحن القصيدة ذاتها بالإلقاء كان يبحـث عن العلاقة المباشرة بيـن الصوت والقلب، فالشعر ليس فناً بصرياً، لا بد من أُذن، لا بد من جرس.

ساعة واحدة، ساعة واحدة فقط كانت كافية لأن تنقلنا مما نحـن فيه، من زماننا ومكاننا إلـى... ما لا ندري بشفافية الشعر وفضـة الصوت وأمهـات البرتقال الإسباني لمـاذا نصاب بهذا الفـرح وبهذا الشجن، لماذا ننتفض؟ هـل نسينا أن هذه الرهافة وهـذا الغياب هما وطن الشعر الذي لا وطن له؟ وهل نسينا هذا الـزواج الأبدي السعيد بيـن الشعر والموسيقـى، لتعيد لنا تلك الساعة مشهد الروح وهي تحول البصري إلى صوت وتطلع من الصوت رائحة الخريف؟

نسمـة ملح تنقش أسماءنا على الرخـام إيقاعات زهر تنشر فـي الدم دبابيس الرغبـة، بعيد يبتعد ويد تحضـن الكلام نوافير من ضـوء ينسكب من بيـن غضون إسبانيا، لـوركا، خوف من قمر يـرى ويفضح، لا نفهم هـذه اللغة، ولكننـا نحس ونؤلف كلاماً لمشهد يطل علينا منا، لذلك ندرك الشعر الذي تقوله لأنه إشكال داخلنا، ولأننا نعرف ما حدث في تلك الليلة التي نحاول طردها عنا كمـا نطرد ذبابة بمروحة على الرغم من أن سلفادور دالي واصل تناول السردين بشهية حين قالوا له إنهم قتلوا لوركا، هنـاك دالي وهناك بابلو بيكاسو الذي احتاج عشرين سنة أخرى ليرسم الحمام.

خمسون سنة على غياب لوركا، خمسون سنة على غياب وعد الجمهورية، ماذا نفعل بلا لوركا، ما نعمل بلا جمهورية؟

المغني يبوح بحساسية أخرى، باعتراف مظلم هو جزء من حرية، ولكن كنائس الكلام كانت تنتشر فينا كغابة صنوبر متباعدة الأشجار. إذ ليس لوركا، فينا، سره الشخصي بقدر ما هو فضيحة الإبداع المعدية... ولا أستطيع التحرر من الإحساس بأنهم يقتلون لوركا الآن. هنا، أمامي، لقد فتحت لي الأغنية باب خوفي الأول من القمر الذي كان يكبر الأشباح وأعادتني إلى درسي الأول، الحاد الغامض في قابلية الألفاظ الحسية على نشر مشاهد بصرية، هو... هو الذي أخذني إلى هذه الظلال، إلى هذا المزيج الناري، وإلى تسليط القلب على «الطبيعة الميتة» كما يقول الرسامون، وعلى إغراء العقل في التسلل العلني إلى القصيدة. هو الذي علمني شد الوتر من الحجر والسير في غابات الزيتون، هو الذي دلني على طريق الخيل والمطر فوق منحدرات الجيتار. وهو هو الذي علمني الرحيل إلى قرطبة.

خمسون سنة على غيابه... ماذا فعلنا في غيابه؟ لقد توقف الحسد الإسباني، ذو السلالة العربية، عن التساؤل الخبيث: هل الأسطورة هي التي خلقت الشاعر، أم الشاعر هو الذي خلق الأسطورة؟ يريدون ـ لكي لا يحجبهم ضوءه أن يستبدلوا مجال الشاعرية بساحة إعدام، الشفقة لا الحب، ويريدون أن يقاضوا جداول حبنا القادمة من ينبوع شعر نادر برصاصة تثير التعاطف الشهير، لقد توقف هذا الحسد الإسباني منذ عجزت الحواس عن العمل بلا أصوات لوركا الملونة، ومنذ عجز الدكتاتور

القابع في القصر، وصغار الضباط المندسين في الشعر، على الحيلولة دون انبثاق أغنية لوركا من كل أعضاء الجسد، ومن جميع مجالات الروح التي تمتد إلى قدمي الراقصة الإسبانية الطامحة إلى الإقلاع عن جاذبية الأرض ومنذ عجزوا عن اقتلاع أشجار الزيتون من أي حقل أندلسي ومنذ عجزوا عن تحويل الغجري إلى موظف، لوركا، من يستطيع وقف الرعشة إزاء هذا الاسم المكهرب؟

المغني يتسلل على حبل الظل، يرسم أغنية لوركا الهشة يتلوى، يصلي، يزني، يعود على حافة الوتر الذي يجرح الهواء، ونحن نصفق لما تبقى فينا من قدرة على الافتتان: أولي... أولي... الله، هل نسينا طابع الشعر هذا، هذا الطابع؟ وهل في وسع الشعر أن يجدد إنتاج حياته بغير هذا الحلق وبغير هذه الأذن... وبغير هذا الاتصال؟ ليس مقياس الشاعرية أن يقرأ الشعر ـ من وضع هذا المقياس؟ ـ بل أن يسمع، أن يغنى وأن يعاد إنتاجه على مستوى علاقة من رفض هذا المقياس؟

خواطر، فرح، من سمى الطرب عيباً؟ سؤال يحال إلى عملية التدمير الذاتي التي يمارسها الشعراء بتطهير شعرهم من العاطفة، وباستبدال غموض الأحاسيس المعلقة على أشجار الليل بوضوح الرياضيات الذي لا يفهم. أهذا ما يريده الذين ضاقوا ذرعاً، أو جهلاً، بالموسيقى فحاولوا استحضارها من الكيمياء؟

غن أكثر، أيها الكائن الحي، غن أكثر يا ناقل الأغنية إلينا ـ نحن الجمهور، الموسيقى تعلن انتسابها العضوي ولا تشرح،

الموسيقى تنبثق ولا تُصاحب، الموسيقى أحد أرواح الشعر، ما أعلـن منها وما بطـن، غن أكثر، ولكن لا تذكـر كلمة «لونا» لا تذكر القمر، الليلة قتلوا لوركا.

وهكـذا قدم القاتل شهادته في رواية فيلالونغا: «ذهبت في طلـب لوركا، في منتصف ليلـة التاسع عشر من آب، انهض هذا هـو الموعد، قال: متى شئـت ـ أنا جاهز، نظـرت إلى ساعتي، علـى مهلك، معنا وقت، قال لـوركا: أحب ألا يحدث ذلك في المقبرة، فالمقابـر ليست ليموت فيها الناس، إنها فقط للصمت والأزهار والغيوم، ولا أحب الموت على مرأى من القمر.

«... وحين وصلنا، ساده فرح غامر فهمت معناه: لا يوجد قمـر، توقفـت السيارة، نزل منهـا رجال الفصيـل السبعة، كما ترجل قس طرز على ثوبه الكهنوتي قلب يسوع المقدس.

وضعت إصبعاً على كتف الشاعر وقلت له: «تقدم... وأنا أدله على الطريق، سار راكضاً في الطريق المحاذي لمجرى ساقية جـاف، وبعد عدة دقائـق من المشي توقف. ظهـرت أمامه في الأفق لاسييرا وقد غطاها ضباب الليل الأزرق وفر بها وراء غابة الحور السوداء، قرية الشاعر ومسقط رأسه سمعته يتمتم مرتين: لماذا يا ربي... لماذا؟ كان أحد رجال الفصيل يمشي إلى جانبي ومسدسه في يده، ادخل فوهته في صلب الشاعر وانتهره بجلافة: امش، وإلا بقرت بطنك، استأنف لوركا سيره متعثراً بالحجارة، وسقط ثلاث مرات علـى ركبتيه، وفجأة توقف وسألني: قل لي الحقيقة هل هذا مؤلم كثيراً.

«... فجـأة ندت صرخة... صرخة لا يـبدو أنها خرجت مـن حنجرة إنسان، توقف لوركا عنـد حافة الجرف... أخدود عريض طويل حفر في بطـن الأرض كاشفاً عن جذور الأشجار العميقة، عشـرات القبور أخذت شكل الأجسام المواراة تحت التراب الرمادي الناعم، وهناك على مرمى أبصارنا منظر فاحش فظيـع، ساق امرأة عارية ظلت خارج القبر فوق التراب المحرك منذ وقت قريب، أجهش لوركا في البكاء.

«... تقدم الكاهن وفي يده صليب، قال للشاعر: اعترف، تساءل بماذا أعترف؟ قـال الكاهن: بما تريد... مد لوركا يده وأبعـد الكاهن، عبأ رجال الفصيل سلاحهم، قلت له: اركض، نظر إلي وهـو لا يفهم قصدي، وأنا أؤكـد: أقول لك اركض، قال بـأي اتجاه؟ قلت: على خط مستقيـم... إلى أمام، ركض عشرين متـراً تقريباً بشكل يثير الشفقة وتوقـف اركض أيضاً، استأنـف الركضـ ويداه تهتـزان ورأسه يتداعـى كأنه تمثال لا حياة فيه، وأصدرت أمري: نار، ولما اقتربت منه، رأيت وجهه معفـراً بالدم والتـراب الأحمر، وكانت عينـاه جاحظتين، قال بصوت خافـت: أنا ما زلت حيا، حشـوت مسدسي وصوبته إلى الصدغ، انطلقت الرصاصة ونفذت من البطن، ودفناه عند جذع شجرة زيتون».

عـن أكثر، أيهـا الكائن الحـي، لنصدق أن علـى مثل هذه الأرضـ المجبولـة بالجريمـة، شيئاً مـا يستحق الحيـاة، إنهم يذبحـون الشاعـر كالأرنـب، وحين يعجزون عن ذبـح الأغنية يحيلـون هذه المهمة إلـى شعراء آخرين يحيلونهـا بدورهم إلى

نقاد آخرين، وحين ينتابنـا الخوف من قمر أو خنجر، نتحسس قلوبنا، وبقدر ما نجد لوركا نواصل البحث عن الروح في الغناء والبحث عن الغناء في الروح...

خمسون عاماً بلا فيدريكوغارسيا لوركا...

شعراء أكثر... وشعر أقل...

معين بسيسو لا يجلس على مقاعد الغياب

ننشـر فيما يلي مقال محمود درويش عن الشاعر الراحل معيـن بسيسـو المنشـور في العـدد الجديد مـن مجلة «الكرمـل» 1984/11، والعدد يتضمـن دراسة رولان بـارت «النقد والحقيقة وقصائد لدرويش وسليم بركات وفوزي كريم ووليد خازندار وقصة لإبراهيم عبد المجيد وملفاً ثقافياً عن المغرب. بالإضافة إلى باب أقواس.

لا يتـرك معقـداً لغيابـه ولا نقـوى علـى توجيـه الخطاب المألـوف، لأن قوة الحضور فيه هي ما يـدل عليه وعلينا أحياناً، إنه يجلس الآن أو يقف وسط بياض الورق والوداع زحاماً كاملاً لينشـر علينا الصعوبـة وها أنذا أعلن أنـه يحاصرني تماماً ويدلق علـيَّ حبر تاريـخ لا يتماسك في كتابة أوليـة، إذ لم أفتح دهشتي وصدمتـي لاحتمال هذا الغياب الصاعق وهو لا يخرج مني ومن أي بـاب، كان شديـد الشبه بعادات تجاوز الألفـة إلى الإدمان، وكان صديقـاً شديد الالتباس، كان صديقاً يحيـر الصداقة، لأنه

كان توقعـاً لا ينتهـي إلا ليفاجـئ لا، لا أستطيـع الكتابة في هذا الضجيج الذي يثيـره فيَّ، كم مرة سأحاول، كم مرة سأرجوه أن ينصرف عني قليلاً لأراه بطريقة أدق، وكم مرة سيضعني في كتابة أولية؟ إن ما يطفو عليَّ مـن دم التجربة الساخن، الطازج، يدلني أيضـاً على أننا لم نبـدأ كتابتنا منذ اللحظة التي لم نتمكن فيها من تلاوة وصيتنا الأخيرة على مكان أو على أحد.

الشاعـر يمـوت علـى طريقته الخاصـة، الشاعـر ينفجر، يتطاير، يريد مفتاح الغروب ولكنه لا يعلم ماذا فعل بنا، وللشاعر جسد أيضاً ونبيذ، لأن للنشيد امرأة ونافذة... للنشيد فضاء، ولم يحـدث أن انفصل النشيد عن الجسد بمثل الفجيعة التي تتم في الحـادث الفلسطيني الذي صار من فرط ما هو مألوف تراجيدياً بطريقـة غير مألوفة، فهـل كان معين بسيسو وهـو يلتهم الحياة كمـا يلتهم طفل جائـع إجاصة ـ يدرك أيضـاً أنه لا يمتلك مقعد للمـوت؟ لقد كلفنا بهذا الترتيـب الإجرائي ليدفع كل واحد منا إلـى التفكير بتأمين قبره، إن المنافي التي فتش فيها عن الطمأنينة ـ والطمأنينـة في قاموسنا هي حرية الصراخ أو فوضى الانفجار ـ لا تحصـى بضربات قلـب، إذ كان دائماً يبتعد عن غزة فيصارع النشيد الذي لا يمتثل ولا يمتد جسراً فلا يكون الرصيف عندئذ إلا للقـاء النفس في العاصفة دون أن نحـرك سؤالنا العسير: هل يستطيـع الفلسطيني أن يكون شاعراً؟ لقـد قدمت الإجابة على السؤال المعدل: نعم، يستطيع الشاعر أن يكون فلسطينياً، وماذا يعني ذلك؟ يعني أن يتخبط السؤال الأول في المجرى، العاصف في المذبحة والوحشة والخيبة، فـي البحث عن شروط للكتابة وعـادات لا تستـوي لأن الأوطان تحمل فـي القلب، لا يسكن

النشيـد، لأن النشيد لا يصطـاد ولا يستلهم لأن النشيد لا يكون فينا غير ما هو فينـا، لأنه لا ينزلق: مطالع يبترها الرحيل، مقاطع تتأرجـح بين جنـون الشاعر وواجبات الممرضـة واستغاثة أفق لا يغطـي أحداً، وها هو... ها هـو النشيد يدفعنا إلى بحث آخر عـن محطة الانفصـال الفاجع بين النشيـد والجسد، وكان هذا الانفصال في حياتنا هو الالتحام الممكن لحياتنا، كأنه هو فضاء النشيد اللا ممكـن أو اللغة التي لا تأتلف مع ظلالها المحروقة، لأن الجسد هو الذي يقول... هو القول، انظروا إلى تألب معين بسيسو على الأمكنة التي لا مكان له فيها، لتروا غربة الروح في شكل لا يوافقها.

إن سيـرة المنافـي والزنازيـن كما عاشها ورواهـا وأنطقته الوضوح الحاد، والغرابة الخشنة، وجعلته أحد المعبرين بامتياز، عن لعنة المكان الفلسطيني، هي سيرة الانتقال المعاكس للبطل التراجيـدي من النص إلى الواقـع، إذ لا نستطيع أن نماثل بين ما نقرأ وما نعيشـ، لا في النص الماضي الذي روى عذاب غيرنا، ولا في النص الحاضر الذي لا يستطيع مقاربة عذابنا لا، ليس لهذا الرحيـل من مثيل، وليس لاندفاع هذه الخيول إلى هذه الهاوية ـ الجنـة من موروث، لذلك كان البطـل فينا، لا البطل التراجيدي هـو من يقوى علـى مواصلة حلم مسيج ببنـادق الأعداء، الذين تعددت أسماؤهم واختلطت لتعمق حاسة الفلسطيني بأنه وحيد على هذه الأرض، وحيد مع الأرض الوحيدة مع ذاتها.

إن معيـن بسيسـو مواطناً بلا وطن ومنشـداً بلا نشيد يمثل هذه الصلابة الخارقة، صلابـة الحلم في جسد يمزقه الرصاص

من كل جهة، ونظام كان يدرك أن المنفى يأخذه إلى منفى آخر، وكان يدرك أنه يدور حول غـزة، مجموعته الشمسية الخاصة، التـي تمثل ملكيـة أحلامه الخاصـة وذكرياتـه الخصوصية ولا ترتخـي قبضة يـده الممسكة بجمـرة الحلـم، وكان يؤمن بأن للقصيدة طاقة الملموس الفاعل.

لقـد صرخ ذات مرة في وجوه الكتـاب الفلسطينيين: قبل أن تكتبوا لفلسطين بالـدم تعلموا كيف تكتبون بالحبر، وهكذا كانـت قصيـدة معين بسيسو دائمـاً بمثابة ذخيـرة حية، متوترة مباشـرة، شرسـة وسباقة، وأنا لـم أعرف شاعراً عربيـاً معاصراً في مثـل هـذه الشراسة، لا ينطقـه غير التحـدي ولا يتوهج إلا فـي المعارك، وهو محتـاج دائماً إلى ثنائيـة، يحتاج إلى خصم محـدد وملامح محددة، وكان أحياناً يحتـاج إليّ، يحتاج إليّ، للصداقة وللمبارزة، وأشعر أنه منذ التقينا وجدني، وجدني طرفاً للمحاورة المباشرة أو الملتويـة، طرفاً للاعتراف وللاختلاف، وكنـا دائماً على سفر دائم، على ظهـر موجة، وكنت أراقب فيه شهية حياة مجنونة.

سنقترب عمـا قليل من صدمة عالية، ليسـ من حق الحالة الفلسطينية أن تختار مهداً لولادة، نولد كيفما اتفق وحيثما اتفق ولكن مضـى علينا عمر طويـل وموت كثير لنعـرف مأزقاً آخر إذ ليسـ لأحد منـا قبر، كان معين بسيسـو المجبول، بشهوات كل مـا يشير إلـى الحياة، يتحاشى هـذه الملاحظة، كان يهرب منهـا لأنه كان يخافهـا، أو كان مسكوناً بهاجس آخر: أن يعمق ختمـه على الزمـن، وأن يضع توقيعه على كل مـكان، أن يغرس

شجـرة، أن يترجم غزة إلى أكبر عدد من اللغات، أن يبني كوخاً مـن المطر، أن يجبل قامة من ريح، كان يطرد فكرة الموت كما يطـرد ذبابـة، وكان يمازحنا ويهددنا جميعـاً بالرثاء، كان يكره الرثـاء ويمقت المشهـد الفلسطيني اليومي فـي طابور الموت. كل أثاث الغياب مرمى في سخريته الشهيرة: الجنازة، الملصق، كلمـات الرثاء التـي لا تشير إلـى تعديل على اسـم المسافر... الأشياء ذاتها، ذاتها تتكـرر، وكان يستثني صورته من المشهد، ويعـب الحياة والسخرية، فهل كان انطباعنا السريع حول خلوه من فكرة الموت صحيحاً لا أظن... لأن من شاهد معين بسيسو فـي أيامه الأخيرة شاهـد خدوشاً في تمثال الضـوء، كان حزيناً كوقفة وداع منكسرة، لـم تكن بيروت أندلسه كما قال، ولكن ما تعرض له الحلم الفلسطيني على أيدي بعض حراسه وجه إلى روح معيـن قصة الاكتئاب. لقد هرم قليلاً حارس النار ولعله في هذه المرة إلى ذاته التي كان يحكم عليها الروبرتاج، واستعرض الشريط حاول أن يحدد ما فيه وسكاكينه، فأخطأ وما زالت غزة تبتعـد، وماذا يفعل الشعر؟ كانت أحلامه الشخصية الأخيرة هي أن يشيـخ هناك: علـى ساحل تخيله أرض الشهـوة المحققة أو القصيـدة النهائية، لقـد اصطدم بوحشة الـروح وتعب الجسد وامتـداد النشيد في أفق ينفلق، وكان يكابر ويكابر، ومنذ البداية البعيـدة كنت أفسر شبـق الحياة فيه بخوف خفـي من موت لم يعـد له إطاره، فكان يسابق ما ليسـ لائقاً به، الموت، وذلك ما يشـرح خوفه العميق من الطب إذ لا يريد أن يرى صورة قلبه إلا في الكتابة، كان يُعالج نفسه وأوجاعه بالتهام الحياة. وحين كان يتجول بيـن قذائف بيروت، كان يدرك أنه لـن يموت لأنه كان

يريـد أن يموت، لأنه يكتب ويمتلئ حياة، كان موت الأشياء فيه يتـم في اللحظة التـي يكمل فيها غنـاءَه أو صرخته، كان الحب يضربه أحياناً بسيف من بـرق، وكانت القصيدة هي التي تشفيه ليموت الحب، لماذا سمى عمله الأخير بهذا الاسم «القصيدة»؟ ألأنه كان عرضة لإحساس بالنهاية التي تكلل حياته بهذا العنوان النهائـي؟ نعم ليس من حـق الفلسطيني أن يكـون شاعراً ما دام مجهـول المهد واللحـد، فالفلسطينـي ذاته هـو القصيدة، هو النشيد المقطوع، وعلى غيره أن يصوغه أو يكمله، فهو مشغول باختيار وحيد هو اللحظة الممتدة من مهد لم تختره أمه إلى لحد لا يعرفه. مشغول بصياغة حياة تفيض عن أدوات العمل الشعري وعليـه أن يختار حياة الحرية في مكان ليس له، ليس له أبداً وأن يؤسس مشـروع الحرية ودولة الحلم إذا كان للحلم دولة ـ على محطـة قطار أو في قاعة انتظار في مطار أو على رصيف ميناء أو يكون جاهزاً أبداً لرحيل آخر عكس الوطن وعكس الذات فيما أسبـح ذاتي؟ ومن أين ستمد لغتـي، لذلك لا يرى الفلسطيني إلا فـي جلوسه على لحظة الموت، لا يدل علينا سوى موتنا، إما أن يحيا، أن يدخل في دورة المألوف البشري، أن يكتب شعراً، أن يحمـل ورداً إلى امـرأة فتلك إذانة الآخر لـه، وعقدة الذنب فيه وهكذا لا يعتدي الآخر على حقنا في مكان، وعلى فكرة البطل فينـا بل يعتدي على الإنسـان فينا ويستشرى الآخر حين يجاوز مساحته ويدخل في «أنا» ليمزقني عليك أن تختلف وأن تختلف، وأن تختلـف لتكون ـ تلك مطالبة تشـي ببراءة وبنية اغتيال معاً. لذلـك يخشى الفلسطيني أن يموت فـي غرفة، لأن الغرفة إن لم تكـن غرفة تعذيب تكون قفص اتهام، علينا أن نكون ملائكة أو

شياطيـن، فهل تم إدراك مثل هذا الظلـم بتحويل الفلسطيني من إنسان إلى نمـط؟ وهل يستطيع الفلسطينـي بعد ذلك أن يكون شاعـراً؟ نعم، يستطيع الفلسطينـي أن يكون شاعراً إذا نهض من عقـدة إثـم الحياة والقدرة على فـرح طائش، إذا مـا تمرد على مـا حوله، وما فيه، مـن نمطية. إذ عاش حياتـه وصاغها بتوازن لا يتـوازن إلا بانكسـار أحد عناصر التـوازن كان يهيئ للمطلق حاسة تتعايش مع اليومي الذي يصعب التعايش معه وكأن يجن، ومن هنا أقدم استغرابي ظاهـرة انصراف الكتابة الفلسطينية إلى تمجيـد المـوت، الأمر الذي يفسـر هشاشتهـا، لأن هذا الميل الشائـع هو ابتعاد بـريء عن مصدر القوة الروحيـة الفلسطينية، وهي قوة الحيـاة، لقد عاش معين بسيسو في هذه القوة وحاول أن يحيا، حـاول أن يكسر محاولة الآخر تحويل الفلسطيني من إنسان إلى نمط، وهكذا كان ابن حياة تتوتر وتبحث عن حياتها في الحرية.

ما-را-دو-نا

ماذا سنفعل بعدما عاد مارادونا إلى أهله في الأرجنتين؟

مع من سنسهر، بعدما اعتدنا أن نعلق طمأنينة القلب وخوفه على قدميه المعجزتين؟

والى من نأنس ونتحمس بعدما أدمناه شهراً تحولنا خلاله من مشاهدين إلى عشاق؟

ولمن سنرفع صراخ الحماسة والمتعة ودبابيس الدم، بعدما وجدنا فيه بطلنا المنشود، وأجج فينا عطش الحاجة إلى: بطل، بطل نصفق له، ندعو له بالنصر، نعلق له تميمة ونخاف عليه ـ وعلى أملنا فيه ـ من الانكسار.

يا مارادونا، يا مارادونا، ماذا فعلت بالساعة ماذا صنعت بالمواعيد؟

****

فراغ الأمسيات يتقدم منا كبطل من حديد، فنحن لا ننتظر أحداً، سنجر الخطى الثقيلة في اتجاه بيروقراطية النفس والوقت وسنضطر إلى قبـول مواعيد أخرى، نستعيد فيها الثرثرة اليومية حول المناخ والعنصرية والحروب الأهلية... وسنتذكر، لنسهر أكثـر، عصـراً ذهبياً عاصرنـاه، العصر الذي حل فيـه مارادونا ضيفـاً علـى لهفتنا، فأقلعنا عـن كل شيء لنتفرغ لمـا مسنا من طقس: محبة مارادونا وتسييج قدميه بفضاء الرحمة والقفز على الشاشة لفك الحصار الألماني الثقيل الذي يسد الهواء على توتر عضلاتـه، وهجاء الحكـم البرازيلي الذي كسـر قلب مارادونا كما يكسر الرجل الغليظ القلب قلب طفل بريء... لا لشيء إلا لأنه يغار من عبقرية الطفولة...

****

له وجه طفل، وجه ملاك،
له جسد الكرة،
له قلب أسد،
له قدما غزال عملاق،

وله هتافنا: مارادونا... مارادونا، فيتصبب اسمه عرقاً يقتلع الكرة كالقطـة البلدية الماهرة، من أجل البغـل يراوغ كالثعلب المزود بقوة ويقفز كالفهد على حارس المرمى الضخم المتحول إلى أرنب: جووول...

مارادونـا يرسـم علامـة الصليـب، يبوس الأرضـ، يقف يحاصر، يفلت كالصـوت، يقطف الكرة، يحاصر، يمرر الكرة

جاهـزة علـى شكل هديـة إلى قدم زميـل ساعده فـي فتح قلعة الدفـا ع، فيصوبها الزميل الماهر في اتجـاه المدى والجمهور، مارادونا يصفق من الوجع...

إن هـو لم يسدد ستمـوت الأرجنتين من البـكاء، وإن هو لـم يصـوب، سترفـع الأرجنتيـن نصبـاً لعارها فـي الفوكلاند سيتوقف الشعور القومي عن الرقص، وستربح إنكلترا المغرورة الحرب... مرتين...

ولكن مارادونـا يتقدم بالكرة من حيـث تراجعت السلطة مارادونـا يعيد الجزيـرة إلـى الأرجنتيـن، وينبـه الإمبراطورية البريطانية إلى انها تحيا في أفراح الماضي... الماضي البعيد.

****

مـا هي كرة القدم هذه؟ ما هذا السحـر الجماعي الذي لم يحل لغزه الشائع أحد؟

مارادونـا لا يسأل غريزتـه. سقراط البرازيلـي هو المفكر المشغـول بتأملات ميتافيزيقيـة حول الضربـة الركنية، وزيكو يلاحـق كابوس ضربـة الجزاء التي طارت مـن الملعب فطارت البرازيل مـن الحلم... وبلاتيني يحسن شـروط التقاعد، وبيليه الخبيث يجاهد لإخفاء الشماتة التي تصيب الملوك المخلوعين، ولكن مارادونا يعرف شيئاً واحداً، هو أن كرة القدم حياته وأهله وحلمه ووطنه وكونه...

منـذ طفولته الفقيـرة في كوخ من تنك، تعلـم المشي على

الكـرة، كان يلف كـرة الخيطان حول علـب الصفيح ويلعب، ولعـل الكرة هي التي علمتـه المشي، مشى مـن أجلها ليتبعها، مشى ليلعب بها، ومشـى ليسيطر عليها، لقد تمحورت طفولته حول كرة الخيطان إلى أن ضحى أبوه براتبه الشهري ليشتري له كرة قدم حقيقية...

وانطلق... ليكون أصغر لاعب فـي منتخب الأرجنتين... وهكذا ارتفع مارادونا ـ الولد المعجزة ـ من أشد البيوت فقراً إلى أوسـع الآفـاق، إمبراطوراً على كرة القدم، لـم يكترث في صباه بشاشة السينما والتلفزيون ولكنه احتل الشاشة ليشاهده أكثر من ملياري إنسان، كما ترنو العيون إلى نجم يخطف السماء بقدميه. لقد رفعته الكرة وارتفع بها على أعلى الأعالي الكلام.

****

مارادونـا هو النجم الذي لا تزاحمه النجوم، دانت له بقدر مـا دان، هو لكرة القـدم التي صارت كرة قدمـه، النجوم تبتعد مـن منطقة جاذبيته لتفتتن بما تراه مـن الجهات كلها، لتبهر في معجزة التكويـن، تصلي للخالق والمخلـوق لتحتفي بحرمانها المتحقـق في غيرها، لتنشد نشيد المدائح لمن جعلها تهزم بهذا الامتنان: فما أسعد من هزمته قدم مارادونا...

هـذه القدم، قـدم مارادونا، مع كعـب ميثولوجي آخر هو كعـب أشيل... همـا أشهر قدمين في تاريـخ الأسطورة، فلماذا نخبئ التساؤل المكبوت الـذي يوقده فينا هذا الجنون الجميل

الـذي تنشره كرة القدم، كالعدوى، فـي ملايين البشر؟ لماذا لا تكـون كرة القدم موضوعاً للفـن والأدب أكرر: لماذا لا تكون كرة القدم موضوعاً للفن والأدب؟

ولمـاذا لا يتعامـل الأدب مع هـذا البـارود العاطفي الذي يشعـل الملايين فـي علاقاتهـا بالمشهد الذي يحولهـا هي إلى مشهـد درامـي؟ ثم: أهنـاك عذاب أشـد، ووحشيـة أقسى من عـذاب حارس المرمـى، ووحشيـة الكونية أمـام ضربة جزاء، وهنـاك ضغط نفسي أثقـل من ضغط الوقـوف الدقيق على وتر النجـاح أو الفشل والتحكم بمصيـر الأمة المعنوي، حين يقف الهداف الماهر لتسديد ضربة جزاء؟ أليست هذه اللحظات أشد قسوة ورهافة وتفجيراً للعاطفة الفردية والجماعية من اللحظات التي يواجهها «مقامر» دوستويفكي مثلاً؟

مـا هي كـرة القـدم؟ هي شيء مـن صـراع التأويلات، ومسرح واقعـي لتعديل موازين القـوى أو المحافظة عليها، لخلـق مستوى آخر للواقع أو تثبيته، هـي شيء من لعبة إعادة تركيـب العالم على أسـس مختلفة، وعلى جـدارة مختلفة، حرب يمارس فيها خيال الشعوب دوره الغائب أو الحاضر، لا أحـد يتفرج على سباق الأجساد والمهارة والذكاء المعبرة عن طبائع الأمم في الهجوم والدفاع، في العنف والرقص في الفرديـة والجموعية، الجميع ينخرطـون، ولعل المشاهدين هـم أشد اللاعبيـن اندفاعاً لأنهم يدفعـون بتاريخهم النفسي وتأويلاتهم ورغباتهم في التعويض إلى الملعب، لرفع اللعبة إلى مستوى التعبير التمثيلي المتخيل عن روح الأمة وحاجتها

إلى التفوق على الآخر. هو الوطنية المتفجرة شرارة الإفصاح عن الباطن في علاقته بالآخر... وهي حرية الإفصاح المتاحة عـن الذات المحرومـة من الإفصـاح في سيـاق السياسة أو الجنسـ أو اللون، هي انفجار حريـة تعبير عن حرية غائبة أو عن سيادة تسعـى لأن تواصل سيادتها، هي شيء من الصراع الاجتماعي أحياناً. وعن وحـدة القوى الاجتماعية الداخلية في صراعهـا القومي مع الخارج أحيانـاً أخرى، هي المتاح للتعبيـر والتنفيسـ والتظاهـر ضـد قمـع يتحـول الحكم أو المـدرب فيه إلى رمز لحاكم ظالـم أو لقضاء غير عادل حين تتخذ محاكمة الهزيمة شكل محاكمة السلطة، أو حين يتخذ الانتصار شـكل التدليل علـى أن روح الشعب ووحدته هما اللتـان انتصرتـا وأنهما لا يتحمـلان المسؤوليـة عن هزيمة عسكريـة ليست حتميـة، وأحياناً تتخذ اللعبـة معنى الانتقام الجماعـي أو التعويض الجماعي عن عدم التكافؤ في موازين القـوى بين دول كبرى ودول صغرى، وباختصار فإنها تمثل ما تبقى من إجماع حول فكرة أو حماسة أو قوة أو هدف.

إنها حرب التأويـلات ومن مظاهرها: الوحـدة الأوروبية المفاجئـة حـول ألمانيا في المباراة النهائيـة التي اتخذت شكل الصـراع الأوروبي ـ الأمريكـي اللاتيني، بينما لـم يعبر «العالم الثالـث» عـن وحدته. وقد يحمـل هذه الدلالـة انحياز الحكم البرازيلي للسمسار المستلب الذي بذل جهوداً طائلة للحصول على البـراءة الأوروبية من تهمة محتملـة لأن مقياس النزاهة هو مقياسـ أوروبي، فغض الطرف عن المخالفات الألمانية الفظة، وعاقـب مارادونـا بقسوة زائـدة، فذكرنا بأن العالـم الثالث لا

يتوحـد حول ذاته بـل يوحد استلابه أمـام السيد، إنـه يرنو إلى نموذجه الآخر، إنه يتملـق «غربة» ولا يحب لطرف من أطرافه أن يساويه بغير الهزيمة.

****

لكـن مارادونـا كمـا استقر فينـا، خفف مـن انسياق هذه التأويـلات إلـى ما هـو أبعد، لقد رفـع كرة القدم إلـى مستوى التجريد الموسيقي الشفاف، رفعه إلى مستوى الطهارة المطلقة، لم يحرك فينا العاطفة القومية فهو ليس منا، ولم يحرك فينا وحدة التضامن مع العالم الثالـث ممثلاً في الأرجنتين التي لا تريد هذا الانتماء، وتستمرئ تبعيتها المثقلة بالديون والعنصرية الرسمية، ولكنـه حرك فينا حاسة الدفاع عن النفس أمام هجوم الإشارات العنصرية الغربية، ومنها تعليقات التلفزيون الفرنسي.

لعـب مارادونا من أجل اللعب، وحول كرة القدم إلى أغنية راقصة مزيج من السامبـا البرازيلية والتانغو الأرجنتيني لا يمكن إيقافه ـ كما لا يمكن للملك الأحمق أن يوقف موج البحر، هكذا يقـول الخبراء الرياضيـون الذين وجدوا فـي المرجعية الشعرية اللغـة الوحيـدة القادرة على وصـف هذا الشيطـان الملائكي، صانع الفرص، نشّال ما هو موجود في كل مكان حول الملاعب المكسيكيـة إلى مرتعه الخاص، المونديـال هو مارادونا، قوي كالثور، سريع كالقذيـف، يدخل الملعب كأنه داخل إلى كنيسة يغربل الدفـاع ويهدف، نجم هذا العصر لم يجد الأطباء دماً في عروقـه ـ سيجدون وقود الصواريخ يمر كالهواء عبر المساحات

الضيقـة، ملك الكرة المُتوج الـذي قال: سجلت الهدف الأول في مرمى الإنكليز بيد الله وبرأس مارادونا.

****

مارادونا، يا بطلي، إلى أين نذهب هذا المساء؟

مارادونـا، ساعد أبويك، ساعدنـا على تحمل هذه الحياة، وساعد هذا العصر على الخروج من السأم والدخول في الحنين إلى البطولة الفردية.

مارادونا، متـى تحمل اسمك عن شفاهنا لنعـود إلى قراءة هيغل ونيتشه؟

مارادونا، مارادونا، مارادونا...

حـوار شامل مع محمود درويش

قام الشاعر محمـود درويش مؤخراً بزيارة مدينة هلسنكي عاصمة فنلندا، حيث أمضى فيها بضعة أيام، أجرى خلالها عدداً من اللقاءات الأدبية وألقى عدداً من قصائده خلال أمسية نظمها مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة الفنلندية.

وخـلال إقامتـه القصيرة هنـاك، أجرى محمـود درويش مقابلات إذاعية وصحافية عدة، حصلت «البلاد» على حق نشر أبرز الأسئلة والأجوبة الواردة فيها، وفيما يلي النص الحرفي:

×× لقـد وجدت في شعـرك أوذيسيوس لماذا استخدمت هذا الاسم؟

– علـى المستـوى الشخصي أنـا متأثر جـداً بالتراجيديا الإغريقية وفي الحالة الفلسطينية المعاصرة، حالة التيه والرحيل والطريق الطويلة للعودة إلـى الوطن، استخدم الأوذيسا كخلفية مثولوجية تاريخية لحالة إنسانية حاضرة، وأنا أعتقد بأن الأوذيسا الفلسطينيـة أكثـر مأساويـة، لأن رحلة أوذيسيـون وتيهه انتهى

بتدخـل بعض الآلهة لإنقـاذه وعودته إلى الوطـن أما في الحالة الفلسطينية فالرحلة أطول جداً وفيها الكثير من الضحايا، والآلهة لا تتدخل لإنقاذ الفلسطيني التائه في البحر ـ هذا الترابط أو البُعد المثولوجي التاريخي يجعل الفلسطيني متفوقاً في عذاب رحلته وطبعاً من الصعب أن نجد تطابقاً دقيقاً بين أوذيسيوس الإغريقي وأوذيسيوس الفلسطيني، ولكن شروط الكتابـة الشعرية تثري وتغني عن طريـق استخدام بعض الأساطيـر القديمة، نحن أكثر مأسـاة وعذاباً مـن أوذيسيوس وطريقنا أطـول. ولذلك أرى أن التراجيديـا الإغريقية هي تراجيديـا موجودة في النص، وليست في الحياة، بينما مأساتنا هي مأساة معاشة وموجودة كل يوم.

×× أين الشعب الفلسطيني في الأوذيسا؟

– الشعـب الفلسطيني موزع بين الحلم والصحراء والبحر هذه الصور الحالة الجاهزة أو المتخلية ولكن الشعب الفلسطيني أيضاً موجود على أرضه ويخوض معركة صمود كبيرة جداً وإذا أردنا أن نبحث عـن تشابه مع الأوذيسا فهذه بنيلوب ـ موجودة في الأرض المحتلة لأنها تمسك الأرض بيديها، وتنتظر الفارس الذي هو أوذيسيوس، ولكن الفارس قد اضطرت سفينته الدخول في بحار جديدة.

(بنيلـوب) هـي المرجع العاطفـي للفلسطينييـن ـ وموطن حلمهم.

×× بنيلوب امرأة وتخيلها كأم أمر مهم للفلسطينيين وذلك لوجود علاقة بين الأم والوطن؟

– هـذا صحيح فـالأم تلخص كل معانـي الوطن والعائلة، والأم هـي المرجع الإنسانـي والحقوقي للسـؤال الفلسطيني، لذلك الفلسطينية هي المرجع العاطفي لكل الفلسطينيين وموطن الحلم لكل الفلسطينيين، ومن هنا البعد القدسي الذي يميز نظرة الفلسطينييـن نحو بلادهم، وهـي الأم الباقية التي يتغير أزواجها وخطابها ولكنها لا تتغير فهـي تنتظر أبناءها ومهما يتغير سكان الأرضـ الفلسطينية التي هي الأم فإن هوية هذه الأرض ما زالت كما هي، إنها أرض فلسطينيـة تنتظر الفلسطينيين مهما يتكالب عليها الغزاة أو الخطاب العابرون.

×× وأفهـم، توجد لدي أسطوانـة لمارسيل خليفة ما هو رأيـك فيها؟ وأرجو أن تلقي الضـوء على قصيدة الأم الموجودة في هذه الأسطوانة؟

– أحب أن أوضح لك كيف كتبت هذه القصيدة... سجائر فـي سجن الرملة الإسرائيلي في العام 1964، كنت سجيناً هناك لمـدة ثلاثة شهور، وكانت بالنسبة لي فرصة الدخول إلى نفسي وإلى شؤوني العاطفية والإنسانية الصغيرة، اكتشفت في السجن أننـي أحـب أمي أكثـر مما كنت أعـرف، فكتبت هـذه الأغنية كمخاطبة خاصة بيني ونفسي وأرسلتها في رسالة إلى أمي، ولم أكن أعرف في ذلك الوقت أن هذه العلاقة الخاصة بين أم وأبنها أقوى مني، وأصبحـت أسمى بها بمعنى هي تطورت مثل الولد المتفوق على أبيه، وأصبحت ذات شخصية مستقلة أقوى مني، وهذا يثير فيّ أحياناً الاعتـزاز بهؤلاء الأولاد الذين استطاعوا أن يستقلوا عن أبيهـم ولكن في بعض الحالات يكون هناك ولد لا أحبه كثيراً، لا أحقد عليه ولكنني أتمنى أن ينمو غيره.

×× هـذا يحدث للأشعـار التي تغنى ويمكنهـا أن تأخذ طريقها إلـى الحياة بمفردها... أو القصائـد الملقاة، فقد تأخذ شهرة أكبر من شهرة القصائد المكتوبة...

– أنـا لا أتكلم عن الأغاني، انمـا أتكلم عن الشعر نفسه. مـا يفعله المغني هو أنه يفتـح الطريق أمام القصيدة، أي أنه سهَّل انتشارها وهو لن يخلقها من جديد، أي أنه يصبح وسيطاً ممتازاً، جسـراً ممتازاً بين الناس والقصيـدة، ولكني أتكلم عن القصائد غيـر المغناة، القصائـد الأدبية التي تستقل بهـذه الطريقة، إذن، المغنـي كان له دور وسيط، دور وسيط مبدع، أي أنه يعيد خلق العلاقة بين القصيدة والناس.

وعندمـا ألقي قصائدي تسهل طريقـة إلقائي المباشرة على القـارئ فهم واستيعـاب القصيـدة ـ عندما يقرأ كثيـر من القراء قصائـدي المكتوبة لا يفهمون أسرارهـا وعالمها الداخلي كما يفهمونها بعد أن أقرأها عليهم.

إذن للإلقاء أيضاً طريقة عامل مساعد يسهل أيضاً العلاقة بيـن القصيدة والمتلقي. فالكلمـات على الورق هي أشكال ميتة والقارئ العربي المتوسط الثقافي لا يعرف أين يقف في أي مقطع يقف. وكيف يقرأ وكيف يشكل، هناك مشاكل تقنية تتعلق بثقافة القارئ حل كلها عندما يسمع القصيدة بأذنيه وليس بعينيه...

×× إن شعرك ليس سهلاً؟

– أنا لست شاعراً سهلاً... لقد كنت، أما الآن فأنا استخدم الخلفية الكلاسيكية والطريقة الحديثة في الكتابة...

من الظلم أن نضحي بالثروة الموسيقية لنكتب شعراً منثوراً

×× أنـت تنتمي إلى مَن مِن الشعـوب ولقد ذكرت شعباً عنده تقاليد شعرية جميلة لا توجد عند كثير سابقاً أن هذه التقاليد قد ضاعت اليوم. أنا قابلت صبياناً في الصحراء تتراوح أعمارهم بيـن 15–17 سنة، ورغم أنه كان واضحاً أنهم لم يكونوا طلاباً فـي المدارس، إلا أنهـم يعرفـون الخنساء والمتنبـي وغيرهما ويمكن أن يلقوا بعض القصائد، وهم يعرفونهم ويحيونهم ولقد شاهدت ذلك في الواحات في الصحراء...

– أنا لا اعتقد أنه يمكن للشاعر العربي المعاصر أن يكتب شعراً حديثاً ما لم يكن مستوعباً لكل شعره القديم، لأنه لا يمكن للإنسان أن يطوّر شيئاً من فراغ إذا لم يكن مستوعباً استيعاباً كلا من ثقافتـه القديمة. وبالتالي فهو لا يستطيـع أن يؤسس حداثة، ومن مشـاكل الشعـر العربي الحديـث الذي يكتبـه الكثير من الشبـان الآن أنهم يدخلون في الشعر الحديـث دون أن يكونوا قـد استوعبـوا تراثهـم القديم. وبالتالـي يكون شعرهـم ركيكاً وضعيف البناء. لذلك فإن شرط الحداثة هو أن تقف على أرضية الكلاسيكية الثقافية العربية المعمقة، وأن يكون الشاعر مستوعباً لأرقى أشكال التعبير الثقافي الموجود في العالم المعاصر يجب أن نستفيـد مما وصل إليه الشعر عند شعـوب أخرى، إذن علي أن أقـوي معرفتي بتراثي القديم، أقـوي علاقتي بالشعر العالمي

الحديــث، فهذا المزيج، هو الــذي أعطى لشعري بعض عناصر القــوة منها وأهمهــا أنني لا يمكن أن أتخلى عــن الموسيقى في الشعــر، إن الشعــر العربي يتمتع بثروة موسيقيــة لا يتمتع بها أي شعر بأية لغة أخرى في العالم، ومن الظلم أن نضحي بهذه الثروة مــن أجل أن نكتــب شعرنا منثوراً كما يفعــل الكثير من الشباب العربــي الآن، لأنــه لا يمكن أن يكــون للشعر الحالــة أو الهوية نفسهــا دون موسيقى، لأن الصورة الشعرية والموسيقى هما من شروط نجــاح القصيدة وجوهرها جوهــر الشعر هو الموسيقى والصورة. فأن نتخلى عن هذه الثروة الموسيقية من أجل محاولة تجريبية نثرية، هذا عبــث، وفي رأيي هو جهل. وفي ذلك ردي على سؤالــك، أقول إننــي متمسك بكثير من عناصــر القصيدة العربية القديمة وفي مقدمتها التفعيلة ـ والأوزان ـ والموسيقى.

×× ما هي اللغة التي تستخدمها في الكتابة؟

– أكتــب باللغــة العربيــة الفصحــى، وأنا لا أتقــن الكتابة باللغة العامية، ولــن أحاول أن أكتب بالعامية، لا أحب أن تسود العاميــة الكتابة الأدبية المعاصرة، لأن اللغة العربية الفصيحة هي لغــة واحدة ينطقهــا كل العرب، وهي لغــة الأدب العربي، ولغة الصحافــة العربية، ولغة وسائل الإعــلام العربية، بينما اللهجات العاميــة هي مئات اللهجــات، وأنا لا أستطيــع أن أفهمها، فهي تشكل أيضــاً عقدة أمام التواصل والتفاعــل الأدبي العربي بينما اللغــة العربية الفصحى، هي لغة ليس ما يقــال عنها إنها لغة ميتة وفات عليها الزمن، بالعكس، إنها لغة مرنة جداً وقابلة وتستطيع أن تستوعب كل المعانــي الثقافية والفكرية المعقدة المعاصرة، ستتحول إلى أغنية يغنيها كل الناس.

إذن هـذا مـا يفعله الشعـر، يحول الخاص السري إلى ملكيـة جماعية عامة، عندما عبرت عن حبي الشخصي لأمي لم أكـن أقصد أن أعبر عن حب الملاييـن لأمهاتهم، ولكن هذا ما حدث عندما تحولت هذه العاطفة إلى صياغة أدبية، ثم إلى أغنية يغنيها مغن ذو صوت جميل...

×× كيف حصل مارسيل خليفة على الأغنية؟

– قابلتـه بعد أن غناها، كان يعيش فـي باريس، وفي تلك الفتـرة لم يكن أحـد يعرف عنه شيئاً، وهـذه الأغنية جعلته فناناً مشهـوراً، وهذا قانون المغني الجيد، يحول ويجعل الشعر أكثر سهولة ووصولاً إلى الناس...

×× ما هي الطريقة التي تستعملها عندما تكتب؟

– حاولـت كثيـراً أن أعـرف ما هـو أسلوبي فـي العمل، طبعاً ليس لـدي نظام محدد للعمل، ولكن مـن مراقبتي لنفسي ولطريقـة عملي لاحظـت أنني اكتب في الصبـاح وأعرف أنني ممتلئ بالشعـر عندما تسبق انبثاق القصيـدة أو تحرك القصيدة حالة مرضية جسدية، أشعر بتوتر شديد وقلق شديد وشبه أوجاع وأشعر بإحباط كبير وفي تلك اللحظة أكتب كي أعالج نفسي.

وأعتبر أن الشعر في البداية نوع من المعالجة الذاتية للكآبة والاكتئـاب الـذي يصيبنـي، وعندمـا أدخل في عمليـة تتحول المسألة إلى مسألـة أكثر تعقيداً وأكثر مسؤولية، إذن إن طريقتي فـي الكتابة أنني لا أجلس إلى مكتبـي إلا عندما أشعر أن شيئاً ما فيّ يريد أن ينفجر كما قلت إنني أكتب في الصباح.

×× وماذا بعد الانتهاء من كتابة القصيدة؟

– عندما أنهي كتابة القصيدة، وبعض قصائدي عشت معها شهوراً، ولكن عندما تنتهي الكتابة أنظر إلى النص بخوف شديد وأضعـه في الـدرج، أخبئه عن نفسي، وأعـود بعد مدة لقراءته، فـإذا كان يشبهنـي كثيراً أو يكـرر أشياء قلتها فـي السابق فإنني ألغيه أو أعيد كتابته من جديد، إذا كان فيه ما يثير التحريض على الكتابـة، وإذا شعرت أنـه ليس أنا من كتبت هـذا النص، أي أنه جديد حتى علي نفسي، فإنني أشعر أنني نجحت، وأنني أضفت تجربة جديدة إلى عملي الشعري وإلى مجموع الحركة الشعرية التي أنا جزء منها.

بعض قصائدي هرب إلى الناس ولم أحاول استرداده

×× ذكرت سابقاً أن أشعارك أولادك... هل ينتابك شعور بأن بعض أولادك قد أشتد عوده وتـركك ليشق طريقه وليأخذ مكانه في الحياة مستقلاً، أم تشعر أنهم ما زالوا ملكك؟

– سـؤال جميل، أنا لا أعتبر أن قصائدي كلها أولادي، هـذا قول شائع، وكل الناس تتعـارف على القول إن القصائد هـي أولاد الشاعر، ويمكنني أن أقبل ذلـك، ولكن لا أحب كل أولادي، الجانـب المهم في سؤالك هو أن بعض الأولاد يطور نفسـه ويستقل عن أبيه، هذا صحيـح مئة بالمئة بدليل «أن كثيـراً من القصائد لا أريدهـا ولكنها دخلت في وجدان النـاس على نحو لا يمكنني معه أن أحـاول استردادها، لأنها

لم تعد ملكي ومن قصائدي المشهورة في هذا المعنى قصيدة ـ سجـل أنا عربي ـ هذه القصيدة حاولـت أن ألغيها من كتبي ولكنهـا استقرت فـي قلوب الناسـ لدرجة أنني لـم أستطع مقاومتها، فاستسلمت لها».

الأندلس ذاكرة جمالية وحسرة

×× ما هي علاقتك الخاصة بالأندلس؟

– بصراحة أنا لا أعـرف الأندلس، أنا أعرف الأندلس في قلبـي، والأندلـس بالنسبة لي هي ذاكرة جماليـة وليست ملكية حقوقيـة، والأندلـس أيضاً هي أحـد الأبعاد التـي أستعملها في التعبيـر عن حلم كل شاعر في العالم في داخله شيء ضائع، شيء مفقـود، أو باختصار كل شاعر عنـده أندلسه الخاصة، وهذا ما يفسر حزن الشاعر وتأرجحه ما بين ماض ومستقبل.

×× هل يمكن القول إن فلسطين هي أندلس أخرى؟

– هـي أندلس من حيث أنها تشكل طفولتنا وأيضاً تشكل حلمنا، ولكـن فلسطين أندلـس ممكن الاستعـادة، بيننا ذاكرة جمالية وحسـرة يملكها كل إنسان وليس شرطاً أن يكون عربياً أو إسبانيـاً وحسـب، إنهـا ملكية جماليـة عامة للتاريـخ، بينما فلسطين هـي أندلس يمكن أن تعود إليهـا، يمكن أن تستردها، وهـذا ما يشكل الفرق بيـن الأندلس التي ينظـر إليها من خلال صراع، والأندلس التي ينظر إليها كحنين...

عندي طموح كبير جداً أن أزور الأندلس، زرت إسبانيا مرات عدة، ولكن أريد أن أذهب إلى الأندلس، لكي أبحث عن التشابه بين الصورة التي أحملها عن الأندلس، والأندلس على أرض الواقع، الأندلس عندي هي معرفة ثقافية، أعرف تاريخ الأندلس وحضارة الأندلس، ولكني لم أزرها، وهذا يذكرني بـ- بزيه - الذي كتب موسيقى كارمن، لم يزر إسبانيا، كتب أجمل موسيقى عن إسبانيا...

أبحث عن وطن ومنفى وقبر

×× أنت غير مسموح بدفنك في بلدك؟

- معين بسيسو أحد أصدقائي كنت في القاهرة أشرب قهوة وأقرأ جريدة - الأهرام - وفي الصفحة الأخيرة قرأت - معين بسيسو في لندن - ظننت أنه قدم أمسية أو محاضرة شعرية، وبعد أن قرأت الأخبار السياسية رجعت لقراءة الخبر ووجدت أنه مات في أحد الفنادق في لندن، فصدمني الخبر لأنه لم يكن يعاني من أي مرض، وكانت صحته جيدة وبلغ من العمر 56 عاماً...

وظهرت المشكلة أين يدفن معين بسيسو، حاولنا عن طريق مصر أخذ موافقة إسرائيل لدفنه في مدينة غزة، ولكن الإجابة كانت سلبية وتباحثنا مع عائلته ومع قيادات منظمة التحرير الفلسطينية، وبعد ذلك أعطتنا مصر مكاناً صغيراً في الصحراء بالقرب من القاهرة، دفناه هناك، ومنذ ذلك الوقت

عانيـت الكثير من هذه المسألـة، وأصابتني نوبات قلبية متعددة في فيينا، وشعرت كأنه يناديني للحاق به.

وما زلت أفكر في هذا السؤال: أين أموت؟ لقد قضينا أكثر من عشـر سنوات سوياً نبحث عن الأرض ـ الوطن وبعد المنفى نبحث عن القبر، وهذه التراجيديـا الفلسطينية نبحث عن وطن وعن منفى وعن قبر...

تونس، ليسـت المحطـة الأخيـرة لنـا، والـدول العربية الصديقة لا تسمح لنا بالعيش بينها، المأساة أننا كنا نحلم بالعيش في وطننا، والآن نحلم بالموت في وطننا، ولكن الجيل الجديد سوف يتابع أحلامنا.

حوار مع محمود درويش
نبحث عن وطن وإقامة قبر
أحاول إنجاز قصيدتي التي لم أكتبها حتى الآن

لـو سئلت عمن يمثـل الحداثة الشعرية العربيـة الآن أفضل تمثيل وأبلغ تمثيل لأجبت إنه محمود درويش.

لـو سئلت أين يقـع المرء اليوم على صـورة فلسطين وسط بحر المؤامرة والتزييف، لأجبت في شعر محمود درويش.

فمحمـود درويش هو رمـز الحداثة الشعريـة العربية، كما نحلـم بها وكمـا نريدها، ومحمـود درويش هو رمـز فلسطين وضميرها وروحها.

وخلال مهرجان المربد الشعري السادس الذي عقد مؤخراً في بغداد، خصصت لمحمود درويش أمسية شعرية كاملة يحتاج وصـف ما تخللها من حب وحماسة لشعره ولقضيته، إلى مقالة خاصـة. بعد هذه الأمسية قال كثيرون: كانت ليلة تاريخية وقال

آخـرون، لقد رد للشعر اعتباره، وأضاف من أضاف: إنه ضمير القضية الفلسطينية كما هو ضمير القضية العربية.

ومحمود درويش بالإضافة إلى أنه شاعر القضية الفلسطينية، هـو شاعر الحداثة العربية ونموذجهـا الأصيل والأرقى والأبقى ليسـت الحداثة عند محمـود درويش كيداً أو اغترابـاً أو تقليداً لحداثـة أحـد. يرى محمـود درويش كما نرى نحـن، أن لدينا من التاريـخ الشعري والمجد الشعري ومـن الشوق والطموح للانتماء للعصر ما يكفي لتحقيق ألف حداثة.

فـي بغداد، وخلال المربد، التقينـا محمود درويش مراراً، الفتـى الفلسطيني ما زال نضراً شيقاً، ما زال حالة شعرية قبل كل شيء، الشعـر يفيض منه كما يفيض النثر من سواه، ولأن الحوار كان عفويـاً، فقـد شمل كل ما خطر في البـال ولم يخطر وهذه صورة له.

×× سألـت «الحـوادث» أيـن محمود درويـش؟ كيف يفكر؟ هل تعب من الشعر؟ من النضال؟

– قال محمود درويش: يعجبني كثيراً أن أسأل عن أخباري الشخصيـة والأدبية، أنا ما زلت في الطـرق التي تصب في مسار واضـح إلـى حـد ما وهـو علـى المستـوى الأدبـي، أن أحاول الاقتـراب مـن إنجاز قصيدتي التـي لم أكتبها حتـى الآن. كل ما كتبته مقدمات لكتابة هذه القصيدة التي اعتبرها نشيدي الطويل. ولهـذا المستوى، ما زلت أحـاول أن أواصـل تطوير شخصيتي كشاعـر، وشخصيتـي كإنسان فلسطيني منخـرط في الدفاع عن الحلـم الفلسطينـي، منخرط في الدفـاع عن الحلـم الفلسطيني

وعن أدوات إنقاذ هذا الحلم مما يتعرض له من محاولات إحباط وتغييب، لماذا أركز على كلمة حلم؟ لأنني أعتقد أن مرحلة الحصار الحالية تستهدف إصابة الحلم الفلسطيني في الصميم وخلعه من صلب الضمير والاهتمام العربيين، وتحويل القضية الفلسطينية في الوعي العام إلى قضية ثقيلة ومملة. إن الضجر هو أحد الأسلحة التي يتعرض لها الحلم الفلسطيني لفك اشتباك العرب مع هذا الحلم، وبالتالي أشعر بأن مهمتي كأحد المؤمنين والمدافعين وأحد حراس هذا الحلم أصبحت أكثر صعوبة مما كانت في السابق، لأننا الآن مطالبون بالبرهنة على شرعية الحلم الفلسطيني ليس للعالم الغربي، وإنما للعالم العربي، وبالتالي تتعدد مستويات نشاطي ولا تأخذ دائماً شكل الهم الأدبي الأول بقدر ما تأخذ أيضاً هم الدفاع التعبيري والإعلامي وأشكال الدفاع الأخرى خارج الأدب، وعلى مستوى الشعر أظن أن مرحلة ما بعد «جمهورية الفاكهاني» كما أسميها بغضٍ النظر عن تقييم صوابها أو خطأها، أتاحت لي فرصة العودة قليلاً إلى الذات والتأمل في عمق الأشياء وفي عمق النفس، وهذا هو السبب الذي شكل عودة أصفى إلى الغناء في شعري، لأنني أشعر أنني كمواطن مدعو للرد كل التحديات اليومية التي تمر بها قضيتي.

إلا إنني أتعامل الآن مع معركة الدفاع عن الروح وعن الحلم، وهذا طبعاً يؤثر على شفافية القصيدة، وتقترب الآن قصيدتي من التلخيص الأكثر، ومن مراجعة تجربتي الشعرية بكاملها في علاقتها بتجربة الشعر العربي الحديث كله.

وكما ترى، وأنت أحد المراقبين لتطوري أو نموي الشعري، أنني أحاول أن أؤسس في شعري كلاسيكية حديثة

للخروج من مـأزق شعري الشخصي، وأقتـرح مشروعاً على زملائـي للتعامل مع الحداثة تعاملاً أكثـر ارتباطاً بتاريخ الشعر العربـي نفسه، إذن أنـا على المستوى الشعري مـا زلت قلقاً، وهـذا القلق يولد عنـدي شحنة إذا جاز التعبيـر، على مستوى المواطنة أنا أشـد قلقاً لأن الحلم والروح الفلسطينيين مهددان بأسلحة عربية الآن، وعلى المستـوى الصحي، صحتي أفضل بعـد أن مـررت بالأزمـة القلبية الخطـرة، فأنا ما زلـت أطور مستويات شخصيتي الوطنيـة والأدبية، وأنا إلى حد ما أستطيع أن أقول إنني ما زلت بخير.

×× «الحوادث» في البداية كنت شاعراً رومانسياً بأدوات فنية وشعرية بسيطة ومتواضعة، ومع الوقت اغتنت التجربة وقيل تعقدت وللتعقيد مؤثراته المختلفة، هل يمكن أن تلقي نظرة على تجربتـك الشعرية الأولى وصولاً إلى تجربتك الشعرية الحالية؟ وما هي خططك الشعرية للمستقبل؟

– محمـود درويشـ: هـذا صحيـح، أنـا بـدأت شاعراً رومانسياً ليس بالمعنى التاريخي لكلمة رومانسية، إنما كشاعر يستعمل أدوات غنائية بسيطة للتعبير عن عمر تجربته، وتطورت رومانسيتي من رومانسية حالمـة إلى رومانسية ثورية أو نضالية ثم تعقدت أشكال تعبيري إلى أن أوصلت إلى ضرورة طرح مثل هذا السؤال.

طبعاً أنا مثل أي شاعر آخر في أي زمان وفي أي مكان ابن ظروفي التاريخية والاجتماعية، وطبعاً مسيرة حياتي الشخصية والعامة تترك آثارها الكبرى على انعكاساتها الفنية، تعبيري الفني

هـو انعكاس لهذه المسيرة، إنه ليـس انعكاساً سهلاً بسيطاً، إنه انعكاس أكثـر جدلية وتعقيداً، والظروف التاريخية التي مررت بهـا مـع شعبي مـن بساطة الوعي حـول مفهوم حريـة وطني، الوعي القومي المبكر لهذه المسألة، الوعي السهل كما أسميه، إلى الوعي الأكثر تعقيـداً، إلى مواجهة التجربة الصعبة المعقدة واختـلاط عقبات تحقيـق الحلم العربـي الفلسطيني بمعوقات داخلية وعربية تتصل أحياناً إلى حد التساؤل عن الخلل العضوي الموجود في البنية العربيـة. وطبعاً بهذا المعنى، بمعنى الوعي، تصبـح فلسطيـن أبعد مما كانت فـي السابـق، وبالتالي تصبح القصيـدة أكثر شقـاء ومعاناة في سيرها علـى الطريق المجازي كما نسميه، طريـق فلسطين، لا بد لكل نشيد، لكل قصيدة في العالـم من طريق ما، وهذا لا يتعلـق بإقليمية الشعر أو وطنيته أو قوميتـه، وإنما لا بد من مسار طريق لأي غناء الغجري المسافر مـن قرطبة إلى إشبيلية، هذا أيضاً له طريـق اللبناني المسافر إلى الجنـوب له طريق، لا أعني بذلك أننـا نضع الشعر في قوقعة أو فـي صدفـة إقليمية أو محليـة، ولكن لا بد للشاعـر من رحلة. فالرحلة الفلسطينية بسبب الظروف التاريخية والعربية المعقدة أصبحت أصعب.

هـذا على المستوى الموضوعي، أما على المستوى الذاتي فـلا شـك أن شخصيتي قد تغيـرت. لا أعني بأنهـا تغيرت أنها انقلبـت على ذاتها أو راجعت نفسهـا، تغيرت بمعنى تطورت، فطبعاً هناك فرق بين شاب دون العشرين وبين رجل في الأربعين، أي من مداركي وحقوق معرفتي وتجاربي الشخصية، وثقافتي، قـد أوصلـت قصيدتي إلـى مراحل أكثـر تساؤلاً عـن الجانب

المعرفـي للشعـر، ولم تعد القصيـدة هي خدمة مباشـرة لقضية وطنية أو قومية، إنما أصبح لهـا استقلالها، أو معادلها المستقل لمـا نتحدث عنـه، لأن القصيـدة عالم مستقل عـن موضوعها أحيانـاً كبناء وكشـروط وكأدوات عمل. فأنـا لا أعبر فقط عن الموضوع، ولا عن درامية هـذا الصراع فقط، إنما أيضاً أشتغل علـى مستوى تطوير قصيدة عصري، القصيـدة العربية، أنا أحد المطالبيـن بالمساهمة في تطويرها وفـي خلق التوازن إذا أمكن التعبير، بين اتجاهين يهددان القصيدة العربية الآن، وهما السلفية المغرقة في إنكار التطور التاريخي الذي نعيش فيه، ومسار آخر هـو مسار ما أسميه بالفوضى العدميـة التي تقترح على القصيدة باباً واحداً للمعاصرة، هو أن تنقطع عن تاريخها.

إذن مسؤوليتي كشاعر أن أكون طرفاً في هذا الحوار المقلق بأحد مكونـات الروح العربية هي الشعـر. ومهما تسرّع النقاد الحديثـون، أو الشبـان، في استرداد مكانـة القصيدة العربية من الوجـدان العربي، فإنهم برأيي مخطئون، لأن الشعر ما زال كما قيل قديماً، ديـوان العرب، خالداً ولكن فـي المرحلة التاريخية والاجتماعيـة التي نعيشها ما زال الشعـر هو أحد أهم مكونات النفسية والروح العربيتين ضد تسييس الشعر.

×× «الحوادث» هل أنت مع تسييس الشعر أم مع ابتعاده عـن السياسة؟ وما هـي المعادلة السليمة برأيـك لتعامل الشاعر العربي مع واقعه؟

— محمود درويش: أنا ضد الدعوة إلى تحديد مهام للشعر، الشعر يعبر، يعبر عن زمن محدد وتاريخ محدد وبشر محددين.

والقضية العربية الأولى في هـذا الزمن هي قضية سياسية. أعتقد أن مفتـاح فهمنـا لمشاكل التطـور العربـي. أو للتدهور العربي هـو السؤال السياسي والإنسان العربـي يعيش كل مشاكله حتى الشخصيـة منها تحـت ضغط الانعكاسـات السياسية. فالقضية السياسيـة في العالـم الثالث بشكل عـام، هي القضيـة الفكرية والوجوديـة الأولى، وبالتالي إن الشعـر المعبر عن هذه الحالة، أو عـن هذا الزمن، أو عن هذا الشعـب لا بد له أن يعبر عن هذه النقطة السياسية.

طبعاً الخلاف هو عن كيفيـة التعبير عنها، أن يكون الشاعر خادماً لقضية سياسية محددة، هذا يقتل الشعر ويتحول إلى خطابة يحسنها النثر أكثر من الشعر. لذلك أنا ضد تسييس الشعر.

ولكن أنا مع انخـراط الشعر في الواقع الذي يعبر عنه وبما أن هذا الواقع سمته الأولى سياسية، فلا بد للشاعر من أن يتعامل مـع هذه القضية السياسية بأدواته هـو وبطريقته هو، وباستقلاله التعبيري عن التعبير السياسي المباشر، وبالتالي فإن دعوة تسييس الشعر هـي دعوة خاطئة، والدعوة إلى ابتعاد الشعر عن السياسة هي دعوة خاطئة أيضاً، لأن معناها في الشرط العربي الراهن هو الابتعاد عن الواقع.

ولكـن سؤال الشعـر والسياسـة يبقى هو السـؤال الأول المطـروح علـى كتاب العالـم الثالـث كلـه، لأن القضية التي يعيشها أديب العالم الثالث مختلفة جداً عن القضية التي يعيشها الأديب الغربي. وهـذا يتفرع إلى أسئلة مختلفة، علاقة الشاعر بالسلطة، علاقة الشاعر بالنـاس، علاقة الشاعر بالواقع، علاقة الشاعر بلغته.

فكل الأسئلة الحديثة برأيي متفرغة من سؤال الشعر والواقع، أو الشعر والسياسة، وهذا الموضوع في منتهى الاتساع، وكل جدلنا الثقافي يدور حوله القضية تتوقف، كما قلت حول كيفية التعبير عن هذه المشكلة، وليس حول حق التعبير أم لا. لا يستطيع أي شاعر عربي أن يكون غائباً عن الموضوع السياسي، لأن كل الشعر العربي الحديث هو شعر سياسي بشكل أو بآخر، ولكن المسألة هي كيف يتحول هذا الواقع وهذه السياسية إلى فن يتحلى بمزايا التميز عن موضوعه الذي يُعبر عنه.

×× «الحوادث» كثيرون يحبون أن يسمعوا رأيك بشعر المقاومة الفلسطينية، سواء شعر الداخل أو شعر الخارج؟

– محمود درويش: لي رأي قديم يتعلق بالشعر الفلسطيني، أنا أول من دعا إلى كسر المفهوم الصارم للشعر الفلسطيني. أنا أعتقد أن الشعر الفلسطيني هو جزء من حركة الشعر العربي، طبعاً الشعر الفلسطيني يتحلى بمزايا وبملامح فلسطينية محددة ولكن هو كلغة وكبناء وكسياق تعبيري وتركيب، جزء من حركة الشعر العربي. والفلسطينيون طبعاً يطرحون أسئلتهم بطريقة مختلفة لأنهم بحاجة أكثر من سائر العرب إلى العثور على وطنهم في اللغة، وهذا مما يجعل الشاعر الفلسطيني أكثر مطالبة من زميله العربي، وبالتالي يثقل عليه أسئلة الشعر والواقع أو الشعر والسياسة، لأن المواطن الفلسطيني المحروم من كل شيء، يجد أحياناً تعويضاً عن حرمانه بالقصيدة أو بالنص الأدبي الفلسطيني.

وهذا مما يجعل للشعر الفلسطيني مكانة خاصة في الحياة الفلسطينيـة تبلـغ حد التعلـق بالوطن، لأن الوطـن المغيب من الواقع حاضر في القصيدة.

هـذه إحـدى الملامـح المميـزة للشعـر الفلسطيني عن سائر أشـكال الشعر العربي، هذه المكانـة وهذا الاستحضار للغائـب، ولكننـي لا أستطيـع أن أحاكـم الشعـر الفلسطيني إطلاقاً بمعـزل عن علاقتـه بالشعر العربـي. ومقياس جدوى وفاعليـة بالشعر العربـي، ومقياس جـدوى وفاعلية وجمالية الشعـر الفلسطينـي لا يتحاكـم إلا في سياق وضعـه كتيار من تيارات الشعـر العربي المعاصر، ومن هنـا لا أعتقد أن الشعر الفلسطيني متفوق، بالعكس، في مستويات جمالية من الشعر العربـي لانشغاله بالاستجابة إلى مطالـب وطنية يومية، فليس للشاعر الفلسطيني ترف الإبداع الجمالي لأنه خاضع لضغوط حياتيـة ضخمة جداً تمنعه أحياناً من تطوير نفسه دون أن ننفي طبعاً دور بعض الشعـراء الفلسطينيين، أو القصائد الفلسطينية فـي المساهمة بتطوير القصيـدة العربية بشكل عـام، أنا أريد أن أقـول هذا الـكلام بشكل عام لكي أحـدد مشقة أو عذاب الشاعر الفلسطيني الذي يخوض المعركة على جبهتين، جبهة الدور الوطني وجبهة التطوير الجمالي للقصيدة، وهذه الثنائية هـي التي تفسر درامية الغنـاء الفلسطيني أو تناقضات القصيدة الفلسطينيـة، فأحيانـاً النقـاد يبحثون في بعضـ قصائدي عن أسرار الملحمية الغنائية إن جاز التعبير، إنها قد تكون انعكاساً لهذه الأسئلة ولهذا التناقض.

الشعـر الفلسطيني، كما تعلم، يعبـر عن وضع الشعب، الفلسطيني في الداخل والخارج، وأنا لا أحب المقارنة بين شعر الداخل وشعر الخـارج، هذه المقارنة التي تستهوي كثيرين من النقـاد والصحافيين لكـي يطعنوا بطرف دون الآخـر، أنا أعتبر نفسـي كما قلـت، أنا في الخـارج وزملائي فـي الداخل نسير علـى نفس الطريـق، ولكن في مساريـن متعاكسين ولا يعجبني إطلاقـاً أن نقيس ثورية الشعـر الفلسطيني بالمكان الذي يكتب فيه، هناك مفاضلة بين السجن وبين المنفى، وهذه الأسئلة برأيي أخلاقية أكثر منها أدبية.

الشعـر الفلسطيني فـي الداخل والخارج هـو شعر واحد، يكون نفسـه، ويستجيـب لمتطلبات الحضـور الفلسطيني في التاريخ، سواء القصيـدة المكتوبة في السجن أو في المنفى، في الفندق أو في القطار، هذا طبعاً لا يجب أن يغير أو يعدل أدواتنا النقدية في النظر إلى الشعر الفلسطيني.

مشتاق إلى حد المرض

×× «الحوادث» عندي سؤال شخصي: ألا تشتاق أحياناً لحيفا؟ للأهل؟ للمنازل الأولى؟ «الجديد»؟

– محمـود درويشـ: هذا الشـوق وخاصة بعـد تبعثر ما أسميـه القافلة الفلسطينية التي كانت تجد لهـا سياجاً أو أملاً أو بوصلـة أو خط دم فـي بيروت. هذا الشـوق أصبح يأخذ شكل المرض أحياناً.

الخروج مـن بيروت أخذ مذاق نهايـة مرحلة ما، ودائماً عنـد النهايـات، الغنـي يراجع طفولتـه، يكمل دائـرة مراجعة الطفولـة كما أن الإنسان عندمـا يحتضر، يراجع كل حياته، أنا مشتـاق جداً إلى كل أشياء الطبيعـة والناس الذين عشت معهم طفولتـي وصبـاي وشبابي فـي حيفـا، وأحيانـاً يوصلني هذا الشوق إلـى حد الشجن والنشيج الداخلـي، خاصة وأن تعدد المنافي وعـدم وجود سرير شخصي لـي، ولا سقف شخصي لي، وإحساسي بأني متعلق فـي هواء الكلمات، فعلاً يحفز فيّ أو ينفخ فيَّ داء الحنيـن إلى أي حجر، إلى أي احتمال ضريح، نحـن الآن مصابون بأزمة قبور. فعندما يموت الفلسطيني الآن لا نعرف أين ندفنـه، وهذا الإحساس بالخوف من عدم العثور علـى قبر تيقظ فيّ كثيـراً وانتبهت إليه بشـكل مأساوي عندما مات معين بسيسو في أحد فنادق لندن.

وأنـا كنت أحد الذين يجرون اتصـالات من أجل العثور علـى قبر له فـي مكان ما، فهـذا فعلاً يوصـل الفلسطيني إلى إحساس درامـي نـادر في تاريـخ البشـر، ألا يكفينـا أننا لا نملك حق الحياة فـي وطن، ولا نملك حق الحياة في منفى، وأيضـاً لا نملك عنواناً بجثتنا؟ طبعـاً كل هذه المشاعر وهذا الإحسـاس بالعزلة المطلقة علـى أرض البشـر، يضاف إليها أفـكار الوعي الدولـي والعربي لوجودنا ولهويتنـا، هذا فعلاً يفتح البوابة الواسعة لكل أشكال الطفولة الأولى، وهنا يصبح مفهـوم العودة ليس مفهومـاً سياسياً، بل مفهومـاً غريزياً فأنا بهذا المعنى مشتاق.

حول اتحاد الكتاب

×× «الحوادث» هل لديكم ما تقولونه، وأنتم الأمين العام لاتحاد الكتاب الفلسطينيين، حول موضوع الاتحاد؟

– محمود درويش: الكلام حول قضية اتحاد الفلسطينيين أكثـر من القضية نفسها، وهذا الكلام ضخم وأخذ شكل الهدير والطنين لأسباب سياسية.

وهـذا الطنين هو من صناعة دولـة وليس من صناعة كتاب إحـدى الـدول العربيـة واضعة ثقلهـا الإعلامي، وإلـى حد ما الثقافـي، وبعض الثقل السياسي، لخلق حالـة موجزها أن هناك مشكلـة في اتحاد الكتـاب الفلسطينيين، أنـا لا أرى أن الوضع فـي اتحاد الكتـاب الفلسطينيين وضع طبيعي جـداً عقد مؤتمر للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في صنعاء.

مؤتمـر شرعي ونصاب كامل وانتخبت أمانة عامة جديدة، الدعـوة لهـذا المؤتمر كانـت شرعيـة، الأمانة العامـة السابقة اجتمعت بنصابها في لندن، وكان آخر اجتماع حضره المرحوم معيـن بسيسو وأخذت قرار بعقد مؤتمرها بين نهاية شباط وأول آذار وكلفت أمين سر الاتحاد غانم زريقات وعضو الأمانة العامة للاتحاد محمـود درويش بالبحث عن المـكان الملائم والذي جرى أن المكلفين وجدوا أن صنعاء مكان ملائم بسبب ظروف الشتـات الجديـدة. وبعده جـرى كل شيء حسـب الأصول. دخلـت الحياة الفلسطينية بعـد ذلك في وضـع انشقاقي الذين

تغيبوا عن المؤتمر ليسوا جميعاً منشقين، بعضهم تبنى الانشقاق أو مـال إليـه، وبعضهم لظروف معينة لـم يتمكنوا من المجيء، وبعضهم لأسبـاب تتعلق بالتوقيت والمكان، ارتـأوا أن يغيبوا. وهؤلاء الغائبون على مستوى التنظيمات، احتفظت مقاعد لهم في الأمانة العامة على أن وضع الغياب وضع مؤقت، والمشكلة السياسيـة لن تكون عقبـة أمام عودة المثقفيـن الفلسطينيين إلى اتحادهم.

للأسـف المشكلـة الأساسية ما زالت هـي عنوان ما يشاع عـن وجود قضيـة في اتحاد الكتـاب والقضية، كمـا قلنا تتعلق بضغوطـات تمارسها دولة عربية مهمـة جداً على الاتحاد. وأما علـى مستوى المثقفيـن الفلسطينيين، فإنهـم يمارسون عملهم الثقافـي والنقابـي فـي اتحادهـم. وأكثريـة الكتـاب الساحقة تمارسـ هذا الـدور، والنقابات العربية بمعظمهـا، ما عدا نقابة هـذه الدولة المعنية، مع دولة حليفـة بها، كلها تعترف بنا وتقيم معنا علاقات. ووقعنا على اتفاقيـات ثقافية مع كافة الاتحادات الثقافية والصحفية أيضاً، ونحن لا نشعر بثقل هذه المشكلة كما يشعر بها الإعلام المعين للدولة العربية المعينة.

ومـع ذلك فـإن أبواب الاتحـاد مفتوحة للأخـوة الكتاب والصحفيين الفلسطينييـن الذين حالت ظروف ما دون ممارسة دورهـم. الأبـواب مفتوحة الآن وغـداً وبعد غـد لعودتهم إلى اتحادهـم، نحن لا نغلق الباب أمام أحـد، ولكن ظروفاً سياسية تضغـط عليهـم وهنـاك تنظيمـان: الجبهـة الشعبيـة، والجبهة الديمقراطيـة. ممثلوهمـا الغائبون عن الاتحاد فـي اتصال دائم

معنـا لحـوار وإيجاد صيغة عودتهـم إلى الاتحاد، فـإذن أنا لا، المشكلـة بالحجم الـذي يصوره البعض لها، ومـن المفارقات الغريبـة جداً أن الديمقراطية العربية تم تطبيقها وليس هناك عقبة أمام الانسجام الديمقراطي إلا اتحاد الكتاب الفلسطينيين؟

هـذا سؤال أنا أسأله وهل نحن سألنـا عن شرعية أي اتحاد كتاب عربي؟ وهل اشترطنا العلاقة مع أي اتحاد كتّاب عربي بأن يعينوا هذا أميناً عاماً أو ذاك أميناً عاماً؟

فهـذا التدخل نـوع من الاعتـداء والاستباحـة، الاستباحة للفلسطينيين علـى كل مستويات نشاطهم حتـى الثقافية، وهذا ضغـط لا نقبلـه، واستباحة نـرد عليهـا بألم، وإذا بقـي الملف مفتوحـاً، فنحن نريد أن نتحقق من شرعيـة ليس فقط اتحادات كتاب عرب، بل من شرعية الحكم العربي كله، ونحن معروفون بأننـا جزيـرة ديمقراطيـة في هـذا العالـم العربي ونحـن نفخر بديمقراطيتنا، لم ننجز شيئاً من مهام التحرير إطلاقاً، أنجزنا شيئاً هاماً، هو تأسيس ديمقراطية فلسطينية.

والسـؤال المطروح علـى البحث، هو ليس فقط سؤال شرعيـة اتحاد كتاب فلسطين، ولا حتـى شعرية اتحاد الكتاب العرب، وإنما هو شرعية الحكم العربي. هذا هو السؤال الذي يجـب أن يطرحه المثقفون إذا كانوا معنييـن فعلاً بالبحث في الشرعية.

بهدوء... إلى
(جورج حبش وفخري كريم)

كان علـي أن أمـوت كمـا مـات بـدر شاكـر السياب في مستشفى كويتي، ليغفر لي بعض أصدقائي العراقيين أنني حيّ.

لا أملـك رداً لهـذه التهمة، لأن الأعمار في يـد اللـه ولأن السيـاب قادر على أن يلهمنـي كل شيء، ما عـدا الانجرار إلى خصومـة لا أريدها مـع أصدقاء لم يشفع للسيـاب لديهم سوى موته المأساوي...

كتبـت أكثر مـن مرة: إن الشاعـر ليس مـلاكاً، إن الشاعر ليس حشـرة، وإن الشاعر ليس ملكية خاصـة لأحد، لذلك لا أطرب لما يوجه إلي من مطالب ترفع الشاعر إلى مستوى البديل السحري. ولا أحبط أيضاً مما ينهال علي من هجاء وإدانة...

وإذا كان من عادتي أن أقول قصيدتي وكلمتي وأمشي، فقد صار من عادة الأصدقـاء ـ الخصوم أن يقولوا شائعتهم وسبابهم ويمشوا، دون أن يتوقعوا رداً... إلى أن فاض بريدي العام بسيل من مقالات جارحة، يعني المزيـد من إهمالها المتعالي تعالياً لا

أريده على وعي قارئ بريء قد لا يقرأ غير «الهدف» أو «الثقافة الجديدة» على سبيل المثال.

وبين «الهدف» وبيني سوء طالع قديم. فقد امتهنت التطاول على أمثالي والتشهير بهم منذ صدق قائدها جورج حبش أن أمريكا تعد للشعب الفلسطيني هدية صغيرة مسمومة ليست أكثر من «دولة فلسطينية» ومنذ سخر أمثالي من هذا الفهم وقالوا إن على الفلسطينيين أن يتجنبوا مصيدة الانقسام على وهم، بين رافض وقابل للهدية الأمريكية، لأن قوة موقعنا في الصراع ومن موازين القوى لا يؤهلنا لهذا «الإحسان» الأمريكي، باعتبار أننا جميعاً مرفوضون. ولكن إصرار جورج حبش على مخاطبة مخاوفه من خطر الدولة ساهم دون أن يدري في نمو ظاهرة أخرى شديدة المفارقة هي: نشوء الدبلوماسية قبل أن تكون السياسة.

في تلك المرحلة من بؤس الوعي السياسي كان حبش يقود «جبهة رفض» تقودها بغداد التي تحولت في وعيه وفي خطابه، إلى مرجعية الصواب الثوري الوحيد، وصارت عاصمة للخير المطلق. كان ذلك اجتهاده وحقه الذي لا ينازعه فيه أحد. ولكن لم يكن من حقه توزيع الشعب الفلسطيني إلى خونة ورافضين، ولم يكن من حقه أيضاً اعتبار دمشق عاصمة الشر المطلق، واعتبار من يقترب منها متورطاً في الاستسلام النهائي، إلى درجة لم تتورع مجلة «الهدف» معها عن اتهامي بمصاهرة النظام السوري «العميل» لا لسبب إلا لأنني تزوجت، من فتاة سورية.

وفي كل مرة كنا نحظى فيها بمقابلة جورج حبش، كنا نطالبه بمراقبة الفارق بين لغة السجال ولغة الاغتيال. لأن اتهام

الناس بالخيانة الوطنية قد يدفع قارئاً طائشاً يصدق «الهدف» إلى ارتكاب جريمة قتل يتحمل القائد مسؤوليتها، وكان حبش يتنصل دائماً من طيش كتابه ويطالبنا بألا نعير المسألة انتباهاً.

الآن يقود جورج حبش جبهة «الإنقاذ» التابعة لدمشق التي صارت تُشكل في وعيه وفي خطابه مرجعية الصواب الثوري الوحيد، هذا هو اجتهاده واختياره القابلان للمساجلة الهادئة المسؤولة. ولكن قدرته على ممارسة النقد الذاتي الموسمي وعلى حشو ذاكرته بالنسيان، ليست - كما يبدو لي - واجباً وطنياً صالحاً للتعميمي الإلزامي مهما كان الحكيم حكيماً. لذلك يحق لأمثالي من الذين لا يفرطون بذاكرتهم في مثل هذه الخفة، أن لا يربطوا شمالهم ببوصلة لا تعمل بانتظام من فرط حاجتها إلى صياغة دائمة...

فهل ستتهمنا «الهدف» بالخيانة، بعدما استطاعت أن تنسب لي أقوالاً لم أقلها ومواقف لم أتخذها، وتمكنت مجلة «إبلاغ الحقيقة كل الحقيقة للجماهير» من تزوير الحقيقة... كل الحقيقة أمام الجماهير. وإلا، فلتذكر أين أيدت هذا النظام وأين مدحت ذلك النظام وكيف تخليت عن مبادئي ومواقفي من الحرية والديمقراطية؟

تهمتي هي: إنني سافرت إلى بغداد...

وها أنذا أعترف بأنني سافرت إلى بغداد، لا كما كان يسافر جورج حبش الذي لا نطالبه بأن يقدم تقريراً عما أعطى بغداد وعما أخذ من بغداد...

سافرت إلى بغداد مرتين: مرة لأقرأ شعراً للشعب العراقي ومرة لأدافع عن شرعية إحدى المؤسسات الفلسطينية المطرودة

مـن اتحـاد الكتاب العرب. ولقـد سخرت من لعبـة الأقنعة التي تمارسها هذه المؤسسة المعادلـة لإطار الجامعة العربية وكتبت: يخرج الثقافي من السياسي متى شاء. ويدخل السياسي في الثقافي متـى شاء. ويختلطـان فلا يكون هذا ولا ذاك، لقـد تحولت لعبة استبدال طبيعة النشاط الملتبس إلى حرفة مسلية، منذ عجز الثقافي عن تحقيـق استقلاله النسبي عـن مؤسسة السلطـة، أو منذ أنجز اندماجـه الهامشي في السلطة بعدما ضللها ـ كما يظن ـ أو أغواها بجميع مفـردات الديمقراطية المشتهاة. ولكنه ما زال قادراً على المراوغـة، قادراً علـى تحريك الثقافي فيه حيـن يطرح السياسي موضوعه المحـرج المختلف عـن سياسة سلطتـه. ويتراجع فيه الثقافي، مرة أخرى حين تطرح سؤالها الذي يحرك السياسة...

أليس فـي هذا النقد شيء من النقـد الذاتي الذي لا يستثني أحداً، ولماذا أستثني أحداً ما دمت عاجزاً عن قبول مرجعية الشر المطلق والخير المطلق. وهل يأذن لي قائد مجلة «الهدف» بأن أسأله عن المصلحة الوطنية والثقافية الناتجة عن تعييني رمزاً للردة وسائر الألقاب، وعن فوائد هذه الحملة الأخلاقية الجارحة التي لا يأذن لي احترامي لسمو خلقه بالرد على ما تزخر به من تجريح شخصـي، ومن إرهاب فكري يدفعني إلـى التساؤل عن الفارق بين إرهـاب السلطة وإرهاب المعارضة التابعـة لسلطة أخرى، تشي بافتقار إلى الصدق السياسي، والى الحد الأدنى من التربية الشخصية؟

أما زلنا نتحاشى الدخول في الموضوع؟

مهـلاً... فإن مجـلات الصديق فخري كريـم الصادرة في دمشق تغطي حملتها بلياقة من نوع آخر، بإبدائها بعض الحرص

الشكلي على سلامة المتهم. فقد كلفت الصديقين غائب طعمه فرمـان وهادي العلـوي بمحاكمتي غيابيـاً، فأصيبا كما قال لي فخري كريم بتسمم الحقد النبيـل جراء حرصهما على تحاشي قـرار «الهدف» الصادر بلا محاكمـة، دون أن يتمكن الكاتبان البارعـان مـن ترويض فـن التمييز الدقيـق ومن مراقبـة الفروق الصغيـرة الضرورية بين «الوطن» وبين «النظـام» فلست أنا من يلغـي الهامش. ولكن النظام والمعارضة ـ القادمين من اتجاهين متعاكسين ـ يقومان بهـذا التوحيد... ليفتحا قابلية التقاء توفرها شروط علاقـات أخرى في خارجة التحالفـات المرنة في إطار الجامعة العربية.

لماذا تغضـب «الثقافـة الجديدة»؟ ألانـي رسمت صورة سـاخـرة للامعقول العربي كما يتحرك مشهـد هذه التحالفات: «الوصـي علـى القومي ضـد الوطنـي يتحالف مـع الإسلامي لتحطيـم القومـي والوطني معـاً. ودون أن نفهـم: يتحالف مع الإسلامـي مع التقدمي لإلغـاء القومي والوطني معـاً. ودون أن نفهـم: يتحالف التقدمي مـع القومي المتحالف مـع الإسلامي للدفاع عن الديمقراطـي. ودون أن نفهم: يتحالف التقدمي مع القومي ضد الإسلامي المتحالف مع القومي.

أمن بؤس هذا التحالف تغضب «الثقافـة الجديدة» أم من وصفهـا الكاريكاتـوري؟ أم من عدم المراهنـة المبطنة على ما تنتجه من نعيم الديمقراطية؟

هناك غضب آخر: هل يحق لي أن أزور بغداد؟

وهل كان يحق لي أن أزور دمشق؟

هذا السؤال لا يحال على الشاعر في سياق جره إلى التبعية

للسياسي اليومي. لأن مجال الشاعر لا يحدد بالعزلة والاغتراب ولكن إذا تطور السؤال ليرتبط بمشروع السؤال الديمقراطي في الشرط العربي الراهن، فليس من حق الشاعر ولا السياسي المختلفين أن يصعدا على أي منبر، لأن تحت كل منبر ضحايا. لست مثالياً لاستعير سؤالكم: لماذا تقيمون في دمشق ما دام النظام السوري يبعدنا إلى أقاصي الصحراء ولكنني أتساءل عن مغزى تغييب الاعتبارات الخاصة في محاكمة الآخرين، واستحضارها لتبرير التحاق الذات فيما ليس إطارها.

لم يكن جورج حبش ولا فخري كريم ولا كتابهما في دمشق عندما اغتيل عز الدين قلق برصاص الرفض. ولم يحل الشعراء العراقيون والعرب المهاجرون ضيوفاً على جريدة «تشرين»، عندما هاجروا إلى بيروت، لم يكن شرط إنسانيتهم وشاعريتهم أن يموتوا مع السياب في مستشفى كويتي.

لقد عاشوا وكتبوا في بيوت وفنادق. فأين ينام الشاعر؟ هل كثير علينا أن نطالب بعضنا البعض برحمة الكلام وبكلام الرحمة، واستبدال التراشق بالتهم بالبحث عن تطوير المشترك ما دمنا ندعي الدفاع عن الديمقراطية ونندب هجرة الشعراء؟ وهل كثير علينا أن نتبادل وعي الظروف الواحدة في تعددها، ونحن نهجو الزمن العربي، بدلاً من نهش اللحم البشري. لقد وجد الأصدقاء العراقيون مكاناً ينامون فيه فأين ينام الفلسطيني؟

إذن، أين المسألة... أين أين المسألة؟

إنها: الحرب بين إيران والعراق.

لا أتهرب منها بقدر ما يتهرب منها انقسام الأصدقاء العراقيين حولها. ولعل بعضهم يستخدم لحمي المباح بريداً

لإبلاغ رسائله إلى خليـة حزبية، ترى أن الموقف من المستوى الذي بلغته يتطلب إجراء تعديل ما على الخطاب السابق.

هذا أمر داخلي لا يعنيني بمقـدار ما تعنيني القضايا العامة. ويبدو أن ضراوة الحملة علي على أن موقفي من الحرب يعنيهم. ومـا دام الأمر كذلك، فإننـي أطمح إلى تسجيـل هذه الكلمة، راجيـاً ألا تخضع لمهارة التزوير الشائعـة كأن يقال: إن «القمر الليموني» هو الرجل...

إن هـذه الحرب تدفـع الشعبين العراقـي والإيراني إلى الكارثـة. وإن مهمة القوى الديمقراطيـة والوطنية الحريصة علـى مصالح الشعبين هي العمل على وقف هذه الحرب التي لا يوفر استمرارهـا الفرصة المرجوة لأعداء النظامين بقطف ثمار الكارثة. وإن المسؤولية عن استمرار الحرب وتصعيدها تقع على الجانب الإيراني ذي الرسالة التدميرية، والذي يرى فـي استمرارهـا شرطاً لحمايتـه من حمى التفاعـل الداخلي وإمكانية وحيـدة لتصدير «خطاب الماضـي» المذهبي إلى المجتمـع العراقـي المتماسك حـول الفكـرة القومية. ولا ينفصـل هذا المشروع الإيراني عمـا يرشح للعالم العربي من مستقبـل التفكيك والطائفي والمذهبـي. وما دامت الحرب مستمـرة، فإن واجب القوى التقدمية والديمقراطية والقومية العربيـة هي الانحياز إلـى أرض العراق والدفـاع عنها وعن المجتمع العربي العراقي ضد الإصرار الإيراني على العدوان والاحتـلال، وإن محاصرة العرب بالظلامية السلفية الإيرانية لن تنشر في هذا الشرق جزر الديمقراطية والحرية التي يحلم بها البعض.

هـذا هو فهمي. هذه هي رؤيتي. وهـذا هو اجتهادي فهل أخطـأت: ربمـا، لأننـي لا أدعي امتـلاك الحقيقـة كما يدعي الآخرون.

والـى أن نستطيع إجـراء حوار يعيدنا إلى التـوازن، سأظل مؤمنـاً بـأن الوطن هو الوطن. وبـأن القمر هـو القمر. من حق الشاعـر أن يدافع عن الوطـن، ومن حقه أن يحب القمر دون أن يخسر أحداً من الأصدقاء ومن الرفاق...

وكم أحب بغداد، كم أحب دمشق...

كفى...
(هل أصبح على الفلسطيني ألا يكون فلسطينياً)

لا شيء يثير الدهش:

فقد ألفنا إعادة تركيب المشهد... لا أحد يسمع، ولا أحد يرى، حتى ولو كانت الصواريخ التي تقصف المخيم الفلسطيني من نوع «غراد».

فكل سلاح يليـق بهذا اللحم. وكل تحالـف مباح للقضاء على هـذا الوباء: لأن الفلسطيني الجيد هـو الفلسطيني الميت، هذا ما توصلت إليه الترتيبات الأمنية في لبنان، بين مصالح الأمن الإسرائيلي وبين اعتبارات الأمن الطائفي التي تقاطعت في نقطة التقاء «رائـع»، توحد فيه الأعداء على هـدف واحد هو: إقصاء الفلسطيني عن الوجود، ولا شيء يثير الدهشة:

لأنـه لـم يعد ملفتـاً للنظـر، ولـم يعـد مجديـاً أن نشير إلى الصمـت المدوي المحيط بالمشهد، ولا إلى هوية القتلة الجدد الذين أدمنوا الانخراط في المشروع الطائفي. إذ لـم يصدق أحد أن الوطنية الفلسطينية هـي العقبة الأولى التي يوفر القضاء عليها

إمكانية الوصـول إلى «التوازن الاستراتيجـي» الكفيل بتحقيق «سلام عادل» أما موازين القوى الراهنة فإنها تأذن بإدارة حرب ناجحة على منظمة التحرير الفلسطينية التي «لا تعبر» عن الشعب الفلسطيـني إلى درجة تقتضي إعلان الحرب على الشعب الذي يعتقد أنها تعبر عنه.

ولا شيء يثير الدهشة:

فقد تطـور الأمر من المطالبة بتجريـد المخيم من السلاح إلى المطالبة بترحيل سكان المخيم...

إلى أين ... إلى أين؟

هـذا سؤال لا يعني أحداً، لأن علـى الصورة أن تتكرر في كل موسـم: أمهات يحملهن على رؤوسهـن ما خف حمله من فراش ويحملـن على أذرعتهن ما خف حملـه من أطفال وعلى الشباب أن يستبدلوا شارة النصر برفع الأيدي المنكسرة والسير إلى الأسر الطائفي.

وعلـى الصـورة أن تتكـرر: علـى الفلسطينـي ألا يكـون فلسطينياً... فماذا يكون؟

هـذا سـؤال لا يعنـي أحـداً، « لأن الفلسطينـي الجيد هو الفلسطينـي الميـت» ولأن الدعـوة القديمـة إلـى اعتـكاف الفلسطيني في مخيمه قـد أنتجت مجتمعنا لم يتوقف عن إنتاج هويته الوطنية.

فماذا بعد المخيم؟

هذا السؤال أيضاً لا يعني أحداً من الذين لم يأذنوا للفلسطيني بالانخراط فـي المجتمع العربي، وطـاردوه بلقب «الفلسطيني

التائـه» لست من هنا. وأغلقوا في وجهـه أبواب العمل والتمتع بنعيم الديمقراطية التي يرتع فيها المواطنون العرب.

فإلى أين... إلى أين؟

لا يسمـح للفلسطيني بأن يكـون عربياً لكي لا ينسى بلاده ويستوطـن. ولا يسمح للفلسطيني بأن يكـون فلسطينياً لكي لا يتذكر بلاده.

لقد تجاوزت لغة الحرب الفلسطينيين مستوياتها السياسية والتريث من التعبير عن كراهية شعب لتصوغ، في سياق التحذير مـن «عرقية» الفلسطينييـن، «عرقيتها» المبطنـة التي تُفسر هذا التفـرغ «القومي» الكامل لإبادة الهويـة الفلسطينية في انسجام بريء مع إسرائيل التي ترى أن العربي الجيد هو العربي الميت».

لا يحتـاج الفلسطينـي المحاصـر بيـن مشـروع الإبـادة الإسرائيلـي ومشـروع التغييب العربي إلى الدفـاع النظري عن براءة هويته العربية.

إن محاولات تفكيك المخيمات الفلسطينية لا تهدف إلى استيعاب الفلسطينيين في المجتمع العربي، ومنحهم ما يستحقونه مـن حقوق مدنية. ولكنـه يهدف إلى تذويـب الفلسطينيين في النسيان، ومنعهم من التعبير عن هويتهم الوطنية، ومن الانخراط فـي ما تقتضيـه هويتهم القوميـة من واجبات وحقـوق... لأن الشرط الوحيد المطروح علـى المخيم الفلسطيني ليبقى شكلاً مـن أشـكال المجتمـع الفلسطيني المؤقـت، هـو تحويله إلى معسكر اعتقال، إلـى موضوع للخطاب، ويتحول فيه المواطن إلى أسير أو رهينة...

إن المخيـم الفلسطينـي المجـرد مـن السلاح، فـي غابة

الطوائف المسلحة، وفي جحيم الغارات الإسرائيلية هو معسكر اعتقال...

فلماذا يعاقب الفلسطيني على هويته؟

من السهل أن نعرف لماذا يُعاقب الإسرائيلي الفلسطيني على هويته التي تُشكل نقيضه... ولكن من الصعب أن نعرف لماذا يعاقب الفلسطيني على هويته مهما اختلف مع قيادته، ومهما راعى اعتبارات أمنه الإقليمية. من الصعب جداً أن نفهم لماذا يتطور خلافه السياسي مع منظمة التحرير الفلسطينية إلى كراهية الشعب الفلسطيني، والمثابرة الملحة المسلحة على طرده من الوجود العسكري والمعنوي والجسدي مهما أنتجت المساومة السياسية من بؤس تحالف وأنانية مصالح غامضة...

هل تعهد أحد لأحد بدفع الفلسطينيين إلى الانقراض التدريجي؟

ما هو الثمن؟

ما هي المصلحة؟

وما هي المكافأة؟ هذا وحده ما يثير الدهشة.

فهل في وسع أحد أن يدهش؟ هل في وسع أحد أن يغضب؟

هل في وسع أحد أن يقول: كفى.

وهل في وسع أحد أن يدهش من بطولة الفلسطيني في الدفاع عن الهوية وعن البقاء؟ ليس للفلسطيني موقع أخير ينهار بانهياره. ليس للفلسطيني موقع أخير. إنه ينبثق من كل مكان.

تلك الأغنية هذه الأغنية

لا نعرف متى رحل عاصي الرحباني،

فقد ودعنا أكثر من مرة وهو يحاول أن يودع قلقه الشرس، واستدرجنا إلى مألوف غيابه، منذ انفصلت أصابع العازف عن أوتار العود، ومنذ تم الطلاق المدوي بين كلمات المبدع وحنجرة المغني، دون أن يتمكن دفاع الجسد عن الماضي من حماية الحاضر مما يهدده من انهيار...

وعلى بياض الفضاء كان يخرش صورة لحصان لم يجد سهلاً ليركض، فليس بعد القمة إلا حقول الهواء...

ولكن عاصي الرحباني، الراحل بانكساره، وبأشلاء حلمه الكبير، وبصورة لبنان النهاية المختلفة عن بداية الأغنية لم يرحل بأغنيته كما قال له يأسه، وكما كان يحلو لإغراء الملاحظة أن يلاحظ...

فإن هذا التطابق العبثي بين ما حل بلبنان على مستوى طفولة الأغنية الدائمة، وبين ما حل بمشروع الثلاثي الرحباني هو حادث مصادفة تراجيدية، يمس ظروف الأغنية أكثر مما يمس ما أنجزته من قدرة على الاستقلال عن ظروفها، وخلق

واقعهـا الخصوصي فينا، لقد حققـت نجاتها الخاصة بتاريخها الخاصـ ودورها الخاص في مـا أحدثته مـن انعطاف حاد في علاقاتهـا بعناصرها الداخلية والخارجيـة، وفي هيمنتها الحانية على ذوق عام ظلت تسوسه أكثر من ثلاثين عاماً إلى زمن لا نرى بدايته... في اتجاه يرفـع أي كلام إلى مستوى القصيدة، ويرفع الأغنية إلى مستوى الصلاة الحرة...

لكل أغنيـة انفصال عـن المغني، لكل أغنيـة نهاية جسد، ولكـن هذه النهايـة تواصل تطويـر بدايتها فينا. فلمـاذا يستثنى البعضـ عاصي الرحباني من الأزمة في الموت، ومن الموت في الأزمة، ويطالبه بحماية لبنان، السياسي والاجتماعي من الانهيار شرطـاً لحقه في تأسيس مشروعه الفني، وشرطاً لصلاحية أغنيته للغناء وسط الانهيار؟

للخـراب أيضـاً أغنية. لم يتمكن عاصـي الرحباني، الوفي لإيقاعه ولمملكته الجمالية، من الغناء للخراب، ولم يشأ دخول الصراع حول الخراب. فذلك هو اختياره النظري، ولكن الجيل الطالـع من هـذا الخراب ومن هذا الصـراع، الجيل المسكون بالروح الفنيـة الرحبانية على كلام آخر موقـع آخر، استطاع أن يجرب الغناء لما حل بوطن الرحباني وأحلامه من خراب...

أليس في وسع هذا التناسل الفني أن يغرينا بأن نفك الارتباط الميكانيكـي بين فروق الانهيار، وبأن نواصل الدفاع عن منطقة النفسـ لا مصلحة جماليـة لأحد أن يشملهـا الانهيار، حتى لو أخـل بتوازن جملتنا المنطقية المفتوحـة على شهية مفارقة؟ عمَّ أدافع؟

عـن جمال لا تدمره الحرب، حتى لو عجز عن الاحتفاظ،

بمؤسستـه وعن منفعة حيـز مطلق أدافع... عـن جمال يحمينا الدفاع عنه مما تهددنا به حـرب انتقلت، أو نقلت من مشروع توحيـد وطن ولغة إلى تفكيك الوطن واللغة والنفس، لقد بلغت بنا نزعة الدلالات الجاهزة جداً يجعلنا نبحث الفارق بين انهيار البنك المركزي وضرورة انهيار الأغنية الرحبانية...

أدافـع عن جمال كان يشيـر إلى ما فات من بـراءة إنسانية فـي علاقاتها بالبشر والطبيعة، وعـن جمال كان أحد الإشارات الساطعة إلى مشترك، حتى ولو حاصرت القبائل والطوائف هذا المشتـرك الواقعي وأغـرت بتحويله إلى مشتـرك سابق، خيالي ومثالي. وعن جمال يتشبث إلى درجة الاستعانة بالوهم الخلاق بملكية عاطفة جماعية وذاكـرة جماعية وفولكلور، وأدافع عن دفـاع الأغنيـة عن نفسها أمـام دور أراد اليومـي المتغير القناع والخطـاب أن يحولها إلى سلاحه الشخصـي لإبادة «الآخر»، علـى الرغم من هـذا الدفاع، كان يتحدد من حيـرة أيديولوجية أرهقـت نفسهـا بمحاولة التعبيـر عن الجميع الذيـن لم يعودوا جميعاً، لتوطين الجميع فيها...

لقـد طمحت الأغنية الرحبانية إلـى أن تكون أغنية الجميع على مسرح منهار، تحول كل فرد عليه إلى «آخر» الآخر...

قد يقول البعض إنها أغمضت وعيها أو زيفته، لتخفي انحياز نوايـا المغني إلى ما لا يغني، فما تقوله مـن هروب إلى السابق، أو هـروب إلى الوهمي هو مجرد غطاء قد تكون محاكمة النوايا الرحبانيـة، عن كثب ومن بعيد، صحيحـه ولكن الصحيح أيضاً هـو أن الأغنية المستقـرة في روحنا الجماعيـة قد حققت هذه المكانـة فينا بانفصالها عن اعتباراتهـا وحساباتها وتمكنت من

أن تكون أغنيـة المشترك اللبناني والمشترك العربي، لأنها أغنية الحنين الإنساني إلـى دفء إنساني، والى فرح مفقود، وخوف من بلوغ الساحة الخالية حيث تصرخ الهشاشة الإنسانية: ما في حدا...

نريـد أن ندافع عـن شيء فينا... لا ينهـار لأنه لا يسلخ عن نسيجنا العاطفي...

إن تفـكك الأسـرة الفنيـة الرحبانيـة، بتأثيـر الحـرب أو طبيعـة الزواج القمعية، لا يعنينـا إلا باعتبارنا أصدقاء العائلة. أما خارج هذا الاعتبار الشخصـي، فليس من حق شبق البحث عن المطابقـات والـدلالات أن يدفن الإنجـاز الرحباني مع جثمان عاصي الرحبانـي، كما يُهيل التراب على فضاء أو كما يقتلع فينا من طفولة وشوق إلى ما لا نعرف...

لقـد جرت محاولة هذا الرثاء الكلي للتراث وللشخص من قبل، جـرت بطريقة تشي بـأن المؤبنين قد تدربـوا، جيداً على علـم الجهل بفناء النفس البشرية، وعلى إخضاع الفني للسياسي بطريقـة آليـة في حمـى تقسيم البشـر إلى مرآة أو عـدو، يومئذ دافعـت عما أدافع عنه الآن: صـارت أغنية فيروز الرحبانية أحد أسمـاء هويتنـا العاطفية، الهوية الملتبسة التـي تعرفنا على قلوبنا وتزيدنـا جهلاً بهـا في آن. صـار في طقوس المحبين، وصار مـن المألوف أن يستنجد بها الأعداء علـى أعدائهم، وأن يودع الشهيـد حياته بالأغنيـة إياها التـي يستل منهـا القاتل خنجره، فالقاتـل والضحية يحبان الأغنية ذاتهـا عن بيروت وعن القدس معاً، كأن القدوة العاطفية قد تحققت في ذاكرة جمالية جماعية بلغت حد المجرد...

إنهـا أغنية الجميـع للجميع... حياد طبيعـة... يوم ربيعي جميـل تجري فيه الأعراس... وترتكب فيـه المذابح... وهو جميل...

هـي المشترك فـي الإنسان، هـي الانبهـار الجماعي أمام صاعقـة تتجمـد على طـرف الأفق، هـي حنيننا المشتـرك ـ أنا وعدوي ـ إلى إنساني بعيد. وهي توق إلى إلغاء العدو من العلاقة بين الناس، ونقطة التلاقي بين الشخص ونقيضه، وهي اللغة التي أخاطـب بها حبـي الأول، وهي التي تدفعني إلـى الفداء، وهي هـي ـ يـا للمفارقة ـ التي تدفـع شخصاً إلى اغتيالـي دفاعاً عنها، واستشهـد دفاعـاً عنها، وقد ينشدهـا القاتل والضحيـة معاً في لحظة المواجهة...

لأنهـا أمسكت بما في الإنسان من مطلق... مطلق لا يلغيه الصراع، ولا الخطاب السياسي ولا الانهيارات...

من البديهيات: أن لكل بداية نهاية...

ولكـن ليس بديهيـاً أن الشعب الفلسطيني لـم يبدع أغنيته الوطنيـة كما أبدعتها له وللعرب الظاهرة الرحبانية... لقد أشهر الفلسطينـي هويته الجمالية بالأغنيـة الرحبانية العربية، راجعون بيسان، شـوارع القدس، أجراس العودة، جسر العودة، مر نهار آخـر، سنرجع... حتى صارت هي إطـار قلوبنا المرجعي، هي الوطن المستعاد، وحافز السير على طريق القوافل الطويل...

فمـن يستطيـع دفن الأغنية مـع المغني؟ وهل فـي وسع ما سينهـال علينا مـن ركام، ومـا سنتعرض له مـن محاولات فك اشتبـاك بين القدس وسائر العواصـم، أن يشمل هذا الغناء الذي يُعيدنا إلى الوطن ويُعيد الوطن إلينا كل يوم؟

ومن سيتذكر، ولماذا يتذكر، حوافز سعيد عقل «السورية» بمعناهـا الانفصالي، حيث تفرش لنا أغنية فيروز الرحبانية طريق الشام بحرير الحنين؟ أليس انفصال الأغنية عن يومها السياسي هـو أحد أشكال الالتباس العظيمة، المحروسة بنسيان المؤقت، لقـوة الفن الذي يوحد ما لا يتوحد في الخارج وفي النفس وفي الزمـن، حيث يخترق فينا ذلـك الغامض، ويحولنـا جميعاً إلى أطفال وحيدين في غابة موحشة؟

وحتى لو بدا لنا، ذات يـوم، أن المسافة انطلياس وبيروت أبعـد مـن المسافة بيـن دمشق والقاهـرة، فإن مساحـة الأغنية توحدنـا، حين تخاطب ما فينا مـن حنين مشترك إلى وردة على حائط، تجعل الوهم ضرورياً لتحل هذا الواقع...

هـذه الأغنية، التي يرشحهـا البعض لأن تكـون بنادق في أيـدي القناصة فـي الحي الواحـد، واللغة الواحـدة، والشعب الواحـد، لا تستطيـع أن تكون غير ما هي عليـه: رفوف سنونو وفضاء عودة... وأسرار قلب... وخراب الخراب... لأن وطن الأغنية ليس دائماً هو الوطن.

ويـا عاصـي الرحبانـي، ما قيمـة أن أشكـرك الآن على ما تنتـج فينا من لبنان وبيسان، وإنسان لا يقوى على نسيان أنه ... إنسان...

الأعمال النثرية



محمود درويش

الرسائل مع سميح القاسم



تقديم

بقلم: إميل حبيبي

«هيك مَشْق الزعرورة،
يا يُمَّه هيك»!

● لا ألــوم إلا نفســي على أنني لــم أنتبه إلى روعة هــذه الرسائل، المتبادلة بين شطري (شقَّي) البرتقالة الفلسطينية – محمود درويش وسميــح القاسم – إلا بعــد أن تكاملت بشراً سوياً. الأعمار بيد لله، أمامهمــا، مديدة. أما قصــدي فهو الانتفاضة التــي أحسّا بمقدمها إحساس الطير بالعاصفة قبل هبوبها:

– «فَـرَجٌ ما؟ هنــاك دائماً فرج مــا... لن نفقد الأمــل ولو من أجل الأجيــال القادمة. وحسبنا، يا صديقــي العزيز، أننا نرسم بحبر الروح وبدم القصيدة سهماً واضحاً (أرجو أن يكون واضحاً) يؤشر إلى الاتجاه السليم نحو خروبتنا وزيتونتنا وزهرة برقوقنا اللاذعة».

*سميح القاسم – الرامة 86/6/29

– «أمـا لآخر هذا الليل من آخر؟... هل اسـتطاع الجنين، المتكون في هذا الرحم المريض، أن ينجو من المرض؟ لا أقترح جواباً بل أطل على صـحراء... ما اسـم الجزيرة إذا جف البحر؟ لا أقترح جواباً بل أطل على صحراء».

*** محمود دوريش- باريس 86/7/22**

– « وماذا بعد؟ أما آن لتعب السـؤال أن يُجْزَى براحة الجواب؟... هنـا يحين دورنا. نسـتعيد صـرخة ذلك الشـهيد القديم: احمل صـليبك واتبعني!!... أمـا نحـن فقد رأينـا وثُرنا. أدركنـا وثُرنا. آمنـا وثرنا. هذا الجعل البشـري المقلوب علـى ظهره ظلماً وغدراً وعدواناً سيسـتقيم من جديد وسـيُبعث إنساناً سوياً رغم كل الوحوش المتحضرة المتألبة علينا... نحن في حاجة لنارنا القديمة – على سـذاجتها – لأنها الخاص الكامن في أعماقنا مثل حبة الرمل الكامنة في أعماق اللؤلؤة».

*** سميح القاسم- حيفا 86/7/27**

– «معـك حق. معك حق: نحن في حاجة ماسـة إلى الإيمان الأول وإلى النار الأولى. نحن في حاجة إلى سـذاجتنا. نحن في حاجة إلى درس الوطن الأول: أن نقاوم بما نملك من عناد وسخرية، بما نملك من جنون. فـي الأزمات تكثر النبـوءات. وها أنذا أرى وجهاً للحرية محاطاً بغصـني زيتون. أراه طالعاً من حجر».

*** محمود دوريش- باريس 86/8/5**

– «عام جديد. أهو، حقاً، كذلك؟ وكيف نُحصـي، نحن، أعوامنا؟ لنبـدأ، إذن، لنبـدأ تقويمنا بعام الفيـل. وليكن هذا عام المخيـم. أما العام القادم فسنجد له اسماً آخر جميلاً ورشيقاً بقدر يتناسب عكسياً مع ما نحن فيه، أمة وشعباً، أرضاً وسماء، بشراً وشعراء».

*** سميح القاسم- الرامة 87/1/21**

– «إن ذلـك البقـاء الأول هو الذي حمى الوطن من التلاشـي. وإن الداخـل هو القوة المادية للهوية الوطنية الثقافية. وإن للداخل اسـماً يفوق

السحر، لأن الداخل هو الذي وفّر للظاهرة الفلسطينية قوة المعجزة».

*** محمود درويش ـ باريس 87/10/5**

وحين تحققت النبوءة وهبت العاصفة (87/12/9) أثبت شاعرانا أنهما، بالحس المنبثق عن أغنى تجربة وعن أعمق مسؤولية وطنية إنسانية، أنهما ـ برؤيتهما الثاقبة وبعيدة المدى ـ صقران:

ـ «كم أنا سعيد وممتلئ غبطة وتفاؤلاً بوردتنا الطالعة من حجر. وفي الوقت نفسه فإنني خائف على هذه الوردة... أما من حجارة في الوطن العربي»؟!

*** سميح القاسم ـ القدس 88/2/8**

ـ «ليت الحاكم العربي يترك الداخل وشأنه. ليته لا يشارك الإسرائيلي الخوف من استقلال الفلسطيني العربي... لا تستهجن، أبداً، أن يرفعوا شعار الهروب إلى أمام، كأن يطالبوا الانتفاضة، وحدها، بمهمة تحرير كامل التراب الفلسطيني، من النهر إلى البحر! سيتآمرون. نعم سيتآمرون. فهل لهم من مهنة أخرى؟!»

*** محمود درويش ـ 88/2/29**

ـ «وإذا كان الفلسطيني القديم قد أطلق صرخته المدوية: على هذه الصخرة أبني كنيستي، فإن الفلسطيني الجديد يعلنها، متمترساً في كرمه: على هذا الحجر أبني دولتي»!

*** سميح القاسم ـ الرامة 88/3/17**

أراني «واحداً منهم»، ومنهما. غير أن هموم ميلاد الجديد ـ انتفاضة لدى شعبي وانتفاضة في مفاهيمنا وأساليبنا الثورية ـ أشغلتني عن هذه الرسائل حين كانا يقطّرانها، في أفواهنا العطشى، قطرة قطرة. وهل تشفي الغليل قطرات من الدمع المالح؟ الآن، وقد هطلت الحجارة على هذه الصحراء فاستصلحتها فأثمرت تيناً وزيتوناً، أرى إلى هذه الرسائل أنها لم تكن مجرد قطرات دمع من

عيـون بخيلة بالدمـع بل مشي حجلان كبيرة تسيـر وراءها أفراخها قاطعة، بأمـان، عرض شارع معبد بالزفت والقطـران. أراها ضجة العصافير، شعراً، في سيمفونية فجائية تبشر بمقدم الربيع إلى بلادنا. والدتـي، حتى في أيامها الأخيـرة، كانت تصر على أن ترقص أمامنا رقصـة الربيـع في بلادنـا: «هيك مَشْـق الزعرورة، يـا يُمَّه هيك!» وكانت تدمع وتبتسم. وكنا، نحن أفراخها، ندمع ونبتسم. أي، والله يا محمود ويا سميح، «هيك مشق الزعرورة، يا يُمَّه هيك»!

تستحـق هذه الرسائل الاسم الذي أطلقه عليها الكاتب محمد علـي طه «رسائل بين شطري البرتقالة» لأن صاحبيها يشكلان حقاً شطـري، أو «شقَّي البرتقالة الفلسطينيـة». «لقد كان كل واحد منا شاهـداً على ميلاد الآخر» كما جاء في رسالة محمود «الاستفتاحية المباركـة» إلـى أخيـه التـوأم، سميـح (مجلـة «اليـوم السابـع» 86/5/19). وليطمئن محمود درويش على أننا، منذ اليوم الأول، عرفنا هوية الجاني فإنه، كما قال في رسالته الأولى:

«من حق الولد أن يلعب خارج سـاحة الدار، من حقه أن يقيس المدى بفتحة ناي. من حقه أن يقع في بئر أو فوهة كبيرة في جذع شجرة خروب. مـن حقه أن يضـل الطريق إلى البحر أو إلى المدرسـة. ولكن ليس من حق أحد، حتى لو كان عدواً، أن يُبقي الولد خارج الدار».

ومـا دام سميح، وإخوة سميح وأخواته، قاعدين هنا ينتظرون، برمشـ العيـن ينتظرون ولا يكتفـون بالانتظار لأن تـرف الانتظار محظـور علينا حتـى جعلوه «حركـة سرية»، ومـا دام الإقرار بيننا متبـادلاً بنصيـب كل واحد منا فـي هذه البرتقالـة وتحفظون ـ عن باطن قلب ـ مناداة توفيق زياد لكم:

«فماساتي التي أحيى
نصيبي من مآسيكم»

فلا بد أن يستجيب القـدر لصرختك الصميمية، صرخة طفل يستجيـر بأمـه: يامَّه! «بدي أعود. بدي أعـود» قديماً كنا نقول إن مصيبتنا تنطق الصخر. لقد نطق الصخر يا محمود. إن العود أحمد! إن العود محمود! إن العود سميح! إن العود بشر!

وأول العـودة إلـى الوطن العـودة إلى الحـب الأول والمنزل الأول ـ «لـك يا منازل في القلوب منـازل» ـ والقصيدة الأولى. ها أنتما قد عدتما إليه:

«قصـيدتنا المشتركة ـ كما كتب سميح ـ في الرامة ودير الأسد وحيفا، وحبنا المشـترك وسجننا المشترك ونضـالنا المشترك وجريدتنا المشتركة وذاكرتنا المشـتركة، هذا العالـم الزاخر، بالفرح الدامـي، الجياش بغبطة التحـدي وكبريـاء الألم، كان رأس النبـع الذي اكتشـفناه، وها نحن نعود إليه». (مجلة «اليوم السابع» ـ 9|6|86)

ولكـن لمـاذا الآن، والآن فقـط، تبـادرت إلى ذهنـي «قراءة أخـرى» لهـذه الرسائـل ـ «الرسائل المتبادلـة بين شقـي البرتقالة الفلسطينيـة»؟ أقرأ كلمة «شِقَّيْ» على أنها «شَقيّ». فيصبح العنوان «رسائـل متبادلة بين شقيّ البرتقالة الفلسطينية، محمود، وبين أخيه التوأم شقيّ البرتقالة الفلسطينية، سميح».

إنني أعرف الجواب. ولكني أحتفظ به، الآن، في نفسي.

ولا تحمـل كلمة «شَقِـيّ»، حينئذ، معنى الشقـاء فحسب بل معنـى الشقاوة حسب قولنا «شق عصـا الطاعة» فهو شقي. وهذا، بالضبـط، وهو المعنى المثير الـذي لم أكتشفه فـي «الرسائل» إلا الآن. وعلـى هذا المعنى يستحقان، مني على الأقل ومني خصوصاً الآن، أن يُعترف لهما بـ «عصا الطاعة».

لـم يأتني، في زحمـة «الرسائل» التـي كنت أبعثهـا إلى ذاتي

محـاولاً التمييز بين القواعـد والقعود، بين الحـدود والقيود، بين «فكـر النفي» و«نفي الفكر»، أنني لست وحيداً ـ بل متأخراً وعلى شفا الرسوب ـ في حمل لواء الانتفاضة الفكرية الشاملة التي تقض، منذ عدة سنـوات، مضاجع الفكرة التقدمي الثوري حتى لم تبق لنا من «أمام» سوى «إمام المعري»:

«كذب الظن لا إمام سوى العقل   مشيراً في صبحه والمساء»!

لقد وجدتُ هذين «الشقيين»، في «الرسائل» بل منذ أن شبا على الطوق ـ وكان طوقنا أحياناً ـ رافضين، أبداً، لكل ما يحول بينهما وبين حرية التفكير، ولا تكون حرية التفكير إلا بحرية النقد، لا يقبلان ـ في هذا المجال الذي بدونه تضمحل وتتلاشى ثم تزول إنسانية الإنسان ـ أية ذريعة، لا ذريعة «دستور» ولا ذريعة «مسؤولية سياسية».

الآن فقـط، فـي خضـم «الكارثـة والبطولة» ـ فـي «الحرب الكونية الفكرية» الناشبة الآن في حركتنا ضد الجمود والقعود ومن أجل استبدال المواعين النحاسيـة الصدئة، حتى التسمم، بمواعين حضارية لا تصدأ ـ يسير الفكر التقدمي الثوري، عبر أشرس مقاومة وصلت في بكين عاصمة الصين إلى دوس الطلبة بجنازير الدبابات ووصلت في جمهورية أوزبكستـان السوفييتية إلى ذبح الأقليات، نحـو الاعتراف بأنه لم يعد لدينـا من «طابو» سوى رفاهية الإنسان وسعادتـه المادية والروحية التـي لا يمكن أن تتحقـق إلا بانطلاقة ديمقراطيـة شاملـة لا تكتفـي بالاعتـراف بحرية النقد بـل تضمن ممارسته مثلما فعل الأنبياء السالفون.

لقـد شقي هذان الشقيان، بشن هذه الحـرب، في بلادنا وفي مجتمعنـا وفـي حركتنا، منذ أن شبَّا على الطـوق وشقَّا علينا، نحن أيضاً، عصا الطاعة.

وأعلم أنــه ليس عرضــاً اختيارهما إياي لكتابــة هذه المقدمة لهــذا الكتاب الذي يجمــع الرسائل العلنيــة المتبادلــة بينهما. فأنا «واحد منهم». أما هما فلم يترددا في ارتياد ممالك الشاعر بايرون الذهبية. وأما أنا فاكتفيت بما اكتفى به الروائي جول فيرن: أقعدتني المسؤوليــة فلــم أشق عصا الطاعــة عليها إلا فــي رواية واحدة هي «لكع بــن لكع» غير أني مضيــت «أتكتك» في كتابتهــا ـ من شدة المسؤولية ـ حتى «أكلتها التكتكة» ولم يبق سواي من يفهمها. فلما طلع الصبح علينا، في عصر «الصراحة والعلنية والتفكير الجديد»، أدركــتُ أن شجاعتي الأدبية إنما اقتصرت على نقد «لكع الآخر»! أمــا «لكعي» فلم أجرؤ علــى أن أنبس عنه ببنــت شفة. فلما أردت النطق، الآن، باعني أتباعه بالعملة نفسها!

لــن أتستر وراء هــذه المقدمة لضرب ما أحتاجــه من مراجعة الــذات «على بزرة دانها». لن يعود الشيخ إلى صباه. ولكن شيخاً، فــي لؤلؤته بقية من جمر خير من شاب يرفض أن يفتح عينيه بعد أن تعــود على العمى. يكفيني من هــذه المقدمة بضعة من أقوال هذين الشقيين في «الرسائل المتبادلة»:

قول محمود: «لا فكاك مــن الحاضر مهما استقلت منه. فهو الطريق الوحيد، مهما ضاق واتسعَ، إلى نقطة المستقبل».

وقول سميح: «نحن في حاجة لنارنا القديمة، على سذاجتها، لأنها الخاص الكامن في أعماقنا مثل حبة الرمل الكامنة في أعماق اللؤلؤة».

أرجــو أن تقبلا مني امتنان الوالد للولد حتى أولاد الولد. ومن خلَّف مثل هذا الجيل ما مات.

ولقــد كنت، فــي الامتحان الذي أقعد لــه الآن، في حاجة إلى

الاطمئنـان إلى العلاقات الإنسانية العاديـة. وعلى رأسها الصداقة. لقد هزتني، من الأعماق، كلمة ميخائيل غورباتشوف عن ضرورة وضـع حـد للبون الشاسـع القائم حاليـاً بين السياسـة والأخلاق. فلمـا أردت أن أفعـل ذلك «بكـى صاحبي» ولم يبق لـي إلا البكاء علـى «أصدقاء المتنبي». فوجدت سميحـاً، في إحدى «الرسائل» يطمئننـي علـى أن علاقات الصداقـة بخير إذا هبطنـا بالصداقة من سماء المثالية إلى أرض حياتنا. دهشت حين وجدته يقول:

«تلـح عَلَيَّ فكرة الصداقة... وقد تكون هذه هي المرة الأولى التي أتأمل فيها هذه المقولة البسيطة (صداقة). ويتضح لي على الفور أنها ليسـت بسيطة على الإطلاق. وحين أحـاول تعريفها أكتشف أن الأمـر ليس مـن السهولة بمكان. تماماً كمـا يُطلب إلينا تعريف الشعـر. وأتملص من نفسـي إلى نفسي قانعاً بالحكـم أن الصداقة هـي ما بيننا ـ خيراً وشراً، سلباً وإيجاباً، إقامة وغربة... وأطمح إلى الزعم بأن الصداقة كالصحة، مستنجداً بالقول المأثور: الصحة تاج علـى رؤوس الأصحاء لا يراه سـوى المرضى. هل حالفني الحظ؟ لا ليس تماماً. فنحن الأصحـاء ونحن المرضى. نحن التاج ونحن العين التي ترنو إليه دامعة بدخان الروح، حمراء بغبار الغضب».

بل حالفك، حالفكما، الحظ وتماماً.

و«هيك مشق الزعرورة» وبس هيك.

وأتمنـى أن أكـون معكمـا فـي الأجـزاء القادمـة مـن كتاب «الرسائـل». وأمـد الله في عمركما حتى بعد مطلـع الصبح فأنتما، لشعبكما وللإنسانية، ما قيل عن «سرج الدنيا».

حيفا 1989/6/16

الحزمة
الأولى

في هذه الحزمة مجموعة من الرسائل والقصائد المتبادلة بيـن الشاعرين منـذ فتوتهما الشعرية والزمنيـة. ننشر هنا آخـر قصيدتين/ رسالتين، أما مـا تبقى فقد نعثر عليه ذات يوم بين أوراق الشاعرين

تغريبة

[إلى محمود درويش]

لبيروت وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن صديقان
سجنا ومنفى
قطعنا بلادا وراء بلاد
وها نحنُ، في تعتعاتِ الدوار
نعودُ
وزادُ المعاد
عناقٌ سريعٌ بباب مطار.
أكانَ اللقاءُ اعتذارا؟
أكانَ الوداعُ فرارا؟
بدون كلام نمدّ اليدينْ
ويا ليلُ يا عينُ
لا الليل ليلٌ
ولا العينُ عينْ
يفرّقُنا العالمُ اليعربيُّ
ويجمعُنا العالمُ الأجنبيُّ

ونبقى أجانبَ في العالمين!
ويبقى الرحيلْ
مع الريح، من منزلٍ في الجليلْ
إلى الريحِ
في فندق غامضٍ
يعانقُ فيه القتيلَ القتيلْ...
بدون سلام
بدون كلام
تقبِّل في عُنقي قلبَ أُمِّكْ
«ورُبَّ أخٍ لكَ...»
أُلقي بهميَ على صدرِ هَمِّكْ
ونبكي ونضحكُ
... في غربتينْ!
أَتسألني كيف حالي
وأنت جوابُ السؤالِ؟
عذابيَ فُلهْ
وموتيَ قُبلَهْ
بلا شفتين
ذهبتُ وحيداً
وعدتُ وحيداً
يتمتمُ فيَّ عجوزٌ حقودٌ:
متى؟ كيف؟ أينَ؟
متى؟

كيف؟

أين؟

■■■

للندنَ وجهانِ
وجهٌ لحيفا
ونحنُ رفيقانِ
خصماً وإلفا...
يؤرّخنا الحبُّ والموتُ
في دفتر الأرضِ
تغريبة للمهاجرْ
وتغريبة للوطنْ
ونفضي بأسرارنا للقباب
وننقش أحزاننا في القناطرْ
ونُطلقْ من جرحنا عندليبا
يزلزلُ صمتَ الزمنْ
ونعجنُ بالدمع
خبزَ المجازرْ!
أتَذْكُرُ ضرعاً شهياً
رضعناهُ دون شهيّة؟
وزيتونةً غادرَتْنا
كسائحة أجنبيّة؟
وعاشقةً
ما رَحَمْنا هواها،

وظلّتْ وفيّة؟
أتذكُرُ أيّامَ جُعنا
معاً
وشبعنا
معاً
ثمّ جعنا
معاً
وعشقنا
معاً
ثمَّ ضعنا؟
سلامٌ عليكَ
سلامٌ عَلَيَّا
على الحبِّ
يولَدُ
ثمَّ يموتُ
سلامٌ عليه –
ويُبعثُ حيّا؟
لكلِّ المغنيّن
أُمٌّ حزينه
وكلُّ مغنٍّ
مدينه
تنامُ
وفي قلبها نجمةٌ

وتصحو
وفي جُرحها... غنغرينه؟
ونحنُ،
شروق الاغاريد كنّا
فهل سنكونُ
غروبَ الضغينه؟!
من «الرامة» الخائفه
إلى «البروة» السالفه
إلى دمعةٍ بيننا واقفه
تقوم على الرمل دنيا
وتسقط في الوحلِ دنيا
وأعداؤنا
لعنةٌ
يُحجمُ الموتُ
وهْي على رِسْلها زاحفه
وأنصارنا
عملةٌ زائفه
فماذا عسانيَ أفعلُ وحدي
وماذا ستفعلُ وَحدَكْ
وقد صارَ لحديَ مهدي
ومهدُكَ لَحْدك؟
أأُنشد عنكَ
وتنشدُ عني

لصحراء قاحلة قاحله
يموت على ساعديها المغني
وتتركه خلفها القافله؟
أَتَخرجُ حوريّة البحرِ
من صَدَفِ القاع
أم أوصدَ البحر أَسرارهُ
وانتهينا،
نُتمتمُ سخطاً:
متى؟
كيف؟
أين؟!

■■■

تساءَلتُ في ساعةِ القصفِ؟
هل أدركتْهُ القذائفْ
مُكباً على نبأ في جريده؟
وهل أخطأتْهُ القذائفْ
ليشربَ كأساً جديدهْ
ويودعَ لوعته في قصيده!
تساءَلتُ: كيفَ هو الآنَ
غضبان
جوعان
بردان
خائف؟

وهل فاجأتْهُ القذائف؟
وهل أمهلتْه القذائف؟
على شاشة التليفزيون
أبصرتُ وجهك
في ضوء قنبلةٍ مُشمسه
وكانت بقربك جثّةُ طفله
وقُصفةُ فُلّه
وأفواهُ قتلى المحبة والشوقِ
مفغورةٌ...
آخ... أبواق خزيي وخوفي
تُجلجلُ بالدمِّ
ما من سميع وما من مجيبْ
سوى قهقهات سكارى سدوم
وهزءِ عمورا وتلِّ أبيبْ
وأدنيتُ كفّي لوجهكَ
حاولتُ أن ألمسه
على شاشة التلفزيون
في ضوءِ قُنبلة مُشمسَه
وكانت بقربك جثّةُ طِفلهْ
على وَجهها وجهُ حُبّي «محمّد»
و«وضّاح» يزعقُ رعباً
على شاشة التليفزيون
يزعقُ رعباً

ويجذبُ زندَ «عُمرْ»
لعلَّ ملاذاً ببعض الحُفَرْ
ومتُّ
ومتَّ
وماتَ البَشَرْ
جميع البشرْ
ومات القمرْ
وراحتْ تكفّنُه الريحُ سرّاً
وتدفنهُ في هشيم الشجرْ
ولم يبقَ من عالم اللهِ والناس
إلا خبرْ
شظايا خبرْ!
وكانت بقربكَ جثّه
إلى جنبِ جثه
وفي القلب جثه
وما كان بالقرب منّي
سوى دمعِ عيني
«وربَّ أخٍ...»

■■■

لباريس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن شقيقان
حِلماً وسُخفا

وتعرفُ قلبي
وتعرفُ حزني
ووردةَ حُبي
وخيبة ظني
وتبصر بيتك في وهج صوتي
وأسمع صوتك
في صمتِ بيتي.
«ورُبَّ أخ لك...»
فكَّرتُ فيكَ
لأني أُحبُّ بلادي
وفكّرت فيَّ
لأنّ البلاد
– دع الشِّعر –
ليست تفكّر في النازحين
وليست تُفكر في الرازحين
– دع الشعر –
كيف يفكّر صخرٌ وطين؟
– دع الشِّعر –
نحنُ حطامُ الأغاني
ومجزرةُ القمح والياسمين
وأعداءُ أطفالنا يضربون
وأصحابنُا يكذبون
ولم يبقَ في الأرضِ

غير الذين
يحبّونا ميّتين
وإن قدَّرَ اللهُ حُسْنَ النوايا
فقد يقبلون بنا لاجئين
ومُستضعَفين
ومستنزفَين...
وفكَّرتُ فيك
وفكَّرت فيّ
لأن الشهيدَ
صديقٌ وفيّ!

■■■

لبيروت وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ صديقان
سجناً ومنفى

للندن وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ رفيقان
حباً وخوفا

لباريس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحنُ شقيقان
قمعاً وعسفا

لتونس وجهان
وجهٌ لحيفا
ونحن غريبان
نحنُ غريبان
نحنُ غريبان
ما من زمانٍ
وما من مكانٍ
لماذا؟ لماذا؟
وأين؟
وكيفا؟
ووجهٌ... لحيفا

سميح القاسم
الرامة – 1982/10/27

أسمّيك نرجسة حول قلبي

(إلى سميح القاسم)

دوائرُ حولَ الدوائرِ، لو كان قلبي مَعَكْ
قطعتُ مزيداً من البحرِ. ماذا أصابَ الفَراشَ،
وما صَنَعَ النبعُ بالفتياتَ الصغيراتِ؟ ماذا دهانا؟
لندخل هذا العناقَ السرابَ... العناقَ السرابَ السرابْ
ونحن على مشهدٍ لا يُكرِّرُ إلا حضورَ الغيابْ
تماثيلَ تُحصى، حصى، مشمشاً، شارعاً، شارعين، وبابْ
يطلُّ على خُطْوةٍ لم تصلْ بعدُ. ماذا أصاب الوهجْ
وما فعلَ الليلُ بالعتبات الأليفةِ؟ ماذا دهانا؟
لتنفصلَ العينُ عن نظرةٍ صَوَّبتَها؟ أحين تمدُّ الجذورْ
رسائلَها في الفضاءِ لتمتدَّ فينا يغيبُ الحضورْ؟
غيابٌ حُلوليَ في كُلِّ دارْ. غيابٌ بلادٌ أُشيّدها في اللغهْ
غيابْ دخوليَ في الروحِ. لا شيءَ فيَّ. غيابٌ غيابْ.
إذا غَفَرَ اللهُ للأنبياءْ
وعادوا إلى الأرضِ من ملكوت العقيدهْ؛
إذا غفر اللهُ للسجناءْ
وعادوا إلى البيت من رحلةٍ في مساء القصيدهْ؛

إذا غفر اللهُ للشهداءْ
وعادوا إلى الأهل من جنَّة الكلماتِ البعيدهْ
فهل تغفرُ الأمُ لي
رحيلي إلى امرأةٍ ثانيهْ؟

■■■

دوائرُ حول الدوائر، دعني أُفسِّرْ لكَ الحادثهْ
حلمتُ، كما كُنْتَ تَحلم، أَن حزيران أقسى الشهورْ
وأَنَّ الكلام الذي يتكرَّرُ فينا لكي نتبعهْ
هو الكارثهْ.
حلمتُ، كما كنتَ تحلمُ، أن البحيرات زرقاءُ خلف يديَّ، وخلف يديكْ.
وأن الطريق المعاكسَ أقربُ منّي إليَّ، وأقربُ منكَ إليكْ،
وأن لحريتي رمزَ تموزَ والزوبعهْ.
حلمتُ فَطْرتُ لأدخل، ثانيةً، في الجذورْ
وغبتُ لأُحضِرَ كلَّ هدايا اللغهْ
إليكْ...
وكدتُ أعود قُبَيْل انبثاق الفراقْ
ولكنَّ حادثةَ الوهم تَّمتْ، وتَمَّ احتراقُ البُراقْ.
على شارع عجَّ بالحالمين،
وبالرحلة الثالثهْ.

■■■

إذا ظَلَّت الروحُ خارجَها
ضَلَّلتْ روحَ داخلها

■■■

أسمِّيك نرجسةً حول قلبي
لو كان قلبي معكْ،
وأودعتهُ خَشَبَ السنديانِ،
لكنتُ قطعتُ الطريقَ بموتٍ أقلَّ...
أما من وراءٍ؟ أما من أمامٍ؟ أما من صعود؟
أما من هبوط؟
أما آن للفارس المُرِّ أن يتوسَّدَ ظِلاًّ
وأن يشتري قبرَهُ قبل أن ينفدَ القفرُ. ماذا دهانا
أما كان من حقِّنا أن نُصَدِّق امرأةً واحدهْ
وأُسطورة واحدهْ؟
حرامٌ علينا مكاشفةُ الذات. هل ترقص الباسادوبلي
وتعبر في شارع المومساتْ؟
أما كان من حَقِّنا أن نواصل ذاك الضحكْ
وكَسْرَ الزجاجات في شارع الليل حين يموتُ الملكْ؟
لنا الذكرياتُ، وللغزوِ ترجمةُ الذكرياتِ إلى أسلحهْ
ومستوطناتْ.
أما زلت تؤمن أن القصائد أقوى من الطائرات؟
إذن، كيف لم يستطع إمرؤُ القيسِ فينا مواجهة المذبحهْ؟
سؤالي غلطْ
لأنَّ جروحي صحيحهْ
ونطقي صحيحٌ، وحبري صحيحٌ، وروحي فضيحهْ.
أمـا كان من حَقنـا أن نكرّس للخيل بعضَ القصـائد قبـلَ انتحار القريحهْ؟

سؤالي غلطْ
لأني نمطْ
وبعد دقائق أشربُ نخبي ونخبكَ من أجل عامٍ سعيدٍ جديدٍ جديدٍ سعيد
جديدٍ سعيدْ.

■■■

إذا ضلَّت الروحُ خارجَها
ضلَّلتْ روحَ داخِلها.

■■■

سنكتبُ، لا شيء يثبت أني أُحبك غير الكتابهْ
أُعانق فيك الذين أحبوا ولم يفصحوا بعد عن حُبِّهم.
أُعانق فيك تفاصيل عمر توقَّفَ في لحظةٍ لا تشيخُ.
هنا قلبُ أُميّ، هنا وجهُ أُمِّك.
هنا أوَّل الشعر والسخريهْ.
هنا أول السُلَّم الحجريِّ المؤدي إلى الله والسجن والكلمهْ.
هنا نستطيع انتظارَ البرابرة المؤمنين بجحشٍ توقف في أرضنا قبل
ميلاد عيسى عليه السلام،
وأسَّس دولته بعد ألفي سنهْ.
أتحسب أن الزمانَ يُضَيِّعُ حَقَّ الحمير بقتلِ العربْ؟

■■■

سنكتب، لا شيء يثبتُ أنَّ الزمانَ طويلُ اللسانِ سوى الكلمات التي
لا تَصُدُّ سوى موتِ صاحبها
فقُلها

وقُلْها
وخفِّفْ عن القلبِ بعضَ التلّوثِ والأسئلهْ
وقُلْها
وخفِّفْ عن الناس ساديّة العصرِ والأخوةِ- القَتَلَهْ
سنكتب من غير قافيةٍ أو وطنْ
لأن الكتابة تثبت أني أُحبكْ،
وأنَّ لأُمي حقاً بقلبكْ
وأنَّ يديك يدايَ، وقلبي قلبُكْ!

محمود درويش
باريس- 1986

الحزمة
الثانية

رسالة أولى



- عزيزي سميح،

... وما قيمة أن يتبادل شاعران الرسائل؟

لقـد اتفقنا علـى هذه الفكـرة المغريـة منذ عامين فـي مدينة استوكهولـم الباردة. وها أنذا أعتـرف بتقصيري، لأنني محروم من متعـة التخطيط لسبعة أيام قادمة، فأنـا مخطوف دائماً إلى لا مكان آخر. ولكـن تسلُّل الفكـرة المشتركة إلى الكثيرين مـن الأصدقاء تحوّل إلى إلحاح لا يُقاوم. كي تبهجني قراءة الرسائل! وكم أمقت كتابتها، لأني أخشى أن تشي ببوح حميم قد يخلق جواً فضائحياً لا ينقصني، حتى تحولت هذه الخشية إلى مصدر اتهامات لا تحصى، ليس أفدحها «التعالي». كما هو رائج!

الآن، أشمر عن عواطفـي، وأبدأ. لا أعرف من أين أبدأ عملية النظر إلـى مرآتنا المشتركة. ولكني سأبـدأ لأنضبط ولأورطك في انضباط صارم. سيكون التردد أو التراجع قاسياً بعدما أشهدنا القراء علينـا؛ وبعدما هنأتك بعيد ميلادك الذي يواصل صناعة الفارق بين

العمر والصورة. كل عام وأنت في خير حتى نهايات النشيد.

لـن نخدع أحداً، وسنقلـب التقاليد، فمن عـادة الناشرين، أو الكتـاب، أو الورثة أن يجمعوا الرسائل المكتوبة في كتاب. ولكننا هنا نُصمم الكتاب ونضع له الرسائل. لعبتنا مكشوفة. سنعلق سيرتنا على السطوح، أو نواري الخجل من كتاب المذكرات بكتابتها في رسائل.

انتبه جيداً، لن تستطيع قول ما لا يُقال. فنحن مطالبان بالعبوس، مطالبان بالصدق والإخفاء ومراقبتهما في آن. مطالبان بألا نشوه صورة نمطية أعدتها لنا المخيلة العامة. ومطالبان بإجراء تعديل ما على طبيعة أدب الرسائل؛ أبرزه استبعاد وجود الشهود وجمالية الضعف الإنساني. فكيف نحل هذه المعضلة التي يُجمد بقاؤها الفارق الطليّ بين الرسالة والمقالة؟

سنحاول إفلات النص من ضفافه، إذ لعل أبرز خصائص الكتابة هــي فن تحديد الضفاف الذي يسميه النقد بناء؛ فلنكسر البناء لتعثر لعبتنا الجديدة على ساحتها المفتوحة.

وأصـل الحكاية - كما تذكر- هو رغبتنـا الوارفة في أن نترك حولنا، وبعدنا، وفينـا، أثراً مشتركاً وشهادة على تجربة جيل تألب على نـور الأمل وعلى نار الحسـرة، وأن نقدم اعتـذاراً مدوّياً عن انقطـاع أصاب ساعة في عمرنا الواحـد، وأن نعيد ارتباطنا السابق إلينا وإلـى وعي الناس ووجدانهم، لنواصل هـذه الثنائية المتناغمة ـ ثنائيتنـا ـ إلى آخـر دقيقة في الزمن، بعدما تمرَّدنـا عليها في مطلع التكـوُّن الجنيني تمرداً كان ضرورياً لبلورة خصوصية لا بديل عنها في الشعر، ثم تجاوزت نزعتها الاستقلالية لتتحول إلى تناحر سفيه قـد كان أحد مصادره إحساس الواحد منا، بشكل مفاجئ، بقطيعة

حوار توصلُ إلى يُتم. لقد كان كل واحد منا شاهداً على ولادة الآخر. فلنتابع هذه الشهادة.

ولكن، ما قيمةُ أن يتبادل شاعران الرسائل؟

لسنا بشاعرين هنا، ولن نكون شاعرين إلا عندما يقتضي الأمر ذلك. هل هذا ممكن؟ لا أعرف إن كنت سترضى بهذا التغييب الملازم لاستحضار إنسانيتنا المقهورة «بعدوان» الحب والقصيدة، منذ حول العربيُّ الجديد شاعرهُ الجديد إلى موضوع. فماذا نريد أن نقول؟ لقد فعل الشعر فينا ما تفعل الموسيقى بموضوعها، تتجاوزه للافتتان بذاتها وأداتها. ولكن أين مكاننا؟ أين لحمنا ودمنا؟ أين طفولتنا؟

لقد تعبتُ من المهارة. ولكن أعجبتني حاسة المهارة المنتبهة إلى ذاتها في مجموعتك الشعرية الجديدة. ومع ذلك، فإن أكثر ما يعنيني هو إنسانيتك. وهنا تحديداً: أبوك. لقد أعادتني مرثيتك إليه، إلى كرم الزيتون المعلق على خاصرة السمو الراسخ، وإلى قدرتنا على الدهشة وسط تبدل الروائح الصلبة في الطبيعة، وإلى الحدود الناتئة الفاصلة بين الفصول. مَنْ لا مكان له لا فصول له. ولكنني ما زلت مفتوناً ومجنوناً بخريفنا. وخريفنا ليس هو الشجر المدافع عن بذاءة الذهب، ولكنه الرائحة. فكيف ستنقل إلي هذه الرائحة بالرسائل؟

خذني إلى هناك إذا كان لي متسع في السراب المتحجّر، خذني إلى مضائق رائحة أشمها على الشاشة وعلى الورق وعلى الهاتف. وإذا تعذر ذلك فليسمع منك كل الحصى والعشب والنوافذ المفتوحة اعتذاري الجارح.

من حق الولد أن يلعب خارج ساحة الدار. من حقه أن يقيس المدى بفتحة ناي. من حقه أن يقع في بئر أو فوهة كبيرة في جذع

شجرة خـروب. من حقه أن يضلَّ الطريق إلـى البحر أو المدرسة. ولكـن ليس من حق أحد، حتى لو كان عدواً، أن يُبقي الولد خارج الدار.

لـم نذهـب إلـى العمر في هـذه الطريقـة، بل ذهبنـا على هذا الطريـق. هل تذكر هتافك الساطع «أبداً على هذا الطريق»؟ أبداً... أبـداً وإن تعرَّج، أو عرج بنا على مناف لم تخطر على بال آلهة الشر الإغريقية. ولا أفعى جلجامش فعلت ما فعلت بنا بنت الجيران. هل تذكر الشارع الخـارج من عكا إلى الشمال العربي، وسكة الحديد الموصلة إلى الجنوب العربي؟ ولكن، أبداً... أبداً على هذا الطريق مهما اشتد مزاح الزمن، ومهما توسع حمار الخواجا بلعام...

لســتُ نادماً على شـيء، فما زلتُ قادراً علـى الجنون، وعلى الكتابة وعلى الحنيـن، ودون أن أتساءل: هل سبقت الفكرة أداتها ليتكاثر عليها هذا الحصار؟ أصرخ في وجوه الذين يدفعون الفكرة إلـى الضجر: أن روحي هنـاك. وأقول لـك: إن أولئك المحتلين، الواقفين بيني وبينـك، لا يستحقون أية مقارنة مع أي شر عربي... عبيـد الخرافات، طفيليات العجـز المحيط، سلالة الانتقام، لا حق لهم فـي التصفيق لحماقة الآخرين التي تواصـل إنتاجهم المؤقت. ومـاذا لو انتصـروا في غياب؟ هل يضمن فولاذهـم القوي النجاح الدائم لفكرة ميتة؟ وهل تصوغ الأداة الحق من الزائل؟

لهذا السبب أحارب الالتباس الخبيث، ولا أمد حنيني على جسر فردي. فكن أنت جسري الصلب، وقدم لجدل «الداخل والخارج» عافية التواصل. عوضني عن غياب لأفرح: ما دمت هناك أنا هناك. وافتح النافذة المطلة على العكس. ما كان يطل على الخارج، فينا، يستدير ليطل على الداخل، هي الدائرة... هي الدائرة.

ويلحـون علـيَّ ليقتلوني: هل أنت نادم علـى سفر؟ لم يذهب شـيء عبثاً، لم يذهب. وقد حاولنا أن نضخ الوعد بما أوتينا من لغة وحجارة ودم؛ وما زلنا نحاول البقاء والسير. لن ينكسر الصوت ما دام شعبي حياً... حياً... حياً، وما دام للأرض يوم هو هوية العمر. فلماذا يُساق فـرد واحد إلى سؤال: هل أنت نادم على سفر؟ سُدى أحـاول أن أرد السؤال إلى سياقـه، فأهمس في آلة تسجيل صغيرة: إذا كان هذا يريحكم، فأنا نادم على سفر!

المـكان، المكان، أريـد أي مكان في مـكان المكان لأعود إلـى ذاتي، لأضع الورق على خشب أصلب، لأكتب رسالة أطول، لأعلـق لوحة على جـدار لي، لأرتب ملابسـي، لأعطيك عنواني، لأربـي نبتـة منزليـة، لأزرع حوضـاً من النعنـاع، لأنتظـر المطر الأول. كل شـيء، خارج المكان، عابر وسريع الزوال حتى لو كان جمهورية. ذلك... ذلك هو ما يجعلني عاجزاً عن الرحيل الحر...

ولكنـك ستكتـب إليّ، لإعـادة تركيب ما تفـكك في النفس والزمـن، لرفع رافعة التـوازن لثنائية «الداخل والخـارج» الخاصة والعامـة، لاستعـادة أولـى الطرقـات الصاعدة إلى أفـق يفيض عن الطـرق. ستكتب إليّ. سأكتب إليك... لأعـود. فما زال في وسع الكلمـات أن تحمل صاحبها وأن تعيد حاملها المحمول عليها إلى داره. وما زال في وسع الذاكرة أن تشير إلى تاريخ. ويجتاحني نداء راعف إلى عودة، عودة ما إلى أول الأشياء وإلى أول الأسماء، فكن أنت عودتي!

إذن، اخرج من خزانة الثياب لنلعب لعبة أخرى مع فتيات أخريات، ولا تتلكأ طويلاً في الشوارع الخلفية، فأنت على موعد مع الشاطئ. حيفا حارة في الصيف ورطبة. ولا تنسَ أن تزور

محطة الشرطة وأنت في طريقك إلى البحر. لا تنسَ أن تسأل الضابط عن موعد الاعتقال القادم. قدم له سيجارة واطلب منه سجناً أنظف من سجن الشهر الفائت. ولا تنسَ المقال في «مقهى روما» كالمعتاد.. وإن جاءت «السيدة»، سلّم عليها وقل لها: سافر... وسيعود قريباً. ولا تسألها عن الجنين!...

قريباً؟ ست عشرة سنة! ست عشرة سنة كافية لتقبل بنيلوب وُدَّ خطابها وتلعن بحر أيجه. ست عشر سنة كافية لأن تتحول الحشرات الصغيرة على جراح أيوب إلى طائرات نفاثة. ست عشرة سنة تكفي لأصرخ: بدي أعود. بدي أعود. كافية لأتلاشى في الأغنية حتى النصر أو القبر...

ولكن، أين قبري يا صديقي؟ أين قبري يا أخي؟ أين قبري؟...

أخوك محمود درويش

(باريس - 1986/5/19)

الوطن ينتظر عودتك...

- أخي محمود،

إذن، هكذا نكفُّ قليلاً عن عبث الغربة ونخترع لأنفسنا لقاء ما. وها أنت منذ رسالتك الجديدة (لماذا تسميها رسالة أولى؟) تقترح بذكائك الذي أعرفه قاعدة للعبة وكأنك لا تعرف أخاك في عناده (برج الثور) وشهوته الفادحة للعب بلا قواعد!

«نحن مطالبان بألا نشوه صورة نمطية أعدتها لنا المخيلة العامة...».

هكذا تقول في رسالتك، هديتك الرائعة لي في يوم ميلادي المروع. لا بأس عليك يا أخي الحبيب فهناك من هم أقدر منا على تشويه «صورتنا النمطية هذه». أما نحن فما علينا إلا أن نرمم «المخيلة العامة»، المخيلة الطيبة المدقعة الهالكة شوقاً إلى موت أليف في زمن الضجيج والوحشة والنعيب. وماذا بشأن مخيّلتنا نحن. مخيلة جيل برمته، حاصروها منذ طفولتها الأولى بكأس امرئ القيس الذهبية وأُبهة ابن أُمية، وسيجوها بمطالع المتنبي

المدهشة وصهيل الخيل وصليل السيوف منذ داحس والغبراء مروراً بالقادسية حتى «حرب تشرين المجيدة»؟ ماذا عن ذاكرتنا المحرومة من غضب الصعاليك ونقاء الغفاري ولوعة ابن زريق البغدادي؟ لقد جرّوا إلى قلوبنا أنابيب نفطهم ومائهم هم، وتركونا نتخبط بحثاً عن رأس النبع حيث ماؤنا نحن... فما الذي كان وما هو الكائن وما الذي سيكون بعد إذ صعقوا مخيّلة طفولتنا عام 1948 وصعقوا مخيلة فتوتنا عام 1956 وصعقوا مخيلة شبابنا عام 1967 وقايضونا عين جالوت بكامب ديفيد، والحبل على الأعناق.

خانوا ذاكرتنا، بملوكهم ورؤسائهم وحكوماتهم ومؤسساتهم. خانوا ذاكرتنا شعباً وجيلاً وشعراء. وأباحوا لأنفسهم انقصافنا مثل قصبة هشّة أمام عاصفة الوكالة اليهودية والكومنولث وجامعة أنتوني أيدن العربية.

لا بأس عليك، لا بأس عليَّ. علينا أن نرمم الذاكرة.

مُدَّ إليَّ يدك النحيلة عبر المتوسط. لا تكترث بحاملات الطائرات والطرادات الصاروخية فهي منهمكة بلحم طفلة عربية من ليبيا آمنت بأن رأس الدوتشي موسوليني لا تصلح قمراً للصحراء.

مُدَّ إليَّ يدك في غفلة من أنبياء الكذب وشهود الزور. وتعال نأخذ نصيبنا من دهشة العيد الأول للقصيدة البكر يوم كانت زيارتك الأولى للرامة. كان ذلك بالأمس القريب، منذ ربع قرن فحسب. هل تذكر كيف استولينا على مضافة أبي العليا وحوَّلناها بلا استئذان إلى منتدى ثقافي لثلاثةٍ من الشبان المدججين بدواوين علي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل وأبي القاسم الشابي وكتابات جبران النبوية؟ هل تذكر ذلك الشاب الذي حاصرنا وأمطرنا بوابل من قصائده حتى ضقنا ذرعاً فتهامسنا: «اللهم اجعل

هـذه الليلة خيراً... فهذا الفتى قد تأبط شعراً(!) ما كان النوم مُتاحاً إلا فـي ساعة متأخـرة من الليل أو في أختهـا المبكرة من النهار... وآنذاك شددت اللحاف إلى ما تحت أنفك مودعاً: (بخاطرك)!

«بخاطـرك!» لمـاذا أتوقف عند هـذه الكلمـة؟ آه. صحيح، لأنـك لم تقلها لي حين أرهقتـك ليلة ما في موسكو فشددت مصر إلى ما تحـت أنفك. لقد أحزنني رحيلك أكثـر مما أغضبني. كان فـي رحيلك قسط من الأنانية بقدر مـا كان قسط مماثل من الأنانية في سخطي عليك. والغريب في الأمر أن كتيبة بأكملها من الكتاب والصحفيين والشعراء والقراء رأت في (حادث الطرق) هذا منطلقاً تاريخيـاً لتجديد أمجاد القيسية واليمنيـة حتى إنهم أقسموا بلا رفة هـدب أن قصيدة (إليك هناك حيث تموت) موجهة إليك رغم أنها نشـرت قبل رحيلك بعامين. هكذا كان. بيد أن قصيدتنا المشتركة في الرامـة ودير الأسد وحيفـا وحبنا المشتـرك وسجننا المشترك ونضالنـا المشترك وجريدتنـا المشتركة وذاكرتنـا المشتركة، هذا العالم الزاخر بالفرح الدامي، الجيّاش بغبطة التحدي وكبرياء الألم، كان رأس النبع الذي اكتشفنا وها نحن نعود إليه.

قلـتُ (الرامة) وقلـتُ (دير الأسد). وتحضـر على الفور تلك البدايـة السحيقة اللصيقـة (لعملنا المشترك). فـي أعقاب زيارتك لـي في الرامة أهديتني قصيـدة. كان عنوانها (عروس جبل حيدر). وكان مطلعها:

في حضن حيدر ترقُد   حيثُ الجمال مغردُ

وبالطبـع كان علي أن أرد على النار بالمثـل. وهكذا أهديتك قصيدة معارضة. كان عنوانها (بلبل دير الأسد). وكان مطلعها:

قلبي يثور ويزبدُ   وعلى الحنين يعربدُ

مهلاً. انتظر. راجع المطلعين معي. ألا تلاحظ شيئاً، بل تلاحظ بالتأكيد من خلال هذين البيتين أننا منذ بداياتنا كنا مكرسين للتماثل والتناقض في آن. التماثل في الوجدان والتناقض في شكل التعبير عن هذا الوجدان.

تأمل مفرداتك: حضن، ترقد. مغرد.

وتأمل مفرداتي: يثور، يزبد، يعربد.

يـاه. أتعلم يا محمود؟ قد يعثر النقـاد في هذين المطلعين على المفتـاح الحقيقـي لمداخـل تجربتينا ـ تجربتنا. مـن جهتي، يبدو لـي الآن أن مناخك الشعـري كان صافياً منذ البدايـة، وأن مناخي الشعري كان غائماً منذ البداية.

قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون. إلا أنني مُقدم على البوح لكل هنا بسر رافق خطواتنا الأولى. قبل ثلاثين عاماً كنت طالباً في مدرسـة الناصرة الثانوية. وإلى جانـب ممارسات سرية شتى كنت أمارس كتابـة القصائد البذيئـة الصاخبة هجاء لمعلـم أو تجريحاً لزميـل أو غزلاً في طالبة. وكان الطـلاب يتناولون هاتيك القصائد مـع ساندوتشات العطلة الصباحية، متلمظين بعدها بما طالب لهم مدحـاً أو قدحاً. في تلـك المرحلة اكتشفت بايـرون وشيللي عبر المنهاج الدراسـي. وخيل إليّ آنذاك أن بايرون أقرب إلى قلبي من صديقـه وزميله. وذات درس مـن دروس الأدب الإنجليزي علمنا المعلم أن والد بايرون كان ضابطاً متقاعداً من الجيش برتبة كابتن. فجـأة انفجر طالـب يدعى سعيد الصـح ضاحـكاً. دهشنا لجرأة زميلنا علمـاً بأن أستـاذ الإنجليزية كان رجلاً صارمـاً عصبياً حاد المـزاج، وتفادياً لعاصفة الغضب سارع أخونا سعيد لتبرير موقفه: (يـا أستاذ، والد سميح القاسم هو الآخر ضابط متقاعد من الجيش

برتبـة كابتن). ضحك الطلاب وغفر المعلـم. أما أنا فلم أضحك ولـم أكتشف ضرورة للغفـران بل تعاملت مع هـذه المسألة ليس باعتبارهـا لفت انتباه إلى مصادفة طريفة أو لسعة من زميل يشكك فـي مستقبلي الشعـري، بل باعتبارها نوعاً مـن التقمص التاريخي الناجز وفق إرادة إلهية...

وحين تعارفنا فيما بعد يا عزيزي محمود، همست لذاتي وفي ذاتي: (آها... لا بد أن هذا الشاعر هو زميلي وصديقي بيرسي بيش شيللـي!!) والآن، في هذا الوقت بالذات، وبعد ظاهرة الثنائية التي أشـرت إليهـا رسالتك، سأكـون مموهاً إذا أنا زعمـت الفكاك من (ثنائية) شيللي وبايرون.

يا عزيزي بيرسي بيش درويش.

من حقك أن (تلعب خارج ساحة الدار) ومن حقك أن تعود، ومـن حقي أن ألعب في ساحة الـدار ومن حقي أنا الآخر أن أعود. ومـن حقنا جميعاً أن نختار قبورنا. لكن تعال نراقب كلمة «الحق» هـذه. ماذا عنـت في الماضي؟ مـا هو معناها اليـوم؟ وهل تختزن هـذه اللفظة الرشيقـة والمهيبة في آن، مضموناً مجـرداً فرداً شاملاً وخالـداً؟ لا أرى ذلك، وإلا لكان علـيَّ أن أعلق نفسي على أقرب شجـرة. ولنتأمل معاً ألفاظاً ومصطلحات رائجة أخرى: السلام... العدالـة الاجتماعيـة... الأمن... الوحـدة الوطنيـة... حق تقرير المصيـر وهَلُمَّ جَرّاً. وعليه قِس! ستجد من يفسر حق تقرير المصير علـى أنه الحق فـي اختيار هـذا النظـام أو ذاك وتكريسـه لإبادتنا السياسيـة والتاريخية، حتى الجسدية. وحين تسـأل امرأة ما لماذا تزني فقـد تجيبك على الفور: أنا حـرة! وإذا سألت سمساراً لماذا تخون وطنك فسيرد على الفـور: أنا حرّ! وأكثر من ذلك. فستجد

مـن يجابهك بصفاقة مرعبة: هه، تتحدث عن الحرية وتدعو للحق وها أنت تنتقص من حريتي وتصادر عليَّ حقي!

كلمات يا عزيـزي، كلمات. كلمات. كلمـات وألف رحمة على هملت وعلى شكسبير وعلى آله وصحبه أجمعين!

أخيـراً لا تسألني أين قبرك، ما دام المهـد قضية معلقة فسيظل القبر سؤالاً محرجاً يتيم الإجابة.

الأمر المؤكد الوحيد هـو أن حواجز الشرطة المحيطة بمطار اللـد لن تقوى على احتجاز قلـب الوطن الذي ينتظر عودتك ساعة بساعة ودهراً بدهر...

أخوك سميح القاسم

(حيفا - 1986/5/22)

هنــاك... شجــرة خــروب

- عزيزي سميح،

... وعلى ذكر «الحق» الذي يمدُّ لسان السخرية في رسالتك، والحق بالحق يُذْكر أو يُنْكر، فضحتني دمعتي منذ أيام، عندما كنت أسجل حديثاً تلفزيونياً في مدينة هلسنكي...

انقض عليّ أحـد المحاورين، وهو كاتب فنلندي شهير، بهذا السؤال المدهش: هل تعرف كيبوتس «يسعور»؟

أجبت: نعم، أعرف مكانه لأني أعرف أنقاضي. ولكن، لماذا تحرك فيّ هذا العطش؟

قـال: أنا من هناك. أعني: عشت هناك عشر سنين. ومن حقي أن أعود إلى هناك في أي وقت أشاء...

قلت: في أي وقت تشاء، لماذا؟

قال: لأنني يهودي...

قلـت له، وقد تحول إلى مرآة: يا سيـد دانيال كاتس، يبدو لي

أنك تعرف أنني وُلدت هناك، تحت غرفة نومك، وتعرف أن لا «حق» لي في العودة إلى مكان ولادتي، بينما أنت الفنلندي، صاحب العشرين ألف بحيرة، تملك «الحق» في العودة إلى بلادي في أي وقت تشاء...

قال: أعرف هذا الظلم. ولذلك، أعددتُ لك هذه الهدية، هذه الأغنية القصيرة: «انظر إلى البلاد التي تسميها وطنك ـ قال لي توفيق أو محمود/ عيناك تحدقان في التراب ولا تصلان إلى ما تخبئ الأرض/ القرية التي وُلدت فيها عارية وباكية/ متحررة من خاصرة أمي/ وأنت... ها أنت ترفع باعتزاز/ كوخاً من الصنوبر»...

وروى لي دانيال، يا عزيزي سميح، مسيرته في طريق العودة ـ فهم دائماً عائدون ـ كما يرويها من يملكون الحق، أينما كان، والضمير عندما يشاؤون. إذ ليس على التاريخ إلا أن يتمرن على حساب مصالحهم وعواطفهم وينضبط! كان مثل جميع المهاجرين لا يعلم. لا أحد منهم يعلم ـ على ما يبدو ـ أن في بلادنا شعباً. وحين يواجهون عقبات الاندماج في الأرض أو في المؤسسة فإنهم سرعان ما يعلمون، ويستخرجون احتياطيّ الضمير ليختاروا «عودة» أخرى إلى «حق» آخر.

من علمك يا دانيال أن تحت كيبوتسك قريتي؟

قال: شجرة الخروب الضخمة... سألت أحد زملائي في الكيبوتس عمن غرس هذه الشجرة، فقال: نحن المهاجرين. ولكنني أدركت من عمر الشجرة أنه يكذب، أدركت أن أحد أجدادك هو الذي غرسها، فحملت ضميري المعذب وعدت إلى وطني فنلندا.

لم أقل له، يا عزيزي سميح، إنه محظوظ بامتلاكه حقين،

ووطنين، وعودتين. قلت له إنه عادل، لأنه يمتلك ميزة إنسانية أكبر هي: الضمير، يحركه، يستعمله ويشهره متى يشاء في وجه أية مشكلة. في وسعة أن يتوج قاضياً ما دام يتمتع بهذه القوى الإنسانية. له حق الكلام والمصداقية. أليس هو الشاهد الذي لا يُدحض؟ ونحن الذين نحتاج إليه لنتكلم عبره عما يصيبنا. فهل يحق للعربي أن يتحدث في الغرب بلا شاهد يهودي؟ لاحظ، على سبيل المثال، كيف يناقش الإسرائيليون قضايا الاحتلال ونتائجها السكانية. إنهم يبكون كما لو كانوا هم الضحية، ونحن الضحايا نصفق لمتانة الدليل!

ولكنني أعلق بطريقة أخرى تشبه معاني الكلمات التالية: وهكذا تدلنا شهادة دانيال على أن السلام في الشرق الأوسط ما زال قابلاً للتحقيق، ما دام دانيال يصافحني، ويرضى أن يكون صديقي، ويكتب لي هذه الأغنية!

وبالأغنية ذاتها التي تخدع ذاتها لتكون ذاتها، يقف الواقع على رأسه، ويعتذر عن وعي شقي ووعي زائف معاً. ماذا يريد الشعر من المستوطنين أكثر من الإشارة إلى طفولتنا التي تنسب جماليتها إلى المكان ذاته؟ ليكونوا هم المعبرين نيابة عنا. هل يعبر عني حاييم نحمان بياليك حين يغني للطائر العائد من بلاد الشمس إلى نافذته المطلة على الجليد الروسي؟ وهل يعبر عنك حاييم غوري في وصل الجليل العائد إلى أهله الغائبين؟ وهل تعبر عن هشاشة قلوبنا تلك الأغنية الرائجة: يا بحيرة طبريا، يا بحيرة طبريا، لقد هبت الريح؟ وهل نستعيد جمال القدس، كما استعادوه، في أغنيتهم التي حطمتنا: يا أورشليم من ذهب، ومن نحاس وضياء؟

ليس هذا سؤالاً، يا سميح، بمقدار ما هو نزيف. وهل انتبهنا إلى شراسة استيطان الأرض ومحاولة استيطان الذاكرة، وظل استيطان لغة الحنين والعودة والتيه مجالاً لعواطف مشتركة ممكنة؟ طالما أن سكان «يسعور» يستمتعون بذهب الذرة الصفراء ذاته، وبالتفاح ذاته، وبالدوالي ذاتها، ويرفعون أكواخاً من الصنوبر كما كنا نرفع ويغنون ـ كما كنا نغني ـ هبَّ النسيم على الحقول؟

لا تصدقني، فأنا لا أسأل، بقدر ما أشير إلى «حياد» الطبيعة الجارح.

ولكن شجرة الخروب إياها التي دلت المستوطن الأجنبي «البريء» عليَّ وعلى أجدادي، هي هي غلاف هويتي، وهي أيضاً جلد روحي إذا كان للروح جلد. هناك ولدت... هناك ولدت. وهناك أريد أن أدفن. ولتكن تلك وصيتي الوحيدة!

شجرة الخروب ـ أغبطك لأنك تراها كل يوم في طريقك من الرامة إلى حيفا، ومن حيفا إلى الرامة. سلم عليها إذا كانوا لم يجدعوها بعد. شجرة الخروب ـ اختبأت في جذعها العملاق المجوف من المطر ومن الأهل عندما كنت ألعب مع السحالي والزيز والزواحف، وعندما كنت أتبع خط الإسفلت الساطع إلى عكا، لأشرب الماء بالطاسات.

ويا سميح، يا سفير قلبي إلى الشجر كله، لماذا أشعر بكل هذا العطش، والعطش الذين لا يرويه غير امتصاص قطرة من الماء على جناح قبره عندكم؟ ولماذا يتجمد الزمن عند السنين الأولى... لينفتح السهل أمامي في امتداد لا ينهيه حتى البحر، وأرى جنود نابليون في حقولي عاجزين عن اقتحام القلعة على السور، الذي حولته شركات السياحة الإسرائيلية إلى سوق تجارية ملاهٍ لليل طويل؟

... وينفتـح الشرق أمامي لغابات الزيتون التي تصعد، وتصعد بلا تعب وبـلا ملل إلى تعرجات جبال كثيرة، متناثرة، لتصل قريتي بقريتك العالية، عبر عشرات من القرى المتناثرة، كالمجاز السهل، فـي نشيد شديد الصعوبة؛ يدخلنا في متنه شهداء أو شهداء، وهكذا تتحول شجرة الخروب إلى متركز جهات، وإلى علامة الفارق بين الأرض والسماء. ومـن على غصونها أقطف، حتـى الآن، حبات الهواء الطازجة.

لـم يكن للشهـود أسماء لا تذكر متى انقصـف حبق الطفولة. ولكـن الليل لم يكن بارداً كما هو الآن. ولم تكن للقمر أغان عبرية معاصـرة. ولكنني أتذكر ساحة الدار التـي تتوسطها شجرة التوت التـي تشدُّ البيوت لتحولها إلى دار هـي دار جدي. تركنا كل شيء على حاله: الحصـان، والخروف، والثور، والأبـواب المفتوحة، والعشـاء الساخن، وآذان العشاء، وجهـاز الراديو الوحيد لعله ظل مفتوحـاً ليذيـع أخبـار انتصاراتنا إلـى الآن. هبطنا الـوادي الحاد المـؤدي إلى الجنـوب الشرقي المفتوح على بئـر يشرق من سهل يقودنا إلى قرية «شعب» حيث يقيم أقارب أمي وأهلها القادمون من قريـة «الدامون» التي سقطت تحـت الاحتلال... وهناك ـ بعد أيام قليلة ـ تنادى فلاحو القرى المجاورة، الذين باعوا ذهب زوجاتهم، ليشتروا بنادق فرنسية الصنع لتحرير «البروة»...

حرروها في أول الليل. شربوا شاي المحتلين الساخن. وباتوا ليلـة النصر الأولـى، في اليوم التالـي تسلمها «جيشـ الإنقاذ» بلا إيصـال، ليعيد اليهود احتلالها وتدميرها حتى آخر حجر... ونحن ننتظر العودة على مشارف الوطن.

تعرف السيرة كلها، يا سميح، لقد طالت «نزهة» المهاجرين

اخُتصرت الحرب. وتعرف كيف «تسلّلنا» من لبنان حين أدرك جدي أن الرحلة ستطول، وأن عليه أن يلحق بالأرض قبل أن تطير. وحين وصلنا لم نجد غير الخراب. فقدنا حق الإقامة وفقدنا حق الأرض. وحين مارستُ طقس الحج الأول إلى قريتي الأولى «البروة» لم أجد منها غير شجرة الخروب والكنيسة المهجورة، وراعي أبقار لا يتكلم العربية الواضحة ولا العبرية الجارحة: من أنت يا سيد؟ فأجاب: أنا من كيبوتس «يسعور». قلت: أين كيبوتس «يسعور»؟ قال: هنا. قلت: هنا البروة. قال: أين هي؟ قلت: هنا. تحتنا. حولنا. فوقنا. هنا في كل مكان. قال: ولكنني لا أرى شيئاً، ولا حتى حجارة. قلت: وهذه الكنيسة... ألا تراها؟ قال: هذه ليست كنيسة. هذا اصطبل للأبقار. هذه بعض آثار رومانية؟ قلت: ومن أين أتيت يا سيد؟ قال: من اليمن. قلت: وماذا تفعل هنا؟ قال: عائد إلى بلادي. ثم سألني: ومن أين أنت؟ قلت: من هنا... عائد إلى بلادي.

هكذا، يا عزيزي سميح، يجري الحوار منذ أربعين عاماً تقريباً. لاحظ المعاني العكسية، الانقلابية، الاستبدادية، للكلمات! ونحن في أحسن الأحوال حُرّاس آثار رومانية. لذلك، كان علينا أن نعيش في «دير الأسد» قريباً منكم، لاجئين في وطن محفوظ، بقرار إلهي، منذ ألفي سنة لعودة راعي أبقار من اليمن!

فكيف نعيد تركيب هذا التفكيك، في البداية، بغير الشعر؟ كنا ـ أنت وأنا ـ نتسلح بالمعلقات، وبخلاصات المتنبي، ورهافة الأندلسيين، ورخاوة المهجريين. وكنا نخدع أنفسنا، في شبق البحث عن اختلاف، بتقمُّص صعاليك وخوارج وبكل ما يبدو لنا أنه خروج عن المؤسسة. لم يكن اختلافنا كله مع تاريخنا. لأن هذا

الاستيطان الصليبي يعارض كل تاريخنا. لذلك، لم نجد النموذج الجاهز في مرحلة وعي أكثر تطوراً وتشكلاً. كان علينا أن نبحث عن أصفارنا، وكان علينا أن نخطئ. إذ ليس لمصيرنا، ومفارقتنا الإنسانية، ومأساتنا من إطار مرجعي. وليس لنا مُعَبِّر. وليس لنا أن نستعير دموع عاشق أندلسي يبكي الخروج. ليس وطننا أندلسياً إلا في الجمال والأندلس ليس لنا.

وإذا كان لا بد من أندلس، بتداعياتها الجمالية، فإن فلسطين هي الأندلس القابلة للاستعادة.

سلام عليك، يا عزيزي، يا حارس الخروبة من أغاني الآخرين. أرجوك... أرجوك إن مررت بها غداً، أن تعانقها وأنت تحفر على جذعها اسمك واسمي... ولا تتأخر!

أخوك محمود درويش
(باريس - 1986/6/3)

سأحفر اسمينا على الريح

- أخي محمود،

في الأيـام الأخيرة ارتفعت درجـة الحرارة هنا بفظاظة، وانخفض منسوب المياه في بحيرة طبرية بشكل لم يسبق له مثيل، الأمر الذي يثير لدى الدوائر الرسمية قلقاً شديداً ويستدعي إعلان حالة الطوارئ المائية. وزارة زراعتهم تتخذ إجـراءات مشدّدة لتقليص مخصصات الري ويسود التحسب أوساطهم الاقتصادية والصحية وربما العسكرية أيضاً.

في البدء لم أقلق، وليس هذا فحسب، بل فرحتُ قليلاً ورحت أتخيّل مدى سعادتي لو أن بحيرة طبرية جفّت إلى قعرها... ولا تسقط الثلوج على جبل الشيخ في العام القادم وتغور منابع نهر الأردن فتظهر طحالب مائية خضراء مخملية ثم يتآكلها الصدأ ورويـداً رويـداً تتحجر وتجف أدغـال القصب وتذبل الأشجار وترحل الحيوانات والعصافير وترتفع الحرارة ويميل الأخضر الأصفر والأصفر إلى البني والبني إلى الرمادي وتعلن بلادنا منطقة

تصحُّر محتّم. وترتفع الحرارة لأجدني من جديد بدوياً سعيداً في صحرائه السعيدة.

لـم أقلق في البدء، بيـد أن القلق أخذ يقضـم أعصابي مثل فأر نهم. فقد خيّل إليّ في ما بعد أن حل أزمة المياه قد يتم على الطريقة الإسرائيلية التقليديـة: يذهبون إلى الأمم المتحـدة مطالبين بأرض إسرائيـل الكبرى وفق نصوص التوراة ليضمنوا مياه النيل والفرات، ولا ريب فـي أنهم سيجدون هناك آذاناً صاغية وقلوباً ليّنة، لا سيما أن الشعـب النمساوي جرؤ على انتخاب كـورت فالدهايم رئيساً لجمهوريته! ولن يحرموا هذه المرة دولاً عربية تصوّت من أجلهم!

لا يا محمـود، لا يا صديقي، ينبغي ألا تجف بحيرة طبرية ولا يحـق لنهر الأردن أن ينكمش ولا يجوز لجبـل الشيخ إلا أن يعتمر ثلوجه عمامة للحزن ومصدراً مؤكداً لمياه صهيون!

هـا أنت تعود فـي رسالتـك إلى الانكسـارات الأولـى، إلى الطفولة التي لم تنهض من ركلة حذاء العسكري الإنجليزي جورج حتـى فاجأتْها ركلة حـذاء العسكري الصهيونـي شلومو. ها أنت تعـود إلى الانقطاع القسـري عن لعبة السحالي فـي البروة. وماذا أقـول لك؟ ماذا أقول عن الأيام الثلاثة بلياليها التي قضيناها مُرتدين ثيابنا منتعليـن أحذيتنا في انتظار المصفحـات اليهودية القادمة من أنقاضـ البروة عبر طلعـة الليّات على طريق صفد. مـاذا أقول لك عن الخوف غيـر المفهوم (الأطفال يخافوه فحسب!) والاستعداد الكامـل للهرب مرة أخـرى، لا إلى كروم الزيتـون وكهوف جبل حيدر القريبة بل إلى المنافي العربية. إنني خجل من مكوثي، خجل مـن رحيلك. وكم تلوعني ذكـرى الأيام التي نسميهـا النكبة. كم تلوعني خيبتي يوم هرعت إلى الشارع خلف أبي الذي أخذ بندقيته

وذهب للدفاع عن الليات بعد ورود النبأ عن سقوط البروة واقتراب الفاتحين الجدد. كان أبي معتمراً كوفية بيضاء وعقالاً مقصباً من مخلفات خدمته العسكرية في قوة حدود شرق الأردن. ركضت وراءه بالخوذة الحديدية التي احتفظ بها بعد تسريحه من الجيش لأيام الشدة القادمة. وما زلت أذكر كدرة وجهه وهو ينتهرني: «عُد يا ولدي إلى البيت وابق إلى جانب أمك وإخوتك» ألححت عليه: ولكن الخوذة... خذها يا أبي (لم أكن خائفاً عليه بقدر ما كنت معتزاً به... وفي هاتيك اللحظات كان يطفو على سطح مخيّلتي الصغيرة نشيدنا الذي طالما رددناه في الساحات وعلى جذوع الأشجار: يا يهودي يا ابن الكلب... شو جابك عبلاد الحرب!).

لم يأخذ أبي الخوذة ولم تستطع بندقيته ذات الطلقات القليلة حماية شبر واحد من الأرض...و الذين جاءوا لحماية الأرض كلها (ولإنقاذها) هربوا شمالاً وشرقاً كالنعاج وهم يتخففون من رتبهم العسكرية وأسلحتهم وشرفهم... أولاد الكلب!

بعد وفاة أبي بسنة كاملة جرؤت على الاقتراب من أوراقه. وبين تلك الأوراق عثرت على رسالة من المقدم عامر قائد جيش الإنقاذ في الرامة والمنطقة يوصي فيها بتجنيد أبي وبإعطائه رتبته الرسمية، رتبة الرئيس، من أجل رفع معنويات المقاتلين... والذي حدث يا أخي في اليتم والكارثة أن المقدم عامر رحل على الفور برتبه وجنوده ولم يبق في الوادي سوى حجارته والمدنيين المصعوقين وبنادقهم التعيسة ذات الطلقات المقنّنة.

وتجد اليوم من يتهمون شعبنا بأنه تخلى عن وطنه وهرب طوعاً. أية فرية يطلقها هؤلاء الخنازير! لقد صمد شعبنا وقاتل بكل شجاعة وصدق وحمية إلا أن ما نسميه اليوم بتوازن القوى لم يكن

لصالحنا على الإطلاق. فقد كان شعبنا ضحية جاهزة بين مطرقة الغزو الهمجي وسندن الوصاية الخائنة.

أخي محمود، أيها الشاعر التعس، ما الذي أقحمك مرة أخرى في لعبة الضمير السادية هذه؟ من الذي أهال على جسدك المرهق خروبة البروة وأشجار فلسطين كلها؟ أهو المستوطن الفنلندي المصاب بالملل؟ أم أنها الأغنية الجارحة عن بقايا الوطن الجارح؟

أنا يا أخي الحبيب ما عدت قادراً على حمل زهرة البرقوق البرية، فلماذا تحملني خروبة البروة؟ زهرة البرقوق التي قطفناها قبل أن يقطفوا طفولتنا أصبحت اليوم الرمز الرسمي لمدينة كرمئيل، هل تذكرها؟ نحن أصبحنا متطفلين على زهرة البرقوق يا محمود!

وتضغط في رسالتك، تضغط عليّ بشجرة الخروب وبدموعك المنهمرة مع أغنية شقية في فنلندا البعيدة الباردة. حسناً، سأقدم لك الحقيقة غانية، لا حليّ ولا أصباغ: لصداقتنا الجميلة همومها الخاصة، وآلامها العائدة دائماً وبلا انقطاع، جراء ارتكابنا الخطيئة المميتة، خطيئة الاندغام الكامل والأبدي بين الإنسان ـ الفرد ـ الشخص وبين الوطن ـ الشعب ـ القضية. وإنني لأتساءل أحياناً: نحن نقول شعرنا أم أنه الوطن؟ نحن نكتب القصيدة أم أنها هي التي ترنمنا؟ أين ينتهي الخاص وأين يبدأ العام؟ هل لدينا ما يجوز اعتباره أمراً شخصياً؟ ويخيل إليّ أحياناً اننا ما أحببنا امرأة لذاتنا ولا أحبتنا امرأة لذاتنا... أو أننا نأكل ونمشي ونحب ونسافر ونغضب ونفرح في غيبوبة تامة اسمها الوطن.

لماذا أقول لك ذلك كله؟ لأنك توصيني بشجرة الخروب. حسناً. دعني أصارحك بأنني منذ فراقنا، وربما منذ تعارفنا، وأنا أتهرب من أنقاض البروة، زيتونها، خروبها، صبّارها... وحين أمرُّ

بها أحاول إشغال نفسي بأمر ما حتى أتجنب النظر إليها. ولو ضبطت نفسي متلبساً بالنظر صوبها فإن عقرباً صفراء هائلة تلسعني في القلب مباشرة وبلا رحمة وتنغص عليّ رحلتي... لا تغبطني على إقامتي... جحيم هنا، وجحيم هناك...جحيم إلى يوم الجنة، يوم يلوح أطفال فلسطين بأعلام فلسطين في مراسم استقبال ضيف رسمي أو في طقوس العيد المقدس الكبير، عيد العودة والحرية والاستقلال.

أخي العزيز؛

أرجو أن تعذرني. لن أزور شجرة طفولتك في البروة ولن أحفر عليها اسمينـا... ببساطة وبصراحة تامـة: لا أستطيع... شيء آخر أستطيعـه من أجلي ومن أجلك، هـو أن أحفر اسمينا على الريح... وأن أنقش الريح على الوطن وأن أكتب الوطن على لحمي وأن أنثر لحمي في القصيدة.

أخيراً، نـوال والأولاد يسلمون عليـك... أصبحوا يعرفونك جيـداً عبـر الصور والقصائـد والتلفـون. قبل حيـن سألني «وطن محمد»: لماذا لا يأتي عمي محمود لزيارتنا كما تزوره أنت؟ قلت: إنه مشغول كثيراً، إلا أنه سيأتي ذاتي يوم؛ حين يفرغ من أشغاله.

هل أخبرتك أنني أقلعت نهائياً عن الكحول! حسناً لقد ضمنت لنفسـي مكاناً في تصفيـات دوري الجنة. وضمنـت لمعدتي عطلة مـن الآلام المبرحة. وأنت؟ حاول أن تهدأ قليلاً. مثلنا الشعبي يقول «الكبير حكيم نفسه». ولن تُجدينا المناورات يا صديقي. لقد كبرنا.

أخوك سميح القاسم

(الرامة ـ 1986/6/10)

لا توبخ حنيني

● عزيزي سميح،

لمـاذا توبخ حنيني؟ ألأنك تخشـى أن أطيعه، فأرتكب حماقة تودعني السجن هناك، أو تعلقني على حبال الفضيحة هنا؟ أم لأنك تخـاف على قلبي إياه الذي ساهمت أنت، في فيينا، في انتشاله من قـاع الغم الذي امتصنا كلنا جراء الحصار المتتابع، خطوة، خطوة، منـذ قرأنا مأسـاة طروادة حتـى الآن، دون أن يحتاج المحاصرون الجدد إلى أي حصان أو حمار!

هكـذا أريـد أن أفهمـك. وأريـد أن أغبطك. جحيـم هنا... جحيـم هناك. ولكني أغبطـك، إذ ليس في وسعـي أن أجد جداراً أسنـد عليه ندائي، أو ناي عظامي، غير ذلك المكان المنحوت من هـواء صلب، المرفـوع على الآذان الأول، بعدمـا عجزت الفكرة والمرآة فينا عن صد إلحاح الخريف.

ليس للخارج أن يخرج أكثر،

وليس للداخل أن يدخل أكثر،
أمن هنا نُطلّ على الحضور والغياب؟...

لقد كبرنا دون أن ننتبه. لم يُسمح لنا بأن نكبر على مهل. غافلنا العمر فوجدنا أنفسنا وقد كبرنا. وانتفخ بطن الاحتلال وتمدد مرتاحاً على العمق الحيوي. ونحن نربي كلمات تتمخض عن كلمات نرفعها قلاعاً في مواجهة حصون الإسمنت المرتفعة في شراييننا... فماذا كان في وسعنا أن نفعل، يا عزيزي، لو بدأنا من جديد، غير ما فعلنا؟

كنت أواسي النفس، أحياناً، بقراءة علم الفلك الذي يؤكد أن حجم الكرة الأرضية كلها لا يزيد عن حجم حبة رمل على ساحل لا نهاية له. فأين داري وأين دارك من هذه الحبة الشاردة؟ هكذا يستطيع المرء المثقل بالفقدان والغياب أن ينام قليلاً، وأن يسخر من مأساوية العبث ومن عبث المأساة. وهكذا يستطيع أن يردع القلب المهان المتحفز للانقضاض على الواقع ليعضه من الغيظ... نعم ليعضه!

ولكننا لسنا شهوداً على ما مضى، ولا نستطيع مشاهدة المسرحية دون أن نتقمص أبطالها المتعبين، فنحن الضحايا والخشبة. ولم نحظ، حتى الآن، بنعمة أن نكون الجمهور، ولا حتى في مباريات كرة القدم التي نفتقد فيها حاسة الانحياز إلى أحد، لأننا نفتقد فيها دورنا. فلمن نصفق في هذه الحرب المؤولة؟ ولأي نشيد وطني في ملاعب المكسيك ننكس القلوب المتلهفة إلى ملكية حماسة؟ أو إلى سخرية حرة؟

لقد وجد إميل حبيبي حله الأممي بانحيازه إلى الفرق الاشتراكية. تحمس وخاف الخيبة وخاب فتوقف على المراهنة.

وحيـن ذكره أحد الأصدقاء بأن فلسطين كانت تلعب كرة القدم في عهـد الانتداب البريطاني، مال عليَّ ووشوشني سخريته التي توردده التهلكـة دائماً: لا أعـرف، تماماً، إن كان ذلـك الفريق عربياً! لقد مات مؤرخنا إميل توما الذي كان الوحيد القادر على التأكد...

هـل مات إميـل توما حقـاً؟ ذلـك الفارس الشاهـق صاحب «العصـا الماريشالية» التي كسرتها «حرب التقسيم» وأحنت قامته قليـلاً؟ هل مات؟ أتذكره منكباً على عمـل لا مبرر لإفراطه فيه غير الرغبـة في تحقير الحاضر الطارئ بالوقوف على الضفاف الواسعة لنهـر التاريخ الذي عرف وجرف مثل هذه النكات الفجة. ولذلك انتقـل من اليومي إلى التاريخي، ومن التفاصيل إلى النظرية. وعجز عن إتقان اللغة العبرية التـي اضطر إلى استخدامها في المطبخ وفي غرفـة النوم فقـط!... إميل توما أيضاً يمـوت. إذن، من لا يموت! عملـت معه عشر سنين في جريدة «الاتحاد». ومنذ البداية قال لي: هل أنت متأكد مـن أنك ستمضي على هذه الطريق؟ قلت ـ وأنا في العشريـن: معك، ومع إميل حبيبي وتوفيـق طوبي سأمضي في هذا الطريق إلى النهاية...

اردعني الآن، يا عزيـزي سميح، لأنني أجهش بهذه الذكرى. لقد ظننت أنني لن أبكي عليه، فلماذا أرى موته الآن؟ ألى هذا الحد صرنـا لا نرى الحقيقة إلا إذا قرأناهـا أو كتبناها؟ ألى هذا الحد لم نعـد هواة؟ سألت إميل حبيبي الذي زارني منذ أيام، أن يحدثني عن أيام أميل توما الأخيرة، فأبى أن يُريني كيف ذاب جسده، وواصلت روحه سموهـا المعتاد. وقال: لقد فقدت مرجعـي... لقد فقدت مرجعـي... قلـت: عندي سر. قال: لا تقله. قلـت: سأقول لك إن إميل توما قال لي ونحن نصعد من وادي النسناس إلى شارع عباس:

مـاذا تفعل هنا أيها الشاب؟ فسألته ماذا يعني، فرد بصوت خفيض: ابحث لنفسك عن أفق...

وفـي موسكـو، حيـث كان إميل تومـا يراجـع أطروحته عن الوحدة العربية ويبحث عن أفق، وحيث كنت أدرس «رأس المال» صفحـة صفحة بافتتان، كنت أول من أبلـغ إميل توما بوفاة جمال عبـد الناصر، فقال: ليس هذا معقـولاً... سيأتي السادات. وقضينا أكثر من مساء طويل في المعهد نستمع إلى «التريو» لتشايكوفسكي يلعبه الثلاثة الكبـار: راستروبوفتش على التشيلـو، اويستراخ على الكمان وريختر على البيانو.

مـا العلاقة، يـا عزيز سميـح، بين هـؤلاء الثلاثة وبيـن الثلاثة «الترويـكا» الذين قادوا وعينا ونشاطنا السياسي الأول: إميل توما، توفيـق طوبي، وإميل حبيبي؟ رأيت الساحـر الأبويّ توفيق طوبى، قبل شهرين، في مطار أثنيا. سحبني من أحضانه النداء الأخير للطائرة المتجهـة إلـى استانبول، وكان هو متوجهاً ٰلـى بلاده، خجلت أن أقول له: سلم على قلبي هناك! كم أحب هذا الرجل الذي حمل لي الشوكولاه مع أولغا، وأنا مريض في بيت أميل توما المسافر. وحين ذهبت في اليوم التالي إلى مكتـب الجريدة لأراه وأشكره، وبخني بقسوة: عد إلى السرير!

مـن يملأ فراغ الذين يغيبون؟ أولئـك آبائي فجئني بمثلهم/ إذا جمعتنـا، يـا سميح، المجامـع! لا تغضب فلست جريـراً، ولست الفرزدق، ولكنني أشاركك الزهو بهذه الأبوة.

من يملأ هذا الفراغ؟ سألت إميل حبيبي المكابر الذي يخشى الاعتـراف بأن مجال عمل الأدب هو التعامل مع الضعف البشري، فتأفـف من سؤالـي كي يتعفّـف، واختار كعادته مجالـه الحيوي:

هنـاك خطـأ جرى في زمان مـا وفي مكان ما. قلـت: ماذا دهاك؟ قـال: الإنسان مسكين وأنا حزين... رأيت اليوم رجلاً ـ أو امرأة لا أعـرف ـ يحمل جيتاراً ويحث الخطى بحثاً عن الرزق، بينما الناس كلهـا تذهب إلى «الويك اند» قلت: هل تعني أن ما يحزنك هو أن ترى إنساناً يمشي عكس الإجازة، قال: نعم... هناك خطأ ما.

هناك أخطاء كثيرة، يا إميل حبيبي، أشدُّها هولاً هو ما لا نقوله. وهنـاك أخطاء كثيـرة منها: أنـك لا تهتم بصحتـك فتلتهم الطعام الدسم والحلوى باعتبارهما الفرح الوحيد الممكن في هذه الحياة المـرة. وهناك أخطاء كثيرة أبسطها أنك تدعوني إلى زيارة بلادي، وعائلتي الصغيرة وعائلتي الكبيـرة، بثقة تدفعني إلى الظن الخائف بأنـك تودع شيئـاً ما، فتعيـن نفسك رئيسـاً لجمهوريـة الصنوبر المستقلة على سفوح جبل الكرمل!

وهناك أخطاء كثيرة كثيرة، نخشى أن نحن سميناها أن نقع في أخطاء أكبر وأكثر.

جحيم هنا...

جحيم هناك...

ولكـن ليس للخارج أن يخرج أكثر وليسـ للداخل أن يدخل أكثر. فإلى متى تلتفُّ علينا الدائرة؟

قمر هنا... قمر هناك.

وسأعود، مهما اجتاح جنون الواقع حنيني، ففي النفس جنون مضـاد، سأعود مهما ضيق علم الفلـك مساحتي. على هذه الذرّة، يا عزيزي سميح، على هذه الذرّة من ساحل الرمل اللامتناهي، جنة كبيرة، جنة واسعة شاسعة تتسع لخطوة الحضور ولخطوة الغياب،

وتتسع لملعب يرتكب فيه الأولاد ـ مهما كبروا ـ خطأ التصويب...

هل أخطأنا التصويب؟ لا...لا...لا...

خـذ قلبي كرة قـدم، نلعب بها كما نشاء، كمـا نشاء: تمريرة من هنا.. تمريرة من هنـاك، ثم نسجل هدفاً في الشبكة ـ شبكتنا. ويهتف الجمهور ـ جمهورنا: جووووووووووول...

أخوك محمود درويش

(باريس ـ 2014/6/22)

نرسم بحبر الروح سهماً واضحاً...

● أخي محمود هنا وهناك...

لا مفر، إننا نعترف ونبـوح ونستجدي الذكريات عزاء ما عن غربـة الحضور وحضـور الغربة. ولا مفر، نشهـر أحزاننا صواري ناصعـة... ونندفـع بـزوارق الحنين بيـن المدمـرات وحاملات الطائرات، ولا مفر، لا مكان على هذه اليابسة المزدحمة.

يخيـل لي أن الواحد منـا يكتب لنفسه حيـن يكتب لصديقه. ويكتـب عن أخيه حين يكتـب عن نفسه حتى ليختلـط الأمر: من المرسـل؟ من المرسـل إليه؟ طوبى للجحيم طوبـى للمطهر وهنيئاً لأولئـك الذين بلغـوا الفردوس المنشود. ويخيّل لـي أيها الصديق الغالـي أن كلامنا يحمل في أعماقه «تاييس» وراهب توبتها معاً... تهلك فينجيها، فتنجو ويهلك. كان الله في عوننا.

تلحّ عليّ الآن فكرة الصداقة... وقد تكون هذه هي المرة الأولى التي أتأمل فيها هذه المقولة البسيطة (صداقة)، ويتضح لي على الفور أنها ليست بسيطة على الإطلاق. وحين أحاول تعريفها أكتشف

أن الأمر ليس من السهولة بمكان. تماماً كما يطلب إلينا تعريف الشعر. وأتملص من نفسي إلى نفسي قانعاً بالحكم أن الصداقة هي ما بيننا ـ خيراً وشراً، سلباً وإيجاباً، إقامة وغربة. وأطمح إلى الزعم بأن الصداقة كالصحة، مستنجداً بالقول المأثور (الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه سوى المرضى). هل حالفني الحظ؟ لا ليس تماماً، فنحن الأصحاء ونحن المرضى، نحن التاج ونحن العين التي ترنو إليه دامعة بدخان الروح حمراء بغبار الغضب.

أخي العزيز،

تذهب إلى علم الفلك راصداً شيئاً من المؤاساة. ألِى هذا الحد ضاقت بنا الأرض؟ أجل إلى هذا الحد. وتمتد عبر ركام العمر يد صغيرة لذكرى صغيرة تهمس: «خذني. أريد أن اغتسل. أريد أن أولد من جديد». ونعود معاً إلى منزل ما في شارع المتنبي على سفح الكرمل. المتنبي يصير شارعاً في حيفا، وتصير حيفا نمطاً جديداً من شعب بوان... آه مغاني الشعب... آه أبا الطيب... «ولكن الفتى العربي فيها»... ولأن جمهور حاييم نحمان بياليك لا يعرف وجه المتنبي ولا يده ولا لسانه، فإن شارع المتنبي يصبح تلقائياً وبسخرية قاتلة: شارع مونت نبي، على غرار مونت كارلو أو مونت بلانش ولا بأس بمونت كريستو! ورغم كل شيء نعود معاً إلى شارع المتنبي، وفي صباح أحد أيام العطلة القليلة تشعل أنت سيجارة أخرى على الشرفة العالية المطلة على البحر وأخرج أنا من خزانة الثياب التي اعتصمت فيها احتجاجاً على الحياة نفسها وعلى الموت شخصياً ثم أتربع على الكنبة الرثة في الصالون الصغير فارداً جريدة ما بين يدي. أقذف بالجريدة وتقذف بالسيجارة. نواجه عزلتنا المخيفة داخل الحشد الملتف حولنا ونتساءل كأنما بصوت

واحـد: «ما العمل؟ ما الحـل؟». وأعثر أنا علـى العمل في إحدى قاعـات السينما النهارية وتجـد أنت حلك المناسـب على شاطئ البحر... هل تذكر المايوه الأول الذي اشتريته وخجلت من ارتدائه أمامنـا؟ هل تذكر عودتك من البحر بأنف أحمر وغبطة بيضاء. هل تذكر متعتي بأفلام الرعب والهـول والعنف؟ هل تذكر الصديقات العابرات مساء والأصدقاء الذين أحبونا على علاتنا وزلاتنا؟

وتذهـب إلى علم الفلك. تغادر هذه الأرض وفي قرارة عقلك الباطـن وقلبك الباطن شهوة أرخميدس (أو فيثاغوروس) الهائلة: «أعطوني رافعـة وموقعاً خارج الأرض لأزحزحها من مكانها». أجـل، نحن نرغب في زحزحة الأرض لأن دورتها المملة تحكم حبـلاً مـن مسد علـى جيدنـا المتلع نحـو الوطن، نحـو استراحة متواضعـة في ظل شجـرة الخروب القانتة، (هنـاك) (هنا) على تل صغير بين ساحل البحر وجبال الجليل.

كان لنـا فلكنا الخاص ومدارنا الليلي المحظـور على سكان الأرض. وإلى جانب قصائدنا وسجوننـا ونسائنا كان لدينا جوعنا الخاص، جوعنا المتكبـر والحقيقي في آن. فأهلنـا الذين يحبوننا يريـدون لنا أن نصبـح في عداد الأطبـاء والمحاميـن والمهندسين وسواهـم من أصحاب الدخـل المؤكد، ونحن الذيـن نحب أهلنا نريد لأنفسنا وعياً وعمداً وعن سبق إصرار، مهنة أخرى، قد يخسر المـرء فيها كل شيء إلا أنه يكسب نفسه حتماً. أراد لنا أهلنا سعادة تـردع الشقاء واخترنا لأنفسنا شقاء يبدع السعادة. وأية بهجة آدمية تعدل فرحنا حين تفاجئنا صورة ما، وحين نفاجئ في صدوع الليل وظلال النهار بيتاً من الشعر، نأوي إليه ونجول في أرجائه المدهشة عراة إلا من أحلامنا قانعين بكلماتنا كفاف يومنا؟

هكـذا كان... سخط من التاريخ سخط مـن الأهل سخط من الجغرافيا سخط من السلطة وسخط من المومياءات... ومرة أخرى نلقي أنفسنا في مواجهة حادة في عزلتنا الباهظة.

هنـا في هذا الموقف بالضبط تمتد إلينـا أيديهم الطيبة، أولئك الرجال الكبار الذين أصبحوا آباء تاريخيين ليس لك ولي فحسب، بل لبضعة عزيزة من شعبنا العزيز. أحبونا وتوسموا فينا خيراً ففتحوا لنـا أبوابهم الضيقـة في المكان، الرحبة في الزمـان. توفيق طوبي، أميـل تومـا، أميل حبيبي، حنا نقـارة، صليبا خميـس ورفاقهم من الرعيـل الأول بعد نكبة وتسعمئة وثمـان وأربعين، هذه الثلة النبيلة من حراس الشرف لشعبنا ولغتنا وشعرنا وتاريخنا. من حقهم علينا ومـن واجبنا إزاءهـم أن نصارحهم بحبنا لهـم وبامتناننا لحنكتهم ورحابة صدورهم في زمن انتهاك الحرمة وامتهان لحنكة وسقوط الخيل قبل سقوط الفرسان.

وأذكـر، كما قد تذكر، كما قد تذكـر، أن صليبا خميس، بعد طردي مـن سلك التعليم، كتـب في «الجديد» واحـدة من أجمل افتتاحياتهـا على الإطـلاق ودعانـي للعمل في صحافـة الحزب، وعملـت هناك إلـى اليوم الذي أعلـن فيه رفيقنـا المرحوم يوسف صبـاغ مدير «الاتحاد» (كنـا نسميه وزير الماليـة!) أنه لم يبق في صندوق الصحافة كلها سوى ما يمكننا من شراء علبة شاي. ولأنني لـم أحب الشاي ولم أرغـب في أن أكون عبئـاً إضافياً فقد لممت أوراقي بصمت وعدت إلى شقتـي في منزل السيدة سافيدس أرملة القنصـل اليوناني في حيفا. كنت مغمومـاً ومضطرباً. قرعت باب السيـدة اليونانية. العجـوز الأرستقراطية المتزمتـة، لأطلب تأجيل أجـرة الشقـة إلى وقت لاحـق. وحين فتحـت البـاب بابتسامتها

المتحفظـة روّح عني قليـلاً. فقد بدت في زينتهـا المفرطة وألوان مكياجهـا المتطرفـة (ربما لضعف في نظرها) بـدت شديدة الشبه بجـدة ليلى المصـورة على غلاف قصة الأطفـال (ليلى والذئب). وقبـل أن أفاتحها في الأمر سألتني إن كنت أحب أن تواصل العزف علـى الجيتـار بحضـوري ولم يكن لـي أن أرفضـ. وقبل انطلاق أظافرهـا المطلية بالأحمر الفاقع على أوتار الجيتار ناولتني قصاصة صغيرة: «أحد أصدقائك جلبها قبل قليل». وكانت القصاصة رسالة مقتضبـة من صبري جريس يقترح عليّ فيهـا العمل رئيساً للتحرير فـي مجلة أسبوعية ينـوون إصدارها بالاشتراك مـع أوري أفنيري. ولم يمض سوى شهور قليلـة على عملي رئيساً لتحرير مجلة «هذا العالم» حتى دبّ الخلاف بيني وبين أوري افنيري الذي يظن نفسه لورنس اليهودي في بلاد العرب السذج.

مـرة أخرى، أنا بلا عمل، ولا بد مـن البحث عن وسيلة إقناع لتأجيـل أجرة البيت. صاحبة البيت هـذه المرة كانت سيدة جميلة مـن تل أبيب. ولم توافـق السيدة الجميلة علـى تأجيل أجرة البيت فحسـب بل دفعـت لي مبلغاً جيداً لقاء جهـودي الجيدة في خدمة القضايا الإنسانية الملحة.

لم أبتلع تل أبيب ولم تبتلعني. بيننا نفور مزمن. وحين تعذرت أية إمكانية للتعايش بيننـا حملت أوراقي وعدت إلى حيفا. وكأنما بميعـاد سابق أو كأنما بإرادة إلهية، كدت أصطدم في زحمة محطة القطـار في حيفا بتوفيق طوبي الذي يخاطب الناس جمعياً بنداء (يا رفيـق) صادر عفـواً ومباشرة من القلب الأبـوي الكبير: «أين أنت يـا رفيق سميح؟» ـ أنا هنا وفـي لا مكان! ـ أما زلت تعمل في مجلة «هـذا العالم؟» ـ حتى مساء أمس ـ وماذا الآن؟ ـ لا أعرف ـ كيف لا

تعرف؟ ما معنى لا أعرف؟ (بلهجة معنفة) عد فوراً إلى مكتبك... في «الاتحاد» في «الجديد» في «الغد»، حيث تشاء ولكن ليس متى تشاء بل غداً».

نحن الآن، يا محمود معاً، تحت سقف «الاتحاد» وإميل توما. ولأننا نسهر الليل أكثره والنهار أقله، فلم يكن بد من قدومنا إلى العمل. متأخرين لنجد أستاذنا وصديقنا إميل توما وقد فرغ من كتابة الافتتاحية على الأقل. ونعاود المسرحية إياها: ندخل مقطبين جادين فيحدجنا أبو ميخائيل من بين حاجبيه الكثين ونظارته الصارمة دون أن يفلت القلم، ويرد على تحية الصباح باقتضاب عاتب ويواصل الكتابة. وبعد أن ننجز عملاً ملحوظاً، فقط، نسمح لأنفسنا باسترضائه: «حبيبنا أبا ميخائيل، معذرة فقد كان الليل قصيراً جداً. آنذاك يطرح القلم على مكتبه وينظر إلينا مباشرة بابتسامته العذبة الألفية: «يا عكاريت متى تعقلان؟ متى تكفان عن لعبة التدمير الذاتي هذه؟»...

ويحين وقت الغداء، يذهب الناس إلى وجباتهم الساخنة، ونكتشف أننا أنفقنا مرتب الشهر القادم في منتصف الشهر الجاري. ونشعر بالجوع، ونكابر. ويشعر الجوع بنا ونكابر. نحاول إضفاء شيء من الرومانسية على جوعنا الواقعي. نقدم التماساً إلى «وزير المالية». وحين يراجع حساباتنا يصدنا بحزم: «رجاء، إنكما تبالغان»! ويعلق علي عاشور ساخراً: (إن سوق الخضار قريبة، اذهبا بصندوق من القصائد فقد تعثران هناك على زبون أهبل!).

ولا ينقذنا من ورطتنا سوى صليبا خميس الذي يذكّرنا للمرة الأولى بعد الألف: (وجدتها... وجدتها... ليس لنا سوى

أبي طوني - حنـا نقارة). وحنا نقارة الملقـب بصديق الشعراء يلبي دائمـاً دعوتنا له لكي يدعونا بدوره إلـى الغداء، حيث يترع كؤوس قلوبنا بحزمة ذكرياته مع عبد الكريم الكرمي (أبي سلمى) وإبراهيم طوقان وجلال زريق وسائر أفراد الكوكبة... ويوم تمرد أبو طوني، (وجدهـا) صليبا مرة أخـرى فاستكتبنا قصيـدة لا تخلو من تهديد ووعيد:

يـا أبـا طونـي ألا تذكرهـا دعـوة وجهتهـا مـن قبـل عـام؟
يـوم أقسـمت بـأن تتخمنا بألـذ الخمـر مـع أشـهر الطعـام
فلماذا صـرت ان أبصـرتنا فـي جـوار البيـت أسـرعت تنام
انشـغال أم قضـايا طـرأت أم فلاس أم ترى تخشى «المدام»!!

الخ... الخ.

ويستجيـب أبـو طونـي شريطـة أن نسلمه القصيـدة... وفي اليـوم التالي نكرر دعوتنا إليه فيزجرنـا: «لا أخافكما فالقصيدة في جيبي»... إلا أنـه سرعان ما ينسحب ويكرر الدعـوة صاغراً لأننا نعيد له على التلفون، بيتاً بيتاً، تلك القصيدة الابتزازية التي حفظناها عن ظهر قلب...

ولعلـك تذكر تلك القصة الطريفة عـن الجوع وزميلنا محمد خاص... أتيناه ظهراً لنستدين منه نقوداً لغدائنا:

يا محمد!

يا أميراً وابن من كانت وتبقى

أبد الدهر أميرة

أعطنا خمسين ليرة!

فرد بلا اكتراث:

اغربا عن وجهي فأنا فقير مثلكما.

وأعدنا الكرة مخفضين من طموحنا:

يا محمد!

يا فقيراً وابن من كانت وتبقى

أبد الدهر فقيرة.

أعطنا عشرين ليرة!

وعاود الكرة بلا اكتراث:

قلت لكما اغربا عن وجهي فلا مال لدي.

وحين تنحنحنا لنؤكد من جديد إصرارنا على حقوقنا المشروعة، صرخ محمد خاص مقاطعاً:

— كفى. كفى. هذه عشرة ليرات ليس لدي سواها... وسألنا عن سر استسلامه المفاجئ فقال بهدوء: إنها القافية الشريرة... أمير وأميرة... ثم فقير وفقيرة... وحان الآن دور الحقير والحقيرة... كفاني الله شركما وشر القافية!

ضحكنا وقبضنا وتغدينا وكابرنا... كابرنا باتجاه الخارج، أما خدوش النفس والتواءات الروح فنعرفها وحدنا أنا وأنت والله.

هل أذكرك بقصة أخرى من قصص الجوع اللذيذة؟ حسناً. ها أنت ذات مساء تأتي إلى منزلي في شارع يافا، تلوب قليلاً ولا تستقر على مقعد، تمسك كتاباً وتفتح راديو. تغلق النافذة وتفتح الثلاجة ثم تصرخ: «أريد أن آكل. أنا جائع!» وأهدئ من روعك: «لا بأس عليك إنني متضامن معك، ضع جوعك إلى جانب جوعي وسنحظى بوجبة فاخرة».

لم نجد في المنزل ذاك المساء سوى حبة بطاطا واحدة كان التلف قد أصاب أحد أطرافها... بترنا جناحها التالف وسلقناها...

ثـم شطرناها في صحنيـن من الصينـي الفاخر محاطيـن بشوكتين وسكينيـن كما يليق بالناس المتحضرين... وكانت هناك مملحة بلا ملح وزجاجة كنياك في منتصف العمر، وبعد هذه الوليمة اشتد علينا الجوع، واشتد علينا كبرياؤنا... ولا شدة إلا ويعقبها فرج ما...

فرج ما... هنـاك دائماً فرج ما. ونحن فـي شدتنا الراهنة، لـم نفقـد الأمل. قد لا يتـاح لنا أن ننعم «بالمعلب الـذي نمارس عليه حقنـا في إجادة التصويب أو خطأ التصويب» إلا أننا لن نفقد الأمل ولو من أجل الأجيال القادمـة، وحسبنا يا صديقي العزيز أننا نرسم بحبر الروح ودم القصيدة سهماً واضحاً (أرجو أن يكون واضحاً) يؤشر إلـى الاتجاه السليم نحـو خروبتنا وزيتونتنـا وزهرة برقوقنا اللاذعة...

أخوك سميح القاسم
(الرامة ـ 1986/6/29)

خذ القصيدة عني!

(رسالة تلفونية)

- عزيزي سميح،

ما أضيق هذا النهار. نهار آخر من جدار الأيام التي تتساقط علينا بلا انقطاع. رب يوم بكيت منه ولما... إلى آخر الجملة المعروفة. ترى هل سنرى ما هو اسوأ مما نحن فيه؟ لقد صحوت على رائحة حزيران هذا الصباح. ولكن بلا ضجيج. كل شيء هادئ على المشرق والمغرب هادئ وعادي باستثناء إجراءات روتينية كان لا بد من اتخاذها للمحافظة على سلامة الخطاب القومي.

لقد تعلمت الأمة نعمة الصمت الحكيم وتعلم الإسرائيليون بعض التقاليد العربية وفي مقدمتها ردة الرجل إلى بيت العروس. شمعون بيرس في القصر الملكي المغربي. معمر القذافي لا يصدق. لا يصدق إلى الحد الذي جعله يصدق أن هذه الزيارة مخالفة لاتفاق الوحدة الموقع في وجدة!

أما جامعة الدول العربية فإنها ما زالت مشغولة في البحث عن ميزانية لتشييد مبناها الجديد اللائق بوضعها الجديد.

شلوم عزيزي سميح شلوم. ولكنني لا أظن أن من حق السادات أن يفرح كثيراً فما زال في رزنامة العرب ما هو أشد سواداً.

أمـا لآخر هـذا الليل من آخر؟ ما علينـا إلا أن نستعد لاستقبال ليل أشد حلكة. فإن قاع هذه الهاوية ذات الشق المفتوح من طنجة إلى عدن لا نهاية له، لا نهاية مرئية له. ولكن لمن الهاوية يا عزيزي لمن الهاوية؟

كنـا نصفق لما ينهـار من حولنا، لا علينا دع مـا ينهار يواصل انهيـاره يبـزغ البديل من بين الـركام. هكـذا كنا نقـرأ التراجيديا الشكسبيريـة بطريقـة جدلية. وكانـت أغنية الخراب هـي الأغنية التي يزفهـا المثقف العربي إلى ورد المزابـل. ولم يكن في مقدور يـد بشريـة أن تسند حائطاً ينهـار أو توقف جبـلاً يطير. ولكن هل استطعنـا أن نختلـف، أن نتميـز، أن نتفـرد وأن نقـف خارج هذا الشمـول الرمادي؟ هل استطاع أحد أن يقـول أن شمول الخراب سيشملنـي؟ وباختصار مؤلـم هل استطاع العربـي أن يكون عربياً آخـر؟ وهل استطاع الجنيـن المتكون في هذا الرحـم المريض أن ينجو من المرض؟ لا اقترح جواباً بل أطل على صحراء.

خذ القصيدة عني يا عزيزي فقد ضاق المبدع بما يبدع وضاق الصانـع بما يصنع. من أيـن يأتيك العسل؟ من أين يأتيني الأمل؟ خذ القصيـدة عني لأنني لا أطيق الساعة خـداع الجمال. ولا أطيق قوة اللغة التي تحشرنا في النفق وتفتح لها لا لنا بطولة الأفق. لا أطيق قوة اللغة التي لا تغير إلا علاقة صاحبها بنفسه وحين يخرج إلى الشارع لا يجـد نفسه ولا يجـد لغته. خذ القصيدة عنـي قليلاً وحدثني عن خارطـة الصحـراء فها نحن نعد هجراتنا حين يـؤذن لنا بالاستراحة القصيرة بين هجرتين. نعد هجراتنا كما يعد البدوي الإبل والماعز. فمـاذا يريدون لنـا وماذا يريدون منا؟ لقد بلغنا يومـاً نسأل فيه لماذا

ولدنـا هناك؟ لماذا ولدنـا هنا؟ ونحاكم: هـل كان علينا أن نصدق تاريخنـا وأن نرفع للحاضر رافعة من دمنا. دمنا الذي احتاجوه يوماً لتلوين الإعلام ولتحسين سعر النفط. وحين تدهورت أسعار البترول انتهت الحاجة إلى دمنا الذي يصار دماً فائضاً عن الحاجة لا لزوم له ولا لزوم لما لا يلزم من شعب زائد. صار التخلص من بشاعة منظرنا ومن جهلنا ومن خمولنا شرطاً للحصول على الديون الأمريكية.

شلوم سميح شلوم.

هـل تذكـر العهد الـذي كانت فيـه السياسـة العربيـة تستنجد بأمريـكا لتحميها من طيش إسرائيـل. لقد امتد بنا الأجل لنرى كيف تستنجـد السياسة العربيـة بإسرائيل لتحميها مـن العدوان الأمريكي ومـن الإفلاس. لقد أجلسوا الوهـم على قدميه. طـوروا الوهم إلى درجـة الانتحار الذاتـي وحولوه إلى صنم للعبـادة. هل بلغنا مرحلة اللا معقول؟ كلا. لقد تجاوزنا مرحلة اللامعقول بتحويله إلى معقول ألفنـاه وأدمناه. انظر، إذا كان في وسعك بعد أنت تنظر، إلى فردوس الصمت الممتد من طنجة إلى عدن. واضحون كالفضيحة متساوون كالرمـال حكمـاء كالعبيد وبلا قناع في مسـرح العبث المفتوح بلا قنـاع. كم من قناع سوف يسقط؟ كم مرة سنقول «قد سقط القناع» لكي نرى بشكل أوضح. لا اقترح جواباً. أني أطل على صحراء.

ويشتد علينا الخناق. إلى أين يُدفع يا عزيزي بذلك النداء الفدائي الرسولي؟ إلى أية بئر يرمون صرخة اللحم البشري العاري حتى من الصـلاة؟ إلى أين يسوقون هذا الجسـد المضرج بخناجر الأخوة. أإلـى هذا الحد تضيق الأرض العربية بعشـاق الحرية المتواضعين، الـذي روض الواقع أحلامهم فترجلت من المدى الشاق إلى مكان آمـن محروس بكل ما أنجب العقل المسـاوم من معاهدات تحظر على الإنسان أن يحلم بصوت مسموع؟

يشتد علينـا الخناق لنعود كما تركتنا الخيانـة الأولى لاجئين، لاجئين كضحايا الكـوارث الطبيعية، لاجئين بلا وطن، لاجئين بلا منفى. لاجئين بلا رسالة، لاجئين بلا قضية. فماذا ستكسب السياسة العربية من محاولة إعادة النهار إلى الوراء؟ ومن سيحصل على حصة الأسد من هذا الجسد الغنيمة؟ وما هي مكافأة الجريمة؟

من سيكسب غير الزائر في صراعه الداخلي علينا لا من أجلنا؟ أمـا العرب فلن يضمنوا غيـر المزيد من الهزيمـة. تقسيم المنقسم وتجزئـة المجزأ وتخفيض سعر الـدم والبرتقال مقابل هدايا القمح والقمـع وازدياد التبعية. ثم ما شأننا نحن؟ ما شأننا بصراع انتخابي إسرائيلـي داخلي لنـزج بمصالحنا القومية فيه؟ ليسـ من واجبنا يا عزيـزي ترشيد الرجعية سواء كانـت تقليدية أم تقدمية القناع. ليس مـن واجبنا أن ندلهـا على مصالحها التي حولهـا ارتباطها بالغرب إلـى رهينة تستدرجنا لنكون رهينتها. فهل نكون الرهينة؟ ليس هذا ما يخيفني يا عزيزي. إن مـا يخيفني هو الوهم والتحاق المعارضة بالنظـام إلى درجة أتساءل معها: مـاذا أصاب لغتنا؟ لماذا تأدبنا إلى هـذا الحد؟ ولماذا لا تستولي الرهينة علـى رهائنها؟ أليس من حق الرهينـة أن تفاوض؟ ولماذا نـزن كلماتنا بميـزان الآخرين؟ فليس من واجـب الرهينة الانضباط الدقيق بقواعـد الشرعية الدولية التي قضمـت مطالبنا ورسالتنـا وروحنا واستدرجتنا إلـى نفاق أخلاق الدول: سفارة هنا وسفارة هنـاك ولا دولة... الأرض تبتعد ونحن نبتعد عن الأرض. فما جدوى الأطراف إذا توقف القلب. وما اسم الجزيرة إذا جف البحر. لا أقترح جواباً بل أطل على صحراء.

أخوك محمود درويش

(باريس - 1986/7/22)

لن يفلت أحد من شهوتنا

● أخي يا محمود،

مسكين ساعي البريد المتنقل بيننا مثل رقاص ساعة أثرية. مسكين ساعي بريدنا، حمل رسالتك ـ دمعتك ـ الأخيرة، فحملته الحيرة: كيف يوصلهـا إليّ؟ كيف ومن أيـن ومتى؟ أبواب القـارة العربية ونوافذها موصدة، مختومـة بالشمع الأحمر المصنوع فـي الولايات المتحدة الأمريكيـة أو فـي ولايـة إسرائيل الأمريكيـة، يا له من سـاع مسكين حقـاً حمل الرسالة ودار بها على حـدود الوطن العربي كلها مستغيثاً: دعونـي أكمل عملـي! حي قـرع أبواب سـاحـل المتوسـط الشرقي والجنوبي أطلت عليه أساطيـل العم سام وخفر السواحل الإسرائيلي، وحين هتف بباب الشاطئ الأطلسي تصدى له البريطانيون والإسبان. قال أجرّب «البوابة الشرقية» للوطن العربي فأجابوه بالفارسية. ونادى يائسـاً، نادى على ثغور الشـال. وما من معاوية يلبـي، وما من سيف دولـة يجيب، وما من أبي فراس يسعف... لم يكن هناك سوى الرجع الملول لأغنية تركية على مقام الرصد (اقرأ الرست)!

ووصلت رسالتك، إذن كيف وصلت؟

عبـر كوّتنا إياها. الكـوة المضاءة بسراج الـدم في هذه القلعة الهائلة المهجـورة المعتمة. الكوة التي كأنهـا «وكأنما» استغفلت الزمـان فظلـت مفتوحـة أو كأنمـا هي ثغـرة طارئة بفعـل عوامل الطبيعيـة. الفيضانات، العواصف، الهـزات الأرضية، ربما، إلا أن الحارسـ الشيخ الذي دافع ببسالة عن هـواء هذه الكوة ونورها لم يزل حياً يرزق ومن حوله سبط لن يضيع!

محمود يا أخي.

أية لوعة في القلب أودعتها رسالتك؟ إن صرختك المحشرجة: «خـذ عنـي القصيـدة»! هـي التكثيـف النهائـي والكامـل لألمنا الفلسطينـي، إنها النسخة المعاصرة ـ هل أقـول الطبعة الجديدة؟ ـ لصرخة حبيبنا ورفيقنا يسوع المسيح: «إلهي إلهي لماذا شبقتني؟» إنني أبكـي أيها الأخ البعيد، أبكي وأنا أكتـب لك هذه الكلمات، أبكـي ولا أخجـل، على الرجـال أن يبكوا أحيانـاً، دفعاً للخجل، احتيالاً على الحياة والتفافاً على الموت.

إلهي، إلهي، لماذا شبقتني؟ خذ عني القصيدة؟ ابعدوا عن فمي هـذه الكأس! أما آن لهذا الفارسـ أن يترجل؟... وماذا بعد؟ أما آن لتعب السؤال ان يجزى راحة الجواب؟

الآن يحضـر فرانز كافكا بكامل استلابـه، لا يلقي التحية على أحد، يقف على منصة الأمم المتحدة ليلقي كلمته، تصفق له الوفود ولا يعيرهـا التفاتـاً. إنه مـا زال مكباً على ذاته متأمـلاً ذلك الجعل البشـري المقلـوب على ظهره، الجعـل البشري أنـت وأنا ونحن وهم. يلقي كفاكا خطابه المرعب: «ألم أقل لكم؟!» ويستدير نازلاً عن المنصة المنافقة، عائداً إلى عزلته الإنسانية المطبقة.

هنا يحين دورنا. نستعيد صرخة ذلك الشهيد القديم: «احمل صليبك واتبعني!» نستلهم النظرة الأخيرة في حدقتي سبارتاكوس المطفأتين، نحاول استكناه نأمته الفاصلة، نتشبث بصرير أسناننا. ورغم كل شيء نكتب القصيدة. ورغم كل شيء نحمل قصيدتنا ونتبعه. نتبع ذلك النور المتلألئ حتماً هناك في نهاية سردابنا الدامس. هذا السرداب لا بد له من نهاية... علينا أن نمشي فقط، نزحف، نؤمن ونقول، نقول ونؤمن، نستعيد قوانا حبّة حبّة وننهض خطوة خطوة. لا نرى النور ونراه، ينبغي أن نراه. لا خيار أمامنا سوى بلوغ ذلك البصيص المؤكد في نهاية النفق المظلم. فرانز كافكا كان على شيء من الحق. أما الحق كله فإلى جانبنا نحن. كافكا رأى، أما نحن فقد رأينا وثرنا، أدركنا وثرنا، آمنا وثرنا. هذا الجعل البشري المقلوب على ظهره ظلماً وغدراً وعدواناً سيستقيم من جديد وسيبعث إنساناً سوياً رغم كل الوحوش المتحضرة المتألبة علينا.

لتذهب غولدة إلى رغدان وليذهب السادات إلى الكنيست وليذهب بيرس إلى أفران. ليذهبوا جميعاً حيث يشاؤون، فلن يفلتوا، لن يفلت أحد من شهوتنا النبيلة الطاغية، شهوة العودة إلى حيث نشاء، حيث يحق لنا أن نشاء. يستطيعون إطالة حرماننا بيد أنهم عاجزون عن إنهاء حقنا.

نحن، اليوم، في حاجة ماسة لأنفسنا، لروحنا القديم، نحن في حاجة للإيمان، ليس بمعناه الكهنوتي، بل بمعناه المجرد المطلق، بالعفوية التي تلازم الطبيعة الأولى والمباشرة، بعيداً عن السَّبر والتقصي. وفي منأى عن التأمل. نحن في حاجة لنارنا القديمة ـ على سذاجتها، لأنها الخاص الكامن في أعماقنا مثل حبة الرمل الكامنة في أعماق اللؤلؤة. ليكن الشعب محارتنا، ولتكن

قصيدتنـا عزاءه المؤقت بقدر ما هي عزاؤنـا الدائم. لقد جعلنا من لفظـة: سأقاوم! شعاراً لشعب ونداء لأمـة. ورغم أن أوكار الخيانة تتناسل مثل أوكار الأرانب، ورغم التكاثر الفاجع في مدن العبودية وعواصـم السقوط، فـلا خيار أمامنا سوى ذلك الـذي أكدته أنت وجددته قبل فترة وجيزة: إما أن نكون أو لا نكون!

ها أنذا أرتاح قليـلاً، حين أكتب إليك فإنني أكتب إلى نفسي. ويا لها من مناورة رائعة هذه التي نتعزى بها في زمن شحّ فيه العزاء، زمن المبكيات المضحـكات، هذا الزمن الذي ثرنا فيه وعليه، من أجل أن يكون زمننا نحن، وسيكون.

أخوك سميح القاسم
(حيفا ـ 1986/7/27)

طائر على حجر

● عزيزي سميح،

حطت رسالتـك الأخيرة عليّ كما يحـط طائر على حجر... آنستنـي في برية الروح. دلتني علـيّ وعلى أفق لا يبدو انه سيواصل الهروب منا إلى الأبد...

ولا أخفـي عنك حاجتـي العطشى إلـى أول المـاء وإلى أول الـكلام. فهذه العزلة التي كنا نحتاجها لنتأمل ما فينا من بقايا النهار هي العزلة النى نقاومها لنواجه ما حولنا من حصار.

وها أنت توقفنـي في المهب الحريري للخطى الأولى. كأنك تنجـح في وقف البعيد عـن الابتعاد. كأنك تمنـع البداية من إخفاء عنوانها الساطع، وسط ركام الشك الشائع في هذه الأيام.

شكراً لهذا الشمال،

شكراً لتلك البوصلة،

لقـد انقطعـت شهيتـي عـن الكتابـة فجـأة، لا لأن جـدران

المراحيض العامة هي صحافة المستقبل الحرة، بل لأنني لم أحترف الكتابة بعد كما لم آلف الزواج. فهل ينبغي عليَّ أن أخاف هذا الصيف الذي يدفع النفس إلى الخمول، ويطلق أفاعي الذكرى من أوكارها؟ أم ينبغي عليّ أن اغتصب الكتابة؟

منذ شهور، وأنا أروِّض عاداتي. أصحو لأكتب. أصحو من أجل أن أكتب، وأنقح حياتي من عبث كان ضرورياً حين كان يبدو لي أن في العمر متسعاً لنضج فواكه اللغة. ولكن، أليست الكتابة عبثاً أقسى في هذا الصراع الضاري مع بياض لا ينتهي؟ فكلما كتبنا أحسسنا بأننا لم نكتب بعد. وكلما قرأنا شعرنا بأننا لم نبدأ القراءة.

ومن مشاكلي أنني لا أكتب في الليل. لا أحب الليل ولا أطمئن إلى الليل. والصباح هنا قصير. والفجر رصاصيّ موشح بحمام أسود. الحمام هنا أسود. ومن مشاكلي المهنية أيضاً أنني لا اعرف الإجازة، لا أعرف ماذا أصنع بالإجازة التي يقدسها الناس هنا. لذلك، اختلف مع الصيف ولا أتفق مع الليل. تعال... تعال إذا استطعت لنواصل هجاء الزمان والمكان ولنعب الطاولة، ولنطهو مذاق الطعام القديم...

هل يصيبك هذا العقم المفاجئ؟ هل يجتاحك الإحساس بالهزيمة النهائية إذا توقفت أسبوعاً واحداً عن الكتابة إلى درجة تنسى معها أنك قد أنتجت كثيراً هذا العام؟ لقد علمتني تجربتي المتكررة، في هذا الإحباط، أن أبتعد عن المحاولة، فالكتابة حرون لا تنفع معها وسائل الإغراء إن عصت. سترضخ، سترضخ، تباً لهذا الصيف. تباً للجرائد!

قلت لي إنك تخاف كتابة النثر. لماذا تخاف؟ يبدو لي، يا

عزيـزي، أن النثر هو ديوان هذا العصر، إذا أبقى التلفزيون له باقية! ومـاذا لو سـرق النثر شيئاً مـن الشعر. أليس النصُّ نصك؟ لا أظن أن النثر هـو استراحة الشاعر، أو فضيحته كما يقولون. فقد تتحقق الشاعرية في النثر أكثر مـن تحققها في القصيدة المشروطة بشكل قـد يكبح جمـاح الجنون، هنـاك دائماً فائض شعـري ينبجس من مكان آخر. المهم هو ألا نؤجل هذا الانبجاس، فليس من الصواب أن ندخر الشعر إلى أن تأتي قصيدته التي قد لا تأتي...

إيّـاك، يـا عزيزي، إيـاك أن تغربـل النثر لتفصل مـا يصلح منه للقصيـدة القادمة، فالشعـر لا يسقط في النثر بل يولـد معه. وأنت أدرى مـن سـواك بـأن الشاعرية شهـوة تصعب إعـادة إنتاجها في شـروط توتر محسوب. الرغبة تصيح وتنفجـر ولا تُنقل إلى موعد آخر...

ضـع نفسك في الريح والجنون، فليس في وسع الشاعر إلا أن يكون شاعراً.

وفـي الأزمات تكثر النبوءات الطالعة من كوابيس. لا تبك إن سألتـك أن تأخذ القصيدة عنّي. فلمن أشكـو مما أعبد؟ أما آن لك أن تعـرف أني لا أحبُّ الحب لانـي لا أحب وضوح هزيمة الحلم المتحقق. سأهـرب دائماً مما يصير شروطاً للفرح. سأشاكسه كما يشاكـس الطائر شجرة. ولـن نشفى... لا نريـد أن نشفى من هذا الإيقـاع، لا لأنـه سـلاح يصلح للسخريـة من تاريخ مـا خرج من التاريخ، بل لأنه مرض ملازم لا يعني الشفاء منه سوى موتنا!

أكتب إلي... أكتب من أجلـي... لأقرأ نفسي بطريقة سليمة. وصدق حبرك المصنوع من غيمة. لقد جرّبتُ وتغربت واغتربت، فلم أجد أصفى من تلك المرآة: حجر هناك يحك جلدي وجذوع

الشجر، حجر مرمي على طريق مهجور، حجر في يد طالبة غاضبة تتأهب للصراخ الأول، حجر يتجنح، حجر يتسلح باللغة، حجر من ذاكرة، حجر من نسيان، حجر من قصيدة...

أكتب إليَّ... أكتب من أجلي لتُرشد جهات الأفق إلى الجذور. لا، ليس من طبيعة القلب أن يتلفت إلى ناحية أخرى. وليس من حق القلب أن ينفصل عن الوجه النوراني لزهرة عباد الشمس.

كان عليك أن تبقى. وكان عليَّ أن أذهب، كان عليك أن تذهب، وكان عليَّ أن أبقى لنبني هذا الجسر، لنرفع لرائحة السريس السرية ولزهرة القندول سيرة الفضاء الذي لا يتسع لصرخة. ليس هاملت سيد الكلمات ليكوِّن حيرتنا. لماذا تضخم سؤاله إلى هذا الحد الفلكي؟ فنحن لسنا بحائرين ومترددين بقدر ما نحن مذبوحون بشفرات المياه الراكدة. ولكن الأدب قادر على إخفاء مذبحة شعب بسؤال فرد.

نعم، لقد اخترنا أن نكون وأن نكون، وأن نشرب الكأس، كأسنا، حتى الثمالة على مرأى من ملوك الطوائف المتحالفين مع ملوك الخرافة في حراسة القدس من قلوب تشرئب على الأسوار شجراً، حصى، وأناشيد...

نكون، أو لا نكون... ألستم أنتم الجواب؟

يتبلورُ الإطار ويتغيّر... ألستم أنتم الجواب؟

يرتدي الملوك بدلات الكاكي للتمويه، ويتنكر البوليس برداء القديس للترفيه... ألستم أنتم الجواب؟

معاهدات سرية أو علنية، خرائط محفوظة في الخزائن أم مطبقة على الأرض... ألستم أنتم الجواب؟

خناجـر الأخوة ـ الأعداء، والأخوة والأعـداء واضحة... ألستم أنتم الجواب؟ وليتحالف الطائفيون مع الصليبيون ألستم أنتم الجواب؟

وليتحالف الطائفيون مع الصليبيين، ألستم أنتم الجواب؟

يسرقـون الدم واللسان. يُبعدون المُقاتلين عن حدود الأرض، وينهبـون الأرضَ من الشعـب. ألستم شعباً في أرضـ، وأرضاً في شعب، ألستم أنتم الجواب؟

نعـم، ليذهبوا إلى حيث شاءوا. وإن كنا نريدهم أن يذهبوا إلى أقـرب جحيم. هل نجاه أحدٌ من «لعنـة فلسطين»... هل نجا أحدٌ من قبـل؟ ولكن ماذا نفعل بالدهشة، مـاذا نفعل بلا دهشة؟ ونحن مـا زلنا نقرأ تاريخ الغـزو الصليبي وتحالفاتـه، وندهش من تمدده الآمـن على السواحل، ومن مرارة صلاح الدين المشغول بأكثر من حرب، المشغول باستبدال الدعاء بالسيف.

لا نجـد وصفـاً لحالتنـا ولحالتهـم أفضل من تلـك القلاع المهجـورة الدالـة علـى الحضور والغيـاب، في أرضـ تتساقط فيها القلاع على القلاع، ويرعـى الماعز على أنقاضها أعشاباً لا تتوقف عن النمو...

أكثيـر علينـا، إذاً، أن نحـزن قليلاً مـا يتكرر بـلا عبرة، هذه المـرة، وكأن لا شاغل للحكم العربي غير إحالة أزمة الآخرين إلى صفوفنا، وتحريـر الأمة من المدافعين عن الأمـة؟ ألم يعد للحكم العربـي من مقومـات الدفاع عن النفس غير القضـاء علينا، جسداً وفكرة وصرخة؟

وبأي ثمن؟

بلا ثمن!

ولكنكـم هنـاك... فأكتب لنا مـن هناك عن هزيمـة الحرب الإسرائيليـة الدائمـة لفك الارتبـاط بين الأرض وشعـب الأرض. وأكتـب لنـا عـن هزيمـة الإسرائيليين فـي محاولة فرض السلام الإسرائيلي على الشعب الأعزل المحاصر، ليحاط الملوك والرؤساء العرب علماً بما لا يعلمون من البديهيات...

واكتب إليّ... دُلني على البسيط البسيط على الكلمات الأولى لأغانـي رعاة علّمونـا الجبال، الكلمـات الأولى لعمـال المطبعة الأولـى. معك حق... معك حق: نحن في حاجة ماسّة إلى الإيمان الأول، وإلـى النـار الأولى. نحن في حاجة إلـى «سذاجتنا». نحن فـي حاجة إلى درس الوطن الأول: أن نقاوم بمـا نملك من عناد، وسخرية، بما نملك من جنون...

فـي الأزمات تكثـر النبوءات: وهـا أنذا أرى وجهـاً للحرية، محاطاً بغصني زيتون... أراه طالعاً من حجر.

أخوك محمود درويش

(باريس - 1986/8/5)

الصمت الجهوري

● العزيز محمود،

لـم أجرب لدغة الأفعى، حتى الآن، جربت لسعات النحل. قد تكون مضاعفات توبيخ الضمير ألماً مماثلاً في مساحة ما، بين الأفعى والنحلـة. وكما تعلم فالملعونون، أمثالنا، معرضون لنوبات التأنيب الضميري أكثر من قابليتهم الجسدية للسقوط في شراك الزكام (أنت لا تحب الصيف وأنا لا أحـب الزكام!). نحن مكشوفون لعذابات ضمائرنا إلى حد الجنـون وإلى حد الغباء أحياناً. نتصرف بأعصابنا كأنها ملكية عامة. وغالباً ما نبدو لأنفسنا تماماً كما نبدو للآخرين، مشاعـاً للأجناسـ البشرية كلها. إذا جاع طفل فـي بيافرا ترانا نغرز أظافرنـا في أمعائنا. نحن المسؤولون عن سوء توزيع النتاج العالمي ونحـن أفشلنـا بإهمالنا الشخصـي خطط التنمية فـي العالم الثالث وبرامج الأمـن الغذائي الدولي. وإذا قتل طالـب جامعي في تشيلي وإذا انفجـرت سيارة مفخخة في لبنان وإذا اعتدت أمريكا على ليبيا وإسرائيـل على العرب والعرب على العـرب فإننا ننقض على أقرب

الأشيـاء إلينا بالضـرب والركل والشتائم: نضـرب معدتنا بالقرحة، نركل أحلامنا بالخيبة ونهجو القصائد بالقصائد.

هـل نحن مخولون؟ هل نحن مكرسون؟ هل نحن منذورون؟ لا ونعم. نعم ولا. أجل وكلا. كلا وأجل. لماذا؟ لهذا!

اليـوم في غمـرة رسالتـك الأخيـرة، صعقتني نوبـة ضميرية جديـدة: فجـأة ينهض بينـي وبينك راشـد حسين بقامتـه الفارعة المنحنيـة قليلاً عند ملتقى العنق بالكتفين وبغرته المتفلّتة أبداً كأنها راغبة في الرحيل إلى مكان ما.

يقـول راشد وهو يشعل سيجارة مـن سيجارة: «هكذا! أكتب عـدة رسائـل لأتلقى جوابـاً متملصاً واحـداً، وها أنتمـا تتبادلان، الرسائـل واحدة بواحـدة». وأرد عليـه متملصاً مختنقـاً بالإدانة: «الحق معك أيها الأخ الغالي إلا أن حبنا لك يحصى بدقات القلب لا بالرسائـل». كـم أخطأنـا يا محمـود حين تأخرنا فـي الرد على رسائل راشد الحبيب.

وتحضر دفعة واحدة تلك الليلة المشدودة كوتر، الليلة الأخيرة التي أمضاها راشد بيننا. حيفا، شارع عباس، شقة إميل توما الغائب في الاتحـاد السوفييتي (الحاضر في ذمـة التاريخ). راشد يتحدث عـن استحالـة بقائه فـي الوطن بصوت عـال كأنما يحـاور أحداً. ونحن نواصل وجومنا بأسـى احتفالي. كان ذلك كرنفالاً للحزن. واليـوم حين أمـر بوادي عارة يقوم راشد من بيـن الأموات منتصراً بالحياة منتصراً علـى الموت بالموت... وأجدنا جميعاً هناك أنت وسالـم وتوفيق وحنا وصليبا، ولا أجد ذراعاً أرفعها بالتحية ويغرق الشـارع في غشاء من الدمع ولا يعيدني إلـى نفسي إلا الابتعاد عن سح «مُضْمُص» والأنباء اليومية عن حوادث الطرق المهلكة.

هـل كانت لنـا يد فـي مصـرع راشد حسيـن؟ ألـم يكن في مستطاعنـا إطالة حيـاة غسان كنفاني قليلاً؟ لمـاذا سمحنا بسقوط عبـد الرحيـم محمود فـي معركـة الشجـرة؟ كيـف تغاضينا عن صلب الحـلاج؟ لماذا لم نستأنف ضد قرار عثمـان بنفي أبي ذر؟ ألـم يكن في مقدورنا ردع الموت عن فدريكـو؟ لعلنا تساهلنا مع الأسخريوطي أكثر مما ينبغي؟

إنهـا أسئلة جادة. ولا أريد إجابـة من أساتذة التاريخ. ولا أريد إجابة على الإطلاق. لا أريد للحزن ان يتشكل ولا أريد للغضب ان يتموضع! حسبي ذلك الصمت الجهوريّ الذي تختزنه القصيدة.

أيها العزيز محمود،

كانـت رسالتـك الأخيرة أشبـه بنهنهة طفل خـارج لتوه من البـكاء. أنت الآن في حالـة نفسية أفضل. إلى متـى؟ إلى المفاجأة اليعربيـة القادمة. لقـد حصلت مفاجأتي الخاصـة قبل فترة وجيزة حيـن قرأت في إحدى الصحف التـي تصلني متأخرة جداً أن أخانا العقيـد معمر القذافي قـرر تغيير أسماء الشهور. حسنـاً، إنها رغبة ملحـة في تغيير واقع الزمـن، إلا أن ما حدث فعـلاً لا يتعدى تغيير شـكل الزمن، إطاره، مقياسـه. هذه الواقعة تعيد إلـى الذهن واقعة مماثلة. عـزّ على أتاتورك ما اكتشفه في شعبـه من تخلف، فانقض على العمائـم واستبدلها بالسلنـدر وانهال على اللحـى واستبدلها بالآفترشيف وماذا كانت النتيجة؟ أتيح لي قبل أعوام أن أقوم بجولة في ربوع آسيا الصغرى، وكنت أردد في دخيلتي بين قرية وأخرى: «أتاتورك أتاتورك دع لي لحيتي!».

لا يقلقك تحفظي من النشر، فهو كما يبدو تحفظ ذهني يشكل تسـاؤلاً أكثر مما يشـكل موقفاً. وهو قائم علـى القناعة بأن عملية

الكتابـة، أية كتابة: القصيـدة، الرسالة، الخبـر الصحفي، المقالة، الإهداء الخاص على كتاب تهديه إنساناً عزيزاً عليك، كلها تستهلك طاقـة ما من المخـزون المتراكـم في حالـة الكتابة وأعنـي بحالة الكتابة، تلك الحالة التي يتغير فيها وضعك النفسي والجسدي معاً، تنتابك غيبوبة مـا، ترتفع حرارتك قليلاً، ترى ولا ترى، تسمع ولا تسمع، ولا ينقذك من اختلال التوازن الطارئ سوى ذلك الاندغام الكامل بين روحك وجسـدك وقلمك والورقة الساحرة المستلقية بين يديك مثل امرأة وإلهة تصيح: خذني!

بلـى، يصيبني «العقم المفاجئ» أحياناً. ذات مرة استمر شهوراً بكاملهـا. استحوذ عليّ رعب لا يوصف. لعله الرعب الذي يكتسح إنسانـاً كاشفـه الطبيب بـأن داء السرطان لن يمهله طويـلاً. لم أجد السلـوى إلا في حكمـة تلك النبعـة الجبلية في كـرم الزيتون الذي أشارت إليه إحدى رسائلك السابقـة. إنها تحتبس عاماً وأكبر لتعود وتتدفق من جديد في موعد غير متوقف ولا يقدر إنسيّ على حسبانه.

حصلـت في قبرص على نسخة من مجموعتك الجديدة «هي أغنيـة... هـي أغنية»، وكان طبيعيـاً أن يعجبني فيهـا ما لا يعجب النقـاد الالترامودرن، أعنـي الشعر، الشعر الحقيقـي بلوعته البكر وفرحه الطـازج وغنائيته المفعمة بالدم والحبـق والشمس. وخيّل لـي يا محمود أنني وقعت في أحـد مطبات القراءة. حين بدأ لي أن القصيـدة، منشورة فـي صحيفة أو مجلة، ليسـت هي نفسها حين تتداخل مع شقيقاتها فـي مجموعة شعرية خاصة. قد أكون مخطئاً لكـن لِمَ لا أكون أيضاً على حـق، فالإنسان، منشوراً في المجتمع، ليسـ هـو نفسـه حين يتداخل مـع ذاته فـي ركن خاصـ. أليست القصيدة شاعراً؟ أليس الشاعر إنساناً.

أكتب لك هذه الكلمات في الرامة. تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ثمة كلب ينبح في طرف القرية الشمالي الشرقي. لعل شاباً يعود الآن من منزل خطيبته إلى بيته وقد يكون عليه أن يستيقظ في الفجر ليذهب إلى عمله. إنه الليل، ليلنا الجليلي الرائع. كم أخشى أن تضيع مني لحظة من فضائه الممتلئ بالدهشة العامر بجلبة الصمت. هذا الليل الجبليّ الوعر الخاوي المكتظ، أتوجه ملكاً على أحلام يقظتي ويكرّسني كاهن الاعتراف، يجثو أمامي على ركبتيه ويبوح لي عبر حجاب من أجفاني المثقلة بكل ما في روحه من أسرار.

أنت لا تحب الكتابة في الليل. لا بأس، لعله قدر علينا أن نتناوب الانفجار... حين تخمد أصابعي على القلم في تهويمة الهزيع الأخير تقرع ما بين صدغيك نواقيس الفجر، فتنهض إلى الورقة الساحرة المستلقية بين يديك مثل امرأة والهة تصيح: خذني!

أخوك سميح القاسم
(الرامة - 1986/8/12)

بيت من هـواء

- عزيزي سميح،

أصحـو لك من النوم لأودعك برسالة. كانت زيارتك قصيرة، قصيـرة كتحيـة البحـارة. رافقتك السلامـة، يا عزيـزي، رافقتك السلامة. ولا تقلق عليَّ، لا تقلق عليك، لا تقلق على أحد، لتواصل هذا التماسك النبيل.

أحدّق فـي الساعة لأعرف أنك قد وصلـت إلى بلادك الآن. هـل بدأ الاستجواب؟ هل يحق لـك أن تقابلني بعد صدور القانون الجديـد؟ وهل يفكرون بسن قانـون آخر يمنع تبـادل الرسائل مع أعدائهم الذين يريدون لكـم أن تكونوا أعداءهم؟... معقول... لا معقـول. كل شـيء مفتوح على اللامعقول. إلـى متى أغبطك؟ إلى متى تغبطني؟ وإلى متى تدعوني إلى مقايضة الحنين بالكتابة... إلى متى أتدفأ من الكلام بالكلام؟

... تعرف ماذا أصابني أمس. هو ما يُصيبني الساعة. قل لي: من أين استـوردت هذا السلام مع النفس؟ من أين نهلت نعمة المحافظة على المسافة اللازمة بين حركة الواقع الانقلابية وبين ثبات المثال؟

على قلق أنا، على قلق... أحوم كالنحلة الملعونة، ولا أريد لعسل الكتابة أن يُغريني بالهتاف لمصادر الشقاء العام والشخصي الذي يُغدق علينا إيقـاع السحرة. كفى هوساً! فإن بيتاً واحداً من خشب أو قصب أو حجر خير لي من مباني هوميروس ودانتي وأبي تمام. لهذا صرخت فـي المـرآة: آن للشاعر ان يقتل نفسه. لا لينتحـر، كما يظن الصحافي الباحث في القصيدة عن خبـر، بل ليكف الإنسان فيه عن تحويل الدم إلـى ورد، وعن تجميل الرماد... وليفضـح السعادة، السعادة المضللة المضللة الناتجة عن أمل لا فكاك منه بإبداع عالم، مواز ومضاد، لعالم ينهـار فينا وفيـه. ولنوقف الاتهـام الذاتي: أتموتُ النـاس لتحيا اللغة! ولتتوقف الجثة فينا، جثتنا كما قلت، عن الرقص الاحتفالي.

ولكن، ماذا يحدث... ماذا يحدث لو تركنا هذا الموت الماطر بلا شاهـد وبلا جمال دفاعي، لـو أبقيناه ميتاً بينمـا يمجد الآخرون مـوت ورقة من شجـرة؟ ماذا يحدث لو تركنا هـذا اليأس العابث في حياتنـا بلا قوة إبداع تحوله دلالاتها إلى أمل؟ ماذا يحدث للغجر بلا وتر جيتار؟ وماذا يحدث لك إذا لم تخرج ما فيك من زهور ليلك؟

تركـت فيَّ مذاق مـرارةٍ وغيـاب. أصابنـي هـذا الصباح ما أصابني أمس من بلوى ضعف حين أوصلت الصبيتين، ابنتي أخي، إلـى المطار. جميع الركاب عائدون، عائـدون، عائدون بأكثر من لغـة، بما فيهـا العبرية، عائدون إلـى ما ليس لهم، عائـدون إلى ما هـو لي، عائدون إلى صنوبرتي وسريـري. وأنا ممنوع من التفكير بالعودة... وممنوع من الرغبة في العودة.

مـاذا أصابني، يا عزيـزي، لماذا أعود إلـى اكتشاف البسيط؟ لمـاذا يجرحني بسيطُ البسيط؟ لماذا أتذكر أنني قد نسيتُ البسيط؟ لمـاذا يحتـاج البسيط، هذا البسيـط بسيطنا، إلى خـارق ومعجزة وإلى حرب عالمية؟ ألأنني كبرتُ دون أن أدري. ألأن الطفولة التي

كبرت فـي غيابي دلتني على أن الكلمـات ـ مهما كبرت واتسعت واشتـدت ـ لا تنجب طفلاً من لحـم ودم، وأنه لا بد للطفل من أم؟ وأنـي في حاجة عضوية ونفسية إلى من أصب له الحليب والشاي في الصباح؟ وأنني في حاجةٍ إلى من أعود إليه في غرفة في فندق؟

أن تكـون معـي... أن يكون أحـد من أفـراد عائلتي معي... أن يكـون أحـد من أصدقائـي القدامى معي... هـو الدليل الأخير والوحيـد علـى أنني موجود. مـاذا دهاني؟ إلى هـذا الحد تحتاج القربـى والصداقة إلى تاريخ وأمهات وسجون قديمة... إلى جذور وذكريـات؟ ألهذا نمرُّ اليـوم، على الناس والأشيـاء والمدن، مرور الممثلين الهواة على خشبة مسرح عابر؟

ألهاذ مات راشد حسين؟

أنا أيضاً يعضني ضميري. وأنا أيضاً أحد الذين يحملون أنفسهم المسؤوليـة عن العزلة التي غـرق فيها راشد. نعم يا عزيزي... نحن مسؤولـون ـ بما يعنيه الشعر في جدل الأخضر والخنجر ـ عن موت الشعـراء والأنبيـاء. نحن مسؤولـون عن طلوع القمـر على قصور القتلة. نحن مسؤولون عن مصـرع فيديريكو غراسيا لوركا وراشد حسيـن. كان علينا أن نفعل شيئاً لإنقـاذ رأس الحلاج. ولكن، ماذا سيُصيب سؤالنا لو أدركنا أننا عاجزون عن اللقاء في حيفا لمنع راشد حسين من الرحيل إلى نيويورك ولمنعي من السفر إلى المجهول؟

مزيـد من الخلوة فـي الحمّام لحجب الدموع عـن الأصدقاء والأعداء. تلك هي المسافة لا القطيعة، بين ما نريد وما نستطيع...

لقد انكسر راشد، كما ينكسر السرو العالي، في المعركة إياها التـي كرست فيها الصهيونية الليبرالية بعضـ منابرها مواقع للدفاع عن القومية العربية! وحيـن انتبه راشد حسين، القومي البريء، إلى

التناقض بين الموقع والموقف كانوا قد سحبوا منه المنبر وعلقوه على الهواء.

كان يكتب إلينا من نيويورك باكياً. وكان صليبا خميس، الصديق الوفي، يحث الأصدقاء على المراسلة. هل كنا كسالى، أم كنا نفتقر إلى حاسة المنفى وحاجة المنفيّ إلى جسور معنوية، أم كنا نغبطه لأنه متحرر هناك من قيود الإقامة الإجبارية والسجون، أم كنا مشغولين في معارك الدفاع عن حقنا في الهواء؟ لا أعرف. أسئلة تحفر فينا الندم. لقد جرحناه بذلك الإهمال الصبياني البريء، على الرغم من أنه كان صديقنا ومثالنا. هل كانت نيويورك، الواسعة في السينما، ضيقة على راشد إلى هذا الحد؟

من هناك، أتصل بي عندما كنت مقيماً في القاهرة. دعوته إلى زيارتي فلبى الدعوة بطيبته المعروفة. أوقفوه أربع ساعات في المطار. وحين أفرجوا عن قامته الفارعة، وعانقته مداعباً خصلة شعره الشاردة، قال لي: اسمع! قلت: ماذا؟ قال:

واقفٌ كلي مذلة   في مطار القاهرة
ليتني كنت طليقاً   في سجون الناصرة

قلت: من منا لم تستقبله هذه الحسرة؟ ذاهبون إلى بلاد الأحلام ليدفعنا أول شرطي إلى بئر الخيبة. طأطأ شغفة وواصل العناق. وقلت لأواسيه: حدث لي ذلك الحدود السورية ـ اللبنانية في أول زيارة لدمشق بدعوة رسمية من وزارة الثقافة، حين وجد حارس الحدود اسمي مدرجاً على اللائحة السوداء.

في القاهرة، استعاد راشد حسين عافيته المعنوية تدريجياً. جمعته بجميع أدباء مصر. فرح بهم. فرحوا به. قرأ شعره لجمهور الشعر. أدلى بأحاديث صحفية طويلة أعادته إلى سياقه الأدبي. دعاه حسنين هيكل

إلـى الكتابة في «الأهرام». قرر الإقامة في القاهـرة. سافر إلى دمشق. قرر الإقامة في دمشق. اختلف مع بعض الأصدقاء القدامى الذين تغيروا ـ كما قال ـ ثم عاد إلى نيويورك ليبحث عن نفس لن يجدها...

كان متعبـاً، ويُغيِّب ذاته. لقد ضـاق الأمام. وحين كان يلتفت إلـى الـوراء كان الوراء يبتعد مهمـا سلط عليه الذاكـرة. لم يجد ما يشغـل بـه منفاه، ولم يكن الحنيـن مهنة كافية، ولا شعـر عربياً في نيويورك الفاتحة معدتها لابتـلاع الأمم والثقافات. لماذا لا تعود؟ أسألـه. فيقـول بصوت يتلاشـى إلى البعيـد البعيد، بصـوت فاتح الغموض: ليتني أعود، ولكنني تورطت في المنفى... تورطت إلى درجة أسأل معها نفسي: ماذا سأفعل هناك... ماذا سأفعل؟

وكنـا نراه، كل عام، في نيويورك. يأتي إلى فندق «بلازا» ليأخذ الوفـد الفلسطيني كله إلى شقتـه الصغيرة لتناول «المجدرة». كانت هـذه الوجبة أحـد التعابير عن هويته الوطنية. «لسـت غريباً إلى هذا الحـد... لتجد فيها جذورك» كنت أمازحـه. وكان يلح. كان يتقن طهوهـا، ويجرحه أي اعتذار. راشد حسين لم يهاجر. لم يخرج من مصمص. لم يعرف نيويورك. ولم يطور لغته. أراد أن يبقى كما هو. مـن حوله تمرُّ الأيام والتيارات والأمـواج والشعوب. وهو وهو... حارس الحنين والذكريات. وهو هو... هناك: الشاعر الذي جر لغة الشعر الفلسطيني من الخطاب الإيديولوجي إلى واقع الحياة اليومية وإلى إنسانها البسيط: الفلاح، العامل، اللاجئ، العاشق، والفدائي...

فلمـاذا لم نكتـب إليه بعض الرسائـل، لماذا لـم نكتب إلى كولونيل روحنا المتقاعد؟ لماذا لم نشغله ببناء الجسور والمواعيد، لماذا تركناه وحيداً... وحيداً في نيويورك؟

صديقـه «هادي الطـرن» معذب الضميـر. قال لي: أنـا أيضاً مسـؤول عن مـوت راشد. كنت آخر مـن رآه. ذهبـت إلى شقتي

وذهب إلى شقته. في الليل ناداني. ألح عليَّ بأن أذهب إليه. رفضت. قال لي إنه محتاج إلى من يشرب معه ويتكلم معه. قلت له إني متعب. وتركته.

صديقه هادي يبكي الآن: ليتني ذهبت إليه... ليتني ذهبت. لقد انقضَّ عليه الليل. توغل في العزلة المطلقة. وكان وحيداً في بطن الوحش. كفر بكل شيء. أشعل النار في أشرطة سجل عليها شعره، فاختنق بدخان قصائده.

اختنق راشد بدخان القصائد...

كان إنقاذه ممكناً، لو وجد من يؤنس وحشة روحه في مدينة وحشية. كما كان إنقاذ ماياكوفسكي ممكناً لو جاءت إليه صديقته، أو أحد أصدقائه ليلعب معه الورق. كذلك كان من الممكن إنقاذ معين بسيسو في غرفة الفندق لو كان إلى جانبه أحد.

لا أحد...

كان من الممكن إنقاذ الكثيرين لو كانت هنالك يد، أو رسالة، أو سبب للحياة...

لا أحد...

فهل سنجد من ينقذنا، يا عزيزي سميح، هل سنجد من ينقذنا لو تخلينا عن الشعر، لو خجلنا من تحويل الدم إلى ورد؟

أنقذني من سطوة هذا الحنين، أنقذني من شماتة هذا المطار الذي يوصلكم إلى بيوت من حجر، ويوصلني إلى بيت من هواء!

أخوك محمود درويش

(باريس - 1986/8/25)

المـلاك

● أخي محمود،

لـو أعلم فقط، لو أعلم من أين هذا الثلـج كله... نديف هائل عبـر النافذة، اسـأل صحفياً شاباً في جريـدة «الاتحاد» التي عدت إليها كما يعود العاشق إلى حبه الأول أو كما يعود المجرم إلى مكان جريمتـه، بلغـة دوستويفسكي، أساله وهو يضع خبـراً جديداً على مكتبي: هل من ثلج على نافذتك؟

يفزع قليلاً ثـم يبتسم بارتباك ويجيب مشـككاً فيَّ وربما في نفسه أيضاً: «لا... لا ثلج على نافذتي»... ويعود إلى عمله متلجلج الخطى يائساً تماماً.

يتراكم الثلج على نفاذتي ويغيب ميناء حيفا قليلاً قليلاً مثل سفينة تهب نفسها للضباب. وتنقطع صلتي البصرية بالعالم الخارجي.

يُقـرع الباب برفق ويدخل بـكل هَبَلِهِ وأناقتـه صديقنا القديم أوسكار وايلد.

– ماذا تشرب يا أوسكار؟

– قهوة تركية من فضلك.

لم تكن القهوة قد حضرت بعد حين قلت له باحترام شديد:

– يا عزيزي أوسكار. الآن وبعـد العندليب والوردة تستطيع الذهاب إلى موتك بهدوء. لا تبدد وقتك ووقتي.

ولـم ينتظر صديقنـا القديم طويلاً، نهض بـأدب جم وذهب إلى موته.

كـم اشتهي عندليبي ووردتي. كم أنـا في توق جامح إلى سفر أخير نحو المحطة الأخيرة. أرهقتني الفوضى، أرهقني الرحيل في الإقامة والإقامة في الرحيل.

تسألني: من أين استوردت هذا السلام مع النفس؟

حسناً، سأبح لك بما اعتبرته دائماً شأناً موغلاً في الخصوصية. أنـا يا صديقي احترف أحلام اليقظـة وأمارسها بإدمان. أخلط العالم مثـل أوراق الشدة وأعيد ترتيبـه على هواي. وأحتفظ في جيبي بقلم يبـدو فـي مظهره الخارجـي قلم حبر عاديـاً من طـراز «شيفرز» أو «باركر». بيد إنه قلم سحري، صوبته ذات يوم باتجاه سفن الأسطول السادس الراسية في ميناء حيفا، وحين ضغطت على النقطة السرية في وسطه تفجرت السفن واحدة تلو الواحدة. وليتك شاطرتني المشهد الرائع، مشهد المدمرات وحاملات الطائرات المشتعلة الغائصة في أعماق البحر مثل أسماك القرش الممزق بقذائف الآر. بي. جي.

وبعد الاعتداء الأمريكي على ليبيا استدعيتُ رونالد ريغان (رونالد أو رولانـد؟ لا أذكر) استدعيته إلى مكتبـي في وادي النسناس فحضر على الفور ولم أسمح له بالجلوس قبل أن أفرغ من كلامي. وقد وبختـه وفركت أذنه وأنذرته بالفلق إذا هو عاد وكرر أعمال الزعرنة.

وبأحلام اليقظة أعدت الوحدة إلى صفوف منظمة التحرير وفرضت الوحدة العربية الشاملة وفقست الكرة الأرضية مثل بيضة وأعدت بناءها من جديد وفق هندستي الخاصة ووزعت غاباتها وأنهارها وصحاريها بالشكل المناسب. وبأحلام اليقظة أبكي وبأحلام اليقظة أضحك، وأعيدك إلى الوطن لنصل ما انقطع ولنكمل نشيدنا الناقص.

ثمة مصادر أخرى للتماسك ولتحقيق السلام مع النفس. فبعض الناس يتخففون من أوارهم بإلقائها جزافاً على عاتق الله سبحانه وتعالى وكأنه موظف صغير في حوانيت آبائهم أو حراث مياوم في حقول أجدادهم. وتراهم يخلطون بين فريضة الزكاة والملايين التي يبذرونها على موائد القمار وأرداف الراقصات في نوادي أووربا الليلية. هي البلادة بعينها إلا أنها على أية حال ضرب من ضروب التماسك والسلام مع النفس. وحين ترى إلى الواحد من هؤلاء فإنك تحس برغبة شديدة في إطلاق رصاصة بين عينيه مباشرة، بيد إنك تتراجع على الفور لأنك لا تستطيع التأكد من أن الرصاص وحده قادر على إزهاق مثل هذه القاذورات البشرية.

وفي الحالات كلها يظل ماثلاً أمامنا ذلك المصدر الأنبل والأرقى للتماسك وللسلام مع النفس: «فهم الضرورة».

فهذا التعبير المتحول مع الحياة من مقولة ماركسية علمية محددة إلى موقف حضاري ومسلك وجودي، يختزن قدراً هائلاً من مبررات استمرارية الحياة على علاتها.

لا أريد أيها الأخ العزيز أن أُسيء إلى أحد. ذلك أن الإساءة إلى الآخرين تؤلمني أضعاف ما تؤلمهم (هذه إحدى نقاط ضعفي... أو قوتي... لست أدري!).

لا أريد الإساءة إلى أحد، غير انني على يقين من أن ماياكوفسكي لـم يدرك جوهر «فهم الضرورة» ولذلك أقدم على الانتحار. ولعل مـلاك «فهم الضرورة» رفـع جناحه عن «يسينيـن» فرفع يده على روحه وخسر مرتين: خسر المعرفة وخسر الحياة.

أيها العزيز محمود.

بيت من حجر؟ هذا صحيح.

بيت من هواء؟ وهذا صحيح.

إلا أن بيتنـا نحن المنذورين المقربيـن بمشيئة الدنيا والآخرة، هـو البيت الآخر؟ تحت الحجر وفق الهواء، بين الظلمة والنور على حدود النار والثلج، ذلك البيت الذي لا يلج أعتابه بشر سوانا، الضيق الرحب المعتم المضيء الدافئ الرطب البارد الجاف. ذلك هو بيتنا الأول والأخيـر. أما كل ما عداه فليس سوى محطات على الطريق. وكمـا أخبرتك ذات يـوم فمنذ تزوجت تزوجنـي التفكير بضرورة بنـاء بيت جديد للأسرة القادمة. ليس لي بل لأسرتي التي لا تستطيع مشاطرتـي نعمـة الإقامة في بيـت الشعر المدهش. كنـت سأكتفي بالعقـد القديم فـي المنزل الذي تعرفُهُ وكنـت سأبتهج بكهف على سفـوح «حيدر» أو خيمة على كثبـان «النقب». وكي يؤاخي المرء بيـن طموحه الخاص و«حركة الواقع الانقلابية» التي تشير إليها في رسالتـك؟ هنا يُقبل المـلاك المخلص. ملاك «فهـم الضرورة»... مُتوجاً بهالة من حكمتنا العربية القديمة: «للضرورة أحكام!».

أنذا أرى نفسي الآن بصـورة أوضح من صورة الأمس. كيف ترى صورة نفسك؟

أُكتب إليّ. أُكتب إليك.

أخوك سميح القاسم

(حيفا - 1986/9/2)

... والدكتاتور

● عزيزي سميح،

ساعـات ما بعد الظهـر. ضوء. سماء زرقاء. ضـوء يتلألأ على أوراق الشجـر. ضوء يتسـرب إلى النفس. ضوء مـن ضوء، لا من موسيقى موزارت ولا من رواية فوكنر. ضوء ضوء...

لعـل أول الخريف هو أحد هبات الطبيعـة الجديرة بالمدائح. تشدُّ الشجرة قامتها لتشكر هذا البهاء كامرأة تشكر الرجل. شجرة، امرأة، قصيـدة يونانية صافية. وفي وسع الحمـام، المصاب صوته بالربـو والـزكام، أن يطير على هذا الضوء الثابـت، وأن يطمئن إلى سماء العودة، في وسعه ان يكف عن الهديل... ضوء.

وأحسُّ برغبة في التعبير عن فرح طارئ، مجاني، غامض. ما أشد سعادة المرء حين لا يودع أحداً، ولا ينتظر أحداً. كأنه لا يصحح بروفات كتاب. أمن مثل هذه العناصر البسيطة تتكون السعادة؟... وجرس الهاتف لا يرن، فما أجمل هذا الكسل! أغلق رواية «اسم الوردة» للإيطالي إيكو، واترك نفس لفراغ لذيذ.

لا أفكر بشيء يُخرب القلب. وأغبطك وأنت جالس على صخرة البداية - إلى متى تبقى البداية بداية؟ - سعيداً بشوكة اوسكار وايلد التي تحيل دم العندليب إلى وردة، هارباً من «سالومي» ومن اضطراب مؤلف «صورة دوريان جراي»، وقابضاً على التعريف المادي الأولي للحرية: «هي وعي الضرورة»، ومسلّطاً أحلام اليقظة على أساطيل البحر الأبيض المتوسط... وإلى متى تبقى البداية بداية؟

ولكن هل استطاع امرؤ القيس فينا - يا عزيزي - امرؤ القيس الذي لا تحبه أن يوقف المذبحة وأن يسقط الطائرات؟ أو هل استطاع، على الأقل، أن يمنع سواه، من ساروا على دربه، من اللحاق بقيصر، على الرغم من أنه أدرك الخيبة منذ البداية ونبّه السائرين إلى ان صاحبه قد بكى...! لا تظلم امرأ القيس، يا صاحبي، وإن وضعه المستشرقين مع السموأل الركيك لأسباب لا تعنيه!

رتِّب العالم على هواك، أيها الشاعر القادر على الاحتفاظ بكل بداية، ومنها وهم الشاعر - أعني قوته ومبررة - في تغيير العالم واستبدال فوضاه بنظام الصورة والإيقاع. واسلم من الثلج القادم من النافذة. نعم، هناك ثلج لا يراه فتى وجهت إليه السؤال. هناك ثلج... ثلج نحسُّ به ولا نريد أن نراه...

وهذا حسن. هذا أفضل من الدفء الرخيص، المبتذل إلى حد وصف الثلج بأنه دافئ، ساخن، لاهب. فالثلج ثلج يستمتع بمشهده العباد، عبر الزجاج، وهم جالسون في بيوت دافئة، ألا يشبه هذا اللؤم المنافق لؤم المتفرجين علينا، عبر الزجاج والنظريات، وهم يستمتعون بالدفء والنصر؟ ونحن... أو بعضنا يتلقف الآهة الضرورية لتحسين الصورة، ونبي عليها، أو منها، تخطيطياً أولياً لتأسيس جمهورية أفلاطونية!

هل أسخر؟ أسخر كثيراً. فالسخرية وهي البكاء المُبطن خير من دموع الاستعطاف، لأن الأجل قد امتد بنا إلى ما دون أرذل العمر، إلى يوم نهبُّ فيه لمواساة القاتل بما حلَّ به من مصاب، هو تأنيب الضمير، حين أتقن لعبة البكاء الالكتروني على ضحايانا، فكدنا نقول له: اغفر لنا موتنا على يديك... اغفر لنا أننا سببنا لك بعض الإزعاج!...

اضحك، يا ولدي، اضحك. فليس في وسعنا أن ننساق في لغة الحزن أكثر مما أنسقنا، فلنوقفها بالسخرية، لا لأن السخرية هي «اليأس وقد تهذب» كما يقولون، بل لأنها لا تثير الشفقة، ولأنها تنزل القاتل من منزلة الفكرة المجردة، السلطة المطلقة، إلى «إنسانية» تتعارض مع إنسانية البشر ومع الطبيعة الإنسانية، إلى «إنسانية» مضحكة بقدر ما هي مرعبة...

هل تعرف ماذا يُشغلني في هذه الأيام؟ إنه الدكتاتور، نقيضٌ ملاكك... الدكتاتور. إني مشغول بالدكتاتور إلى درجة عيّنتُ معها نفسي كاتباً لخطب الدكتاتور!! ما أصعب هذه المهمة، وما أشدَّ ما تثيره من متعة حين نعي أنها لعبة أدبية. سأواصل كتابة خطب الدكتاتور، أليس هذا مسلياً؟

هل تساءلت يوماً عن خلو الأدب العربي الحديث من شخصية الدكتاتور؟ ألأن ملامحه لم تتبلور، بعد، في وعينا، أم لأننا نخلو من طفل اندرسوني البراءة يشير إلى عُرْي الملك؟ لقد فسر الكولومبي غارسيا ماركيز اهتمام الرواية الأمريكية اللاتينية بشخصية الدكتاتور بقوله: «إن الدكتاتور هو الشخصية الأسطورية الوحيدة التي أنتجتها أمريكا اللاتينية». أمن الضروري أن يتحول الدكتاتور العربي إلى شخصية أسطورية لتنتبه إليه الرواية العربية الحديثة، أم أننا نحتاج إلى شروط أخرى لتعامل أكثر واقعية وأقل تجريدية مع سؤال السلطة؟

الدكتاتور فينا حد التماهي، شخصاً وفكرة. الدكتاتور في نسيج حياتنا، بأسلوب آسيوي كما يقول الاستشراق، سواء كان الدكتاتور «معبود الجماهير» أم «عدو الجماهير» ولكنه ما زال مغلفاً بالتجريد، لا أحد يعرفه، لا أحد يراه، مخبأ بأغلفة سميكة من الكوادر والمصالح والأقنعة، لأنه مشغلول بتأمين مستقبل مزدهر للأمة تارة، ولأنه مشغلول بتفكيك الأمة وإعادتها إلى مصادر تكونها الأولى تارة أخرى، ولأنه دائماً متأرجح بني المصطلحات الأيديولوجية المرنة وتوزعنا التلقائي والقسري على خنادق أوهامنا. الدكتاتور حولنا، بيننا، فينا...

حين انتهيت من قراءة رواية الغواتيمالي العظيم استورياس «السيد الرئيس» انتابني شعور غريب وملتبس: شعرت أنني انتهيت من كتابتها لا قراءتها. كم تسحرني هذه الرواية المدمرة التي لا تُظهر الدكتاتور في أكثر من صفحتين. ولكنه منتشر في نسيج الخراب النفسي، والتدمير الذاتي، والموت الأخلاقي، الذي أشاعه في من يعملون معه، وفي تغييب الحد الأدنى من العلاقات الإنسانية حتى بين أفراد حاشيته، وفي تحويل القلب البشري إلى خِرقة...

وبالمناسبة، لم أفهم لماذا استُدرج صديقنا ماركيز إلى القول إن هذه الرواية «رديئة جداً» رداً على قول استورياس إن ماركيز «مجرد كاتب أمثال». لعل هذا التراشق بالإنكار والضغينة هو أحد آثار التخريب النفسي التي أشاعتها الدكتاتورية في أمريكا اللاتينية حتى على مستوى العلاقات بين الأدباء الذي تفشت فيهم الدكتاتورية الأدبية وهم يقاومون الدكتاتورية العسكرية.

الدكتاتور يتلاعب بمصائرنا، فلم لا نعلب شخصية الدكتاتور بتحويله إلى مضحك، كما كنا نسخر من الحاكم العسكري

الإسرائيلـي بتحويلـه إلـى مجرد خواجـه في مطلع حياتنـا الأدبية والسياسية. هل تذكر تلك الأيام؟ هل تذكر زاوية «من وحي الأيام» في جريدة «الاتحاد»، التي تألب على كتابة قصائدها الساخرة حنا أبو حنـا وتوفيق زياد وسالـم جبران؟ لماذا توقفتـم عن السخرية، واحتكرهـا شيخ شبابنا إميل حبيبـي؟ وأنت... أنت ألم تكن لاذعاً ورائعـاً حين دفعت قرقاش إلى تعيـن وزير للفرح ووزير للحزن لا تفرح الناس ولا تبكي إلا بأمر منهما، أو لعلهما هما اللذان يفرحان ويبكيان نيابة عن الشعب!

... والدكتاتور يعيش في حياتنا، ويصوغ أسطورته التدريجية. هل خطر لحاكم أمريكي لاتيني أن يُسلّط صورته على القمر بالأشعة ليؤمـن الناس بنبوءتـه عندما يرون وجهه طالعاً مـن القمر. كما قد يفعل حاكم عربي؟ أفي وسعنا أن نواجه هذه الظواهر الساخرة بغير السخرية؟

حيـن باشـرتُ كتابـة خطـاب الدكتاتـور الأول «خطـاب الجلوس» كنتُ أنوي كتابته نثراً. ولكن امتلائي بالسخرية جرني إلـى الإيقاع. ورغبتي في الضحـك جرتني إلى القافية. لماذا تثير القافية الضحك إلى هذا الحد؟ ألأنها تسلط الحواس على النتوء، ولأن الدكتاتور نتوء في الطبيعة؟ لا أعرف تماماً. ولكن الانسجام في غير موضعـه يثير السخرية. والانضباط فـي موقف فوضوي يثيـر الضحـك. أليسـت القافية هـي أعلى تجليـات الانضباط؟ وهكـذا رأيـت أن من المضحـك أكثر أن استخـدم قافية واحدة لـكل «خطاب الضجر» وهو الخطـاب الثاني من سلسلة خطب الدكتاتـور التي لا أعتبرهـا، ولا أريد لأحد أن يعتبرها قصائد، بل خطباً موزونة!

من هو دكتاتوري؟ إنه مجمل خصائص الحكم العربي الفردي الاستبـدادي المجافي للطبيعة، والمتجسد في حكام يتداخلون في بعضهم تداخـل الصفات العامة المشتركة في فـرد، دون أن أحدد ملامحه الشخصية المميزة، لأن ذلك قد يعرضني إلى خطر استثناء آخرين، قد يعرضني أيضاً إلى مخاطر الهجاء.

وقد تسألني عن مصادر «إنسانية» الدكتاتور: هل هي تعاطف خفيّ مع ما يعانيه الدكتاتور من اغتراب وعزلة وحرمان إنساني؟ أم هي تضخيـم عنصر تشابه مع الذات لحظة تضخمها؟ أم هي افتتان خجول بسلطة تتقاطع مع سلطة الكتابة؟

لعل مصدر الالتباس الذي تبعثه هذه الأسئلة هو أن على الكاتب أن يتقمص شخصية موضوعه. ومن شروط هذا التقمص ألا يُحوِّل الدكتاتـور المخلوق من لحم ودم إلى آلـة، فهذه الآلة تصلح لعمل الكاريكاتور لا للأدب الساخر الذي يشترط مستوى إنسانياً. ولعل إنسانيـة الدكتاتور هي نتاج تدخلنـا وشرطها لإعادة إنتاجه أدباً من ناحية، ومن ناحية اجتماعية ـ فان الدكتاتور هو من نتاج البشر، ولو كان تشويهاً لطبيعتهم البشرية!

أمـا الجانـب الشخصـي الـذي لاحظته، يـا عزيـزي، وهو المشتـرك الضروري بين المؤلـف والمؤلَّف، فإن هنري برجسون يفسره في دراسته الشهيرة عن الضحك بقوله: «مهما يكن الشاعر الهزلي قـوي الرغبة في استجـلاء مضحكات الطبيعـة الإنسانية، فمـا أحسبه يمضي إلـى البحث عن مضحكاته هـو. ولنفترض أنه أراد ذلـك، فلن يستطيع الوصول إليهـا، إذ لا يُضحكُ في المرء إلا الجانـب المحتجب في وعيه من شخصيته. ولذلك فإن الملاحظة في الملهاة تجري على الآخرين، ومن هنا تتصف بالعمومية. وهذا

مـا لا يتوفر لهـا حين تجري على الذات. لأنهـا وقد استقرت على السطح لـن تبلغ من الأشخاص إلا غلافهـم. وعند الغلاف يتماس الناس، ويكون من الممكن أن يتشابهوا».

لنضحك قليـلاً مع الدكتاتـور وعلى الدكتاتـور. ومهما كان الاختـلاف الأيديولوجـي بيـن أنـواع الدكتاتورية صحيحـاً فإن الدكتاتور ـ في علاقته بالناس وفي عزلته ـ هو الدكتاتور. والدكتاتور يُثيـر الرعـب والسخرية معـاً. وساعـات ما بعد الظهـر هي وقت السخريـة. سأودعـك الآن لأكتب إحدى خطـب الدكتاتور، فقد أطلقت عليه قافيتي، كما أطلق هو عليّ نباح كلابه... وكُتابه.

أخوك محمود درويش

(باريس ـ 1986/9/9)

اضحك ابك!

- أخي محمود،

بين تكتكة الآلة الكاتبة في الغرفة المجاورة وهمهمة المروحة الكهربائية لصق مكتب وهدير محرك الديزل على الشارع المحاذي وخشخشة الأوراق المضطربة على حامل التلفون ودعاء جارتنا الساخطة على ابنها العفريت بانقصاف العمر فوراً وحالاً وبلا فرصة لأمنية أخيرة... بين كل هذا وفي غمرة سمفونية كاملة من الضجيج العصري تأتي رسالتك. أحزم كل هذه المنغصات بهدوء ونظام وأضعها جانباً، طامحاً إلى شيء من التفرغ لقراءتك.

قبل الرد على رسالتك أود تنبيهك إلى أننا لسنا وحيدين في حديقة الأسى والتراشق بالياسمين هذه، التي امتشقناها من أضلعنا مثل آدم في طفرته الإبداعية الرائعة. إن حشداً كبيراً من الناس يزيح الستائر ويطل من النوافذ المحيطة بنا منتظراً ساعي بريدنا الخاص. ومن المدهش أن بعض القراء يكتشفون في رسائلنا ويستشفّون منها أموراً لا أشك في أنها لم تخطر لنا على بال، ولا بأس في ذلك.

يوم الاثنين الماضي كنت جالساً بمنتهى الوقار على كرسي الإعـدام الكهربائي في عيادة طبيب الإنسان. وبينما أنا أغلي وأنضح في ألم الأسنان كان الطبيب ومساعداته ومرضاه ذكوراً وإناثاً، طوالاً وقصاراً، شقراً وسمراً، مدنيين وقرويين، كانوا جميعاً أشبه بجوقة إنشاد مدرسية أو بكورس كنسي يحدثونني باهتمام أكيد وبلهفة منقطعة النظير عن انطباعاتهم الخاصة بشأن هذه الرسالة أو تلك ويسألون ويعقبّون ويحتارون، وأنا أواصل الجلوس بوقار على كرسي الإعدام علاجاً حتى الموت، محدقاً في وجهك الهيتشكوكي لاعناً أجداد أجدادك على هذه الورطة: ولا بأس. ثم إنني أوصلت هديتك إلى تلك الفتاة التي ما زالت تحلم بأنها عدلت صورتها على جواز السفر بحيث أصبحت مطابقة لصورتك، وبعملية التزوير البريئة هذه أتاحت لك العودة إلى الوطن وبقيت هي في بلاد الغربة منتظرة الفرج... من مؤتمر القمة: (مورفي - بيريس - مبارك؟!).

وماذا أقول؟ نحن يا صديق لا نُحسن التمثيل، ولا نملك قوة المهرج الحقيقي. ولئن صعدنا خشبة المسرح فلن نجد هناك سوى بيدائنا الشاسعة، نتوسط فضاءَها ونتشظى على مشهد من النظارة المأخوذين بانفجار الشرايين وانتصاب أصابع اليدين مثل شجرة عارية.

لا يا صديقي، نحن لا نُحسن التمثيل، ورسالتك الأخيرة تسجل هذه الحقيقة المبهجة في نهاية الأمر. نحن مزجوج بنا في مساحة ما بين الملاك والدكتاتور، نقترب من هذا فيشتتنا ذاك، نضطرب قليلاً وقد نضيع قليلاً، ولا نعثر على أنفسنا إلا في القصيدة. ولماذا تنفي صفة القصيدة عن «خطاب الجلوس»؟ لماذا تعطي متنفساً

غير مبرر لخصوم الشعر؟ لماذا تتيح لهم الوهم بأنهم يحاصروننا بينما هم يزحفون حائرين على أطراف الغابة عاجزين عن اقتحام مغاليقها العصية إلا علينا؟ وهل ننسى أن نظرياتهم الشعرية ليست سوى سيور في حذار الدكتاتور؟

أعجبتني مهنتك الجديدة، كاتباً لخطابات صاحب السيادة والجلالة والسمو. «اضحك يا ولدي اضحك». ما أجمل أن يصادق المرء أحزانه ويؤاخي سخريته، في هذا الزمن الذي ما كنا نُؤثر أن يمتد بنا، إلا أنه يمتد ويمتد، ولا حياة تُنصف ولا موت يُسعف.

ها أنذا أتأبط ملاكي فتأبّط دكتاتورك وتعال معي نتفرج على النفس البشرية.

إن تعبيراً مثل «النفس البشرية» يوحي تلقائياً بالمغازي الإيجابية التي تنسجم أصلاً مع اللفظتين في حالة الانفصال: «النفس» و«البشرية». وفي هذا الإيحاء دليل على فاعلية التراكم التربوي والتثقيف لصالح هذا المفهوم العام. ومما يلفت النظر حقاً أن هذه الفاعلية لم تتأثر كثيراً بالأدلة المناقضة المتوفرة على امتداد التاريخ، وفي التاريخ الحديث حصراً. وحتى لا أُؤخذ بالأنانية والإقليمية... فإنني أنصرف قليلاً عن تجربتنا نحن الفلسطينيين، التجربة الساخنة سخونة الدم الطازج، والتي أثبتت الآن في هذا الوقت، في هذه اللحظة، أن «النفس البشرية» تستطيع الخروج في تظاهرة من مليون إنسان إلى شوارع مدينة ما جراء لعبة كرة قدم، بينما تنهال شرطة «النفس البشرية» في المدينة ذاتها بالهراوات وبالغاز المسيل للدموع على بضع نساء يتظاهرن احتجاجاً على مذبحة صبرا وشاتيلا.

منذ عشرين عاماً، على وجه التقريب، قرأت كتاباً عن الأرمن. ومـن المفارقات التي تميز حياتنا أن الكتاب كان باللغة العبرية وقد ترجمت منه بعض القطع الشعرية الأرمنية إلى اللغة العربية ونشرتها آنذاك في إحدى الصحف المحلية.

وأمس مساءً فرغت من قراءة كتاب جديد عن المأساة الأرمنية لكاتب عربـي فلسطيني اسمـه الياس زنانيـري. وإزاء الشهادات المقشعـرة الـواردة في الكتـاب والتي رواها شهـود عيان وبعض الناجيـن مـن المذبحـة، وجدتني متورطـاً مرة أخرى فـي مسألة «النفسـ البشرية» هذه والإيحـاء التلقائي بمغزاهـا الإيجابي. أن تلهي الجنود بقذف طفل إلى الأعلى واستقباله بروؤس سنجاتهم، وبقـر بطـون الحبالى، واغتصـاب امـرأة نفساء، حتـى الموت، واصطيـاد الشعراء وسحل المفكريـن، كل هذه الفنون الكامنة في النفس البشرية مل تبـدأ عند جنكيز خان وتيمورلنك ولم تنته عند طلعت بك وأدولف هتلر.

و«النسيان» الذي نعتبره، بحق، نعمة من الطبيعة على الإنسان. ينبغي أن نعتبره، وبحق، نقمة على الإنسان ومن الطبيعة نفسها، وقد أدرك السفاح المحترف أدولف هتلر هذا السر، فحين أصدر أوامره إلى فرق الموت بإبادة جميع الناطقين باللغة البولونية، اختتم أوامره هذه بعبارة ذكية: «على أية حال، من يتذكر اليوم تصفية الآمن؟».

«اضحك يا ولـدي اضحك»... وانظر أي مطبّ هو النسيان هذا؟ وكيـف أنه قابل للتكيف ومهيّأ لأن يصبـح ستاراً من الدخان يُخفي وراءه نيازك الجنون المنفجرة في أعماق النفس البشرية؟

إلا أن الذكاء لي وقفاً على الجزار. إنه في متناول الضحية أيضاً. واليهودي الذي رفع شعار «لو نشكاح فلو نسلاح» (لن ننسى ولن

نصفـح) كان يدرك أنه يمارس الانتقام بمجـرد طرح الشعار ذاته، لأنـه يفوّت على الجزار فرصة التمتع بنعمة النسيان ـ نقمة النسيان. ولـم يكن الفلسطيني أقل ذكاءً فقد سارع هو أيضاً إلى رفع شعار «لا نسيان ولا غفران» غامزاً لامزاً، مطيحاً بتنينين في ضربة واحدة.

هكذا إذن: يتداخل الأرمني في التركي واليهودي في الأرمني والفلسطيني فـي اليهودي واليهودي في الألمانـي في الأرمني... تتداخل الفصول، تختلط المقاييس، يمتزج الدم بالسخرية، تتشابه الدمعـة والـوردة. ويتطابـق الموت والحيـاة في أورجيـا صاخبة متفجـرة، وننبجس مـن كل هـذا مصعوقين مبهوريـن مشحونين بالسخط المتردد كالأرجوحة بين ضفاف النور والظلام. فما الذي أصابنـا أيها العزيـز محمود، ما الذي أصابنا في هـذه الأيام؟ لماذا أصبحنا فرائس سهلـة للهواجس التي نتشبث بها مثل قشة الغريق؟ هل تذكر هاجس البحر عندك وعند حبيبنا معين؟ هل تذكر هاجس الصحـراء عندي؟ ألـم تلمس هاجس الصليبيين عنـد أميل حبيبي؟ وهـا أنت اليوم مسكـون بهاجس الدكتاتور كمـا يتلبّسني هاجس السقـوط. ماذا أصابنا؟ أهو الخوف أم هي الجـرأة؟ أهي الرؤية أم أنها الرؤيا؟

ماذا أصابنا؟ اضحك يا ولدي اضحك... ابكِ يا بُني ابكِ!

أخوك سميح القاسم

(حيفا ـ 1986/9/16)

حاضر سابق

● عزيزي سميح،

إلـى أيـن تأخذنا هـذه الرسائـل، هـذا النص المفتـوح على البدايـة والنهاية. ما البداية وما النهاية؟ ومـا قيمة هذا السؤال؟ إنها سجـل سيرة عفويـة، على مرأى من الناس... كتابـة على الأرصفة والحيطـان... شكوى النفـس لأختها النفـس. لا تخطيط لها ولا منهج، وإن كنت أتدربُ فيها على اختبار ما بلغتُ من فطام.

هل هـي شبه ورطة جميلـة؟ لا أغبطك على مـا أنت فيه، من طبيـب أسنان لا يمل حفر الأعصاب، إلـى قارئات لا يضجرن من التأويل. ولكن، حين ينتهي مفعولُ المخدر، وتعود إلى بياض ورق لا ينتهـي كأنه سفر العدم، فإنك ستعثـر لا محالة على جدوى هذا العبث، أعني على جمال هذا العذاب المتحول إلى سعادة لدى من لا تعرفهم...

لا يُنقذنا غير من لا نعـرف. ولسنا ضروريين إلا للمجهولين. ما هذه المفارقة؟

لم يخطر على بـال آرثر ميللر، عندما صـبَّ عذابه الشخصي في مسرحية «ما بعد السقوط»، أنه سينقذ كاتباً مصرياً من السقوط هـو صديقنا الكبير يوسف إدريس الـذي قال لآرثر ميللر وقال لي، إن تلك المسرحية كانت طوق نجاته الوحيد من أزمة غم قاتلة...

ومـن حق آثـر ميللـر ألا يفهـم إلحـاح يوسف إدريـس عليه بالتماسك والإيمان بجدوى الكتابة، ففي وسع المريض أن يطالب الطبيـب بالشفاء، بالإفـادة من طاقة العافيـة المتحولة، كما حدث لمريضـ القلب حين طال تنصُّت الطبيـب على دقات قلبه... طال إلـى درجة صرخ معها المريض بالطبيب: كفى، ارفع سماعتك عن صدري! ثم أدرك أن طبيـب القلب قد مات بالسكتة القلبية، ألهذا قال الشاعر: طبيبٌ يداوي والطبيبُ مريض...؟

ولم لا؟ نحن نعرف أسماء من أنقذونا. ولكننا لا نعرف أسماء من أنقذناهم.

وحين سألتقـي في الآخرة مع السيد ميغيل سرفانتيس سابدرا، سأعتـرف له بـأن رحلتي الثالثة مـع دون كيشوته قـد أنقذتني من الانهيار النهائـي قبل سبع سنين حين اختلفـت أحلامي مع أدوات تحقيقها... واختفيت في باريس.

وكمـا أنقذتني راهبةٌ لبنانيـة في زغرتا من عبثيـة الكتابة حين روت لي، وفي عينيها دموع، أنها شهدت سقوط القدس في حزيران الشهيـر، وأنها عالجت مقاتلاً جريحاً كانـت وصيته الأخيرة، قبل استشهاده، أن يحصل على مجموعة من قصائدنا!!

واليوم... اليوم، أصبتُ بالكآبة من وحشية ما يكتبه عني بعض «مواطني» مقاهي دمشـق، المهاجرين من مقاهي بغداد وبيروت، فأسعفتني رسالة مـن قارئ مجهول يخبرني أن رسائلنا المتبادلة قد

أمدته بحافز جديد للحياة. ومكالمة هاتفية من زميلة في المدرسة، لـم أسمع منها وعنها منذ سبـع وعشرين سنة، تطالبنـا بأن نواصل صيانة سعادتها.

أليس في هذه الطاقة المتحولة ما يزودنا بالطاقة؟ فلتبعد عنك، يا عزيزي، هاجس السقوط، لأن هنالك من ينتظرك ويشعرك بأنك ضروري، ضروري، ضروري.

ولكن، ما هي رسالة هذه الرسائل، وإلى أين تأخذنا؟

أمـا رسالتها فلم أحسب لها حسابـاً ما دامت تُشبع هذا التوق الجميـل إلى نداء شطري البرتقالـة، وتحكّ حميميّة تفتقدها الناس في خطاب هذه الأيام. وما دامت قادرة على طرد الذباب عن طعام روحينـا فهي مفيدة... فأنا لم أعرف، مثـلاً، أن قصيدتك الجميلة «إليك هناك في بيروت» كانت تستخدم سلاحاً لقطع رأسي، حين روج البعض شائعة تقول أن القصيدة تخاطبني، حتى أوضحت في إحـدى رسائلك لهـم، لا لي، أنها كُتبت في أثنـاء إقامتنا المشتركة في حيفا...

هل ترى إلى أي حد كنت صادقاً حين أشهرت حيرتك الباكية إزاء مصطلح «النفس البشرية» التي تحمل في نسيج غاباتها الداخلية مـا يحتاج دائماً إلى تهذيب، وإلى مناخ أفضل عافية من مناخ القيم السائـدة المفتقرة إلى الحد الأدنى مما اصطلحنا على تسميته القيم الإنسانية بمعناهـا الإيجابي. وما يجعل الملاحظة أشد إيذاء هو أن هذا المناخ ليس نتاجاً لجهد الأعداء بقدر ما هو إنجاز أصدقاء...

«قـل شائعتك وامش» ـ هذا هو شعار العاطلين عن التعايش مع زمن أحلامنا المغـدورة. هل تذكر تلك الفرية الدموية التي روجها خصومُ فكرنـا وشعرنا، قبل عشرين عاماً، يـوم سافرنا إلى صوفيا

لملاقاة الأخوة الذين انتظرناهم ثلاث حروب فازدادوا بُعداً؟ هل تذكر كيف كتبوا انهم شاهدونا - أنت وأنا - نرفع العلم الإسرائيلي في شوارع صوفيا؟ لقد ضحكنا في البداية من سماجة النكتة، ثم بكينا حين أدركنا ان تلك الفرية السوداء، ما زالت تلاحقنا إلى الآن... وتجد من يصدقها!

ولكن، ما العمل غير العمل. ولا عمل لنا غير تحويل الوجع إلى طاقة قد تصل، وقد لا تصل، إلى القادرين اليوم وغداً على تحويل القصيدة إلى قبضة وخطوة. وما علينا إلا أن نتحمل ما يطالبنا به بعض الناس من تعويض عن الانهيارات لا نقدر عليه، وكأننا أكثر من شاعرين!: قل: هو الحب الذي يطالبك، ولا تُصغ إلى مرضى الروح. فهل يستطيع أحدُ منا حقاً أن يرتدي زيّ الدكتاتور أو الملاك، بينما لا نملك أن نكون لا هذا ولا ذاك، فلسنا سوى ضحية مقسومة إلى اثنين، ضحية تشير إلى حدود المشهد، وترفض الدفن والنسيان...

نعم، يا عزيزي، لن ننسى ولن نغفر... لا غفران ولا نسيان. نعم، يا عزيزي، سننسى وسنغفر حين نصبح مؤهلين للمغفرة والنسيان. فالنسيان هو نعمة المنتصر. والغفران هو رحمة المقتدر. أما الآن؛ فلا غفران ولا نسيان.

ومن النسيان ما ينتشلك من قاع الهاوية، ما يصعد بك إلى فمها. ومن النسيان ما يوقعك في الهاوية. وحين نتوغل أكثر في جدلية الكتابة نعرف إلى أي حد يجري تبادل الأدوار المختلطة بين الذاكرة والنسيان. ونلاحظ أن ابتعاداً ما عن المشهد، وانفصالاً ما عن العاطفة يزودان الكتابة بأحد عناصر عملها وهي الذاكرة التي تختار الماضي مرجعاً لتوثبها وأرضاً للامتدادِ والحنين. أليس

في هذا التذكر شيء مـن نقيضه؟ فماذا بعد أن نتذكر... ماذا بعدما نفرغ الذاكرة من مخزونها؟

لا أتكلم، هنا، عن الذاكـرة الجماعية، بل عن الذاكرة الفردية الساعيـة إلى انتقـاء ماضيها لتستوعب تاريخها فـي لحظة السؤال الكبير عن المصير...

هـل كبرتُ كثيراً، أم ارتطمت بجدار الأفق المسدود، لأعيش فـي هذه الفترة مـن حياتي ماضيَّ كله إلى درجـة أصغي معها بكل خلايـاي إلـى ما نسيـت، أو أوهمني إيقـاع الحاضـر السابق ـ إذا جـاز القول ـ بأنني قـد نسيت. لم أكفُ البارحة عـن محاولة شاقة لتذكـر أسماء النباتات والأعشاب والزهور البرية التي زوجت لغتي بالطبيعـة. وحين نُبش اسمٌ ما، كامـن فيَّ، تدفقت نافورة التفاصيل مني لأدرك أنني ثرثار حتى مطلع الفجر. ما سرُّ انبثاق هذا الماضي؟ أهو البحث عن طفولة المكان، أم هو الشبق لملاقاة مكان الطفولة، أم هو الاقتراب من سؤال سابق: ما البداية... ما النهاية؟

ربمـا كان ذلك هو السبب الذي يؤجج فيَّ حافز الكتابة إليك. الحافز... الحافز. إذا أنّ الحافز لأن الصخر وامتثل لريشة عصفور، فكيـف لا يليـن أمام أنيـن الحديد. معك، على جسـرك، التقي بما افتقـد، أسيطرُ على الغياب، واستولي علـى البعيد. وفي هذه العادة التـي أورطك فيها كمـا تقول أخاطب ما لا يخاطـب إلا بالجنون، فليسـ من حق الإنسان أن يكتب رسائل إلـى نفسه إلا إذا تواطأ مع أحد. وأنت تتواطأ معي لترتاح من وهم الخارج، فقد حملتُ عنك الحقيبة والخيبة. ولتحتمل عذاب الداخل. فقد حملتَ عني السجن وأمسكتَ بنافذة الأفق، دون أن يتمكن أحدنا من ردع الثاني.

فهل أجـد فيك الماضي؟ لا تظن ذلك تمامـاً، فلست بمرآتي

بقـدر مـا أنت مرجعيةُ قلب لـم يتكيف مع بلد أو مـع أحد. لذلك تأخذنـي الرسائل إلى ما كان، وربما إلى مـا سيكون. ما البداية... مـا النهاية؟ تلكما عن ماضيكمـا فقد صار ذلـك ضرورياً ـ هكذا يطالبنا الكثيرون. لا أعرف إن كانوا يعنون الماضي أم يعنون شكل الحيـاة هناك. فقد ترابطت المفردتان ـ الماضي وهناك ـ لتشيرا إلى مسار واحد هـو استحضار طبيعة أرض ومجتمع من خلال تكوين شخصي. كيف يطل الخارج من الداخل على الداخل. وكيف يطل الداخل على الخارج الذي لم يخرج.

اكتب عن الماضي، اكتب لي عما تكتب الآن...

أما أنا، فقد فرغت هذا الأسبوع من كتابة الصياغة الأولى لكتاب مجنون، نثر وجنون، شعر وجنون، سرد وكوابيس وبطولة وجنون، وهو تاريخ يوم واحد من أيام آب 1982 في بيروت، وسأبدأ في هذا الخريـف بكتابة الكتاب الذي يلاحقني هاجسـه منذ أربع سنوات، كتاب البيوت التي عشت فيها، في الوطن والمنفى، منذ البيت الأول إلى الآن. هو شيء من سيرة البيوت الذاتية، أكثر من خمسة وعشرين بيتاً، ولا بيت لي، لا عنوان لي. هل تعلم، يا صاحبي، ان العبرانيين قد تعلموا بناء البيوت من أجدادنـا الكنعانيين؟ يا للمفارقات الساخرة! وهل تثير فيك هذه الملاحظ شيئاً من التأمل المرّ.

هـل هو، مرة أخرى، بحث عن الماضـي، عن مكان الماضي باعتبـاره وطن الحلـم؟ لا أعرف. ولكنني سأكتـب... سأكتب... وسأكتب...

أخوك محمود درويش

(باريس ـ 1986/9/22)

أخطاء وخطايا

- أخي محمود،

وعلـى ذكر رسائلنا، فإنني أتساءل أحياناً عن طير أسود يخترق جبهـة القارئ حين يعترضـه حاجز الخطأ المطبعـي. تتحدث في إحدى رسائلـك عن «الكتابة الحرون» فيقف القارئ إزاء «الكتابة الحـروف»... ولأنه يتوسم فيك العمـق والجدية فانه يحار في أمر السر الكامن وراء تصريحك الهام والفلسفي : «الكتابة حروف»!

وأحدثك في إحدى رسائلي عن تاييس وراهب توبتها، فيلتقي القـارئ بتاييس وراهب ترتبها... وأتصور القـارئ التعيس عاجزاً مكمـوداً حيـال اكتشافه مدى الجهل الذي تخبـط فيه فلا يعلم أن تاييس هذه كانت تملك تربة ما، وأن لهذه التربة كاهناً للاعتراف.

وتعـود بي الأخطـاء المطبعية إلى أيـام زمان، أيـام كنا نحرر الجريـدة ونراقبها ونصححهـا ونبيعها دون أن نقبضـ أثمانها من القـراء الكـرام فتتراكم علينا الديـون وتحسم مـن مرتباتنا الزهيدة أصلاً، فلا نعرف كيف نبدأ الشهر وكيف ينتهي بنا.

وأقـول لك في إحـدى رسائلي السابقة: أُكتـب إلي... أُكتب إليـك! بضم الهمزتين وبمعنى أن الكتابة إلى صديق، والكتابة بحد ذاتها، تشكل في خلاصتها نوعاً من مخاطبة الذات، تساعدنا على اكتشاف أنفسنا من خلال اكتشاف الآخرين والكشف عن الأشياء التي تتناولها هذه الكتابة.

وصلتـك الدعوة، إلا إنها وصلتـك بتعديل ما، بتعديل طفيف وغير مخيـف. وصلت بضم الهمزة الأولى وبفتـح الهمزة الثانية، وبمعنـى الاشتراط «أُكتـب إلي... أَكتب إليـك!» ولا اشتراط ولا يحزنون، فنحن في عصر المفاوضات المباشرة بلا قيد وبلا شروط مسبقة، وكان الرب في عون المؤتمر الدولي!

تذكرني فـي رسالتك الأخيرة بما كنت أؤثـر أن أنساه، بتلك الحملة القذرة التي شنتها علينا عناصر مشبوهة في العام 1968 يوم خرجنا إلى صوفيا مفعميـن بشهوة العناق فعدنا وفي ظهرنا سكين الشائعـة الدامية. وما دمـا نذكر فسنذكر دائماً وأبـداً تلك الوقفة النبيلة التي امتشقها آنذاك رفيقنا وحبيب شعبنا وشهيد قضيتنا غسان كنفاني، الذي لـم ينتظر التفاصيل بل أدركها بحسه الوطني السليم فهـبَّ مدافعاً عن «جناحي الشعر المقاوم» كما لقبنا، مشكوراً إلى دهر الداهرين.

ومـاذا أقول لـكل أيها العزيـز محمود؟ الشائعـة سلاح خطر وحقيقي، يـكاد المرء يقف عاجزاً إزاءه. وقـد اكتويت به شخصياً على جلدي ونخاعي وروحي.

وأدرك خطورة هذا السلاح عدد من عتاة الدعاية والتحريض، حتـى أن غوبلز وزير الإعـلام الهتلري كان مؤمنـاً كل الإيمان بأن تكرار الشائعة يحولها إلى حقيقة ذات أثر مادي لا يقهر!

وتشكل الشائعة عنصراً جوهرياً في المذهب الديماغوجي الذي تعتمده مجتمعات الاستغلال والقهر والبطش. ففي الولايات المتحدة الأمريكية يمارسون التهديد بالشائعات على النحو التالي: «سأقول للعالم أن أختك عاهرة، واذهب أنت لتقنع العالم بأن لا أخت لك!».

ومما يزيد من خطورة الشائعة إيمان الناس بتلك الحكمة القديمة «لا دخان بدون نار!» فماذا يبقى لنا بعد ذلك غير محاولة الاحتراس ومحاولة الدفاع ومحاولة الإقناع ومحاولة العزاء؟

أنا شخصياً تعلمت درساً في العزاء ذات يوم من أيام العام 1966. كنت واقفاً مع الشاعر جورج نجيب خليل في شاعر هنفيئيم (الأنبياء) في حيفا، نسلم ونسأل ونتساءل، حين انفجرت على مقربة من مشادة كلامية حامية بني رجل يهودي يحرس «مكتب مطاردة النازيين» القائم في العمارة المجاورة وبين فتى عربي يبيع التين في أكياس بُنية تميل إلى الكاكي.

فجأة صاح الحارس اليهودي: انصرف من هنا أيها العربي القذر! ولما كنت آنذاك في عز الشباب لم أتمالك حميتي فتدخلت شاتماً لاعناً مهدداً... وتجمهر المارة، بعضهم بقوة حب الاستطلاع، وآخرون بدافع المحاولة لإصلاح ذات البين، كما يقال، وكانت هناك سيدة عجوز تحمل سلاً من البلاستيك الأزرق مملوءاً بالخضار، فدنت مني وسألتني بالعربية وباللهجة المصرية اللطيفة: «إيه جرى؟ فيه إيه يا ابني؟» فأجبتها محتداً حانقاً: «هذا الحيوان يشتم الفتى بعربي قذر! فما كان من تلك السيدة العجوز إلا ان ربتت على كتفي بحنان وهي تقول: «آل له ايه؟ آل له عربي قذر؟ معلش يا ابني، كله بيروح في الغسيل!» وتلاشت عن عيني

سحابـة الغيظ... وابتسمت لها: شكراً يا سيدتي شكراً... لا بأس، كله بيروح في الغسيل!

وانفضت الجمهرة وانفضضت حاملاً في قلبي وعقلي حكمة تلك السيدة العجوز بسلّ خضارها البلاستيكي الأزرق...

ماذا أقرأ في هذه الأيام؟ وماذا أكتب؟

اقـرأ عن الأرمـن والقضية الأرمنيـة، لأصـون إيماني بوحدة الإنسان وشمولية التاريخ، ولأكتشف كتفاً أخرى أريح عليها رأسي ولأستحضر رأساً أخرى أريحها على كتفي...

وأقرأ كتاباً عبرياً رديئـاً اسمه «عربي جيد»، وهو في خلاصته تسجيـل لتخبطات مثقـف يهودي يحـاول التملص مـن مواجهة الحقائق التاريخية فـي بلادنا ويعثر على خلاصة الموهوم في غرفة مـا في باريس، لا مـن منطلق الجـرأة الأدبية والسياسيـة بل بدافع العجز عن الاعتراف وتسمية الأشياء بأسمائها الحقيقية.

ورغم نصيحتك الأخوية الطيبة بالتخلص من هاجس السقوط، فإنني منغمس في مطاردة هـذا الهاجس الذي يطاردني، وفي هذه الأثناء أتابع الكتابة التي ستكتمل كما أعتقد في شكل سربيّة.

وقبـل ذلـك تورطت في عمل قـد يكون فـي المستقبل عملاً روائياً.

ولأننـي لست روائيـاً محترفاً فسأقدم في نهايـة المطاف شبه أوتوبيوغرافيـا تحكي جانباً من تجاربـي الشخصية في هذا الحياة التـي تشبه تنـاول ملعقة سم صغيرة ثلاث مـرات يومياً. وعلى غير عادة، أو على غير عادتي فقد بدأت بعنوان هذه المحاولة الجديدة: ملعقة سم صغيرة، ثلاث مرات يومياً.

زرت أهلك بعد عودتي، وقابلت البنتين اللتين كنت تحصيهما كل يوم عدة مرات. لقد سعدتا جداً بزيارتك وهما مع الأهل جميعاً بخير. نصوحي متحمس هذه الأيام لزيارتك والله أعلم.

مـا أخبارك أنت؟ كيـف الأصدقاء واحداً واحـدة بلا استثناء؟ أُكتب إلي. أُكتب إليك!

أخوك سميح القاسم

(الرامة - 1986/9/27)

هـو... أو هـو

- عزيزي سميح،

السيدة شيرلي هوفمان أمريكية - إسرائيلية تعيش في مدينة القدس. التقيتُ بها، منذ أسابيع، في مهرجان الشعر العالمي في روتردام. قرأتُ شعراً عن أزقة القدس، وهي قرأت شعراً عن حجارة القدس. قرأتُ عن تيهنا الجديد وهي قرأتْ عن تيهها القديم ولكنها عرفت ما لم أعرف. قالت إن أسباب الحروب الدائمة في الشرق الأوسط هي غيرة النساء، الغيرة التي اندلعت نارها بين جدتهم سارة وجدتنا هاجر...

ضحك الجمهور الهولندي، واشتد ضحكه حين تصافحنا على المنصة، وقلت لها: اللعنة على جدتك وعلى جدتي أيضاً.

لم تكن مشكلة السيدة هوفمان الوحيدة هي أنها جاءت لتمثل الشعر العبري الحديث دون أن تفقه شيئاً في اللغة العبرية، إذ في وسع الشعر العبري أن يكون شعراً إنجليزياً!

ولكن مشكلتها التي لا يعرفها الجمهور الهولندي هي أن

ابنتها، اليهوديـة الأمريكية، متزوجة من شـاب هولندي مسيحي. وحيـن سافر العروسان إلى القدس تعرفا على شيخ مسلم سرعان ما أدخلهمـا في الدين الإسلامي. وهكذا فـإن أحفاد السيدة هوفمان اليهودية سيكونون مسلمين هولنديين أمريكيين إسرائيليين.

قلت لها مواسياً: هذه هي الحياة، وتلك هي القدس!

قالت: هذه هي الحياة. وماذا في وسعنا أن نفعل سوى الدفاع عن موضوع السلام!...

تذكـرت السيدة هوفمان، يا عزيزي، بعدمـا انتهيتُ من قراءة الكتـاب العبـري الذي أشـارت إليه رسالتك «عربـي جيد». وهو كتـاب محير، لأنه يلعب بالجرح الإنساني بشفرات حلاقة صدئة، ويقدم المأساة في صورة «البورنو». إنه محير على الرغم من صحة تقويمـك العام له، فليس من الضـروري أن يكون أدباً جيداً ليحرك الأسئلـة التي يثيرها عبء هاتين الهويتيـن في شخص مشطور إلى: عربي ويهودي، دون يكون عربياً ودون أن يكون يهودياً.

الكاتـب يوسف شـرارة ليس يوسف شرارة. إنـه اسم مستعار لمثقـف إسرائيلي منبوذ، ولد مـن أم يهودية ومن أب عربي ـ هكذا يقول ـ انتهت به رحلة البحث عن اسم وعن هوية إلى غرفة باريسية كتـب فيها هـذا الكتـاب ـ الاعترافات بلغـة عبرية طليقـة العبارة وصريحـة البذاءة معاً. فلماذا اختار اللغة العبرية ليكتب سيرة حلمه المكسـور إذا كان نصفه العربـي عربي الثقافية؟ هـذا السؤال إياه سيصيـر سؤالاً معكوساً لو كتب المؤلف سيرته باللغة العربية: لماذا كتبها بالعربية ما دام نصفه اليهودي عبري الثقافة؟

لـن ننتهي من هذا اللغز. ولكنني أشيـر إليه لأن اختلاط هويته وانقسامهـا ناجمان عـن إقصاء واع للوعي مـن عملية البحث عن

الـذات. ولأنـه لا يقدم سـؤال الهوية على مستوى سـؤال الانتماء الثقافـي، بل يُحيلـه إلى سؤال العـرق ليسمح لتخبطه بـأن واصل متعـة التخبط. فهو عربي لأن دم أبيه العربي يسري في عروقه. وهو يهودي لأن أمه يهودية. ولكنه إسرائيلي دائماً. إسرائيلي بلا تردد.

لـم يقنعني عذاب يوسف شرارة بأنه ضائـع إلى هذا الحد بين هويتيـن متوازيتـي التجاذب. فالعربي فيه لا يتقـدم بأكثر من سؤال الضميـر اليهـودي الشاهد على إثـم ولادة كان ضحيتهـا الآخر. العربي فيه هـو غموض الموقف اليهـودي الأخلاقي تجاه «آخر» ليس من الضروري أن يتحدد من سلالته العرقية. لذلك حفلت سيرة المفارقـات والتناقضات بترميز نمطـي لا أدري إلى أي حد يصلح لتقديـم الشهادة أو الرواية. وما دام المؤلف قد اختار الاختفاء وراء نص أدبي، فلم يعد من واجبه أن يطالب القارئ بمعرفة الحقيقة عنه وعن أمه وأبيه إلا كما تقدمها «الحقيقة الأدبية».

هـذه الحقيقـة الأدبيـة تقـول إن يوسـف شرارة هـو يوسف روزنسفايـغ الغاضب علـى مجتمعه ومن عدل مفقـود على أرض شهـدت دولاً وغـزاة وشعوباً وبقيـت هي الأرض. حيـن بلغ سن التجنيـد الإجباري في الجيشـ الإسرائيلي المكلـف بالدفاع عن الدولـة اليهودية رفضوا أن يقوم بواجبه تجاه الوطن لأن أباه عربي. وأمام توسلاته الباكية قاله له الضابط: «نحن لا نجندك في الجيش، وذلك لمصلحتك... فأبوك عربي له أسرة كبيرة في العالم العربي، فهل تستطيع أن تحارب أقاربك وأن تقتلهم؟».

لقـد دفعـت المؤسسـة الإسرائيلية يوسف خارجهـا، وذكرته بـأن أباه عربـي، فانخرط في حزب يرفـع شعار «الأخـوة العربية ـ اليهودية» لكنه «اشمأز» من «مثالية» الحزب و«سطحية» شعاراته،

فخرج من أداة العمل السياسية الساعية إلى الإصلاح، خرج إلى ذاته المضطربة، فخرج من التاريخ... كدس الحقائق والوقائع والثقافات والحضارات. خلط تاريخ العرب وتاريخ اليهود والسلالات والمذابح والحروب في طبيخ بشري ليكتشف أنه «وليد التاريخين المتصارعين، هنا والآن، وضحيتهما في آن، على أرض يخوض شعبي حرباً دائمة ضد شعبي الثاني، ضد دولتي وضد دُولي. إن عكا فيَّ. وألمانيا فيَّ. وأرض إسرائيل وفلسطين. وأنا في كل هذه الأمكنة ولستُ في أي مكان».

لقد جعلوا منه عربيَّ اليهود... وحين انتقل من تل أبيب إلى حيفا مُتخلياً عن صديقته اليهودية دينا ليعيش مع ليلى العربية، يحوله العرب إلى يهودي العرب. يقول إن عربه قد خيبوا أمله، إذا قال له قاسم: «ماذا نتوقع من يهودي؟ أن تكون أمك قد ضاجعت عزوري لا يجعلك جزءاً من قصتنا». ولكنه لم يبحث عن حل لأسلته إلا في مكان واحد. قال له صديقه: «لا في سرير دينا ولا في سرير ليلى ستجد حلاً للمشكلة اليهودية العربية».

ويلخص حواره مع عربيته ليلى مفهومه القاصر «لصراع الحقين» العربي واليهودي: «أنتِ على الأقل تجدين مكاناً تهربين إليه، لك أم أخرى، أما أنا فلا. لك اثنتان وعشرين دولة عربية. تنازلي قليلاً: لماذا تريدون قطعة الأرض هذه، الأرض الصغيرة الحقيرة؟ أنت تنتمي إلى الأمة العربية الكبيرة. لقد دُست على اليهود ألفي سنة. فلتعطِ شيئاً من أرضك لأمي»... قالت ليلى: يظنون أنك يهودي. قال: إذن، من أنا؟

لم يكن غير ما كان. وهكذا فهم الانتصار العسكري الإسرائيلي «كان على أحدكما أن ينتصر: أنت أو أنت؟»! فهل

استطــاع يوسف أن يفتح للآخر فيه خطاب الدفاع عن حقه خارج المنبــر الصهيوني الــذي يُرسل العرب الفلسطينييــن إلى ذويهم في الخــارج؟ وماذا لو كانت أمه يهودية، أيــن قوانين هذه القربى التي تجــر الوليد إلى الحيرة أمام الاختيار الصهيوني، كأنه يقول ما كفَّ العرب عــن قوله: إن كل يهودي صهيونــي! لأن الصهيونية ليست وراثة، بل هــي اختيار فكري وسياسي، فلمــاذا رفعها إلى مستوى السلالة، وإذا كان قد رفعهــا إلى هذا المستوى، فلماذا يدعونا إلى البكاء على حيرته!

وحيــن قــرر الهروب من لعبــة اليهودي والعربــي، من دخول اليهــودي عربياً في فمــه ليخرج يهوديًا من قفــاه والعكس صحيح أيضــاً، ليختار الهوية الثورية الفلسطينيــة في بيروت، لم يشاهد في بيــروت غير مــا يبرر عودته إلى جلــده الحقيقي، فقــد قال له عمه هنــاك: سنقضي على هؤلاء الفلسطينيين. سأل عمه: وأنت، ألست فلسطينياً؟

فأجــاب: تركــت عكا قبل أربعيــن عاماً. أنــا مسيحي لبناني. وعندما هاجرت لم تكن هناك فلسطين. هل تعلم أننا ننتظر الجيش الإسرائيلــي لينقذنا!... وهكذا اقتنع يوسف بأن الفلسطينيين ليسوا مقاتليــن من أجــل الحرية، ولكنهــم قتلة. وهرب مــن بيروت إلى باريــس. وهكذا استطــاع أن يخلص من العربي فيه دون أن يخلص مــن اليهودي فيه. لقــد عجز عن أي يكون عربيــاً جيداً، وعجز أن يكون يهودياً جيداً. ونجح في أن يكوِّن شخصية سيئة!

مــن هو العربي، يا عزيزي سميح، في الوعي الإسرائيلي العام؟ أنــت أدرى مني بهــذا الفولكلور العنصــري. ولكنني جمعت لك هذه التعريفات: العربي الجيد هو العربي الميت، العربي هو الماكر

المخادع الكذوب. العربي لا يفكر إلا بنهود اليهوديات. العربي هو الذي يهين المرأة. العربي هو الذي يحلم بمضاجعة الجندية الإسرائيلية، وبمضاجعة بدلتها العسكرية. العربي ماهية قومية لا إنسان. العربي لا يفهم غير لغة القوة. للعربي دموع كبيرة. والعربي الجيد لا يتكلم إلا إذا طلبوا منه الكلام. والعربي الجيد من له حاسة فكاهة يهودية.

إن يوسف شرارة بريء من هذه التعريفات، فماذا يبقى من كتابه ومن لعبته المليئة بالدموع؟ إنها شهادة مثقف إسرائيلي على ميوعته ورخاوته وعلى عنصرية مجتمعة. وبعيداً عما يخصنا، ففي الكتاب عذاب إنساني يسمع للتداعي بأن يتداعى، وللمفارقات بأن تعيد تشييد سرحها المنهار. ولكنه يقنعنا بأنه ليس في وسع أحد، الآن، أن يحمل الاثنين، العربي واليهودي، في كيان واحد. كما لم يتمكن غسان كنفاني من هذا العبء في «عائد إلى حيفا»... لماذا... لماذا؟

ألأن كتابة هذه الازدواجية، المتحاورة على زمن صراع وعلى مكان حرب، تحتاج إلى زمن آخر وشرط آخر يفتحان للإنساني مدى التعبير الحر بعدما يكون جرح الهوية قد التأم، ويصير من «حق» الواحد أن يكون عربياً ويهودياً بلا رموز، وبلا خيانة، وبلا هزيمة؟

إن اليهودي في العربي الآن هو الخيانة. وإن العربي في اليهودي الآن هو الهزيمة. وما بين الهزيمة والخيانة لا يتقدم التعبير الأدبي إلا بوصفه عبثاً أو كوميديا سوداء.

يا للمأساة العاجزة عن أن تكون مأساة إلا في الملهاة. ويا للحق العاجز عن صياغة لغته إلا خارج لغته... ويا للضمير العاجز عن التحقق إلا في قناع الضحية.

ويا عزيزي،

أمــن نكد الدنيا علينــا أن من واجبنا ان نقرأ ما يعنينا في الأدب العبــري الحديث الذين تعنينــا حيرته وتخبطه، لنــزداد اقتناعاً بأننا ندافــع عن قضية عادلة وعن هوية وطنية وإنسانية واضحة؟ ربما... ربما. ولكن إذا قابلت ليلى التي قال لها يوسف شرارة انها «تضاجع كمومســ مــن مستوى رفيــع»، قل لهــا إن عندي ما أفعلــه في أي مــكان... هنا أو هناك... وإنني لم أقابــل يوسفها في بيروت. ولم أكتب للقتلة!

وإذا قابلت السيدة شيرلي هوفمان في القدس، سلم عليها وقل لها: لعنة الله على سارة وعلى هاجر!

أخوك محمود درويش

(باريس - 1986/10/7)

نحن أم أبـن زريق؟

● أخي محمود،

كان مطراً رائعاً ذلك الذي فاجأنا قبل أيام. أزحت ستارة النافذة فـي ساعة متأخرة من الليل لأستلهـم الطبيعة شيئاً من الفرح النظيف تعويضـاً عن الكدرة العفنة التي أشاعها في نفسي كتاب هنري ميللر «رامبو وزمن القتلة»، بترجمة صديقنا العزيز سعدي يوسف.

وكأنمـا بشهوةٍ مازوكية، أغفلت الكتـاب وتجاهلت المطر، عائداً إلى شهقات ألبينوني المتهدجة في قلعة الألم منذ مطالع القرن الثامن عشر.

يزهـد المرء أحياناً في ما يبـدو للآخرين كنزاً نادراً. «إن ظلت روحي، منذ هذه اللحظة يقظة، فإننا سنصل سريعاً إلى الحقيقة»... هكذا يتكلم رامبوا... وتلح عليـه الفكرة فيلحّ في القول: «لو أنها كانت مستيقظة دوماً لأبحرت بكامل الحكمة!».

أهو كنز نادر، هذا الذي يعرضه علينا ذلك الصعلوك الفرنسي المدهشـ؟ قد يكون... قد يكون كنزاً نـادراً إلا أنني زاهد فيه. إذا

كانـت يقظـة الروح هي فردوسـ رامبو المنشـود، فهي بلا جدال جحيمنا الموجود. لقد كان أخونا رامبو مرفهاً إلى حد البحث عن يقظة روحه فماذا نقول نحن الموصومين بيقظة روحنا المعصومين عن أبسط مقومات الفرح: الوطن، الهواء الطلق، الشمس المشرقة حقاً، البحر الذي لنا، شجرتنا الأكيدة، بيتنا الواضح وهلمَّ جرّا...

وفوق طينتنـا نبتل بالخرافات وبالسيـدة شيرلي هوفمان هذه التي تتحدث عنها في رسالتك.

أما بشأن «هاجر» فإنني أكتفي بالرمز. ولعلك تعلم أنني أطلقت هـذا الاسم على طفلتي التي لم تولد بعـد. سارة شيء آخر. وأكتفي بالرمـز مرة أخرى: أنا لا أحب السيدات المستهترات اللواتي يلعبن بأفئدة الرجال الشيوخ فيدمّرن الأسر ويشردن الأمهات والأطفال. أكثر من ذلك، فإنني أحتقر هذا النوع من السيدات وأومن بأنهنَّ في جوهرهن نساء تعيسات منكوبات بعقدة الشعور بالنقص والسادية.

يوسف شرارة هو اسـم مستعار ـ قناع ـ متراس ـ ملجأ، لكاتب إسرائيلي تعرفه وأعرفه. شاركنا ذات يوم لقاءات «التعارف والتفاهم» التي زحزحـت، كما تذكر، بالأحابيل والمنـاورات وتلخصت في مـا يشبه حـوار الطرشان. لقـد غضبنا ذات يوم علـى الشاعرة داليا رابيكوفيتشـ لأنهـا صرحت للصحـف العبرية: «ذهبـت إلى لقاء من أجـل الأخوة فعدت فاشستية!» كنا خائفيـن لا على الأخوة بل علـى لعبتنا المستمرة، حيث كان كل طـرف يحاول جاهداً البرهنة علـى صحة وجهة نظره عدالة قضيتـه، وليذهب الطرف الآخر إلى الجحيم... وعلى العموم، كنا نحن الذين نذهب إلى الجحيم.

ويوسف شرارة هذا رجل مرفه هو الآخر بالحرمان من «يقظة الـروح»... يفلسف جبنه ويبرر جهله تـارة بافتعال المثالية وطوراً

باختلاق العواقب التاريخية. وما قلته في رسالتك صحيح. كان صحيحاً أمس. وهو صحيح اليوم. وأخشى أنه سيظل صحيحاً ردحاً من الزمن.

أخي محمود،

لم أتمكن من السفر إلى كوبنهاغن للمشاركة في مؤتمر السلام «لا لأنني أحب قيصر أقل بل لأنني أحب روما أكثر!» فغداً نفتتح مهرجان الفن القطري الثاني في أم الفحم التي أصبحت رسمياً مدينة، وما زالت في الواقع قرية كبيرة. ولشدة الإهمال الرسمي المتعمد فقد تدفقت المجاري في أزقة «المدينة» وحولتها المياه الآسنة إلى فينيسيا على النسق الإسرائيلي، فينيسيا، انما بلا ألبينوني!

آمل أن نلتقي في غرينوبل الشهر القادم، لن أتمكن من السفر إلى المغرب لسببين أحدهما وجيه جداً: أولاً: سأكون مضطراً للسفر إلى صوفيا للمشاركة في لقاء أدبي دولي هناك. وثانياً، لأنني لا أريد السير على خطى شمعون بيريس، علماً بأنني مريض بالحنين إلى كل شجرة وإلى كل كثيب في وطني العربي، قارتي التي لا موطئ قدم لي فيها ولا صخرة ذكريات، وأنني لأتساءل أحياناً عما يمكن أن يكون لو أنني طالبت باستعادة حقي الشرعي في ملك أجدادي القرامطة. ألن يكون أجدى للعرب وللمسلمين أن يستبدلوا جنرالاً بشاعر؟ أم أن هناك خطراً بأن يرتدي الشاعر بزة الجنرال فور تَسلُمِه السلطة؟!

وعلى ذكر السفر، أيها العزيز محمود، فقد تعبت. تعبت من التذاكر وحواجز التفتيش. تعبت من المطارات والفنادق. تعبت من الترانزيت والحقائق. تعبت من لوعة اللقاء الخاطف ويتم الفراق على شفير المجهول.

ومزيـداً على مزيد، فقد أصبحت مسكوناً بالخوف. أنا الذي كنت أتسلق سلالم الطائرات والسفن مثلما أتسلق درجات منزلي، يتسلقني اليوم انقباض خائف كلما أزمعت سفراً... يعتبرني بعضهم سفيراً متجولاً أو سائحاً محترفاً في «الفيروست كلاس»، ولا أتمنى لهم ما أكابده مـن غصص الروح كلما ودعت أطفالي النيام ولكما أبصرت الدموع المنزلقة بصمت من عيني نوال.

ومن كان مثلنا فإنه يدرك لوعة رفيقنا ابن زريق البغدادي. ولئن كان ابـن زريـق قد استـودع الله قمراً له في بغداد، جـاداً في طلب الرزق لأطفال ضاق العراق عـن كسرة خبزهم، فإنني أستودع الله قمراً لي في الرامة، جاداً في طلب وطن ضاقت به الأوطان... فمن منا الأشد رزءاً والأفدح عبئاً: ابن زريق أم أنا؟ أنت أم أبن زريق؟

أخي يا محمود،

نسافر ونسافر... تنثرنا الدروب وتجمعنا المفارق، نشقى في الفـرح ونشقى في الشقاء. لا اخترنا ولا خيرنا... وكل ما في الأمر اننـا لم نفقـد الإيمان بأن طريقاً مـا سيفضي، لا محالـة، إلى نهاية ما... وأبداً على هذا الطريق...

أخوك سميح القاسم

(الرامة ـ 1986/10/15)

احصدوهم...



- عزيزي سميح،

ماذا ستقول في آخر هذا الشهر عندما تذهب إلى كفر قاسم؟

لقد حلت الذكرى الثلاثون لإحـدى مذابح هذا العصر المليء بالمذابح... كفر قاسم، اسمٌ من دمنا، أحد أسماء دمنا... كفر قاسم، تُحَرِكُ في النفس غابات «الآخر»، حوار السيف والرغيف، خطاب الوحش إلى طفلة مهجورة هي إحدى حفيدات هاجر. اسم تتنازعه هويتان: «أنا اقتل، إذن أنا موجود»... و«أنا أحيا إذن أنا موجود».

كفر قاسم، بعد ثلاثين عاماً من انتصار حبة القمح على البندقية، لا تتذكـر إلا نفسهـا، فلاحين وتاريخ أرض، ويرتـد الدم إلى وجه القاتل هوية وحيدة، وشكل حيـاة مشروطاً بالموت. كفر قاسم لا تحتفل إلا بنشوة البقاء.

لا أتمنى أن أكون معك هذه المرة، على مقبرة بلغت من العمر ثلاثين عاماً. طالت نباتات الشوك وكبرت أشجار النخيل، واشتعلت زهرة الخبيزة ثلاثين مرة. للمقابر أيضاً عمر وتاريخ... وأزهار.

وعلـى جانبي الطريق المؤدي إلى مسـرح دمنا المرفوع على اسمنا، تصطف البنـادق والحواجز لحراسة النسيان. كان في وسع حرس الحـدود أن يضعوا حدوداً للذاكرة وحـدوداً للنسيان. فقد قطعت ذلك الطريق من قبل، أكثر من مرة، لأجد النسيان عاجزاً عن النمو، ولأعرف إلى أي حـد يتذكر القاتل أنه لا يستطيع أن ينسى، فكيف ننسى، كيف نغفر؟

كنـا فتيانـاً حيـن انتـزع توفيق طوبـي أسمـاء قتلانـا التسعة والأربعيـن من أنياب السر الحكومي المضـروب عليهم... أسماء الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا عائدين من الحقل والمحجر إلـى وداعة البيوت. لـم يسمعـوا آذان العشاء على مدخل القرية، بل سمعـوا كلمة واحدة تشبه صراع الحنطـة والمنجل، كلمة واحدة الفوا إيقاع بحثها الدموي عن الخبز، كلمة واحدة، احصدوهم...

لـم تسلم روحنا ولغتنا من جرح ذلك المساء. ولن تسلما مما يضُخه الجرح فينا من قوة، قوة السير الأبدي، منذ بدء الخليقة وإلى الأبد... على طريق هذا الوطن...

لـم نتكوّن إلا لنكون. ولـم نكن إلا لنتكوّن. أما الذين اشترطوا كينونتهـم بإشبـاع «الرغبـة الجارفـة المكبوتة في الانتقـام» منا، ليحققـوا مشروع حضورهـم بتغييبنا، فلـم يتمكنوا مـن القضاء، علـى رغبتنا الجارفة في البقاء. لهـم أن يتجادلوا على ثنائية السيف والكتـاب «إن الفتـرة التي يعيشها اليهودي هـي فترة عصيبة، وفي مثـل هذه الفتـرات تعيش الأمم بالسيف لا بالكتـاب، لأن السيف هـو التجسيد المادي للحياة فـي أنقى معانيها»... ولنا أن نبقى بما نملك من قوى البقاء المتوفرة في شرطنا البسيط، البريء، الشرس.

ويا صديقـي، ليس من حق مـن ليس يهوديـاً، والعربي بخاصة، أن يقـارن ما يفعلـه اليهودي، فرداً ومجتمعاً، بـأيّ فعل آخر يفعله غير

اليهـودي. لقد تم الاعتراف الغربي بهذا «التابـو» الذي يعني تجاوزه ارتكاب جريمة ضد الإنسانية. من هي الإنسانية؟ ومن هو الوصي على تعريف حدودها؟ لا أحد يعرف غير من يحق له، وحده، أن يعرف...

ليسـ شعار «لن ننسى ولن نغفر» من ابتكارنا نحن ضحايا من احتكـر دور الضحية، وخوله حادث كان فيـه الضحية بأن يتحول إلـى قاتلنا الـذي لا يُحاكم. ليس ذلـك الشعار مـن صياغتنا؛ وإلا لانهالت علينا التهمة الكونية بالرغبة المكبوتة في الانتقام. فما زال هناك دم رخيص ودم ثمين. وهنالك قاتل عادل وقاتل ظالم. وهناك ضحيـة ممتازة وضحيـة بخسة، تحصل فيهـا الأولى على تعويض بدولة مسيجة «بحق النقض» الأخلاقي، وتحصل الثانية على قبر لا شاهدة له، وتكافأ بالنسيان...

إن الخطـاب الصهيونـي، والغربـي المتواطئ حتـى التماهي الجبـان، يطالبنـا بأن نُهيـل النسيان علـى ضحايانا وعلـى ماضينا وحاضرنـا قبـل أن نُهيل التراب، وقبل الشروع فـي قراءة الفاتحة. بينمـا هـو يُطور فيها قوة الذاكـرة « لن ننسى ولـن نغفر» لا لينتقم ممن كان عليه أن ينتقم منهم، من غربه الذي أنتج نازيته ولا ساميته وعنصريتـه فأنتجه، بل مـن شرق سامـيّ، منّا... وليصـوغ إطاراً مرجعياً وحيداً للشر وللخير ولمفهوم الإنسانية ونظام الحقوق... هو إطاره المرجعي الخاص، الوحيد، المطلق، الأبدي، والكوني.

لذلك، كان من حق إيلـي فيزل أن يكافأ بجائزة نوبل للسلام، لأن مفهوم السلام أيضاً يفتقر إلى تعريف واحد، عالمي، وواضح، وحوصر معنـاه في معنى واحد هو الدفاع عـن قضية مقدسة، هي الدفاع عن سلامة الذاكـرة اليهودية من خطر وهمي أو واقعيّ هو: خطر النسيان!

إن من يكافأ على قوة الذاكرة، في هذا الإطار المرجعي، عليه أن يُنتج نقيضه الناسي، حين يُشهر هذا النقيض ذاكرة مضادة تشير إلى أن في إمكان من يتذكر أن يقتل آخر يتذكر. ألا تتسع ذاكرة هذا المتذكر الكبير إلى ما أرتكبه بعض المعبرين عن موضوع من جرائم ضد الإنسانية، على الأرض المقدسة، من ديرياسين إلى صبرا وشاتيلا؟ ألا يعترف بحق هؤلاء القتلى في خلق ذاكرة تستعير مصداقية شعاره: «لن ننسى ولن نغفر»، في براءة دفاع بسيط عن وجود بسيط؟

كلّا... لأن شروط توازن هذا الخطاب ليس تعميمه للإنسانية، بل صيانة ما ينجزه من «جيتو» له و«فيتو» على الآخر. من شروط توازنه أن ينصاع «الآخر» إلى نسيان هو شرطه لصيانة ذاكرة الخطاب. معنى هاذ الانصياع هو ان المجازر المرتكبة ضدنا ليست مجازر ضد إنسانية. إنها عمليات مشروع ضد عائق إنساني. وهكذا، فإن تجريد الضحية، ضحيتنا، من الهوية الإنسانية هو شرط صلاحية «الذاكرة» اليهودية للعمل، ولحقها الوحيد في مراعاة «الفترة العصيبة» التي ارتكب فيها اليهودي الأخطاء... الأخطاء لا المجازر!

إن «الفترة العصيبة» التي كانت تجتازها دولة «الذاكرة اليهودية» في عام 1956 كانت مبرراً سياسياً للاأخلاقية قتل 49 عربياً في كفر قاسم، ولمحكمة انتهت بقرش شدمي الشهير!

وهذه «الفترة العصيبة» هي التي جعلت طفلاً يهودياً في التاسعة من عمره يقول لمجلة «هعولام هزه»: «يجب قتل العرب جميعاً. يجب وضعهم في كيس واحد وإلقاؤهم في البحر»... وجعلت طفلاً في السابعة من عمره يحل مشكلة العرب بطريقة أخرى: «يجب حشو العرب بالقنابل وحرقهم»...

فلمن الذاكرة؟ ولمن النسيان؟

روى أحد الناجين من مجزرة كفر قاسم، قصته لملحق صحيفة «هآرتس»: قال إنه يخلع ساقه كل ليلة ويمددها تحت السرير. وفي كل ليلة تسأله طفلته البالغة السابعة من العمر: ما هذا يا أبي؟ فيقول لها: عندما تكبرين، يا ريم، ستعرفين. ستعرف ريم ما يلي: في تمام الساعة الخامسة بعد ظهر التاسع والعشرين من أكتوبر 1956، فُرض أمر منع التجول على قرى المثلث الفلسطيني. كانت حرب سيناء قد اندلعت منذ دقيقة واحدة فقط. كان أبوها إسماعيل بدر عائداً من العمل إلى قريته. أوقف «حرس الحدود» عربته إلى جانب الطريق، هو وثلاثة عمال. سألهم الجندي: من أين أنتم؟ قالوا: من كفر قاسم. تراجع الجندي وصاح: احصدوهم!!!

ويضيف إسماعيل بدر: فجأة سقطت عليّ ثلاث جثث ثم تقدم الجنود، وسحبونا عبر السياج. صرخ ابن عمي: أولادي، أولادي... فهشم الجندي جمجمته. حاولت أن أزحف فلم أتمكن. لقد أصيبت ساقي. طارت ساق. حاولت ان أحبو على يدي. رأيت بئراً. أردت ان ألقي بنفس في البئر. ولكن لا أدري من أين جاءَتني القوة، فتسلقت شجرة زيتون، واختبأت بين الأغصان. كنت أسمع الرصاص والصرخات، وجهاز اللاسلكي: قتلنا عشرة، هل نقتل المزيد؟ بقيتُ على الشجرة. وصلت إلى الحاجز سيارة شحن تحمل ثلاثة وعشرين راكباً. أذنوا لهم بالمرور. وصلت شاحنة أخرى... أذنوا لها بالمرور. ولكن ما ان ابتعدت قليلاً حتى فتحوا علينا نيران البنادق. بقيت ثلاثة أيام على الشجرة إلى أن سقطت، وعثر عليّ أحد أقاربي بالمصادفة.

عندما تكبرين، يا ريم، ستفهمين...

أما الآن، فهل تنسى الساق الخشبية الساق البشرية؟

ويقـول خضر محمود: كنا عائدين مـن المحجر. رأينا القتلى والجرحـى علـى الطريق. كان هنـاك رجل طاعن فـي السن. سأل الجنـدي الضابط: هل نقتل العجـوز؟ قال الضابـط: لماذا نخسر رصاصـة؟ إنـه لا يسـاوي ثمـن رصاصة! ثـم توجـه الضابط إلى سيـارة جيب وتكلم باللاسلكي: لقـد وصلت شاحنة أخرى ملأى بالركاب... وأريد أن أقتلهم جميعاً. أجابوه: خذوهم إلى الحدود، اقتلوهم هناك، وقولوا: هربوا فقتلناهم.

لمن الذاكرة؟ ولمن النسيان؟

سيُسـدل الإعـلام الغربي ـ ماكينة الذاكرة ـ ستـار النسيان مرة أخـرى علـى كفر قاسـم، كما يُسدلهـا على ذكرى مجـازر صبرا وشاتيـلا... سيسدلهـا علينـا ليتعقب أخبـار أي يهـودي مُصاب بالزكام بسبب سوء الطب الاشتراكي! لتبقى الذاكرة اليهودية حية، فهـي شرط نسيان العـرب. وعلى العـرب أن يتخلوا عـن الأرض والحقوق... والذاكرة. ألم يكافأ أنور السادات بجائزة النسيان:

جائزة نوبل للنسيان ـ للسادات...

وجائزة نوبل للذاكرة ـ لفيزل...

ولكن دمنا ما زال طازجاً. لن ننسى ولن نغفر...

وكفر قاسم ترفع ذاكرتها، وتبقى في مكانها... تبقى في نشوة البقـاء... وفي نشوة الانتصار على المـوت وعلى النسيان... فمن ينسى هذه الكلمة: احصدوهم...؟

أخوك محمود درويش

(باريس ـ 1986/10/21)

... يهطل المطر وتنبت الحقيقة

- أخي محمود،

حين وصلت رسالتك كنت قد حزمت حقيبة السفر. قلت في نفسي: حسناً. فلنسافر معاً. نتسلى على الطريق ونضحك على المطبات الجوية ما دمنا عاجزين عن الضحك على المطبات الأرضية. وقلت في نفسي: من مكان ما في الشرق الأوروبي أكتب إليك.

كانت أثينا محطتي الأولى. وكان من المفروض أن أتسلّم هناك «فيزا» الدخول إلى بلغاريا والمقعد المحجوز لي سلفاً على طائرة شركة «البلقان».

وهناك. فقط، اكتشفت أنه ما من «فيزا» وما من مقعد على طائرة. كان عليّ أن أتحرك بسرعة لأن عداد الحياة يتحرك بسرعة، وخشيت ألا يكفي ما معي من نقود لتغطية نفقات الفندق والمطعم والتكسي و... «المسابح»، التي اشتريتها من أثينا بكثرة. لأن لديّ

فـي الوطن وفي المنفى أصدقاء لا يطلبون من أوروبا سوى أن تتيح لهم إمكانية التسبيح بهدوء!

ولمعرفتـي السابقـة بدهاليـز القلعـة الكافكاويـة وسراديبها المهلكة، فقد تدبرت أمـري، وهبطت أخيراً في صوفيا للمشاركة فـي لقـاء الأدبـاء العالمي تحـت شعار «السـلام ـ أمـل الكوكب الأرضـي». وعلى امتداد ثلاثة أيـام بلياليها طبخني السلام على نار الأدب الضئيلـة فـي ذلك اللقاء. وكان الحضـور العربي ضئيلاً هو الآخـر وارتجالياً إلـى درجة أن اللغة العربية لم تجـد لها مكاناً إلى جانـب اللغات ألست التي تقرر اعتبارهـا لغات رسمية. ومع نهاية اللقاء كانت قد انتهت لدي الرغبة في لقاء قريب آخر.

لا يعنـي هـذا الـكلام ان مشقة السفـر ضاعت سـدى، فقد ألقيـت كلمة أغضبـت الأغلبية الساحقة من هـؤلاء السادة الأدباء. وتشاجـرت مع عدد منهم، أحدهم ذلك اليهودي الذي جاء ممثلاً لفرنسـا وأبـدى دهشته لأنني امثـل إسرائيل! وقد تسـاءل بمنتهى الصفاقـة: «أليس هناك شعـراء يهود يستطيعون تمثيـل إسرائيل»؟ قلـت بخبث «لم أمنـح إسرائيل شرف تمثيلي لهـا، أنا هنا بصفتي الشخصية وباعتبـاري شاعراً عربياً فلسطينياً... ثم انه ما من شعراء عبريين يليقون بهذا المقام»!!

ومـن إيجابيات ذلـك اللقاء أنني وقعت عقـداً مع إحدى دور النشـر لإصدار مجموعة من قصائدي باللغـة البلغارية وعلمت من المسؤولين هناك انك وقعت معهم عقداً مماثلاً قبل حين.

ولأنني لم أتمكن من المشاركة هذا العام في مهرجان الذكرى الثلاثين لمجزرة كفر قاسم على أرض المجزرة وبين ورودها الحية بدماء الشهداء، فقد وجدت شيئاً من العزاء بين طلابنا المغتربين في

بلغاريـا والذين شاؤوا أن يسمعوا مني شيئـاً عن هذه المجزرة التي يربطهم بها حبل السرة التاريخي رغم أنهم ولدوا بعدها بكثير.

كمـا تعلـم، فقـد جهـدت المؤسسـة الصهيونيـة والإعـلام الإسرائيلـي الرسمـي لإظهـار المجزرة علـى أنها مجـرد شذوذ استثنائـي، وكان لا بـد من بعض الطقوس القضائيـة والمراسيم الدعائية لتجنيب «دولة الضحايا» أي شكل من أشكال الإحراج في مواجهة الحقيقة. وكان على «ضحايا الدولة» أن يمارسوا طقوسهم هم في ديانة الدم وصلاة الدمار من أجل الحقيقة المجردة البسيطة المرعبة: المجزرة هي القاعدة لا الاستثناء.

«ويهطـل المطر وتنبـت الحقيقـة»... درس تعلمتـه في أيام الولدنة. أرسلني أبي برفقة أخي سامي لزراعة بعض البذور في قطعة أرض ما زالت لنـا. وأوصانا بأن نضع حبتين في كل حفرة. إلا أننا كنا على عجلة من أمرنا لنتابع الشيطنة وكرة القدم في ساحة القرية. وكان سامـي آنذاك ولداً عفريتاً وكنت أنا الولد الأهبل فاقترح علي أن نضع في كل حفرة حفنة من البذور حتى ننتهي من العمل بسرعة ونعـود إلى شلة الأولاد التـي تنتظرنا على أحر مـن بلاط الساحة. وهكذا كان. نفذنا المؤامرة وعدنا إلى البيت بسرعة فدهش والدنا واستفسر وحقق، إلا أننا تشبثنا بالشهادة المتفق عليها سلفاً: عملنا وفـق تعليماتك ولم نضع في الحفرة الواحـدة سوى حبتين اثنتين. فهنأنا الوالد على نشاطنا وكافأنا وصرنا إلى شلتنا وكرتنا.

ومـرت الأيـام والليالـي وأبرقـت فأرعـدت فأمطـرت... واستدعانـا الوالد من جديد ليسأل مرة أخـرى: كم بذرة وضعتما في كل حفـرة؟ ودون أن نفطن إلى عوامـل الطبيعة وتقلباتها عدنا وكررنا: حبتين لا أكثر!

آنـذاك فقد والدنا هـدوءه الذي تعرفه فأطعمنـا علقة لا تُنسى وكان يهتـف بيـن شـدة إذن وأختهـا: «سيهطـل المطـر وتنبـت الحقيقة»! «سيهطل المطر وتنبت الحقيقة»!

وآنـذاك فقط، أدركنـا أن والدنا تفحصـ مزروعاتنا فعثر على غابة حقيقية مكان كل حفرة!

كان ذلـك درساً وأي درس، إلا أن والد الصهيونية كان رجل صناعـة لا رجـل زراعة. لذلك لـم تتعلم درساً فـي طفولتها ولم تدرك أنـه ذات يوم «سيهطـل المطر وتنبت الحقيقـة!»... ومع ذلك المطر يواصل هطوله وتواصل الحقيقة ظهورها ونموها... ومـع أمطار هذا العام الغزيرة ظهرت حقائق جديدة بشأن مجزرة كفرقاسـم. فقد نشرت صحيفة «هعير» الصادرة في تل أبيب، في العاشـر من تشريـن الأول (أكتوبر) اعترافات عـدد من «أبطال» المجـزرة. ويكفي أن نسجـل وبدون تعليق بعضـاً من اعترافات الجندي شالوم عوفر:

«كنـا مثل الألمان. هم أوقفوا الشاحنـات وأنزلوا اليهود منها وأطلقوا الرصاص عليهـم. وهكذا نحن. لا فرق ـ نفذنا أمراً مثلما نفـذ الجندي الألماني أمراً إبان الحـرب، حين صدرت له الأوامر بذبـح اليهود». ويستطرد الجنـدي شالوم (سـلام؟!): «أنا إنسان عديـم الإحساس. غير نادم على شيء. فقـد كنت متورطاً في أمور أسوأ. فمنذ الخامسة عشـرة من عمري وأنا معتاد عن المشي فوق الجثث».

مـن الواضح تلقائيـاً أن الجثث التـي تعود شالـوم (سلام؟!) السيـر عليها لـم تكن جثثاً مستوردة من كوكـب آخر... وعلى أية حال فلنصغ إليه مرة أخـرى: «كان الأمر في غاية الوضوح. وكان

واضحـاً أن الأمر جاء من فوق. أعلى بكثيـر من «الألوف مشني» (المقـدم) يسسخـار شدمي، وفـي سياق المحكمـة كان واضحاً أن إجـراء تحقيق جدي في الموضوع مـن شأنه أن يوصل إلى قائد المنطقة الوسطـى الجنرال تسفي تسور وإلـى رئيس هيئة الأركان موشيـه ديان وإلـى وزير الأمن دافيد بن غوريـون. وبعد المحكمة أخذوا تواقيعنا على تعهدات بحفظ السرية. وعقاب كل من يتكلم، السجن لمدة خمسة عشر عاماً».

ويهطـل المطر، وتنبـت... إلا أنه هـذه المرة مطـر من الدم والدموع...

وكل مجزرة، وشعبنا بخير!

أخوك سميح القاسم
(حيفا - 1986/11/10)

سفر بلا سفر

● عزيزي سميح،

... وأما أنا، فما أُبْتُ من سفر إلا إلى سفر.

وفررت من تفسير هذه النغمة المتتابعة. فمن يجرؤ على الشروع في حديث السفر طالما لم يعرف حداً له؟

من البدء ونحن نسافر في ما ليس سفراً ما هو اقتلاع، وليس سفراً بقدر ما هو ضياع، وليس سفراً بقدر ما هو صراع... مدفوعين إلى استبدال سفر بسفر بحثاً عما يُؤجل فينا إطلاق الصرخة المكبلة باعتبارات ليس أولها قداسة المكان، وليس آخرها سخرية الزمان...

لا أعرف عمَّ يفتش الجسد في الجسد، ولا عم يبحث الباحث في اللامكان عن مكان رمزي، ولا عمَّ يبحث المسافر في اللغة، غير إسناد الروح على مكان للروح لا تحتاجه، إلا حين ندرك بغتة، أنها آخر ما نملك لنكورها عضلة للدفاع عن مساحة للصرخة...

ولكنني أعرف انني لا أسافر. هي الريح تجري بي وأظنُّ أني

أحركها. هي الدوامة السريعة. لا أسافر كالناس، لأن المسافر هو العائد إلى مكان الخطوة الأولى. هو العائد إلى العتبة الأولى أو الأخيرة التي خرج منها. هو العائد إلى عنوان شبه ثابت، ينتظره فيه أحد، أو رسالة، أو سجان، أو قبر، لأن المسافر هو العائد. أما المسافر من مكان ليس له إلى مكان ليس له، المسافر خارج مكانه، فليس أكثر من تائه، حتى لـو رفع المعنى إلى مكانـة البحث عن الفكـرة، أو الأغنية، أو الحب الذي يحوله مرض الروح إلى مرفأ... قابل للانكسار!

لـذا، لم أسافـر - يا عزيزي - غير مرتين. فـي كل هذا السفر لم أسافـر سـوى مرتين: مرة معـك، منذ ثمانية عشر عامـاً، على متن «فينوسـس» اليونانية التي سميتها «فينوس القبيحـة»، من ميناء حيفا إلـى ميناء أثينا، ومنهـا إلى صوفيا. هل تذكر كيـف كنا نبحث عن موسيقى ميكيس تيودوراكس لنعرف انها ممنوعة في اليونان، وأن اسـم الفنان أيضاً ممنوع، فلم نسمع من بين أعمدة الهياكل القديمة غير حفيف العشب اليابس؟

وفي صوفيا، هـل تذكر كيف كان أشقاؤنـا العرب يخطفوننا سـراً، ويحبوننا سراً، خوفـاً م نعرب آخرين أدانـوا بقاءنا هناك في بلادنـا، وطالبونا بـأن ننهي التناحـر الضاري بيـن هويتنا وشروط سفرنا بأن نتخلى عن جواز السفر أو عن وثيقة السفر؟

كانت تلك الرحلة سفراً لأننا كنا عائدين، محمّلين بفرح الامتداد العربـي، إلى بيـوت لا تبتعد عن بيوتنـا غير خطوات قليلـة، ونشعر إزاءهـا بمنفى النفس الذي لم ينتقل من النفس إلى خارجها إلا بوضع هـذه المفارقة كلها مقابل مسيرة العـذاب التي يقطعها أخوتنا، أحياء وشهـداء، من أجـل أن يصلوا إلى خطوة أقرب إلـى سمائهم الأولى، إلى حيث يتقلص المنفى الكبير إلى منفى صغير، منفى في الوطن...

منـذ تلك الأيـام ونحن نسافر. نسافر فـي الحنين وفي النشيد المقطـوع إلى عالم لا تُغرينا فيه ألف ليلـة وليلة، بل تغرينا فيه ألف هزيمة وهزيمة لم تكسر فينا قامة الأمل، بقدر ما حطمت فينا الوهم ليزداد تعلق السجن بفضاء لا يتخلى عنه مهما تبدلت الفصول...

ومنـذ تلك الأيام، ونحـن ندرك أن ما يُسافر منـا هو النشيج، ليعلو علـى أفئدة محروقة بالأمـل المعاكس قوة نشيـد يصلح لأن يكـون طريقاً يسلكـه المنفيُّ إلى مكان يستولـي عليه الآخر، دون أن يتمكـن من تغيير طبيعته، فشقائق النعمان تتفجر كجراح الحب الأولى في موعدهـا في نيسان. وللصنوبر دائمـاً... للصنوبر تلك الرائحة القادرة على تحويل السجن إلى معبد!

ومنـذ تلك الأيـام، ونحن نسمـي المكان بالشغـف إياه الذي نُسمي بـه الكائن. نسمي القرى والمدن والنبات والطير كما نسمي أولادنا وآباءنا. فهل كنا نؤلِّبُ على السجن والمنفى معاً قوة الأسماء، أم كنا نحشد الحي والبسيط لنبعد النمط؟ أم كنا نتكاثر في ما يتكاثر فينا من أسماء لنغلب ما يتكاثر حولنا من نسيان وسواد؟ أم كنا نحاول إعادة تركيب المكان بأسمائه لأن من سمى مَلَكَ وامتلك!

لا أدري...

ولكننـي أدري أننـا أدركنـا الحاجة إلـى أعلاء شـأن الفروق الصغيـرة بيـن السفـر، والرحيـل، والتيـه، والذهـاب، والإياب، والغيـاب، والتنقل، والانتقال، والترحـال، والخروج، والدخول، والضيـاع، واللجـوء، والتشـرّد، والهجرة، ومـا يحركه اختلاف الخطوة عن الخطوة من دلالة!

وسافرت مرة ثانية...

وكنتَ معي مرة أخرى...

سافرتُ من الحياة إلى الموت في فيينا، وعدتُ من الموت إلى الحياة. قيل لي انني ودعتُ الحياة بلفظة واحدة: «يمّا». أمن اللائق أن أصف الموت... موتي؟

اخترقت غابة من المسامير صدري وانتشرت في كل الجسد. ذابت طاقتي وسقطت على أرض الغرفة. ولكن سيرة حياتي حضرت كلها لأعرف أن الموت يحيي ما مات من الذاكرة. كان الشريط كلمات بيضاء مكتوبة على لوح أسود. رأيتُ كل ما كنت قد رأيت. وتوقف الأنين عن الأنين، لأنه لم يعد في وسع الناي ان يئن. ثلج ثقيل على صدري، وعرق بارد على جبيني. ونمت. نمتُ على غيمة من قطن أبيض. تشرب النوم أعضائي وامتصني تماماً. لم أشعر من قبل بمثل هذه النشوة، نشوة النوم الأبيض على سحاب أبيض. بياض لم أره من قبل. بياض من ضوء ناعم. شفاف ولا يطل على شيء. لا يعكس شيئاً. بياض خلفه نور وخلف النور بياض مصقول. وأنا خفيف، يحملني سحاب خفيف معلق على هواء ثابت. لم أسقط عن شيء ولم أرتطم بشيء. لم اسمع شيئاً ولم أشم شيئاً ولم ألمس شيئاً. ولكنني رأيت ريشة بيضاء نائمة على سحابة بيضاء على هواء أبيض...

وحين أعادوني من نشوة النوم إلى عذاب اليقظة، بأسلاك الكهرباء وثقوب في الساعدين وفي الفخذين، شعرتُ بالاختناق. لماذا أعادوني من سحر الراحة!

كان عليَّ أن أنتظر أسبوعين لأعرف الحقيقة: لقد أعادوني من الموت الذي استمر دقيقتين إلى الحياة. لقد أعادوني من النشوة إلى الوجع. أهذا هو الموت؟ ما أجمله! أهذا هو الفارق بين الحياة والموت؟ ما أكبره! لقد أزعجوني في نومي الأبيض الجميل. أيقظوني في ساعة لا أُريد أن أستيقظ فيها. لقد أعادوني من السفر إلى... الرحيل!

بعد يومين، جئتَ لتجلس على سريري...

لماذا أنت؟ لماذا أنت؟

أُومـن بحدس الطبيعة، ذلـك المجهول الـذي لا ينفي عدمُ إدراكنـا له وجوده. فكثيراً ما أفكر بشخص لم أره منذ سنين طويلة لأراه أمامي فجأة أو لأسمـع صوته على الهاتف. وكثيراً ما أتعرف على مشهد لا أعرفه من قبل، فأراه بعيني من رآه عدة مرات من قبل. ماذا يُسمى هذا الحدس، هذا التواطؤ بين ما كان وما سيكون؟ كأن المستقبل يرابط خلف الماضي...

هل هو نوع من السفر؟

سفر لا ينتهي. سفر لم يبدأ.

ونسافر من الماء إلى الماء. نسافر من الطين إلى الطين، فكيف نعـرف سفرنا بما هو أقل تفاهة من علاماته الخارجية: جواز سفر، وثيقة السفر، «حرس الحدود» مكان الولادة، مكان الإقامة، جهة المغادرة؟

فـي اللغة نجد حلولنا. في اللغة نحـاول أن نزوّج المعلوم إلى المجهول. في اللغة نسافر ونعود. في اللغة نرسي للسفر قواعد سفر رمزية تكسر ذاتها لتبني ذاتها أو تكسر السفر. في اللغة نصالح ما لا يتصالح في الواقع... وفي اللغة نعلن حربنا ونقيم سلامنا.

ولكن، أين نسافر خارج اللغة؟

أما من سفر في هذا السفر!

أخوك محمود دوريش

(باريس - 1986/11/21)

لقاءاً... وإلى الوداع!

- أخي محمود،

في شمس واضحة وضوح الدم الجديد المشرق من بيرزيت وغزة. وبأصابع معقمة بدخان الإطارات المشتعلة على مصلبات الشوارع، اكتب إليك مسافراً مقيماً، مأخوذاً بنبل الحجارة مسكوناً ببراءة الزجاجات الفارغة، سلاح الخضر العصري المشهر في وجه الدبابة وناقلة الجنود. ما من بتهوفن هنا وما من أحمد عدوية، وحدهم أبطال شاتيلا غراد وعين الحلوة غراد وصبرا غراد وبرج البراجنة غراد، يعزفون دمهم الكبير الصاخب على إيقاع القصف والقصف المضاد، وهنا، هناك وفي كل مكان.

ما من هدوء على جبهة الشوق الفلسطيني، ما من هدوء على جبهة القلب ليهدأ أولئك المركونون على أعتاب رونالد ريغن، وليهدأ أولئك الذين جعلوا من راية العرب والمسلمين ستاراً لشحنات الأسلحة السرية إلى جيوش فارس.

كان هاجس السفر محور رسالتك الأخيرة، فهل تذكر كيف

ضحكنـا حين طلبـوا إلينا اختيـار قصيدة في موضـوع السفر لندوة غرينوبـل؟ ضحكنـا، كالطير يضحك مذبوحاً مـن الألم، لأن السفر ليس موضوعاً لقصيدة، بل هو مضمون الحياة وهو مضمون الموت في لغتنا. السفر بـكل مرادفاته ومفرداته، السفر بكل أبعاده ومعانيه، بـكل حساسينـه وكواسـره، بـكل يابستـه ودموعه، بـكل مفارقاته وحقائبـه وبُقجـه، السفـر علانيـة السفر سـراً، السفـر بالجوازات المزورة، والتاريخ المزور والعناوين المزورة، السفر الذي يبدو دائماً وابدأبالاتجـاه المعاكس، خطـأ، صدفة، احتمـالاً، محطات بديلة، وتاريخاً بديلاً، هذا هو محتوانا الشخصي، هذا هي قصيدتنا الذاتية. بيد أن عنادنا العاقل وجنوننا الواقعي وإيماننا العلمي (سمتنا الخاصة) أمـور لا مـرد لها ولا مفر للعالـم من التعامل معهـا باعتبارها الشكل الأرقـى للتنسيق الكامل بيـن اللاعب الأولمبي وبيـن أعضاء جسده المدربة والمهيأة لأداء القفزة الصائبة والظافرة، على أكمل وجه.

حيـن حطـت مكالمتك الأخيـرة عندليباً على شجـرة الروح كنت وبعض الأصدقـاء مغموسين في الإعـداد لمهرجان الذكرى العاشرة لرحيل صديقنا وحبيبنا راشد حسين، هذا المسافر الجميل الذي حاول أن يختار منفاه فاختاره المنفى.

وإذا كانـت طـرق المسافريـن تتشعـب على هواهـا، وتنطلق كيـف شاءت في مهبّ ريحها العاتيـة ونسائمها الرخية، فإننا ما زلنا قادرين علـى استجماع الجهات بين أصابع يدنـا الواحدة، بما يليق بالحوذيـن المتمرسين، ومـا زلنا قادرين علـى استحضار رحلاتنا، بكامل تفاصيلها، وإنك لتذكر معي رحلتنا تلك بصحبة راشد حسين إلى قرية المكر الجليلية ذات يوم من صيف 1958. كنا مدعوين إلى مهرجان شعري في ساحة القرية. ولم تكن شرطة إسرائيل مدعوة، إلا

أنها قررت المشاركة على طريقتها الخاصة، فأغلقت مداخل القرية مداخل القرية وقرفصت على الإسفلت متأهبة لاستقبالنا بالكلبشات المصنوعة بتقنية عالية وبما يتناسب مع مقاسات معاصمنا العاصية.

ولأننـا لا نستطيع إلا أن نسافـر فقد تداركنا الأمر على نحو لا يخلو من طرافة بقدر ما فيه من أسىً. لقد هيأ لنا أهلنا في المكر عربة تراكتـور استلقينا فيها لتقطع بنا طريقاً زراعياً بين الأشجار الواطئة، وحـن هبطنا فـي ساحة القريـة وهلـل «الكابتن» فرحـاً بانتصاره الشخصـي و«القومي» علـى مكائد الشرطة، كانـت بقايا السماد الطبيعي المنقول سابقاً في عربتنا الضخمة، عالقة بقمصاننا. وكان راشـد آنذاك أسوأنا حظاً لأنه كان يرتدي قميصاً أبيض جديداً، ولم نكف عن مداعبته بالسؤال عن نوع العطر الذي يستعمله.

واليـوم، لا أستطيـع إلا الاعتـراف بـأن ذلك «العطـر» الذي «استعملـه» راشد حسين يحمل في رئة الذاكـرة عبق الجنة نفسها وعبير الخلود الخالد.

وهـا أنذا اقترح عليـك أن تبعث إلينا برسالـة إلى راشد نقرأها بالنيابة عنه وبالأصالة عنك في مهرجانه العتيد.

أما الآن، وفوراً، فسأمضي لوداع السيدة الجليلة والنبيلة والدة رفيقنـا وصديقنا الكبيـر أميل توما... يبدو أنها لـم تعد قادرة على احتمال الشوق فسافرت.

وإلى اللقاء في مطار الريح، ذات سفر قريب.

أخوك سميح القاسم

(حيفا - 1986/12/7)

شتـــاء

- عزيزي سميح،

لا أعرف الهدوء منذ شهور. ولا أجد وقتاً للتعويض عن الوقت الضائـع بيـن مدينتين. ومن فرط ما شاهدت مـن مدن لا أعرف أية مدينة. كأننـي سحابة في الريح أو صوت على حجر. لقائي وداع! وليس وداعي لقاء دائماً... ومنذ خرجتُ من عزلة الصيف الطويلة التـي ربطتُ فيها ساعتي على وقت الورق الأبيض. متباهياً بانتقالي الصـارم مـن هوايـة الكتابة إلى حرفتهـا... وأنـا أدور في صخب الذهاب السريع من مكان إلى مكان.

ها أنذا في شتاء جديد...

أشجـار عارية وأشجـار من فضة وثلج اصطناعـي. فبعد قليل سيولد سيدنـا المسيح، وابن بلدنا، وبعد قليـل يولد من خطاه عام جديـد. وبعـد قليـل سننخرط فـي عـادة التأمل في مـا صنعت بنا الجلجلة، وفي ما صنعنا بأيام العمر الهاربة منا كالأولاد...

شتاء جديد، وقلب جديد...

أفتش في قلبي، الليلة، لأتلمس صوف الفراغ الناعم، فأصفق لما فيه من حب يورق ويكسو أغصان الشجر. أهنئ نفسي على هذه العافية. ولكن، كيف أسرق وقتاً من الوقت لأتابع انضباطي السابق بصباحات صارت اقصر، خاصة وأن الليل ليس مهنتي. ليس لي ليل لأختفي بشتاء لا يفعل ما هو أكثر من إطالة الليلة، وحشو القلب بالتوجس من الوحدة...

لا أريد أن أكون وحيداً.

ولا أريد أن أصدق أن الشعر وسيلة للانتصار على شيء، أو حل لعذاب الضياع تحت المطر. ففي الشعر أيضاً غربة. وها أنذا أتذكر المطر الأول على بيادر وحقول، وأسترجع تلك الرائحة الأولى في برية حاصر فيها المطر ولداً لم يجد ما يلوذ به سوى الهتاف اليائس لأم لا تسمع الأنين...

كم أحب المطر... كم أحب المطر الأول وأصغي فيه إلى ما يبتعد، وأقبض فيه على رائحة لا تُعرَّف بغير أصوات النايات الجائعة إلى إناثها. فلماذا لا يشبه شتاء شتاء؟ ولماذا يحرك الشتاء فينا هذا الحنين إلى الماضي أو إلى المجهول؟... ولماذا... لماذا يكبر الحب حين نتذكر الليلك؟

سأزج بنفسي في ما لا يُسيِّجها أو في ما يجعل الطاعة بهجة، في لحظة ينتهي عندها السؤال ليبدأ الانجراف. حصان معلق على وتر، ما عليه سوى الاندفاع الجميل إلى الهاوية. وليست الهاوية سوى قمة مقلوبة. لو استطيع... لو استطيع فقط أن أجد هامشاً بين عاصفتين أو رصيفاً بين هاويتين. لأنني أريد أن أقبض على الصهيل... وأكتب. أريد أن أدفع تلك العربات الغارقة في الثلج، إلى الأمام قليلاً، إلى الوراء قليلاً، لا لأنني أشفق عليها من عزلة الأغاني،

بـل لأنني لا أريد أن أجد نفسي هنـاك. فلأحصِّن نفسي أو لأعودها منذ الآن على ذلك المشهد: ثلج، حصان، عربة، وأغنية لا تصل...

شتـاء؟

فكيف أغيِّر إيقاعي كما يغيِّر الشتاء مداري؟ أمن حطام القلب يصاغ هذا الليلك! وماذا يفعل الشاعر في معبد مهجور؟ ماذا يفعل أكثر مما فعل في انقضاض الشتاء على امرأة تدربت على الغياب... تدربـت إلى درجة الوقوع في عبادة عينـي ثعلب! وها أنذا أدندن: هي امرأة... هي امرأة...

شتـاء،

هو فصل الشاعر. هوية غامضة لبداية النهاية، أو لنهاية البداية. ميلاد من موت. موت من ميلاد. نزول السماء إلى الأرض. صعود الأرض إلى السماء. وانتظار لما يسفر عنه القلب من مرض أو عيد.

شتـاء

حدائق للنسيان...

شتـاء؟

مخيمـات تسعفها السماء بماء لتواصل القدرة على تلقي «الموت الأخـوي». وأحمـد الزعتر يتابـع عمر الحصـار عشر سنيـن أخرى، عشريـن عاماً آخر في رحلة من الصفيح إلى الصفيح. فماذا أقول له وقد تألب عليه جنون التحالف الشيطان وهستيريا القدر؟ العاصمة وفروعها المتغيـرة. وهو هو يعيد إنتاج هويتـه النارية. ويحرق أوراق هوميروس ليطهو طعامه الوحيد: الخبيزة. ويدثر يشبق البقاء العاري. ولا يأخذ من أسئلة شكسبير غير ما يجعله هو هو: وحيداً في مألوف لا يألفه.

أحمـد الزعتـر وشاتيلا وسائـر الأسماء لا يجد مـا يقول. أما مـن مقطع آخـر للنشيد! لم يحدث شيء. لم يحـدث شيء. فلتبك

السماء كما شـاءت أن تبكي على حالها. أما هو، فما له من السماء إلا ما يضيف إليها. يا أحمد العائد من الموت باسم جديد للمخيم، بحصـار جديد للحصار! متى تكف عن إفـراغ اللغة، وليس الرمل رملاً... وليس الأزرق للأزرق!

شتــاء،

واحمـد الفائض عن نشيده، المدعو إلى آخر حفلات الموت، ينبت مـن عناصر الطبيعة، مـن ذاته ومن أقصى بقـاع اليأس، بطلاً للبساطـة... منذوراً لما ليـس له: لقدرة الأمة علـى الاستمتاع بما يقتـل فيها الألفة والـروح، وبما يحقر البطولـة وينزلها إلى مستوى العار. فليس قتل الفلسطيني مدهشاً بقدر ما هو أمر عادي، وطبيعي، ويومي، وليس مدهشاً أبداً بحث الباحثين عن مقبرة جماعية لشعب زاد عن الأمة وزاد عن الأرض وزاد عن التاريخ. فلن يغفر أحد لهوية أحمـد الزعتر حتى لو سمى نفسه أحمد العربي، أو لأنه سمى نفسه أحمد العربي. فماذا عساه يفعل في هذه العزلة غير أن يتناسخ في كل دقيقة ويرفع عاره الوحيد في فضاء الكهنة القتلة!

إلى أين آخذه؟ إلـى أين يأخذني في هذا الشتاء؟ وكيف نقوى، هو وأنا، على سأم التكرار وابتكار معجزة الدهشة وسط ركام الخيانة الكبـرى المرفوعة إلى مستوى القداسة، على مرأى من أمة لا يكفي القمـع، وحده، لتفسير ما تستمتـع به من عجز عن التعديل الطفيف على المشهـد، كأن يسحب الأطفال المذبوحـون إلى الكواليس، ولتنزل العبودية من مستوى الفكرة إلى مستوى الفكرة...

شتــاء؟

شتاء من دم؟

مطـر أحمر على المخيم. ولا يملك شعبي غير قوة هذه العزلة هنا وهناك. والنشيد جسد. كأن الواقع هو الذي يُقلد اللغة. كأن الطبيعة هي

التي تطمح إلى محاكاة النشيد. سأصرخ بك ثانية: خذ عني القصيدة! خذ القصيدة عني لأتمكن مـن الوقوف مرة أخرى على شيء: رأسي، أو قدمي، أو روحـي. ولأمسك خيطاً من خيوط هذا الفضاء الهارب. ولأصدق ان الحرية والوطن يستحقان صراخ هذا الدم!

ولا تصدقنـي إن توازنـتُ خارج هذا التوتـر، فليست لي أرض وراءه. ولا أُصـدِّق ان فـي وسع هذا الرمـح أن يشفيني إن خرج من خاصرتي. ولا أُصدق أنه شرط حياتي وحريتي. وليست الريح تحتي ـ كما قال المتنبي ـ ولا الريح حولي. وأكاد أصرخ: إن الريح نسيجي. شتـاء؟

وأبحث فيَّ عن أحمد العربي، وفي الصمت أسأل: هل من جديد؟ ولكـن، لماذا يأتي أهل المغرب العربي إلى صوت قال لنا الصمت إنه حوصر حتى الذبح؟ ولماذا تحميني الشرطة من علاقة العرب بفلسطين؟ ولمـاذا تضـرب الشرطة علاقة فلسطيـن بالعرب؟ هل تـدرك التباس السلطة حين تنقسم أدواتها على الهشاشة القائمة بين ذاتها وواجباتها؟ إن رجـال الشرطة الذيـن ضربوا الشبـاب المحيطيـن بنشيج القلب الفلسطيني هم رجال الشرطة الذين طالبوني بصورة تذكارية! والرقيب الـذي يمنع تداول كتبي هـو نفسه الذي طلب مني أن أوقع لابنته على كتبي. ورجل الأمن الـذي أوقفني ساعات في المطار هو الذي طلب مني أن أكتب على بطاقة هويته بيتاً من الشعر... للذكرى...

ويا عزيزي، خذ القصيدة عني!

خذ عني القصيدة... في هذا الشتاء...

أخوك محمود درويش

(باريس ـ 1986/12/20)

احمل قصيدتك...
واتبعني!

- أخي محمود،

أمطرتْ رسالتـك الشتائية على القلب، وكان عارياً كما ولدته غربته، فلا لوم عليه إذا ارتجف، عصفوراً في العاصفة، ورقة «نابية» عـن شجر الحكمة، أو ولداً مـن أولاد المخيم الصغير تحت خيمة الله الكبيرة.

طقسٌ ماطـر ورسالة قارسـة، وبريد لا يعـرف الرحمة. بريد بالاتجـاه المعاكس دائماً وأبـداً، حتى لكأن لعنـة فرعونية تلاحق هواجسنا واوجاع أصابعنا النازفة حبراً ودماءً على ورق لا يرتوي.

أيُّ بريدٍ هذا؟

وأيّ سعاة، هؤلاء؟

ويا أخي العزيز، كان الثلـج الأوروبي يحاصرك بشراسةٍ حين انتبهـت إزاء المـرآة إلـى مزيد من نديـف الثلج، هابطـاً من سماء الروح، طالعـاً في الشعر الأبيضـ على الصدغيـن... هوذا أخوك

دوريان غراي يتهاوى من فضاء الحياة الصاخبة الجامحة، لتنسجم خطاهُ، راغمة مكبوهة، مع إيقاع الزمن الرهيب.

كعادتنـا، في منتصف ليلة رأس السنة، كنّـا معاً ولم نكن معاً، كعادتنا.

حاولـتُ العثور عليك في باريس، وتركـتُ لك شجن المعايدة علـى رنيـن الهاتف اليتيـم. وحين عثرت علـيَّ بعد أيام أعـدت إليَّ شجني عبقاً من وردة حزنك... وكان معنا آنذاك راشد حسين ومعين بسيسو، ورفاقنا الآخرون من أقمار الكلمات الغائبة في بطن الحوت.

عامٌ جديد.

أهو حقاً كذلك؟

وكيف نحصي نحن أعوامنا؟

لنبدأ إذن، لنبدأ تقويمنا بعام الفيل. وليكن هذا عام المخيم. أما العام القـادم فنسجد له اسماً آخر جملاً رشيقاً بقدر يتناسبُ عكساً مع ما نحن فيه، أمةً وشعباً، أرضاً وسماءً، بشراً وشعراء.

وما دمنا نحلم بترويض الزمن، فسأفضي لك بإحساسي الراهن وجهاً لوجه إزاء هذه اللفظة المجردة «الزمن»:

أنذا مشدود بحبال من مسد إلى جوادين اثنين، أحدهما أبيض والآخـر أسود،يخبّان باتجاهين متعاكسين... وإنني لأسمعُ صوت تملُّـع اللحم عند الإبطين وما بين الفخذيـن. إنه الزمن الزمنان، ذلك المرهون بدقات القلب وذلـك المتناثر مع دقات الساعة... الزمن النابـع منّا ليصبُ بعيـداً بعيداً في أعماق الأبديـة... والزمن القادم مـن غور سحيق في غموض المستقبل ليصـب في أعماقنا نسلاً أو كلمات، غبطة أو عزوفاً، ندماً في اكتفاءً.

ثمة موقـعٌ غير محدد وغير متوقع، للارتطـام الهائل في نقطة مـا بين مـا تعارفنا على تسميتـه «بالروح» وما درجنـا على تعريفه «بالجسد».

وهنـاك، في تلـك البـؤرة المدومـة، أقـفُ عاريـاً مأخوذاً محمومـاً، رافعـاً ذراعي في محاولـة مستميتة لالتقـاط الشمس ولترتيب المجرة وفق ذلك الحلم البسيط والمركب في آن، وعلى صورة تلك الأمنية الساذجة والعميقة في آن: ليكن الوجود أجمل قليـلاً. لتكن الحياة أفضل قليلاً وليكن لنـا ان نحظى بحصة أوفر من السعادة!

ولأنني اغتسلت نهائياً من إثم المثالية، فلن يلوثني وهم السعادة بمعناهـا المطلق. ولن أتملَّص من الواقع إلى الإنشاء. وسأظلُّ قادراً على استشفاف سبب للسعادة. حتى في إجراء يبدو عادياً، كالإجراء الراهـن لإعادة توحيد صفوف الكتـاب الفلسطينيين، وفي انتصار القـوى الوطنية التقدمية في انتخابـات المهندسين في غزة، ولجان الطـلاب الجامعيين في بيرزيت وبئر السبع والقدس. وسأظل قادراً على احتـواء الشقاء القادم مما يسمى بحـر الخليج، تلك المذبحة المجنونـة التي تمنح اسحق شاميـر متعة القول: «إن انتصار أي من إيـران أو العراق في حرب الخليج يُعتبـر تهديداً لسلامة إسرائيل». أو تلـك المتعة «الشعبية» التـي يبثها الإعـلام الإسرائيلي بسخرية واضحـة: «تقتضـي مصلحة إسرائيل لـن ينتصر الجانبـان»... أو «تقتضي مصلحة إسرائيل ان ينهزم الطرفان!».

– خلاصة للسعادة والشقـاء، متزامنين متكاملين متماسكين، تأتي القصيدة. فهل أحدثك عما اكتبه الآن؟

كنت أخبرتُك في وقت سابق أنني أكتب سربيةً عن «السقوط».

والـذي حدث، أن إطار السربيّة تحطم يوما بعد يوم ليتحول العمل فيما بعد من الشكل الواحـد المتنامي والممتد، إلى مقطعاتٍ أشبه بالشظايـا، نظراً للحـالات النفسية التي تتناوبني وتبعـاً لها. بيد أن الإحساس العـام والشامل بالسقـوط لا يزال قائمـاً، وما زال هو المحـور الأساسي الـذي تند عن الانفجـارات الروحية وتدور في فلكه أجرام القلب.

وبعد، فإن معضلة عصبية ستواجهني حتماً. فيبدو لي أن قصائد «السقوط» ومقطعاته ستكون أقل قـدرة على الانتشار والوصول. ومع أن الانتشار هـذا ليس هدفاً بحد ذاته، فلا أستطيع الادعاء بأنه مسألة غير ذات بال!

وكنتُ وعـدتُ «دار الأسوار» في عكا بهـذه المجموعة، قبـل ثلاثة أشهر ولقلق ما. أبطأت وأرجأت، ولعلها المرة الأولى فـي حياتي التي أتردد فيهـا، قبل دفع مجموعة مـن القصائد إلى المطبعة.

بعد دقائـق أكون قد تجـاوزت منتصف الليـل بساعة كاملة. وبعبـارة أُخـرى، أدق وأكثـر تواضعـاً، يكـون منتصـف الليل قد تجاوزنـي بساعـة كاملـة... حملـةٌ أوروبيـةٌ جديدة علـى شكل منخفض جـوي. ليل وبرد. بُرنس مغربيٌّ علـى كتفيّ، ومطرٌ على ليمونة الدار. متـران من الثلج الأسود على جبل الشيخ، جبلان من الحزن الأبيض على قلبي.

وأنت هناك. نائمٌ الآن مثل أفراد العائلة الآخرين. وإنني لأسمع رجـع أنفاسك الوجلة. لعلـك تحلم الآن بشتاء آخـر في زمن آخر وفي جغرافيا أخرى.

لعلك تبكي في النوم.

أو لعلـك تبسم راضيـاً مرضياً، لوجه صبـوح يشاطرك الغربة وقهوة الصباح المتكررة في رتابةٍ قاصمة.

مطرٌ عندنا، وليس لنا.

مطرٌ لا ينقطع.

هرّةٌ غريبةٌ تموء في مثل هذا الوقت الغريب.

وقلب يموء مثل هرة. منبوذة تحت المطر.

مطرٌ ورسالتك.

وها أنت تزفرها مرة أخرى: «خذ عني القصيدة». تزفرها ولا مفـرّ. لن يأخذ أحد عنك قصيدتـك. يا أخي وحبيبي لن يأخذ أحد عنك صليبك.

ولن يبقى لك إلا ما يبقى لي.

ولن يبقى لنا سوى صيحة ذلك الفدائي الشاعر:

«احمل صليبك واتبعني!»... «احمل قصيدتك واتبعني».

أخوك المحبّ والمشتاق

سميح القاسم

(الرامة - 1987/1/21)

شــيء... من لا شـيء

• عزيزي سميح،

لا أحد يحلم كما يحلم الآخر. ولا أحد يحلم نيابةً عن أحد...

ولكن الشعر يحلم بأن يحلم للجميع ونيابة عن الجميع. أهكذا نستطيـع ان نفسر هذه الحاجة الدائمة والغامضة إليه؟... وبالوجع المُشتهـى لحـب لا نريده، ولامرأة نحبها وندعـي اننا نحبها هي، لا الحـبَّ نحـب؟ أو ندعي العكس كأن نحـب الحب في امرأة لا نحبها...

ونتغيَّر...

نتغير بلا مقدمات واضحة، نتغير بلا سبب...

في وسـع طائر عابر أن ينتشلنا من هاويـة حين يحمل بمنقاره خيط الأفق.

وفي وسع طائر زائر أن يُهيل علينا التراب.

لسـت متطيّراً إلى حـد الهوس. ولكنني حيـن حملت فنجان قهوتي الأول لأحتسيه على مهل، سمعت أنيناً غريباً في ركن الغرفة،

أنيناً قادماً من رماد الصباح. حدَّقت في مصدر الأنين فلم أبصر شيئاً. خيـل إليّ انه قادم من الحائط فاقتربت لأجـد جسماً غريباً نائماً في قبعة المصباح الكهربائي. هل تعرف ماذا وجدت؟

وجـدت طائراً كبيراً مختبئاً هنـاك. في منقاره الأصفر الطويل حصوة كبيرة، فاستبشرت خيراً في البداية. ولكني سرعان ما خفتُ من عـدم خوفه مني. لوّحت حوله بيدي فلـم يتحرك. صرخت به فلم يحاول الطيران. كان يحـدِّق فيَّ عن كثب. كان يحدِّق بعينين مفتوحتين بلا انقطـاع ولا وجل. كان يهددني ويتوعدني. يخترق صدري ويتحـول إلى وحشـ. استنجدت بما أملـك من مظلات لأدفعه إلى الرحيل عن غرفتي وعن صباحي، فلم أفلح...

حملـت قهوتـي وخيبتي واختبـأت في غرفة أخـرى. ما هذا الطائـر المتحول إلى رسالة لا أريـد أن أستلمها؟ وقد اقتنعت تماماً بأن هذا الزائر ليس طائراً. فما هو... ما هو؟

هـل في وسع المخلوقات الجميلة أن تحرك فينا هذا التشاؤم، وأن تسـدد إلينـا مثـل هذه النظـرات الجارحـة؟ لقـد استطاعت «الخادمـة» أن تخرج الطائر من المصباح، وأن تلقي به من الشرفة ليعـود ثانية، وثالثة، ليموت في المـكان الذي أراد الموت فيه، في مصباحـي. ولكن، لماذا كان يعض على هذه الحصوة الكبيرة؟ هل كانـت رسالة أحد؟ هل كانت هدية؟ ومـاذا أراد أن يقول لي؟ ماذا أراد مني؟

لا أحـد يستطيـع أن يمحـو إلحـاح المشهد منـي، فإلى متى تطاردني العينان وتلك الحصوة!

وقالـت لي العرافـة «جونيـا» الأشورية بعد شهـور، دون أن أحدثهـا عن ذلـك الطائر: لا تخف مم رأيـت. ستعيش. كان ذلك

الطائـر يموت نيابة عنـك. وكان يتـرك وراءه سريراً بـارداً لامرأة مهجورة. هل تعرفها؟

قلت: لا أعرفها.

قالت: اني أراك تكذب، فهل من عادتك أن تكذب؟

قلت: في مثل هـذه الأمور... لا بد لي من أن أكذب، ولكن، أين رأيت الطائر؟

قالت: في مخيلتك...

«جونيا» ليست ساحرة أو عرّافة، إنها عالمة طب، وعضو في أكاديمية العلوم. في يديها طاقة كهربائية قادرة على تحديد المجال المغناطيسـي للجسد البشري بدقة كاملة، ممـا يؤهلها لمراقبة أي خلـل في هـذا المجال... الأمـر الذي يشير إلى وجـود مرض... تستطيع أن تشخصه.

أوقفتنـي دقيقتيـن، دون أن أخلع شيئاً مـن ملابسي. حركت يديهـا حول جسمي وقالت لي: في قلبـك خلل. في الجهة اليمنى مـن أسفـل البطن خلـل. في مثانتـك التهاب. في ساقـك اليسرى تصلب شرايين. وفي ضرسك الثالث على اليسار وجع.

قلت مازحاً: وماذا في بالي؟

قالت: امرأة تتلاشى، واسم زهرة تتفتح...

قلت: وأين أسكن؟

قالت: على الطابق الخامس في بناية محاطة بالأشجار.

ذهبت إلـى المستشفى، وبعد أسبوع من الفحوص والتحاليل الدقيقة، قال لي التقرير الطبي ما قالت «جونيا» في دقيقتين...

مازحت البروفيسور: وماذا في البال؟

قال: ماذا تعني؟

قلت: هل ترون اسماً لزهرة تتفتح؟

قال: هل أنت شاعر؟

قلت: لا. ولكن «جونيا» عرفت ما في جسدي قبل أن تعرفوا. وقالت أيضاً إن في بالي اسم زهرة تتفتح.

قال: «جونيا» طبيبة، وليست عرافة.

ثـم تلا عليّ وصاياه الطبية: لا تدخـن. لا تشرب. لا تغضب. لا تتعـب. لا تنفعل. لا تقلق. لا تعشق. لا تكتئب. لا تضطرب. لا تفكر. لا تسكر. لا تسهر.

صحـت؛ كفى... كفى. إنك قادر علـى تحويل أي شاعر إلى حمار.

قال: ولكن، هل أنت قادر على تحويل الحمار إلى طبيب؟

هـل تنقصنـا مثل هـذه السلامـة؟ هـل ينقصنا حمـار مثلي؟ وتذكـرت قصة عـن سجين سياسي محكوم بالإعـدام، وقبل تنفيذ الحكـم بالإعدام بساعات سألوه عن أمنيته الأخيرة، فقال: أريد أن أتزوج لأنجب ولداً يحمل اسمي. استغربوا طلبه، ولكنهم أحضروا إليـه مومسـاً وأدخلوها إلـى الزنزانة. بعد دقائـق خرجت دون أن يقربهـا. سألوه لما تخلى عـن رغبته في الـزواج، فأجاب: إن هذا الوطن المليء بأولاد العاهرات لا يحتاج إلى ابن عاهرة جديد!

ولكـن أسألـك، يا عزيـزي، أليـس الحمار الحـيُّ خيراً من الشاعر الميت؟

ربمـا،

بيـد أننا لا نريد أن نصـدق أن من المجدي لأحد إخلاء مجال الشاعـر من قليل من «المثالية» لا بمستواها الفلسفي بالطبع. وإلا،

فمـا معنى أن يتمكن طائر من قتلك، ويتمكـن طائر آخر من بعثك حيـاً؟ ففي منطقة الروح... فـي أقاليم الغامض من النفس مجال لم يصـل إليه العلم بعد. ولم يُر أو يعالـج إلا بالسحر والشعر، وبقدرة غامضـة على رؤية ما لا يُرى. إذن، كيف قرأت «جونيا» اسم زهرة تتفتح في البال وفي القلب، هي امرأة تطعمني الشتاء كحبة الكستناء المشويـة على موقد الفرح. هي امرأة... هي امرأة حلمتُ، قبل أن أراها، بأنني أعانق زهرة ونطير على غيمة بيضاء.

وكيف استطاعـت فتاة ان تبوح لأمها بمخاوفهـا: لا أريد أن أمضـي معكم في هـذه الرحلة، لأنـي خائفة. تساءلـت الأم: مم تخافين يـا ابنتي؟ قالت: «رأيـتُ في المنام طائراً ملتـفَّ الساقين، منحني الرأس». ولكنهم أخذوها إلى الرحلة. وفجأة ارتمت الفتاة المرتجفة في حضن أمها: «أنا خائفة... خائفة. لقد جاء الموت». وقبل أن تكمل جملتها ارتطمت سيارة العائلة بسيارة أخرى ارتطاماً قذف بالفتاة إلى البعيد. ومن بعيد نظرت الأم لترى ابنتها تتخذ هيئة طائر المنام: ملتفة الساقين، منحنية الرأس، وميتة!

فماذا يقول العلم؟

وهـا أنذا أخرج للتو من حلم: فتحتُ باب شقتي لآخذ بريدي الصباحي، فرأيت حبات من البرتقال تملأ مدخل البيت... برتقال أصفر، ذهبي، تتقدمه برتقالة مربعة الشكل في حجم الباب.

وأنت تعـرف أنني لا أحب مذاق البرتقـال على الرغم من أن لونه يفتنني. وحين صحون أكلـت برتقالة، وانتظرت ما تسفر عنه هبات الحلم. ثم تذكرت أول امرأة أرغمتني قبل عشرين عاماً على أكل البرتقـال لأثبت لها انني أحبها. فهل كانـت تشبه امرأة الشتاء الآن التـي ترغمني على ألا أحبها وحدها، بل ترغمني أيضاً على أن

أحب حبها، وما يشيعه فيّ من أشعة الروح، وما تطلقه في جسدي من خيول راكضة؟

ليس ضرورياً، في هذا السياق، أن نسأل: هل الواقع هو الذي يركِّب مادة أحلامنا؟ أم ان الحلم هو الذي يركب عناصر واقعنا؟ لأن للعلماء تناولاً يختلف عن هاجس الشعراء الذي يحتاجون إلى قراءة الواقع بأدوات الحلم.

وماذا أريد أن أقول لك؟

لا شيء... لا شيء، عدا الاسترسال في خواطر لا يضبطها موضوع، خواطر تطل على ما لا ندرك فينا من غموض هو الذي يوضح الشعر ويبرّر الشعر، إلى درجة قد تُعرِّف الشاعر معها بأنه ذلك الإنسان الذي يحمل آلافاً من «قرون الاستشعار» التي ترى البرق البعيد، وتحس بالعاصفة البعيدة، وتلمس الزمن القادم الذي لا زمن فيه... وهو... هو المهووس بأن يصدِّق أحلامه...

أمن الغريب، إذاً، أن تحتاج العرّافة، عضو أكاديمية العلوم، إلى كتابة الشعر في محاولة لفهم ما لا تفهم من طاقتها على قراءة ما في بالنا من أسماء الأمكنة والنساء، والزهور؟

لا تسألني إن كنت أُصدّق ما يقال عنه إنه خرافة...

بل اسألني إن كنت أصدق حاجتي للشعر...

كل شيء رمادي في هذه الأيام... رمادي أسود ... رمادي مكتوب بفحمة كونية سوداء. ولكن هذه البطاقة الصغيرة قد وصلتني الآن من فتاة اسمها زينب، من بلد المطار إياه، لتزيد عدد حبات البرتقال حول قلبي. تقول البطاقة: «دخلت قلوبنا بلا ورقة. ولأننا نعلم مكان ولادتك، تقبّلتك وقبّلتك قلوبنا أكثر

وأكثر، فأفّ للمطار.

ولنفهم ولنضحك إلى أن يكو».

شكـراً لزينـب لأنها تحدد الفـارق، ولأنها تدلنـي على ما لا أعرف: في وسع أحد أن يحلم كما يحلم الآخر. وفي وسع أحد أن يحلم نيابة عن أحد.

وهذا وحده... هذا وحده ما يحاول الشعر أن يقوله...

أخوك محمود درويش
(باريس - 1987/1/27)

للأسى سماء من طيور

- أخي محمود،

كان ولا يزال للأسى عالمه المغرق في خصوصيته، ولا حدَّ، لا حد أبداً لطاقة الأسى في إبداع عالمه هذا وإعادة إبداعه مرة تلو مرة بأشكال وصيغ تحاكي الطبيعي أولاً ثم تعود الطبيعة لتحاكيها، عاجزةً، قطعاً، عن الإمساك بأطرافها السحيقة.

ولا أعلم لماذا كانت للأسى دائماً سماء من طيور... سماءٌ من طيور شتى نتسلق فضاءها الشاسع بأبصارنا وبصائرنا الكلية لنرى هناك وعلى الحد الفاصل بين ما هو واضح وما هو غامض عنقاءنا الأولى، خلاصة الأسى الدبق في صهريج البيداء العربية، الأسى الدبق مرة أخرى والمتجمع بكثافة هائلة في ما اصطلحنا على تسميته بالحلم... ونرى هنا أيضاً حمامة نوح حيث تجسد الأسى الصادر عن طوفان لم يُبق ولم يذر... ونرى هناك ذلك الغراب التعس الذي وصمناه بخطيئة البين... ثم نرى السنونوة التي تحملنا على جناحيها بعيداً في حلم الربيع خارج الأسى المتكدس كالثلوج

والوحول في شتاء يبدو بلا نهاية... ونرى هناك المطوقة التي تنوح بباب الطاق لتكون أسى شاعرنا السجين أبي فراس متقمصاً طائراً ليس كالطيور. ونرى ثم نرى قبّرة شيللي وغراب أدغار ألن بو.

قبل أيام رأينـا دُورياً. كان ذلك في مهرجـان الذكرى العاشرة لرحيـل حبيبنا راشد حسين. فقـد استعاد عمر حمودة الزعبي بعضاً من ذكرياتنا القديمة وأعادنا إلى ليلة الدوري (دوريّ ما يقتحم الغرفة العليـا في منزلنا حيث اعتدنا السهر ويمضـي معنا ليلة كاملة مصغياً لحوار نشط فيما بيننا... أحدنا يقول: إنه دوري متطفل ووقح ومن حقنـا ان نلتهمه فوراً. ويقول آخـر: بل هو روح من لدن الله يحمل إلينـا فضاء جديداً لقصيدة جديدة. ويقول ثالث: لا، بل إنه الشيطان شخصياً على هيئة طائر يسترق السمع ليدير المكائد...).

مع الفجر الأزرق حمل دورينا جناحيه ودهشتنا وطار...

حـدث هذا قبل ربع قرن ولم أزل منذ مهرجان راشد مسكوناً بقناعـة ما، بـأن ذلك الدوريّ هو راشد حسيـن وأنه ما زال يحوم حـول بيوتنـا ويقتحم نوافذنا فـي ساعات الليل تـاركاً في فضائها أحلاماً جديدة لقصائد جديدة...

وهـا نحـن نـرى الآن طائـراً غريباً يقتحـم غرفـة نومك في باريس... وكما يبدو واضحـاً من رسالتك فهو ليس دورياً على الإطلاق. وعليه فهو ليس راشد حسين. إذن من يكون طائرك هذا؟ هـل هو غسـان كنفاني؟ أو لعلـه معين بسيسو؟ أو أنـه روح شهيد جديد ضاق بضجيج القصف على مخيماتنا في لبنان فطار إليك؟

ينبغي أن نستوضح الأمـر مرة أخرى لدى «العرافة» الآشورية «جونيـا». وإذا قيض لي أن أقابل «بارينـا» الآشورية التي أصبحت طائراً في براغ منذ أعوام سحيقة فسأتدارس الأمر معها.

طائر يحملك من الأسى إلى الأسى.

وطائرة تحملك من باريس إلى الجزائر.

وأفـرح معك ونفرح معكـم: ها نحن قـادرون على الالتحام حول أطراف أجسادنا المتطايرة على مداخل المخيمات.

في كلمتك التي وصلتني فقـراتٌ منها تدعو مثقفي العالم إلى إطـلاق صيحة، ولو صيحة، مجرد صيحة،لإيقاف المجزرة. أنت تدعو! صيحة فيرف طائر الأسى من سماء الجزائر إلى سماء القدس إلى سماء بيروت الممزقة!

أيـة صيحة تريد يا صديقي؟ وبأية لغة؟ أية صيحة تريد من زمن الحناجر المقطوعة بالبلادة، المنخوبة بسرطان اللاأبالية؟

إننـي لأذكر عبر رواية «فارس الأمل» لجورجي أمادو صيحة رومـان رولان: «نداء إلـى العالم! نداء إلى الشعـوب! لننقذ لويس كارلوس برستس!»).

نـداء إلـى العالم نـداء إلى الشعوب مـن أجل بطـل البرازيل، فمـن يوجه صيحة، أو نأمه، من أجل أبطـال شعبنا ومن أجل ناسنا العاديين؟ أم ان الحياة هي من حق الأبطال وحدهم؟!

اعتقد اننا سنلتقي قريباً يا محمود. سنلتقي في موسكو وسيكون هناك سرب كاملٌ من طيور الأسى، فهل نستطيع إغراء هذا السرب بإطـلاق صيحة ما، مجـرد صيحة، لأجل إخوتنـا المذبوحين من الوريد إلى الوريد ثلاث مرات يومياً قبل الجوع وبعده؟!

ثمة معادلـة صعبة، نحن مزجوج بنا فيهـا. معادلة على النحو التالـي: حتى يسمعك العالم فأنت مدعو إلـى ممارسة العنف، إلى اجتـراح الصخب القادر على إشغال حيز داخـل انهماكات العالم

وانشغالاتـه الهامة والسخيفـة على السواء. وحيـن تمارس العنف لتُكـره العالـم على الإصغاء إليـك فإن هذا العالـم نفسه يكفّ عن الإصغاء... ويذهب إلى أبعد من ذلك... إنه يغتنم الفرصة للتخفف من أوزار موتك، فيلقي بها على كاهلك وبقدر قادر يتحول الجزار إلى ضحية، وتتحول الضحيـة إلى مجرم مدان ويصبح طبخك في حليب أمك أمراً مشروعاً للغاية.

هـذه هـي المعادلة. ويبدو لـي أنهـا معادلة صعبة حقـاً، فما العمـل؟ كيـف نتدبر معضلـة الخيار البشـع بين المـوت صمتاً أو الموت صخباً؟

هل تذكر قصة الطائرة المدنية التي سقطت على جبال الجليد فـي مكان ما من العالم قبل حيـن؟ لقد اضطر الناجون من الركاب إلـى التهام جثث القتلى مـن زملائهم ليتمكنوا مـن حماية النجاة العرضية التي كانت مـن نصيبهم. لم يكن من حولهم آنذاك سوى قـوة المـوت وقوة الحيـاة. ولـم يكـن أمامهم من خيـار سوى أن يحسمـوا لصالح الحياة. فاستجمعوا مـا تبقى لهم وفيهم من طاقة مـن صراع البقاء المعروف ليلتهموا جثث إخوانهم، ولا أدري إذا كانـوا قد استعملوا طواقـم الطعام الحضاريـة ـ الشوكة والسكين وصحـون البلاستيك! الذي أعلمه هو أنهم ظلـوا على قيد الحياة إلى أن تم اكتشافهم أخيراً!

ونحن يا عزيـزي، نحن الفلسطينيـن القادمين إلى الكوكب الأرضي على متن سفينة فضائية من كوكب آخر، لم ننج من مصير مماثـل. لقد سقطـت سفينتنا على جبال الجليـد في العام 1948. هلـك من هلك ونجا من نجا وولد من وُلد واستشهد من استشهد وينتظـر من ينتظـر. وبقوة الحياة نفسهـا نلفي أنفسنـا اليوم. إزاء

الخيـار الشـاق: إمـا أن نلتهم جثـث قتلانـا أو أن يلتهمنا الموت المحدق بنا من كل جهات الأرض. فما العمل؟ لقد التزمنا بالحياة المنظمـة وبالموت المنظم، وعليه فإننـا نستصدر فتوى دينية تتيح لنا أكل موتانا!

قد نحظى بفتوى كهذه! ولا أظن الديانات السماوية صادفت مـن قبل مسألـة مركبة بهذا المقـدار. إنما المعضلـة الحقيقية هي انشغـال العلمـاء والفقهـاء والإكليروس والفلاسفـة بقضية أهم ما زالـت منذ الأزل تبحث عـن حل: كم مـلاكاً يستطيعون الوقوف على رأس إبرة؟!

وتبعـاً لسلم الأولويات الكوني فسيكون علينا أن ننتظر. وإلى حيـن صدور الفتـوى المرجوة يترتـب علينا أن نعمـل شيئاً، كأن نكتـب قصيدة في باب الرثاء أو بـاب الهجاء أو باب الريح، وربما باب النسيب أيضاً.

وحيـن نلتقي في موسكو بعد أيام يكون الربيع قد اقترب قليلاً على جنـاح سنونوة ما، ويكون طائرك الغريـب قد عثر على نافذة أخـرى وقلب آخر يفعمه أسى ويطوح به إلى نافذة عّرافة آشورية أو عربية عاربة. مع محبتي.

أخوك سميح القاسم
(حيفا - 1987/2/9)

تصور أنك تأكلني

● عزيزي سميح:

توقفت طويلاً عند جملة كاتب ياسين «لن تكون هناك أبداً عبودية تكفي جميع البشر». توقفت لأتساءل: أهناك من الحرية ما يكفي جميع البشر، ليشملنا أيضاً؟

لا يبدو لي، ولا لك، أن لسؤالي فرصة البحث عن إجابة، خارج ما تصنعه هذه السيرة الجماعية من شبق إلى البقاء ومن جنون... حتى لو كانت للحرية ألقاب أخرى وطقوس مضحكة...

لقد رأيتك في موسكو حزيناً منذ أيام، كما رأيتني مرهقاً. هل هو تعب المعادن، أم الإطلال على ما فينا من غربة لا تتضح إلا في مرآة الاقتراب؟

أما أنا، الخالي تماماً من وهم السعادة على أرض البشر ومن عبادة الحجر، فقد هدني جسد لم يعد في وسعه ان يسافر أكثر من مرة واحدة في أسبوع واحد...

وأمـا أنت، فقد كنـت تحلم بأخـت لأولادك الثلاثة، فرزقت صبيـاً رابعاً سميته ياسراً، لعله يخرج مـن العُسر يسر. وإن لم يفعل ذلك فمن حقك ان تلعن أباه، فإن لم ينجح الجيل الرابع أو الخامس فيما فشلنا فيه، فمن ينجح إذاً!

ولكنهـا الحياة، يا عزيزي، تجري بنـا ولذاتها... تنسانا على مهل على ضفاف لم نحلم بها، وقوية إلى حد النسيان، مصرة على حياتهـا إلى درجة النكران. ففي وسع أجمـل الأزهار أن تتفتح في ساحـة شهدت أشدّ المعارك وحشية. وفي وسع النرجس أن يتملى وجهه، جذلاً، في بركة ذبحوا فيها طفلاً منذ قليل...

ومـاذا في مقدور صوتك أن يرفع مـن أسماء لا أسماء لها، في زحـام البحث البشـري عن درب خطر محتمـل، كخطر العاصفة النوويـة التي تهـدد الجنس البشري بالفناء؟ أفـي وسعك، مثلاً، أن تقـول إن شعبـك لا يواجه الآن هـذا الخطر المحتمـل لأنه مهدد بالإبـادة بواسطة سـلاح عادي؟ وهل يستطيـع الجنس البشري أن يلتفت قليلاً لإنقاذ أطفـال برج البراجنة من الموت جوعاً؟ فإما أن يكـون المـوت العصري نوويـاً ليشغل ضمير العالـم، وإما أن تمر الجريمة بلا احتجاج.

وهكـذا، علينا أن نموت سراً وبلا ضجيج. فليس في الحرية ما يكفـي لجميع البشر. وما زال الطريق أمامنـا طويلاً ولنثبت أننا جزء من هذا الجنس القادر على الخوف من الكارثة النووية ومن كوارث الحـروب العادية، الحروب الصغيرة. فليس لدى جراهام جرين ولا جريجـوري بيك ولا نرومان ميلر ولا كلوديـا كاردينالي من الوقت ما يكفي للانشغال بقضايا صغيرة، مثل ولادة طفل تحت الأنقاض، وبحث شعب كامل منذ أربعين عاماً عن مكانة، وبحث المحاصرين

في المخيمات عما تبقـى من عشب يابس ولحم كلاب حامض، أو عن فتاوى لتحليل ما هو أقصى لإنقاذ جنس بشري من الانقراض!

ولكن، ما أجمل الكرة الأرضية...

وما أنبل الدفاع عنها أمام ما في باطنها من مخزون موت...

لقـد سيطر الإنسـان على الطبيعة إلى حـد انتحاري منذ عجز عن السيطرة علـى غرائزه. لقد امتلك سر الذرة، امتلك السر الذي يهـدده بالفناء، لأن في وسـع رئيس طائش أن يخـرج إلى الشارع بلعبـة الموت الكونـي، في حرب خاطفة لا ينتصـر فيها أحد على أحـد، ولا عقيدة على عقيدة، ولا أيديولوجيا على أيديولوجيا. فما هـو دورك، أيها الشاعـر العربي في حملة السلام هـذه... ما هود دورك؟ هكذا يسألك عشرات الصحفيين لكي لا تقوى على مواراة المفارقة الجارحة: أنـا؟ ما هو دوري في منع الحرب النووية؟ أنا؟ ما هو دوري في إنقاذ الجنس البشري؟

فمـن هـو القـادرة، في هـذا العصر، علـى الهـروب من هذا الواجـب، حتـى لو كان مطـروداً من هـذا العصر، ومدفوعـاً إلى التسليم بمدى ما بينه وبين عصره من اغتراب؟

هل كان عليـك وعلي أن نطالب أهلنا في مخيمات لبنان وفي سجون الوطن، بالسير في مظاهرات حاشدة تدعو إلى وقف التسلح النووي ما دام السلاح الذي يقتلهم لايكفي لقتل جميع البشر؟

ليست المسألة مثيرة للسخرية إلى هذا الحد، إذ لا أجد تناقضاً، بل انقلاب أولويات، بين الخائفين من الحرب النووية وبين ضحايا الحـروب التقليدية، إذا اعترف الخائفون مـن الحرب النووية بأن ضحايـا الحروب التقليدية هم جزء من الجنسـ البشري، وبالتالي فإن لهم مكاناً على الكرة الأرضية، وطن الجنس البشري!

أرأيت كم نحن بعيدون عن الأرض وعن الخيال معاً... أرأيت؟

إن العلماء أكثر قدرة من الشعراء على تخويف البشر مما يهددهم، طالما أن الشعراء مشغولون في البحث عن قطرة ماء، وحفنة قمح للجائعين، وعن أسماء جديدة للوردة. وبينما يمتلك العلماء أسرار صورة الأرض والفضاء حين يحدث الانفجار العظيم الشبيه بالانفجار العظيم الأول الذي أسفر عن جمال هذا الكوكب، سيظن الشعراء أن الأرض تلعب وترقص. فما هو دورك، أيها الشاعر، في التمييز بين ثنائية البرق والرعد وبين ثنائية الانفجار والقيامة؟

سيظل «العالم الثالث» وعالمنا الخاص المنبوذ من العالم، مفتوناً بسؤاله الأول عن حصته من الحرية التي لا يبدو حتى الآن أنها تكفي جميع البشر. وسيظل سؤال السلام متفرعاً من سؤال الحرية، على الرغم من جهلنا مخاطر السلاح النووي، أو لعلَّ هذا الجهل يزودنا بحوافز الصراع الذي نادى آينشتاين باستحالة إدارته في ظل القنبلة النووية بقوله: «إنكم لا تعرفون ما تتحدثون عنه. إنكم تتحدثون عن السلاح الذري وعن عصر القوة النووية وأنتم لا تستطيعون ـ ولا حتى في أقصى حالات جموح خيالكم ـ أن تلموا بأطراف الحقيقة»...

هل نحن مطالبون بأن ندرك ان السلاح النووي قد غير مفاهيم الحرية، والسلام، والعدل، والحقوق، والوطنية، والقومية، ليكون بقاء الجنس البشري ـ كما تحدده موازين القوى النووية ـ مشروطاً بإلغاء أجناس بشرية أخرى؟ لأن ما تكوَّن قد تكوَّن، وما لم يتكون لن يتكون على حدود الخطر الشامل؟...

على الأقوياء، إذاً، على العلماء والملمين بالحقيقة النووية أن يحذروا ضحايا هذا السلاح. أما نحن، ضحايا السلاح العادي،

ضحايـا السـلاح البدائي، ضحايـا غياب الشـروط الأولى لتكوُّن إنسانيتنا، فلا نملك ترف هذه المعرفة، ولا نملك شرف المشاركة الفاعلة إلا في ما يوفر لنا الشروط الأولى لاعتراف الجنس البشري بنـا، ما دامـت «الهوية الإنسانيـة» لا تشمل من هو خـارج هويته الوطنيـة. فهـل أوقفتنـا الهوية الإنسانيـة خارجهـا، وتقدمت إلى فضائهـا دون أن تكترث بمستنقعات خلفتهـا فوارق التطور الذي اشترط تطوره بخلق هذه الفوارق؟

ربمـا... وربمـا كان على السجين والسجَّـان أن يتعاونا على حمايـة السجن من زلزال يهـدده بالانهيار عليهمـا معاً... ولكن، هـل يمتلك السجين حريـة الدفاع عن سجنه؟ ليسـ عالمنا واحداً إلا فـي هـذا السقوط الشامل، فمـا جدوى دعوة الذيـن ليس هذا العالم عالمهم إلى الدفاع عنه بأيدٍ مقطوعة؟ كم نحن غرباء عن هذا العالم. كم نحن ضحايا حربه. وكم نحن ضحايا سلامه!

ومـاذا كنت تقول؟ هل كنت تقـول إن بعض البشر يضطر إلى أكل لحم البشر ليحافظ على بقائه؟

كم أكلونا...

وكم يواصلون أكلنا...

وكلما حاولنا تحريك ضمائرهم بقولنا اننا مضطرون إلى أكل لحم أخوتنا، كلمـا ازداد الفارق، واتسعـت الهاوية. لعنة الله على الفتـوى وعلى من أفتـى وروَّج للفتوى. فليس مثل هذا البكاء بنافع ولا رادع، لأن مـا يتبقى منه هو ثبات الصـورة الغربية عنا بتحويل المأكول إلى آكل، مهما كانت الأسباب.

تصور أنك تأكلني، أو أنني آكلك! ما هذه الفرية الجديدةّ أتظن أنها تفضح أحداً في بيروت، أو تل أبيب، أو دمشق؟

لقد جاءت النجدة العربية إلى لبنان مرة أخرى. جاءت في المرة الأولى لإنقاذ الكتائب من حصار القوى الوطنية. وجاءت الآن لإنقاذ قطعان «أمل» من حصار القوى الوطنية. أهذا هو دور المدافعين عما تبقى في العروبة من شعارات؟ ودائماً لإنقاذ حلفاء إسرائيل المحليين من الهزيمة، ولتشديد الحصار على «العدو المشترك»، الفلسطيني، الفلسطيني لا سواه هو العدو المشترك! فمن يرفع صوته بعدما اغتالوا الفلسطيني، الفلسطيني لا سواه هو العدو المشترك! فمن يرفع صوته بعدما اغتالوا جدنا الرائع، حسين مروة، وهو يرفع طفولته الأبدية فوق غابة الوحوش؟

وما هو دورك، أيها الشاعر العربي، في معركة الدفاع عن الجنس البشري من خطر الفناء؟

ما هو دورك؟

لا أريد الجواب

لأنني لا أريد مزيداً من العذاب،

ولا مزيداً من الاغتراب.

ولكن، لا تأكل أولادك، مهما كانت الأسباب!

أخوك محمود درويش

(باريس - 1987/2/24)

وداعاً، أنا مسافر فيّ!

- أخي محمود،

وداعـاً. أنا مسافرٌ فيّ. مُبحر جوفـاً في أوعيتي الدموية. سأبدأ رحلتي في الوريد الأجوف الأعلى. أقلع أفقياً في منتصف الليلة إلى الشريان الرئوي، ومن هناك أهبط قليلاً إلى الأذين الأيمن.

قـد تستهلك هذه المسافة ثلاثة شهور من الزمن. أتزوّد بعدها بالحبـر والـورق وأتابـع الرحلة باتجـاه الشريان التاجـي الأيسر، فالبطين الأيسر، آمـلاً أن أتمكن من قطع هذه الفراسخ المرعبة في مدة لا تتجـاوز الستة أشهر. في ذلك الوقـت يكون الجو مكفهراً عاصفاً وتكـون الملاحة خطرة بعض الشـيء، الأمر الذي يقتضي الإبطاء، بحيث لا تتجاوز السرعة سبعين عقدة في الثانية.

وإذا تيسـر لي ميناء ما للتـزود، فسأتابع الرحيـل عبر الشريان التاجـيّ الأيمـن باتجاه المحطـة الأخيـرة، على رصيـف البطين الأيمن. وسأكون قادراً علـى اجتياز هذه المسافة في غضون أربعة أشهر على وجه التقريب.

إن الرحلـة كلها قابلة للإنجاز في ثلاثة عشر شهراً، وإذا تحقق

لـي ذلك فسأكون قـد سجلت رقماً قياسياً دوليـاً جديداً، كاسراً به الرقم القياسي الأخير الذي سجله أخونا خليل حاوي.

وداعـاً. أنا مسافرٌ فيّ. صلِّ من أجل رحلة ميمونة لأخيك، إذا كانت لديك بقية من قدرة على الصلاة.

مرة أخـرى تصل رسالتـك وأنا جالس علـى حقائب السفر. وكانـت رحلة ثلجية ممرضة إلى براغ. ولأن الطائرة تأخرت بضع ساعـات عن موعد إقلاعها المحدد سلفـاً، فقد اضطررتُ للمبيت على مقاعد مطار فرانكفورت. لـم يكن ذلك في صالحي إطلاقاً. كانت آلام اللومبارغو هي المستفيد الوحيد الأول والأخير. وحين بلغـت براغ، كانت الثلوج وصدمات الكهرباء الساكنة في مقابض الأبواب وفي أكفّ الأصدقاء بانتظاري.

هل تذكر صدمـات الكهرباء الساكنة هذه التي أحدثك عنها؟ لعلك تذكر، فقد كابدناها معاً، في براغ أيضاً، منذ عام أو عامين.

أمـر طبيعـي أن يلتقـي الفلسطينيون في المطـارات. مع ذلك فقـد فوجئـت بصديقنـا الرسـام كامل بلاطـه في مقصـف مطار فرانكفـورت، وحدثني عن رحلة خائبة فـي وهم خائب، يسمونه «التضامن العربي» مع القضية الفلسطينية.

وكانت هناك مفاجأة أخرى، فحين فتحت عينيّ على ضجيج أجهـزة التنظيف في الفجر، كان يقف علـى مقربة مني شاب يبدو دون العشرين من العمر. تردد قليلاً ثم دنا بارتباك:

– هل أنت فلان؟

– أجل. أهلاً وسهلاً. ومن أين أنت.

– أنـا فلسطيني مُبعد من قطاع غزة. مبعد من اليمن. مبعد من السودان ومحتجز في الترانزيت هنا إلى أن يعثر الألمان على طائرة

تقلّني إلى بلد آخر، ليبعدني بدوره إلى ترانزيت آخر!

– لا عليك. هذا قدرنا.

– شكراً... لكنني أريد أن أبكي.

– ابكِ يا أخي ابكِ فستر تاح قليلاً.

وواصلنا الحديث إلى أن حان موعد سفري، ولا عمل لي الآن في أي ترانزيت يقيم ذلك الفتى.

أخي العزيز.

أتصور انني آكلك. وأتصور انك تأكلني. نجلس للغداء في مطعم «مكسيم» في الضاحية الأخيرة من مخيم برج البراجنة. تتناول بهدوء شريحة من كتفي اليسرى، تسبقها رشفة من نبيذ فرنسي جيد، وتليها رشفة أخرى أطول قليلاً.

وحين تعيد الكأس إلى المائدة، اقتطع لي مضغة صغيرة من عنقك (لا شهية لديّ اليوم ولن يسعفني النبيذ، لأنه يسبب لي مزيداً من الحموضة الكاوية في هذه المعدة اللعينة التي لم يسموها ببيت الداء عبثاً!).

صاحبي!
لم نكن شعراء المقابر يا صاحبي
هكذا ينبغي ان نموت
ينبغي ان نعيد إلى بارئ اللحم والحُلم
ما ظل من لحمنا
والذي ظل من حُلمنا
في البيوت/ المنافي
المنافي / البيوت
لم نكن.

هكذا.
لم نعد أمراء المنابر يا صاحبي
كاتم الصوت يأمرنا بالسكوت
صوته وحده الراوية
صمته وحدة القافية
هكذا،
فالوداع الوداع
أنذا ذاهب في بلاد دمي
راحلٌ في خلاياي
محبرتي مركبي
وقميصي شراع
أنذا ذاهب في جنوني...
متى نلتقي؟!

وإلى ان نلتقي بعد ثلاثة عشر شهراً في المقهى المقفر على شاطئ البنكرياس فإن دعابة صديقنا كاتب ياسين المرة ودعابتك الاستطرادية الأشد مرارة تظل هي هي الحقيقة التاريخية الأشد وضوحاً بين انهيارات الروح والجسد فلسطينياً وعربياً ودولياً (دع إسرائيل جانباً، تلك دعابة أخرى!).

لم يكن حزني في موسكو حزناً فردياً ولم يكن إرهاقك مسألة شخصية. أصارحك بما أحسسناه معاً ولم نجرؤ على المكاشفة به آنذاك. الإهانة. الإحساس بالإهانة لأننا ندعى لإنقاذ العالم والجنس البشري من كارثة نووية مؤجلة بينما نحن عاجزان عن إنقاذ كوخ من الصفيح وطفلة جائعة، من موت عاجل لا يأتينا مترجماً عن الإنجليزية أو العبرية بل يداهمنا مباشرة باللغة العربية الفصحى وباسم القومية العربية والإسلام. هنا طلعت سنبلة الحزن، هنا نبتت

وردة الإرهـاق. أليس كذلك؟ قلها صراحة فلن تؤذي مشاعر أحد سوانـا نحن الأهبلين المتجشمين مشاق السفر عبر الرمال والثلوج إلى وهم لا يساوي ثمن تذكرة السفر.

وليس هـذا كل شيء. فقد أنجزنا أمراً ما. أمـراً ضئيلاً. إلا أنه يليق بموازيـن القوى وأفضليـات الصراع الدولـي. وعليه فلست نادمـاً على شيء. لا أعزي نفسـي ولا أكابر. لست نادماً على سيء يـا صديقي وأستطيـع القول بملء فمي على مسامـع الغمر الساكن والبرية المهجورة تماماً: اللهم إنّي بلغت!! اللهم إنّي بلغت!!

أخي العزيز.

في أثنـاء رحلتي هذه التي ارتديت من أجلها المعطف المضاد للمطـر والحوادث لن يكون بيننا اتصـال بريدي. فلا جهاز تلفون فـي محبرتي ولا هوائيّ إرسال على قميصي ولا محطة استقبال في قلبي. لن أكون دباً قطبياً في نومه الموسمي. سأحاول أن أكون طائر الرعـد القادم من ذاتـه إلى ذاته مع مطلع الربيـع المتوقع. وسأدون تقلبات الطقس وأحوال الجـو الممتد من الجغرافيا إلى ارتعاشات القلـب ومن ارتعاشات القلب إلى سلم رختر. ويوم أعود قد تكون معـي قصيدة جديـدة، كتابة ما، محارة غير محلولـة الرموز أو أي شيء، آخر أنثره على البشر، في ضوء الشمس الكامل.

وداعـاً يا أخي، هأنذا أرفع قلوعي، هأنـذا أرفع قلوعي، هأنذا أشرع في السفر، وداعاً وإلى لقاء.

أخوك سميح القاسم

(حيفا - 1987/3/18)

شقاء يوم الثلاثاء

● عزيزي سميح،

لا نطوي هذه الصفحة إلا لنبدأ كتاباً جديداً. فإلى أين أنت ذاهب في ربيع شديد الغموض؟ لقد طال الشتاء... طال وتلكأ كزوجة تماطل في الطلاق. ولكنه حطَّ على قلبي، منذ البداية، امرأة ذكية تحمي فرحها وتحميني من حديث الزواج... إلى أن يُصبح مطلب الأغنية.

سافر فيك، كما يطيب لك السفر المضاد، لعلَّ في أقاليم القلب ما يُعوض عنك هزائم الجغرافيا وتبدُّل فصول ستجدها هناك، في القلب، أكثر فوضى وغموضاً مما هي عليه في الخارج.

أما كان في مقدور وردة مخبأة في داخلك أن تتفجر فجأة لتجتاح قارة من الجليد؟ وفيٍ وسع بقعة شمس داخلية أن ترقص أفاعي الغابات وتدجنها؟ وإلاّ، فمن أين استحلبنا هذا المطر على صحراء الساعات الميتة؟ من أين جاءنا سحر القوة لنتابع العزف، مائة سنة أخرى، على وتر بلا عود، وتر من هواء مالح، هواء صلب،

هواء يبني عليه الشعراء مقومات وجود لا يتماسك إلا بعناصر وهم يتحول، من فرط الحاجة إليه، إلى مادة... إلى معدن!

وفي المقابل، ألم ينشف القلب من نمطية الجمال، ومن سأم المسافات المفتوحة بالنرجس، المسافات الموصلة إلى وحشة النفس العطشى إلى ثرثرة يوم الثلاثاء، إلى صمت صديقين، وإلى كسل انتظار لا يأتي منه أحد!

هناك قد لا يأتي الشعر أبداً، لا يأتي من هذا التفرّع المتأمل إلا إذا كان استراحة بين عاصفتين.

الشعر - كما تعلم يا صاحبي - لا يأتي انتظار الشعر، أو من البحث عن الشعر، لأنه في حاجة إلى ما هو خارج هويته، في حاجة إلى ما يبدو أنه نقيضه على الرغم من أنه مصدره. لذا، نهرب من ذاتنا إلى زحام الخارج، ويصير في وسع ورقة مريضة، تسقط من شجرة، أن تحرّك الإيقاع الساكن. ويصير في وسع فتاة مجهولة تنتظر سيارة الباص وتقضم ساندويتشها أن تفتح باب القصيدة على مصراعيه، ليطل على عجوز يجلس على مقعد الحديقة، أو على أنقاض المخيم، ليرى إلى أين أوصلته أمه حين دربته على المشي منذ سبعين عاماً...

وأنت تعلم، يا صاحبي، أن منطقة الشعر تقع خارج منطقتها، وأن وقت الكتابة يقع خارج وقته...

وكثيراً ما اعتقد أن ما يميز شاعراً عن آخر هو مجرد حظ من ذكاء، صاغته العادة، بعثوره على لحظة الكتابة الملائمة لأن يعتصر في الوقت المناسب ما تقطر من أوان شاعريته التي لا يعرف دائماً متى يقاربها أو يعاشرها. فكم من مرة جاءنا الشعر ونحن نيام فاختفى. وكم من مرة جاءنا الشعر ونحن نلعب النرد، فضاع. وكم من مرة حسبنا فيها أننا ممتلئون بالشعر فهببنا للقطاف فإذا به

سراب وجفاف. وكم من مرة قادنا فيها الضجر إلى الورق الأبيض لنجد الشعر هدية من السماء...

من يعرف التوقيت الملائـم، إذاً، يجد أطراف القصيدة. فهل سيصـل بنا العلم إلى يـوم يبتكر فيه جهاز رصـد للحظة مرور تيار الشعـر السري فينا، كي لا تضيع سنوات مـن الشاعرية منا دون أن ندري، وكي يتجاوز عمر الشاعر الشعري الساعات والأيام؟

...ولكل واحد عاداته. لقـد راقبت نفسي مراراً دون أن أعثر علـى قانون عام للكتابة. ولكنني لاحظـت أنني لا اكتب إلا تحت تأثير التوتر العالي كما يقولون. لا أعني بهذا التوتر ارتفاع شحنات الحساسية إلى مستوى يقارب الانفجار، كما هو معروف، بل أعني أنـي لا أكتـب إلا في الزحام. وإذا انقطعت إلـى نفسي شهوراً من العزلـة فلا أفعل ذلك لأجد الشعر فـي العزلة، بل لأفرغ نفسي مما امتلأت به نفسي، ولاحصد ما زرعت.

ولقد حاولت كثيراً أن أتخلص من مشاغلي العامة غير الأدبية، فقدمـت استقالتي من عدة مهام إدارية لأتفرغ للشعر. وبعد عام من هـذا التفرغ وجدت روحي خالية من الشعر، وخالية من النثر أيضاً. لم أكتب شيئاً لأنني لم أنجز وقتي المُبْدَع. لم أسرق وقتاً للشعر من هذا الوقت المعطى والممنوح بلا حرمان وصراع. فماذا تفعل حين تقول لك امرأة الشعر دفعة واحدة: خذني!... ألا يأخذك الشلل؟

الخارج يجنـح نحو الداخل. والداخل يجنـح نحو الخارج، وعلـى سيـاج التقائهما تنمـو وردة السيـاج الشعريـة. وهكذا لا يكونـان إلا مجازاً ليرقص الشعر رقصتـه. اما إذا اتضحت المسافة بينهمـا فـلا تتضح إلا لتدل على غيـاب شاعرية مؤهلـة لأن يبذلها «الخـارج» تـارة، ولأن يُعتمهـا «الداخـل» تارة أخـرى. وهكذا

استدرجت الوظيفة العامة بعض الشعراء إلى الاستقالة من الشعر، لا من الوظيفة، لأن التوازن بين الداخل والخارج لم يكن قلقاً أو متوتراً منذ البداية...

ما هذا الشقاء، يا عزيزي، وما هذا الهناء!

ما هذه النعمة، وما هذه النقمة!!

و... «لا أحد يكتب ليكتب» هي صياغة نقيضها: «لا أحد يكتب الا ليكتب».

تلك المفارقة تتضح أيضاً في النثر الذي تكمل فيه القصيدة شاعريتها، والذي يجد في الشعر نثره، شبهاً لا يُرى بوضوح، شبهاً مؤولاً للعلاقة المتداخلة بين الداخل والخارج.

هل تكتب إذا لم تكن مضطراً إلى الكتابة؟

لا ألقي بهذا السؤال على الأغنية، لأن الروح ليست مطالبة بالنشيج من أحد. في تنشج لتصفي روحها من احتقان يسبُبه الحزن أو الفرح، ولتحفظ طبيعتها مما يخدشها...

اما النثر، فلا نكتبه إلا لأننا التزمنا بذلك. لأن الصفحة محجوزة، ولأن المطبعة تنتظر، ولأننا على موعد مع أحد. فليس من الهواية في شيء أن نكتب مقالاً ليس للنشر. وهكذا يكون النشر شرط كتابة النثر. وهذه الرسائل التي نتبادلها، يا عزيزي، هل كنا سنواصل كتابتها لو لم نزج بأنفسنا في انضباط العلاقة مع القارئ ومع المطبعة؟ قد لا تحتاج أغنية إلى قارئ غير كاتبها. ولكن القارئ هو غاية المقال. وهكذا فنحن لا نكتب لنكتب، بل لنفي بالتزام. ولكن من يرغمنا من ذلك؟ لا أحد غير حريتنا في أن نكتب. وما دمنا نكتب فإننا نعبرّ عن طبيعة نشاط نمارسه بشروطه

التـي لا تستحضر دائماً أهدافها المباشرة في عملية الكتابة. وهكذا فنحن نكتب لكي نكتب؟ لكي نعبر عن طبيعتها بأدواتها.

كـم أمقـت يوم الثلاثـاء، لا لأنه يـوم لا معنى لـه ولا منزلة له بيـن الأيـام، تماماً كالساعـة الثالثة بعد الظهر، بل لأنـه يوم كتابتي الأسبوعيـة، وموعد تسليـم مقالـي الأسبوعي. أصحـو متعباً يوم الثلاثـاء. ألعـن يوم الثلاثاء، لأنه يوم الواجـب. هل هو الخوف من المسؤوليـة ومن القارئ المجهول، القـارئ الذي لا يرحم؟ أم هو الحرص الدائم على توازن العلاقة المتوترة بين الداخل والخارج؟

فما يصلـح فضحه من داخل، فـي القصيدة، من أسـرار الضعف البشري لا يصلح ائتمان النثر عليه. لأن النثر بيان عام يتعاطى مع سؤال عـام، مع كيفية دخول الخارج إلى الداخـل وخروج الخارج مضرجاً بشظايا مرآة الداخل... دون أن تكون العملية قريبة من بيان شخصي...

وهذا التمييز بيـن بيانين هو مجال هذه الرسائل، مجال يتعايش فيه الذاتي مع الموضوعي، ويتحرك فيه الشخصي مع العام، ويتداخل فيه الخـارج والداخل. ولكن حوار الداخل المـؤوّل إلى وطن، مع الخارج المؤوّل إلى منفى هو الجانب الذي اغتبطت له الناس.

فهل أدت هذه الرسائل غرضاً ما؟

ليـس هـذا السـؤال سؤالنا. مـا يهمنا هـو أننا حاولنـا ـ على المستـوى الشخصـي ـ أن نتابع حواراً بدأ مـع صبانا وشبابنا، وقد يصلح لأن يكون شهادة متواضعة على حياة جيلنا...

ومـا يهمنا أيضـاً هو أننا حاولنـا أن نكسر جمـود النظرة إلى العلاقـة بين الداخل والخـارج، دون أن نخشى القـول إن المنفى ليس دائمـاً في المنفى، وإن الوطن ليس دائمـاً في الوطن. فإن في وطننا من المنافي ما يُضعـف نعته بالجنة المطلقة. وفي المنفى من

طرائـق إبداع ما يخفف نعته بالجحيم المطلق. وإن سكان الخارج قد استقر ماضيهم ومستقبلهم في الداخل، ولا يعترفون بأن حاضر الحاضـر أكثر من واقعة مأساوية على جسـر الوصول. وإن سكان الداخـل لا يكتملـون إلا بحضـور نصفهم الغائـب، وطن واحد، شعب واحد، وحرية واحدة.

والآن... الآن نرتـاح قليلاً. فليس في أقاليم قلبك الذي ترحل إليه بريد جوي، سأدعك مع قلبك. لقد سافرت كثيراً إلى الخارج. ومـن حقك أن تجلـس إلى قلبك بعضـ الأيـام. ولكنني، وآلاف القـراء، سنشتاق إلـى رسائلك، فـلا تتأخر طويـلاً. وسنحتفل مع قصيدتك الجديدة الطالعة، كالعادة، من قلبك...

ومنـذ الآن، أحذرك من خداع القلب. فالقلوب ليست مجرد عضلات قوية مكرسة لخدمـة أصحابها. إنها كائنات مشاغبة، قد تغـدر وقد تخون وقـد تعُض. لقد عضني قلبـي ذات يوم، وخانني مـراراً، وهدَّني وهدَّني، غير أنني سلطت عليه إرادتي: سأعيش أيها القلب ـ الكلب!

فاحـذر قلبـك. لا تدلله أكثر ممـا ينبغي. ولا تهملـه أكثر مما يستحـق، فهو جهاز قوي، شقيّ، وسريع العطب. قد يحتمل ضربة صاروخ. وقد يتجعلك بزهرة ليلك.

وإلى أن تعيد قلبك إلى موضعه، وإلى أن تعود من زيارة قلبك، أتمنى لك كل الخير، وكل الشعر...

أخوك محمود دوريش

(باريس - 1987/3/24)

الحزمة
الثالثة

منذ البداية

● عزيزي سميح القاسم،

ليس حدثاً عادياً، في ظروف غير عادية، أن تنجح أنت وإخوانك الكتاب في تأسيس أول اتحاد للكتاب العرب في الوطن المحتل، بعد أربعين عاماً من الاحتلال.

أربعون عاماً؟ لا تنظر إلى الوراء بحزن... لا تنظر إلى الوراء إلا لتعرف إلى أين وصلت بنا الطريق. للأعداء حساباتهم ولنا حسابنا. إن وراءنا أربعين عاماً من الاحتلال ومن مقاومة الاحتلال، أربعين عاماً من محاولة تهويد الأرض، واللغة، والروح... أربعين عاماً من الصراع على البقاء أسفر، على المستوى الثقافي، عن ولادة أول اتحاد للكتّاب الذين كانوا مرشحين للالتحاق بما تحدده الدبابة من حدود للهزيمة النفسية والأدبية... فلم يهزموا...

ترى، هل ترى كيف لا تقاس الظواهر كلها بالمقياس إياه. ففي وسع القصيدة أن تنجو من قصف الطائرات، دون أن تتمكن من إسقاطها، ولكنها تتابع نُموَّها التدريجي في وجدان شعب يحوّلها إلى طاقة.

فمن هـم الباكون على مصائرهم في هذه الذكرى... ذكرى انتصار الدبابة على المحراث الخشبي؟ من هم الذين ينظرون إلى الأمـام بخوف، دون أن تتمكن القوة العسكرية العمياء من إبداع نتاجهـا الأدبي الموازي، ودون حاجة ماسة إلـى إجراء المقارنة معنـا، نحن الذيـن صحونا ذات يـوم على خرابنـا المفاجئ، لا نملك من الدنيا غيـر إعادة ترميم ذاتنا من أدوات تشبه الهواء. لا كتـاب لنا، ولا حقل، ولا ثور، ولا فضـاء، أين كنا، وأين صارت ثقافة الاحتلال؟

هـل تتذكر البداية؟ يوم أمسكـتَ بالطريق وصحت: أبداً على هذا الطريق! ويوم هتفتُ بجلاد الهوية: سجل، أنا عربي! كنا ندافع عـن البسيط وعن السؤال الأول: نكون أو لا نكون، حين أدرجونا فـي الإدراك العملي، لا النظري، لـدور الشعر، دون مراجع ودون تجارب، ودون أن نتساءل كما نتساءل الآن: هل كان ذلك الصراخ شعراً؟ لقـد زُج بنا في الفاعلية، واخترنا ـ لنبقى ـ مهمة الصراخ في برية الزمن، عرايا من الأمل الملموس، لا نملك إلا الصوت.

هـل تتذكر البدايـة، ونحن ذاهبون إلـى أي طريق عدا الطريق الـذي يلحقنا بقيصر، أيام كان الحكـم العسكري هو الناقد الأدبي الـذي يحدد مـا يصلح للصراع وما لا يصلح مـن شعر، فأدركنا أن الشعـر ليس هو البراءة كمـا يقول الفيلسـوف الألماني. بل هو ما نتسلـح به مـن طاقة في معركـة البقاء الوطنـي والإنساني، فكانت السجون معاهدنـا الأولى التي تعلمنا فيها دروس الحرية الأولى، واخترنا من تاريخنا ما يشذ عن قاعدة السلطان. واخترنا من تاريخ غيرنـا ما ينفـع إخـراج سؤالنا البسيط مـن العزلة، ليكـون الغصن المقطوع من شجرة الأمة سنديانة الأكثرية الإنسانية.

لا أحـد يعرفنـا، يا فتـى، لا أحـد يسمعنا غيـر السجان حين نضـرب موعداً على الشاطـئ، فيمنعنا البوليس من اللقـاء، إلى أن صـار السجن مكبر الصـوت الأول الذي رفـع الأذان الصغير إلى الملايين التي عرّفتها الهزيمة على أطرافها المقطوعة في الداخل.

كان اسمنا الداخل، ما أشد فتنة هذا الاسم، لقد كبر الاحتلال، يا فتـى، وتمدد. ولكنه لـم يخنق صوت الأصـوات الجماعية في القصيـدة كمـا كان متبعـاً أو متوقعاً، بل كبـرت القصيدة وامتدت لتغطي الاحتلال، ولتحتل الاحتلال.

فهـل بلغ الاحتلال «سن الرشـد»؟ لا يبلغ الاحتلال إلا سن الرشد الحيواني: أربعين عاماً من القتل والطيش والانقسام علينا: ماذا نفعل بهم؟ ماذا نصنع بهؤلاء الذين يتكاثرون ويصمدون... ويسبقوننـا إلى الغد؟ لم نصدق أنهـم يستطيعون الخلاف علينا لو وجدونـا ميتين، فالعربي الجيد هو العربي الميت. هل تتذكر البدايـة، يوم حـددوا لنا مهمة واحدة هـي أن نكون «سقاء ماء، وحطابيـن» ليحميهـم الوعي الشريـد من هذا النمـو، دون أن ينتبهـوا إلى أن باستطاعـة الحطاب أن يغنـي للفأس والشجرة، وإلـى أن الحطـاب الذي صودرت أشجـاره سيُعْمِـلُ فأسه في جذع الاحتلال!

والاحتـلال هـو الاحتـلال، حتـى لـو زيّنـوه بوهـم العودة التلمودي، «عودة شعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب». اما زالوا، يا فتى، يسكرون من هذه الكأس، ويفيقون على صراخ طفل عربي يولد، ليدفع بكهانا إلى المزيد من الجنون، وليفضح نفاق الليبرالي الذي يزود كهانا بالسلاح ليعلن الخلف اللفظي معه من أجل صيانة الصورة في مرآة الغرب؟

ليست هذه هي المسألة. لا أرض اللبن والعسل خالية، ولا سكانها أشباح. ولكن القوة العسكرية عاجزة عن فرض السلام الصهيوني على شعب من الرهائن. هل تتذكر البداية؟ منذ البداية كان الصراع محتدماً على الجبهة الثقافية بين مشروع التهويد، والاستلاب، والعدمية، والتغريب... وبين وعي الهوية والحرية، ومنذ البداية، انتصر المتنبي وأبو فراس الحمداني، فينا، على حاييم نحمان بياليك وجده السموأل. ومنذ البداية، انتصر النحل في دمنا على بعوض المستنقعات التي جففتها أناشيدهم الركيكة التي حاولت أن تربينا على حب استعبادنا، فلم نقبل إلا العكس. إن عكس ما فيهم هو شرط المحافظة على هويتنا: عرب، ولا نخجل. عرب، ولا نرحل...

فهل في مقدورنا، الآن، أن نقول دون أن نهاب الوقوع في خطأ المبالغة إن ذلك البقاء الأول هو الذي حمى الوطن من التلاشي. وإن الداخل هو القوة المادية للهوية الوطنية الثقافية. وإن للداخل اسماً يفوق السحر، لأن الداخل هو الذي وفر للظاهرة الفلسطينية قوة المعجزة.

إن أربعين عاماً من الاحتلال، ومن مقاومة الاحتلال بالبقاء، وبالتعبير عن البقاء بارتداء جلد الأرض وأكمام الشجر، بالزواج والتناسل، بالمظاهرة والتفاؤل، بالقصة والمقالة والقصيدة، بالمنشور والجريدة، بحراسة العلاقة بين الماضي والمستقبل - لا تجعلنا ننظر إلى الوراء لنبكي، بقدر ما ننظر إلى الحاضر لنرى إلى أي مدى يدخل المنتصر العسكري في هزمته الإنسانية والثقافية، ومن أي ثقبٍ نطل على الأفق، مدججين بكامل عدة الحضور، شعباً يُستعصى على الإبادة والتغييب، شعباً يتوحد في وعي ذاته

وفـي أداة التعبير عـن إرادته، وينشر رسالته علـى أكثر من مستوى إنسانـي ليس أبسطها إنه قادر علـى أن يبدع أشكال حياته الثقافية، في شروط لم تعـد فيها الثقافة تعبيراً عن قوة الحياة فيه، بل صارت فيه الثقافة أحد شروط قوة هذه الحياة.

هـل تتذكر البداية؟ منذ البداية لم يكـن نشاطنا الثقافي يحاور نشاطنـا العملي فقط، يعبر عنه أو يستكملـه، بل كانت الكلمة هي الفعـل، لا حدود بينهما، ولا حدود بيـن الجسد واللغة، وذلك ما جعـل الأغنية وطناً وما جعـل الوطن أغنية. ومنـذ البداية، لم يكن نشاطنا الأدبي فرديـاً إلا في المظهر. هو النشيد الواحد نكتبه معاً، سطراً سطراً، هو النشيد الجماعي الذي لا يزال مفتوحاً على البداية وعلى أفق الحرية.

لذلـك، فإن اتحاد كتابنا قائم، معنوياً، منذ البداية ولكن إعلان تأسيسـه العملـي، الآن، هو تتويـج لحاجتنا الوطنيـة، في الداخل والخارج، إلى بناء المؤسسة، وإلى وحدة التمثيل الوطني على أكثر مـن مستوى. إنه شكل مـن أشكال تبلور الكيانيـة الفلسطينية بعد أربعيـن عاماً من الاحتلال ومقاومـة الاحتلال الثقافي، وهو إعلان عـن انتصار ثقافة الضحية على ما تعرضت له، طيلة عمر الاحتلال، من حروب الإلغاء والإبادة... وإعلان عن هزيمة الثقافة الصهيونية، لا فـي معركتهـا فقط مع ثقافتنـا التي تتكون من جـدل العلاقة بين الأرض والشعب والتاريخ والانفتاح الإنساني، مقابل ثقافة الجيتو الروحيـة والزمنية العاجزة عن التكون في شروط الاحتلال والتنافر الذاتـي والانقطاع عـن مصادرها، بل هو إعـلان أيضاً عن هشاشة تلـك الثقافة في عملية توحيد حامليها على أسس سلبية هي خوفهم من الاندماج في ثقافة المنطقة.

إنها دلالـة رائعة أن يتشكل اتحاد كتابنـا في الداخل في مناخ نجاحنا في توحيد صفوفنا في الخارج. لقد استلهمنا من مداخلاتكم المثمرة قوة للتغلب على ما كان يفرقنا من هامش السياسي اليومي. ومن المفيـد القول إن جدل العلاقة بين الخـارج والداخل قد وفر لكـم أيضاً فرصة التأثر الايجابي بما يقدمـه نشاطنا من إيجابية. ها نحن نتوحد على الجبهتين. ها نحن نسير على إيقاع واحد: شعب واحد، وطن واحد، وثقافـة مقاومة واحدة. فلا أدري إذا كان من اللائـق أن أعتذر لكم عن تأخري في إرسال هذه التهنئة، لأن المرء لا يهنيء نفسه.

ولكننـي، باسـم إخوتك الكتاب فـي الخـارج، أهنئك بثقة زملائـك الغالية، بانتخابك رئيساً لاتحـاد الكتاب بالإجماع، ايها السيـد الرئيس منذ الآن وإلى أن يتمكن الفلسطينيون من العيش في مجتمعهـم الواحد، فحينئذ سأقدم لك وستقدم لي شكوى لا تخلو مـن طرافة، لننصـرف معاً إلى كتابة مذكـرات البداية، على أرصفة الوطـن، أو الرحيل الحـر إلى أي مكان لا يلاحقنـا بسياط الغربة، وتحت شبابيك الغناء الحر في ليل لا يطرد الغرباء.

وإلـى أن يتـم ذلـك، أتمنى لـك النجاح في موقعـك الوطني والثقافـي الجديد، وأتمنى لك المقدرة علـى التعايش مع ما يُنغص مناخ هذا الإنجاز من حديـث انشقاق لا مبرر له. فقد استمعنا إلى الأصـوات الداعية إلى التشكيك بشرعية الاتحاد، واستمعنا إلى ما استمعتم إليه، ذات يوم، عندنا.

فهل من حقنا التدخل الأخوي في شؤونكم، لنناشدكم كلكم التخلص مـن آفاتنا؟ ففي الخارج، خـارج داخلكم، أكثر من دولة عربية تطلب الوصاية. وفـي الداخل، داخل خارجنا، دولة عدوان ما

واحدة. فلمـاذا الخلاف على وليد منذور لتوحيـد العائلة؟ ولماذا يستعير البعض من سلبياتنا ما يغريه بأن يفرض دكتاتورية الأقلية على الأغلبية، وهي صنـف من أصناف الديمقراطية المقلوبة التي يدين بها العالم العربي إلى ما آل إليه من لا معقول... واختلاط فصول!!

واسمـح لـي، وأنا أشد علـى يديك، أن أدعـوك إلى ترك باب الاتحاد مفتوحـاً على مصراعيه لكل من يخالفكم الرأي والعقيدة، فلسنـا فـي حاجـة إلى ترف هـذا الخـلاف الذي لا يبـرر الدعوة المتسرعـة إلى إنشاء اتحاد كُتّاب بديـل، وإلى مفاوضات توحيد، ومؤتمر جديد. أما زال في وسع المحتل أن يحتل المزيد من قدرتنا على الفرح بالوليد الجديد؟ أما زال في وسع المحتل أن يُحيل أزمته علينا بحصان طروادة من هنا، وحمار مسادة من هناك؟

لا، لا...

أخوك محمود درويش

(باريس - 1987/10/5)

قبلتي الحجـر!

● أخي محمود،

وهكـذا فأنت ترى أننـا دائماً نعود. نُقلع فـي جهات الأرض والجسـد، نغيب في خبايا الروح، ونعـود. دائماً نعود، إلى ملمس العينين، إلـى بصر القلب وبصيرة الأصابـع، إلى هنا، حيث يكمن الحجر النظيف بجوار شجيرة القنـدول المزدهرة شتاءً في أعقاب شتـاء. نعود إلى الولادات المنتظرة وغيـر المنتظرة في فوضى هذا الزمن الجارح والمدهش في آن.

كان أن انقطـع بريدنا شهوراً ثقيلـة، وضجر سُعاة البريد الذي اعتادوا فضَّ رسائلنا وقراءتها قبلنا.

ومـاذا أقول لـك يا أبا سليم عن رحلة الشرايـن التي غَيِّبتْني في دمي عاماً وأكثر؟ كيف أصف خيبتي العائدة بلا يواقيت وبلا مرجان؟

لم أنجز سربيتي الجديدة التي بدأتها، كما أنني لم أجد العزاء في أصداف الكلام الجميلة التي يتسلى بها المرء في موانئ راحته القليلة.

حين عدت إلى مكتبي فوجئت بأكداس الرسائل المنتظرة بلا جواب. ولفتت قلبي من بينها رسالتك ورسالة صديقنا وشقيقنا الكبير أبي توفيق نزار قباني. وكانت جريدتنا «الاتحاد»: قد نشرت رسالتك إليّ وإلى أخوتك في اتحاد الكتاب العرب، كما نشرت رسالة حبيبنا نزار المفعمة بالحرارة واللوعة والحب لفتيان الحجارة الذين يصفهم بأنهم السلالة الفلسطينية التي خلعت ملوك الشعر واستلمت زمام السلطة.

وكما تلاحظ يا محمود فهذا هو نزار الطيب، يعود إلى مهمته «وبراءة الأطفال في عينيه»، ونحن نعلم أن مهمته تنسجم مع منصبه، ناطقاً رسمياً باسم الوجدان العام.

لكن ماذا بالنسبة لنا؟

من جهتي، أُصارحك بأنني استقلت من وظيفة الناطق باسم الحاضر، فلشد ما أوجعتني هذه الوظيفة بخيباتها المتلاحقة. ولا أتعامل اليوم مع الحاضر إلا من خلال المستقبل. وهنا لا أستطيع إلا أن أُجاهرك بقلقي ومخاوفي.

أرى أن انتفاضة فتيان الحجارة أو «الشبان الأحرار» كما أحب أن أسميهم، هي الحدث الأكبر أهمية وتأثيراً في التاريخ العربي المعاصر منذ ثورة «الضباط الأحرار» في مصر الشقيقة... ولنستعد الأحداث قليلاً وبكثافة:

ثورة الضباط الأحرار... آلت إلى أنور السادات.

انتصار الجندي العربي على نفسه وعلى عدوه في حرب رمضان آلت إلى «كامب ديفيد».

سيناء العزيزة على قلوبنا... قويضت بفلسطين والجولان ولبنان، وكلها فِلَذ من الوطن تستحق أن تكون هي الأخرى عزيزة

على قلوبنا.

ومـن إضراب الستة أشهـر «ثـورة 1936» انتهينا إلى حرب الأيام الستة!

لماذا؟

لأن السياسـي ذهب دائماً إلى الشعر (والشعر الرديء حتماً!) فحيـن كان السياسي يروج لقصيدة «خلّـي السيف يقول»... كان يـدرك أن السيف فـي يد العدو وليس في يده هـو، وهكذا سقط سيـف القصيدة وسقطت قصيدة السيف، ولم يبق لنا سوى السيف الحقيقـي المصلـت على رقابنـا، سيـف الاستعمـار والصهيونية والاحتلال والرجعية والتخلف.

واليـوم؟ نذهب نحـن الشعراء إلـى السياسـة فنطالب حماية منجزات الحجـر الفلسطيني، وأخشى أن يذهـب السياسيون مرة أخرى إلى الشعر ويكتفوا بالغناء «خل الحجر يقول».

صحيـح يـا محمـو د إن القيـادات تبدلت وتباينـت، صحيح إن هنـاك فرقاً جوهرياً بيـن قيادات الأمس وقيـادات اليوم، بيد إن القيادة الفلسطينية ليسـت وحدها على الساحة والقرار الفلسطيني «المستقل» يظل محكوماً بعوامل «قومية المعركة ودولية الصراع» وهنـا يكمن الخطر فلا يجوز لنا التغافل عـن الأنظمة والقوى التي اختارت قصيدة أخرى مطلعها «خلي الدولار يقول».

كم أنا سعيد وممتلئ غبطة وتفاؤلاً بوردتنا الطالعة من حجر... وفي الوقت نفسه فإنني خائف على هذه الوردة.

وتعال نحاول النظر إلى حجرنا هذا من زاوية أخرى:

إن مائتـي مليون عربي، تعمر بهم قارة شاسعة واسعة لا حدود لثرواتها وخيراتها يجـدون كرامتهم المفقودة في حجر عار تقذفه

راحة فتى فلسطيني يكاد يكون عارياً في مخيم يكاد يكون عارياً منذ أربعين سنة.

لماذا؟

لماذا لا يكون العكس المنطقي هو الصحيح المعيش؟

لماذا لا تكون هذه الملايين العربية هي التي تعيد إلى الفتى الفلسطيني كرامته المغتصبة؟

أإلى هذا الدرك من الفقر السياسي والأخلاقي تردت أمتنا التي كانت عظيمة؟

ألا تستطيع هذه الملايين استرداد كرامتها ـ كرامتنا بنفسها؟

اما من حجارة في الوطن العربي؟

قسماً بكل ما نحب ونقدس، لو أن هذه الأمة قررت مقاطعة الكوكاكولا الأمريكية لأسقطت عالماً وأقامت عالماً.

لكن ما العمل ولسنا بمسيطرين؟

وأعوذ بالله من السيطرة بمعناها الرائج. إنما حضرتني اللفظة بحضور بيتين من الشعر أنشدهما قبل عقود من الزمن الشاعر اللبناني الفلسطيني وديع البستاني.

آنذاك رأى وديع البستاني غرفة الوكالة اليهودية في قصر الحكومة البريطانية فتمتم ملوعاً:

أرى الوطن القومي يعلو بناؤه
أرى غرفة في القصر تحجبه قصرا
فذكّرهمو ذكرى ولست مسيطراً
مخافة يومٍ فيه لا تنفع الذكرى

لم يكن وديـع البستاني مسيطراً. وما نحن بمسيطرين... وقد ذكّر وديع البستانـي، وها نحن نذكّر. لم تنفع الذكرى آنذاك. فهل تنفع اليوم؟

أرجو ذلك ا أخي الحبيب.

أرجو وأصلي... قِبلتي الحجر.

أخوك سميح القاسم

(القدس ـ 1988/2/8)

كرم نابوت، ومهنة الورد

● عزيزي سميح،

حسناً، ها أنت تعود. سأعترف لك الآن بأنني كنت في حاجة ملحـة إلى هذه العودة من قبـل... في الصيف المرّ الذي لم ينقذني فيه سوى الليلـك ومن وحشة جديدة في الغربة القديمة. كانت في صمتي شهية كلام عن حيرة، وعن اختفاء في قلب لا يفصح عما فيه خـارج تقاليده. وأنا أيضاً أضعت كتابي الجديد الذي لم أكتب منه غيـر العنوان. وأضعتُ أغاني نشيج كان انبثاقها الحر في حاجة إلى الاعتراف بيأس الشوكة من الوردة.

مدى حديدياً كان...

ولكـن شجـرة مديدة تنشر عـراء أغصانها وظلالهـا المثقوبة علـى الساحة كانت تلهيني في كل غروب. إذ كان يحط عليها، في البدايـة، طائر وحيـد، ثم يطير ليعود بصحبة طيـور أخرى، تتوزع على الغصون العارية، يم يحلّق طائر آخر ليصطحب طيوراً أخرى، إلـى أن تمتلئ الشجرة العارية بآلاف الطيور التي يظنها عابر السبيل

أوراق الشجرة. لقد ارتدت الأغصان عصافيرها... وتدلت فاكهة من ريشٍ ملون. وحين تغيب الشمس تماماً يخرج الطائر الأول كسهم منٍ أعلى غصن على الشجرة، لتتبعه أسراب العصافير كلها. وفي لحظة واحدة تخلو الشجرة من أوراقها الحية، من طيورها، وتعود إلى عرائها الأول... وحيدة في ساحة كبيرة. هل كانت محطة هجرة؟ وفي الغروب التالي يتوالى المشهد: تمتلئ الشجرة وتفرغ، ترتدي الطيور... وتعرى.

في قلب كل واحد منا شجرة عارية في ساحة خالية... شجرة تنتظر طائراً لا يحط عليها إلا ليرحل عنها.

والمدى، حديدياً كان...

ولم أقل لك، من قبل، إلا هذا المعنى: الذاهب إلى الكتابة لا يكتب. فالعزلة التي يحتاج إليها هذا المخاض الأبدي ليست هي بعزلة الوقت ولا المكان. النهر ليس في النهر دائماً. هو فينا. ولكن ثمة مفارقة أخرى هي: أن القلب ليس في القلب، فقد تجده هناك... هناك في الشارع، أو على رصيف قطار. وقد تجده دون أن تبحث عنه، وقد تجده دون أن تلحق به، وهو يمشي أمامك، يبتعد عنك ليلحق بصدى إيقاع بعيد.

ولأمر ما، نسافر لنندم...

ولأمر ما، نعود لنندم...

ولا فكاك من الحاضر مهما استقلت منه. فهو الطريق الوحيد، مهما ضاق واتسعت، إلى نقطة المستقبل. انظر حماقة أولئك الذين أرادوا أن يقنعونا، بعدما اقنعوا أنفسهم، بأنهم انتقلوا بقفزة واحدة من الماضي السحيق إلى المستقبل الخالد، من الأزل إلى الأبد، كأنهم أرواح طيبة أو شريرة منعتقة من قانون الزمن، من

دون أن يلاحظوا أن مـا كان مستقبلاً، قبل أربعين عاماً، قد تحوّل إلى ماض.

قـد يكون صحيحاً، من أجل لياقة الحـوار، أن تقول الحكمة فـي لحظة مـن اللحظات: بقدر ما نقلل مـن الحديث عن الماضي نخدم المستقبل. وبقـدر ما نقلل من الحديث عن المستقبل نخدم الحاضر. لا لشـيء إلا لنوضح: أن حديث الماضي يحرك الجراح هنـا. وأن حديـث المستقبـل يثير الخـوف هنـاك. ولا لشيء إلا لمعالجة السخريـة الناشئة عن اشتباك بين الضحية والجلاد اشتباكاً بلـغ حدّ العناق الدموي ـ في لحظة الحاضر التي يحاول الجلاد أن يركلها إلى الماضي. وتحاول الضحية أن تركلها إلى المستقبل.

ولكن الحاضر هو الحاضر لا فكاك منه لأنه جسر الزمن، ولا فرار من وجهة سيره التي لم يحدث، مرة، أن اندفعت نحو الماضي، علـى الرغم مما يشهده واقع الحاضر من تقلبات وانتكاسات. وها نحـن نصعد منه، ومعه، إلى ما تؤدي إليـه وجهته في تفاعل إرادتنا معها. ها هو المستقبل يزودنا بصورة الملموسة، ونحن ذاهبون إليه بكل ما أوتينا من عناصر قوة البساطة التي أربكت المعقد من أسئلتنا ومن أسلحة الأعداء. ها هي الطرق إلى الوطن تصبُ كلها في وطن الطريق المؤدي إلى مستقبلنا الحر، المولود من الحاضر...

بحجر، بحجر...

«ومن حجـر سننشيء دولـة العشاق ـ هكذا قـال لي الإيقاع قبـل سبع سنين، دون أن أعني هذه الفطـرة، هذه السليقة، ولا هذا السلاح.

ألا تمتلـئ أغصان شجرتنا العالية العاريـة بملايين من عصافير تأتـي لا لترحـل، بل لترتديهـا الشجرة في هـذا الربيـع المبكر أو

المتأخـر، كأنها تنبثق من كل حبة رمل، لتختـم على مرحلة العسر والعقم بولادة العمر كله؟

نعـم. إن المعاني التـي يبذرها هذا الحجر، القـادرة على كل تأويـل وترتيل وتنزيل، في تحوله من تـراب إلى سنونو، منا ماء إلى نار، من هواء إلى كلمة، هي أكثر أيام حياتنا موهبة وإشراقاً.

كيـف تبزغ البطولة مـن المأساة، لا كيف تبـزغ الجريمة من المأسـاة ـ هو الفارق الذي يقـف على المنعطفات ليدل على تآخي شعـب مع الحريـة. وليـدل أيضاً على عبـث الخلط بيـن الخرافة والواقع.

هل كان في وسع يزهار سميلانسكي، قبل انبلاج هذا الحجر، أن يقتبس من «سفر الملوك» حكاية نابوت صاحب الكرم في مرج بـن عامر، الذي حاول الملك آخاب أن يستولي على كرمه بالفضة فرفضـ، ثم حاول أن يستولي عليه بـأن يبادله أرضاً بأرض فرفض، إلـى أن حلـت زوجة الملـك إيزابيـل المشكلة بأن كتبـت رسائل باسـم زوجها إلى الشيوخ والإشراف تحرضهم على اتهام نابوت، صاحب الكرم، بالتجديف على الله وعلى الشعب. فجاؤوا بشهود الـزور «وأخرجوه خارج المدينة ورجمـوه بالحجارة حتى مات. ولمـا سمعت إيزابيل بأن نابوت قد مات، قالت لآخاب الملك: قم لتـرث كرم نابوت اليزراعيلي الذي أبـى أن يعطيك إياه بفضة، لأن نابوت ليس حياً بل هو ميت»...

يعلق سميلانسكي على الحكاية: «تلك الأرض التي نسميها «يهودا والسامرة» أو «المناطق» أو «المناطق المحتلة» ليست إلا كرم نابوت التي استولت عليه إيزابيل والملك بالقوة وبالخديعة. إن «يهـودا والسامرة» ليس اسمـاً توراتياً. إنه اسم مضاد للتوراة.

إن «كـرم نابـوت» هو الاسـم التوراتـي الحقيقـي والصائب».
ويضيف «والآن، لا نطلب من الواقعين تحت المطالبة بالانصياع
وبيـن توقعنا أن المحتل سيتنـازل عن الحرية ويخضع للاحتلال ـ
هناك شعب حي، حي حتـى لو سميناه «عربياً». والإنسان الحي
مخلوق للحرية»...

شعب حي مخلوق للحرية...

وأنـت على حـق، يا عزيزي، فـي أن تنزف صرختـك: أما من
حجـرة في الوطن العربي؟ ولكن، إيـاك أن تصدق الشكل الذي يتم
فيـه تقاسم الوظائف بين هذه العواطـف. نعم، لقد وجدت الملايين
العربية تعويضاً عن كرامتها في حجر. ومن قبو سجنها الكبير صفقت
لنمـوذج البطل العائد إليها في طفل فلسطيني يُشهر آمالها. أما بعض
الكتبة، فلا يقرأ من آيات هذا الحجر غير ما يبرر التصاق جبهته بحذاء
الحاكـم، كأن يضع «الخارج كله» فـي صف واحد نقيضاً للداخل:
الخارج كله شر مطلق. والداخل كله خير مطلق ـ وكفى الله المؤمنين
شر القتال. بهذه الطريقة يبرئـون ذممهم ويريحون ضمائرهم. وأما
بعضهـم فقد أدمن شتم الذات لسهولـة دوران هذه الاسطوانة ـ على
وتيـرة جاهزة، فـي ثنائية تقليدية. وكأن الخـارج كله ظاهرة واحدة
لا تنـوع فيها ولا تناقض. وأما البعض الآخـر، فلا تصدق أنه مفتون
بإبداع أساليب جديدة فـي «النقد الذاتي»، (هل يعني أحداً أن تعلن
المومـس عن مهنتها!): إن ما يعنيه هو التخصيص المغطى بالتعميم.
إن مـا يعنيه هو تفتيت وحدة الشعـب الفلسطيني، وتحقيق التماهي
بيـن الشعـب العربي والحاكم. «كلنـا سواسية فـي الخارج» هكذا
يقولون، ليحرروا الحاكـم العربي من مسؤوليته تجاه ذلك الداخل،
البعيد، النبوي، الوحيد، المتروك لمصيره الموحش...

ليـت الحاكم العربـي يتـرك الداخل وشأنـه، ليتـه لا يشارك الإسرائيلي الخوف من استقلال الفلسطيني العربي. وليته لا يشارك الأمريكـي والإسرائيلـي عمليـة الإجهاز علـى الانتفاضة، وعملية البحـث المضنـي عن بديل لمنظمـة التحريـر الفلسطينية، وعملية البحث المضني عن بديل للخيار الفلسطيني يأخذ فيه الأمن العربي الرسمي دوراً أكثر فاعلية في قمع الانتفاضة...

هم الخائنون، يا عزيزي، هـم الخائفون. لقد شغلوا أنفسهم، طيلـة الشهور الفائتة، فـي البحث عن منطقة عازلـة بين الانتفاضة وبيـن منظمة التحرير. وحين تيقنوا من ضحالة هذا السؤال ازدادوا خوفـاً وسخفـاً. ولا تستهجن أبـداً أن يرفعوا شعـار الهروب إلى أمام، كأن يطالبـوا الانتفاضة، وحدها، بمهمة تحرير كامل التراب الفلسطيني، من النهر إلى البحر...

سيتآمرون، نعم سيتآمرون، فهل لهم من مهنة أخرى؟

امـا الحجر الذي أطلـع وردة، مـرة، فقد أدمـن مهنته: مهنة الورد...

أخوك محمود درويش

(باريس - 1988/2/29)

على هذا الحجر ابني دولتي!

- أخي محمود،

لا اليهـودي التائه ولا الهولندي الطائر! لا ليس هذا النموذج. وسنكـون علـى صواب حين نلتفـت إلى أنفسنـا لنكتشف المثال الكامـل لجّوابـي الآفـاق المناوبين فـي الفلسطينـي المسافر... الفلسطينـي الهائم على وجهه ضارباً في الأرض وفي الفضاء. ومن أجل ماذا؟ من أجل أن يقولوا له بلغة أخرى غير لغته: أجل أنت على حق. أنت إنسان عادي وتستحق وطناً عادياً!

هذا الفلسطيني المسافر أبداً والمقيم فينا أبداً هو الذي حملني فيّ إلى بلاد اليونان يوم حمل إليّ ساعي البريد رسالتك.

كرم نابوت؟ أو. كي. هي يقولونها الآن. يقولها ما تبقى على قيد الحياة من ضميرهم الموزع على الحياة والموت بالعدل وبالقسطاس كما يبدو! يقولها كاتبهم المحترم حقاً وعن جدارة يزهار سميلانسكي فلا تحظى بالاهتمام إلا لديك أنت نابوت الجديد.

وكما قيل قديماً، فالشيء بالشيء يذكر. وقبل عودة سميلانسكي إلى «سفر الملوك» باثني عشر عاماً كان علينا نحن أن نعود إلى ذلك السفر الرهيب لنعتبر ولندعو إلى العبرة. ففي العام 1976 وبعد يوم الأرض مباشرة عقدنا مهرجاناً شعبياً ضخماً في الساحة الحمراء، ساحة عين العذراء في الناصرة. وهناك ألقيت قصيدتي «قد نمهل لكن لن نهمل». وكان نابوت وآخاب وسفر الملوك موزعين بين الجمهور الغاضب والشرطة المتوفزة واللحظة التاريخية.

تقتل في عز الظهر وترث المقتول ـ على عينك يا تاجر ـ.
تقتل وتصلي. تلتمس الغفران
فأي إله فاجر.
يقبل كفارة عارك. لن تنعم بالصفح. استرسِلْ...

وكان هناك أسفار أخرى وكان هناك يوشع بن نون في طبعتيه القديمة والجديدة:

يا يوشع بن نون!
اسمع
يا يوشع !
أوقفت الشمس على أسوار أريحا؟
أرضيت الربّ القاتل؟
لا نعلم
لكنّا نعلم أن الشمس تسير على أعناق الشهداء
من جبل الشيخ إلى سخنين
ومن المغرب لفلسطين
يا يوشع بن نون!

آنذاك لم يأت الرد من يزهـار سميلانسكي. لقد جاء وبأقصى سرعـة من بعض أعضاء الكنيست الذيـن طالبوا بحبسي سنة بدون محاكمـة، وبتهمة التجديـف! مرة أخرى يبعثـون نابوت ليصموه بالتجديف. لقتلوه. وليرثوه من جديد!

وكـم كان حكيماً ذلـك الرجل الـذي قـال: إن التاريخ يعيد نفسه، كلن مرة على شكل مأساة ومرة على شكل مهزلة!

وللأمانـة التاريخية يـا محمود، فإن جملة مـن الناس العاديين الذيـن لم يجدوا لهم موقعاً في «سفر الملـوك» يكتبون اليوم سفراً جديـداً من الوعـي ويرفضون الإسهـام في مهازل ملـوك إسرائيل الجـدد. ونحن من موقعنا القومي والأممي نمـد أيدينا النظيفة إلى كل يـد، ومن أية لغة، تعترف لنابـوت بحقه الشعري المقدس على كرمه الشرعي المقدس.

ويقيناً إن نابوت العصر لن يسلم عنقه للجلاد. إنه يقاوم الفرية بالحقيقة ويتصدى للدبابة بالحجر.

وإذا كان الفلسطينـي القديم أطلق صرخته المدوية: على هذه الصخرة أبني كنيستي، فـإن الفلسطيني الجديد يعلنها متمترساً في كرمه، على هذا الحجر ابن دولتي!

ولنتحدث قليلاً عن الحجر:

أتيـح لي في الآونة الأخيرة أن أراجع عـدداً كبيراً من القصائد الفلسطينيـة لإعداد انتولوجيا الشعر الفلسطيني، وهالني أن الحجر هـو أحد الرموز الأكثر شيوعاً في هذا الشعر. وحتى لا يرميني أحد بالزندقة وادعاء النبوة (حسبنا المتنبي!) فإنني أذهب إلى علم النفس علـى الفور زاعمـاً أن الإحساس بشيء من العجـز إزاء آلة الحرب الإسرائيليـة ـ الأوروبية ـ الأمريكية وآلـة الصمت العربية، هو الذي

يدفعنا إلى الوقـوف الروحي الأعزل إلا من مادة الطبيعة المجردة ـ الحجر، في مواجهة التكنولوجيا المتطورة التي عملت ضدنا حتى الآن، على الأقل والأكثر معاً...

كأننا نقول لهم: حسناً لديكـم التكنولوجيا ولدينا الحجر... لديكم الميتافيزيك ولدينا التراب... لديكم مشاريع الهجرة ولدينا خصب الولادة... حسناً... لن نفرط بالكرم وسنقاوم!

ولنتحدث قليلاً عن الحجر،

إننـي أتساءل أحياناً، أو على الأصـح، حين يكون لدي متسع من الوقت للتساؤل:

ما معنى هـذا الإعجاب العالمي بحجرنا؟ ألا يجوز لنا أن عثر على هذا الإعجاب الإعلامي الصاخب على شيء من توبيخ الضمير لدى السيد عالم؟ فالأطفال لا يولدون مدججين بالسلاح... ولعل السيـد عالم يكابـد وعكة من تأنيب الضمير لأنـه لم يحسن توزيع السلاح على أبنائه بحيث يأمن هابيل شر أخيه قابيل!

ربما ولعل!

ويبقـى إلـى أجل مسمى هـذا الفلسطيني المسافـر، مسكوناً بالقلـق، محموماً بالغربة، تتلقفه المطـارات لتنثره الموانئ... إنما إلـى أجل مسمّى، وإلى أجل مسمّى، قطعـاً وبكل تأكيد، فبعد كل هذا الليل لم يبق إلا أن يشرق الحجر!

وسيشـرق الحجـر، شمسـاً استثنائيـة، لأن الشمـس العادية منهمكة ببقايا الأسطورة، مبلبلة الخطا، بين إسحق شمير المقتضب بخطاه المقتضبة على ساحة العشب قبالة البيت الأسود في واشنطن، وبين خطا ولاة النواحي من مزق وطننا الكبير.

لا بـد لنا من شروق. وسنصنع نحن شروقنا الخاص وسنوزعه علـى العالـم بضاعة جيدة عالية الإتقان مختومة بلغة التبادل العالمية الواضحـة: MADE IN PALES TINE وستكون هناك بضع دموع غير مرئية تنشر أريجها الحاد على جهات المعمورة.

وإننـا لنـدرك تمـام الإدراك أن أحداً لـن يتركنـا وشأننا. نعم ويحاولون تخريب عملنا. هنا وهناك... وهنا.

وكما تعلم يا محمود فإن إحدى قواعد التخريب التاريخي التي يؤسسـون عليها تقوم على مبدأ تشويه الصـورة الخُلقية والخلقية، تشويه صورة الجسد ومحتويـات الروح. فنحن بشعون وكذّابون بالـولادة (علـى حد تعبيـر وزير هنا اسمـه؟ لا أذكـر... قد يكون «شرير»... أجل، أبراهام شرير، وهو سائح يعمل وزيراً للسياحة!).

وفـي إطار عمليات التخريب يشنـون اليوم حملة جديدة على القصيدة. والقصيدة المناوبة الآن هي قصيدتك عن الانتفاضة، فقد نشرت «معريـف» جزءاً منها مسبوقاً بمقدمـة شرسة على الطريقة المخابراتيـة. وهذه الصحيفة «السياسيـة» تتجاهل فعاليات الأدباء والمثقفيـن اليهود المناهضة للاحتلال والداعيـة إلى السلام القائم على الاعتـراف بحقوق شعبنـا، وتتجاهل ردود الفعـل الواضحة والحضاريـة الصادرة عن الأدباء والمثقفيـن الفلسطينيين، وتنقض علـى القصيدة لتنقض على الشاعـر ولتنقض من بعد على الإنسان-الشعب برمته.

وبحكم الضـرورة فقد كتبت رداً على حملة «معريف» لينشر في الصحـف العبرية والعربية... وقد تستغـرب أن صديقنا اللدود القديـم الشاعـر حاييم غـوري اتصل بي قبـل قليـل ليستفسر عن القصيدة قبل كتابـة رأيه في زاويته المعروفة في صحيفة «دفار»...

كان حديثي مع غوري حديثاً طويلاً وذا شجون وفاجأني تماماً حين قال: «كما تعلم وكما يعلم محمود فأنا لست محسوباً على الحمائم، إلا أنني في الآونة الأخيرة أفكر بضرورة الحوار مع منظمة التحرير لنرى ما يمكن لكل طرف أن يقدمه من أجل السلام!».

وهكذا يا محمود، فإن الكلمة التي بذرناها قبل ربع قرن لم تذهب هباءً... ها هي ذي تشق صخرة الكارثة وتطل في برعم ضئيل، نرعاه بدموعنا ودمائنا، حتى ينمو، حتى تكون الشجرة، فلا بد من ظل في لفح الهجير ولا بد من أمل في هذا الظلام.

واسلم لأخيك المشتاق

سميح القاسم

(الرامة - 1988/3/17)

نعم... بلادنا هي بلادنا !

● عزيزي سميح،

... ولأسباب تعرفها، لم أكمل قصة نابوت والملك آخاب: «هكذا قال الرب: هل قتلت وورثت أيضاً؟ في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلام دمك أنت أيضًاً؟ من مات لآخاب في المدينة تأكله الكلاب، ومن مات في الحقل تأكله طيور السماء».

لم أكمل اقتباس القصة، لأن شعار «لن ننسى ولن نغفر» ليس شعارنا الجامد. ولأن الإنساني فينا قادر على التسامح بقدر ما يتحرر.

لقد كتب يزهار سميلانسكي، قبل قليل، مخاطباً حكامه «لماذا التهرب، والتجاهل، والمماطلة، وكسب الوقت لخلق الوقائع لماذا هذه المماطلة؟ ألن تجلسوا مع الفلسطينيين في آخر المطاف؟ إذ لا مناص من الاضطرار إلى الاعتراف بما لم يكن مفهوماً في البداية. فلماذا المزيد من الألم. لماذا لا تبدأون اليوم، وفوراًً؟».

وعن هذه الحتمية، كتب صديقنا المشترك عاموس كينان «شئنا أم أبينا، سيحل السلام بين إسرائيل وفلسطين ولكن من سيطالب بدم الطفل الأخير الذي سيُسفك قبل حلول السلام بدقيقة واحدة؟». ثم دعاني كينان إلى كتابة مرثية الطفل الفلسطيني الذي سيموت غداً...

في هذا المناخ، أعلن الإسرائيليون الرسميون الحرب على القصيدة التي لم تكتب بعد، وعلى القصيدة التي كُتبت، لقد حفروا فيها بحراً ليشيروا إلى أنه مقبرة اليهود! فهل بلغ الاستشراق المخابراتي الإسرائيلي هذا المستوى العالي من الجهل، ليتهمني بأني أدعو إلى رمي اليهود في البحر، عندما أطالبهم بالجلاء عن أرضنا المحتلة؟ كما يطالب اليهود يهودهم بهذا الجلاء أم أنهم في حاجة ملحة إلى هذه الفرية لإعادة إنتاج المقومات المنهارة لبداية تحتاج إلى تجديد بدايتها كلما اقتربت من نهاية؟

لا أخفي عنك، أنني أتسلى بما أقرأ من ردود فعل كاشيوس الشيكسبيري المشار إلى شره بكراهية الشعر، مقابل سائق التاكسي الفلسطيني الذي سألته وكالة الصحافة الفرنسية عن سبب استماعه الدائم إلى الشعر، فأجاب: عندما أقترب من حاجز للجيش أستمع إلى الشعر لأنه يجعلني أقوى.

هل هذه الحملة موجهة إلى القصيدة حقاً؟ لا اعتقد ذلك. بل هي جزء من الحملة الرسمية على وعي السلام الجدي الذي يعبر عنه عدد كبير من المثقفين الإسرائيليين واليهود الداعين إلى الاعتراف بدولة فلسطينية، إلى جانب الدولة الإسرائيلية، فور الانسحاب من المناطق المحتلة. وإلا، فما معنى قول «يديعوت أحرونوت» أنني وجهت ضربة قاتلة إلى اليسار الإسرائيلي الذي يدعو إلى ضرورة الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية؟

ما هــي الضربــة؟ وما هي القصيــدة؟ هل تخلصــوا من حمى الأسئلة، ومن انشقاق الوعي، ومــن حرب الحجر، ليشغلوا الرأي العام بقصيدة؟

وهل هم يخافون القصيدة حقاً؟ لا أظن. ولكنهم امتلاؤا حتى التخمــة بقصائد المهاجرين الأوائل عن تجفيــف المستنقعات في الخضيــرة. وعن عودة إلى فردوســ تمخض عن جحيم حروب لا نهاية لها، بطائرات تبعد الصراع عن أرض الصراع، إلى أن اندلعت حــرب الجوهر في الداخل، فلم يعد في وسع آلة التفوق العسكري أن تعمل، وأصيبت الرؤوس النووية بالشلل، لأن حسم المعركة بما يملكه الإسرائيليون من قوة لا يعني إلا الانتحار.

هذا ما يصنعه الحجر الحــي بعقلية متحجرة لم تتكون خارج شروطهــا الذاتيــة: أمــا الانتحــار في الحــرب. وامــا الانتحار في الســلام. الانتحار فــي كل خيــار. لأن الدعوة إلى ســلام مشروط بالاعتراف بالحقوق والحقيقة الفلسطينية يعني، بالنسبة إلى الوعي الإسرائيلــي السائد، دعــوة إلى التخلي عن وجــود لا يوجد إلا في اختفاء الفلسطيني من الوجــود. إذن، على أحد الطرفين أن ينتحر، أو علــى الطرفين أن ينتحرا! فالإسرائيلي الذي لم يحدد للفلسطيني غير هذا الدور، يتقمص الفلسطيني ليحدد للاسرائيلي ما حدده هو للفلسطيني من دور. إن الإسرائيلي هو الذي يحدد للفلسطيني لغته ونواياه! وإن ذريعــة «الدفاع عن النفس»، وهي احتكار إسرائيلي، في حاجــة دائمة إلــى وحشية الآخر، فــي حاجة إلــى «لا سامية» ضروريــة لتبريــر الاحتلال الذي لا يــداوى إلا بمزيد من الاحتلال للدفاع عن الاحتلال!

وحيــن يضطــر هــذا الوعي إلــى التبدل قليــلاً وإلــى التكيف

مع ظروف جديدة، فإن الإسرائيلي يطالب الغياب الفلسطيني بالحضور الخاطف لمهمة واحدة محددة: أن يعترف الغائب بالحاضر. وأن يعترف الغائب بأنه لم يحضر إلا لكي يغيب. على المفقود أن يتحلى، دقيقة واحدة، بإنسانية تمتحن مدى قابليتها للاعتراف برفاهية التخلي الحر عن الوجود!

لا نهاية لهذا السجال العبثي لا نهاية له إلا بتوقيع الفلسطيني على وثيقة التخلي عن الذات وعن الموضوع! وعلى الفلسطيني أن يصدق في الإعلان عن أن بلاده ليست بلاده! لكي يوفر الإسرائيلي شروط الوجود. وهناك طريق آخر: على الفلسطيني أن يصدق في الإعلان عن أنه لا يرضى بأقل من رمي اليهود في البحر، لكي يوفر للإسرائيلي حق الاحتلال وراحة الضمير!!

لا هذا، ولا ذاك، هو وعي الفلسطيني...

فلماذا يحتاج الإعلام الإسرائيلي إلى قصيدة مثل قصيدة «عابرون في كلام عابر» ليختبر فيها براعته في القدرة على التزييف وعلى نفي إنسانية الآخر؟ لماذا لا يرى من البحر وهو برية رحيلنا المائية، إلا مقبرة اليهود؟ فمن هو الذي رمى الآخر في البحر وفي الصحراء... من هو القرصان؟

وهكذا حاورني صحافي إسرائيلي:

□ هل قلت لنا: أخرجوا من جرحنا؟

- قلت ذلك.

□ لماذا؟

- لأن جرحي هو ملكيتي الشخصية، هو جزء من هويتي فهل لك حق فيه؟

□ لا. ولكن هل قلت لنا: اخرجوا من قمحنا؟

– نعم. قلت ذلـك، لأن قمحي هو رغيفي النظيف، فهل لك حق فيه؟

□ لا. ولكن هل قلت لنا اخرجوا من بحرنا؟

– نعم قلت ذلك... اخرجوا حتى من هواء الأرض المحتلة.

□ ولكن، لا بحر في الأرض المحتلة!

– ألا تعرف الخارطة التي تحتلها. غزة على البحر.

□ هي تعني، إذاً، بحر غزة؟

– هذا البحر اسمه البحر الأبيض المتوسط، لا بحر غزة.

□ إذن، هل تعني أن علينا أن نغرق في البحر؟

– قلت لكم: اخرجوا من البحر. ولم أقل لكم: اذهبوا إلى البحر.

□ ماذا تعني، إذاً، بقولك «أيها المارون في بحر الكلمات».

– لـم أقل ذلك، قلت: «أيها المارون بين الكلمات» وهناك فارق طفيف بين كلمة «بحر» وبين كلمة «بين».

□ ولكن صحيفة «معريف» وغيرها من وسائل الإعلام الإسرائيلية تقول إنك قلت «بحر الكلمات».

– أنـا أدرى بقصيدتي من وسائل الإعـلام. ثم ماذا لو قلت «بحر الكلمات»؟ ما هي المعضلة؟

□ إن في ذلك إيحاء برمينا في البحر.

– إنك تحرك فيَّ الضحك.

□ وهل قلت إن فيكم ما ليس فينا: وطناً ومستقبلاً؟

– نعم. قلت. ما الذي يثيرك؟

□ أليس لنا وطن ومستقبل.

– ليس لكم وطن ومستقبل في الاحتلال.

□ قل لي: ما هي بلادك؟

– بلادي هي بلادي فلسطين.

□ كل فلسطين؟

– نعم. كل فلسطيني بـلادي. هل خدعك أحد وقال إن فلسطين ليست بلادي؟

□ لا إنها بلادي.

– أنت تؤمن بأن بلادك قد تمتد من النيل إلى الفرات وأنا أؤمن بأن فلسطين، وحدها، هي بلادي.

□ ونحن، ما هي حدودنا؟

– عليكـم أنتم أن تقولـوا ما هي حدودكم فـي بلادنا. لأن جزمة الجنـدي المحتـل لا تصلـح لأن تكون حدوداً كمـا كان يحددها الجنـرال يان. أما نحن فلا نسـأل ما هو وطننا لأننا نعرفه تماماً. بل نسـأل عن دولتنـا الممكنة من أرض وطننا. ونحـن لا نأخذ منكم شيئاً لكـم... نحن نأخذ من حقنا. فإن تنسحبوا مما هو حولنا إلى ما هو لا يعني أننا نأخذ منكم شيئاً. هل تفهم؟

□ لا أفهم...

ولـن يفهم أن السلام ليسـ نقيضاً للحرية. ولـن يفهم أن هذا السلام ليس عدلاً. ولـن يفهم أن المطالبة الفلسطينية بحق العودة، وبحق تقريـر المصير، وبحق إنشاء الدولة الفلسطينية على جزء من الأرضـ المحتلة لا يعني أبـداً أن بلادنا ليست بلادنا. ولن يفهم أن المحتل لا يتنازل عن شيء يملكه. ولن يفهم أننا نحن الذي نتنازل.

من المدهش أن يدهش الإسرائيليون من قوة صفاء الذاكرة الفلسطينية. هل كان على الفلسطيني أن ينتظر ألفي سنة لتأذن له الذاكرة اليهودية بأن يتذكر. وبأن يعود، مرة مع السيد بلفور، ومرة مع كورش، ومرة مع حاملة طائرات أوروبية، ومرة مع البند العربي في احتياطي الأمن الإسرائيلي؟

إن عشرين سنة، وأربعين سنة، لا تكفي لأن ينسى الفلسطيني اختلاط عروقه بتراب بلاده. ما هي بلادك يا سيد سميح القاسم؟ تصور أن يوجه إليك هذا السؤال! وتخيل أنك تجيبه بأن بلادك هي بلادك فلسطين. وتصور أيضاً أن يسألك: ما هي دولتك الفلسطينية. وتخيل ماذا يحدث له لو قلت: إنها قطاع غزة والضفة الغربية لنهر الأردن. سيقول لك: يا ابن الطابور الخامس... ارحل من بلادي ومن دولتي إلى دولتك غزة!

وجع، وجع، وانشطار.

هل في المخيلة السوداء ما يشبه هذا الواقع؟

فنحن مطالبون الآن، منذ الآن، وإلى زمن لا نعرفه بأن نقايض موتنا الآمن بحياة الاحتلال المتوترة. الاحتلال في مأزق، وعلى الفلسطيني أن ينخرط في عملية إنقاذ الاحتلال لأن مصيره قد تقاطع مع مصير الآخر!

لا يكفي أن تقول إن طريقة تعامل الإسرائيليون مع الحاضر الفلسطيني هي التي ستُحدد طبيعة التعامل الفلسطيني مع المستقبل الإسرائيلي.

لا يكفي أن تقول إن طبيعة تعامل الإسرائيليين مع الوجود الفلسطيني هي التي ستُحدد طبيعة التعامل الفلسطيني مع الوجود الإسرائيلي.

لأن «العالـم الأخلاقي» حريص على مصير الاحتلال أكثر من حرصـه على مصير شعـب. «ماذا سيفعـل الإسرائيليون المساكين بعد الانسحاب؟ من يضمن لهم المستقبل؟» هكذا يتساءل الضمير العالمي، ويطالب الفلسطينيين بأن يتخلوا عن حصتهم من الماضي ومن المستقبـل، من الذاكرة ومن الوطن ومن الحلم، وبأن يوافقوا على استبـدال جيش الاحتلال الإسرائيلي بقوات أمن عربية تضمن لداء القلق الإسرائيلي علاجاً بعيد المدى، وتنقل الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني إلى حرب أهلية عربية، لا كاميرا فيها ولا شاهد.

إذا كان الأمـر كذلـك، فإن شعـار «لن ننسى ولـن نغفر» هو شعارنا الطويل الطويل...

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الأمر كذلك...

ومع ذلك، فإن في وسع الشمس أن تشرق من حجر!

لأن بلادنا هي بلادنا.

أخوك محمود درويش

(تونس ـ 1988/3/22)

نحبها... ابنة الكلب الحياة!

● أخي محمود،

نعـم، بلادنا هي بلادنا وتنطلق صلية مـن الرصاص الطازج على أفواه كوكبة من الشهداء المناوبين. كيف تجرؤون على مثل هـذا القول؟ ونعم، مرة أخـرى، بلادنا هي بلادنـا، فتمتد ذراع من الموت والفولاذ إلـى أقاصي الأرض لتقتنص فلسطينياً يجرؤ علـى الحلم. وعبـر سبعيـن وردة حمراء ندية علـى قميص ذلك الفلسطيني تدوي الصيحة مـن جديد، تدوي سبعين مرة، سبعين وردة، سبعيـن موتاً وسبعين ميلاداً. نعـم، بلادنا هي بلادنا، ومع كل اغتيال جديـد يتأكد القديم الأكيد، نعم، بلادنا هي بلادنا... فلينعـم القناصة العمي بالدم الكبير الملتـف على أيديهم قضاءً لا ينثنـي، وقدراً لا ينكص على عاصفتـه، أجل، هي بلادنا ولا بلاد لنا سواها.

وإذا كان المـوت حراً إلى هذا الحد، فلا يبقى أمامنا سوى أن نشاطره حريته هذه!

إن رغبة حادة في بكاء عاصف تأخذ بتلابيب قلبي... وأدري يـا محمود ولا أدري، لمـاذا أصبحت الحياة غاليـة لديّ، وغالية جداً كقشرة البصلة. وأدري يا أخي ولا أدري، كيف أصف شعور إزاء نبـأ عادي في صحيفـة إسرائيلية عادية (يديعـوت أحرونوت 88/5/8) عـن ذلك الفتـى الفلسطيني الذي فوجـئ بالمستوطن الإسرائيلـي وهـو يسدد سلاحه إلـى قلبه. لقد تعـرف ذلك الفتى إلى «جـاره» اليهودي فصاح به: «يا شموئيـل لا تطلق النار!» إلا أن شموئيل لم يتردد، وبيـد ثابتة ضغط زناد بندقيته مدفوعاً بإرادة «إلهية» لا ترد (...).

وكيـف حالك يـا ابن عمـي وخالتي؟ مـا أخبار الجـراد في تونـس؟ كيف الطقـس في باريس؟ إذن فقد نجـح فرنسوا ميتران. تستحـق فرنسـا هذا العقـاب والأسوأ مـن ذلك أنهم لـم يرشحوا تشيتشولينا لمنصب أمين عام الأمم المتحدة. هل تعتقد أنها كانت ستفـوز؟ ستحتدم المنافسة بينها وبين مارادونا. أما رئاسة الولايات المتحـدة الأمريكية فلا تليـق إلا بالسوبرمان رامبوا ستالوني... إنه رجل حقيقي هذا الولد الايطالي الأحمق. هل تعتقد أن سمع بداتني اليجييري؟ ولماذا يسمع به؟ ذلك ليس شرطاً لتسلم رئاسة الولايات المتحـدة الأمريكية! ثم إن رونالد ريغان لم يكن ملزماً بقراءة والت ويتمان، لكنه عرف والت ديزني بالتأكيد!

إنني تعب يا صديقي. تعب وعنيد مثل ثور، لا أجد للراحة سبيلاً ولا أريـد التفكير، مجرد التفكير باليأس. وإن لم أقل لك إنني نهب رغبـة جامحة في الصراخ، فلمـن إذن أقول ذلك؟ إن غزالتي النافرة محاصـرة حصاراً مطبقاً بيـن الخنازير الداجنـة، وروحي باهظة يا صديقي. ولا ورد إلا ما تبوح الدماء ولا ضوء إلا ما يصيح الحجر.

لقد كانت رحلة وفد اتحاد الكتاب العرب إلى تشيكوسلوفاكيا موفقة للغاية وعاد إخوتنا أعضاء الوفد بصيد وفير من السعادة، كما أن وفدنا إلى بلجيكا عاد هو الآخر مثقلاً بفرح الانجاز ومتعة العطاء. بقي علينا أن نباشر إصدار مجلتنا العتيدة وسنفعل ذلك حين تتوفر لنا الشروط، وفيما بعد يكون هذا الاتحاد قد أرسى أسسه المتينة ويصبح من حقي أن أفيء إلى زيتونة همومي الشخصية لأقول ما لم أقله بعد، ويخيل لي أحياناً أنني لم أقل شيئاً طيلة حياتي وأنني موشك على انفجار لا يُبقي ولا يذر.

إن كان لديك وقت للقراءة فماذا نقرأ في هذه الأيام؟ لقد فرغت الآن من قراءة رواية استورياس «الها خاديتو». إنها أشبه بقطعة أنيقة من الماس. لقد نحتها الرجل نحتاً، لذلك لم استمرئها كثيراً. وبالمقابل فقد كنت استمتعت قبلها برواية ياشار كمال «ميميد الناحل». إنها عمل عظيم حقاً. وفيها من الشعر بقدر ما فيها من الرواية وقد ذكرتني بأعمال كازانتزاكيس وماركيز وايتماتوف.

ولا أخفي عنك عجزي في هذه الأيام عن قراءة الشعر. ببساطة لا أستطيع أن ألمس ديواناً من الشعر، وأرجو أن تكون هذه حالة عرضية عابرة.

وماذا عن السفر؟ لعلك لم تزل على سفر دائم. أما من ناحيتي فقد نشأت ظروف جعلت السفر أمراً عسيراً، مما اضطرني إلى الاعتذار وتأجيل دعوات إلى الهند واستراليا والولايات المتحدة وألمانيا الغربية وإنكلترا واليونان ورومانيا.

أما المهمة التي كنت أتمنى حقاً أن أقوم بها فهي تلبية دعوة صديقنا الشاعر الدكتور عبد العزيز المقالح للمشاركة في ندوة المثقفين العرب في صنعاء لدعم انتفاضة شعبنا.

وأية قسمة هي هذه يا أخي؟ إلى متى أُحرم زيارة وطني الكبير؟ وهل سيكون عليّ أن أموت مثل طائر في قفص؟ صحيح أنني أحوم كثيراً في هذا العالم إلا أنه يظل على رحابته، قفصاً ضيقاً على جناحين يعتقدان أن سماءهما الحقيقة والأولى والأخيرة هي سماء الربع الخالي العامرة!

اما إذا قيّض لك أنت أن تشارك في هذه الندوة، فأرجوك أن تداعب شعر طفل يمني وأن تلمس جداراً من صنعاء وأن تربت على نافذة وشجرة وأن تقول: هذه يد أخيكم من هناك!

وصافح أخوتنا وناسنا وقل لهم هذا قلب أخيكم من هناك!

لعلك علمت بأن مختاراتي الشعرية التي ترجمها إلى الفرنسية أخونا وحبيبنا الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي صدرت أخيراً في باريس عن دار «مينوي» واليونسكو. ولدار «مينوي» هذه مكانة خاصة في ذاكرتي ووجداني، فهي التي نشرت أدبيات المقاومة الفرنسية في أثناء الحرب العالمية الثانية، وما زلت أذكر جيداً قصة «صمت البحر» لفيركور التي قرأنا ترجمتها العربية قبل عشرين سنة تقريباً. تلقيت دعوة من المركز الثقافي الفرنسي في تل أبيب لقراءة بعض قصائد المجموعة بالعربية والعبرية وليقرأها أحدهم بالفرنسية. اقترحت عليهم دعوة صديقنا الممثل يوسي شيلواح ليقرأ بالعبرية نماذج من شعرنا معاً، من نصوص مسرحية الكولاج من الأدب الفلسطيني. وحين كلمت يوسي بهذا الشأن بدا لي محطماً تماماً لأن حرباً شعواء تشن في هذه الأيام ضد مسرحيته. لقد ألغت بلدية تل أبيب جميع عروضه وأوصدت الأبواب في وجهه، وسأحاول أن أرتب له بعض العروض في الوسط العربي. لقد تعب الرجل وشقي كثيراً لإعداد هذه المسرحية وحين أدرك الجماعة «خطورتها» أغلقوا نوافذهم في وجهها. ما لهم ولهذا «الوباء»؟

وإذن، فإنهـم يرفعـون ضـدك قضية لـدى القضـاء الفرنسي ويطالبـون بتغريمك! لقـد ضحكت حين قـرأت النبـأ. ولا تنكر أنك أنـت أيضاً ضحكت. إنها صـورة سريالية يعجز عن سلفادور دالـي نفسه. فأنت تسلم في نقاشـك مع الخواجا فيزل بأن الضمير اليهودي معرض للاحتلال. ومن هذا المنطلق المثالي جداً تخاطب هـذا الضميـر وتدعوه للتحرك مـن أجل وضع حـد للغبن اللاحق بشعبـك. كنت أتوقع أن يقاضيك الفاشي «لوبان» لأنه لا يمكن أن يسلم بنقاء الضمير اليهودي، امـا أن تقاضيك جماعة يهودية فإنها صورة سريالية حقاً!

علـى أيـة حـال، فهذه هـي طبيعة الأمـور اليوم، ولـن يكون بمقدورنـا استبـدال عصرنا بعصر آخر. نحن هنـا وهنا محنتنا. لم نختـر حياتنا الراهنـة لكننا اخترنا نموذجـاً لحياتنـا المؤمَّلة. وما دمنـا قررنـا الاختيار فـلا يجوز لنـا التملص من دفـع الثمن كاملاً لهذا الخيـار، وها نحن ندفع يا صديقي، ندفع دمـاً ودموعاً، وعياً وجنوناً، ألماً وثورة.

ندفـع دماً وشعراً، دمـاً وخطباً سياسية، دمـاً ومؤتمرات، دماً ونضالاً، دماً وفرحاً، دماً ودماء ندفع ليهود فرنسا وألمان البرازيل، لهنـود كوستاريـكا وإنكليز الهنـد... ندفع يا صديقـي وندفع. لا ينبغـي أن يوقفنا شيء، ولا شـيء يوقفنا، لأن وقوفنا موتنا، ولا نريد أن نموت، فنحن نحبها، نحبها ابنة الكلب الحياة...

أخوك سميح القاسم

(الرامة - 1989/5/11)

(بالمناسبة، هو يوم ميلادي فكل عام وأنت بخير)

حنين إلى الشعر

● عزيزي سميح،

أصابني ما أصابك من جفاف في الشهية الشعرية. لم اقرأ من الشعر، في الآونة الأخيرة، غير ديوان طرفة بن العبد، وقصائد للصِّقلي ابن حمديس، ومجموعة من قصائد اليوناني البلوري ايليتس. وهزتني كثيراً مختارات من آخر الفرنسيين الكابر رينيه شار.

أنت تعرف أنني أدمنت على قراءة الرواية. شرعت منذ قليل في قراءة التشيكي كونديرا لسبب لا أعرفه؛ بعدما فرغت من قراءة «التيجان في ملوك حمير» وكتاب عبد الرحمن الشرقاوي الشهير «علي أمام المتقين».

اما الشعر، آه من الشعر... فإنه يبتعد عنا بقدر ما نقترب منه. ونبتعد عنه كلما اقترب منا، لأن الحياة تأخذنا إلى ما ليس فيها من شعر. فهل أعترف لك بأنني أحن إلى كسل طويل، إلى رصيف هادئ، إلى حديقة آمنة، وإلى حب أقل لأكتب أكثر؟ لا أخفي عنك أنني أعيش في قلق، قلق يتوتر إلى حد التساؤل عما فعلنا في هذا العمر: هل كتبنا؟ ومتى نكتب... متى نكتب؟

الوقـت يمضـي بنـا. يغافلنـا ويمضي بنـا. ولكن مـا زال في مقدورنـا أن نحلم بوقت نتفرغ فيه للبحـث الأنيق عن الفارق بين ما يقوله الواقع وما قد يقوله الشعر: وعن تخصص النص بخصائص الانتمـاء إلى هذا الواقع دون أن يكون ملحقـاً به، وأن يقول الواقع بلغته لا بلغة الواقع. وباختصار: أين شاعرية الشعر؟

لقد تعـودت على هذا الإحباط. ولكن هل ينجو الشاعر دائماً من خطر الجفاف؟ هل تتفتح الوردة دائماً في كل ربيع؟ بعد نجاتي مـن خطر المـوت في فيينا صـرت عدوانياً مع الأطبـاء، فأحالوني إلى طبيب للعلاج النفسـي. ولكنني قلت له بعد جلستين: أذهب، فلست في حاجة إليك... لأنني أعرف ما بي.

كان علـيّ أن أعيش حياة جديدة وتقاليـد عمل جديدة. كان علـيّ أن أتحول إلى كلـب حراسة لقلبي. كان علـيّ ألا أبلغ التوتر العالي الضروري للكتابة. لم يكن ما يخيفني فقط هو أنني لن أعود قادراً علـى الكتابة، بل هو إحساسي المدمـر بأنني لم أكتب شيئاً. كنت أخسر مبرر وجودي، كنت أمر على الأرض كورقة بيضاء.

وحيـن نسيت قلبي، كتبـت كما لم أكتب مـن قبل. كنتُ في سباق مع الموت. سألوني: لماذا تكتب؟

قلت: لأنني سأموت.

إن شيئـاً من تلك العتمة يحتل روحـي الآن. أريد أن اكتب... أريد أن أكتب. ولكـن الكتابة لا تغتصب اغتصاباً، كما لا تغتصب الشهوة!

لقد انتبهت إلى الخطر الناجم عن هروب الرصيف من ظهيرة بـاردة، وعن رحيل الكسل عـن نخلة المساء. مـررت، أمس، في أحد شـوارع تونس لأجد ما يجرحني من جمال: صفين من شجر

لا أعـرف أسمه ينشـران مناديل شفافة من الليلـك الطائر في سماء عابرة وعلى الأرض الرطبة حبات من رذاذ الليلك. قلت لصاحبي: انظـر... انظر إلـى سحابة الليلك. ابتهج بهـا صاحبي لينساها بعد قليل: عليك أن تؤجل شاعريتك... فأنت في خطر!

مـا قيمة حياة بـلا شاعريـة. أو ما معنى وجـود مُطالب بقمع شاعريتـه؟ ولكن الممثلة فانيسا ردغريـف جرحتني أكثر: هل أنت ابن محمود دوريش؟ قلت لها: لا. أنا أبوه.

هـل أنا حقاً أبوه، أم أنا أبنـه؟ كلا السؤالين يشير إلى انفصال، ويدل على غائب. فالشاعر موجود في شخص آخر. الشاعر شائعة أو ظل. فإلى متى انتظر عودة المهاجر إلى المنفى الأصلي!

قلـت أكثر من مرة إن ما يعجبني مـن شعر هو ما ليس يشبهني مـن شعري أو من شعر غيري. لذلك لـم يحدث أبداً أن قرأت نصاً كتبته خوفاً مـن الندم: كان عليّ أن أكتب بطريقة أخرى: كان عليّ أن اختلف أكثر!

لـم أشـارك، منذ مـدة، في أمسيـات شعرية. وحيـن وصلت إلـى قاعة النـادي الدولي فـي بروكسل منذ أيـام، همست في أذن صديقـي: لا شهية لي... لا شاعريـة فيّ... فماذا أفعل؟ ولكن كان علـيّ أن أقرأ. فقرأت ما ليـس معروفاً من شعري... قرأت القصائد الشخصية، فاشتقت إلى الشعر، اشتقت كثيراً إلى الخيبة!

أما من مـكان للفرح في القصيدة. اما من مكان للقوة. اما من مـكان إلا لما فينا من ضعف إنساني ومـن هشاشة العزلة. أهذا هو مجال الشعر؟

ربما؟

علـى الشعر أن يحاذر قول ما يمكن قولـه بغير الشعر ـ تلك هـي حكمتي إذا جـاز لي أن أدعي الحكمـة. ولكن كيف ندرك ذاك الهامش. كيف نعرف الفارق الصغير بين ما هو شاعري وما ليس بشاعري.

إنـي أشكو المقعد. أشكو مـن الجلوس على المقعد، حتى لو كان مقعداً من هواء!

ستقول كما يقـول الكثيرون: ولكن لنا خصوصية، وتلك هي شروط حياتنا.

نعم، نعم.

هـل تذكر ألعابنـا في ذلك السجن؟ رقصاتـك مع البحارة في النـوادي الممتـدة على رصيـف الميناء. حبّ البحـارة العابر على طريقة بابلو نيرودا. الإيقاعات الأولى لقمر غارسيا لوركا العجائبي. والتخريب الجميل الـذي أحدثه ناظم حكمت في سياق الشاعرية الأولـى حين وضع الرغيف نقيضاً للـوردة، وصدمة القراءة الأولى من خلخلة عفوية في نظام القصيدة الهندسي وفي مألوف الصورة، فاختلط عليهـم أمر الاستعارة مع الرمزيـة و... الذهاب الأول إلى شعر لا مدرسة فيه ولا معلمين...

حتـى جاء حزيـران ليربكنا ويربـك الآخريـن، لأن الحماسة انتقلـت من موقع اللغة الأفقي إلى مجال آخر تشهد فيه النفس على نفسها، بلغـة كفت عن مناطحة الدبابة لتحاور ما في باطن الأرض مـن موتـى وجذور، فانتقـل صراع الشعـر إلى صـراع على هوية الهجر، وتأويل ما يقدمه من قراءة وإشارة.

عـاد الجنـود إلـى ثكناتهم مهزوميـن، وخرجنا مـن السجن الجبلـي إلى البحر الأقـوى... شعـراء يرتبون الزنابـق في مزهرية الصوت المطالب بأن يعيد النظر في نتائج الحرب، ليكون المهزوم أكثر إنسانية من المنتصر. واختلطنا لنفترق. وافترقنا لنندمج. وكان على الشعر أن ينفض الرمل عن أسماء الشهداء، وأن يروض الأعداء قليلاً لنذهب معاً إلى محكمة العدالة. ولكن القضاة والشهود كانوا من الجنرالات المتقاعدين.

لم نلعن غير القتلة، فأصابـت لعنتنا المجتمع. واتسع الصدى في امتداد الصحراء. وكان عليك أن تقبل دور المبشر المنادي على أفـق. وكان عليّ أن أقبـل دور الصوت المضغوط فـي زنزانة. كم نعـرف ما فينا مـن قهر وسخرية. كم نعـرف أن لا نهاية مرئية لهذا النشيد. وكان علينا أن ننشد...

هل كان سجناً ذاك الذي أنت فيه؟ أنت تقول: نعم. وتقول إن الأفـق خلف الباب، وإن مفتاح الباب فـي جيب الأغنية المنتظرة. وهـل لك أن تقول غير ذلك. وإلا فكيف تحيا وتصدق ما فيك من قول لم تقله!

كم أفهـم حنينك المجنون إلى مواقـع تكوينك الروحي، إلى شوارع المدن العربية، إلى ما كان وإلى ما سيكون من تاريخ. وكم أغبطـك على هذا الحرمان، لا لأنـه سيسفر عن خيبة، بل لأن تلك الشوارع تشرئـب كلها إلى الشارع الذي أنت فيـه، إلى النار التي تحرقكم وتضيئنا!!

سأبلـغ سلامك إلى الشوارع والنوافـذ، بعدما عجز الخطاب الرسمـي عـن اختراقها، وعجز عـن طرد بلادك مـن الوعي العام، وعجز عـن التشكيك بالرسالة الفلسطينية. لقد جس خليل الوزير،

شهيـداً، نبض القلب العربي فوجده سليماً سالماً معافى من أمراض الخطاب الرسمي الذي لم يصل صداه إلا إلى كتابه المقعدين.

الانتفاضة... الانتفاضة هي عمرنا الجديد. هي الفرح الصعب المصنوع من شقاء جيـل عثر أخيراً على السر، على الشعلة، وعلى الطريـق. يستطيـع الكثيرون منـا أن ينصرفـوا الآن إذا عجزوا عن إدراك اللغة الجديدة، فلا حاجة لأحد، بعد الآن، بالعقلية القديمة. ولا حاجـة لأحـد بمحـاورة الاحتلال الـذي أغلق جميـع أبواب الحـوار، ما دام الوعـي الخرافي الوحشي هو الوعــي السائد، وما دام المجتمع الإسرائيلي مريضاً إلى هذا الحد، فها هو يدرب شبيبته على تعذيب الجسد الفلسطيني بسادية ولذة.

وهـا هو المجتمـع الفلسطينـي يواصل التعبيـر البطولي عن إنسانيـة تطرد مـن المجتمـع الإسرائيلـي المريض آخـر مبرراته الأخلاقيـة. «ما قيمـة إسرائيل بـلا ديمقراطية؟ ما مبـرر إسرائيل بلا أخـلاق» ـ هكذا ينوح عشـاق إسرائيل الغربيـون... وهكذا نسخر مما نعرف... مـن خرافة مسلحة صار قانون ديمقراطيتها مشروطـاً بأن يعترف المرشح للبرلمـان الإسرائيلي بأن «إسرائيل هي دولة اليهود». فماذا يفعـل الكاتب الإسرائيلي أنطون شماس بجنسيتـه الإسرائيلية، طالمـا أن إسرائيل هي «دولـة اليهود»، لا «دولة الإسرائيليين»!

نعم، سأذهب إلى المحاكمة، لا لأدافع عن نفسي، بل لأحاكم الابتزاز الصهيوني الذي يريد أن يقنعني بأن الضمير اليهودي ملحق بالاحتـلال الإسرائيلي. سأحـاول أن أبريء الضميـر اليهودي من تهمـة المشاركة في قتـل أطفال فلسطين. فهـل استحق المحاكمة على هذا الإيمان؟

اسخر، يا أهبل، اسخر...

وسأسخر بطريقة أخرى حين سأضطر إلى الدفاع عن حقوق الإنسان اليهودي في الهجرة إلى حيث يشاء. فالإسرائيليون والأمريكيون الذين حاصروا مفهوم «حقوق الإنسان» بمعنى وحيد هو حق اليهود السوفييت في الهجرة الحرة... هم الذين ينتهكون حقوق الإنسان اليهودي بإرغامهم إياه على الهجرة إلى إسرائيل لا إلى الولايات المتحدة كما يريد...

وهكذا فإنهم يحولون المهاجرين اليهود من مهاجرين إلى أسرى وسبايا لا حق لها في اختيار وطن منفاها وهجرتها.

هل ترى ما يفعل الإسرائيليون باليهود؟

اسخر، يا أهبل، اسخر.

أخوك محمود دوريش

(باريس - 1988/5/24)

الموت واللقاء...
هناك إلى هنا

- أخي محمود،

لعلك تذكر أن الورود كانت دائماً تلك الأصابع الإلهية التي ما أن تلمس القلب حتى يغمره ضباب من أسى لا يوصف.

وبعد غروب الشمس عن هذا النهار الذابل، كان عليّ أن أسقي الورود الناشئة في حديقة منزله (المنازل لله)!

ومع رذاذ الماء المتناثر على نبات الروح الشفاف، تساقطت من حنجرة أخيك قطرات صغيرة من الدمع. (الدمع مصدره الحنجرة، أما العينان فليستا غير ظاهر النبع).

لقد رحلت خالتك «أم قاسم» التي أحبتنا على علاتنا، وأطعمتنا الكبة واسترضت الله علينا قبل سفرك القديم وبعده.

إنها ترقد الآن في مقبرة العائلة، حيث يرقد جدي القديم وأبي الأخير، رحلت مع الراحلين، لتعيدني دفعة واحدة إلى طفولة

راحلـة وفتوة موغلة فـي الرحيل: عرب رحـل... شعراء رحل... أطفال رحل... ولا إله إلا الله!

إننـي أسند جسـدي المرهق إلى شجـرة الروح العاليـة أبداً، أسند جبيني إلـى راحتي واكابر قليلاً لأكتب اليك. (للكولونيل من يراسلـه)... وماذا أفعل بـداء السخرية الذي يستشري يوماً بعد يوم وموتـاً أثر موت، ويفتت قليل الجسـد، بكثيره الناهش في الروح، النافر سراً وعلناً؟

لا بأس عليـك إذا أنت أحزنتـك سخريتي بعض الشيء فإننا نتسلى بأعصابنا، ونلوذ بما تبقى من هواجسنا: أحتمي بهبلك كما تحتمي بهبلي، ونظل رغم كل شيء، ولدين عاقلين لدرجة الفجيعة.

لقـد أصبحت الحياة (حياتي) على قـدر باهظ من الانحباس، وغـدا جنون الكتابة عيبـاً اجتماعياً يضاهـي الفضيحة... واختلط حابـل المفاهيـم والقيم بنابلها. ويقينـاً أننا في حاجـة قصوى إلى انتفاضـة تؤاخي بين الروح والجسد، وتجمـع التفاحة إلى الوردة والحجر إلى السنبلة.

وكأنـي بك تكابد مـا أكابد، فتلمح في رسالتـك الأخيرة إلى «المرشحين للبرلمان الإسرائيلي».

يا لمخلب قلبك الطيب، والذي تتقن حراسته أبداً. ويا لوحشة قلبي المعتزل في الزحام المنطوي في الجمهرة. ويا للقلق الذي لم يكف يوماً عن مباغتتنا بلا رحمة.

صحيـح أننا تغيرنا كثيراً يـا محمود، لكن ليس إلى هذا الحد، ومـا زلنا غيـر صالحين للبرلمانات ولا هي تليـق بنا. ولا أحيق بما يدفعنـي الآن إلى تكرار كلما فرّجت كربتي قبل ما يقارب الخمسة عشر عاماً.

الموت، يا شعراء جيل الجرح، بالمرصاد واقف
الموت، للصوت المكبل بين آلاف المعازف
الموت، قلت،
فحاذروا لغط الأكاديمية الصفراء
واجتنبوا المتاحف
في معهد الريح ابتدأنا
فلنكمل... في العواصف!

وإن أخاك ليؤثر أن يكمل في العواصف... وإذا كنا ممن يحجمون عن وضع عندليب في قفص، فأنى لنا المواءمة بين عاصفة الأيل وقفص العندليب؟

بدأت كتابة هذه الرسالة مساء أمس في الرامة، وحين بكى الصغير «يأسر» كفَّ القلب عن البكاء، وذهب ليمارس مهنة الأبوة.

الحب، الرأفة والوقار... هذه هي أقانيم الأبوة، ولك أن تشمت بي كما تشاء، فلا تدري نفس بأي أرض تموت!

وها أنذا الآن، أتابع مخاطبتك الصماء في مكتبي الحيفاوي الصغير.

على الجدار المقابل صورة كبيرة لصديقنا دراكولا (فلاد تسيبش) ذلك المناضل الروماني من القرن الخامس عشر.

لم يكن دراكولا غير مصاص دماء مقزز، يلتهم النساء ويتسلى بالجثث...

كانت تلك صورته المقدمة إلى العالم عبر أدبيات تجار الغرب الأوروبي وسينما تجار الغرب الأمريكي...

وكان عليّ بصفتي عضواً في الأسرة الدولية أن أتبنى هذه

الصورة، إلى أن أتيح لي اكتشاف الحقيقة، حين دعيت وزوجتي لزيارة جمهورية رومانيا الاشتراكية الشعبية... وهناك أعد لنا مضيفونا مفاجأة في قلعة بران، قلعة دراكولا، فقد قدموا لنا تاريخ الرجل وصورته على طبق من فضة المعرفة وذهب التوثيق.

لم يكن ذلك الأمير القاسي غير مناضل من أجل الحرية والأمن الاجتماعي وقد وظف قسوته الشديدة لخدمة هذين الغرضين. بينما نشهد اليوم، وعلى أعتاب القرن الحادي والعشرين، كيف يوظف «أمراء» العصر رقتهم المتناهية وشفافيتهم القصوى، لقمع الحريات ولسلب الأمن الاجتماعي ونهب الطمأنينة السياسية والاقتصادية، ولتصنيف المجتمع البشري إلى سراق ومسروقين وقتلة ومقتولين.

لقد حاولت، أنا المخرب الفلسطيني والإرهابي الإيرلندي، وكاهن السيخ السفاح، حاولت أنصاف ذاتي بإنصاف ذلك «الفامبير» الروماني، فكتبت قصيدة «دراكولا ليس دراكولا»...

ولأنني لا أجيد لغات العالم قاطبة، وليقيني بأنه ليس من المفروض أو المتوقع أن يجيد العالم قاطبة، الشعر، فإن دراكولا يظل في الوجدان العام، دراكولا نفسه، إلى أن تتخذ هيئة الأمم المتحدة قراراً يعفي دراكولا من صورته، ويضمن عدم لجوء الولايات المتحدة الأمريكية إلى «الفيتو» شريطة إعفاء الصهيونية من صورتها!

كل شيء بثمن... وهذا هو ثمنك يا دراكولا اللعين...

وعلى الجدار المقابل، أيضاً، لوحات الفنان البريطاني رالف ستيدمان المتفاعلة بصدق ملموس مع قصيدتك وقصيدة أخينا أدونيس وقصيدتي.

وعلى الجدار المقابل أيضاً، جدار يكتب من جديد رسالته القديمة الخالدة: لك المجد يا باطل الأباطيل!

جدار وراءه جدار، وراءه جدار.

وعبـر الجـدران والأسـلاك الشائكة في معتقـل «أنصار ـ 3» الرهيب في صحراء النقـب اللاهبة، تسللت إلى جريدة «الاتحاد» رسالـة من أخوتنا الشعـراء والكتاب المعتقلين هنـاك، هي أشبه ما تكـون برسالة الاستغاثة التي تبثها إلـى جهات الكون المعتم سفينة الجسد الموشكة على الهلاك.

ليس ما يكابـده أخوتنا هناك حجراً سياسيـاً وثقافياً فحسب، إنهم يتعرضون للتعذيب الجسـدي الرهيب: من منا دراكولا؟ ها، قـل لي أين يقع دراكـولا؟ وماذا نفعل إزاء هـذا الفصل من فصول الجحيم المتعددة المسالك، العديد الأبواب، ذات الاتجاه الواحد؟

لقـد قرر إخوتك في اتحاد الكتاب العرب هنا توجيه نداء آخر إلـى أدباء العالم ومفكريه وفنانيه... وقرروا تجنيد أكبر قدر ممكن مـن الكتاب الديمقراطيين في البلاد وفـي العالم كله لمواجهة هذه المحنة.

أضعف الإيمان؟ لا بأس علينا إن نحن أشهرنا أقلامنا في وجوه الطواغيت...

ومن جهتي، سأكـف عن الكتابة إطلاقاً وطلاقـاً بالثلاث، لو فقدت الإيمان بعلو يد القلم على يد السوط.

ولا ريـب في أنكـم ستجندون قدرتكم الكبيـرة على التحرك والتشعب، لإيصال صوت الكلمة المشتعلة في معتقل «أنصار ـ 3» إلى كل بقعة من ضمير في هذا العالم.

في تمـوز (يوليو) القـادم، الثالث عشر منه كمـا أظن، تكون أربعـون عاماً قد تكدسـت على دم شاعرنا وشهيدنـا الحبيب عبد

الرحيم محمود، الذي تيمن بالإسراء والمعراج في معركة الشجرة، وأهوى نيزكاً ينشد على إيقاع الرصاص والشرايين المتفجرة:

سأحمل روحي على راحتي
وأهوي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق
وإما ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان
ورود المنايا... ونيل المنى...

لقد حقق عبد الرحيم محمود انسجامه التام. ودخل «نيرفانا» الخاصة به، طوبى له وطوبى لنا به، هذا المتناغم جسداً وروحاً، قولاً وفعلاً، لساناً ويداً، هاجساً ودماً. طوبى له هذا الغني المدقع، هذا الذي بلغ الكشف فرُؤيَ ورأى.

ونفكر في هذا المقام المشرق، أن نقيم مهرجاناً لذكرى عبد الرحيم محمود في موعد اندغام الحرف بالوريد، ونرجو أن تكون هناك، بشكل أو بآخر، ولا يهم. سنكون معاً.

وصلتني الدعوة للإسهام في مهرجان الشعر العربي الذي ينظمه أخونا رياض الريس في لندن. أرجو أن أتمكن من المشاركة، وآمل أن نلتقي هناك... أو هناك... أو هناك... إلى أن نتمكن أخيراً من اللقاء هنا وهنا وهنا.

أخوك سميح القاسم
(حيفا - 1988/6/12)

اشرح لهم ...
اشرح لهم صبرك

● عزيزي سميح،

بين عاصفة وعاصفة، قد نجد مقعداً للحنين أو للوداع. طوبى لهذه السكنى القصيرة المسورة بالريح. ولكن، لماذا تخشى السخرية؟ إذا كان لا يروقك تعريفها بأنها «اليأس وقد تهذب»، فإن في مقدورك أن تسميها ما شئت، شرط أن تدرأ عنك البكاء... وأن تقترح وردة على الليل.

أمك، أم قاسم، أمنا المشتركة، تنام أخيراً على متر من وطن. كيف أواسيك وأنت على مقربة من ثراها! خذ قصفة من حبق وأذهب إليها، وقبِّل ثوبها الترابي باسمي. كلَّمتها منذ شهر ولم تقل لي إنها ستغادر ذاك البيت القديم. كلمتها ولم تخبرني بأنها ستذهب بهذه السخرية العبثية إلى النهاية.

لا أذكر منها غير جمالها الناطق وصلاتها الصامتة على ولدين منذورين لما يقلق الأمهات. قالت إنها قوية وستحيا من أجلك.

والآن، لا استطيع أن أتخيلك بلا أم أيها الطفل الأبدي. لقد اختارتك أنت، لتكون يوسف قلبها. ألأنك جدير بكل حب؟ أم لأنك ذاهب في طريق الشقاء والحرية؟

كل الذين نحبهم ذهبوا... وسيذهبون.

لا تنس أن تنثر عليها ما وسعك أن تنثر من حبق. ألم تكن هي سيدة الحبق، كلما فركنا يدها أو ثوبها صرخ العطر بنا ونهانا عن انكسار لا يليق بأغنية صاعدة. ولكن لك، يا عزيزي، أما ثانية. لك أمي التي كفَّت، منذ سافرت، عن إدراك الفارق ما بيني وبينك. عرِّج عليها في طريقك من حيفا إلى الرامة، لتعوض عنك غياب «أم قاسم». عرِّج على «أم أحمد» لتعوض عنها رحيلي الطويل.

«آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر». كم تمنينا أن تكون معنا في صنعاء. لقد نشر الإخوة اليمنيون حسرتك: «هل سيكون عليَّ أن أموت مثل طائر في قفص؟ صحيح أنني أحوم كثيراً في هذا العالم، إلا أنه يظل على رحابته قفصاً ضيقاً على جناحين يعتقدان أن سماءهما الحقيقية والأولى والأخيرة هي سماء الربع الخالي من بلاد العرب العامرة».

وجاءني أكثر من أب يمني مطالباً بتحقيق رغبتك بمداعبة شعر طفل يمني. وظلوا يسألون: لماذا لم يأت إلى صنعاء؟

كيف أشرح للناس ما لا يشرح إلا بالسخرية. كيف أشرح لهم أن قانون الجيتو الإسرائيلي سيحاكمك، لو جئت إلى أرض العرب، بتهمة «الاتصال بالعدو»؟

على ألف مسرح أن ينهار أمام صرخة لم تصرخ: كيف؟

إن عليك أنت، يا عزيزي، أن تفجر هذا الحرمان الجهوري.

لأن اللامعقول الذي أنت فيه صار معقولاً إلى حد يحتاج إلى شهادتك وإلى صرختك. أنت، أيها العربي الممجد لأنك هناك حارساً لشجر الخروب ولون السماء. أيها العربي المقدس لأنك في القدس جسداً للمعنى وحماماً يطير على جامع ومسجد وخوذة. أنت أيها العربي الواضح لذاتك كتضاريس حجر. أنت أيها العربي المدفوع إلى هاوية الغموض المحيط بأجمل ما فينا من وضوح. اشرح... اشرح صبرك، واشرح لأهل اليمن حق راعي البقر اليمني، إذا كان يهودياً، في دفعنا من الحقل إلى ما وراء السياج. واشرح شرط قداستك في أن تكون هناك بأن يكون وطنك الصغير «وطن اليهود فقط» وبأن يكون وطنك الكبير «وطن الأعداء»!

اشرح صبرك، أو فاشرح ضيق صبرك.

فهل سيفهم أحد ما تعاني، وما تكابد. أيهذا الناجي من العواصف بعاصفة، أيهذا الطاهر في وحل المفارقات.

لكن الأبيض أبيض!

لم يحدث في تاريخ السطو البشري، يا عزيزي، ما يشبه هذا السطو، كأن يرافق الطرد من الوطن بمحاولة الطرد من الوعي والهوية. وكأن نعجز عن قول ما هو مقول في الواقع بطريقة لا تخرب توازن الكرة الأرضية. فعندما يتحول الاحتلال إلى «وطن وحيد» للمحتل تصير مطالباً بأن تعتذر عن كل سليقة، وبأن تبرز أناقة قتلك بخصوصية لا تؤذي سمعة الخنجر المغروس في لحمك، لا لشيء إلا لأن شخصاً آخر قد قتل والد قاتلك في مكان آخر. أنت... أنت الثمن. ولا لشيء، إلا لأن القاتل ليس خائفاً من القتيل مرة أخرى فقط، بل لأنه خائف من أن يفقد هوية الضحية. أنت... أنت الثمن.

لـم يحدث في تاريخ الجريمة قط مـا يشبه هذه الجريمة: كأن تمنـع الضحية مـن تسمية قاتلهـا، وكأن تمنع الضحيـة من مطالبة قاتلها بالتوقف، قليلاً، عن القتل من أجل حوار عابر!

إلى الجحيم

إلى الجحيم

فالقاضي هو القاضي... هو القاتل المتقاعد...

والشاهـد هو الشاهد... هو قاتل والد القاتل المطالب بتكفير عن ذنبه القديم بالتواطؤ مع القاتل الجديد.

وهكذا نُسأل: لمـاذا تعكرون صفو الاحتلال؟ لماذا تطالبون المحتـل بالانصـراف. إلى أين ينصـرف وقد صـار الاحتلال هو الوطن الوحيد؟

ليـس من حقـك أن تقول: ليس هذا الشـأن شأني. فإن عليك أنـت، الضحية، أن تضمن الحدود الآمنة والخارطة الغامضة الآمنة للآخرين في جسدك. وعليك أنت أن تقف خارج جسدك. وعليك أنت وحدك أن تجد حلاً لمصير جلادك قبل التفكير في البحث عن حل لمأساة وجودك.

اشرح، اشرح لهم صبرك.

وسيسألونـك: إذا دخل لص بيتاً، وفوجئ بقبعة صاحب البيت معلقة على المشجب، فمات من الخوف. فمن سوف يكون المتهم بالقتل: هل هي القبعة... أم صاحب البيت الذي علق القبعة؟

سيكون اللص بريئاً كالمعتاد!

ولكن إذا قتل جندي إسرائيلي طفلاً فلسطينياً، فمن هو القاتل؟ هـل هو الجنـدي، أم الطفـل الذي هيّـج أعصاب الجنـدي بلعبة الحجر، فأرغمه على قتله، ثم عالج عذاب ضميره بالبكاء؟

ما دام القاتل يبكي فإنـه بريء. وما دامت الضحية عاجزة عن البكاء فإنها متهمة بالتسبب في القتل، وبموت الضمير...

إلى الجحيم

إلى الجحيم

... وآه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر.

وكم افتقدناك في صنعاء، فبعد مؤتمر القمة العربي «الطارئ» جـداً الذي انعقد بعد ستة أشهر من اندلاع الانتفاضة، انعقد مؤتمر قمـة المثقفين العرب لدعم الانتفاضة ليكتشفـوا أن الانتفاضة هي التي دعمتهم في عملية عودة الروح إليهم...

كان المشهـد جميلاً في وطن العـرب الأول. وكانت النوافذ العربية، من صنعاء إلى مراكش، تطل على ساحة الحرية الأولى التي افتتحها الطفل الفلسطيني. وكنا نسأل: هل كنا في حاجة إلى حجر لنعـرف كيف لم تثلم روحنـا، ولنعرف أننا عـرب إلى هذا الحد؟ وكنا نتساءل: لقد أعطتنا الانتفاضة ذاتنا المفقودة، فماذا أعطيناها. وكنـا نحتج: كيف نناصـر أنصار الانتفاضة ضد آلـة القمع العربي الرسمي في الوطن العربي الخالي من الحجارة؟

سـوف يبقى المثقف العربـي حائراً. لقد وجد ذاته ولم يجد، بعـد، أداتـه. وكنـت أتابع الصـدى: «بقدر ما نبحث عـن وسائل الترابـط والتجـاوب بين الفعـل البطولـي الفلسطيني وبيـن الفعل الثقافي العربي، فإننـا نلتصق أكثر بدورنا وذاتنا، ونصوغ مقدمات مستقبل آخر للعلاقة بين الثقافة والواقع.

وكنت أتابع الصدى: «إن فلسطين كانت دائماً أغنيتنا المنشودة وجنتنـا المفقودة، تتقدم الآن منا وطناً ملموساً قابلاً للاستعادة، لها

ولمعناهـا المتحرر والحر في وطننا الكبير، وللعلاقة الاحتفالية بين حرية الإبداع وبين إبداع الحرية...

وكنـت أتابع الصـدى: «ليس للانتفاضة فـي لغتنا من وصف أدبـي، فهذا الاختلاط الواقعـي والطقوسي بين الوجع العظيم وبين الفـرح العظيم فـي عملية الولادة الكبرى، مـا زال يدفعنا إلى كسر الغياب الـذي هدد اللغة بالانكسار. كل شيء فينـا يعيد ترميم أوله الصلـب، ويحمل الالتزام إلى منطقـة كادت تبتعد: إلى منطقة أكثر عفوية وسليقة، وأكثر مرونة نظرية.

وكنت أتابـع الصدى: «لقد خرجت فلسطيـن مما كادت أن تدخـل فيه من مخيلة، خرجت فلسطين مـن الاستعارة، وخرجت مـن الأسطورة. قفزت مـن النص إلى الواقع كنسـر يقفز من لوحة منحوتـة. لقد عاد الوطن من المنفى إلى المكان. إن فلسطين، كما تتجلـى في الانتفاضة، هي شعب يقاوم الاحتلال على أرض الوطن المحتل. هي شعب، لا مفهوم ولا نشيد. هي شعب يرفع بالأجساد الدامية مطالب وطنية ملموسة ومحددة، علينا أن نتبناها.

وكنـت أتابع الصدى: «تقول لنا الانتفاضة، بأدواتها الإنسانية المتفوقـة التي تقـاوم الوحش، وبإصرارها علـى الاستمرار، تقول لنـا كما تقول للعـدو: إن الحل ممكن. إن الحـل واقعي وممكن. ولا ينقصه مـن فرص التنفيذ الفوري غير مـا ينقص الوضع العربي الرسمـي من ضـرورة انقلاب على المنهج، ومـن تحرر من التبعية الكاملـة لـلإرادة الأمريكية ـ الأب الشرعي شبـه الوحيد لمشروع التوسـع الصهيوني، مما يحرم الانتفاضة من قوى عربية قادرة على اختصار طريـق العذاب. وإذا كنا نلاحظ مـا أحدثته الانتفاضة من تأثيـر إيجابي على الوعـي العام الإنساني، ومـا أحدثته من خلخلة

في الوعـي الإسرائيلي المتخبط في مأزق تكوينه الأول، وفي عبثية الخلـط الشقي بيـن الحدود والوجود، فإننـا نلاحظ مظاهر العجز العربـي الرسمـي عن ممارسـة فعل يدفـع المـأزق الإسرائيلي إلى زاوية أضيق، ويفتح أمـام الانتفاضة آفاقاً أوسع. إن مقاومة ما يشبه الحصار الذي يضربـه العجز العربي على الانتفاضة وعلينا هو أحد مهامنا العاجلة».

كان ذلك هو الصدى.

أمـا الصـوت، فإنه قـادم من هنـاك: من بلاغـة الحجر، ومن بساطة الحجر...

أخوك محمود درويش
(باريس - 1988/6/21)

احـذر...
البرد والشرطة والتدخين

● أخي محمود،

هو أضحى آخر، فكل عـام وأنت بخير. وكل يوم وأضحياتنا بخيـر. يـد على حجر. حجر على دم. دم عـلـى دم. كل يوم ونحن بأضحى. وبغير ذلك لن يكون هناك أي خير.

مـا كان في نيتي أن أستذكر برد لندن في هذا النهار القائظ. إلا أن وسائـل الإعـلام النشطة لا تتيح لي مثل هـذه المتعة، قد ألّحت تلـحُّ، إصراراً، (مع الشكـر لصديقنا عادل إمام) علـى التذكير بما لا تروقنا ذكراه، وإنني لأنتفضـ غيظاً كلما استعدت شريط الإثارة البوليسية البريطاني.

ماذا تريد منا السيدة الشمطاء بريطانيا بقبعتها السخيفة وعروق ساقيها الزرقاء النافرة؟

لقد ضربنا صفحاً عن كل موبقات التاج الإنكليزي في وطننا، وبشاعـات تاريخه المتقرحة على جلودنا. نقلنا وجوهنا من سحنة

«المندوب السامـي» القذرة إلى وجوه أصدقائنا الإنكليز الشرفاء، فانيسا ريدغريف وكولن ولسون وارنولد ويسكر ورالف ستيدمان وجون هيث ستبز واضرابهم ممـن شبوا على طوق «الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس» وانطلقوا في أرض الحضارة الإنسانية بشراً سويين.

بذلنا جهدنا الممكـن للابتعاد عن بريطانيـا الاستعمارية التي طبختنـا وفـق قوانين الكوشيـر اليهودية وقدمتنا وجبـة كاملة على مائدة الحركـة الصهيونية... ثم بذلنا جهدنا الممكن للاقتراب من كل مـا هـو إنساني ومتحضر لـدى الشعوب البريطانيـة... بيد أن مصداقية دستويفسكي تطـرح نفسها من جديد، لتؤكد مرة أخرى أن المجرم يعود دائماً إلى مـكان جريمته. وتعود الضحية الطريدة لتكون الشبح الطارد.

أنـذا أعـود إلى مقـر إقامتي في فنـدق تشلسـي لاصطحاب قصائدي إلى قاعة البلدية حيـث ينتظرنا جمهورنا الحار والطيب. أدنـو من المصعـد، وكما في الأفـلام الأمريكيـة الرخيصة، يندفع نحـوي ثلاثة رجال باللباس المدنـي، يشهرون في وجهي بطاقات ما ويعلنون: أنت رهن الاعتقال!

- بأية تهمة؟

- ستعرف التفاصيل في مركز الشرطة.

- لكن جمهـوراً كبيراً ينتظرني الآن ليسمـع قصائدي ولا بد من إعلامه بما يجري.

- نحن نعلم منظمي المهرجان.

- في الخارج تنتظرني سيارة، يجب أن أخبر المضيفين بالأمر.

– نحن نفعل ذلك. تفضل.

وفـي الخارج، كانـت سيارتان مدنيتـان تنتظـران قبالة مدخل الفندق. أما سيارة البي. أم. في التي تنتظرني فكانت بعيدة ولم أتمكن مـن الاتصال بهـا لأن رجال الشرطة الثلاثة كانـوا يدفعونني بدفع لا يرحم إلى داخل سيارتهم الأولى، حيث تجلس سيدة خلف المقود.

قلـت: كيف لـي أن أتأكد أنكم حقاً مـن الشرطة وإنني لست مخطوفـاً من جهة ما؟ أبـرز الضابط الجالس علـى الجهة اليسرى بطاقته مرة أخرى...

من السَّهل تزوير بطاقة في هذا الزمن المزور. قلت:

– إن كنتـم تخطفونني من أجل المال فقد خاب رجاؤكم... وإن كان ذلك لأجل السياسة فلنتحدث في الأمر.

عـاد الضابط القصير الممتقع ليقول إنه لن يكلمني حتى مركز الشرطة. (علمت فيما بعد أنه مركز بادنغتون لمكافحة الإرهاب... والمخدرات).

– هل استطيع التدخين؟

– لا . ستدخن في مركز الشرطة.

– حسناً. لماذا نسافر في غابة؟ هل مراكز شرطتكم في الغابات؟

– (...)

آنـذاك، وفي قلب الغابة، غمرني شعـور رهيب باللامبالاة... تملكني الهاجس بأنني مختطف لصالح جهة لا علاقة لها بالشرطة. وأقـول لـك يا محمـود، إنني لا استطيـع ادعاء البطولـة. تذكرت زوجتـي وأطفالي دفعـة واحـدة... تزاحمت فـي مخيلتي وجوه كثيـرة... أقارب، أصدقاء، ناس مـن الناس، ورأيت جثتي المثقوبة

بالرصاص طافية على مياه التيمز الآسنة.

حين اندفعت السيارة إلى مدخـل إحدى البنايات تيقنت أنني أمـام مركز شرطـة. مراكز الشرطـة متشابهة فـي كل العالم. ومن سخريـات التاريخ لا القـدر أنني ابتسمت بهـدوء: الحمد لله، أنا، فعلاً، في يد الشرطة!!

قرأوا عليَّ «حقوقي»، وقالوا إنهم يصادرون على هذه الحقوق إلى حين وصول ضابط التحقيق المسؤول. ثم طلبوا إفراغ جيوبي مـن محتوياتهـا: الأوراق. قلم الحبر. بعض النقـود. مفكرة. علبة سجائر. قداحة ومسبحة.

قلت لنفسي: الشرطة هي الشرطة في كل مكان. وسألتهم:

– هل أستطيع التدخين الآن؟

– تفضل.

– هل لي بمنفضة؟

تبادلوا النظرات، وقال أحدهم:

– أنـت أول شخص يطلب منفضة هنـا. لا منافض لدينا. تستطيع أن تستعمل المصطبة.

عبـأوا نموذجاً. ثـم أخذوني إلى الحجز الانفـرادي في غرفة ضيقة مصفحة.

ليسـت زنزانـة كتلك التـي نألفها. إنهـا أوسع قليـلاً. نظيفة. وفي ركنها مرحاض من النيروستـا. وهناك أريكة بغطاء بلاستيكي وطاقـة ضوء في منتصف السقف. لم يكونـوا بحاجة إلى الأصفاد كما يبدو، لأن بابين حديدين يصطفقان الواحد تلو الآخر بعنجهية واثقة من نفسها.

خلعت حذائي وأسندت ظهري إلى الجدار البارد في زاوية الغرفة. لم تكن لدي هناك أية أفكار خاصة، انتظرت. فقط انتظرت ثم ناديت الحارس وطلبت شيئاً للقراءة. قال: انتظر حتى يحضر الضابط المسؤول.

بعد دقائق جلجل البابان الحديديان واقتادوني إلى غرفة أخرى. كان هناك رجل آخر باللباس المدني. قال: سيدي أنت متهم بالإرهاب. ونريد بصمات أصابعك ويديك وصورتين، أمامية جانبية.

لم يضع وقتاً وباشر العمل. قلت: نحن لسنا إرهابيين. نحن ضحايا الإرهاب. هل تعرف «كوميديا الأخطاء» لشكسبير. إنكم تؤلفون الآن تراجيديا الأخطاء. تبحثون عن الإرهاب في الاتجاه المعاكس.

قال: هل أنت قلق.

قلت: قلق على جمهوري فقط.

طلب توقيعي على لوحة البصمات.

قلت: إنه عمل تشكيلي رائع. وبهذا التوقيع تستطيعون بيعه بسعر عال جداً.

هل أستطيع الحصول على نسخة؟

دخل شرطي آخر:

- هالو

- هالو

- مستر درويش.

- أنا مستر القاسم.

– أين مستر درويش.

– مستر درويش في فرنسا.

– لكنكما كنتما معاً في منزل ناجي العلي.

– قمنا بواجب العزاء لدى أسرة صديقنا الفنان الكبير ناجي العلي. ثم ذهب كل منا لشأنه.

– لكنك تقول إن مستر دوريش في فرنسا.

– صحيح. هو في فرنسا.

– كيف سافر؟ ومتى؟

– سافر عبر مطاركم مثلما حضر عبر مطاركم. لم يتسلل. وسافر في موعد إقلاع الطائرة.

خرج مسرعاً. ثم عاد بعد دقائق.

– لم تعد شوارع لندن آمنة.

– هل بسببي أنا لم تعد شوارعكم آمنة. قلت لصديقك وها أنا أكرر: نحن لسنا إرهابيين. نحن ضحايا الإرهاب. شوارعنا نحن أيضاً ليست آمنة. وكما ترى فأنا شخصياً لست آمناً. نحن أكثر الناس حاجة إلى الأمن.

خرج، وعاد بعد قليل.

– مستر القاسم نحن آسفون، لقد حدث خطأ في التشخيص.

– خطأ في التشخيص؟ سكوتلاند يارد ترتكب خطأ في التشخيص؟ شكراً على اعتذاركم لكن ذلك لا يلغي مرارتي واستيائي مما حدث.

– نحن آسفون وأنت حر منذ هذه اللحظة. تستعيد أشياءك ونتمنى

لك إقامة طيبة في لندن.

مـرة أخرى يا محمود، لا أستطيـع ادعاء البطولة، فقد راودني الشـك بأن إخلاء سبيلي يعنـي أن جماعة مـا تنتظرني في الخارج للتصرف بي بشكل آخر.

قلـت: أعتقـد أنـه مـن المفروضـ أن تعيدونـي إلـى حيث اعتقلتموني.

قال: أنت على حق. سآخذك بسيارتي.

قلـت: إذا كان الأمـر كذلـك فأرجـو أن تأخذونـي إلى قاعة البلدية. لعل الجمهور ما زال منتظراً هناك.

وهكذا كان. وواصلت «الإرهاب» في القاعة. وكان التعاطف والانسجـام بيني وبين الجمهور رائعاً إلى درجة البكاء. ولا أعرف كيـف أسدد ديوني لهذا الجمهور الطيـب الصادق الذي لف قلبي بالعلم ولف عينـي بالأمل وشحن روحي وجسـدي بشهوة الفداء المقدسة.

ويا أخي محمود دوريش،

لسنا غصناً مقطوعاً من شجرة هذه الأمة. نحن حراس أحلامها وسدنة نارها الطاهرة. كان الله في عوننا. كان الله في عوننا.

وكيـف أنت فـي هذه الأيـام؟ لا تقلق كثيراً، لكـن يستحسن أن تحافـظ قليلاً على صحتك... لا بأس فـي شيء من الحذر، في مواجهة البرد والشرطة والتدخين!

أخوك سميح القاسم

(حيفا ـ 1988/7/26)

الأعمال النثرية



محمود درويش

عابرون في كلام عابر



مصاحبة الزّمن

محمد بنيس

1– لهـذه المقـالات المختارة، مـن بين المقـالات التي كتبها محمـود درويش في السنوات الأَخيرة، ما يعطيها صفة شهادة الشاعر الفلسطيني على زمنه. والشهادة، هنا، ليست مجرد تعليق على الزمن، بـل هي، أساساً، مصاحبة الزمن عبر التعدد الذي به يكون، من أفق إلى آخر. إنها، تبعاً لذلك، كتابة مع الزمن لا عنه.

ومصاحبـة الزمن بالكتابة، بالنسبة لمحمـود درويش، لا تتأَتى مـن إملاء الجاهز، كما هي عادة الـكلام المبتذل، ولكنها، بالأحرى، تعلّـمُ الأَسئلـة المنحفرة فـي العيني، حيـث تتحول الواقعـة إلى حالة منشبكة، مُركّبُها هـو الأَسبق في البناء، فلا تبسيط أَو اختزال، لا تنازل أَو استسهـال. مصاحبة لهـا قوة إرادة استيعاب زمـن لا تردد معه أَمام مـا يغـري الخطابات بالجنوح إلـى القناعة بصياغة مـا يستعصي على الصياغـة، أَو نسيـان ما يتطلب حضـوراً فورياً وصدامياً في المعيش والأَفكار والمواقف.

2– «عابـرون في كلام عابر» عنوان قصيدة كُتبت في سياق هذه المقـالات، وهي تحتفظ، هنـا، بمكانها، فيما هي تشيـر، مباشرة، إلى حيويتهـا وحيوية سياقها في الزمن والكتابة معـاً. هذا العنوان ـ القصيدة يهـب الاختيار توثبـاً، وهو، في آن، يثبـت ما تحتفل بـه الانتفاضة من

مطلب لا سبيل إلى ترويضه: انسحاب إسرائيل من الأَراضي المحتلة. مطلب جذري، ومع ذلك فهو ليس بسيطاً، هذه المرة، نتيجة ما انخدع به هؤلاء وأولئك من مبادرة السلام الفلسطيني. وإثبات ما تحتفل به الانتفاضة، منذ انطلاقتها، وضمن صيرورة النضال الفلسطيني، هو ما فجر الهوس الإسرائيلي، بكل ما يتكفل به أمام ذاته والصهيونية العالمية. لذلك فإن المقالات المرافقة للقصيدة تخط مساراً جديداً في تفكيك الفكر الصهيوني، بأَطرافه المتباعدة، وفق كتابة تواجه مواقف وأَفكاراً صهيونية لم يتطرق لها أَحد من قبل، بمثل هذه التفاصيل التي لا يدريها غير الخبير بشؤون إسرائيل ونخبتها.

أبرزت القصيدة أَن الإسرائيلي بحاجة إلى عدو، به يتعرف على نفسه، وبه يبرر ما يشاء في فلسطين وفي كل مكان. لذلك كانت «هيستريا القصيدة» تتجاوز حدود القصيدة، من الكنيست إلى أَمريكا وأُوروبا إلى المحكمة في باريس. هيستريا ضد أَن يكون الفلسطيني واضحاً تماماً، عندما ينتخب الحجر ليحرك مدار الأَسئلة «من الحدود إلى الوجود»، وعندما يصعد بالكتابة إلى أفق قول ما يجب أَن يقال.

هكذا تكون قصيدة «عابرون في كلام عابر» كتابة مع زمن الانتفاضة، وبها يتأَكد، ثانية، أَن محمود درويش شاعر أدرك، منذ فترة طويلة، أَن الشعر توأَم الفكر، وأَن الشعر يصوغ، في حداثتنا، قضايا الوجود الفردي والجماعي، من غير تهاون أَو تخاذل.

3- وللمقالات فسحة جليلة، تحس معها بطبقات الزمن متراصة في لا نهايتها. إنه الزمن الفلسطيني حتماً، حيث يكون داخل الأَرض المحتلة مقاوماً لمحو التاريخ والذاكرة، ويكون خارجها مواجهاً للحصار، من

ردهات مطـارات العالـم إلى أَحياء صبرا وشاتيـلا. في المكانين معاً يتخذ الزمـن الفلسطيني وضعية الاستثناء، يتعرض للتفتيت المدعم بـ «القوانين» ولا يتفتت، يُلْقَى إلى الأَقبية والمخابئ ثم إلى مكان الشهادة يعود.

لا ينحـد المحـو ولا ينحد الحصار. والانتفاضـة مسلك علني خطه الأَطفـال بحجارتهم وانقادوا، غير عابئيـن، إلى حريتهم. هناك يستولون على المشهـد لينبئوا العالم أَنهم أَحياء، وإلى وطنهم ينتمون. الصـورة تشهـد على ميـلاد الأيدي، والصـورة تتعرف، جيـداً، على الكوفية والعلم الفلسطينيين.

هـذه المقالات (وليسـت بمفردهـا) تتولّى التفاصيـل البعيدة التـي لا مجـال معها لتغييـب العـذاب الفلسطينـي، بمـا يختزنه من حـالات الشتات في الوطن أَو في بـلاد تتضامن في تجريم الفلسطيني بفلسطينيته، وتتعهد أَيضاً ما ينتصر به الفلسطيني على شتاته وعذابه.

4- وكيـف تفصل بين الشاعر وشعبـه أَو بين الشعب وشاعره؟ عبثاً فعلوا، تشهيراً وتخويناً، لأَن صدور محمود درويش عن غير إِملاء الجاهز، وقناعته بالمستقبل المغاير الذي بدونه لا تكون دولة فلسطين حرة، يظـل وفياً للراسخ فيه، شاعراً قلقاً متسائـلاً، مستقصياً جسوراً، يرصـد ما يعيـد به بناء الـذات وسط هديـر كلمات لا تُسمِّـي زمنها، يتمسك بما يبدد اليأس، يتعلم من القلب أَعماقاً لا يبلغها البحر، يخرج بالصداقـات على عهد الخيانات المريضـة، ويصاحب الزمن بالكتابة حتى يكون فيها باحثاً عن بذرة التكوين التي لا تشيخ، لأَنه هكذا:

«سأدافع عن الفروق الصغيرة

وسأواصل وصف الشجر».

على حجر

«أُسمِّي التراب امتداداً لروحي
أُسمِّي يديَّ رصيف الجروحِ
أُسمِّي الحصى أَجنحهْ
أُسمِّي الحصى أَسلحهْ
أُسمِّي ضلوعي شجرْ
وأَستل غُصناً
أكوِّره كالحجرْ
وأَقذفه كالحجرْ
وأنسف دبَّابة الفاتحين...»

من «قصيدة الأَرض».

علىٍ حجر... وبالحجر، يرفع الفلسطينيون المحاصرون سماء جديـدة لأحلامنا. يعيدون إلينا الأَرض الهاربـة من أقدامنا. ويكتبون، كمـا لم تَكتب الكتابة أبـداً، سيرة البشر على حجر، منذ قُدِّر للمعجزة الإنسانية أَن تَقُدَّ كيانها من جديد، من لحمنا وعظمنا.

فـي البدء، كانت الكلمة محفورة علـى حجر في تلك الأَرض.

وهـا هي تنطق فـي شروطها المعاصرة، ها هي تصـرخ كما لم يصرخ أَيُّ جرح من قبل، لا في برية... بل في جسد: الحرية، أو الطوفان...

يختلـط الواقع بالأسطورة، وتضيع الأسطورة في الزقاق، وعلى ساحـة لا مساحة لهـا ولا تاريخ، تنثر الشروط الأولـى للتكوين. على حجر، على حجر هو كَلامُ الآلهة للبشر، يصقل الفلسطينيون الجرحى بلّـور الروح. ويواصلـون الانبعاث الفذ من الروايـة ومن الأَرض، من قـوة الأشياء ومن ضعفها. يلعبون بالأساطير كما تلعب الريح بالشجر. ويكتبون النشيد الذي لم يكتبه أَحد: البحر في حجر...

وعلـى حجر، يتندّرون بسلاح الزائل المحتل، من عظام الوحش الأولي إِلى أحدث الدبابات. ويدفعون بتاريخ الوعي الضال إلى شيخوخة الفكـرة. إذ ليسـ في وُسْع هـذه الأرض أن تخصب مـا مات من نبات الخرافـة. فهذه الأَرض المثقلة بفاكهة المعانـي وبالأشجار المقطوعة، هذه الأرض المشبعـة بينابيع الوحي وبالآبـار المسمومة، هذه الأرض لأَبنائها جسداً للروح، وروحاً للجسد، منذ الأَزل وإلى الأَبد...

الضباب ظلام أَبيض
وفي الحجر سيرة البرق،

ورويـداً رويداً يلـم المشاهدون بأطـراف المشهد الفائض عن الحواسـ. مرحى لهذا الوقت المتدافعَ من أسطورة تعجنها على مرأى من القيامة تلك الأيدي الصغيرة التي لم تكمل، بعد، أظافرها ولا شارة النصر. فأين تخفي اللغة صدأ اعتذارها الأَنيق ليليق الكَلامُ بأَيِّ شيء، ما دام فـي وسع الحجر أَن يكتب مدائح الأَنبياء والشهداء لبلاد لا تحتاج إلى وصف ذاتها إلا بهذا الدور:

أن يتبادل الخالق والمخلوق سيرة الخلق!
على حجر... وبالحجر!

وعلى حجر، كان الأَولاد يعدُّون السنين وحبات المطر الجاف. كان الحجر يحبل بالبرق والعواصف، وكانوا يكبرون، لا ليكبروا سدى، بل ليفتحوا هذا الحجر الضيّق مدى للخروج من النسيان والهاوية، بكلٍّ ما يملكون من وضوح الصراع بين الدم والسيف، ومن غموض قوة الروح التي ترفعهم، أَعلى وأَعلى، من جدران سجونهم، ومن وحشية زمنهم، وأَبعد أبعد من سياجٍ خلفه الصحراء...

فسبحانهم؛

هؤلاء المولودين على سليقة الانفجار، على الحراب وعلى عتبات الزنازين، على طرق تضيع من الطريق، وعلى أَربعة أَلوان ممنوعة من الاجتماع، هي ألوان الشمس المغطّاة بغيمة احتلال عابرة...

وسبحانهم؛
وهم يدلون القوافل التائهة على طريق القلب الوحيد،
وسبحانهم
وهم يزرعون الحجارة، وهم يقطفونها في كُلِّ موسم:
حجراً ينسف الدبابة
حجراً يُحرِّك المحيط الراكد
وحجراً يحطّ على قلوبنا كالدوريّ المتوتر...
وسبحانهم؛

وهم يأتون إلينا منا. وهم يأخذوننا إليهم. ويطلعون من كل نداء ومن كل حرف، ولا يبدأون السير من الصفر. ومن هنا يطلعون ومن

هناك. من لا هنا. من لا هناك. من الواضح ومن الغامض. من الداخل ومن الخارج الداخل. ومن الداخل المتوغِّل في الداخل. من غزة ومن شاتيلا. من سفينة ومن خيمة. من بر ومن بحر. من كلمة ومن رصاصة. من هواء ومن ماء مصادرين. من جفاف حر واختناق مباح. من كتاب ومن تراب. من مدّ ومن جزر.

وسبحانهم؛

وهـم يعودون بنـا إلى المكان الذي لا مكان لـه خارج مكانه. هذا هو وطن الوطن. هذا هو مكان المكان. فهل نسي أحد ذلك؟ لا. لـم ينسَ أحـد ذلك. ولكن دماً غزيـراً روًّى ضواحي الوطن، لا لتكبر أَشجار المنافي، بل ليتضح الطريق إلى الطريق.

الضباب ظلام أَبيض.

وفي الحجر سيرة البرق؛

هي الانتفاضة. كلامُ حجر ينهي منابر البلاغة عنِ الكلام. كلام حجر محتقن باللغة وقد أُعتق. كلام حجر هو الكلام الأَول الذي يدلنا جميعـاً على قلبنا المقطـوع. وفي وسع ألف هزيمـة أَن تخلع خيامها الآن وترحل إلى الجحيـم. فلم تذهب أية قطرة دم سدى. ولـم تستطع محاكم التفتيش التي أقاموها لمحاكمة البطولة «الشاذة» الخارجة على قانـون الطاعـة العام، أن تحاكـم أي شهيد. ولم يتمكـن أي عرش من الجلوس على ساق مقطوعة وعلى مقعد صوت مـن أَصوات عذابنا. شعـب واحد، وطن واحد، وشعلة واحـدة مرفوعة على جبال الجليل والخليـل، وعلى أَصابـع الأَولاد من كل جيـل، مرفوعة مرفوعة مهما حشدوا لها من ليل جديد ومن روم جدد.

وطن واحد، شعب واحد، في الداخل وفي الخارج، في الاحتلال القديم، وفي الاحتلال الجديد، في مخيمات الوطن، وفي مخيمات المنفى. فما جدوى البحث عن الفارق في التعبير بين الآباء والأبناء. فلماذا هذا الغيظ على شعب يتصبَّبُ شظايا شمس وحرية؟ ولماذا ينتفض الحاقدون من الانتفاضة وهي تشهر هويتها: وطن واحد، وشعب واحد؟

على حجر... وبالحجر، يرفع الفلسطينيون المحاصرون آذان استقلالهم. ما زالت فلسطين قريبة...

وقريبة جداً.
فلا مفر من الحرية...
لا مفر من القدر...
وها هو الحجر يحكّ القدر!

حجر الوعي

كُلّ شيء فينا يبحث عن أَوَّله؛

فـي لحظة واحدة يُسفر انفجار التراكـم عن بقعة شمس صلبة، علـى أَرض صلبة. وكأَن أزمنة من تعقيـد الأَسئلة كانت لازمة للتعرُّف على مهابة البسيط، الأوليّ، الثابت في إنتاج معناه المتجدّد...

سيملأ الحجر كتابتنا، سيكون قمرنا الأرضي؛ وسيصعد الإلهام مـن الأَرض، بدلاً من أن يهبـط من السماء، بعدما تحـوَّل الحجر إلى وعـي، فذلك هـو أَحد علامات الواقـع الجديد الـذي تخلقه معجزة البسيـط، المُشبعـة بما يلخصـ وبما يشيـر، والمفتوحـة على مكانة المستقبـل من الزمن، بعدما ظنَّ الكثيـرون منّا أَن المستقبل قد لا يُولد من هذا الحاضر المفتوح على أنفاق لا نهاية لها...

في الحجر رأينا كيف تتوالد الأَشياء من علاقاتها... وفي أقدم سلاح قاوم بـه الإنسان وحشَـه الأول، على باب الكهـف الأول، نعيد النظر في العلاقة بين تطوّر السلاح وبين تطوّر مفهوم الحق. إذ ليست نوعية السلاح انعكاساً لكمية التطور الإنساني في الإنسان، ولا حاضنة لنوعية الحق.

لقد أحكم العقل الحسابي على أية معايير أخرى للتطور، خارج

تطـور السلاح، وأجهز علـى «مثالية» لا غنى عنهـا للتمييز بين فروق هيمنت فيها قوة الفولاذ على قوة الروح، فصار البوح بإيمان الإنساني بـأَنَّ «الدّم يهزم السيـف»، في النهاية، مثيراً للسخريـة، لأنه لا يتعدّى التبشير النبوِي لزمان يخلو من الشاعرية!

لقد حطّم الحجر تلك المعايير...

أعـاد إلينا الحجرُ الكثيرَ مما غاب من معانينا. منها كيفية تكيُّف الإرادة الإنسانية مع شروط نشاطها، وإطلاق القوة الروحية في معركة الدفـاع عن الإنساني في الإنسان، بأية قوة تعبير متوفرة حتى لو كانت حجـراً، دون أن تنتظر، إلى نهايـة العمر، مساواة مع عدو لم يتطور إلّا في سلاح يصاب بالعجز من فرط ما هو متطور. لأن سلاح الدفاع عن الحرية هو لغة الجسد والروح، في رفض ما يُملى عليهما من قمع. كل شيء في هذه الإشراقة يتحول إلى سلاح فعّال.

إن الحرج لا يصيب الجنرال الإسرائيلي، وحده، وهو يرى إلى عجز الطائـرة والدبابة أمام إبداعات وسائـل المقاومة، ولكن الحرج يصيـب أيضاً عقلية سائدة، تدعو الشارع العربـي إلى الامتثال المدَّاح لمـا فرض عليه من سكينـة القهر. إذ فـي وسع هذا الحجـر البسيط، البسيط إلى حدّ الإعجاز، أن ينقل العدوى إلى المقهورين.

كل شيء فينا يبحث عن أوَّله...
عشرون عاماً من الاحتلال؛
أربعون عاماً من الاحتلال؛

أصابها حجر يحرّك كامل الأَسئلة، من سؤال الحدود إلى سؤال الوجود. حجر يحرّك قاع الماضي، ويحرّك وضوح المستقبل.

كانـت الهيمنة الإسرائيلية تتربع على أقدارنا. وصار الحديث في «الزمن الإسرائيلي» حديثاً عادياً يشبه الحديث عن الخلود، بعدما انتهت الحـروب النظامية إلى ما انتهت إليه من قنوط البحث عن توازن الطائرة بالطائـرة وتساوي الصاروخ مع الصاروخ، ممـا أَحال سؤال الحاضر، سـؤال المهام المطروحة علـى الحاضر، إلى غيـب لا يدرك. وأوكلت مهـام إدارة الصراع مـع العدو المتفوق في السلاح إلـى أَجيال لم تولد بعد. فردّ الاحتلال على الهاربين إلى الغيب بالهيمنة على زمن الصراع.

أمـا الجيوشـ النظامية فقد استبدلـت مهام الصـراع المؤجَّل، وتحريـر الأَوطـان المحتلـة مـن كل الجهـات، بمهام ضبـط الأمن الداخلـي، وملاحقة فكـرة التحرير، وفكـرة الديموقراطيـة، وفكرة فلسطيـن «الشـاذة»؛ ملاحقة تهدف إلى إخراجها مـن شعبيتها، ومن طليعيتهـا الداعيـة إلى تحرير الطاقـات الشعبية من القيـود التي تحول دون انخراطها في خوض معارك مصيرها، اليومي والقومي، وحُمِّلت المسأَلة الفلسطينيـة مسؤولية الجفاف في الرغيف العربي، ومسؤولية انتشار السجون أكثر من انتشار المستشفيات.

ولكن، كانت فـي معاهدة السلام العربية ـ الإسرائيلية الأولى عبرة بائسـة، حالت دون التكـرار العلني والرسمي لمثل هـذا السلام الذي تمَّ استبداله بما هو «أجـدى»: «لا حرب ولا سلام» ـ الشعار الذي طبق منه الشرط الأَول القاضي بتدمير منظمة التحرير الفلسطينية، وطبق منه الشرط الثاني القاضي بترك الزمن الإسرائيلي يعمل حراً متحرراً من الضغوط.

وها نحن ننظر الآن إلى الوراء القريب، إنه تاريخ قصير من الارتداد إلـى الخلف، ومن ترحيل المقاومة من موطئ قدم عربي إلى آخر، لتبقى معلّقة على هامش الفـراغ المفتوح لخيار وحيد هو «الخيار الأردني».

ولكنه تاريخ مشحون بالتوتـر وبطولة الدفاع عن الوجود وإرادة التعبير عن إرادة شعب حمى صوته وصورته من الذوبان في الآخرين.

لم نسقط في أي موقع أخير، لأن ليس لنا أي موقع أخير إلا الوطن.

ولنا وطن. هنا الوطن...

كل شيء فينا يعيد إنتاج ولادته من هذه الإشراقة. ليست هي عودة الروح. فالروح لم تهرب منا. ولكنها يقظة المكان في المكان. وثورة الوطن في الوطن، بعدما مهَّد لها مناخ الصمود الفلسطيني في كل مكان فرصة المخاض العظيم الذي يعيد، بدوره، إنتاج المناخ الثوري الشامل، القادر على فرض الحصار على الأفق الإسرائيلي، وعلى التبشير العفوي بقدرة الشارع العربي على فك الحصار عن إرادته، وخوض معركته الخاصة، الخالصة من أي اعتبار، عدا اعتبار الديموقراطية والحرية.

لذلك، يشعر الكثيرون بأَنهـم يتطهرون، الآن، من سلبيات مرحلة انتقالية رمادية أصابتهم بالإحبـاط. من منا يخفي رعشة الحماسة وشباب البدايـات التـي خبت، بعض الشيء، فـي جيل كاد يرثـي أَحلامه؟ من منا يخفـي فرحته العائدة بعودته إلـى ينابيع أولى، وبتحرّره مـن أناقة التفكير والتعبير التـي كانت أحد أسماء النفق الكابوسي، الـذي دفعت إليه أجيال تيتَّمـت بالحلـم الكبير، وحرمـت من الافتتـان بصورة البطـل، وبالحج الروحي إلى وطن البطولة، بعدما تعاون النظام العربي مع الإسرائيليين على تهجيـر البطل فينا إلى ظاهرة «الجنون الفـردي» وتبارت اللغة الثقافية مع اللغة السياسية على فقه طبيعة السلام الواقعي، الناجم عن علاقات قوى لم تؤهّل أَحداً للوصول حتى إلى مائدة التوقيع على هزيمة مشرِّفة؟

كل واحد منا يعود إلى أَوَّله؛

كل شيء فينا يبحث عن أَوله...

الانتفاضة، تلك الحلقة المتصاعدة في عملية مقاومة لم تتوقف لحظة، قد غيَّرتنا جميعاً. لا لأَنَّها أعادتنا إلى بسيط المكان وإلى بسيط السلاح فسحب، بل لأنها حركت فينا أيضاً الإيمان غير المحدود ببداية الخطاب الثوري، في ما هو يحارب الاحتلال الإسرائيلي، وفي ما هو يخاطب الواقع العربي. وأعادتنا إلى المواد الخام، المواد الأولية التي يتركَّب منها وعينا، قبل أَن يترافق الوعي مع انفصالٍ ما عن مكوِّناته. حتى الديبلوماسي فينا لم يعد قادراً على استخدام اللغة ذاتها، بعدما وضعته الانتفاضة في واقع جديد. فلم يعد قادراً على البحث، الآن، عن الحصاد السريع. لأن مهمتنا الأولى والرئيسة هي أَن نطوِّر الوسائل القادرة على تطوير الانتفاضة إلى حد القطيعة الكاملة مع الاحتلال، بكل ما تشمله هذه القطيعة من مستويات.

لم يكن الوعي شريداً ليقال إنه عاد إلى الوطن، أَو اكتشف «داخل» الوطن. إن «الداخل» هو ساحة المعركة الرئيسة، ولكنه قد امتد إلى «الخارج» بسبب ظروف الهجرة، والشروط التي تؤثر في طبيعة المعارك التي يضطر الفلسطينيون إلى خوضها في كل مكان. إن صمود «الخارج» في معارك تثبيت الهوية الوطنية، وشرعية التمثيل الواحد، ساهما في دفع الفلسطينيين، أَينما كانوا، إلى تصعيد التعبير عن الذات الوطنية. وحين احتقن «الداخل»، وهو قلبنا وجوهرنا، بشروط الانفجار العظيم، ارتفع النضال الفلسطيني إلى أَعلى مراحله، والتحم الخارج بالداخل بشكل لم يعد في وسع

أحـد، عنده، أن يتمتع بفـوارق البحث عمّا يخدشـ وحدة الشعب الفلسطيني.

لنا الوطن. وهنا الوطن؛

لـم يتساءل الفلسطينيون، أَبداً، ما هو وطنهم ... ولكنهم تساءلوا ما هي دولتهم...

ذلـك فارق فرضته قسـوة هذا العالـم، وموازيـن القوى الدولية والعربيـة التي لا تَسْلَمُ المطالب الوطنيـة المرحلية من التأثر بها، مهما تصاعد التوتّر بين الحق التاريخي وبين الهدف المرحلي.

ولماذا نتردّد في القول أنْ لا «حل عادل» في جميع التصورات التـي طرحها العالم على مأساة الشعـب الفلسطيني للتوصل إلى «حل عادل»؟ لا «حل عادل»، منذ قرار التقسيم حتى برنامج السلام العربي فـي فاس. لا «حل عادل» في شـقّ الإبن إلى شطرين، ولا في التعويض على الأم بقطعة صغيرة، أو كبيرة، من جسد الإبن.

إن الجرح عميق، عميق، وقد لا يلتئم. ولكنِ العملية التاريخية لا يحركهـا العدل وحده. الجرح أعمق من خلو الحلِّ من العدل، وأعمق مـن خلوّ السلام من الحق. لذلك لن يندمل الجرح ما دام للفلسطينيين ذاكـرة، وما دام للوطن أبناء يدافعون عنه بالحجر وبالجسد. ولن يصل الإسرائيليون إلى مـا هو أكثر من الخيبة، جرّاء إصرارهم الخرافي على دفع الوطن الفلسطيني إلى النسيان.

إن الدولـة الفلسطينية تتكوَّن، ولن يعيقها خـوف الإسرائيليين من أن تفتح الدولة الفلسطينيـة سؤال الوطن الفلسطيني على تطورات

المستقبل. وعلى الرغم من أن بعضهم يرى أنها الحل المؤقت الوحيد لمأزقهم التاريخي، إلّا أنَّ الخوف السائد هو الوعي السائد، وأن الأَسئلة التي طرحها وضع عرب 48، والتفافهم حول انتفاضة أَبناء شعبهم في قطاع غزة، وفي الضفة الغربية، على المخيلة الإسرائيلية، لا تتعلق كلّها بدورهم في صياغة القرار السياسي الإسرائيلي في المستقبل فقط، بل تتعلّق أَيضاً بمكانتهم أو مكانهم في الدولة الفلسطينية.

لا نعرف مدى جدية الخوف الإِسرائيلي من حتمية نشوء الدولة الفلسطينية، ومدى ما تحمله من تهديد تاريخي للوجود الإِسرائيلي. فلا أَحد يملك سحر القوة لمنع التاريخ من العمل. الأَمر الذي نعرفه هو أَن إِعلان هذا الخوف المبكر هو الذريعة السياسية الإِسرائيلية لإِطالة عمر الاحتلال؛ والإصرار على عدم الرغبة في الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في الوجود وفي الاستقلال.

ولكن إسرائيل تبدو في صورة مَنْ صحا من نومه فُجَاءَة على إِيقاع الحجر. إِنها تجد نفسها حائرة في الحصار الفلسطيني المضروب عليها من الجهات كُلِّها... وحتى البحر لم يخلُ من انبثاق فلسطينيين في السفينة الرمزية العائدة على إِعادة الرموز إِلى أَصحابها، وإِلى تصويب الميثولوجيا من الضلال الإِسرائيلي. فأَرض الميعاد هي أَرض الفلسطينيين، وحقّ العودة هو حقٌّ فلسطيني.

إذن، لا يتساءل الفلسطينيون عن وطنهم، فهم يعرفونه. ولكنهم يتساءلون الآن عن دولتهم في وطنهم.

إن وعي العالم أَيضاً يتساءل عن الدولة الفلسطينية.

لقد تغيَّر هذا الوعي. وصحا الضمير الغربي على صورة جديدة للفلسطيـنـي. اكتشف أن الشعـب الفلسطيني موجود! وها هي صورة الولـد الفلسطيني، على شاشـة التلفزيون، يطارد الجنـدي الإسرائيلي بحجـر، تتحول إلـى مشهد يومي يثير الإعجـاب. ولا شيء يدعو إلى الالتباس: شعب محتل يقاوم الاحتلال على أرضه. إنه مطلب مفهوم، بسيـط، وواضح، لا يدعو التعاطف معه إلى الاشتباك مع «عقدة ذنب» تجـاه اليهودي الذي كان ضحيـة الأوروبي أمس، علـى العكس: إنه سيحَرِّك، مع مرور الوقت، عقدة ذنب تجاه العربي الذي تواطأ الغربي مع الإسرائيلي على وجوده وعلى مصيره.

لقد تغيَّر وعي العالم. وصحا الضمير الغربي على صورة جديدة للإسرائيلـي. إنه مدجـج بالسلاح، بالفولاذ وبالغـاز المسيل للدموع وللأجنّـة. إنه يقتل الأطفـال. يدفن الأحياء بالبولـدوزر. يكسّر عظام النـاس. يغتال. ينسف سفينة تعود عـودة سلمية ورمزية إلى حيفا. يبعد المواطنيـن عن وطنهم. إنه جلف، صلـف، مغرور، وابتزازي. صورة استغرقـت أربعيـن عاماً حتـى اتّضحتْ ملامحها، ومـن الدَّهَش: هل يفعل اليهودي ـ الإسرائيلي ذلك؟ إلى دفاع اليهودي ـ الغربي عن نفسه من الطريقة التي يمثله بها الإسرائيلي، يستغرق تبلور الوعي زمناً لينتقل من الاحتجاج علـى السلوك الإسرائيلي إلـى الاحتجاج على الجوهر الإسرائيلي. ما زال هنالك متسع من المجادلة الغربية حول الفارق بين السلـوك الإسرائيلي وطبيعة النظـام الإسرائيلي. ولكن مفهوم «حقوق الإنسان» صار يتسع، بعض الشيء، للفلسطيني!

تغيَّـرت الصورة. ولكن الجوهر مـا زال في حاجة إلى المعارك،

إن قشـرة الحرام المحيطة بالإِسرائيلي قـد خُدشت. ولكن علاقة العالم بالجوهر الإِسرائيلي مـا زالت محروسة بالحواجز، لا لأن عقدة الذنب هي التي تتحكم بطريقة النظر إلى الشرق الأَوسط، بل لأن مصالح الغرب ما زالت في حاجة إلـى بوليصة التأمين المضمونة، إلى حاملة الطائرات الأَمريكيـة لكبح شبـق الشرق العربي إلى التحـرر، مهما تنافس «عرب الغـرب» على إقناع واشنطن بإمكانية تحويل أوطاننا إلى حاملة طائرات تنافس الدور الإِسرائيلي، لأن احتمالات تطور المجتمعات العربية غير مأمونة الاتجاه والصفة بالقَدْر المحكوم به «الجيتو» الإِسرائيلي.

ذلك هو ما يحدد بوصلة الرؤية الغربية إلى صورة الشرق العربي الكليـة، لا الخطاب الأَخلاقي عن «وطن يهـودي للشعب اليهودي» مؤسس علـى «أَرض ميعاد» تبين أَنها الولايـات المتحدة لا فلسطين، كما قال أحد حاخامات نيويورك، ولا الخطاب الليبرالي عن سفير فوق العادة لديموقراطية الغرب في دكتاتورية الشرق. فها هي الديموقراطية الغربيـة، في صحـراء الشرق القمعي، تفصح عـن تناقض تناحري بين «يهودية الدولة اليهودية» وبين «ديموقراطية الدولة الإِسرائيلية».

فكيف يغطي الخطاب الغربـي عورة أيديولوجية كشفتها عملية ديموغرافية محضة، تضع الديموقراطية في موقع مضاد للإِنسانية وتطور البشر الطبيعي؟ هل واجهت الديموقراطية، من قبل، مأزق تعارضها مع الإِنسانية؟ وماذا يتبقى من الديموقراطية إذا أسفرت عن عنصرية؟

إن مستقبـل الديموقراطيـة الإِسرائيليـة، كمـا يحـدده الفكـر الإِسرائيلـي الرسمي، مشروط بطرد جميـع الفلسطينيين من فلسطين، وباغتيـال فكرة الاستقلال الحقيقي والحرية مـن وطن العرب، وعلى

الفكر الإِسرائيلي أَن يحل معضلة لا تُحَلّ: إِمّا أَن يعترف بقوانين التطوّر التاريخي، في المنطقة العربية المضادة لمسار المشروع الصهيوني العاجز عن التغلب على كونه أقلية ديموغرافية في بلد صغير (فلسطين)، وفي محيط كبير (العالم العربي) وإمّا أن يعلن طبيعته المنافية لما يدعيه من «نسيج أخلاقي» وديموقراطي، ويعطل استعمال لغة «الحق التاريخي» أو «الحق الواقعي»، بإِعلان مملكة صليبية!

إن العناد المسّادي، وضيق الأفق التاريخي، والرهان على هشاشة الواقع العربي، وعلى تحوُّل إسرائيل إلى شأن أمريكي داخلي، هي العوامل التي قد تدفع بالأسئلة إلى حدودها القصوى، وهي التي تكبحها أيضاً لما في تلك العوامل من تنافر.

ولكن الحياة تمدّ الأحياء دائماً بما يفاجئهم، كأن يفسد الحجرُ دروسَ الحساب، فيتقدَّم المنسي من السلاح، باعتباره حجر الوعي لنهايات القرن العشرين. إِن الحجر هو بديهة دفاع عن وجودٍ ثابتٍ. وهو أحد تجليات الحقائق الأولى والعناصر الأولى، بما يشير إليه من رموز بسيطة: ثبات، سلاح، مكان، علامة. مادة أولى لبزوغ كيان إِنساني في يد مبدع. إن هذا الحجر الفروسيّ صار قادراً على إِعادة الظواهر المعقّدة إِلى تكوينها البسيط. وصار قادراً على تلقين بعض الحقائق. من هذه الحقائق التي يستوعبها الوعي العالمي: أَن للفلسطينيين وطناً. وأَن اسم هذا الوطن فلسطين. وأَن فلسطين هي الأرض التي أنشأ عليها الإِسرائيليون دولتهم. إَنها الأرض نفسها وليست أرضاً أخرى. لقد زُجّ بالمواطن العالمي العادي في حقل معرفة كان الإِسرائيليون يحتلونه ويحتكرونه.

ومن هذه الحقائق: أن الفلسطينيين يقاومون الاحتلال الأجنبي. وأنهم يطالبون بجلاء الاحتلال عن الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس. وبخاصَّةٍ أن أَحداً في الغرب لم يعترف بشرعية هذا الاحتلال، ولم يعترف بأَنه ضروري للدفاع عن حق اليهود في الحياة. حتى الغزاة، أَنفسهم تباروا، فور الاحتلال، في تحديد الثمن المطلوب للانسحاب من تلك الأرض.

أَما الآن، وقد تداخلت خرافة «أَرض إسرائيل الكاملة» في نسيج المجتمع الإِسرائيلي، وتكررت سابقة توسيع قاعدة «الشرعية الدولية» الوحيدة التي تقوم عليها إسرائيل بلا عقاب، وهي الشطر الخاص بها في قرار التقسيم، فقد أدمن الوعي الإِسرائيلي العام الإِيمان بقدرة «الأَمر الواقع» على إِنجاب «الحقوق»، على أَية أَرض تطأُها أَقدام الجنود الإِسرائيليين، فتلك هي حدود إسرائيل، على تعبير الجنرال موشيه ديان.

من المؤلم أن الوعي العالمي قد اعتاد هذه الخارطة المطاطة، إِلى درجة اشترط معها حل المأساة الفلسطينية بإِيجاد حل لملهاة الأَمن الإِسرائيلي. فعلى الرغم من الانقلاب العميق في هذا الوعي المتطور إِلى الاعتراف بضرورة إِنشاء الدولة الفلسطينية، غير أَنه ما زال مشغولاً أَكثر في البحث عن حل آخر لخوف الإِسرائيليين من المستقبل في حالة نشوء الدولة الفلسطينية.

إِن المطالبة بتوفير حلٍ لعقدة أَمن الغزاة لا تخصُّ الحاضر المتنازع عليه فقط، بل تخصّ أيضاً كامل الزمن المتنازع عليه. ومن هنا يصطدم اعتراف الوعي العالمي بتأسيس الدولة الفلسطينية بعقبات

ساخـرة، منها كيف توضع قوات دولية لمراقبة عملية التطوّر التاريخي في اتجاه قد لا يرضي الأمن الإِسرائيلي!

على الذكاء البشري، إذاً، أن يبتكر طريقة جديدة لمنع المستقبل من الحمل، وما هو مثير للسخرية أيضاً: أن تُطالَب الضحية الفلسطينية بتوفير شروط الحماية التاريخية لمستقبل جلاَّدها.

قيل: إن التاريخ يمزح،

ولكن من قال إِن من حق البشر أن يمزحوا، بهذه السماجة، مع التاريخ؟!

هـا هو التاريـخ يضحك على هذا المنعطـف التاريخي. فهو لا يكترث بما هو خارج تاريخه.

أما نحن، فعلينا أن نكترث، كأَن نتنازل عن أَربعة أَخماس وطننا مقابـل «حكم ذاتي» على مـا تبقى منه، وعلينا أَن نتعهد، وبأننا لا نريد الاستقـلال بعد جـلاء الاحتلال، بل نتطوَّع، بكل هـذه التضحية، في عملية إِنقاذ النظام الإِسرائيلي من مأزقه الراهن، وفي إنقاذ النظام العربي من فزّاعة المثال الذي تزوِّد به الانتفاضةُ مخيلةَ الغاضبين.

ذلـك هـو مضمون المعالجـة الأَمريكيـة النشطـة للتغيّر الذي أَحدثته الانتفاضة في الوعي العالمي، بما فيه الوعي اليهودي الليبرالي، ولمـأزق القيـادة الإِسرائيليـة التي أَدْرج قِصَـرُ نظرها مسأَلـةَ الوجود الإِسرائيلـي، برمته، على جـدول أَسئلـة المستقبل، ولمـأزق البدائل العربية المؤرقة بطائر الفينيق الفلسطيني.

ومن الواضح أَن النشاط الأَمريكي المكثف لا يسعى إِلى تحقيق

ما اصطلح على تسميته بالسلام العادل. فهو معنيّ، في البداية والنهاية، بخنـق الانتفاضة، وتطويـق آفاقها وأبعادها ومعانيهـا، وبشلّ تأثيرها، بعيـد المدى والمباشر، على الكيان الإسرائيلي، وعلى بعض الكيانات العربيـة، المرشحة للانكماش... أو للانتعاش في دور تحويلها إلى قوة احتياط للأَمن الإِسرائيلي، في حال انبثاق الكيان الفلسطيني.

نحن أَمام لحظة انعطاف تاريخي...

لقد أذاعـت الانتفاضة الإِعلان الرسمي عـن ولادة زمن جديد فـي الصراع الفلسطيني ـ الإِسرائيلي، بعدما انزوى الصراع الإِسرائيلي ـ العربـي الرسمـي في زاويـة مظلمة تقاطعـت فيها مصلحـة مشتركة «عابرة» في وأد فكرة الدولة الفلسطينية، والقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية، لحرمان الشعب الفلسطيني من حق التعبير والتمثيل.

وبلغ الإسفاف في اللغة السياسية العربية الرسمية حداً لم تحاول معـه التعبير عما يُمَيِّزها عن اللغة السياسية الإِسرائيلية، في إِنكار وجود الشعب الفلسطيني، وحقه فـي تقرير المصير وإِنشاء الدولة المستقلة، ولـو تميّزاً شكلياً: فـإذا كانت العقلية الصهيونيـة قلقة من خطر الدولة الفلسطينية على الوجود الإِسرائيلي، فإِن العقلية العربية الرسمية مطالبة بالإفصـاح عن مخاوف تختلف عن المخاوف الصهيونية، كأَن تُحدّد خطر الدولة الفلسطينية على الوجود العربي، وعلى الوحدة العربية!

نحن لا نسخر، بقدر ما نعبِّر عن صعوبة قصوى في فهم شراسة العـداء العربي الرسمي، المتحول إلى سياسة رسمية، لفكرة الاستقلال الوطنـي الفلسطينـي على الأرض الفلسطينية. ونحـن لا نسخر، بقدر ما نعبِّر عـن صعوبة في إِدراك المعنى الحقيقـي لشبه الإِجماع العربي

الرسمي على قبول التصوّر الأمريكي، والإِسرائيلي أَيضاً، لحل الصراع بتبنِّي خيار وحيد.

ولكن مائدة الأَفكار التي قلبتها الانتفاضة وقد انقلبت، وليس في وسع الأَفكار القديمة أن تتعامل تعاملاً مثمراً مع الواقع الجديد. إن المعركة مفتوحة مع الاحتلال الإِسرائيلي، ومع أي خيار لا يعبِّر عن طموح الشعب العربي الفلسطيني في الاستقلال الوطني الكامل.

إِن الآفاق التي تفتحها الانتفاضة أَمام المستقبل الفلسطيني تستدعي اليقظة أَمام الأَنفاق التي يحفرها الأَعداء، وبعض الأَشقاء، للمصير الفلسطيني، ولكن ليس لنا ردّ على ذلك غير الرد الثوري: وهو تكريس كل الطاقات والجهود لتطوير الانتفاضة القادرة على خلق واقع جديد.

ونحن، لا نتساءل عن الوطن، لأننا نعرف الوطن. ولكننا نتساءل عن الدولة المستقلة على تراب الوطن.

هذا ما تقوله الانتفاضة

هذا ما يقوله الحجر.

مجلة «الكرمل»

الكاميرا، والصّورة، والمشهد

لعلَّهـم في حاجة إلى المزيـد من الظلام، ليسفكـوا المزيد من الدم...

فبعد كل حفلة قتل كانوا يحنون رؤوسهم، قليلاً، أمام العاصفة، ثم يعودون إلى المرجعيـة الجاهزة «ما دمتُ قد قُتلت فمن حقي أن أَقتل». ويصبـون العاصفة في كأس من ماء بـارد. لا، ليس من حق أية ضحية أن تكـون ضحية إلا إذا كانـت ضحية يهودية. وليس من حق أي جلاَّد، في التاريـخ الآدمي، أن يستدّر دموع المتفرجيـن إلا إذا كان جلاداً يهودياً، لأن هذا الجلاد ليس أكثر من ضحية ظروف حوَّلته إلى جلاد طاهر!

وحين كانت الانتفاضة، فـي مشهدها الإنساني البسيط، تحرر صورة الفلسطيني من التشويه التقليدي المتراكم، كانت في الوقت ذاته تحرِّر الوعي الغربي المعقَّد مـن الابتزاز الجشع، ليشهد على المشهد بما يرى الشاهد،

كانت الكاميرا هي الشاهد،
هي الشاهد المحايد،

هـذه الكاميـرا ذاتها كانـت، قبل قليـل، سـلاح الإسرائيلي في

معركـة تسويق الدموع الإِسرائيلية إِلى الضمير الإِنساني، مع برتقال يافا وأفـوكا الكرمل. وفـي كل حادثة عنف كان الطفـل الإِسرائيلي والمرأة الإِسرائيليـة هما الضحيتان المعدتـان سلفاً. لأن الجنـود الإِسرائيليين، عادة، لا يموتون إلا «موتاً طفيفاً». ولأَن الرصاص العربي لا يصيب غير المدنيين، الجنود الإِسرائيليون لا «يستشهدون» إلا في حوادث الطرق! أَما الأَحياء منهم، فهم إِنسانيون إِلى حدّ التفريط بقدسية الأَمن، والإِفراط فـي تعاطي المخـدرات. بعضهم يتمرَّد علـى أَوامر القـادة اللاإِنسانية. بعضهـم ينتحر حزناً على الشهداء. وبعضهـم يُوقِّع على عرائض تطالب رئيس الحكومة بوضع حد لحلم «أرض إِسرائيل الكاملة». ويبلغ عذاب الضمير لدى الجندي الإِسرائيلي درجة تغري المراقبين العرب بالحديث المريح عن احتمال نشوب حرب أَهلية في المجتمع الإِسرائيلي.

والكاميرا هي الشاهد؛

هي التي اقتطعت جزءاً مـن الصحراء العربية وحوَّلتها إِلى جنة. الجرافـات تطبخ الرمـل والمستنقـع والبعوض، على أَنغـام أَماديوس موزارت المنشطة، لتحيلها إِلـى بساتين وبحيرات، ولتكذب كتابات الرحالـة الأُوروبيـن عـن فلسطين المزدهـرة. لأَن في وسـع التاريخ البشري أن يبدأ من الصفر، إِذا شاءت الكاميرا ذلك.

والكاميرا هي مساحة الفـارق الحضاري بين بيت في كيبوتس يربي البط والتفاح... وبين بيت من صفيح في مخيَّم. في البيت الأَول طفلة نظيفة تعلب بمفاتيح البيانو. وأب يقرأ «تاجر البندقية» باشمئزاز. وأُم تُصفف الزهور على الطريقة اليابانية. وفي البيت الثاني طفلة تلعب بالقمامة. وأَب يسرد تاريخ الخرافـة. وأُم تقشر البصل وتغسل الثياب في جردل ماء واحد.

ليس من واجب الكاميرا أن تشرح أكثر من فارق الصورتين. فهي لا يهمهـا أن تعـرف أن سكان المخيـم هم أصحاب الأرض التي أُقيم عليهـا الكيبوتس. ولا يهمهـا أَن تعرف أن هذا يقيم علـى أنقاض ذلك بعدما اقتلعه وأودعه النسيان. الكاميرا لا تبحث عن الأُصول والجذور. الكاميرا لا تعرف ما تحت المكان... لا تدرك ما تحت الوردة؛

لأَن الصورة هي الجوهر!

لقـد ارتاح الإِسرائيليون إِلى صورتهم، في صناعة فيديو تماهوا فيها إِلى درجة نسوا، عندها، أنهم هم الذين اختاروا المشهد والأَبطال والإِضاءة والعدسة. وتحولـت الكاميرا من سلعة إِلى عقيدة، من سلعة للتصديـر إِلـى صورة عـن النفس... صـورة نهائية محكمـة الجمال والكمـال، فيها مـن عناصر التـوازن الذاتي ما يجعل الواقـع انعكاساً للصورة. الواقع ظلّ. الواقع شتات لصورة هي الحقيقة الكلية.

وفي نشوتهم بصورتهم عـن أَنفسهم، انتقلوا من لحظة الحاضر الـذي تمَّ تضليله، إِلى الماضي ليزجّوا به فـي تكوين الصورة المتعطشة إِلـى استقامة السياق، «منذ الأزل والله لا يريد سوانا على هذه الأَرض. نحـن صورة الله». لم يحدث ما يعكـر صفاء الصورة ولا ثباتها، فليس نبوخذ نصر أكثر من حادث إِرهابي تمَّ تطويقه. لم يحدث شيء في صورة الزمن المتطابقة مع صورة الذات، فقد جرت عملية التسلّم والتسليم بين آخر ملوك يهوذا وبين بن جوريون في طقس بروتوكولي هادئ!

منـذ الأَزل وإِلـى الأَبد. «سنبقى هنا إِلى الأَبـد. لن تقوم للآخر قائمة إِلى الأَبد. نحن على حق إِلى الأَبد. واليهودي لا يرتكب الخطيئة إِلى الأَبد». وهكذا تطـوِّر الصورة طبيعتها المقلوبة ـ جوهراً ومصدراً

لمعرفـة الواقع - إلـى وظيفة هي الهيمنـة على الزمـن الثابت الخاضع لمتطلباتهـا الخاصة، وإلى كيفية عمل التاريخ العاطل عن العمل خارج صورة الإسرائيلـي فيه. إذ لا تاريخ خارج ما يحدده اليهودي من مهام للتاريخ. وهكذا تصبح صورته عن نفسه صورة التاريخ عن التاريخ!

لقد ضمن الإسرائيليون خلودهم في صورة صنعوها، بأنفسهم، عن أَنفسهـم، لأنفسهم... وللآخر؛ المطالب بـدور واحد وحيد هو الخضوع لما تُملي عليه الصورة من ظلال!...

وناموا، كما لم يناموا أَبداً...

وحيـن تمكن الحجر الفلسطيني من خدش المرآة، لم يتحسس الإسرائيليون هشاشة تكوين المادة التي صنعوا منها صورتهم، بل وَبَّخُوا الكاميرا، وخاطبوها بلغة لم يهيئوا لها لسانهم. فبدلاً من أَن يتساءلوا: هل نحن كذلك؟ صرخوا: هل في وسع الكاميرا أَيضاً أن تكون لا سامية؟

إن كثافـة خداع النفس تحتاج إلى زمن طويل ليدرك الناظر إلى صورته أن تلـك الصورة لم تكن صورته الحقيقيـة، بل صورة الحالم فـي مرآة، صـورة الواهم وقد اندمج في وهم تفصلـه عن الواقع آلاف السنيـن، صورة الخارج مـن كهف الخرافة إلى تاريـخ لا يعرفه. تلك هي حال الإسرائيلي المحاصر، الآن، بآلاف من الأطفال الفلسطينيين، وُلدوا على غفلة منه، وُلدوا من دون إذن: من أَين جاءوا؟ أَلم تكن هذه الأَرض أَرضاً بلا شعب؟ وغيرها من الأَسئلة الأُولى التي تقتضي إعادة إنتاجها، بمثل هذا التدفق، إعادة نظر في الصورة ليس الإسرائيلي مُعداً لتحمل صدمتها، من فرط ما توغل في تطوير صناعة الوهم الثقيلة.

مـن كونـه ضحية صاغـت هويتهـا الإنسانية العالميـة من هذا

الشـرط... إلى الانخـراط في دور نقيضـ وفي هوية مضـادة، يدرك الإسرائيلي أنه لا يخوضـ صراعاً على صورة الأرض في الحق الإلهي وفـي الحق الواقعي معـاً، بل يخوض صراعاً مـع صورته الحقيقية في الصـورة المتخيلة التي أنتجها بأداة لم يعد يحتكرها، وفي شرط لم يعد قادراً على تحديد هويته السابقة، ولا قادراً على تبرير كل ما يفعل.

إن مـا كان سلاحـه الخاص صـار سلاحاً عليه. ومـا كان يُصوّر جماله وكماله صار يُصوّر بشاعته، فأسفرت الضحية عن جلاد. وما كان يصـوره وحده، صار يصـور الآخر. إن الآخر موجـود إذاً. فكيف يلعن الإسرائيلي الكاميرا، وهي التي كانت الأداة الطيّعة لتواطئه مع نفسه ومع الغـرب على الواقع وعلى التاريخ؟ فلم يجد غير هذا الاعتراض: ليس من حق أحد أن يفضح جرائم اليهود، لأنها مبررة، ولأنها دفاع عن النفس!

لكـن ذلك لا يكفي، لأن حامل الكاميرا الأمريكي حريص على إحـراز السبـق الصحفي أكثر مـن حرصه على صـورة الإسرائيلي عن نفسه. وهذه هـي إحدى الصور: جنود إسرائيليـون يدقون بالحجارة رأس الفلسطيني ووجهه وذراعيه، بعدمـا أمرهم وزير الدفاع بتكسير العظام، فنفذوا الأوامر بنشوة وحقد، على مرأى من ملايين المشاهدين.

هـل يفعل اليهودي ذلك؟ هكذا تسـاءل اليهود في العالم. نعم، يفعـل اليهودي ذلك. «لأن أمن إسرائيل أهم لها من صورتها الجميلة» كما قال الجنرال الوزير رابين.

ولكـن هنري كيسنجـر، وهو أحد باعة المرايـا، أشد حساسية وحرصـاً على الصورة الإسرائيلية مـن الإسرائيليين أنفسهم، فنصحهم بإغـلاق الواقع والمشهد أمـام الكاميرا «اسحقوهم بـلا تصوير»، إن

رجل الكاميرا، كسينجر، الحاصل على جائزة نوبل للسلام، الذي قدم السادات قربانًا على مذبح الكاميرا الغربية، ينصح الإِسرائيليين بتحطيم الكاميـرا، منـذ أدرك أن الكاميرا تنقل صـورة الفلسطيني المدافع عن الحريـة. إذ ليس ذلك هو دور الكاميـرا، ليس ذلك هو مجال عملها. وبدلاً من أن ينصح نفسه وينصح الإِسرائيليين بالبحث عن تجانس آخر بين الواقع والصورة، بانسحاب إِسرائيل من واقع لا يزوِّد الكاميرا بغير هذه الصورة، نصحهم بانسحاب الكاميرا من الواقع!

مـن مستشار للأَمـن القومـي الأَمريكـي إِلى مستشـار لإِدارة الجرائـم الإِسرائيلية، يداوي كيسنجر عـذاب عقدته الخاصة، ويطوِّر عناصر توازنـه الداخلي المتنافرة بالتحريض على القتل في الظلام، في غابة لا شاهد فيها... في غابة لا تقوى على ابتلاع الواقع.

إِن إِبعاد الكاميرا عن ساحة الجريمة الإِسرائيلية يوفر شروطًا أَكثر لإِدانة الإِسرائيليين، لا لأَنه يغري المراقب بالتشبيه مع عنصرية جنوب إِفريقيـا، بل لأَنه يحـذف من صورة الإِسرائيلي بعـداً كان يشكل أحد ادعاءات تفوقه، كأن يكون الديمقراطي الوحيد في الشرق الأَوسط.

وفـي السجـال الديمقراطي، حـول الديمقراطيـة، الجاري بين الإِسرائيليين المطالبين بانسحاب ما من بعض المناطق المحتلة «لحماية الطابـع اليهودي للدولـة»، وبيـن المطالبين بالاحتفـاظ بالاحتلال مع التخلي عن السـكان العرب «لحماية الطابع اليهودي للدولة»، أَيضاً... فـي هذا السجال تتقدم صورة العنصرية اسمـاً وحيداً لهذه الديمقراطية التي لا تتسع لأَي غُوي [آخر]... أَي أَن وجود العرب، مجرد وجودهم فـي وطنهم الذي يحتله غيتو الديمقراطية هو تهديد لديمقراطية أَسفرت

عن جوهرها: عَقْدٌ عَقَدَهُ اليهود، بين اليهود، من أَجل اليهود.

لقد تمَّ إبعاد الكاميرا عن المشهد. فهل يستطيع الإسرائيليون، منذ الآن، أَن يعيدوا تجميع شظايا المرآة المحطمة، وأَن يعيدوا تركيب صورتهم المثلى عن أنفسهم بطريقة تصلح لأَن تكون هي الصورة التي يراهم فيها الغرب؟

إنه سؤال محال على الغرب: هل يرتاح ضميره، الآن، بعدما خيَّم الضباب على مسرح الجريمة؟ هل يقول: لا أشاهد شيئاً، ولا أَسمع شيئاً؟ ثم يفتح الشاشة، من جديد، لمشاهد الهولوكوست، لكي تبقى الضحية اليهودية هي ضحية هذا العصر، التي يحق لها أَن ترتكب ما تشاء من الجرائم السرية والعلنية ضد الفلسطينيين؟

إن على الضمير الغربي أن يسأل الآن أكثر: ماذا يحدث هناك؟ ماذا يحدث هناك؟ لأَن إخفاء الكاميرا عن مسرح الجريمة لا يعني أَن الجريمة لا ترتكب، وإن إسدال الظلام على الدم لا يخفي صرخة الدم.

كم من الجرائم ارتكب أَمام الكاميرا.
وكم من الجرائم ترتكب... بعيداً عن الكاميرا.
لكن إخفاء الصورة لا يخفي الواقع... وصورة الحرية لا تحتاج إلى تصوير.

سؤال إلى الضّمير اليهودي

يزوِّدنا السيد إِيلي فايزل دائماً بما يجعلنا أَقل شهيةً للحوار.

لقد روضته الانتفاضة، فلم يتقن الصمت والتراجع أَمام المشهد اليومـي لحـوار الدبابـة والحجر، بل اختـار أَن يعيد تركيـب الصورة الإسرائيلية المنهارة، كما يريدها ويشتهيها.

فايـزل يريـد أَن يوازن بين مـا لا يتوازن: بين جـدوى «القبضة الحديدية» وبين «جمالية» الصورة الإسرائيلية، متجاوزاً الجنرال رابين الذي قال: إن فرض النظام أَهم لإسرائيل من صورتها الجميلة!

وهكذا كرر في «هيرالد تريبيون» ما مارسه على شاشة التلفزيون الفرنسـي من رياضة الضمير اليهـودي، المستثنى من أَية مرجعية خارج مرجعيته، وغير القابل للمحاكمة، لأَنه مستقل عن شروط البشر... يلعب وحيداً خارج تاريخ التاريخ... ما دامت أَفعال إسرائيل كلها مبررة!

إن «عقـدة الذنـب» هي محـك إنسانيـة الإنسان فـي علاقته باليهـودي. ولكـن ماذا لـو كان اليهـودي هـو المذنب علـى أَرض فلسطيـن؟ هذا سؤال ممنوع من التـداول. ولذلك، فإِن على فايزل أَن يذهب في اللعبة الأَخلاقية إِلى أَقصى حدود توترها العبثي، ليدعونا إِلى

البــكاء، من جديــد، لا على الطفل الفلسطينــي الممعوس تحت جزمة الجنــدي الإسرائيلي، بــل يدعونا إلى البكاء على الجنــدي الإسرائيلي الــذي «اضطر» إلى القيام بهذا العمل! فمن هو المذنب إذاً؟ إنه الطفل الفلسطيني الذي دفع الجندي إلى ارتكاب الخطأ!

لا يحــق لأحد أَن يحاكم إِيلي فايــزل، لا لأَنه حامل جائزة نوبل للسلام، بــل لأَنه كاتب «الذاكرة اليهوديــة»... كاتب ذاكرة الكارثة. أَمــا مــاذا عن ذاكــرة الحاضــر اليهوديــة في مــا تشهده مــن وحشية الاستبــداد الإسرائيلي وتجريد الإنسان العربي من إنسانيته ومن ذاكرته الفلسطينيــة؟ ليس هذا السؤال أيضاً مــن اختصاص الضمير اليهودي، كما يمثله فايزل، منذ صارت أعمال إسرائيل كلها مبررة.

لا يستطيــع فايزل أن يواصل اللعــب على حبال السيرك دون أَن يسقــط، لا يستطيــع أن ينكر وأن يقــول: لم أشاهد، ولــم أعرف. فإن جرائــم هذا العصــر ترتكب على مــرأى من الكاميــرا، حتى لو كانت جرائم إسرائيلية. وهكذا لم يسمح القمع الإسرائيلي للغرب المسيحي بأن يتمتع بحفلات أعياد الميلاد، دون أن يرى دم المسيح المحتفى به وقد سال من أجساد مواطنيه الفلسطينيين.

ولكن فايزل يقول: «أنا عميق الارتباط بإسرائيل. أحبها من كل قلبــي. ولكن من الطبيعي أن نجرح عندما نشاهد على التلفزيون صور الجنــود الإسرائيليين وهــم مضطرون إلى إطــلاق الرصاص المطاطي والغاز المسيل للدموع على الأطفال».

ليس كل الرصاص من مطاط.

إنــه يريد للإسرائيلي أن يتفوق في المزايا الإنسانية ـ كأن يجرحه

الخطـأ ، وفـي حق الاعتـداء المبرر علـى إنسانية الآخـر ـ كأن يكون مضطراً للاعتداء الذي يحمل، في الحالة الإسرائيلية، صيغة الدفاع عن النفس! فالاحتلال يدافع عن عدوانه أمام أطفال الحرية.

ولذلك، يتساءل فايزل: «ماذا على إسرائيل أن تفعل؟ لا أعرف. فإنهـا لا تستطيع أن تُسَلِّم». ويضيـف: «قارنوا بين إسرائيل وبين سائر الأمم. وفي ودي أن أقول لكم إنه لا ينبغي لإسرائيل أن تتلقى الدروس من أحد»...

ويقارن السيد فايزل بين إسرائيل وبين الاستعمار الفرنسي للجزائر والاستعمـار البريطاني في شتى أنحـاء المستعمرات، وحرب الولايات المتحدة القذرة في فيتنام، ليستنتج أن «إسرائيل أفضل من الجميع».

مـن اللافـت أن وعي فايـزل، أو لا وعيه، يقـارن القمع الراهن بتاريـخ القمـع، فالإطار المرجعـي لمحاكمة السلـوك الإسرائيلي هو الاستعمار والعدوان. هل هي زلة لسان، أم انصياع لوقائع لا تدحض؟ ليس ذلك مهماً.

المهـم أَكثر هو مـا ينساه فايزل. وما ينساه فايـزل ليس بسيطاً: لقـد انسحبت فرنسا من الجزائر. وغابـت الشمس عن المستعمرات البريطانيـة، وانسحبت الولايـات المتحدة الأمريكية مـن فيتنام. كان ذلك الانسحاب هو الجواب العملي على سؤال: ما العمل؟

فهل ما زال من الصعب على الإسرائيليين أن يعثروا على مثل هذا الجـواب الوحيد؟ إن حيرة فايزل المتعاطفة مـع الاحتلال الإسرائيلي الدائـم لا تُعبر عما هو أَقل من محاولة إسرائيل استثناء نفسها من فاعلية

قانــون تاريخي. لأَن إسرائيل هي، في نظــر نفسها، استثناء ولأنها، في نظــر فايزل، يجب ألاّ تتعلم من أحد... يجب ألاّ تتعلم من أحد حتمية الانسحاب من الأرض المحتلة.

لمــاذا؟ يرى فايــزل أن الخطر لم يهدد وجــود فرنسا وبريطانيا والولايــات المتحدة بسبــب استعمارهــا واحتلالها ولكــن «إسرائيل مهــددة. هــي البلد الوحيد فــي العالم المحفوف وجــوده بالمخاطر. يجرحني كيهودي أن أرى ما تفعله إسرائيل ولكن، ما العمل؟».

وهكــذا يتحول القمع والاحتــلال الإِسرائيليــان إلى ضرب من ضورب القدريــة. لا حل آخر. الوجود الإِسرائيلــي مشروط باستمرار الاحتلال والقمع. أي أن جوهر الوجود الإِسرائيلي وهويته لا يتحددان إلا بعدوان متحول إلى شرط بقاء وحياة. فإذا زال الاحتلال زال الوجود.

فأين الضمير اليهودي المتكون من عكس هذا الشرط ومن نقيضه؟

إن المأزق الأَخلاقــي الذي يعاني منه جزء من يهود العالم تجاه الحرج الذي يسببــه الاحتلال الإِسرائيلي ووحشيتــه، حريّ بأَن يدفع كاتب الذاكرة اليهودية إلى صف المدافعين عن هوية الضمير اليهودي أَمــام خطر الاحتــلال الإِسرائيلي علــى شعب يقاتل مــن أَجل الحرية، وأَمــام خطر الاحتلال الإِسرائيلي علــى صورة اليهودي في العالم: هل هذه الماهية اليهودية في التطبيق؟

إِن موقــف اليهود مما يفعله الاحتلال الإِسرائيلي، باسمهم، هو أحــد أشكال الامتحان القاسي الذي يمتحن فيه اليهود جدارة انتمائهم إِلــى النظام القيمــي والأَخلاقي الإِنساني العالــي، وتفوقهم إِذا شاؤوا.

وهو الذي يمنحهم حق النبش الدائم في المقابر الجماعية التي حفرها الوحش النـازي، كي لا يعـود الخطر مـرة أخـرى، لا ليتحول جلد الضحيـة اليهودية إلى تميمة على بزة الجنـرال الإِسرائيلي. ولا لتصبح أفران الغاز ذريعة لحرق أطفال غزة.

لقد آن الأَوان لنصرخ، دون خشية من تهمة أو ابتزاز: إن شرف يهود العالـم كلهم ملطّخ بوحـل الاحتلال الإِسرائيلـي وبدم ضحاياه الفلسطينييـن ما لم يعلنوا القطيعة مع هذا الاحتلال. عليهم وحدهم أن ينقـذوا سمعتهم بمدى ما يتبرأون مـن الاحتلال وجرائمه، وبمدى ما يقتربون من الاعتراف بالحقيقة والحقوق الفلسطينية.

«وداعـاً يا أرض الميعاد» ـ هكذا أعلن كاتب إسرائيلي يأسه من وجـود احتـلال إِنساني. وقد يحتـاج بعض الكتاب إِلـى عشرين سنة أخرى ليدركوا أَن الاحتلال الإسرائيلي لا يختلف عن أَي احتلال، ولا ينجـو من مصيـر أَي احتلال، فليس في وسع أي احتـلال أَن يبقى إلى الأبد كما وعد بيغن وشامير.

إنها ساعة الحقيقة.

إنها لحظة امتحان لمصداقية الدعوة إِلى السلام العادل، ولصدق ما يسمى بقوى الديمقراطية والسلام الإسرائيلية التي استطاعت أن تغضَب، أَكثر، أَثناء حصار بيـروت لأن الحصار أعاد إليها كثيراً من التوابيت. أَما الحجـارة، غير القاتلة، فلم تحرك تعبيراً أقوى عن غضب أنصار السلام. فهـل الموت وحده هـو القادر على الهتاف للسـلام؟ أم نحن مدفوعون إِلـى الظن بأن الوجدان الإسرائيلي قـد تكيف مع الاحتلال، ودرج على التعايشـ مع جدوى الخرافة التي ولدتهـا فكرة «أرض إسرائيل الكاملة»

ومـا تعود به من فوائـد اقتصادية ما زالت قادرة علـى تعطيل نمو الوعي المضاد للاحتلال، أمام اندفاع الأغلبية، نحو التطرف اليميني؟

يـرى النائـب الإسرائيلي يوسـي سريـد أن الإسرائيليين يفكرون بجيوبهـم لا بعقولهم، وأنهم لـم يغيروا وعيهم ما لـم يسددوا تكاليف الاحتلال. فالاحتلال «كان احتلالاً رخيصاً» لم يكلفهم شيئاً. وكان يدر على الخزينة الإسرائيلية 188 مليون دولار سنوياً من الضرائب وحدها. وكتـب سريد: «إن في وسع الفلسطينيـن أن يحولوا الاحتلال من نعمة (لإسرائيـل) إلى نقمـة عليها. فإذا توقفوا عن العمـل في تعبيد الشوارع والبنـاء وعن التعامل مع البضائع والمنتجـات الإسرائيلية، فإن الاحتلال سيمنـى بالإفلاس والانهيار». وأضاف: «يجب أن ينتهي العصر الذهبي للاحتلال، وإذا لم ينته قريباً، فإنه سيغري المزيد من الإسرائيليين»...

لقد بدأت بداية النهاية...

بـدأ الإضراب عـن تزويد الآلـة الاقتصاديـة الإسرائيلية بفوائد العمل الرخيص.

وبدأ العصيان...

وليس في وسع أحد أن يوقف، بعد الآن، كرة النار المشتعلة في الأرض المحتلة.

وبدأ العصيان...

وليس في وسـع جيوش العالم، كما قال أحـد الإسرائيلين، أن يواجه امرأة حُبلى في غزة.

وليس في وسـع إيلي فايزل، بالطبع، أن يستدر عطف أحد على جندي إسرائيلي يقتل طفلاً في نابلس!

للقاتل اسم واحد، هو: القاتل.

وللضحية اسم واحد، هو: الضحية.

وللضمير اسم واحد، هو: الضمير.

والضمير اليهودي هو المطالب بأن ينقذ نفسه من مستنقع الاحتلال.

هذه هي ساعة الحقيقة.

وللحرية اسم واحد هو: الحرية!

من يريد لاساميّة جديدة؟

بما أن السيد إيلي فايزل قد حصل على جائزة نوبل للسلام، فإننا مطالبون بأن نأخذ كلامه مأخذ الجدّ!

ويبدو أن السيد فايزل، المثير للجدل بين الأوساط اليهودية والإسرائيلية، في حاجة ملحة إلى تجديد الشروط السابقة لإعادة إنتاج سلعته الأدبية. فهو الذي كرَّس حياته وكتابته لموضوع واحد هو: الذاكرة السلبية.

إن مناخه الوحيد هو اللاسامية. إذا جفَّ معين اللاسامية، وجفَّ دم اليهود المسفوك على لغتها، جفَّ حِبْرُ فايزل، فاستعان على التاريخ المعاصر بالعودة إلى الماضي السحيق...

لذلك، فإن فايزل مؤهَّل لأن يصوغ قراءته الخاصة لتاريخ البشر بطريقـة تصرف هذا التاريخ عن سياق مـا شهده من صراع... بطريقةٍ تشير إلى صراع واحد هو الصراع بين اليهود وغير اليهود. وهو مؤهل أيضـاً لأن يرى أن التاريخ اليهودي الذي يرافقـه دائماً «لا تاريخ ما»، منـذ ظهور اليهود على مسرح التاريخ، هو صراع ضد اللاسامية. وهو تاريـخ لم ينقطع أبداً، لم يتعـرج. تاريخ متواصل، متتابع، مستمر، منذ بدء الخليقة إلى الآن...

لـذا، لا بد من لاسامية جديدة... لا بد من لاسامية جديدة لكي يبقـى اليهود يهودَ أولاً. ولكي يبقى تاريخ العالم هو تاريخ نظرة اليهود إلـى العالم وتاريخ نظرة العالـم إلى اليهود ثانياً. ولكـي يواصل فايزل الكتابة ثالثاً.

في مقالة كبيرة عن «اللاسامية الجديدة» يكتفي فايزل بالإشارة إلى شعبية اللاسامية ورواجها في جميع أَنحاء العالم الذي «يبذل جهوداً مكثفـة لعزل اليهود وبقاء إسرائيل وحيـدة»، دون أن يدل عليها وعلى مظاهرها الجديـدة. أنه مفتون بالإعلان عن وجـود الفريسة. أين هي اللاسامـية الجديدة، وأين هو مجال عملها؟ هذا سؤال لا يعني الكاتب المتخصـص. ما يعنيه هو السؤال: هل اللاسامية الجديدة جديدة حقاً؟ يقتبـس من الملك سليمان: «لا جديد تحت الشمس» ليستطرد: «لقد واجهنـا دائماً الخطر الداهم من الأمـم والحضارات التي أحاطت بنا. وما قاله أعداؤنا القدامى يقوله أعداؤنا الجدد».

وبطريقته الخاصة يشرح فايزل طبيعة «الاختلاف»... اختلاف اليهـودي عن الآخريـن... الاختلاف الذي سبّـب، ولا يزال يسبّب، خـلاف اليهود مع غير اليهود: «كنا شعباً صغيراً لا جيش له. لم نملك غيـر الإحساس الداخلي بالعـزة النابعة مـن الذاكـرة الجماعية. لقد فرضـت الحضـارات هيمنتها على الشعوب. أَما نحـن فلم نمتثل لأية قـوة. ومنذ بدء الخلقية أدركنا أنـه إذا كانت الشعوب قادرة على البقاء بفضـل قدرتها علـى التكيُّف، فنحن قادرون على البقـاء بفضل رفضنا التكيُّف، ورفض الاندماج في المجتمع الذي نعيش بين ظهرانيه»...

يضع فايـزل يهوده خـارج أية شـروط موضوعيـة، أي خارج

التاريـخ. لقد عاش اليهود على الرغم من التاريـخ «لا في التاريخ ومن خلاله» كما قال كارل ماركس. وهكذا يستطيع الكاتب، الذي يسوس التاريـخ على هواه، أن ينتقي جلداً ملائماً لكل مرحلة تاريخية لا لشيء إلا ليهـوِّد تاريخ البشـر. هكذا يتحـول انتصار المسيحيـة على روما إلـى انتصار يهودي، ليحافظ نظامُ المنطق علـى سلامته: «قد لا يتمتع التاريـخ بحاسة عدالة، ولكنه يتمتع بحاسَّـة سخرية. لقد جاء الرومان إلى يهودا ليقتلوا يهودياً واحـداً هو يسوع الناصري. وبعد قرن واحد احتل اليهود روما لا بوصفهم مسيحيين بل بوصفهم يهودَ جدداً».

إن يهـودي فايـزل مسيحـي حين يشـاء ويهودي حيـن يشاء. فالمسيحيـة المنتصرة علـى روما لم تكن غير يهوديـة جديدة سرعان مـا تكشف عن حقيقتهـا المسيحية حين تُحمَّـل المسؤولية عن نشوء اللاساميـة المؤدية إلـى الكارثة اليهوديـة، دون أن يُفـرج عن يهودية سبينـوزا، ودون أن يُغفر له كشفـه عن التناقض الرئيسـي في اليهودية وهو التناقض بين الإلـه العالمي وبين الوضع الذي يظهر فيه في الديانة اليهودية إلهاً ملازماً لشعب واحد هو شعبه المختار.

وإذا كان جميـع العباقـرة اليهود قـد حققـوا عبقريتهم بفضل «تَحَدُّرهـم من عرق يهـودي»، لا بفضل استيعابهـم ثقافات عصرهم ومجتمعهـم كما يقـول العقل، فإن على جميع العباقـرة غير اليهود أن يكونوا لاساميين، ليواصل التاريـخ عملية صراعه الأساسي بين اليهود وغيـر اليهود. وهكذا، كان على فايزل أن يلاحـظ وأن يقرر أن جميع العظماء في القرن الثامن عشر من فولتير إلى روسو إلى كانت إلى سائر الأدبـاء والشعـراء والمفكرين قد كانوا لاساميين. لمـاذا؟ «لأن فولتير تعامل مع اليهود واعتقد أنهم غشوه. أما عمانوئيل كانت فإن لا ساميته

تنبـع من كونه قد تنافس مع الفلسفـة الألمانية، وخسر أمام الفيلسوف اليهودي ماندلسون»...

إذن، مـا العمـل؟ ما العمـل إزاء اللاسامية النابعة مـن غيرة غير اليهـود من التفوق اليهودي؟ وجدها فايـزل... وجدها: «وهكذا، ما دمنـا قد حاولنا كل شيء وفشلنا، فما علينـا إلا أن نجرب الشيوعية». وهكذا كُلِّـف ماركس بإعـداد الخطة. «ولكن الحكومـة السوفياتية سرعان مـا انقلبت إلى حكومـة لاسامية، معادية لليهـود». لماذا؟ إن فايـزل يتمتع بحماسة تبسيط مدهشة بقوله إن زيـارة السيدة غولدا مئير إلـى موسكو هي التي قلبـت السياسة السوفياتيـة، وسرعان ما يتحول حارسـ الذاكرة هذا إلى حارس النسيان القادر على أن ينسى قوله هو: إن قـوة اليهود تنبع من رفضـ الانخراط، ليعلن أن عـدم قدرة السلطة السوفياتيـة علـى دمج اليهود قد أفشل الشيوعيـة التي لم تكن أكثر من مشـروع حل يهـودي: «أراد ستاليـن أن يقضي على الـروح اليهودية وعلى روح الثقافة اليهوديـة، لأنه أدرك أننا نمثل الرمز الحي لهزيمته، فحقيقـة أن اليهود الذيـن ترعرعوا في كنف الشيوعيـة أرادوا أن يبقوا يهود يعني أن الثورة الشيوعية قد فشلت».

وهكـذا، فإن إصرار اليهود علـى الاختلاف عن سائر الشعوب كان السبـب الرئيسـي للقضاء علـى الإمبراطوريـة الرومانية، ولفشل الليبراليـة المسيحيـة، ولهزيمـة الشيوعيـة. لذلك لا يستغـرب فايزل ظاهرة العـداء لليهود: «عندما أفكر باللاساميين أجد أن عزائي الوحيد هو أن لديهـم من الأسباب ما يكفي لأن يكرهونا. إنني أفهمهم جيداً. فهذا الشعب المطارد منذ ألفي سنة، والمدفوع إلى النزول عن مسرح التاريـخ، ما زال باقياً، بعناد، في التاريخ. قال كاتب فرنسي إن الشعب

اليهودي شعب خاص لأنه لا يسمح لي بالنوم! صحيح، نحن لا نسمح لأحد بأن ينام. فنحن شعب الضوضاء. حتى عندما نصمت فإن صمتنا يُـدوِّي. إن تأثيرنا على الأحداث يفوق نسبتنا العددية، لا يمر يوم دون أن نحتـل العناويـن الرئيسية. نحن نُجنِّـن الرأسماليـين لأن الشيوعية كانـت من نتاج اليهود. ونحن نجنـن الشيوعيين لأننا أفشلنا فكرتهم. ونحـن نجنن الجميع لأننا عنصر حيوي في التاريخ، غير مرغوب فينا، ولا نهاون. ونحن نبحث دائماً عن شيء آخر».

مـن الصعب أن يـأذن لنا فايـزل بمناقشته، فليـس من حق غير اليهـودي أن يناقـش اليهـودي. ولكن إسحـق دويتشر يقـول: «كان ماركـس أصوب نظـراً منا عندمـا أدرك موضع اليهود مـن المجتمع الأوروبي قبل وقت طويل من موعد إدراكنا. فاليهودية مدينةٌ في بقائها للـدور المميَّز الذي قام به اليهـود كوسطاء للاقتصاد النقدي في بيئات عاشـت في اقتصـاد طبيعي. أي أن اليهودية كانـت بالضرورة خلاصة نظريـات لعلاقـات السـوق ولـولاء التاجـر». ويضيـف: «إن الجزء الأساسـي من المأسـاة اليهودية تكوَّن نتيجة تطـورات تاريخية طويلة بحيث أَصبحت الجماهير الأُوروبية معتادة على تحديد هوية اليهودي بالتجارة والسمسرة والربا».

وعن العباقرة اليهود يقول دويتشر: «إنهم تخطو حدود يهوديتهم لأَنهم وجدوهـا ضيقة ومقيدة إِلى أَبعد الحـدود وقد أكل عليها الدهر وشـرب. لقد تطلعوا إِلى مُثُل وإنجازات تتخطاها، فهم يمثلون حصيلة كل مـا هو عظيم في الفكر الإِنسانـي، حصيلة وجوهر أعمق التغييرات التـي حدثت فيِ الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصادِ وعلم السياسية في القرون الثلاثة الأَخيرة، ولم تنتج عبقريتهم عن عرق أَو سلالة»...

ويقول دويتشر أيضاً: «إنها لمأساة حقيقة مروعة أن يكون هتلر هو أكبر «مجدِّد» للهوية اليهودية. وهذه تعتبر إحدى أصغر الانتصارات التي حققها بعد موته. لقد كانت مذبحة أوشفتز بمثابة السرير الهزاز والمرعب للوعي اليهودي الجديد وللأمة اليهودية الجديدة. وإنه لأمر غريب ومؤلم أن يفكر أولئك الذي أكدوا على اليهودية وبقائها بأن إبادة ستة ملايين يهودي قد أعطت الحياة لليهودية»...

أهذا ما يواصل فايزل، حامل جائزة نوبل للسلام، التبشير به؟ ألهذا يستنهض لاسامية جديدة امتداداً للاسامية قديمة صارت شرط كتابته؟ ألهذا يستبدل الفكرة العالمية بفكرة الغيتو، ويجري تفكيك وحدة الأهداف الإنسانية باحتكار اليهود هذه الأهداف؟ وإدانة «الآخر» بالشر المطلق؟

إذا كان السيد فايزل ناطقاً باسم اليهود الموحدين في شرط تاريخي هو اللاشرط التاريخي، باستثنائهم من كل قاعدة، ومحاكمة سلوكهم وفكرهم بوحدانيتهم وبمعيار عرقي وحيد، فإن بيانه المدافع عن العرق الذي ظل عرقاً صافياً منذ الأزل، عرقاً مُنزَّهاً عن الاندماج والتفاعل والتناثر والاختلاط، يصلح لأن يكون بياناً تأسيسياً للاسامية جديدة...

لأن فايزل يقول لاسامية مقلوبة...

اللاسامية تقول مؤامرة اليهود على العالم... وفايزل يقول مؤامرة العالم على اليهود، واختلاف اليهود عن العالم...

أهذا هو ما يتوّج مَلِكاً من مُلوك السلام؟

هذا هو...

عابرون في كلام عابر

.1

أيها المارُّون بين الكلمات العابرةْ
احملوا أسماءكم، وانصرفوا
واسحبوا ساعاتكم من وقتنا، وانصرفوا
واسرقوا ما شئتُم من زرقة البحر ورمل الذاكرةْ
وخذوا ما شئتُم من صُوَرٍ، كي تعرفوا
أنكم لن تعرفوا
كيف يَبْني حَجَرٌ من أرضنا سقف السماءْ...

.2

أيها المارّون بين الكلمات العابرةْ
منكُم السيفُ ـ ومنَّا دَمُنا
منكُم الفولاذُ والنارُ ـ ومنَّا لحمُنا
منكُم دبابة أخرى ـ ومنَّا حَجَرُ
منكُم قنبلةُ الغاز ـ ومنَّا المطرُ
وعلينا ما عليكمْ من سماء وهواءْ

فخذوا حصتكُمْ من دمنا... وانصرفوا
وادخلوا حفل عشاء راقصٍ... وانصرفوا
وعلينا، نحن، أن نحرس وردَ الشهداءْ...
وعلينا، نحن، أن نحيا كما نحن نشاء!

.3

أيها المارّون بين الكلمات العابرةْ
كالغبار المُرّ، مُرّوا أينما شئتمْ ولكنْ
لا تمرّوا بيننا كالحشرات الطائرة
فلنا في أرضنا ما نَعْمَلُ
ولنا قمح نُربِّيه ونسقيه ندى أجسادنا
ولنا ما ليس يرضيكُمْ هنا:
حجر... أو خَجَلُ
فخذوا الماضي، إذا شئتمْ، إلى سوق التُحَفْ
وأعيدوا الهيكل العظمي للهُدهُد، إن شئتمْ،
على صحن خَزَفْ.
فلنا ما ليس يُرضيكم: لنا المستقبلُ
ولنا في أرضنا ما نعملُ

.4

أيها المارّون بين الكلمات العابرةْ
كَدِّسوا أوهامكم في حفرة مهجورة، وانصرفوا
وأعيدوا عقرب الوقت إلى شرعية العِجْل المُقدَّسْ

أو إلى توقيت موسيقى المُسدَّسْ!
فلنا ما ليس يرضيكم هنا، فانصرفوا
ولنا ما ليس فيكم: وَطَنٌ ينزف شعباً ينزفُ
وطناً يصلح للنسيان أو للذاكرة...
أيها المارّون بين الكلمات العابرة
آن أن تنصرفوا
وتقيموا أيْنَما شئتُم، ولكن لا تُقيموا بيْنَنَا
آن أن تنصرفوا
ولتموتوا أينما شئتمْ، ولكن لا تموتوا بيننا
فلنا في أرضنا ما نعملُ
ولنا الماضي هنا
ولنا صوتُ الحياة الأوَّلُ
ولنا الحاضرُ، والحاضرُ، والمستقبلُ
ولنا الدنيا هنا... والآخرة
فاخرجوا من أرضِنَا
من بَرِّنا... من بحْرِنَا
من قمْحِنَا... من مِلْحِنَا... من جُرْحِنا
من كل شيء، واخرجوا
من ذكرياتِ الذاكرة
أيها المارّون بين الكلمات العابرة!...

نعم... بلادنا هي بلادنا

عزيزي سميح؛

... ولأسباب تعرفها، لم أكمل قصة نابوت والملك آخاب: «هكذا قال الرب: هل قتلت وورثت أيضاً؟ في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً. من مات لآخاب في المدينة تأكله الكلاب، ومن مات في الحقل تأكله طيور السماء».

لم أكمل اقتباس القصة، لأن شعار «لن ننسى ولن نغفر» ليس شعارنا الجامد. ولأن الإنساني فينا قادر على التسامح بقدر ما يتحرَّر.

لقد كتب يزهار سميلانسكي، قبل قليل؛ مخاطباً حُكّامه: «لماذا التهرب، والتجاهل، والمماطلة، وكسب الوقت لخلق الوقائع؟ لماذا هذه المماطلة؟ ألن تجلسوا مع الفلسطينيين في آخر المطاف؟ إذ لا مناص من الاضطرار إلى الاعتراف بما لم يكن مفهوماً في البداية. فلماذا المزيد من الألم. لماذا لا تبدأون اليوم، وفوراً؟».

وعن هذه الحتمية، كتب صديقنا المشترك عاموس كينان «شئنا أم أبينا، سيحل السلام بين إسرائيل وفلسطين ولكن من سيطالب بدم الطفل الأخير الذي سيُسفك قبل حلول السلام بدقيقة واحدة؟». ثم

دعاني كينان إلى كتابة مرثية الطفل الفلسطيني الذي سيموت غداً...

في هذا المناخ، أعلن الإسرائيليون الرسميون الحرب على القصيدة التي لم تُكتب بعد، وعلى القصيدة التي كُتبت، لقد حفروا فيها بحراً ليشيروا إلى أنه مقبرة اليهود! فهل بلغ الاستشراق المخابراتي الإسرائيلي هذا المستوى العالي من الجهل؛ ليتهمني بأني أدعو إلى رمي اليهود في البحر، عندما أطالبهم بالجلاء عن أرضنا المحتلة؟ كما يطالب اليهود يهودهم بهذا الجلاء أم أنهم في حاجة ملحة إلى هذه الفرية لإعادة إنتاج المقومات المنهارة لبداية تحتاج إلى تجديد بدايتها كلما اقتربت من نهاية؟

لا أُخفي عنك، أنني أتسلى بما أقرأ من ردود فعل كاشيوس الشيكسبيري المشار إلى شره بكراهية الشعر، مقابل سائق التاكسي الفلسطيني الذي سألته وكالة الصحافة الفرنسية عن سبب استماعه الدائم إلى الشعر، فأجاب: عندما اقترب من حاجز للجيش أستمع إلى الشعر لأنه يجعلني أقوى.

هل هذه الحملة موجهة إلى القصيدة حقاً؟ لا أعتقد ذلك. بل هي جزء من الحملة الرسمية على وعي السلام الجدي الذي يعبر عنه عدد كبير من المثقفين الإسرائيليين واليهود الداعين إلى الاعتراف بدولة فلسطينية، إلى جانب الدولة الإسرائيلية، فور الانسحاب من المناطق المحتلة. وإلا، فما معنى قول «يديعوت أحرونوت» إنني وجهت ضربة قاتلة إلى اليسار الإسرائيلي الذي يدعو إلى ضرورة الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية؟

ما هي الضربة؟ وما هي القصيدة؟ هل تخلصوا من حمى الأسئلة، ومن انشقاق الوعي، ومن حرب الحجر، ليشغلوا الرأي العام بقصيدة؟

وهل هم يخافون القصيـدة حقاً؟ لا أظن. ولكنهم امتلأوا حتى التخمـة بقصائـد المهاجريـن الأوائل عـن تجفيـف المستنقعات في الخضيـرة، وعن عودة إلى فردوس تمخض عن جحيم حروب لا نهاية لها، بطائرات تبعد الصـراع عن أرض الصراع، إلى أن اندلعت حرب الجوهـر في الداخل، فلم يعد في وسع آلة التفوق العسكري أن تعمل، وأصيبـت الرؤوسـ النوويـة بالشلـل، لأن حسم المعركـة بما يملكه الإسرائيليون من قوة لا يعني إلا الانتحار.

هذا ما يصنعـه الحجر الحي بعقلية متحجـرة لم تتكون خارج شروطهـا الذاتية: إما الانتحار في الحرب، وإمـا الانتحار في السلام. الانتحـار فـي كل خيـار. لأن الدعوة إلـى سلام مشـروط بالاعتراف بالحقـوق والحقيقة الفلسطينيـة يعني، بالنسبة إلـى الوعي الإسرائيلي السائد، دعوة إلى التخلي عن وجود لا يوجد إلا في اختفاء الفلسطيني مـن الوجـود. إذن، على أحـد الطرفين أن ينتحر، أو علـى الطرفين أن ينتحرا! فالإسرائيلي الذي لم يحدد للفلسطيني غير هذا الدور، يتقمص الفلسطينـي ليحدد للإسرائيلـي ما حدده هو للفلسطينـي من دور. إن الإسرائيلي هو الذي يحدد للفلسطيني لغته ونواياه! وإن ذريعة «الدفاع عـن النفس»، وهـي احتكار إسرائيلـي، في حاجة دائمـة إلى وحشية الآخـر، في حاجة إلـى «لا سامية» ضرورية لتبريـر الاحتلال الذي لا يداوى إلا بمزيد من الاحتلال للدفاع عن الاحتلال!

وحين يضطر هذا الوعي إلى التبدل قليلاً وإلى التكيف مع ظروف جديـدة، فإن الإسرائيلي يطالب الغيـاب الفلسطيني بالحضور الخاطف لمهمـة واحدة محددة: أن يعترف الغائب بالحاضر. وأن يعترف الغائب بأنـه لم يحضر إلا لكـي يغيب. على المفقود أن يتحلـى، دقيقة واحدة،

بإنسانية تمتحن مدى قابليتها للاعتراف برفاهية التخلي الحر عن الوجود!

لا نهايـة لهذا السجال العبثي. لا نهاية لـه إلا بتوقيع الفلسطيني على وثيقـة التخلي عن الذات وعن الموضوع! وعلـى الفلسطيني أن يصدق فـي الإعلان عن أن بلاده ليست بلاده! لكـي يوفر للإسرائيلي شـروط الوجـود. وهناك طريق آخـر: على الفلسطينـي أن يصدق في الإعـلان عن أنه لا يرضـى بأقل من رمي اليهود فـي البحر، لكي يوفر للإسرائيلي حق الاحتلال وراحة الضمير!

لا هذا، ولا ذاك، هو وعي الفلسطيني...

فلماذا يحتاج الإعلام الإسرائيلـي إلى قصيدة مثل قصيدة **عابرون في كلام عابر** ليختبر فيها براعته في القدرة على التزييف وعلى نفي إنسانية الآخر؟ لماذا لا يرى من البحر وهو برية رحيلنا المائية، إلا مقبرة اليهود؟ فمن هو الذي رمى الآخر في البحر وفي الصحراء... من هو القرصان؟

وهكذا حاورني صحافي إسرائيلي:

□ هل قلت لنا: أخرجوا من جرحنا؟

– قلت ذلك.

□ لماذا؟

– لأن جرحي هو ملكيتي الشخصية، هو جزء من هويتي فهل لك حق فيه؟

□ لا. ولكن هل قلت لنا: أخرجوا من قمحنا؟

– نعم، قلت ذلك، لأن قمحي هو رغيفي النظيف، فهل لك حق فيه؟

□ لا. ولكن هل قلت لنا أخرجوا من بحرنا؟

– نعم قلت ذلك... أخرجوا حتى من هواء الأرض المحتلة.

□ ولكن، لا بحر في الأرض المحتلة.

– هذا البحر اسمه البحر الأبيض المتوسط، لا بحر غزة.

□ إذن، هل تعني أن علينا أن نغرق في البحر؟

– قلت لكم: أخرجوا من البحر. ولم أقل لكم: اذهبوا إلى البحر.

□ ماذا تعني، إذاً، بقولك «أيها المارون في بحر الكلمات».

– لم أقل ذلك. قلت: «أيها المارون بين الكلمات» وهناك فارق طفيف بين كلمة «بحر» وبين كلمة «بين».

□ ولكن صحيفة «معريف» وغيرها من وسائل الإعلام الإسرائيلية تقول إنك قلت «بحر الكلمات».

– أنا أدْرَى بقصيدتي من وسائل الإعلام. ثم ماذا لو قلت «بحر الكلمات»؟ ما هي المعضلة؟

□ إن في ذلك إيحاء برمينا في البحر.

– إنك تحرك فيَّ الضحك.

□ وهل قلت إن فيكم ما ليس فينا: وطناً ومستقبلاً؟

– نعم. قلت. ما الذي يثيرك؟

□ أليس لنا وطن ومستقبل.

– ليس لكم وطن ومستقبل في الاحتلال.

□ قل لي: ما هي بلادك؟

– بلادي هي بلادي فلسطين.

□ كل فلسطين؟

– نعم. كل فلسطين بلادي. هل خدعك أحد وقال إن فلسطين ليست بلادي.

□ لا إنها بلادي

– أنت تؤمن بأن بلادك قد تمتد من النيل إلى الفرات وأَنا أُؤمن بأن فلسطين، وحدها، هي بلادي.

□ ونحن، ما هي حدودنا؟

– عليكم أنتم أن تقولوا ما هي حدودكم في بلادنا. لأن جزمة الجندي المحتل لا تصلح لأن تكون حدودا كما كان يحددها الجنرال ديان. أما نحن فلا نسأل ما هو وطننا لأَننا نعرفه تماماً. بل نسأل عن دولتنا الممكنة من أرض وطننا. ونحن لا نأخذ منكم شيئاً لكم... نحن نأخذ من حقنا. فإن تنسحبوا مما هو حولنا إلى ما هو لنا لا يعني أننا نأخذ منكم شيئاً. هل تفهم؟

□ لا أفهم...

ولن يفهم أَن السلام ليس نقيضاً للحرية. ولن يفهم أَن هذا السلام ليس عدلاً. ولن يفهم أَن المطالبة الفلسطينية بحق العودة، وبحق تقرير المصير، وبحق إِنشاء الدولة الفلسطينية على جزء من الأَرض المحتلة لا يعني أَبداً أَن بلادنا ليست بلادنا. ولن يفهم أَن المحتل لا يتنازل عن شيء يملكه. ولن يفهم أَننا نحن الذين نتنازل.

من المدهش أن يدهش الإسرائيليون من قوة صفاء الذاكرة الفلسطينية. هل كان على الفلسطيني أَن ينتظر ألفي سنة لتأذن له الذاكرة الإِسرائيلية بأَن يتذكر، وبأَن يعود، مرة مع السيد بلفور، ومرة مع كورش، ومرة مع حاملة طائرات أُوروبية، ومرة مع البند العربي في احتياطي الأَمن الإِسرائيلي.

إِن عشرين سنة، وأربعين سنة، لا تكفي لأن ينسى الفلسطيني اختلاط عروقه بتراب بلاده. ما هي بلادك يا سيد سميح القاسم؟ تصور أن

يوجه إليك هذا السؤال! وتخيل أَنك تجيبه بأَن بلادك هي بلادك فلسطين. وتصور أَيضاً أَن يسألك: ما هي دولتك الفلسطينية: وتخيل ماذا يحدث له لـو قلت: إنها قطاع غزة والضفـة الغربية لنهر الأردن. سيقول لك: يا ابن الطابور الخامس... ارحل من بلادي ومن دولتي إِلى دولتك في غزة!

وجع، وجع، وانشطار.

هل في المخيلة السوداء ما يشبه هذا الواقع؟

فنحـن مطالبون الآن، منذ الآن، والى زمن لا نعرفه، بأن نقايض موتنـا الآمن بحيـاة الاحتلال المتوتـرة. الاحتلال في مـأزق، وعلى الفلسطينـي أن ينخرط في عملية إِنقـاذ الاحتلال لأَن مصيره قد تقاطع مع مصير الآخر!

لا يكفـي أن تقـول إن طريقة تعامـل الإِسرائيليـن مع الحاضر الفلسطينـي هو الذي سيحدد طريقة التعامـل الفلسطيني مع المستقبل الإِسرائيلي.

ولا يكفـي أَن تقـول إن طبيعـة تعامل الإِسرائيليـن مع الوجود الفلسطينـي هـو الذي سيحدد طبيعـة التعامل الفلسطينـي مع الوجود الإِسرائيلي.

لأَن «العالـم الأَخلاقـي» حريصـ علـى مصير الاحتـلال أَكثر مـن حرصه على مصير شعـب. «ماذا سيفعـل الإِسرائيليون المساكين بعـد الانسحاب؟ من يضمـن لهم المستقبل؟» هكـذا يتساءل الضمير العالمـي، ويطالـب الفلسطينيين بأن يتخلوا عـن حصتهم من الماضي ومن المستقبل، من الذاكرة ومن الوطن ومن الحلم، وبأن يوافقوا على

استبدال جيش الاحتلال الإسرائيلي بقوات أمن عربية تضمن لداء القلق الإِسرائيلي علاجاً بعيد المدى، وتنقل الصراع الإِسرائيلي ـ الفلسطيني إِلى حرب أهلية عربية، لا كاميرا فيها ولا شاهد.

إِذا كان الأَمر كذلك، فإِن شعار «لن ننسى، ولن نغفر» هو شعارنا الطويل الطويل...

وإِذا كان الأَمر كذلك، فإِن الأَمر كذلك...

ومع ذلك، فإِن في وسع الشمس أَن تشرق من حجر!

لأَن بلادنا هي بلادنا...

هستيريا القصيدة

القصيدة، القصيدة...

إِلى متى؟

هـل بقي في اللغة العبرية ما يكفي من السيوف لمحاربة قصيدة أُخرى، يكتبها شاعر آخر يطالب الغزاة بالجلاء؟

كان على ناتـان زاخ، أيضاً، أن يشتمني لكي يتمكن من صياغة سؤالـه الجريء: هل يشترط الإسرائيليون السـلام مع الفلسطينيين بأن يقـع الفلسطينيون في غرامنا أولاً؟ إِذا كان الأَمـر كذلك، فإِن علينا أن ننتظر طويلاً طويلاً...

فوجـئ الوعـي الإِسرائيلـي بـأَن الشعب الفلسطينـي لا يحب الاحتلال ولا يحب المحتلين!

فوجئ إِلـى درجة جعلت «يديعوت أحرونـوت» تضع العنوان التالي: «القصيـدة توحِّد الكنيست»، بعدما قدمها رئيس الوزراء دليلاً على ضرورة الاستمرار في الاحتلال...

أمـا الكتّاب الليبراليون، عشاق السـلام، فقد انخرطوا في نوبة من بكاء التماسيح، بعدما اكتشفوا أَن الفلسطينيين ما زالوا يعتقدون أَن

فلسطيـن هي وطنهم، فهددني عاموس كينان بأَن لغة الحوار الوحيدة، بيننا، هي البندقية...

ولكـن الاستشـراق الإِسرائيلي ما زال مشغـولاً في البحث عن معنـى كلمـة «حجل»، وعـن الدلالة الناجمـة عن وضعهـا بعد كلمة «حجـر». وقد صدق متتياهو بيلد في ملاحظـة الاغتراب الثقافي، أَو القطيعـة الثقافية، بين ثقافتين تعيشان على أَرض واحدة، فلا أحد يفهم أَحداً إِلى حد لم يمكن المترجمين من معرفة أن «الحجل» هو طائر في حجم الحمام يعيش بين الحجارة!

وحين سئل أحـد نواب «الليكود»: ألا يقـول نشيدكم أن لنهر الأردن ضفتين: غربية، وشرقية أَيضاً؟ قال: يحق لي أَن أُغني. فهل يحق للفلسطيني أن يغني وطنه، كما يحق للإسرائيلي أن يغني توسعهُ؟...

كلا. لأنه لا يحق للعربي صياغة لغته خارج ما يحدده له الإِسرائيلي من وجود. وكل ما هو خارج ذلك، هو خارج الإِنساني! على الإِنساني فينا، إذاً، أَن يغادر فضاء إِنسانيته، ويختار الإِقامة في «جيتو» الآخر. عليه أَن يكون حارساً لغيابه الخاص، حارساً لوجود الآخر في غيابه.

إِذا كنـا لا نستطيع أن نعيش معاً، فلماذا لا نستطيع أَن نموت إِلَّا معاً؟

هذا السؤال المعبّر عن أَقصى حالات التنازل الإنساني، يتحول مروره علـى الوعي الإِسرائيلي إِلى أَقصى حـالات العدوان الوحشي، لأَن فيه خروجاً على مألوف الدور الذي حدده الإِسرائيلي للآخر، لأن فيه حرية مساومة!

وهكـذا يتحول الفلسطيني ـ في الوعـي الإِسرائيلي ـ في الوعي الإِسرائيلـي السائد ـ من إِنسان يحـق للإِسرائيلي أن يقضي عليه ليحقق إنسانيتـه، إلـى موضوع حي يتشـكل منه نسيج الوجـود الإِسرائيلي، إِلى موضوع ضروري، ومهيمن عليـه، يستخدمه الإِسرائيلي متى شاء وكيفما شاء.

فما الذي يوحد هذا النسيج الفسيفسائي عَدَا وحدة الانتصار على شبح يعيـد هيكلة كيانه... والحاجة إِلى الوحدة خوفاً من هزيمة جريمة؟ وكأن الفلسطينـي، في غيابه وفي حضوره، هو جوهر الوجود الإِسرائيلي شرط أَن يمتثل لما يحدد له من دور. فبقدر ما ينكر وجوده يعترف بكثافة وجوده. وبقدر ما يقترب من الاعتراف بهذا الوجود يهدد نفسه ويقصيها عـن وجود مشروط ينفـي الآخر. وكأَن الإسرائيلي يحتـاج أَحياناً إِلى أَن يستدعي الفلسطيني، في الصورة التي يريدها، لكي يبقى إِسرائيلياً!

أما من هوية أُخرى!

إِن الإِسرائيلـي هو الذي يُفْقِرُ ذاته وموضوعـه. ويزيدهما إفقاراً بتربية خوف غريزي من عدو لابد منه، منذ بدء الخليقة وإِلى الأَبد. وإِذا كان العالم كله هو هذا العدو فإِن ذلك يزيد من خصوبة العبقرية اليهودية. ولذلك حُوِّلت مقولة «كل العالـم ضدنا» إِلى خصوصية إِسرائيلية وإِلى شـرط وجود. أمـا كيف يكون العالم كله خطأ، ويكـون الإِسرائيلي هو الصواب؟ فذلك سؤال يشبه التجديف... لأَن شرعية أَي فعل إِسرائيلي، وامتلاكه لحق لا يمتلكه سواه، مشروطان بعداء العالم كله...

لعـل هذه العقـدة ـ العقيدة هـي أَبسط الأَسلحة التـي تقاوم بها النفسيـة الإِسرائيليـة مأزقها. كانـت في الماضي سلاحـاً يحول دون

ذوبان اليهود في مجتمعاتهم. وصارت اليوم سلاحاً يحارب انبثاق الآخر من أرضه، وسلاحاً يحول دون انفتاح الأَرض على تعايش ممكن، شرطه الأَول هو الاعتراف بحق الآخر في أرضه، باعتباره صاحب هذه الأرض، لا لاجئاً يطلب الأَمان من المهاجرين!

إِن العالم المنقسم إِلى عالمين: اليهود، واللايهود ليس عالمنا. أَلهذا السبب، لا مكان لنا في هذا العالم إلا خارج العالم، لأَننا لسنا يهود، ولأَننا لا نقبل أَن تُعرف هويتنا بأننا «لا يهود»؟ ولكن هذا العالم ليس موجوداً في هذا العالم. إنه عالم إِسرائيلي متخيل. إنه دستور الخائفين من دستور يلزمهم تجاه الآخرين وتجاه أنفسهم. إنه «واقعية» الذين يعتقدون أَن الواقع مصنوع من مادة رخوة طيعة في أَيد لا تعرف حدود جسدها ولا أطراف خوفها. وأي تراجع عن مدى ما يصل إِليه الصاروخ الإِسرائيلي هو بمثابة تراجع عن يهودية إِسرائيلية لم يشارك أَحد في صياغة حدودها غير يهودها المنقسمين على حدود الخوف.

فماذا نفعل، نحن، بخوف معلن لا يفصح عن أَقاليم الطمأنينة؟ وماذا يقترح علينا الإِسرائيليون عدا التلاشي المحفوف بخطر يهدد تماسكهم الداخلي بانهيار المبرر؟

نحن مطالبون، الآن، بإنقاذ هذا التماسك من مخاطر إِنسانيتنا. نحن مطالبون بأَن نطمئن الإِسرائيليين إلى أَننا وحوش لا ترضى بأقل من رميهم في البحر. نحن مطالبون بتثبيت صورتنا كما رسموها، كي يكون الكلام الذي لم نقله أشد وحشية من الفعل الذي ارتكبوه، فمن هو الذي قذف بالآخر في البحر وفي الصحراء معاً؟ كان ذلك بسبب قول لم نقله، ولكن كانوا يريدون لنا أَن نقوله. وهكذا يتحول ما يريدون

لنـا أَن نقوله إِلى قول قلناه وإلى فعل فعلناه، لا لشيء إلا للمحافظة على عناصر التماسك في مقولة «كل العالم ضدنا»، «جميع العرب ضدنا». و«جميع الفلسطينيين ضدنا».

لمـاذا؟ لماذا؟ لم يكن بـن غوريون من «الغويـيـم» ولكن عقله الباطن كان يعرف أَن الصـراع ليس عرقياً، وأن الإِسرائيليين يتحملون مسؤوليـة غياب السلام بسبب ما يفعلونـه لا بسبب أَن العالم كله ضد اليهود. باح بن غوريون لصديقه ناحوم غولدمان، في ساعة متأخرة من ليالـي «سديه بوكر» بقلقه على المستقبل. وقـال: «لماذا يعقد العرب صلحاً معنا؟ فنحن الذي أَخذنا أَرضهم».

«نحن الذين أخذنا أرضهم»، هل ذلك ما يدفع الباطن الإِسرائيلي إِلى الجنون من تجليات ذاكرة الحاضر العربية؟

ليس هذا السؤال مهمًا الآن لمن يريد التحرر من عقلية «الجيتو» والانفتـاح على الآخر. ولكن من يريد صيانة الاحتلال باحتلال جديد يصـان باحتـلال آخر... يـرى أن أي انسحـاب عـن أي احتلال هو انسحـاب من الوجود. وهكذا يقول هذا الوعي إن الوجود الإسرائيلي هـو وجود الاحتـلال. وبالتالي فـإن أي تراجع عن الغـزو والاحتلال هـو دعوة الوجـود الإسرائيلي إلى الانتحار. ولكـن لا أحد يسأل: إذا كان الاحتـلال قد جند العالم كله ضـد الإسرائيليين، فلماذا لا يكسب الإسرائيليون عطف العالم بحل بسيط هو: الانسحاب؟

لقد وجد الإسرائيليون لعبة جديدة. وجدوا القصيدة.

إن من يصدق لغتهم يتوهم بأن الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي،

لا يدور الآن على أرض، بل يدور على أرض في قصيدة. فالقصيدة هي ناقوس الخطر الذي يستنفر المجتمع الإسرائيلي إلى الوحدة الوطنية. القصيدة هي الحرب، هي الخطر، هي الطاعون. القصيدة هي القصيدة: فإما نحن، وإما هي!

شيء من المسرح العبثي، من الهستيريا الجماعية. إذ لم يحدث من قبل أن انغمس مجتمع في مثل هذه العملية من عمليات صرف الأنظار وغسل الدماغ. ولم يتوحد مجتمع أمام خطر واهِم كما يتوحد المجتمع الإسرائيلي أمام قصيدة. لقد ترجمت أربع مراتٍ إلى العبرية. وسينشرها اليمين إعلاناً انتخابياً «لأن هذه القصيدة قد ضمنت لحزب الليكود المقعد الذي يحتاج إليه للانفراد بالحكم» على حد تعبير الشاعر حاييم غوري في «دافار». «كنت سأقرأها كلها، لكنني لا أريد أن أمنحها شرف الظهور في محاضر الكنيست» ـ هكذا قال يتسحاق شمير أثناء استعراض محادثاته في واشنطن... لماذا؟ لماذا؟

أعترف بأنني عاجز عن فهم هذه القضية، وعاجز عن متابعة سيل لا يتوقف من مقالات إسرائيلية توحدت في فهم واحد: أن الانسحاب من الأرض المحتلة يهدد الوجود الإسرائيلي. وأن العرب يريدون أن يرمونا في البحر. وأن الحوار معهم مستحيل. وأن الدليل على ذلك هو القصيدة!

من السابق لأوانه أو من غير اللائق، أن نسألهم: أيهما أقسى، الاحتلال، أم الدعوة إلى زوال الاحتلال؟ أيهما أقسى: دفن الأحياء وتكسير العظام والقتل اليومي، أم نشيد إلى وطن؟

أليس أبسط ما يقوله الرازح تحت الاحتلال للمحتلين: اخرجوا من بلادنا، واخرجوا من حياتنا!

أم أكتشـف المحتلـو ن بأنـا لا نحبهـم ولا نريدهـم، فأصيبوا بصدمة عاطفية، جراء خيانة زوجية!

هـم الذين يقولـون إنهـم لا يستطيعـو ن التعايش معنـا. ولكن المعضلـة هي أنهم لا يستطيعـو ن العيش من دوننا. وليس في وسعنا أن نحـل هذه المفارقـة المفتوحة على وحشية الغابـات التي تختلط فيها الخرافة بالأمر الواقع، وهشاشة التكوين بصلابة الفولاذ... وحاجتهم الدائمة إلـى صناعة العدو، العدو الذين يريـدون أن يحددوا له سلوكه ولغته، وردود أفعالـه، وشكل أحلامه، العدو الآلي... المستجيب لما يوجه إليه من إرشاد...

وليست القصيدة إلّا ذريعة
ولكن، إلى متى... إلى متى؟
وهل في استطاعتنا أن نقترح عليهم هذه المقايضة:
أن يفككوا المستوطنات،
وأن نفكك القصيدة!



السّفر، والسّفر الآخر

الذهول، لا شيء غير الذهول... هو ما أصاب المثقفين الإسرائيليين الذين شاهدوا مسرحية «السفر» للفنان يوسي شيلواح.

كأنه غافل الأحداث، وفتح جبهة في مكان آخر، في تل أبيب. لم يكن أحد منهم مُعداً لالتقاط الأنفاس في هذه الأيام.

«إن هذا المسرح يستحق النسف، من وجهة نظر اليمين، ولكن اليمين لم ينتبه» ـ هكذا علقت إحدى الصحف على صدمة الوعي الجديدة تلك. وكأن الإسرائيليين لا ينقصهم، في ما هم عليه من انهيار مُسلمات، إلا أن يكتشفوا مصيبة أكبر هي أن شعب «رماة الحجارة» هو أيضاً شعب يكتب... الشعر... وأي شعر!

مسرحية يوسي شيلواح مسرحية بسيطة مبنيّة من مقاطع من الأدب الفلسطيني الحديث، من الشعر والقصة، يقوم فيها الفنان الإسرائيلي بدور لاجئ فلسطيني تحول وطنه إلى حقيبة؛ فيها السرير والخزانة التابوت. ومنها يخرج نصوصاً عن التيه والضياع ويقرأ الحكاية، ومنها يعيد تركيب الوطن الراحل من منفى إلى آخر.

فما الذي ضرب المشاهدين بالذهول؟ ألأَنَّهم أدركوا، لأول

مرة في حياتهم، أن الفلسطينيين مبدعون؟ أم لأنهم وجدوا فيها صورة عن أنفسهم، كما رسموها في زمن آخر؟

قال أحدهم: «إن صورة شيلواح، حامل الحقيبة، قد ذكرتنا باللاجئين اليهود، الناجين من الكارثة، الهائمين على وجوههم في شوارع أوروبا».

وكتب آخر في «معريف»: «إن عبارة «وطني حقيبة ـ وحقيبتي وطني» كان من شأنها أن تكون قصيدة يهودية قبل عشرين سنة».

وطلبت جريدة «هاعير» من «المؤسسات التي تعلّم أطفالنا قصص الحقائب المعدة تحت السرير، والهوية الضائعة منذ ألفي سنة، وحق الصراخ في وجه النازي» أن تعلمهم هذه المقاطع الفلسطينية الثمانية، «فما قيمة ثمانية مقاطع مقابل الوعي اليهودي المتزايد»؟...

ما قيمة ذلك؟ غير أن صحيفة أُخرى تجد دلالة خاصة من الوقت الذي تعرض فيه المسرحية، حيث يطلق الجنود الإسرائيليون النار على الفلسطينيين، ويرد الفلسطينيون على الرصاص بالحجارة «ونحن نستمع إلى هذه القصائد التي لم تطربنا لأنها ذكرتنا بعذابنا في أزمنة أُخرى، وفي قارة أُخرى. وكأنها كتبت عنا نحن اللاجئين الهائمين في أرجاء أُوروبا».

اللاجيء يحتل صورة اللاجيء. ولكن أحداً ـ غير يوسي شيلواح ـ لا يقول إن اللاجيء اليهودي قد حوّل المواطن الفلسطيني إلى لاجيء، وظل اللاجيء لاجئاً.

هل يعنينا هذا الشبه المفتون بالمفارقات الإنسانية، ما دامت ضحية الأمس قد أنتجت ضحيتها، ولم يبق لها، لتجلو ضميرها، إلا أن

تعلن المساواة مع ضحيتها في المأزق الإنساني، وتنتزع منها العطف!

ليس من واجب الأَسئلة أَن تذهب، دائماً، إِلى أَقصى حالات توترها. فإِن المصير الفلسطيني هو الذي يتقدم، الآن، خشبة المسرح، وهو الذي يحتل الكاميرا. وهو الذي يتقمّصه يوسي شيلواح في الفن.

ولكن يوسي شيلواح يروي لجوءه حين يروي لجوء الفلسطيني. وها هي سيرته: يهودي من كردستان. هاجر إِلى فلسطين في التاسعة من العمر. كان أَبوه تاجر أقمشة وبقالاً في إِحدى القرى الكردية. يتذكر من طفولته الكرامة والمساواة الإِنسانية التي ميزت العلاقة بين اليهود وجيرانهم المسلمين.

ويقول شيلواح إِن تماثله مع الفلسطينيين «يعود إِلى كوني أَنا أَيضاً لاجئاً. أَنا أَيضاً أَخذوني من البلاد التي وُلدت فيها، وجاءوا بي إِلى إِسرائيل. وعاملوني معاملة اللاجئ. أنا لاجئ في إِسرائيل، بلا هوية، وبلا اسم».

وهو لاجئ ثقافياً: «أَبحث عن جذوري هنا وعن هويتي، فلا أجد في الثقافة الإِسرائيلية المجموعة التي أنتمي إِليها. وإِذا وجدتها فإني أجدها بشكل سلبي. فبحثت عن ذاتي الثقافية في الأَدب العربي الفلسطيني. وإِنني أشعر، باعتباري شرقياً، أَن بعض الشعراء الفلسطينيين أقرب إِلى نفسي من الإِسرائيليين».

وأعلن أن مدراء المسارح رفضوا عرض مسرحيته المأخوذة من الأَدب الفلسطيني، لأَنهم يفضلون مسرحية فولكلورية يشاهدون فيها صورة العربي، كما رسموها، صورة العربي وهو يدخن النارجيلة!

ولأَنهم لا يريدون أَن يسمحوا للعربي بأن يتكلم عن نفسه، وبنفسه، لا يريدون له أن يظهر جوهره الإبداعي.

إن ما فعله شيلواح هو مغامرة كشف. فهذه هي أول مرة يتعرف فيها الوجـدان الإِسرائيلي على البعد المغيّب مـن مكونات الشخصية الفلسطينيـة، هو البُعد الثقافي، «في هـذه البلاد يعيش ناس ينتمون إلى ثقافة لـم نسمح لهـا بالتعبير عن نفسهـا. ناس ننظر إليهـم باعتبارهـم عديمي الهوية. وأَنا باعتبـاري فناناً أَعيش هنا يقلقني هذا الأَمر، فطيلة الصـراع العربي ـ الإِسرائيلي لم يعبـر الجانب الروحي الثقافي للشعب الفلسطيني عن نفسه، لا في المسرح، ولا في وسائل أخرى».

أَيـن يخفـي الاستشـراق، أَو الاستعـراب الإِسرائيلـي طبيعتـه ودوره، فـي دولة شـرق أوسطية؟ لقـد شارك في عمليـة إِخفاء الهوية الثقافية الفلسطينيـة، كما فعل بولدوزر الهدم. وانشغل في البحث عن المستوى الطائفي فـي التاريخ الإِسلامي والعربـي القديم والحديث، لتلتحـق المعرفة في خدمة المؤسسة الأَمنية، وفي سلاح الهندسة الذي يختبر طبيعة الأَرض قبل غزوها.

وإلَّا، فلمـاذا يصـاب المثقفـون الإِسرائيليـون بالذهـول مـن اكتشافـات رجل المسرح يوسـي شيلواح الذي عرَّفهـم، لمدة ساعة فقط، على أَن الشعب الفلسطيني، كسائر الشعوب، ينتج الأَدب...!

لقد واجههـم بفضيحة أُخـرى، حين أَعلن القطيعـة مع الثقافة الإِسرائيلية التي لم يجد فيها نفسه. وحين أَعلن أَن المجتمع الإِسرائيلي لـم ينتج ثقافته المعبّرة عن فسيفسائه. وحين أَعلن أَن الشرق، فيه، ظل

شرقـاً، وأَن الغرب، فيهـم، بقي غرباً: «أَن تعيش فـي الشرق الأَوسط ليسـ مسألة بسيطة إِلى هذا الحد. إِنهـا مسألة جغرافيا، وضوء، ولغة، ومناخ، وثقافة».

أَي: لا يستطيـع الإِسرائيلي أن يقيم في الشـرق الأَوسط، ما لم يكـن جزءاً من عناصر تكوين الشـرق. إِن أَزمته الثقافية لا تتجلى فقط فـي أَنه لا يعرف الآخر، بل تتجلى أَيضاً في أَنه لا يعرف ذاته في مكان الآخر. فالإِسرائيلي الغريب لا يدرك، هناك، أَنه لم يعد لاجئاً. بل يدرك أنـه صار لاجئاً. ها هو الكردي اليهـودي يعلن أنه لاجئ في المجتمع الإِسرائيلي، وأَن العربي أقرب إِليه من اليهودي الآخر.

وهكـذا، فـإِن النص الأَدبـي العربي، حيـن يتبنـاه شيلواح، لا يعـرف الوعـي الإِسرائيلـي علـى طبيعـة «الإِنسان الـذي يعيش معه، وقربه، وحوله» من خـلال تعريفه على المستـوى الإِنساني الإِبداعي فـي الفلسطيني فقـط، بل يحاول أَن يطلعه على غربتـه عن ذاته الغريبة بين غرباء شغلتهم صورته عن أَنفسهم عن صورة غربتهم عن أَنفسهم، «هنـاك إِنتاج ثقافي للشعوب العربية، أشعر أَنني أنتمي إِليها. والإِنسان ذو الانتماء الثقافي هو وحده الذي يعرف ما هي هويته».

مـن نحن؟ وأَين نحـن؟ سؤال يطـل ويختفـي. يختفي منهم ويطـل عليهـم. لا لأَن «الآخـر» يقدم جوهـره تدريجيـاً. ولا لأَن اليهـودي مرغم على الإِطلالة علـى صورته في مرآة العربي، ولا لأَن صورة اليهودي السابق تتقاطع مع العربي الحالي «اللاجئ»، بل لأَن الإِسرائيلـي الذي منح نفسـه الحق في تحديد هويـة الآخر يصطدم بعجزه هو عن تحديد هويته.

وماذا بعـد الشبه المغـري بالمفارقة؟ هناك نقطـة انفصال. قد يطـرح القول الأَدبي الفلسطيني، المحول إِلـى مسرحية عبرية، سؤال الاختلاط بيـن الأَدوار التاريخية التي يتبادلها التنـاول السهل بين دور اللاجئ الذي حول الآخر إلى لاجئ وظل هو لاجئاً. ولكن هذا القول الأَدبـي، إذا أتيح له أن ينمو، قد يفتـح نفق المشهد أَمام صحوة النائم، إذا أُتيح له أَن يصحو، كأن يسأل رجل في الأَربعين نفسه: من أَنا؟ متى وُلدت؟ وماذا أَفعل هنا؟

هـل ذلك مـا يفعله شيلواح، في بحثه عن جـذور ثقافته التي لم يجدها إلا في كائن رسمتـه الإِيديولوجيا الصهيونية في صورة النقيض التاريخ؟ لقد وصل إِلى القرابة مع «النقيض»، في غياب سلامة مستحيلة مع الـذات، وبالاغتراب عـن الإِيديولوجيا التي أخفـت الإِنسانية في «الآخر».

إِذن، لـم تفعل هـذه الإِيديولوجيا مـا هو أكثر مـن تشويه، من سفـر إِلى غربة. فها هو سفر الفلسطينـي إِلى فلسطين هو سفر الإِنسان إِلى الـذات وإِلى الهويـة الإِنسانية: «مقاطع بسيطـة لا يحتاج مُدرّس الأَدب إِلـى شرحها، فهي تشرح نفسها بنفسها». هكذا قال ناقد أَدبي إِسرائيلـي. تماماً كما هو الوطن بسيط، مشروح من تلقاء نفسه، وكما التعبير عن الحرية بسيط. حجر بسيط يعرّف الغزاةَ الإِسرائيليين على أَن وجودهم هنا احتلال وغزو...

لقـد صحا بعض الإِسرائيليين من النـوم ليروا واقع وهمهم. من المؤكـد أَن الأَغلبيـة الساحقة ستعود إِلى النوم مـن جديد. ولكنها لن تنـام بلا أرق... فما زال طريق الوعي طويـلاً. وإِن الاصطدام بحقيقة

أَن الفلسطينييـن شعب يكتب الشعر ليسِ تجربة إِنسانية خارقة تستحق الانتحـار! إِذ في وسع العناد الصهيوني أَن يجادلَ إِلى ما نهاية في علوم الخرافـة، حتى حينما يشهـد سقوط أحد الأَعمـدة الكبرى في هيكل صورته عن نفسه:

سـأل مراسل «معريف» يوسي شيلواح عن مفارقة تَفَوُّق «الخير في الشرير الإِسرائيلي» أَمام تفوق «الشر في الطيّب العربي». وقال: لم نسمع عن أُمسية شعرية عبرية تقدم على مسرح عربي؟

أَجاب شيلواح: لسنا في وضـع مساواة مع العرب. لا تنس أننا نحـن الذين احتللناهم. فهل تريدهم أن يكتبوا عن الاحتلال المتحضر الذي يطلق الرصاص عليهم؟ ارفعوا الاحتلال أولاً... وسنرى.

هوية الغياب

يحاول بعضُ الكُتَّاب الإسرائيليين أن يقلب الأسطوانة ـ كما يقال ـ وأن يقارن بين الشرط الإنساني اليهودي وبين الشرط الإنساني العربي، بين «حلم العودة» اليهودي وحلم العودة الفلسطيني إلى «أرض الميعاد» ذاتهـا... يحاول ذلك ليؤسِّس سلام الأمر الواقع على «خرافة» مشتركة ولغة حنين متشابهة، وعلى توتّر المفارقة الإنسانية التي حوَّلت «غريبَين عن الأمم»، مطرودين من التاريخ والوطن، إلى ضحيتين متحاربتين!

هـل نستطيع أن نقارن؟ هـل نملك إلَّا أن نقـارن؟ هكذا يتساءل عاموس عوز، على سبيل المثال، ليسجل تطابق وجهي الأسطوانة، ليلغي الحدود بين صوت الدم وصوت السيف، وليدخلنا في الدائرة الواحدة.

تلـك سماحة القادر التي لا تعنينا. ما يعنينـا أكثر هو ما فيها من دواعـي انتباه قد تنبِّه الكتابة العربية السريعة إلى خطر التشبيه المجازي الإغوائـي، حين يجد المضطهدُ العربي نفســه فجأة «يهودياً» جديداً، في لحظة العزلة القصوى.

هذا ما أحسَّ به الفنان كمال بلاطه في شريط غربته الجميل حين قـال للمخرج الهولنـدي «أشعر بأني يهودي» لِيشيـر إلى تيه، وعزلة،

وغيـاب هوية. أما الشريط الألماني المشابـهُ، فقد اعترفت فيه السيدة الغريبـة في وطنها بأنها «تحـت اليهود» ولكنها تريد مكانـاً لتبني بيتاً على أرضها التي احتلها اليهود.

مجاز. مجاز يشير إلى مفارقات مصائر. مجاز مضلِّل، مناور. مجاز يعلن التعب أو السخرية. مجاز يتلاعب بالحروف ليتحول إلى مزاج.

لكنه يصير خطراً حين «يتثقَّف»، فعندئذ يستبعد صورة الفارق، أعنـي صورة القاتل السعيد بما يملك وبمـا لا يملك ويريد أن يملك. فمـا أجمل ومـا أخطر أن يستعيـن القاتل بضحيتـه لتحميه من عذاب الإثـم! وأن يتعاطف معها ليحلّ معضلـة الأرق طالما هو الغالـب، وأن يمنحها بعض اعتراف ليليّ يقول إنه كان يشبهها وإنه أخوها المعذَّب، ثم يوقف مطالبها عند لمسة حنان.

وهكـذا يحتل الإسرائيلـي «الليبرالي» الوطـن الفلسطيني كله وهو مرتاح الضمير. ويحتفظ بهوية البكاء الكفيلة باحتكار عذاب البشر، ويضع قدمـاً في واشنطن وقدماً في موسكو. ألم يعترف بأنه ألحق بعض الأذى في سياق البحث عن أمان؟ ثم: هل يحق لغير اليهودي أن يكون تائهاً؟

إذن، علـى المدفـع أن يبكي حين يواجه كاميـرا الغرب، كاميرا الأم. وعلـى بولدوزر الهدم أن يطلع الورد من أنقاض العرب ليشير إلى خصوصية العذاب اليهودي المتورط في انتصار أرغمه عليه سوءُ فهم من التاريخ! فهل نفهم الآن المستـوى الآخر من سعادة الإسرائيليين الذين تظاهروا في شوارع تل أبيب احتجاجاً على تمادي طائراتهم في قصف بيروت؟ وهل نفهـم لهفة الجنرال الإسرائيلي علـى إعادة الفلسطينيين

إلــى الضفة الغربيــة لنهر الأردن، بعدما أوصل جنــوده الإسرائيليين إلى الضفــة الشرقيــة لقناة السويس، فصار من حقِّ بطــل الاحتلال أن يصير بطل السلام؟ لذلك صاح الفلسطيني الساخر: ونحن أيضاً قادرون على التظاهر حين تتمادى طائرات عرفــات في قصف المدنيين أثناء حصار تل أبيب! فالمنتصر وحده قادر على التعايش مع ظاهرة تعدد الأحزاب!

ولكــن الإسرائيلي هو الذي يسأل: من هو اليهودي؟ واليهودي هو الذي يسأل: من هو الإسرائيلي؟ فكيف تُقَرِّبُنا العزلة، نحن العرب، من هوية غامضة لم يحددها صاحبُها الذي يخشى على نفسه من أن... يتعرَّب... ويتشــرَّق... ويخشى على جنسه الخاص من ليالي الضجر التــي يقضيها زوجان عربيان في الجليل؟ فما استطاع أن يهوِّد العرب، وما استطاع أن يصون تهوُّده الخاص من تناسل العرب.

إذن، مجاز. مجاز ليست خطورته الوحيدة أنه لا يستند إلى تشابه بقــدر ما يستند إلــى تناحر وقائــع ودلالات، ويضع الخرافــة في موازاة الواقع التاريخي، بل لأن تراكمه وشيوعه يبلور، تدريجياً، وعياً زائفاً يقدم «السلام» المجاني على طبق من غياب الحق الفلسطيني والهوية العربية.

تلك هي خطورة التعبير الأدبي المجازي عندما يستقل بإنسانيته المطلقة عن سياق الصراع فيوحِّد النقيضين في لحظة الضعف البشري. لمــن هذا الصوت؟ لي أم للآخــر ـ هذا ما يعنيه قلبُ الأسطوانة. هذا ما يعنيــه التوغل المتجاوز في البحث عــن تشابُه بريء يوصل إلى مُشتركٍ بريء في شروط صراعٍ غير بريئة وغير متكافئة.

لذلــك يسعــى الإسرائيلي الليبرالــي إلى صياغــة يهودية العربي

المحـدَّد، لا ليشاركه غربة المكان، بل ليسلبـه شرعية المكان وهوية الحضور. فالإسرائيلي بقدر ما هو محتاج إلى تركيب ذاكرته بالخرافة المسلحـة وزيِّ الضحيـة، محتاج إلـى تفريغ الذاكـرة الفلسطينية من علاقتهـا بالمكان والتاريخ والامتداد العربـي، وتزويدها بوعي الحقبة اليهودية المتجدِّدة. وبعد قليل سيقول إنه هو الفلسطيني.

فهل ينجح الإسرائيلي الليبرالي في صياغة ظلِّه الخاص، يهوديَّة العربـي الذي يطل على ذاتـه من خلال صورة الآخـر فيه؟ وبكلمات أخرى: هـل تستطيع مرحلة التكوّن التي يمر فيها الإسرائيلي أن تكوِّن الآخر، الذي هو نحن، بقوة الاقتلاع وتزييف الوعي والثقافة؟

يحاول هذا السؤال أن يُقلِّل من شأن الأسئلة التي تقلِّل من شأن مناعتنا الثقافية والسياسية، الأسئلة التي أشهـَرها كثيرون من المثقفين العرب ضد عناصر تكوينهم، بحديثهم عن الغزو الثقافي الذي يهدِّد الأمة العربية، أو الشعوب العربية، أو الشعب العربي.

إن لهجـة الفزع هذه تلتقي مع ترحيـب توفيق الحكيم بالسلام المصـري ـ الإسرائيلـي الـذي كان يَعِـدُهُ بفرصـة امتصاصـ الثقافـة الإسرائيلية وفق قانون التطوّر الحضاري الذي يتم بعمليات الامتصاص المتبـادل للحضـارة السائدة! وكان من الصعب إقنـاع توفيق الحكيم بخرافة «الحضارة» الإسرائيلية قبل توقيع المعاهدة!

نقطـة الالتقاء هـي افتراض الخائفيـن والمرحِّبين وُجُـودَ ثقافةٍ إسرائيلية متبلورة، دونَ أن يتساءل أحد عن حقيقة هذه الثقافة، بينما لا يكفُّ الإسرائيليون أنفسهم عن البحث المضني عن هويتهم الوطنية... وعن هويتهم الثقافية.

وفي حديث مع الفيلسوف الفرنسي دولوز تساءل: لماذا اختار الإسرائيليـون اللغة العبرية، ولم يختاروا لغة أخرى حيَّة؟ قلت: إن هذا الاختيـار جزء من صناعة الخرافة الكبـرى، فخرافة «حق العودة» إلى أرض التوراة تحتاج إلى أداتها اللغوية: لغة التوراة. ولكن ما رأيك، يا سيد دولوز، في محاولتهم إنتاج ثقافة متميزة ومؤثرة؟ قال الفيلسوف: ليس في وسع الذين انفصلوا عن ثقافاتهم الغربية، أو العربية، أن ينتجوا ثقافة جديدة ذات شأن.

ولكـن بعض المثقفيـن العـرب خائف مـن «الغـزو» الثقافي الصهيوني، لأن الغزو الإسرائيلي المُسلَّح، والغزو الإعلامي الصهيوني العالمـي، يُحرّكان حاسّة الخوف من ثقافة لم تتشكّل. فهل هي مبالغة أم محاولـة للتهرب من مواجهة السؤال حول الغزو الفعلي، الحقيقي، القائم وهو الغزو الحضاري الأمريكي الذي تدور النخبة الثقافية العربية المسيطرة في فلكه؟

سيقـول قائـل: ومـا الفـارق؟ سنقـول فـي بساطـة: إن التعبير الصهيونـي جزء مـن البضاعة الشاملة التي نستوردهـا من الغرب، جزء مندمج فـي الغزو الشامل. ونحن لا نتعرض لهـذا الغزو بقدر ما نموِّله ونتوسلـه. فالعالم العربي في معظمه تابع، بامتثال سعيد، ثقافياً وسياسياً وتعليمياً، لأَمريـكا التي نحاول التلاؤم معها تلاؤم التابع للمركز. وهي تغزونا بسهولة، بهيمنتها وذوقها ومجلتها وفيلمها وأدواتها الاستهلاكية وحراسـة مصالحها، وأداتها الصهيونية وأجهـزة قمعها العربي. ونحن الذيـن نُنفق على هذا الغزو ونخشـى انقطاع تدفقه. نحن الذين نشتريه بجميـع ما نملك من ثـروة ومشاريع ثروة. ولذلـك، ينبغي علينا ـ بدلاً

مـن البحث عن خطر السـراب في الثقافة الصهيونيـة ـ أن نواجه الغزو الصهيوني المادي على أرضنا، وأن نواجه أمريكا فينا... فينا... فينا!

وقلتُ لقائد الطائرة العربية: هل عرض فيلم رامبو ـ الجزء الثاني ـ شرط من شروط صفقة البوينغ؟ قال: لا. قلت: لماذا عرضتم علينا هذا الفيلـم؟ قال: ماذا نعرض؟ قلت: لا أعـرف ولكن، هل تعرف الفارق بين الغزو وبين استيراد الغزو؟

قال: لا اعرف.

قلت: إنه هوية الغياب...

لحظة ما...

... وأنا أقرأ الريبورتاج المثير الذي كتبه الكاتب الإسرائيلي الشاب ديفيد غروسمان بعنوان «الزمن الأصفر» لم أتوقع أن يتوصل في نهاية دراسته الإنسانية لواقع الاحتلال في الضفة الغربية إلى التساؤل الأخلاقي: هل أنا، حقاً، جدير بلقب إنسان؟

ليس في وسع الوعي الإسرائيلي أن ينجو من قوة الكلمات، الكلمات التي تقولها التجربة الإنسانية تحت الاحتلال، في دفاعها عن وجود كأنه لم يكن موجوداً في وعي الإسرائيلي، وفي ابتكارها الفذ لطريقتها في مقاومة عشرين عاماً من القهر المادي والنفسي... ومن استعصاء اللغة على تقديم شهادتها. إذ كان من حق المحتل، وحده، أن يصوغ نظام لغته بلغة لا تتسع لما تقول الضحية.

وهكذا، لم يقدِّم واقع الاحتلال بما هو أكثر من مشكلة يمكن التغلب عليها بوصفها هامشاً ملحقاً بالسؤال الإسرائيلي، كأن يوضع مصير شعب في تبعية وعي شقي يتساءل عن جدوى، أو لا جدوى، ابتلاع الضفة الغربية بلا سكان، أو القدرة على تحمل انفجار سكاني يغير الطابع اليهودي للكيان الإسرائيلي من ناحية، ويهدد اللعبة الديمقراطية من ناحية أخرى، حين تعجز العنصرية عن إعلان عنصريتها الرسمية...

أمـا الاحتـلال، في ما هـو عمل وحشـي يثير صدمـة إنسانية، وامتحان لما يدعيه مجتمع الاحتلال من قيم «تتفوق على قيم الأعداء!»، فلم يصطدم بهم كاتب إسرائيلي كما اصطدم به هذا الكتاب «البريء» مـن السياسة، البريء مـن الأحزاب، ومن الصراع ومـن الانحياز إلى أحد أو إلى شيء... كأنه قادم من زمن آخر إلى أرض لا يعرفها.

لذلك يصعـب على الوعـي الإسرائيلي، بعد هـذه الشهادة، أن يشيـح الطرف عن مسؤوليته عـن مأساة هو الذي خلقهـا منذ عشرين سنة. لقد اقتحمت حقيقة الاحتلال إطار اللغة العبرية، فما كان «مكتوباً في الجريدة» مصدراً وحيداً لحقيقة لا تناقش قد صار أيضاً «مكتوباً في الجريدة» مصدراً آخـر لحقيقة مضادة. فهل يستطيع الوعي الإسرائيلي أن يواصل الاحتفاظ بما لم يعرف بعدما تعرَّف على هذا الزمن الأصفر؟

... ولأن الإسرائيليين لا يحبون الشعر، كما لا يحبون الحقيقة، فإن عشرات القصائد التي كتبهـا شعراؤهم، دون صدى واضح، ضد حصار بيـروت وضد مذابـح المخيمات، قد تجـد الآن فرصـة لحضور جديد بعدما أسعفهـا نثر غروسمان، لينتبه الوعي الإسرائيلـي إلى أن غزو مدينة عربيـة، هي بيروت، لم يكن عملية استثنائيـة خارجة عن مألوف السلوك الإسرائيلي الذي غزا، من قبل، مدن الضفة الغربية وقطاع غزة!...

هل نبالغ في قدرة الكلمات على تغيير الوعي؟

ربما...

ربما كنا نبالغ لو كانت هذه الكلمات حوادث لغوية منفردة لا تشير إلى ظاهرة تتكوَّن في المجتمع الإسرائيلي. فما كان حراماً في قاموس الوعي هناك، مثل الاحتلال، والضفة الغربية بدلاً من «يهودا

والسامرة»، والشعب الفلسطيني، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وحق تقرير المصير، والدولة الفلسطينية ـ صار قابلاً للتداول اليومي كانتهاك حرمة السبت! مما اضطر السلطة الإسرائيلية الداعية إلى «مفاوضات بلا شروط مع العرب» إلى سن قانون يحظر على الأفراد الإسرائيليين الحديث مع الفلسطينيين!...

إن سنّ هذا القانون هو، في حد ذاته، وشاية علنية بما يتكوّن من تباعد تدريجي بين وعي المجتمع وبين المؤسسة التي تسيّج هذا الوعي بإعلام صار يفتقر إلى الصدق فأنجدته بقوة السلطة التشريعية. ومما يشي أيضاً بتكوُّن هذه الظاهرة التي أسميها «ظاهرة اصطدام الوعي الإسرائيلي بالحقيقة الفلسطينية»، استعداد الكثيرين من الأفراد لتحدي السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والذهاب إلى آخر الشوط في البحث عن شروط السلام: الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني إلى حد الإعلان عن ضرورة إنشاء دولة فلسطينية على تراب الوطن الفلسطيني، والتخاطب مع ممثل الشعب الفلسطيني الشرعي والوحيد.

ومن المفيد أن نلاحظ أن الاقتراب من وعي الحقيقة الفلسطينية يتسم بمرونة تتجاوز حدود قوى السلام التقليدية، ليشمل أفراداً من صلب المؤسسة الصهيونية تقودهم الميكيافيلية الباحثة عن تخطي المأزق التاريخي إلى الاعتراف بهزيمة التغييب التاريخي للشعب الفلسطيني، والتضحية بالمقدس الأيديولوجي، على قربان ما يقدمه الواقع من معطيات تتصادم مع الأيديولوجي لمصلحة الواقعي.

ما زال الطريق طويلاً أمام تطور هذا الوعي الفردي إلى وعي مجتمع ضاغط على المؤسسة.

وما زلنا في حاجة إلى التنبيه مما قد يغرينا به هذا التغير من وقوع في أحـلام اليقظة، ومن وهـم السلام القائم على موازين قوى حالية... لا تشجـع الانقسام الإسرائيلي على التنـازل عما يرتهن في سبيل سلام أقـل سلاماً من حالة اللاسلام... ولا تشجع الفلسطيني على «التخلي» عن مصادر القـوة الكامنة في اقتحام الحقيقة الفلسطينية بعض طبقات الوعـي الإسرائيلي، وهي: القدرة على مقاومة الاحتلال داخل الوطن، والقـدرة على مقاومة الحصار خـارج الوطن. فمـن البديهي أن يقال إنه في غياب هذه القدرة سيظـل الوعي الإسرائيلي سعيداً بواقع يطرح أسئلة أخلاقية قابلة للمماطلة.

وإذا كان مـن واجبنا أن نساهم مساهمة إيجابية في تطوير الوعي الإسرائيلـي الجديد بالحقيقـة الفلسطينية، بإبرازنـا المحتوى الإنساني للرسالـة الفلسطينيـة وبانطـواء مشروع الحريـة على جوهـر السلام ـ وهمـا رسالة ومشروع مضادان لرسالة العـدو ومشروعه تجاه مجتمعه وتجاهنـا معاً ـ فإن من شـروط نجاحنا في هذه العمليـة هو العمل على جعـل الاحتلال دائماً أكثر كلفة، ليتحول وعي التخلي عن الاحتلال إلى مصلحة لا إلى تضامن أخلاقي، لأن بعض موجات التضامن الأخلاقي لا يتعارض مع نزعة المحتل إلـى إجراء التوازن بين «إنسانيته» وبين قدرته على محو إنسانية الآخر، ليضمن الاحتلال وراحة الضمير معاً...

وما زال الطريق طويلاً جداً أمام إمكانية انفصال وعي المجتمع عن المؤسسة. وما زال علينا أن نلاحظ الاختلاف الجذري بين أشكال الانعكاس التي تتفاعل في المجتمع الإسرائيلي نتيجة مواجهة الحقيقة الفلسطينية، فمن أشكال هذا الانعكاس ما يدعو إلى الحوار مع منظمة

التحريـر، ومنهـا ما يتوغـل عميقاً في الحـل الصهيونـي الكلاسيكي لمعالجة الأمر المتحول إلى سؤال إسرائيلي داخلي.

ولذلـك، فإن دعوة بعض أفـراد النخبة الثقافيـة الإسرائيلية إلى الحوار مع الفلسطينيين وضرورة الاعتراف بحقوقهم الوطنية، تقابلها دعوة بعض أفراد هذه النخبة إلى اعتبار الفلسطينيين «شعباً من القتلة». وفـي الوقـت الذي صـدر فيـه ريبورتاج «الزمـن الأصفـر» للكاتب غروسمان، وصـف الكاتب عاموس عوز منظمـة التحرير الفلسطينية بأنها «أشد الحركات القومية قبحاً ووحشية في القرن العشرين»!...

ومع ذلك، فإن عدد المثقفيـن الإسرائيليين الداعين إلى الحوار مـع الفلسطينيين، علـى أساس الاعتراف بحقهم فـي إنشاء دولة، آخذ فـي التزايد وفي النشاط الملموس الـذي يكشف عن دخول المجتمع الإسرائيلي الآن في صراع على الوعي إزاء السؤال الفلسطيني.

فهل نخطئ إذا اعتبرنا أنفسنا شركاء مباشرين في هذا الصراع؟

وهل نبالـغ إذا اعتقدنا أننا نجد أنفسنـا، وللمرة الأُولى قادرين علـى التدخل المباشر في شـؤون «البيت الإسرائيلـي» المنقسم علينا تدخلاً قد يكون مؤثراً، إذا امتلكنا القدرة على إغراء الوعي الإسرائيلي الجديد بفوائد بحثه عن البديل!

أي: هل نحن قـادرون على التخاطب مع مصلحـة الإسرائيلي العادي، برفع تكاليف الاحتلال من ناحية، وبإظهار الجوهر الإنساني لمشروع الحرية الفلسطيني من ناحية ثانية؟

وهـل نحن قـادرون على تشجيع بـوادر هذا الوعـي الجديد،

الوعــي المضاد للسائـد وللمؤسسة، بالإجابة علـى الأسئلة المحددة، وبتفسير قول عمر بن الخطاب «عدلت، فأمنت، فنمت؟».

أَم نبتعد عن كل هذا المجرى؟

كلا السؤالين صعب...

والى أَن نجد الجواب المتـوازن، من واجبنا أن نخوض المعركة على الوعي الإسرائيلي بكل ما نملك من أدوات الربط بين جناحي الحرية والسلام. ففي المجتمع الإسرائيلي اليوم لحظة إصغاء مختلف تحتاج منا إلى صوت دقيـق العبارة. ومن شأن هذه اللحظة أن تفلت من أَصحابها، مـن القلقيـن على مصيرهم الـذي يتقاطع مع السؤال عـن مصيرنا. ومن شأنها أن تفلت منـا إذا تركناها نهباً للتعامل السهل أو للانغلاق الخامل. فإن الريح التي تهب على جبهة العدو تعنينا. نعم... إنها تعنينا!...

الزّمن الأجوف

سؤال آخر يطرحه زمن الاحتلال على الفكر الإسرائيلي: الزمن... يعمل لمصلحة مَنْ؟

وبلا تردّد، يجيب خمسة من الفلاسفة والمفكرين الإسرائيليين على هذا السؤال الذي وجهته إليهم جريدة «حدشوت»، في سياق التأملات بعشرين عاماً على حرب حزيران:

الزمن لا يعمل لمصلحتنا...

ولكن، هل تبلور مفهوم للزمن في مجتمع يطرد عن وعيه الخرافي ضرورة الاعتراف بأنه مجتمع احتلال؟ وهل تقاطع مفهوم الزمن ـ الموظّف لدى المحتل مع زمن الصراع لدى الواقعين تحت الاحتلال؟ وهل تتلاقى النظرة الإسرائيلية الخائفة من الزمن، أو المطمئنة إليه، مع النظرة العربية المطمئنة إلى الزمن، أو الخائفة منه؟

وباختصار: مع من يقف هذا الغامض... الجنرال ـ زمن؟

الجنرال الإسرائيلي موشيه ديان لم يتعب من التكرار: «ليس هناك ما يدعونا إلى العجلة. فنحن أقوياء. والزمن يعمل لمصلحتنا. وليس لنا ما نخسره». لذلك، واصل تكديس البرهة على البرهة لتكريس الأمر

الواقـع خلوداً لا ينتهـي، فمن لحظـة الحاضر يمكـن التحكم بمسار الأَبـد... هـذا الأَبد الذي اشتـراه وعيُ مناحيم بيغـن بهوس تلمودي: سنبقـى هنا إلى الأَبد. القدس عاصمتنا إلى الأَبد. يهودا والسامرة أرض إسرائيلية إلى الأَبد. الجولان جزء من أرض إِسرائيل إلى الأَبد. ولن تقوم للأَعداء قائمة إِلى الأَبد...

وفـي لحظة مـا، انقطع الحاضر عـن الأَبد، انفصـل عن سياق الزمن، دون أَن يكون وعي الزمـن مُهيَّأ لاستيعاب الصدمة، لقد هرب الزمن من المكان.

... فمنذ الأَيام الأُولى من حـرب تشرين انهارت أعمدة الزمن الإسمنتيـة التي بناهـا الجنرال بارليف في محاولـة لصد مفعول الزمن التاريخي، فهرول الجنرال ديَّان إلى سيدته غولدة مئير باكياً: لقد انتهى زمـن البيت اليهودي الثالث. إذ ليسـ هنالك دبابة واحدة تحمينا، من السويس حتى تل أَبيب.

لقد تحطم الجنرال ـ زمن في إرادة الجنرال ديان، فأقالته رئيسة الـوزراء سراً، لتحافظ على «لحظة المجـد» الإسرائيلي في زمن عربي جارف...

أمـا مناحيم بيغن، المهووس بسيطرته علـى الأَبد، فقد تفتت أبده إلـى لحظات متقطعة لا حلقـات لها لتصل بين الحاضـر والغد، ولم يعد الماضـي قادراً على أَن يسوس الأَيام، كأَن سيف يهوشع بن نون لم يخرج أَبداً من مكانه ولا زمانه في متحف الذاكرة، حين أَعادته مدينة بيروت إلى وعي الزمن الزائف مريضاً كئيباً، يطل من شرفة زمنه الشخصي على مكان

جريمته الأُولى وعلى زمـن خرافته، وعلى زمن الآخرين الذين انتقلوا من ماضي الأَشباح إِلى حاضر البطولة، أَبطالاً متناغمين مع زمنهم التاريخي.

إلـى أَيـن يأخذهم قطـار الزمـن؟ تقـول الشاعـرة الإِسرائيلية رابيكوفتش: «أحسّ بأنني مسافرة فـي القطار إلـى مسافات بعيدة ستنتهـي بارتطام. الآن كل شيء على ما يرام. ولكن كلما اجتاز القطار مسافة جديدة اقترب من لحظة الارتطام»...

الآن، كل شـيء على ما يرام ـ هكـذا يقول الجنرال رابين، وزير الدفـاع، وبطل حـرب حزيران: نحن فـي أحسن الأَحـوال. لا شيء يهددنا. وليس هنالك ما يدفعنـا إلى التخلي عن شيء. العرب في أَسوأ الأحوال. ونحن أَقوياء. مرتاحون، ومرتاحون جداً!

لكـن الفيلسوف آساكيشر يرى ما لا يـراهُ الجنرال لأن «أخطاء إسرائيل الجوهرية هي غياب مفهوم الزمن. لقد تكلم الفلاسفة القدامى عـن الزمن بمصطلحات التغييرات المتجليـة، فالزمن موجود فقط في المكان الذي يحدث فيه التغيير. أما إذا كان كل شيء مقرراً، فلا مفهوم للزمـن. إن السياسـة الإِسرائيلية، منـذ أيام غولدة مئير إلـى أَيام شمير، تنطلـق من فرضية سيطرتنا على ما يجـري سيطرة قادرة على تجميده، أو جعله يتغير في اتجاه إيجابي فقط...».

أما الفيلسـوف عيدي تسيمح، فهو شديـد التأثر بمثال جنوب إفريقيـا وتطابقـه مع المثـال الإسرائيلـي المسكون بقنبلـة زمنية قابلة للانفجار، لأَن زمـن الاحتلال سيخلق أغلبية عربية... «لو كنت قومياً عربياً لانتخبت الليكود، لأن ما يفعله الليكود هو تهيئة المناخ للوصول

إلى وضع يصبح فيه التقسيم مستحيلاً. فالآن يولد في البلاد عرب أكثر من اليهود، وفي غضون ثلاثين عاماً نصبح مثل جنوب إفريقيا تماماً: تكون هنا أكثرية عربية ساحقة، ونضطر إلى تسليم الدولة للعرب. لقد قال آرنس إنه مستعد لمنح سكان المناطق الجنسية الإسرائيلية. وهذا يعني تسليم دولة إسرائيل، بشكل كامل ومنتظم، مع تل أبيب وبيت ألفا وصناعة الطيران إلى أيدي العرب». ويضيف: «إن غباء سياسيينا يكمن في أنهم لا يعرفون أن هناك مشكلة على بعد دقيقتين، ولا يفقهون شيئاً في ديناميكية الزمن. ولا تدرك قيادتنا أن الشعب لا يعيش من اليوم إلى ما بعد الظهر».

لذلك، يتحول النقيض التاريخي، أي الوجود الفلسطيني، في وعي الفيلسوف إلى شرط تاريخي لإنقاذ الوجود اليهودي من مثال جنوب إفريقيا ومن خطر الزمن، فيقول: «علينا نحن الإسرائيليين أن نكون معنيين بقيام دولة فلسطينية. فمن دون دولة فلسطينية لا مستقبل لنا. لذلك يسرني عدم الهدوء، والتململ، والطلقات النارية. إنّ أخطر ما يهدّدني هو ألا يكون في المناطق المحتلة ضجيج وقنابل، وأن يصبح العرب «أولاداً هادئين» وينضموا إلى الليكود، ويصبحوا مواطنين إسرائيليين، فدولة إسرائيل، بثلاثة ملايين عربي، هي دولة عربية»...

ويلاحظ البروفيسور يرمياهو يوفيل أن الزمن الإسرائيلي هو زمن أجوف: «في سنوات السبعين كان هناك تقدم نحو السلام. كان هناك مجرى. وعندما يكون ثمة مجرى لا يكون الزمن أجوف. توقُّع تجديد ما يأتي به الغد. أي: هناك وعي مستقبل كامل. ومقابل ذلك عندما تتكوَّن حاسة «الأمر الواقع» فإن معنى ذلك أن لا شيء يتجدد ولا يبدو أنه سيتجدد. وهذا يعني أن المستقبل يبدو مستقبلاً أجوف.

ثمـة أمر آخـر هو تجاهل ما يجري حقاً على أرض الواقع. أن مجتمعنا لا يريـد أن يعرف ما يحدث لـدى الفلسطينيين في المناطق. وفي هاتين الحالتين يجري تجميد وعـي الزمن وتفريغ المستقبل. فالحاضر يكون هـو المستقبل. ما هو كائن هو ما سيكون. هذا هو زمننا الذاتي. ولكن، مـن الناحيـة الأُخرى، فإن الزمـن الموضوعي هو مـا يحدث خارجنا. فالمناطق موجودة، والتحركات العالمية لم تتوقف، وهذا الزمن هو زمن تاريخي، إنه ليس زمناً مجرداً. والزمن التاريخي لا يمكن تجميده».

ويرى يرمياهـو يوفيل أن مصدر الخطر علـى الإِسرائيليين يأتي مـن وجود ثغرة كبيرة بين وهـم «الأمر الواقـع» وبين الواقع المتغيِّر... «وهذا ما وقع لنا في يوم الغفران، فحتى ذلك اليوم كنا نعتقد أن الوضع سيستمر إلى الأَبـد، وكأن دولة إسرائيل تقرر وقف التاريخ. أما حرب لبنـان فقد وقعـت بسبب رغبة قيادتنـا، المبالغ فيها، فـي تغيير صورة الشـرق الأوسـط تغييراً راديكالياً. ولكـن أنفقنا في المغامـرة اللبنانية طاقـة هائلة خرجنا منها متعبيـن، واعتقدنا أننا عدنا إلى «الأمر الواقع» السابق. إن التاريخ يتقدم. والزمن الموضوعي لا يتعلق بأذهاننا الذاتية. ونحن لا نريد أن نعرف أننا شعب يحتل شعباً آخر».

ويلاحـظ المفكـر الإسرائيلي أن الزمن يحمـل خطراً آخر على الإسرائيليـن هو نمو الظاهرة الإسلامية التي «تنطوي على خطر موت يهـدد إسرائيل في المـدى الزمني المتوسط. إن مـا جعلنا قادرين على الصمود حتى الآن هـو حقيقة أنه لم تكن للبلدان العربية دوافع لتجنيد مواردهـا فـي الحـرب، إذ كان لكُلّ منهـا مصالح مختلفـة. إن القوة الوحيدة القادرة على ذلك هي التعصُّب الإسلامي»...

ويخلص المفكر الإسرائيلي إلى استنتاج أن الزمن يعمل ضد مصلحة إسرائيل، ولمصلحة العرب على المدى البعيد. أما على المدى المتوسط فإنه «يعمل بشكل كارثي ضد مصلحة الطرفين»...

وهنا... من الطريف أن يراقب الزمن العربي أزمة الزمن الإسرائيلي، وأن يتفرج عليها. ولكن من الطريف أيضاً أن ننتبه إلى المفارقة الساخرة التي يقدمها لنا وعي الزمن، لدى بعض أصحاب القرار العربي الذين يجمدون الصراع بحجة أن الزمن يعمل لمصلحتنا، دون أن يضيفوا إلى هذا الإيمان بديهية ضرورة هي أن الزمن لا يعمل من تلقاء نفسه، في منأى عن النشاط والإدارة الذاتية...

إن تجميد الصراع على شروط الأمر الواقع هو استجابة بائسة، أو يائسة، لوعي الزمن لدى الإسرائيليين الذين يريدون أن يجمدوا الصراع على شروط الأمر الواقع الراهن. فالأمر الواقع كما هو معروف ليس في مصلحتنا، وإحالة القضية على الأجيال القادمة لا تعفي الأجيال الحاضرة من مهمة تغيير الأمر الواقع. فالزمن لا يسير في اتجاه معاكس، لأن الحاضر لا يولد من المستقبل. ولأن الماضي لا يولد من الحاضر.

وهكذا، فإن الراحة الناجمة عن وعي أن الزمن يعمل لمصلحتنا، في غياب النشاط المؤثر في الواقع، وفي عزل الحاضر عن سياقه، هي ضرب من ضروب ترك الزمن يعمل وحده، أو ترك الزمن... للزمن!...

توراة كاهانا

يصفـه الكثيـرون بأنه هتلـر صغير. ويصفـه أنصـاره بأنه منقذ الشعب اليهودي من خطر الانقراض...

ولكـن الجميع يعترفون بـأن مئير كاهانا يعبِّر عـن ظاهرة تنمو فـي المجتمع الإسرائيلي، في مسار مضـاد لظاهرة أخرى، هي ظاهرة الباحثيـن عن تسوية تاريخية. وإذا كان القلـق على المصير الإسرائيلي هو العامل المشترك بين نمو الظاهرتين، فإن الصراع بينهما يتطور إلى حرب فكرية وسياسية يقف فيها اليهودي في مواجهة الإسرائيلي!

لذلـك، فإن مئير كاهانا يصب لعنتـه التوراتية على الجميع، على الإسرائيلييـن كلهم من اليمين إلى اليسار إلى الوسط. ولا يكف عن نشر رسالته «النبوية» في كل مـكان. إنه أشْعِيَا المقلوب. إنه سيد الضوضاء. يؤمـن في أن الأقدار قد اختارته ليخلص الشعـب الإسرائيلي من ضلاله العلماني ومن تواطؤه على نفسه. فهو رسول الهداية الداعي إلى تصحيح الحاضر بالعودة إلى الجذور البعيدة، والى تهويد الإسرائيلي بالتخلي عن مفاهيم الحكم المعاصـرة واستبدالها بأحكام التوراة... لأن كل تعامل يهودي مع ما هو خارج التوراة يجرد اليهودي من ميزته الإلهية: التوراة!

قد يثيـر السخريـة، بلكنتـه الأمريكيـة وهشاشة لغتـه العبرية، وبمسرحـه الخطابـي الجـوّال، وبأفـكاره الكلاسيكيـة السحيقـة، وبخروجـه عـن مألوف الـكلام. ولكن مناحيـم بيغن أيضـاً كان يثير السخريـة قبل عشرين عامـاً، بخطابه القادم من تاريـخ بعيد، تاريخ ما لا تاريخ له فـي عصر ظن سكانه أنهم يعاصرونـه، فاستطاع الخطيب البـارع والمضحـك، أسلوباً وجسداً، أن يدل الناس على قوة الغريزة وعلى قـوة الخرافة. واستطاع أن يقفز من منبـر الهداية المعارضة إلى ضلال السلطة.

وهكـذا، فإن كاهانا ـ صاحـب قناعة الأصولية الدينية ـ لا يفتقر إلـى عناصر المحاجحة حول حيوية نشازه: الشعب، من هو الشعب؟ الشعب معي. ولا يكف عـن القول إن الجميع يعترفون بأنه على حق، ولكن الحياء الليبرالي يمنعهم من هذا الاعتراف، فيكون هو، الشجاع الواضـح الصريح، المعبر عن باطن الوعي اليهودي، لأنه ليس مسؤولاً إلا أمـام الله والضميـر والحقيقة. فيقول: الكل يفكـر مثلي، ولكنني الرجل المستقيم الذي يقول أفكاره بشكل مستقيم.

هل هو أحمق؟ لا أحد يكرر هذا الهاجس مثله. لقد دفعه السؤال العربي إلى حافة الجنون. قال في حوار ساخن مع جريدة «حدشوت» : «يا سيدي، أنا لست أحمق... لست أحمق. إن الشعب لا يأتي للاستماع إلـى حديث كاهانا عـن الاقتصاد. أنا لست أحمـق. إن كاهانا، بالنسبة إلى الشعب، هو مشكلة كاهانـا. ومشكلة كاهانا هي العرب. وأنا أريد أن أنقذ هذا الشعب اليهـودي من العرب ومن نفسه». أما العرب «فإننا سنطردهـم في سيارات الباصـ، في الشاحنات، علـى الجمال، ومشياً على الأقدام». وأما اليهود، فإنه سيعيدهم إلى التوراة.

كاهانـا يبدو للوهلة الأولى ظاهرة تسليــة. ولكنه تسلية خطرة. إنـه من فـرط حماقته يكـرر الإعلان عن أنـه ليس أحمـق. ومن فرط إحساســه برسوليته يكرر الحديث عن نفسه بضمير الغائب. ولكن كم من الحمقى ساسوا شعوباً. ألم يظهر المشروع الصهيوني ـ كما صاغه هرتسل ـ مشروعاً خيالياً يبشر به رجل أحمق!

ألم يقـل آباء الصهيونية مـا سيقوله كاهانا عـن العرب؟ لذلك، فإنـه يعرف كيـف يدافع عن منطق خطابه بالاستنـاد إلى أصل الأفكار التـي عرضها الحاضر إلى تعديل لغوي يعتبره كاهانا كفراً، أمام حاضر الحضور العربي الكثيف...

إن لعبة التلاعــب بظاهرة كاهانا خطرة، لا لأنها تزود المشاهد العربــي بعناصـر الاستمتاع الذاتـي ببؤس الفكـر الصهيوني ومظاهر انحطاطـه فقـط، بل لأنهـا تأخذ الخمـول الفكري إلى نزهــة الراحة والاتــكال على عدو مريح مـن فرط ما هو واضح. لأنهـا تريح دراسة المجتمع الإسرائيلي من صعوبة علمية ضرورية، لأن كاهانا عدوٌّ سهل، أشـد سهولة من ظاهرة الأفـراد الإسرائيليين الذيـن يعترفون بحقوقنا. وباختصار، لأن كاهانا يقترح على جدلية النظر تبسيط النظرة الأحادية الجانــب، مما يعفينا من مشــاق البحث المعقد، ويعيـد إلى المشاهد العربي مشهداً إسرائيلياً منمطاً في وحدة دين ودولة، ومنمطاً في صورة لا تتزحزح العلاقة بين عناصرها الداخلية، ولا يقبل عامل الخرافة فيها التأثر بقوة الواقع، فيستمد الخرافيون فينا من خرافيي العدو قوة جدال تعمـل على ساحتنا الداخليـة، باعتبار أن ظلام العدو لا يقاوم إلا بظلام الذات، ولا يُحارب التخلف الفكري إلا بتخلف فكري مضاد!

ولكـن، هـل يتعارض تعبيـر كاهانا الفـظ، في مـا يخصنا، مع الطريقـة التي تم بها تأسيس المشـروع الإسرائيلي وطرد العرب؟ يبلغ السجال بين لغة كاهانا ولغة سائر الشركاء حد تبادل التهم.

الفارق الشكلي يكمن فـي بدائية تعبير كاهانا، الناتج عن القلق المشترك الذي يهز المجتمع الإسرائيلي جراء العجز عن تصور مستقبل غامضـ، سيشارك في تحديد صورتـه التزايد السكانـي العربي الذي سيغير الطابع اليهودي للمشروع. فبين الاختلاف على ضم السكان أو ضم الأرض بلا سكان، يُحاصر الوعي الإسرائيلي بمأزق تزيده مقاومة العرب وتناسلهم وقوة الأشيـاء، توتراً، مما دفع بعض الإسرائيليين إلى الاقتراب من منطقة التفكير القسري بمصالحة الواقع، والاعتراف بما تقدمـه الحياة ذاتها من وقائـع وحقائق تتصدرها الحقيقـة الفلسطينية التـي صارت، في هذا الوعي الجديـد، شرطاً لإنقاذ المستقبل ولإنقاذ العملية اليهودية من الذوبان.

ولكـن كاهانا قادر علـى أن يستمد من ماضي التـوراة رسولية صهيونية تؤهله لمواجهة قوة الأشياء والواقع وجر الماضي، من قرنيه، إلى زمن آخر. لقد وجد كاهانا الحل السهل لمأزق إسرائيل التاريخي، وهـو طرد العرب، جميع العرب، من فلسطيـن، «أعطوني القوة، وأنا سأتكفـل بهم»... هكـذا صاغ شعاره الجـذّاب ومسرحه المتحرك، ليطوف كل بقعة من الأرض المحتلة جارّاً وراءه المعجبين والفضوليين والساخريـن معاً، واستطاع الوصول إلى البرلمـان. وها هو ينمو كما تنمـو سائر الظواهـر الخرافيـة، بالحصانـة البرلمانيـة، وبالخطاب، وبالإرهـاب، وبحراسة الشرطـة. لذا، من الضـروري أن نراقب هذه الظاهـرة كما نراقب الظاهرة المعاكسة. ومن الضروري أن نقرأ خطبة

واحـدة لكاهانا، خطبة واحدة تكفـي، دون أن نكترث كثيراً بما يثيره فـي خصومه الإسرائيليين من خوف على العلمانية وعلى الديموقراطية الداخليـة، فبعضهم يسميه النـازي، وبعضهم يسميـه الفاشي، لا لأنه يدعو إلى طرد العرب، بل لأن له برنامجاً اجتماعياً يهدد العلمانيين...

فهو ـ علـى سبيل المثال ـ يدعو إلى فرضـ حرمة السبت فرضاً إلزاميـاً. سأله مراسل «حدشوت»: هل يحق لـي أن أدخل إلى سيارتي يـوم السبت؟ فأجاب: لا، ولا في أي حال من الأحوال... لن تستطيع أن تفعل ذلك إلا يوم الأحد. وسأله الصحافي: وإذا أردت أن أسافر إلى شاطئ البحر يوم السبت، فهل توقفني الشرطة؟ فأجاب: لن تسافر يوم السبت إلى شاطئ البحر. سافر يوم الأحد... وكفى!

هو عـدو العلمانية، وداعية صـارم إلى تطبيق صـارم لنصوص التوراة. كما يفهمها. يقول: «لمـاذا أُنشئت الدولة اليهودية؟ أُريد هنا جيـلاً يهودياً لا جيـلاً إسرائيلياً هو عبارة عن يهـود يعيشون في أرض إسرائيـل. إنـه لشيء خاصـ جدًا أن تكـون يهودياً. نحـن شعب اللـه المختـار، وقد وهبنا ما لم يوهب لأحد: التـوراة. خارج التوراة ليس لنا أي شيء».

تلـك القضايا سيحلها كاهانا بعـد أن يطهر الأرض من العرب. فالعـرب معضلتـه، وحماقته، وجنونـه. يقول: «إن اليهـود خائفون، خائفون في هذه الدولة، خائفون في أُورشليم وفي كل مدنية، خائفون مـن الذهاب إلى حائط المبكى. يا للعار، اليهود خائفون، بينما يتجول العـرب أحراراً، جهـاراً نهاراً، وفي كل وقت. أهذا مـا حلمنا به ألفي سنة، وصلينا لأجله ثلاث مرات في اليوم. الويل لنا والويل لنا».

يدعو كاهانا إلى تدمير بيوت العرب، وإلى اقتلاعهم من الأرض، ويفصح عن عقدة جنسية ـ عنصرية في رؤيته إلى «الفحولة العربية» وهي تتحول إلى خطر أمني وأخلاقي، فيخطب باكياً قبل المساء: «بعد ساعة، أيها السادة، سيجلس العرب في المقاهي مع الفتيات اليهوديات. سيأتي إبراهيم من كفر قاسم أو من سخنين، سيرى فتاة يهودية جميلة، وسيقول لها: السلام عليك أيتها السيدة... إنهم يضحكون الآن، وأنا أبكي. يا بنات إسرائيل، ماذا جرى لكنَّ يا بنات إسرائيل. لقد دمروا الأرض المقدسة، دمرها الماباي والمبام. يا لله! إن أربعة آلاف فتاة يهودية متزوجات من عرب، عدا الآلاف المؤلفة من الفتيات اللائي يعشن مع العرب بلا زواج. هل هذا هو حلم الشعب المختار... الشعب المقدس؟».

ويضيف كاهانا في خطبته التي يحفظها هواة التمثيل عن ظهر قلب: «لن تكون لنا دولة بعد عشر سنين أيها السادة. ألا تفهمون ذلك أيها السادة؟ إن للشباب اليهودي جيشاً وواجبات. والعربي يسخر منا ويضحك علينا. يتجول بحرّية. في جيبه نقود، وعلى ذراعه شابة يهودية. إنه يضحك علينا. والأدهى من ذلك ـ أيها السادة ـ أنكم أنتم ترتاحون إلى ما أنتم فيه: قليل من البيرة، الكولا، يواصل العرب تناسلهم بوتيرة مدهشة. إنهم ينجبون ستة أولاد أو سبعة. فهل نحن شعب طبيعي؟ فما أن ينهي الشاب اليهودي خدمته العسكرية حتى يكون ابن جيله العربي قد تزوج وأنجب ولدين أو ثلاثة. فكم سيكون عدد العرب بعد عشر سنين، حتى لو جلسوا هادئين، بلا معارك وبلا حجارة؟ كم سيكون عدد العرب، المواطنين، في هذه الدولة؟ إنكم تريدون الديمقراطية...

طيـب، كـم سيكـون إذاً عدد العرب في الكنيســت؟ ديمقراطية... ها...ها... ها».

وكما في كل خطبة، يجـد كاهانا حله النهائي... حله الوحيد: «إذا أردتم لأبنائكم أن يعيشوا في دولتهم بعد عشر سنين، أيها السادة، فهنالك حل واحد لا ثاني له، حل واحد كل ما عداه باطل وترهات... هنالـك حل واحد فقـط، وهو ليس حـلاً عنصرياً. إنه حـل صهيوني وأُصولـي ومنطقي. الحل هو: إننا نريد دولة يهودية. فليخرج العرب. العرب إلى الخارج. بَرَّه...بَرَّه... خلاص...».

وكـي ينفي عن نفسه تهمة العنصرية، كان لا بد له من أن يقول: «أنا لا أكـره العرب... ولكنني أُحب اليهـود... ولأنني أُحب اليهود ولا أكره العرب، فإن على العرب أن يخرجوا من هنا. وإذا لم نخرجهم فسيُقضى علينا. برَّه... برَّه...خلاص».

وكاهانـا يسـأل كاهانـا: «كيـف نخرجهـم، يا كاهانـا، كيف نخرجهم؟ عندي الجواب، أيها السادة، عندي الجواب: سيأتي يوم ليس ببعيـد، يصحو فيه العرب هنا، ويسمعون من الراديو أن رئيس الحكومة الجديـد هو كاهانا. عندئذ سيفرّون من هنا، فـي ذعر لم يسبق له مثيل. فهم لا يفهمون سوى القوة. ولذلك فهم يفهمونني، فأنا رجل مستقيم، أقـول لهم في وجوههم: لا مـكان هنا لشعبيـن...لا...لا... لا شمال إيرلندا، ولا الهند، ولا سريلانكا. هنا دولة يهودية للشعب اليهودي»...

ينتهي الخطـاب بتصفيق طويل، يتلوه صمت قصير من أجل أن يصدح النشيد الوطني... نشيد «الأمل»...

قلب الأسد وقلب الحمار

إنهـا لفتة كريمة من ذاكـرة الحاضر، أن تنتبه إلـى أن هذا العام يشهـد الذكـرى الثمانمائة لانتصار الشـرق العربـي والإسلامي على غـزو الغـرب الصليبي، فـي معركة حطين التـي مهدت الطريـق أمام تحرير القدس، وكسر موجـات التغلغل الصليبي، الذي احتفظ ببعض المواقع والقلاع على السواحل. لقد بقي للصليبيين، بعد هذه المعركة الكبـرى، ما يشهد على غزوهم وعلى مرورهم على الأرض المقدسة، ولكن انتصار الشرق قد تحقق.

ليس الماضي دائمـاً خيراً مـن الحاضر. ومن يعيد قـراءة أحوال الشرق العربـي والإسلامي، والجهـود المضنية والمعـارك الجانبية التي خاضها صلاح الدين الأيوبي مع خارطة الانقسامات ليوحّد قوى المعركة ضد الغزو الخارجي، يتمهل قليلاً أمام إغراء المقارنة السهلة بين انقسامنا في ذلك الزمان وانقسامنا في هذا الزمان. ولكن نجاح مشروع المقاومة والتحريـر، وهزيمة الغرب في الشرق، يرفع معركة حطين إلى مرتبة الحد الفاصل بين تاريخين، ويحولها إلى مصدر إلهام مضيء لتاريخنا المعاصر الذي يجـد نفسه شديـد الانقسام على ذاتـه، أمام قلعـة صليبية معاصرة تـم تشييدها من ارتبـاك العلاقة بين الشرق والغـرب، ومن تغليب جانب

النموذج والتبعيـة على هذه العلاقة... من أفول حضـارة ونشوء حضارة أُخرى، ومـن إصرار الغرب ـ حتى يومنا هذا ـ على أن يكون الشرق تابعاً له، خاضعاً له، ملحقاً به، وأن لا يكون الشرق أكثر من جهة للغرب!

لم تسلم لفتة الذاكرة العربية إلى هذه الذكرى من مفارقات. فإن أصحاب القلعـة الصليبية الجديدة هم أيضاً يعدون العدة، قبلنا، لإحياء ذكرى حطين، للاستيلاء على معانيها ولضمها إلى غنائمهم التاريخية. فمـا دامت أرضـ حطيـن خاضعـة للاحتـلال الإسرائيلي ولـلإرادة الإسرائيلية، فلم لا يستولون على انتصارها؟ وهكذا هرول المؤرخون العرب إلـى المؤسسات العربية طالبين النجـدة لعمل شيء، أي شيء، لإنقاذ تاريـخ معركة حطين من نهب الحاضـر الإسرائيلي... دون أن تتمكن المؤسسـات الرسمية من وضع خطة عمـل لمواجهة المؤتمر التاريخي العالمي الذي يعد له الإسرائيليون!

فمـاذا يريد الإسرائيليون أن يقولوا عـن معركة هَزَمَ فيها الشرق العربي والإسلامي غزو الغرب على الأراضي المقدسة؟

إنـه سؤال يثيـر الفضول أكثر ممـا يثير القلق، فأيـة قدرة قادرة علـى قراءة معركـة حطين بطريقة تسلبنـا بها النصـر، وتحوّل صلاح الديـن من محـرر إلى «مجرد مفاوضـ» مثلاً؟ قد يدخلـون مثل هذه الملاحظـة الهامشيـة في سياق أوسـع... سياق يتسع لهـم، ولقدامى الصليبيـن الذين مكثوا على الساحل واكتسبوا حق المواطنية في وطن يـرى الإسرائيليون أنه كان وطناً مشاعاً في الفترات الزمنية الضائعة بين دمار «الهيكل» وإعادة بنائـه، ليتسع الفارق أو يضيق بين الباحثين عن «صليب الصلبوت»، وعن حنك بغل يهودي مر قرب هيكل سليمان!

فـكل ما هو خارج المرور اليهـودي الخاطف على أرض فلسطين هو طارئ، وخارج التاريخ، وغريب...

وقـد تدفعهم «الأمانـة العلمية» إلى اعتبـار الصليبيين غرباء عن فلسطين، ولا حق لهم فيها. فإذا كان الصليبيون غرباء، واليهود غائبين، فمن هم أصحاب هذا الشرق؟

سيقول المؤرخ الإسرائيلي ما يعني أن سكان ذلك الشرق كانوا خليطاً من الغرباء. والذي ألحق الهزيمة بالغرباء غريب أيضاً... كردي، والمسلمون لم يكونوا كلهم عرباً. والعرب لم يكونوا كلهم مسلمين. ولا توحدهم رسالة أو خلافة أو حضارة، ولا أرض. لقد حارب الغرباء الغربـاء، وانتصر الغرباء على الغرباء. وبقي في المنطقة غرباء، فما شأن هـذه العبرة باليهود الذين يدرسون ما شهدته «أرضهم» من معارك بين الغرباء، عندما كانوا غائبين!

لن يكون ذلك كافياً، لأن بعض المؤرخين المحايدين لن يرضى باقتطاع مئات من السنين من عمر العرب والمسلمين على تلك الأرض مـن تداول الذاكـرة. وعندئذ، سيحتاج مؤرخ آخر إلـى تأويل ما يشبه التطابـق أو الاختـلاف، إذ ليس في وسع الحاضـر أن يدرس الماضي من دون خدمة الحاضر، خاصـة وأن العقل الباطن الإسرائيلي مصاب بعقدة الصليبية أو بعقدة الحاجة إلى نفيها. فهذا المشروع الصهيوني، المصنوع في الغرب، والقادم من الغرب، لخدمة أغراض الغرب، كما كان يقـول مؤسسـوه، لا يستطيع الذهاب بعيداً فـي «تغريب» الغرب والاستقلال عنه، لأن تاريخه جزء من تاريخه.

لذلـك، سيحتاج مؤرخ آخر إلى البحث عن شرعية البقاء، وحق الأمر الواقع الذي اكتسبه المستوطنون الصليبيون الذين بقوا في المنطقة بعد هزيمتهم في حطين وبعد انهيار الدول الصليبية. ولكن سيضطر إلى نسيان أن هذا الحق قد تم اكتسابه بعد انتهاء الاحتلال الصليبي، وبعدما اختلط الصليبيون الباقون بشعوب المنطقة وثقافتها. فهل يرضى «وعي الجيتـو» الإسرائيلي بأن يكون شرقياً، ليتميـز عن غربة الصليبي الغربي الذي أوصلته غربته عن المنطقة، وعن ثقافتها إلى هزيمة حتمية؟

لا يرضـى، ولا يريد. لأن تشابـه البداية يتعدى كونه تشابهاً إلى عنصر تكوين. فالغرب الاستيطاني جـاء إلى الشرق تحت غطاء فكرة دينية مضمونها تجـاري. والصهيونية، جاءت مـن الغرب إلى الشرق تحـت غطاء فكرة دينية مضمونها استيطاني، يتوافق مع مصالح الغرب التجاريـة والسياسية. ولكن الإسرائيليين يريدون أن يلعبوا كل الأدوار: هـم الغرب إذا انتصر، وهـم الشرق إذا انتصر!

ومـع ذلك، يبقـى السؤال محيراً: ماذا يريـدون من حطين التي هزمت نموذجهـم الاستيطاني؟

لعل ذلك ما يشغل عقلهم الباطن. حتى لو واصلوا خداع النفس بأن المكان ـ مكان انتصار العرب والمسلمين ـ هو مكان يهودي، فإن المغـزى التاريخي للمعركة لن يصلح لأن يزود الغزو المعاصر الجديد بشـروط مصير أفضل. ولعـل هذا العقل الباطن يريـد القول إن معركة حطيـن، بين غزو الغـرب ومقاومة الشـرق، هي معركـة مفتوحة من جديد. وأن الإسرائيليين قادرون على تحسين شروط الاستيطان وإنقاذ النمـوذج من حتميـة الهزيمة، ما داموا هـم الغـرب النابع من الشرق! ومـا دام المنجنيق يستبـدل بالطائرة، والسيف سـلاح نفاث. وما دام

سـكان المنطقة خليطًا من الغرباء ومنقسمين على أنفسهم، فإن معركة حطيـن ما زالت مستمرة، وإن حطين لـم تسقط في أيدي العرب، فها هي القلاع والحصون ذاتها، وها هي الغربة ذاتها.

وسيقـول الإسرائيلـيون، المحصنـون فـي القلعـة الصليبيـة المعاصرة، إنهم ليسوا نتاج غزو أجنبي، بل هم «عائدون إلى وطنهم»، وسيقولـون إن تاريخ المكان الذي يستولون عليه هو تاريخهم. ولكن عقلهم الباطن يقول شيئاً آخر. أليس الشعر هو لغة العقل الباطن؟ يقول شاعرهم البارز يهودا عميحاي:

«ريتشارد قلب الأسد، يطل ويمد لسانه الطويل
لقد جاءوا به هو أيضاً إلى البلاد المقدسة
إنه قلب الأسد
وأنا قلب الحمار».

ولكن، ما الذي يصون قلب الحمار، ما دام الصليبيون ينهزمون. إنه وعي الجيتو، الوعي الانتحاري:
«مسَّادة لن تسقط مرة أخرى
لن تقسط... لن تسقط
مسَّادة لن تسقط مرة ثانية»...

وبشـكل مباشر أكثـر، تستحضـر الشاعـرة الإسرائيليـة داليه رابيكوفيتشـ الحالة الصليبية في قصيدتها «قرن حطين». تصف رحلة الصليبيين إلى الشرق، وتصف الفلاحين:

«الذين سُبيت نساؤهم

فأنجبوا أحفاداً زرق العيون
من فرسان يحملون بركة البطريرك
قطعان من الذئاب
عيونهم تتوهج
يقيمون القلاع والحصون»...

ولكن، ماذا كانت النهاية؟ تقول الشاعرة:

«لم تعد لهم
لم تعد للصليبيين
لا مملكة ولا أورشليم
كم كانوا متوحشين
وكم كانوا سذجاً
لقد نهبوا كل شيء»...

...أما زالت معركة حطين مفتوحة ومستمرة؟

أكثر من مائة يوم
أكثر من ألف عام

أكثر من مائة يوم، وما زالت المخيمات الفلسطينية تقاوم إبادتها اليومية. نصف مُخَيَّم، ثلث مخيّم، ما تبقَّى من أطلال مخيّم تَصُدُّ ـ بما تبقَّى في جرحاها من قوَّة العزلة ـ زحف الموت القادم إليها من كل الجهات، من كل الأعداء، ومن كلِّ الأخوة ـ الأعداء...

تتكدَّس الجثث على الجثث، يحيا الحيُّ مع الميت، على جفاف الماء اليابس، على برد الشتاء القاحل، على حبات العدس الأخيرة، على أمهات تلد وتجهض، لا لشيء إلَّا للدفاع عن هيكل عظمي لمكان لا مكان فيه إلَّا لما يملك المحاصَرُ ولا يملك: هوية إنسان لا يعترف أحد بهويته، هوية تقفز كنحلة الروح الجائعة من مأساة إلى أُخرى. هوية لم يمتلكها صاحبُها، بعد، إلَّا بما أُوتي من وعي، ومن يوميات ذبح، وسطوة إنكار. هوية، لا هي حرية ولا هي عبودية، مجرد هوية تريد أن تكون عادية. مجرد هوية تشير إلى إنسانية مطالبة بأن تبرهن على أَبسط شروط الوقوف على طرف الغابة... وإلى مكان شاء له الآخرون أن ينأى عن مكانه.

أكثر من مائة يوم...

تمرُّ تقارير الموت اليومي، الموت الجماعي، مع فناجين القهوة

العربيـة دون أن تصـرف أَحـداً عن شؤونـه الخاصة والعامـة، ودون أن تحـدث ارتبـاكاً فـي وزارة خارجيـة أو وزارة صحّة... فقـد صار من المألـوف، ومن الطبيعي، ومن العادي أن يُقْتَل الفلسطينيون. أَلم يُخْلقوا لهذه المهنة؟ ولا تخيِّم سماء المخيم المحروقة على ضمائر الفحم، كأن المخيم وعاءُ مفاهيم لا تجمُّع بشري، كأن المخيّم مكان مصطنع لإنتاج مسلسل تلفزيوني عن لعبة الموت. طالت مدة التصوير، وانتشر الضجر. شاتيـلا قريبة من البصرة. والبصرة بعيدة عـن دمشق. كل شيء بعيد عمَّا هو قريـب منه. وكل شيء قريـب مما هو بعيد عنـه. اختلاط شخوص. احتـراق مسرح. مشهد انفجار كوني يفتقر إلى الإثارة. وماذا لو أنجبت فتاة فلسطينية طفلاً بوجهيـن وأنفين ولسانين وأربع آذان في المخيم؟ لا شأن لأَحد في أَحد. فليختر كل واحد ضحيته من شعب زاد أو نقص، من شعب لا مكان له، من شعب يتكلم لغة جنون لا يفهمها أحد...

حتى هذا الموت لم يعد خبراً...

أكثـر من مائـة يوم، أكثر من ألف يوم، وأكثـر من عمر. وما على المولـود في الحصار غير التكيُّف مع حصـار لا نهاية له، حصار منقول مـن مكان إلـى آخر، بحثاً عن دفن نهائي وسـريّ، وبحثاً عن معجزة لا تطـل إلا لتختفي، في لعبة سَـراب يعلِّق عليه القتلـى والجرحى عزلتهم وعلامة مرورهم على الأرض. ولا أحد يتدخل، لأن ما يجري داخل هذا الحصـار هو مجرد أفكار وآراء تتلاطم، لا إنسان فيها ولا إنسانية، حتى لو مات الأطفال من العطش، وحتى لو مات الجرحى من قلة القطن.

... والى أَين أَنسحب؟

هكـذا يصرخ المدافـع عمَّا تبقّى من حجـارة المخيم: إلى أين

أنسحب؟ إذ ليس لأحد في هذا الحصار من مكان ينسحب إليه، وليس له من مكان يتقدم إليه. المكان الوحيد هو الجسد المضرّج...

أكثر من مائدة يوم، أكثر من ألف يوم، وأكثر من أبد... ولا يجد الفلسطيني في المخيم سماء يصعد إليها، ولا يجد هاوية يهبط إليها. فأين السياسة؟ أين السياسة؟

على الفلسطيني أن ينسحب من سلاحه الفردي، ليموت تماماً على شبر من الصفيح المحترق والإسمنت المهدم ـ هكذا تطالبه سياسة «الطوائف». وتطالبه بالانسحاب، مع المكان، إلى شمال لبنان، لأن وجود المخيم في الجنوب يستفزّ الأمن الإسرائيلي. والأمن الإسرائيلي، في اعتبارات الأمن الطائفي والإقليمي، هو العامل الوحيد الذي توفّر مراعاته شروط توازن السياسة العربية، لذلك لا بُدَّ من إبعاد المكان الفلسطيني المؤقت في الجنوب إلى مكان مؤقت في الشمال...

ولكن الشمال يتقاطع مع اعتبارات أمن آخر، يتمتع بحساسية مرهفة تجاه اعتبارات الأمن الإسرائيلي. لذلك سيخلق الوجود الفلسطيني ذرائع للتدخل الإسرائيلي، الأمر الذي سيؤدي إلى حرب اختارت إسرائيل زمانها ومكانها، قبل تحقق التوازن الاستراتيجي!!

أما إسرائيل، فلم تعد في حاجة إلى الإعلام عن شيء يخص حدود اعتباراتها الأمنية، منذ تطوعت الأدوات العربية لخوض حربها مع الفلسطينيين، ومنذ تزايد عدد حُرَّاسها العرب...

فإلى أين... إلى أين ينسحب الفلسطيني؟

هذا سؤال لا يعني أحداً، حتى لو أدركت جامعة الدول العربية

الموقـرة أن حرب اقتلاع المخيمـات وتشريد سكانها هي ضرب من ضروب إعـلان حُسْن النية تجـاه اعتبارات الأمـن الإسرائيلي. فماذا سيحدث... ماذا سيحدث؟

لا شيء.

لا شيء.

لا شيء.

لأن من الصعب، الآن، أن يختلف العرب على فلسطين، كما كان من الصعب عليهم أن يتفقوا على فلسطين. فإلى أين يدفعون المسألة؟

آن لنـا أن نراقـب ما كانت مراقبته سابقـة لأوانها، أو شكلاً من أشكال الترف الفكري؛ وهو: محاولة العودة بفلسطين من واقع شعب إلى... أُسطورة. أو محاولة شق فلسطين إلى مفهومين متعارضين: واقع وشعب من جهة، وأيديولوجيا ذات خطاب زائف من جهة أخرى.

إن فلسطيـن ـ الإيديولوجيا، الخالية من واقعهـا وشعبها، هي ما يتراءى لنـا من مسيرة سياسة عربية لا تسعى فـي سياقها التطبيقي إلى ما هو أقل من تعميق الهوة، حتى الانفصال، بين فلسطين الفكرة، اليوتوبيا، الخطابـة، الإجماع الإنساني ذي السلالـة الصليبية في تبدلاتها الدينية، المـكان المنـذور للأُغنية والصـلاة ـ من ناحية، وبيـن فلسطين الواقع، صاحبة حقيقتها الداخلية الزمنية الخاصة بها وبعلاقتها بشعبها، فلسطين المحتلـة من الوريـد إلى الوريـد في الداخـل، والمقهـورة الإرادة من المحيط إلى الخليج، فلسطين التي كان يمتلكها منذ قليل شعبها السجين في داخلها وشعبها المعرض للإبادة خارجها ـ من ناحية أُخرى.

إن تجريـد الفلسطيني مـن أداة صياغة هويته الوطنيـة المعبّرة عن التحام الوطن والشعب، والفكرة والجسد هو انخراط ذو مستوى فكري، يتقـارب ويتقاطع مع النظرة الصهيونية التي تكرس فلسطين مكاناً خاصاً، لا انفصام فيه ولا خلل، بين الأُسطورة اليهودية والواقع اليهودي...

وإن تجريـد الفلسطيني من أي مكان، خارج مكانه، ومنعه من النشـاط للعودة إلى مكانـه، هو شكل من الأشـكال الساطعة لإقصائه النهائي عن مكان لا دور له في الخطاب الزائف إلا خدمة فكرة عاطلة عن العمل في أحسن الأحوال، أو فكرة لا تعمل ـ إذا عملت ـ إلا لتعميق الهاوية بين المكان وصاحب المكان...

لـذا، لا معنى عملياً لدعوة الفلسطيني إلى الانسحاب من مكان مؤقـت إلى... لا مـكان دائم، سوى تكريس حـق المكان لمن يَدَّعي هذا الحق بقوة الهيمنة العسكرية.

ولا معنى عملياً لدعوة الفلسطيني إلى التخلي عن سلاح الدفاع عـن البقاء سوى إلغاء هذا البقاء لمصلحة بقـاء آخر، وجد في الحراسة العربيـة لقهر نمو الظاهرة الفلسطينية ما يكفي لأن يحسن شروط إبادة الوطن الفلسطيني الداخلي.

ومـن الخارج، لا يؤذن للفلسطينـي بأن يطلّ على ما فيه من داخل الوطن، وعلى ما في الوطن من امتداد، إلّا بالأُغنية والصلاة، وبما يوفره له خطـاب الانقلاب من فرص لا تخدم إلّا تأسيس المزيد من بؤس الشرعية لحكم اغتصب الشرعية من فكرة فلسطين. وعندما تجد الفكرة تجسيدها في إرادة شعبها، يهبُّ خطاب الانقلاب إلى ذبح الشعب بسيف الفكرة.

لقد شاهدنا تقلبات بائسة لهذا الوعي، بارتدائه مظاهر مختلفة، فتــارة ندعى إلى التضحيــة بالقضية من أجل تحسيــن معيشة الشعب، وتــارة ندعى إلــى التضحية بالشعب من أجل تحسيــن معيشة الفكرة. وفــي الحالين، كنا مدعويــن إلى التخلي عن الــذات والموضوع، كنا مدعويــن إلى الانتحــار الجماعي، بفصــل الوطن عن شعــب الوطن، وبعزل الفكرة عن الواقع.

إن فلسطيــن ليســت وطن أنبيائهــا فحسب. إنها وطــن شعبها ووطن شهدائها وأنبيائها معاً. وما يحاصرنا الآن من أفكار حول إخلاء الفكرة من واقعها وشعبها ليس حصاراً جديداً...

إنــه حصار دام أكثر مــن مائة يوم، وأكثر من مائة عام، وأكثر من ألف عام...

شاتيلا في فم الشّبح!

يقهرني المألوف، وأَنا أُحدق في اسم مكان لا يثبت على مكان ولا على خارطة. يقهرني المألوف، دون أن آلفه، وأنا أسمع دمي الجهوري، يدحرج عن خريره صخور النسيان، ويطارد قطعان الضمير الهاربة.

أإلى هذه القطيعة يمشي هذا الـدم، هذه الفجيعة، يمشي أمامنا علـى أرجل مقطوعة، بلا عكاكيز، بـلا اعتراف، بلا دموع، باحثاً عن وردة تطعم الروح؟ شاتيلا... شاتيلا... الريح العادية تمر على العشب اليابس العاري. كأن مـا كان يرسي تقاليده ليكون مـا كان. وكأن ما يكـون سيكون ما كان إلى ما لا نهاية لـه، زمناً من قتل ليس عاديّاً، إلى حـد صار معه اللاعـاديُّ عاديّاً، إلى حد صار معـه الحاضر قادراً على إنجاب الماضي في كل برهة.

ريح من ملح،

صمت من براز،

فضيلة أرانب،

هذه هي العناوين الأولى لمشهد المشاهدين وهم يشاهدون من يشاهدهم متلبسيـن بأدوار بطولية في مسرحية لا مسرح لها، ولاعبين

بـلا ملعب، قادرين على الانتصار، في كل يوم، على عنق طفل تشرئب إلى السماء، وعلى حامل تضع وليدها بين قذيفتين... مرحى، مرحى!

... وظـلال مقطوعة عـن شخوصها، ظلال هاربة فـي أشباح تديـر شؤون الدول، وتصدر أوامر النهي عن الحرية. تجبي الضرائب، وترسـل السفراء، إلى الثعالب. أشباح تنصـب المشانق على الشرفات وعلى أغصان الشجر. أشباح، ظـلال أشباح. أشباح بلا ظلال. ظلال بلا أشباح... لها المجد والحمد والحمد والمجد!...

ومخيم شاتيلا هو الذي يشاهد...

مخيـم شاتيلا هو الذي يشاهد طابور الأسرى، المتلذذين بسبي طوعـي، بانكسـار لا دويَّ له، وبذبـح يُكلل العيد بمآثـر النعام. دول معروضـة للاستقلال. واستقلال معروض للتوبة. ولا أحد يستقل، ولا أحـد يعتـذر... ولا أحد يغضب لأن الغضب يزيـل الخوف، ولا أحد يستطيع الحياة بلا خوف.

لبرميل النفط سعر يعلو ويهبط، ولكن لا سعر لبرميل الدم، لا في السوق السـوداء ولا في السوق البيضاء. ولا أحد أيضاً يتذكر أن النفط يطفـو أحيانـاً على سطح هذا الدم. وأن هذا المـكان الذي لا مكان له موجـود في كل مكان، من المحيط الذي كان هادراً إلى الخليج الذي كان ثائراً ـ كما تدّعي الأغنية السابقة...

خُذ من دمـي ما يحمي نفطك! واعطني مـن نفطك ما يحرس دمي! لم تجر هذه المقايضـة، لأن أخوتنا سليقة لا تحتاج إلى سياسة، ولأن سياستنـا كياسة لا تحتاج إلى مصالح. أما انهيارات البيت العربي

الواحـد فقد تـم ترميمها بتشييد انهيارات جديـدة بديلة لها، هناك في المشرق وهناك في المغـرب، لنعرف أن تعدّد الخراب لا يحل وحدة الخراب، فليس كل ما يزيد يفيد. فما الذي ينتظرون ليدركوا أن هلاك سعد لا يضمن النجاة لسعيد؟

ومخيم شاتيلا هو الذي يشاهد...

هـو الذي يعلن تضامنه الأخوي مع أمتـه المحاصرة من الوريد إلى الوريد...

هـو الذي يعلن أنـه مستعد للتضحية بكل مـا يملك من طاقات وإمكانيـات. بآخـر كوب مـاء، وبآخـر حبّـة أسبريـن، للتضامن مع المحاصرين، من المعدمين ضحايا الثروة، إلى الدول المهددة بزوالها وبزوال الثروة والرمال.

ولكن، هل يسمع أحد صوت شاتيلا؟

هل يريد أحد أن يعرف ماذا يحدث في شاتيلا؟ وهل يجرؤ أحد على تسمية من يحاصر شاتيلا... من يخنق شاتيلا... من يغتال شاتيلا؟

لا أحد

لا أحد

ولا أحد

لأن التـوازن الرهيـف في الوضـع العربي السخيـف لا يسمح بأن تطـرح مأساة شاتيلا على سجادة البحـث، ولأن مأساة المخيم لا تستدعـي إعلان الطوارئ في اللغـة السياسية الرسمية، ما دامت عشرة جدران مـن بيوت المخيم لـم تسقط بعد، وما دامـت عشرة جدران

من بيوت المخيم لم تسقط بعد، وما دامت الأمراض المتفشية فيه لم تتحول، بعد، إلى أوبئة فتّاكة تحمل العدوى إلى المناطق الأخرى، فهي مجرد أمراض لا تصيب إلا سكان المخيمات. وما دام في المخيم من السكاكين الصدئة ما يسمح للأطباء بإجراء عمليات جراحية. فلا شيء... لا شيء يستدعي العجلة.

أما الدواء، فما زال المسؤولون «المجهولون» عن أمن بيروت يعتبرونه سلاحاً استراتيجياً يقوّي مناعة منظمة التحرير، ويحول دون تراجعها عن «خط الانحراف» تماماً كالطحين والمعلبات والحبوب والبصل والبطاطا... وغيرها من المواد التموينية التي يعتبرها الأوصياء المجهولون سلاحاً هجومياً، يوفر لأبناء المخيم عناصر الصمود مدة أسبوع آخر.

وأما الماء، فقد تغيّرت عناصره. وأما الهواء، فما زال يخترق حواجز الحصار ويصل إلى شاتيلا حامضاً، مالحاً، مشبعاً بروائح البحر والمستنقعات.

إذن، لا شيء يتطلب العجلة، لا شيء يقتضي استنفار المواقف واللغة. من مات مات. من أصيب سيموت. ومن لم يمت سيموت على مهل... على مهل، من دون أنين مسموع، ودون الإشارة إلى اسم القاتل.

كأن هؤلاء البشر ليسوا بشراً.

فهم ـ في نظر الأعداء ـ جزء زائد من شعب زائد... وهم ـ في نظر الأصدقاء ـ بطولة لا هدف غير إعادة إنتاج بطولتها، وأداة عمل لمجد فائض لا يُمجَّد...

وهم ـ في نظر الأشقاء الأعداء ـ منحرفون بسبب ولائهم المجنون لذاتهم وهويتهم، لاعبون صغار في لعبة سياسية لا حق لأصحابها في المشاركة فيها، منذ كفّت القضية الفلسطينية عن أن تكون قضية فلسطينية أو عربية وتحوّلت إلى هامش... مجرد هامش في مشروع لا يفصح عما فيه!



فمن يسمع صوت شاتيلا؟
من يكتب بياناً من أجل شاتيلا؟
ومن يتذكر شاتيلا؟
إن مخيم شاتيلا محاصر...
إن مخيم شاتيلا ـ أيها الناس ـ ما زال محاصراً
إن مخيم شاتيلا يحتضر...
فهل يعني هذا الأمر أحداً؟

ليس صحيحاً أن صوت الفلسطيني أكبر من جرحه، فها هو اسم شاتيلا يجلس القرفصاء على حجر مكسور، في آخر العالم، على طرف غابة الضمير العاجز، في أضيق بقعة من بقاع الأرض، بلا خارطة، أو ماء، أو صدى. ينحت الهواء بأيد مقطوعة، وبهجرة لا تهاجر في هجرتها هذه المرة. إنه هناك في انتظار طويل واحتضار طويل سيسفر عن ولادة، وعن عودة إلى صورة المكان الأول، والعادات الأولى، وحق الإنسان في عناصر الطبيعة الأولى. ليس أكثر من ذلك، وربما أقل. فمن يجرؤ على هذا النسيان؟ وكم مرة سيجرب السيف والصاروخ هذا الجسد. كم مرة!

وهناك ما هو أقسى من هذا السؤال: مَنْ يحاصر شاتيلا هذه

المرة... من يقطع عنه الماء، ما اسم السكين الجديدة، ما اسم الوحش الجديد؟

بخ... بخ...
هو الصمت...

هو الشبح الذي لا يُسَمَّى. فأن تسمِّي القاتل معناه أن تقتل طفلك، أن تطلق صاروخاً... آخر على جسدك. وأن تطلب الماء معناه أن تدلّ الرصاص على فمك. وأن تطلب الخبز معناه أن تدعو الوحش ليأكل أمعاءك. لأنك نائم في فم الوحش. وعلى الوحش أن ينام. وعلى الوحش أن يكون مجهول الاسم. الوحش لا يحب الفضيحة. الوحش لا يحب سوى المدائح. فامْدَحِ الوحش لتبقى محاصراً إلى ما لا نهاية، ولكي يبقى الوحش بريئاً من دَمِك إلى أن تموت، فينتصر الوحش على مكان جثتك ويحمله إلى البعيد البعيد.

من يحاصرنا إذاً؟ من يقضم أعضاءنا عضواً عضواً، من يحاول أن يرمينا إلى آبار النسيان، ويحول الحاضر إلى ماض، في لحظة، حتى تعتاد الناس هذا النسيان: هنا مخيم شاتيلا بعد المجزرة الأولى. نام هنا شاتيلا بعد المجزرة الثانية. قام هنا شاتيلا من المجزرة الثالثة. وهذه المرة ترتكب المجزرة بلا صورة وبلا مشهد. لا القتلة يقتلون، ولا المقاتلون يقاتلون. كل شيء هادئ، يجري خارج العالم، خارج الزمن. لا صوت. لا ضوء. لا اعتراف بأن أمرً ما يجري في شاتيلا.

وباختصار: لا شاتيلا في شاتيلا...
من يحاصرنا إذاً؟
لعله الشبح... لعلّه الشبح!...

هو الابتزاز بامتياز

حين نجح الكُتَّـاب والصحفيون الفلسطينيون في إعادة توحيد ما تفرَّق من صفوفهم وحبرهـم، على استغاثة الدم في المخيمات. لم نتصـوّر أن المناخ السياسـي والنفسي صار صالحـاً إلى هذا الحد... لولادة منظمة التحرير الفلسطينية من جديد.

أمر ما يشبه المعجزة حدث في الجزائر في أقلّ من شهرين.

ولكـن الفلسطيني، على ما يبدو، محـروم من الفرح... لأنه ما زال محروماً من حقّ البقاء.

فقبـل أن ينطفـئ التصفيق فـي قصر الصنوبر، وقبـل أن تجفِّف القلـوب العطشى دموع بهجتها فـي يوم عيدها اليتيـم، صدر «الأمر اليومي» من واشنطن بمعاقبة الشعب الفلسطيني على وحدته.

هو الابتزاز بامتياز...

فإمـا أن تكون معي وحدي ضد نفسك، وإمّا أن تخرج! هكذا يـروِّج الابتزاز سلعته لقضيـة لا ينبغي تداولهـا إلا بوصفها سلعة. ولا يُخاطَبُ شعبها بلغة أرقى من التخاطب مع موضوع... لا مع بشر.

وتدريجيـاً، يتطور الفلسطيني من ذريعة حكـم، إلى قدّيس من تَمْر، إلى شبح، إلى خائن، والى وباء.

وفـي وسع البائـع أن يبيع جسد الفلسطينـي بكيس طحين. في وسعـه أن يُشوِّه وجه الفلسطيني ليشاهد صورتـه هو، أفضل وأجمل، علـى شاشة تلفزيـون غربي، وفي وسعه أيضاً أن يصـدر أمراً، غير قابل للنقضـ، بتحويـل الحماسـة العامة من لعبـة كرة القدم إلـى التلاعب برؤوس الفلسطينيين... في ساحة ملأى بالمشاهدين الباكين...

ألـى هذا الحـد يُستضعف شعـب تمثله حركـة ثورية توصف بالإرهاب؟

وهل حدث من قبل أن وُضـع شعب في غرفة الحجر الصحي، لئـلا ينشر وباء الصراع من أجل الحريـة؛ دون أن ينسى الحاكم تعداد المزايا الإنسانية والقومية التي يوفرها هذا الإجراء؟

هذا ما يحدث الآن، في زمن الابتزاز بامنياز...

وهل أحسّ أحد بالعار حين استطاع وزير الخارجية الإسرائيلي أن يرتـاح مـن الحرج المباح بقوله: إن الـدول العربية هي التي ترفض اشتراك منظمة التحرير في المؤتمر الدولي، كما كان الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتـر يقول إن الرؤساء العرب لم يطالبوني، أبداً، بحق الفلسطينيين في إنشاء دولة؟

صارت الفضيحة مألوفة. وصار مألوفاً أن يعاتب رئيس الوزراء الإسرائيلي العرب الذين تأخـروا في قطع العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية «لأن هذا أمر طبيعي»...

وطبيعي أيضاً أن اقتراب الفلسطيني من الشيطان ـ وكل حاكم في نظر الحاكم الآخر شيطان ـ يدفع الحاكم إلى إنزال أقسى العقوبات الأخلاقية والسياسية في مَنْ يقرب الفلسطيني، دون أن يعترض الحاكم على وجود الشيطان ذاته، بل يحسن استخدام العداء للفلسطيني لتحسين شروط علاقته مع الشيطان...

هو الابتزاز بامتياز...

وما على المعارضة إلّا أن تلهو في علوم التبرير والتفسير وتواصل إنتاج ثقافتها المطرّزة على سجادة قابلة للانتقال من درج إلى درج دون أن تحسّ بالحرج، لأن وحدة الوطن مشروطة بكل ما يبعد السؤال الفلسطيني من المركز إلى أقصى أطراف الصحراء... ولأن استماتة الفلسطيني في الدفاع عن هويته الوطنية والإنسانية المهددة بالإبادة قد أدخلته – كما يقول النقد الشائع – في صَدَفَةٍ إقليمية عاجزة عن الاستقطاب القومي!... بعدما أدرك الحاكم أن العلاقة بين الرغيف العربي وبين الأغنية الفلسطينية هي علاقة تواطؤ خارجة على القانون...

كان القمع يسلك طريقاً آخر. كان يصون انهياره الداخلي بُقبّة الصخرة. وكان يصرف الأنظار صارخاً: «القدس يا عرب تحت رحمة اليهود»! هكذا كانت شرعية الحكم تتأسّس دون أن نفطن الآن إلى انهيارها مع اللحظة التي تحول فيها حسن الجوار مع اليهود إياهم وحسن الحوار مع اليهود إياهم إلى شرط لصيانة أنقاض تلك الشرعية، وإلى تعويض لا بد منه عن إلغاء الزراعة العربية.

وهكذا، صار القمع يسلك طريقاً معاكساً، ليقمع الفلسطيني، والعربي المتعاون معه، لأنه لا يمتثل لغيابه الكامل أمام الحضور

الإسرائيلـي. وهكـذا يشكو الحاكم، في طريق القمـع المعاكس، إلى شعبـه من «تمـادي» القيـادة الفلسطينية في رفض الاعتـراف بشرعية الجريمـة الإسرائيليـة، ويطالبه باختيـار قيادة أخرى أكثـر واقعية، أي أكثـر عدمية. ويمضي الحاكم إلى مـا هو أبعد من ذلك: أي إلى إعلان الحرب على الشعب، لأنه لم يؤدب قيادته العاجزة عن التفريط بحقوق شعبها... والعاجزة عن الترحيب بالسياحة الإسرائيلية على أرض عربية مغلقة أمام الفلسطينيين!...

هو الابتزاز بامتياز...

فإن الذين كانوا يشترطون تطوير التعامل مع الشعب الفلسطيني بتغلُّـب المنظمة علـى لحظة الانشقـاق المريضة، هم الذيـن يعاقبون الشعـب الفلسطينـي علـى نجـاح المنظمة فـي تجاوز تلـك اللحظة المريضـة. لأن استمرار الانشقاق هو بمثابة تبرير طيّب لتأجيل التعامل مع المنظمـة، دون أن يحظى الانشقـاق الإسرائيلي المدوِّي بضرورة تأجيل التعامل مع إسرائيل!

إن الوحـدة الوطنيـة – في نظرهـم – خالية مـن المعاني إذا لم تمتلـئ بمعنى وحيد هو: التبعية. ولا تتجلى عروبتها إلا في توزعها إلا في توزعها على أجهزة مخابراتهم.

أي: أن يكون لكل نظام تنظيم...

وإن عدم التدخل في الشؤون الفلسطينية الداخلية – في نظرهم – هـو عدم التدخل فـي طريقة ارتماء المنظمة علـى أقدامهم. وعدم التدخـل في تطابق سياسـة المنظمة الحرفي مع سياسـة كل نظام على حـدة، في حربه وسلامه ولا حربه ولا سلامه مـع النظام الآخر! وإلّا،

صار من حَقِّهم أن يطبقوا «قانون الحرام» ونظام التحريم على الشعب الفلسطيني الذي لا يتقدم، في لغتهـم وممارستهم، بأفضل مما وصفه بيغنهـم المصاب بالجنـون، منذ أدرك أن أولئـك «الدواب التي تدب على اثنتين» ليسوا كما وصف!

وهكذا، يكون الانشقاق الفلسطيني الدائم هو المطلب الرسمي العربي العام، وهو المطلب الأمريكي، وهو المطلب الإسرائيلي.

ولأنـه يوفر لكُلِّ نظام عربي تنظيماً فلسطينياً يتسلّى به في ملهاة الحرب وفي مأساة السلام.

ولأنـه يُوفِّر للأمريكيين لذة البحث السينمائي الحائر عن عنوان ضائـع: «مع من نبحث؟ أين هـم الفلسطينيون لنهديهم دولة على طبق من هامبورغر؟».

ولأنـه يوفـر للإسرائيليين متعـة المضـيّ في اجتـرار الخرافة: «الشعب الفلسطيني... من هو؟ لا وجود لهذا المصطلح!»

وهكـذا أيضـاً تتوفـر الشروط الماديـة الكاملـة لصناعة سراب المؤتمـر الدولي الذي لـم يحتـج الإسرائيليون فيه إلـى تغييب منظمة التحرير الفلسطينية، بعدما تكون الأطراف العربية المشاركة قد أجمعت على قطع علاقتها بالمنظمة... وبالشعب الذي جنى على نفسه، وعلى أرضه، وعلى تاريخه، باختيار المنظمة ممثلاً شرعياً وحيداً له...

ولكن الشعب المحروم من الفرح قادر على الفرح، وقادر على البقاء، وقادر على إيلاج عدوى الحرية في الجسد العملاق الممتد من طنجة إلى عدن، ومن لواء الإسكندرون إلى غابات السودان.

إن مـا بلغه من نضـج، وعمق تجربة، ووعي خطـر، قادر على تحويـل تاريخ من التخريب الذي أحدثـه بعض الأنظمة في جسده، لا في روحه، إلى لحظة عابرة تمَّ دفنها في قصر الصنوبر في الجزائر!...

وإن الوحـدة الوطنية قد تتحول، في لحظة من لحظات الحصار، إلى أكثر من كونها أداة للدفاع عن النفس، لتتوحَّد في الهدف... الهدف الذي يستحق المجازفة. إذا لزم الأمر، وقد لزم الأمر - بقيود الاعتبارات المرهقة المهدّدة بإضفاء الالتباس على العلاقة بين ما هو تكتيكي وما هو استراتيجي. فماذا أعطتنا تلك القيود؟ ماذا أعطتنا تلك الانحناءة؟

لاشيء غير... الابتزاز.

في المطار

لا أكتب شعراً في الطائرات... ولا أكتب مقالات أو رسائل. ولم يحدث لي أن اضطررت إلى النوم على مقعد في المطار سوى مرة واحدة!

ولكنني قادر على أن أتخيَّل شخصاً يقضي عمره في المطار، حيث يعجز الأمن الدولي، والقانون الدولي على السواء، عن السماح له بدخول أية دولة، ما دامت حرية الدخول والخروج مشروطة بختم على ورقة! وبورقة تحمل ختماً، فتلك هي طبيعة الحياة الحديثة التي لا هوية فيها للإنسان غير رأي وزارة الداخلية.

عندئذ سينقله مطار ما إلى مطار آخر، يشحنه إلى مطار ثالث يهديه إلى مطار رابع كطرد بريدي ضاع عنوان المُرْسِل والمُرْسَل إليه، كما حدث لي منذ سنين حين أهداني مطار باريسي إلى مطار بلجيكي أهداني إلى مطار بولندي رماني إلى مطار ألماني، دون أن أمتلك حق المجادلة في الحق، فلا حق لي في أي مطار...

لذلك، كتبتُ قصيدتي القصيرة «مطار أثينا» في أقلَّ من عشر دقائق على متن الطائرة، كما أكتب ملاحظة عن المناخ، بعدما قضيتُ ساعتين في المطار اليوناني المزدحم مع عائلات فلسطينية شكَّلت ما

يشبه المجتمع في المطار، وهي لا تعرف كيف وجدت نفسها هناك، في انتظار ما لا تنتظر، وفي احتمال ما ينقلها إلى ما لا تعرف...

ولو تركنا السيناريو مفتوحاً على مجاله الدرامي الواسع، لعثر الروائي المعاصر على إحدى ملاحم هذا الزمان، حيث يرتبط المصير الإنساني بقوى المجهول الساخر، دون أن يقوى على إدارة سؤال الحرية، الشخصية والعامة، في مكان ليس هو بمكان، وفي سجن ليس هو بسجن، وحيث تتحكم في النفس والمخيلة أقسى درجات المفارقة والعبثية، وحيث تضحك المأساة حيث تبكي الملهاة...

جميعنا رهائن... ومسافرون بلا سفر...

ونادراً ما مررت بمطار عربي، دون أن أصغي إلى الشكوى ذاتها: أوقفونا! دون أن أتمكن من مساءلة الوقوف عن سرّ الوقف في مساحة لا أمام لها ولا وراء. فالموقوف معروف موصوف سلفاً، لا تدل عليه سوى هوية لا يعترف بها أحد ولا هو يحملها، كأن بلاداً أنجبته وهرولت قد سلّطت عليه الإدانة. والموقوف هنا محاصر بين باب الدخول الذي لا دخول منه، وبين باب الخروج الذي لا خروج له. المعاني كلها متعاكسة متشاكسة. والأمنية تفسد نسيجها: فالدخول لا يدخل والخروج لا يخرج...

إذن، لماذا سافرت؟

حتى هذا الدهش الاستنكاري لا يجد من يطرحه. فالمسافر إياه لم يسافر. لم يرغب في السفر، ولم يقم بأي إجراء يجعله فاعل هذا الفعل الجنوني. كي نكرر حيرتنا أمام جملة «مات الرجل»... لماذا نسمّي الرجل فاعلاً إذا لم يكن منتحراً؟ هل هو الذي قام بفعل

المـوت؟ صحيح إنه مـات، ولكنه لم يفعل هذا الفعـل. وصحيح، أن هذا الموقوف في عداد المسافرين، ولكنه لم يسافر. لقد وضعته شركة الطيران في طائرتها ونقلته إلى مكان، لا يريده ولا يعرف اسمه. وحين يعرب عن رغبته في العودة منه فإنه لا يعرف إلى أين يريد أن يعود...

ولا تستطيـع أن تسأل هـذا الموقوف عن جنسيتـه، فهو أنت، وفي السـؤال إهانة جارحـة كإهانة الخلط لدى الناطقيـن بالإنكليزية بيـن بالِسْتاين وباكستان. لأن الاسم الأول مجهول تماماً لدى الركاب العاديـن ولدى الشعوب العادية، ومعـروف تماماً لدى رجال الأمن، مما يدفـع المولود من الاسـم الأول إلى الاستعانة بأسمـاء غُزاته لكي يشيـر إلى ذاته، ويدفع المولود من الاسـم الثاني إلى التنصُّل من كل ما يشير إلى الأرض المقدسة ليسلم عاقبة التشابه اللفظي...

أوقفونا بلا سبب، بلا تهمة، وبلا مخالفة.

أوقفونـا حتـى دون أن نحمـل تلـك اللعنة: «وثيقـة اللاجئين الفلسطينيين»، فإن مكان الولادة كاف لأن يمارس رجل الأمن العربي تسليتـه الساديَّة أو لذتـه المكبوتة، ليشير بيدٍ مشمئـزة إلى ركن قصيّ للانتظار، ويواصل توزيع ابتسامته الجرسونية على مغتصبيه السابقين، ليجدّد صدق ابن خلدون.

إلى متى ننتظر؟ قد ننتظر ساعات، أو أياماً، وقد ننام أسابيع على المقاعـد وعلى البلاط القـذر... ألسنا فلسطينييـن؟ والسؤال عن مدة الانتظار تَدَخُّلٌ فلسطيني في شؤون الأمن الإقليمي، وتجاوز لا يجوز!

مـاذا ننتظر؟ لا يحق لنـا أن نسأل. وما عليـا إلا أن نقبل. ألسنا

فلسطينيين؟ ففي رنّة السؤال مخاطر الاحتجاج، أو عدم الرضا الكافي. ألا يعجبك؟ عليك أن تقول: يعجبني كثيراً. هذا إذا أردت السلامة أختَ المذلة. أما أذا أردت أن تحمي إنسانيتك، فما عليك إلا أن تصفع أو تركل من يدعوك إلى الإعجاب بمذلتك...

تلك هي حادثة كل يوم، وكل ساعة، في المطار العربي الذي صار يعامل الفلسطيني كما يعامل حامل الكوليرا والطاعون، ويرحِّب بحامل الإيدز. وما على الفلسطيني إلا أن يبادر إلى تمييز نفسه، بشكل تلقائي، عن سائر البشر، فيخرج من طابور المسافرين ليقف في طابوره الخاص ويعلن: أنا مُتَّهم، فحاكموني! عليه أن يكون بوليس البوليس على نفسه، على أُمِّه العجوز، وعلى طفله الرضيع. وعليه أن يحتقر نفسه. عليه أن يتميز عن البشر بما هو أدنى من صفات البشر. وعليه... عليه وحده أن يكره ذاته وأن يقف ساعات أو أياماً في انتظار آخر متميز، في انتظار أجنبي، أو إسرائيلي، أو عربي آخر منبوذ، فلا يجد غير نفسه، هو وأُمه، على مقعد الإهانة!

سألت الضابط: هل وجدت خطأ في جواز سفري الدبلوماسي يا سيدي الضابط؟

قال: لا.

قلت: هل اسمي مدرج على قائمة المسموح لهم بالدخول إلى بلادكم؟.

قال: نعم.

قلت: هل أحتاج إلى تأشيرة دخول لأدخل؟

قال: لا.

قلـت: إذن، هل تأذن لي بأن أسألك لمـاذا توقفني ولا تأذن لي بالمرور الكريم؟

قال: لأنك فلسطيني.

قلت: أمن الضروري أن تجرحني؟

قال: أنا لا أجرحك.

قلـت: لمـاذا إذاً تؤخِّـر دخولـي، وتوقـف أولئـك العجائـز الفلسطينيات منذ ساعات؟

قال: لأنكم فلسطينيون.

قلت: هل تلك هي التهمة؟

قال: تلك هي الأوامر.

تلك هي أوامـر التضامن الأخوي مـع الفلسطينيين: الاحتقار، الإهانـة، التمييز السلبي، والقتل كما يحدث فـي بيروت الغربية الآن، مثـل قتل السيدة نبيلة برير: إنزالها من سيارة الأجرة وإطلاق الرصاص عليها في هـدوء، كما أطلـق الكتائبيون الرصاص علـى أُمها، وأبيها، وأُختها في عين الرمانة، وكما أطلق الإسرائيليون الرصاص على أقاربها في عكا. وليس لنبيلة برير ومثيلاتها من خطيئة سوى أنها فلسطينية.

لأن الفلسطيني مستباح،

وتلـك هي الأوامر... أوامر التضامن الأخوي مع الفلسطينيين: الدفاع اللفظي عـن قضيتهم ليستوي الخطاب، وإبـادة شعب القضية ليحصـل الحُكمُ على ثواب. وباسم القضيـة لا ينبغي أن تبقى للشعب بقيَّة. وباسم القضية يحـرم شعب القضية من الحدّ الأدنى من الحقوق المدنية لئلا ينسى القضية. قضية... قضية ولا قضية!

كلُّ فلسطيني مشبوه، ومحروم من حق «التشرُّد الحر» في وطنه العربي الكبير المفتوح بكرم لا حدود له للجواسيس، والغزاة، وللسُيَّاح الإسرائيليين، لا لسبب إلا لأن المولود في فلسطين فلسطيني. فهل نستطيع أن ننعت هذه الظاهرة بما هو أقل من ترتيب عناصر العنصرية؟

وكيف سنحتفظ، أكثر، بحق التحفُّظ على ما يساور الفلسطيني من غضب، حين سيعبِّر عن هـذا الغضب بوسائل أشدَّ قسوة من قسوة الكلام؟

إذا كان الحياء قد مات، فهل مات الخوف؟

في الهجاء

الهجـاء يملأ حياتنا. الهجاء يصول ويجول فينا، دون أن يخشى التعرُّض إلى هجاء.

والهجـاء حر، وسهل، نثر وشعر، لا يمـل ولا يكلّ، لا يملّ من لغتـه، ولا يكل عن مخاطبة غرائز جمهـور يصفق لمشهد إباحي. هل اليأس أحد الراحتين؟ لعلَّ الهجاء هو أحد أسماء هذا اليأس المريح، فما دام كل شيء مشوّهاً، وما دام كل شخص ملوّثاً، فما الفائدة من العمل؟

ومـن صفـات الهجَّائيـن الجـدد أنهـم عاطلون عـن العمل، وعاجزون عن الفرح بأي شيء، ففيهم من المعارك الداخلية ما يقعدهم عن الحركة. ذاتهم تهزم ذاتهم. وحاسَّةُ النقد فيهم لا تعمل إلَّا لتدمِّر ما حولهم وما فيهم من طاقة...

لذلك لا يصبرون على مرور طائر في السماء، ولا يتحملون مشد رجـل ذاهب إلى العمـل، لأن الحركة... أية حركـة تذكرهم بانسلاخ مشلول، يعالجونه بدفع الجميع إلى المساواة مع بشاعة داخلية حرمتهم مـن التجانس. في وسع وردة حمراء أن تدفعهم إلى الجنون. ومن شأن أغنية ناعمة أن تستفزهم، وتفجر فيهم الحقد على الطبيعة.

لأن بعض الهجاء هو نشيد الحقد العاجز، حين لا يكون سلاحاً في معركة عامة.

وهـذا الهجاء، فـي أحد أشكاله، هو فن تعميـم العاهة الداخلية علـى الخارج. ومحاولـة لتحديد الصفات البشرية فـي مشهد مُشَّوه، جسديـاً ومعنوياً، يتسـاوى فيه الهجَّاؤون مـع ضحاياهم، أو يتفرقون عليهـا في لحظة الهجـاء «الإبداعية» التـي تستلهم تشويـه الآخر من مصادر التشوه الذاتي...

لذلـك يصفق هـؤلاء المرضى لـكُلّ عاهة، لكُلّ خطـأ، ولكُلِّ فشـل، باعتبار ذلك التشـوه هو الظاهرة العامة التـي تزوِّدهم بتعويض عما ليسـ فيهم: اليوم عيدنـا، فقد أخطأ فلان. مرحـى... لقد ذبلت الوردة – هكذا يُقبلون على الحياة. هكذا ينشدون!...

ولهذا، يرمي الهجَّاؤون ضحاياهم بما فيهم من داء. فالكذوب منهـم يطارد خصمه بتهمة الكذب، واللصُّ منهم يطارد ضحيته بتهمة اللصوصيـة. والوصوليّ منهم يتهم سـواه بالوصولية. وبقدر ما تكون العاهة متأصّلة فيهم ينجح الهجَّاؤون في تشويه صور الآخرين، بسبب صدقهـم في إحالة معرفتهـم بعاهتهم على الآخريـن. فهم يغرفون من قبحهم، دون جهد أو خيال، ليفسدوا البحر...

إن نشاطهـم التشويهـي هو بمثابة سيـرة ذاتية عفويـة، فمن صُوَر ضحاياهم نقـرأ كتاب نفوسهم وأنواع أمراضهـم. وهم يتحاشون المرايا والكاميـرا، لئلا يراهم أحدٌ هناك في لحظة اعتراف تقتضي تهذيبٍ الذات بقسـوة لا يستخدمها إلا ضـد مَنْ له صورة عامة، يحاولـون التسلّق على ظلالهـا من فـرط شبقهم إلى النـور. لذا، تجدهم مهووسيـن بادعاء حب

الفاشلين والمنبوذين. ولكنهم لا يطيلون الوقوف هناك لأنهم يحلمون بكاميرا من صناعتهم... كاميرا مسروقة! فيمدون أيديهم وأنيابهم لإسقاط الصورة العامة عن الجدران والكتب وعن وجدان الناس. ولا يغفرون لشعب يُصَفِّق لبطل، لأن البطولة عدوهم الشخصي وفضيحة عجزهم. ولا يغفرون لنجاح فرد، لأن النجاح عدوهم الشخصي الذي يؤرّقهم.

إن هذا الهجاء هو نشيد الحقد العاجز.

ليس في واقعنا العربي ما يستحقُّ الثناء، ولعلَّ كل شيء قابل للهجاء: من استبداد الحاكم، إلى تقسيم الأمة إلى طوائف، إلى محاولة القضاء على الشعب الفلسطيني، إلى مرض التخمة هنا، وخطر المجاعة هناك...

ولكن،

هل هذا الانحطاط العام هو ما يتعرَّض للهجاء؟ وهل يسعى هذا الهجاء الحديث إلى تدمير ما يستحقُّ التدمير من ظواهر حياتنا ومظاهرنا وبعض بُناها؟ لو كان الأمر كذلك، لأدرج الهجاء نفسه في سياق النقد، في معركة عامة يخوضها الجديد ضد القديم.

غير أن السمة السائدة في ظاهرة الهجاء الحديث هي أنها لا تعبِّر عن معارضة السلطة المسؤولة عن تدهور حياتنا، بل تعبِّر عن دفاع هذه السلطة، بالوكالة، عما يهدِّدها من معارضة ونقد.

ومهما حاول هذا الهجاء أن يتحجب بحجاب «الجملة الثورية» المثقوب، فإنه لا يُشوِّه إلّا صورة القوى المعبِّرة عما تبقى في هذه الأمة من روح...

وإلّا، فكيف نفسّر تخصص الهجّائين في هجاء القوى اليسارية، أفراداً وأحزاباً، وفي هجاء حركة التحرر الوطني الفلسطينية، بكُلِّ فصائلها وقواها؟

إنه البترو – يسار، مرة أخرى...

ومن أجل أن تصدق الناس البترو – يسار، وتميزه عن علاقته بالبترو – دولار، لا بُدَّ من توفُر شرط واحد: أن يكون الهجّاؤون فلسطينيين، ليقول البترول – دولار لمن يعاتبه أو يحاسبه: وشهد شاهد من أهل البيت... ألا تفاخرون بالديمقراطية؟ ولا داعي لأن يرد أحد: أليس للديمقراطية من عمل غير هجاء منظمة التحرير الفلسطينية؟ وهل هي – المنظمة – تلخيص مكثف لما في الحياة السياسية العربية من انحطاط؟ أليس في الواقع العربي ما يستحقُّ الهجاء غير الأداة السياسية لشعب يقاوم، وحيداً وحيداً، عملية إبادته اليومية في حصار الداخل وفي حصار الخارج؟

إن البترو – يسار لا يقبل الحوار، لأنه متفرّغ لموضوع اختصاصه: تشويه المنظمة واليسار. وإذا تعذّر الحصول على موظف فلسطيني في أحد مواقع الهجاء، فلا بأس من التقاط شاعر، أو كاتب، أو صحافي «سلبته الثورة الفلسطينية أجمل سنوات عمره، وأسلمته إلى الخيبة». وهكذا تنفتح شاشات التلفزيون القومي، ومدرجات الجامعات، وصفحات المجلات، على مرتزقة البترو – دولار لينهشوا لحم اليسار بأنياب اليسار!

والبترو – يسار متخصص، خبير، وطاهر المظهر. ولهذا السبب، ولسبب أهم هو: انفتاح ساحة المشهد العربي الرسمي وحرية التعبير على تدمير الهوية الوطنية الفلسطينية، لتبرئة النظام العربي من أيّ تقصير، فإن كل شيء في الفلسطيني يصبح مستباحاً، وعرضة

للذئـاب... فعروس الأمسـ قد صارت عاهرة اليـوم. وما كان يوحِّد العرب صار يُفَرِّق العرب. وما كان روح الأمة صار سجن الأمة...

إن الهجاء لا يهجو ما يستحقُّ الهجاء!

إن النقـد واجبنـا. ونقـد المظاهـر السلبية في حركـة الشعب الفلسطيني الوطنية واجبنا. ولكن الصمت المنهجي، المثابر والدائم، عـن جرائم الأنظمـة، والامتناع عـن معالجة أي سوء، خـارج الحالة الفلسطينية، يتجاوز النقد إلى محاولة اغتيال الروح.

إن دفـع الفلسطينـي إلـى اغتيـال الفلسطينـي وإلـى تخويـن الفلسطينـي هو أحد التجليات البخسة لظاهـرة البترو - يسار، التي لا تظهـر فيها ثوريـة الادعاء اليساري إلّا في وحشيـة تدمير الذات. وهو أحد التجليات السمجة لظاهرة الاستلاب، فالمستلب تماماً أمام القمع الخارجي يُعوِّض عـن الاستلاب بفحولة استحلاب أمام أمِّه، وفي يده خنجر، دون أن يخشى العقاب.

وبقدر ما يشهر «اليساري» باليساري، وبقدر ما يحطم الفلسطيني الفلسطيني، يخلق شروط القبول في جمعية البترو - دولار، مع المحافظة على ضجيج الطهارة!. إن فائض الحقد المكبوت لا يفيض على الأعداء، بل على أقرب الناس. وبدلاً من أن يتوجه الغضب إلى الخارج، إلى مصادر هذا الاستلاب، فإنه يتحول إلى طاقة تدمير ذاتي شبيه بالانتحار.

ولكن، هل يستطيع المستَلَب الاحتفاظ بحاسة العبودية المُؤَوَّلة إلى حريـة وهمية، تدميرية، دون أن ينهار؟ من هنا يتحول هذا الصنف من الهجّائين إلى ضحايا أنفسهم.

ومع ذلك، فإن البترو – يسار يبقى ظاهرة هجاء لا تستحق حتى هجاءهـا، من فـرط ما هي دنيئة، ورثَّـة الشكل والتعبيـر والتأثير. إنها تسلية عابرة لليمين المحتاج إلى التكفير عن خطاياه باستئجار يساري سابق أو مـارق متخصِّص في هجاء اليسـار. إن اليمين يتسلى بمشهد إباحـي يجري خارجه. ولكن فيه من القلق على سعر البترول والدولار ما يصرفه عن ضحالة إنتاجه من البترو – يسار.

وليست هنا المشكلة... فقد هجا الحطيئة أباه...

المشكلـة هنـاك، في مكان آخـر، حيث يكون البتـرو – يسار نظاماً وجيشاً، ودولة.

إنّي أعترف...

... ولِمَ لا تكتب إلى نفسك؟ لم لا تبوح وتعترف طالما انقطع الحــوار، وخرج القارئ مــن عملية البحث عن حُرّيته فــي الكتابة إلى محاكــم التفتيش؟ يُحقِّق مع كل كلمة. يقــرأ نواياك كما تؤوِّلها نواياه. يرميــك بما فيه من داء وينسلُّ إلى قراءة أخــرى وصمت آخر لتكريس الإدانة.

لقد بُتــر الهامش الذي كان يوفــر للعلاقة نعمة الحــوار وفاعليته: الــرأي والرأي الآخر يتفاعلان، يختلفان، يتعايشان، ليفتحا معاً ثغرة ضوء في جدار حياتنا الصارم. فهل انتهت هذه الجدلية واستُبدلت بصلاة اليقين النهائــي، القادر على امتــلاك الحق هنا، والباطل هناك؟ منــذ حُمِّلَتْ كُلّ عاصمة عربية، بجميع مــا فيها من صخب وسكينة واختلاف وغموض، صــورة قائدها التي تشير إلى هوية شعــب وانضباط وجدان؟ هل تحولت أية عاصمة عربية إلى رمز للخير المطلق تارة، والشر المطلق تارة أُخرى؟

وهل انقسمنا واغتربنا وانفصمنا إلى هذا الحد؟

أعنــي هــل تدهورنا إلى هذه الدلالــة الشموليــة المطلقة ليصير للموقــف وللفكر مرجعيةُ مكان، يتعرض الذي يقترب منها إلى الإثم،

أو إلى التوبة؟ تلك دعوة إلى الانقطاع والانسلاخ، واستبدال العلاقة بالمدن إلى سكنى قبيلة أو معسكر جيش.

لستَ من هناك، ولست من هنا...

وليس من عادتك أن تُسْتَدْرج إلى منبر السؤال الآخر. وليس من عادتك أن تدافع عن نفسك إلا أمام اضطراب نفسك: هل أخطأتُ كثيراً؟ هل اقتربت قليلاً من الحقيقة؟ وقبل هذا وذاك: هل اجتهدت كما ينبغي لي أن أجتهد؟

في خاصرتك سهم ثابت يدفعك إلى الركض، أماماً أماماً، خلف نشيد لا يُنْجَز، وخلف رغبة لا تتحقق... باحثاً عما ليس هنا، باحثاً عما ليس هناك، تخترق «المؤقت» العملاق الجاثم على ساعات لا تعمل إلا لتشير إلى وقت لا لزوم له... وقت للزينة. وتنقلب على نفسك حين يَدُلُّك حدسُك إلى أن الهامش قد ضاق قليلاً بينك وبين ما حولك إذا اشتدَّ الإطار، إطارك، على خاصرتك. كأنك شاعرٌ للشعرِ وآخر الخراب: لا، ليس هذا وطني. ليس هذا زمني. وأكثر من ذلك: ليس هذا أنا.

وليس من عادتك أن تنظر إلى الوردة النازلة عليك من نافذة، لأن ما فيك من شقاء الغناء الحر لا يُصَدّق هذه التحية الطارئة، ولا يصدق هذا الوقوف المضلِّل، لا، ليس هذا كل شيء. إبحث عن ورد أقلّ تجد شعراً أكثر.

لقد كنتَ في عمر واحد، أنت وأبناء مدرستك وحارتك وفكرتك، وانصرف واحد إلى الطب، وواحد إلى الحزب، وواحد إلى الفضاء. لم تعد لغتكم واحدة، لأنك غامرتَ وقامرتَ بكل شيء، حتى

العبث والجنون لنعثر على أغنية. وخارج ذلك... خارج ذلك قد يتسع وقتٌ ما للمزاح، للحب العابر، للزواج السريع، ولمؤتمر الأقنعة...

وأنت مُطَالبٌ... مطالب بأن تكون ملاكاً...

وليس من عادتك أن تُبالي بخنجر جديد يغرزه أخ أو صديق في ظهرك، فتلك هي مهنة العاطلين عن الجمال، العاجزين عن الاحتفال بنهار مُخْتلفِ المذاق، البعيدين عن التماهي مع شاعرية اليأس والشهادة، المحرومين من نعمة التوتر والقلق. متى يموت لنراه بطريقة أفضل؟ هكذا يهمس الأخوة – القتلة الذين اعتادوا لغة التأبين، ولم يحبوا الشهداء إلّا في حضرة زوجاتهم. الغدر... الغدر. لقد ألفناه وصار غيابه دليلاً آخر على تشابه الرمال. فلا تطلب الرحمة من خناجر الأخوة المتربصين بك. لقد انتفخت النميمة وحضرتْ بمقدار ما غاب الوطن. صار كل واحد وطناً. أليست تلك حياتنا؟ أليس ذلك هو المشهد اليومي لروح ممدة على مائدة التشريح في مسرح العبث الصبياني، الذي تحول فيه الشهود أنفسهم إلى قتلة؟

وأنت مُطَالَبٌ... مُطَالبٌ بأن تكون حشرة...

فاكتب إلى نفسك الموزعة في نفوس كثيرة لا تعرف أصحابها، إلى نفسك المتجمعة من كل نقطة غياب. وواصل اختلافك عن ذاك الورد وهذا الخنجر، لتكون أنت... أنت الذي لا يرضى بالهتاف ولا يتهج للضفاف. ولا تقبل وسيطاً بينك وبين الينابيع، ولا وُكلاء للمدى، ولا تستمع إلى أحدٍ يخاطبك باسم الجماهير، فليس للجماهير مندوب غير هذه الشرطة المتخفية بأسماء «مناضلين» عاطلين عن النضال خارج الوزارة المنهارة. ألم تعرف هذا القمع المتحوِّل إلى

طاقة عـدوان على مناضلين آخريـن، باندماجه في سلطـة قمع أُخرى لنظام آخـر، وبتأليب معاني «التقدمية» و«الرجعيـة» على وعي الناس المستبـاح لثقـة المنبر الـذي يئنُّ تحتـه ضحايا أخر؟ تحـت كل منبر ضحية، فلماذا يصفقون لهذا الخطاب، ولماذا ينسون ذلك الشهيد؟

وأنت مطالب... مطالب بالعزلة والاندماج...

«لو لم تكن شاعراً لكنت شرطياً» هكذا اتهمك قارئ «ثوري». لمـاذا؟ «بمجرد زيارتك بلادنـا، صرتَ بسُلطة شعـرك شاعر السلطة. الجـلاد يسوط الناس بالحديد والنـار، وأنت تسوطنـا بالكلمات أيها الجـلاد». كيف تتعامل مع هذه «البـراءة» المنسوخة عن بعض صحفنا الفلسطينيـة القـادرة على تأويل الـكلام والقادرة على نفـي التأويل في عددين متتاليين؟ دون أن تدخل في ترف التساؤل الذي توفره أية محكمة برجوازية: أين هذا الكلام الذي قلته في مدح أي نظام كان، ومتى كان؟ إلا إذا كان الحلـم هو الجـلاد، فهذا الحلم - في سيرتـه الذاتية الغاصَّة بتراجيديـات الحالمين وصحاريهـم وزنازينهم - هو مقدسك الوحيد، فــي شعرك ونثـرك، المقدس الوحيد المُنزَّه عـن أيِّ دُنُوّ من السلطة، أية سلطة، رجعية أم «تقدجعية»، عدا سلطة الشعر. لذلك، فإن شرطة النظام هـي المطالبة بقمع هذا النشيد المضاد، إلا إذا تمكنت «المعارضة» من صياغة أدوات قمعها الفاضلة بتحولها إلى سلطة!

وهنا، هنـا، تدخل في المفارقة. فالشعـراء يتحولون في حياتنا الجديدة، حياتنا المسلية حدّ التقيؤ، إلى «عدوّ مشترك» لقمع السلطة ولقمع بعض أنماط السلطة المنتمية إلى سلطة قمع أخرى... وتلك هي إحـدى إنجازات تبعية هذا النوع من المعارضة العربية للنظام العربي، حيـث لا يُعَارَضُ النظـام إلّا بأدوات نظام آخر تتحـول فيه المعارضة

إلـى وسيط. وهنا تتداخل الشرطة، ويتحول بعض الضحايا إلى شرطة تخـدم في بلاط آخر. وما على الشاعر، المطالب بالغباء، إلا أن يمجِّد إرهابـاً آخر ضـد الإرهـاب الأول، ليتلقى من شرطـة المركز الاتهام ذاته الموجه من شرطـة الطرف. عليه أن يشتري عبودية بعبودية، وإن اختلفت سماتُ الزي.

لستَ ذلك الشاعر الباحث عن فاتيكان...

ولكـن ما يجرح القلب هو أن يخـرج بعض الحالمين من نشيد الحلـم بسكين. تلك هـي أقصى حالات الشقـاء الإنساني والإبداعي تلـك هي إحدى تجليات الحرية عن عبودية مشتهاة تُحَوِّل الكتابة إلى هشاشة في زمن الكتاب الذي لا حوار فيه ولا حوله.

إن المنـاخ مفتوح لمحاكمـة أخلاقية لا أخـلاق فيها، لا لدى القاضـي والمحامي والشهـود ولا لدى الضحايـا. مرجعية – نظامها الأخلاقـي الوحيد هـو العصبية بجميـع تفرعاتها. هل هـذا هو بؤس ديموقراطيـة السلطـة؟ لقـد سخرنـا منهـا وهجوناهـا كثيـراً لنمجِّد ديموقراطيـة معارضـة تستخدم الإرهـاب الفكري إيّـاه، ولا تعبِّر عن كتابتهـا إلا عن سلطة مقهورة مخلوعـة، تنتقم من ذاتها ومن تكوينها، وتستأسد في ضراوة الهجوم على أبنائها، لأنها استمرأت آفة العنكبوت، وسيَّجـتْ أزمتهـا بكتبة ليسـوا عاجزين عن الكتابـة فحسب، بل هم عاجـزون عن القـراءة أيضـاً، بتسليطهم نواياهم علـى النص، أي نص ليسـ نصَّهم، ليستخرجوا منه كنز العداء المفقود. من ليس أسير لُغَتهم يعتبرونه عدوّاً. وهم قادرون على احتكار الحقيقة كُلِّها، ومَنْ خالفهم الاجتهاد وزاوية الرؤية فهو عدو الجماهير. وليست الجماهير، فيهم، أكثر من حفنة من سُكان المقاهي.

لقـد سقط الشاعر، انحاز إلـى الفاشية – هكذا يقولون بلذة من يحتسـي كوبـاً من الجعة. سقـط الشاعر، لأنه انحاز إلـى الشرعية في منظمـة التحرير الفلسطينية. سقط الشاعر لأنـه قرأ شعراً في السودان. سقـط الشاعـر لأنه انحاز إلـى الدفاع عن أرض العـراق ضد مشروع الظلام الخميني. سقط الشاعر لأنه ليس بُوقَنا...

لَسْتَ مُلكاً لأحد...

وحين تلاحـظ اختلاط الثقافي في السياسـي، وذكاء المثقفين في إدارة لعبة الأقنعـة، ينقضون عليك بملاحظتك الساخرة التي تطرح النقد والنقـد الذاتي فـي سياق التأمل في ظاهرة عامة تشمـل مستواك الوطني، ولا يشيـرون إلى أن هذه الملاحظة هـي ملاحظتك أنت. يسرقون لغتك وموقفـك ولا يتورعون عـن تبجيل الحماقة. ثم يدعـون إلى حرية الرأي شرط أن يكون رأيهم. خارج هذا الرأي لا حرية لك ولا لسواك ولا حرية للقارئ في قراءة جملتـك المُؤوَّلة. ينتقدون الإرهاب الفكري ليمارسوه ضد الآخريـن. وباختصار، يشرعـون القمع، يُعَمّمونه، ليـزودوا أجهزة القمع الرسمية بحسن سلوك مُقَارَب. وهكذا، يحولون المسألة من بحث عن الديموقراطية والحرية إلى تنافس على ملكية سجون وأدوات قمع.

ويريدونك أن تكون منهم، أو من السلطة ليصفقوا لهزيمتهم فيك.

لست منهم، ولست من السلطة. ولكن القارئ له براءة أُخرى، يريـد للشعر أن يمتلك قوة السحر. وحيـن يعجز عن القيام بهذا الدور يصاب القارئ بالإحباط، فيحيل إحباطه الشخصي والعام على الشاعر الذي خـذل، على الشاعر الذي عجز عن إنجاز مـا عجز عنه الأنبياء، لأن الشاعر مُطالب بأن يحقق المعجزة، فهل أنت قادر؟

لا... لا تستطيع. فلتواصل الخناجر خدمة غريزتها. وليواصل الشاعر نزيفه وخدمة نشيده. وليعتذر لمن يطالبه بأكثر من ذلك...

وليعترف!... إني أعترف...

وبلاغ من النّثر

لا أعرف: أمـن الضروري أن أردَّ على تحية الصديق سمير عطا اللـه؛ أم أحفظها في سجل ديونه الكثيرة عليّ؟

فمـن الكتابة ما لا يحرِّك واجب الإجابـة بقدر ما يثير فينا شهية الكتابـة. الطائر العابر يرمـي علينا سماء. ورائحـة الخبز الطازج تفتح أمامنا المروج. والكلمة تحكّ الكلمة، فينساب الإيقاع...

هكذا فعلتْ به، وهكذا فعلت بي، عدوى الشجن...

وسأساله: أين أنت؟ أين أنت الآن؟ أما زلت تحمل قلبك كزوّادة الراعي. أم يحملـك قلبك كناي ينقل الصيف إلـى الجبال. وتمضيان علـى غيـر هدى، صدى مـن هنا، وصـدى من هنـاك، خلف صوت مكسور، من بيروت إلى مونتريال، ومن الكويت إلى لندن؟

عمَّ تبحث يا فارس الندى؟

هــو، لا يعرف. لأنه لا يريد أن يعترف بأنه لا يبحث عمّا تفتحه الكلمة من مدن، بقدر مـا يبحث عن الكلمة بالكلمة. فالأداة والذات فيه تتوحدان. والنهاية هي البداية: الكلمة.

أما زال هناك من يُصَدِّق هذه السفينة؟... هو.

فمنذ فتح قلبه، أعلى من صنوبـرة، أدرك أنه مسكون بالرحيل. وصنـع الماضي بيديـه وبيديه بنى أطلال الذكـرى حجراً حجراً ليجد مكانـاً يتلفّـت إليه القلـب. وبيديه صنـع الريح. وبيديـه جرح روحه ليصيح. المنفى يورثه المنفى ليضيف إلى عود الهواء، الذي يتأبط، وتراً مقطوعاً من شجر غريب. وليشكو: ليس هذا وتري!

من هنا، هو شاعر في كل ما يكتب...

والشاعـر – كمـا يبدو لي – ليس هو صاحـب اليد التي تحوِّل الحجـارة إلى ذهب، فذلك هو الساحر. الشاعر هو صاحب اليد التي تحـوِّل الحاضر إلى ماض. وتحوِّل خصر العاشقة إلى ريشة ضائعة في الريـح وفي الصدى... أقرب إلى الروح، وأبعد من الغرفة. الشاعر هو صانُع الغياب، وذاكرة الغياب معاً.

لذلك نخزني بدبّوس من عسل...

حيَّاني في «بلاغ من النثر» ليعيدني من حكمة الفارق إلى طيش الافتتان بما في النثر من شعر؛

ولكـن، هل مسَّتني فتنة أُخرى – يـا صديقي – لتحرضني على الاعتـراف باعترافـي؟ وماذا لو أغرتنـا المهـارة، أو الضجر الجميل، بملاحظة الفـارق بين موجتين تلعبـان على شاطئ النفـس، إحداهما نثـر وإحداهمـا شعر: تتداخـلان فيضيع الفارق، وتنفصـلان من أجل الهواء... فتتضح اللـهفة!

هل هو موليير الذي تساءل أحدهـم في إحدى مسرحياته: ما هو النثر؟ فقال له صاحبه: النثر يا صاحبي هو النثر. قال: لا أفهم. فأجاب:

سأشـرح لك: الكلام ينقسـم إلى نوعين – شعر ونثر، ما ليس شعراً هو النثـر. فقال: هل هذا يعنـي أن ما أقوله الآن نثر؟ فأجـاب: نعم، إن ما تتحدث به هو النثر. فصاح مندهشاً: هل أنا أتكلّم النثر منذ أربعين عاماً ولا أدري... نثر، نثر، نثر...

ليس صحيحاً تماماً أن كل ما ليس نثراً هو الشعر وليس العكس صحيحاً أيضاً. كما أن الملاحظة القائلة «إن من يقرأ لا يكتب» لا تعني عكسها «إن من يكتب لا يقرأ» !...

ولكـن تحقُّق الشاعرية في النثر أكثر مـن تحققها في القصيدة، أحياناً أو غالباً، لا يُهَدِّم سياج القصب الدقيق والمرن بين الكتابة الشعرية والكتابة النثرية، على الرغم من المحاولات البارعة لإلغاء الفوارق بين الأجناس الأدبية وتوحيدها في عملية واحدة هي... الكتابة.

ولعلَّ الشاعر في سمير عطا اللـه الناثر هو الذي يوقظ الفارق... وإلَّا، فلمـاذا يبـرِّر جمال النثر بالإشارة إلى ما فيـه من شعر. ألا ينهض النثـر إلا بالشعر؟ وأيـن الناثر فيه؟ إنه لا يتقـدَّم إلَّا ليلومني على إعلان الاختلاف بين حوافز كتابة النثر وبين حوافز كتابة الشعر.

حسنـاً. إن شاعريتي تعبِّر عـن ذاتها وتفضح ذاتها في ما أكتب. ولكن عندما أكتب النثر أدرك أنني أوجِّه رسالة أو نداء إلى قارئ أرغب فـي تحريض وعيه أو عاطفتـه. ولا يكون ذلك متاحاً إذا كان موضوع الرسالة شكوى شخصية لا يتوفر فيها مستوى من المشترك مع العام. إذ ليس من حقي في هذه الحالة أن أُحرِّض القارئ على حبيبتي الغائبة...

أما عندما أكتب القصيدة فلا أشعر بضرورة مراعاة هذه الاعتبارات

العامـة. لأني لا أحاور أحداً خـارج نفسي خلال عملية الكتابة. لا أرى القارئ ولا أريد أن أراه، لأن أي حضور له هو حضور قمعي.

لذلك، لا تحمل القصيدة – في عملية تكوُّنها – شروط التطابق بيـن حوافزها الداخلية وشروطها الخارجية. وأكاد أقول إن الأغنية في انفجارهـا لا تحتاج إلى حاضنة القارئ. لأن كاتبها هو قارئها، قارئها الـذي سيتعدد فيما بعد، حين يصبح الخاصـ مجموعات من الخاص فينا تأخذ شكل العام.

لقـد غضـب مني سمير عطـا الله لأنـني كتبـت أن النثر «بيان عـام». لست متأكداً من دقّة هذا التعريف. ولست متأكداً أيضاً من دقّة اقتطاع هذه العبـارة من سياقها. ألم أكتب: «وفي النثر تكمل القصيدة شاعريتهـا. ويجـد النثر في الشعـر نثره، شبهاً لا يُـرى بوضوح، شبهاً مُؤَوّلاً للعلاقة المتداخلة بين الداخل والخارج»؟

إن صديقـي هو أحد المعذبين علـى أرض الكتابة. ولقد تساءل أكثـر من مرة عن جدوى هـذا العبث، لأن له يوماً في الأسبوع تلاحقه المطبعة وتحاصره في فراغ ضيق لا يتسع للعرس أو الجحيم.

ولكن، ليس في وسـع المطبعة أن تحاصر القصيدة التي تمتلك «أرستقراطية الوقت» وترف الفراغ المفتوح. لأن «شاعر – القصيدة» لا يزج بنفسه في ورطـة هذه العلاقة. أما «شاعر – النثر» الشاعر الذي يكتب المقالة فإنه يواجه هذا الشقاء، لأنه يطالب نفسه، وتطالبه طبيعة المقالـة المكتوبة للقـارئ المجهول أو المعين بتـوازن دقيق بين الهم الخاص والهـم العـام. إذ، لم ينجـز الشاعر حقه، حتـى الآن، في أن

لا يكــون شاعراً في كل مــا يكتب. وتلك صعوبــة لا تواجه الناثر غير المطالب بتقديم شاعريته. فليست الشاعرية من شروط النثر، كل النثر.

ولعل سمير عطا اللـه أحـد القلائل الذي يطالبون حتى تعليقهم السياسي بشاعرية تميِّزه عن تشابه الرمال السائد، شاعرية تسأله في كل مرة: هل أنت، حقاً، ناثر؟

...وعلــى الشاعر أن يبقى شاعراً فــي كل كتابة - هكذا تطالبه صورتــه العامة. عليه أن يظــلَّ شاعراً في الكتابة والحيــاة والعلاقات. وذلــك ما يعذبنــي يوم الثلاثاء، يوم الحرص الدائــم على توازن العلاقة المتوتــرة بيــن الداخل والخــارج: «فما يصلح فضحه مــن داخل، في القصيــدة، من أسرار الضعف البشري لا يصلــح ائتمان النثر عليه، لأن النثر بيان عام يتعاطى مع سؤال عام».

لو توقف التعبير عن القلق عند هذه النقطة لكان من حق صديقي سمير أن يُشهِّر بلاغ النثر الجميل ضد بيان الشعر الاستعمالي الماثل في قفصــ الاتهام مع النثر الاستعمالي أيضاً، ولكن القلق يواصل يقظته إلى «كيفيــة دخول الخارج إلى الداخل وخــروج الخارج مضرجاً بشظايا مرآة الداخل... دون أن تكون العملية قريبة من بيان شخصي»...

ألا تلتقي على هذا السياج جمالية النثر والشعر معاً؟

وليســ هذا تباهياً بالشعر. ولكــن القصيدة قد كسبت حقها في البــوح بأســرار الشاعر الداخليــة وبضعفه الإنسانــي، وتحقَّق التواطؤ العلنــي بيــن الشاعر والقــارئ الذي يغفــر اعترافات العاشــق واليائس بذريعــة تقصي الشعر عن الواقــع الملموس: «هذا شعر» - بهذا التعبير

المزيج من التسامح والاحتقار يتقنع الشاعر ليقول ما لا يستطيع أن يقوله ناثراً. «هذا شعر» ضرب من ضروب غض الطرف الاجتماعي، لولاه لتمَّ رجم الشعراء بالحجارة أو تعليقهم على مشانق مرفوعة على ساحات عامة تطل على المساجد والكنائس وقصور العدالة. ولكن القول «هذا شعر» ينسب «الحقائق العاطفية» أو الفلسفية أو السياسية - إذا صح التعبير - الواردة في القصيدة إلى آلية كتابية تقتضي وتيرتها شذوذ الكلام الشعري عن قاعدة الكلام العام والنظام العام. و«هذا شعر» هي نوع من حرمان الكلام من الجدية. كما أن «يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره» تتجاوز ما هو أكثر من حق التلاعب بقواعد اللغة... إلى التلاعب بقواعد اللعبة الاجتماعية.

وليس هذا أيضاً دفاعاً عن الشعر ضد النثر. إذ لم يعلن شاعر، كما أعلنت، انحيازي إلى النثر، لأنه أكثر من القصيدة استيعاباً للوردة والبستان معاً. ولكن وردة واحدة قد تكتنز أكثر بالكثافة والشمس حين تكون وحيدة في غرفة. لعل ذلك ما يحاول الشعر أن يقوله، وما يحاول النثر أن يشرحه. أليس النثر هو حقل الشعر المفتوح. أليس الشعر هو نثر الورد على الليل ليضيء الليل؟

ولماذا نختلف على ما هو أجمل؟

قبل كتاب الاستقالة

أجدني مطالباً بالتعليق على وضعي الجديد...

فماذا يفعل شاعر هناك، هناك في اللجنة التنفيذية؟

ولكن، هل يحق لي قبل ذلك أن أهمس بأنني بريء مما حدث لي؟ وأنني لم أرتكب أمرًا إِذاً أستحقُ عليه هذه العقوبة الفخرية!

لقد فات الأَوان. ضاق الهامش. وصار من واجب الكلمات أن تحاكم قائلها. إذ ليس العذاب هو أن تكتب، بل أن توضع، مع الكلمات، في سياق التنفيذ.

كنا نتبارى في وصف الشجر يوم الأحد. لقد تأخر الربيع في إعلان فتنة الأرض. ولكن، سأمكث في هذه الجزيرة الصغيرة شهراً كاملاً لأكتب كتاباً عن الحب.

قالوا: عن الحب... لماذا؟

قلت: لأفكَّ عني سحر المرأة، ولأنجو من الحب بالكلمات. فحين تأتي الأغنية تخرج المرأة. يتسع الهامش، يتضح الرصيف... ونمضي إلى النوم بلا عذاب البنفسج...

وكنا نتبارى في وصف الشجر. قالت السيدة إنها تفضل الصيف،

قال الصديق إنه يفضل الربيع. قلت إنني أُفضل شجر الخريف، حيث يقع اللون على الأرض، ويأخذنا الحنين إلى ما مضى، وإلى ما سيمضي...

واتفقنا على مزايا الخريف...

في المساء، كنت أكتب خطاب الدكتاتور الأخير. لأتفرغ تماماً لسيرة البيوت، وكنت أمضغ نشوة السباق مع وقت يتسرب من بين أصابعي لأُعيد فاكهته إلى الورق. ها هي أيامي لا تمضي سدى. أما قلتُ مرة: إنني أكتب لأنني سأموت؟ ولا أُريد أن أموت قبل أن أُفرغ ما في داخلي من كلمات ترتدُّ إلى داخلي كلما خرجت.

وكنتُ أُطوِّر هاجسي إلى اقتراح سأُقدِّمه إلى اجتماع الأمانة العامة لاتحاد الكتاب: الآن، وقد أنجزنا الوحدة الوطنية، أتمنى أن تعفوني من إحدى المهمتين: اتحاد الكتاب الصحافيين، أو مجلة «الكرمل». وكنت أشرح السبب: لا لشيء، إلا لأمتلك وقتاً أرحب لخدمة موضوع الاتحاد والمجلة، وهو الكتابة ..

وكنت سعيداً بهواجسي الربيعية، متصالحاً مع روحي. ألم أتمكن، منذ بضع سنين، من العثور على حل لمعضلة الوحي؟ الوحي هو الانضباط بتقاليد عمل صارمة. الوحي هو انتظار الوحي في كل يوم. الوحي هو أن تحمل دفتر ملاحظات، وأن تضعه قرب السرير على حافة الأحلام. الوحي ليس تفاحة تسقط على الورق وقد نضجت. الوحي لا يهبط. الوحي يُقتنص. الوحي هو صيد القطا...

استمعت إلى نشرة الأخبار، لأتابع عيدنا الوطني في الجزائر من بعيد، لم أُسافر إلى هناك، لأنني لم أرغب في مشاهدة تضاريس القمر. لأن قمر العالم ليس هو قمر الشاعر.

آخ... لقد أصابوني بضربة على الرأس حوَّلت إجازتي الأولى إلى ذكرى بعيدة. ماذا فعلوا بي؟ لماذا ركلوني إلى فوق، إلى رأس الرمح؟ وماذا يفعل شاعر هناك، هناك في اللجنة التنفيذية!

ليتني سافرت، لأدافع عن حقي في هامش...
لقد فات الأوان.

لستُ مولعاً بالتأويل الرمزيّ، لأحتفل بشاعرية الحالة الفلسطينية ومفارقات الهوامش التي لا تكاد ترى بين مستويات البحث الفلسطيني عن ضفاف الحلم. وهذا النشيد الذي نكتب بما أوتينا من شبق حياة، وحاسّة سخرية، والتباس بين الحجل والحجر، وبين شقائق النعمان ووصايا الشهداء، بين اللغة والصمت، بين النعش والعرش – هذا النشيد لا يستطيع أن يشير إلى مَنْ هو الشاعر في حياتنا، ما دام نصُّ الروح ونصُّ الأرض مفتوحين على هاوية لا نرى فيها إلا الفضاء، ومفتوحين على أفق لا نجد فيه ثقب إبرة لنعبر...

ولستُ مولعاً أيضاً باستباق مرحلة ما بعد التأسيس، حيث نمتلك القدرة العينية على البحث الإشكالي في العلاقة ما بين المثقفين والسلطة، والبحث في مفهوم السلطة، وسلطة الكتابة، في تجمعات لم تكوِّن مجتمعها من ناحية، ومن ناحية أخرى في مجتمع خاضع لسلطة احتلال تطرح العلاقة بينهما أسئلة عن دور الكتابة وطبيعتها في عملية التحرر الوطني وصياغة الهوية الثقافية، وعن علاقة الخاص الوطني بالعام القومي والإنساني...

إن ذلك هو ما يشدّ انتباهنا، دون أن تسعى هذه الأولوية إلى تعميق الاغتراب عن الأسئلة العالمية التي تناقشها مجتمعات نعيش على هامشها.

وما يشدّ انتباهنا أيضاً هو تطوير وعي الخصوصية لكل مستوى من مستويات نشاطنا الوطني، وضرورة التقليل من الالتباس بين «السياسي» و«الثقافي» في علاقتهما التناغمية في سياق «الوطني»، ليتمكن النصُّ الأدبي الفلسطيني من امتلاك شروطه الخاصة به، لا لنتحرر فقط من قوة الإنكار النقدي المتربصة بتعبيرنا الأدبي، بل ليُمْنَح المدى الإنساني فينا حق الكلام بلغة الأدب الدالة على الطاقة الإبداعية التي يملكها شعب لم يمنح، بعد المعاناة والمذابح، غير حق الكلام السياسي.

«كله سياسة» – هكذا اشتكت عجوز فلسطينية من القمع الإسرائيلي: لقد حولتم حياتنا كلها إلى سياسة. وهذا أمر سيء.

ما أعمق هذه الملاحظة، دون أن يضاف إلى ما في هذا السوء من إيجابية وعي، في مرحلة العمل على التحرر الوطني. هذا سيء، لأنه يحرم الناس من إبداع حياتهم التلقائية المحرومة من الفن، ليتحول الإنسان إلى نمط وإلى مقال. وهذا جيّد، لأنه لا يوفر للمحتل فرص الإفادة من غياب الوعي.

إن السياسة، في الشرط الفلسطيني، هي انخراط شعب في عملية تكوُّن وطني ساخن تختلط فيها الحدود بين خصوصيات نشاط تتمكن فيها الأولويات من إحراج الأدب بمطالبته بأن يحتل موقع السياسي أولاً، وبتبرير ما فيه من عزلة مهنية مهما كانت درجة انخراطه، ثانياً. لذلك يُكابد المبدع الفلسطيني مأزقين: مأزق الالتزام بما يُحيله من صوت فرد إلى صوت شعب. ومأزق الدفاع عن طبيعة التعبير عن هذا الالتزام بوسائل أخرى غير سياسية وغير وطنِية مباشرة، تقتضي الاحتفاظ بمسافة لا تشكل قطيعة من ناحية، ولا تشكل قيداً من ناحية أخرى.

حـالات المنافي قد تغرينـا بإمكانية حلِّ هـذا الالتباس، أي تغري الأدب بـأن يكون أدبيـاً – إذا جاز التعبير – أي أن يحتفظ بمستوى خدمة ذاتـه من أجل ذاتـه. ولكنه حل مرتبـط بمفارقة أقسى: هـي الاقتلاع من الجـذور، حيـث تتحول الذاكرة، ذاكـرة الماضي وذاكـرة الحاضر، إلى أرض هشة. بينما يُغري الالتصاق بالجذور بتقدُّم مفارقة أخرى هي تسييس الأدب، حيث يُطالبُ بالدفاع اليومي عن اليومي وعن العيني، فيتقاطع مع الريبورتاج الذي يتحول إلى أحد أشكال التعبير الأدبية الأكثر تطوراً.

تلـك هـي حياتنا، هـذه هي حياتنـا. أقواسـ متوتـرة اصطياد ما يقدمـه لنا الزمن من لحظـات كتابة. بدايات. مطالـع. مقدمات لا تستطيع السرد حتى النهايـة، لأن البداية تتقاطع مع بداية أخرى تبترها بدايـة جديدة، مما يأذن للسياسي بـأن يُبعد الأدبي قليلاً. لأن السياسي فـي ظروفنـا قادر على القول إنـه أكثر فائدة وفعاليـة، وأكثر وطنية من الأدبـي. فالفائدة أجمل مـن الجمالية. وما على الأدبـي إلا أن يسرق الوقت الخاطـف ليرفض المفاضلة بين الجمالية والفاعلية، وليقول إن الوطنـي في الأدب هو الإنساني القادر على النمو بين التوتر المتجانس بين الفاعلية والجمالية.

هل هذا ترف؟

لا. إنه معركة.

ويـبدو أن المبـدع الفلسطيني محـروم من نعمـة التفرغ. لأن هذا التفرغ مشـروط بانقطاع ما عن النشاط الوطنـي المباشر. ولكن السجنـاء يزرعون الأزهار في ساحات السجون. وأمام أكواخ الصفيح تزرع الأمهـات الحبق والنعناع. وعلى المبدع أن يبدع هامشه المرن بين الوطني، والسياسي، واليومي، والثقافي، والأدبي.

وماذا عليَّ أن أفعل؟ وماذا يفعل شاعر في اللجنة التنفيذية؟

هل سأستطيع كتابـة كتاب الحب عندما يقع اللون على الأرض في الخريف؟

أم أعتذر عن الموقع الجديد؟

ما عليَّ، الآن، إلا الامتثال للإرادة الوطنية.

سأكون، كما كنت، جندياً صغيراً في معركة الحرية وفي معركة النشيد...

سأدافع عن الفروق الصغيرة.

وسأواصل وصف الشجر...

ونهاني عن السّفر

لم نكن على موعد...

كان يعرف أني لن أعود... وكنت أعرف أنه لن يسافر.

وكنّا نعرف أن ما تبقَّى في عباءته من عُمر لا يكفي لأن نلتقي، في المكان الذي لا يرحل عنه، ولا أستطيع العودة إليه...

لذا، لم تجمعنا غيرُ أسلاك الهواء المتقطّع، ليصير الصوت مقعدين، أجلس على أحدهما لأعرف أن لي بداية، ويجلس على الآخر ليحمي نفسه من عزلة النهاية.

وكان دائماً يريد لي ما يشبه هذه الحماية: يريد لي ولداً يسندني، فأمازحه: أتريد لي ولداً يفعل بي ما فعلتُ بك يا أبي... يشبّ ويهرب؟ فيقول لي: تلك هي الدنيا... قلبي على ولدي، وقلب ولدي على حجر!

أبي لم يكن من حجر. ولا من جذع شجرة كان أبي... ولكنه اختار أن يكون ما فيهما وما بينهما من صلابة ظلّ متماسك، وما فيهما من مساحة لمكان. كأنه خارج، للتوّ، من صَوّان يرشح عرقاً. يده لا تخطيء الزرع. يده خضراء الكدح. يده تنجب الشجر. ولكن، أين يزرع... أين يزرع؟

اسمه، في طفولتي، ما يرادف الحقول من صور، ومن نباتات

وفصول. مربعات السمسم، وأمواج الحنطة، وخضرة خافتة للزيتون. مطـر أوّل. طين أول. وفاكهـة أولى. طريق طويل إلى تلّة. شجرة توت ضخمـة. أقراص عسل قوي. حصـان يقفز. رائحة تبغ صلبة. خروف مذبوح. وصور لا صور لها. صور تسحبها الغيوم إلى الغيوم...

لا أحـد يتذكـر متى تعرّف على أبيه. لا أحـد يتذكر متى تعرف على أُمه. فلماذا أضرب قلبي بهذا السؤال: متى التقيت أبي لأول مرة؟

لا أعـرف إلا اختـلاط الليـل والنهـار، ووجهاً يتـردَّد على لغة الأرض، لأن أبي لم يكن أبي بقدر ما كان أبا للنبات والشجر.

لم أشعر بأي خوف منه، لأن الزائر لا يثير فينا الخوف. وقد كان أبـي يزورنا في الليل. يزرونا لينام. ثم يوقظ الفجر ويسوقه إلى الحقل. الحقـل كان بيته، والنباتات كانت أسرته. لذا، كنت أظنّ أن جدي هو أبي.

ونـادراً مـا كان يكلّمني. هـل امتصت الأرض عاطفته؟ كنت سعيـداً بهذا الصمت، سعيداً بهذا الإهمال، لأنه لم يضربني كما كانت أمـي تفعل، لم يضربني مرة واحدة، حتى حين أحنيتُ ركبتي وغرزتها فـي السكين الضخمـة لا لشـيء... إلّا لأعرف إن كانـت تجرح... ولأعـرف إن كان الجرح يؤلم. كل مـا فعله أبي هو أنه أخرج السكين من لحمي الطري وناولني إلى أمي...

هل السكين تجرح

هل الجرح يؤلم؟

كان علـيَّ أن أكبر أكثر لأتعرف علـى أبي. فقد انكسر المشهد

بكامله. مشهد الحقل والبيت والفجر والفلاّح. وصحا أبي على انقطاع نهائي عن المكان، ليتحوّل عاشق التراب إلى يتيم...

عندما كان يتجه شرقاً، وكنتُ أجري خلفه، لم يكن يدرك أن هذه الرحلة من قرية «البروة» ستتسع لكلٍّ ما في الأيام من مفاجآت. لم يكن يدرك أن الرحلة هجرة، لأنه كان يظن أن الطريق الذي يمر عليه، الطريق الوعر الطويل، سيكون هو الطريق الذي سيسلكه، في اتجاه معاكس، ريثما ينتهي «جيش الإنقاذ» من تطهير الوطن من الغزاة.

وفي لبنان، كان على جدِّي أن يعد الأيام على أصابع اليدين، وحين انتهت صار يعدها بالحصى. وكان على أبي أن ينتظر. وكان علينا، نحن الأولاد، أن نتسلق جبل جزين في الشتاء لنقطف الثلج، وأن نسبح في الصيف في بحر الدامور...

وهناك، تعرفت على أبي، على ولد سرقوا منه ألعابه. فصار في حاجة إلى الشكوى والكلام، صار في حاجة إلى حُبِّ أولاده... بعدما أُصيب بلفظة «لاجئ». لفظة تنتشر كالعدوى، فيحتمي بمرجعية الوطن. كل شيء، في النفس، عكس كل شيء حولها وخارجها. هناك – على سبيل المثال – كان لنا بيت. في البيت نوافذ. النوافذ تطل على حقل. وهناك – على سبيل المثال – لنا آبار وتين وثيران ومحاريث، كانت هبة لم نتقن الفرح بها كما نتقن الفرح بها كما نتقن الفرح بذكراها الآن. وحين نعود، غداً أو بعد أسبوع أو شهر، سنستردّ شبهاً آدمياً بآدميّ يُهيل علينا فضاء العار. هناك عكس هنا.

بهذا الشكل من أشكال المقارنة بين ما كان وبين ما هو كائن، يرجع ما سيكون إلى ما كان. ويستدرج الماضي المستقبل إلى تتبُّع

حرفي لما فُقد. ويصير ما هو مفقود مثالاً لما في الأيام من ذهب. لأن العصر الذهبي هو ما كان. ما كان منذ قليل. لذلك يتحول شقاء الفلاّح إلى نعمة. يتحول المحراث إلى عرش. أما هنا. فلا حاضر لنا أبداً. وهكذا يصير لكل «لاجئ» هنا بيارة هناك...

وحين أعادنا أبي إلى فردوسه المفقود، أدرك أنه يقع في الهاوية، لا لأن صورة الفردوس تخالف واقعها، بل لأن الواقع إيّاه لم يعد واقعاً وواصل ارتقاءه إلى ذكرى بعيدة، فقد تحول المكان إلى أنقاض. لا شيء هناك... لا شيء هناك غير حطام القلب.

هل كان أبي قادراً على استيعاب هذه الصدمة؟ هل كان قادراً على مواصلة الجلوس عند أطراف المشهد المنهار، كما فعل جدّي وهوى على السياج المرفوع بين قلبه وأرضه؟

لقد صمد أبي... وتحوَّل «اللاجئ» في لبنان إلى لاجئ في بلاده. ومن الصخر، من الصخر وحده كان يقتلع لنا رغيف الخبز، والثوب، والكتاب. ولكي لا ننسى، كان يدلنا على أشواك الصُبّار التي خاطت جسده بالأرض.

ونهانا عن السفر...

هل كانت السكين تجرح؟

هل كان الجرح يؤلم؟

أبي جَفَّ فجأة. تيبّس كالشجر المهجور، أبي مات هناك... أبي دُفن هناك في التلِّ المطلِّ على مشهد حياته المنهار. فأين أموت يا أبي؟

لن تصل إليه دمعتي، كان في وسعي أن أُوصل إليه كل شيء، من السبحـة إلى معطف الصوف الرمـاديّ إلى اعتذاري، ولكن دمعتي لن تراه...

سامحني يا أبي، لأن ما بيننا من أيام مكسورة لا تكفي لأن أكون جديراً بالعرق الذي غرفتُ منه لغتي.

هـل كان عليـك أن تصمت كل هذا الصمـت، خمساً وسبعين عامـاً، لكي أتعلَّم كل هذا الكلام الـذي لا يشبه سنبلة، ولا يقوى على إيصال دمعتي إليك...

سامحني يا أبي...

وسامحني لأني لم أُنجب لك حفيداً يفعل بي ما فعلت بك يا أبي!

...وأبي يا أبي
غض طرفاً عن القمر
وانحنى يحفن التراب
وصلّى
لسماء بلا مطر
ونهاني عن السفر
... وأبي قال مرة:
الذي ما له وطن
ما له في الثرى ضريح
... ونهاني عن السفر!
وسامحني يا أبي...

الشّارع في الشّاعر

لا يحتاج شاعر إلى أكثر من هذه الحياة: أن يُعرَّف بصواب قلبه؟

ومنذ ائتمنّا على وداعه الأخير رمالَ مصر، القريبة من غزة، وهو يسلط علينا بقعة الضوء هذه، من آخر النفق...

هــذه هي ساحة النهــار. وبإصبعين: واحــدة مكسورة، وواحدة مرفوعــة كالمسلة، يرسم وَلَدٌ من غزة لا شارة النصر وحدها، بل مشهد النصر كله. فهل رآه معين بسيسو عندما رأى القتلة وهم يحاولون سحب ذلك الولد من شرعية أمّه؟ هل رآه وهو يعيد إنتاج ذاته في وطن روحه؟

نعم، لقد رآه...

الشاعر في الشارع. والشارع في الشاعر.

ذلــك هو فضاء معيــن الشعري. انخراط فــي تفاصيل مكوّنات العاصفــة. وإذا كان الحجر هو القلم الذي نكتب به الآن الحرية، وهو القمــر الطالع من ليل يرحــل، فإن قصيدة معيــن بسيسو كانت الحجر الذي لم يتوقف عن رجم زمن الاحتلال والقهر من ناحية، ورجم اللغة السائــدة من ناحية أخرى. ولذلك فإننا لا نفتقده في هذه اللحظة بقدر ما نستعيده، وهــو ينادينا إلى هذا اليوم الذي حشد له كامل أيامه. كأن

قصيدته تحمل الشارع الآن على هتافها، في عودة البداية إلى بدايتها...

... ولا يحتاج شاعر إلى أكثر من هذا النصر: أن تتطابق الخطوة مع الطريق، وأن يتطابق الطريق مع الهدف.

لقد وصلت صورة الشاعر إلى أقصى حالات تجلّيها المتوتّر في ما وصلت إليه صورة شعبه العظيم، العاجز عن البقاء خارج البطولة. إنه الشعب الذي يعيد إلى أرض البشر معنى وجود البشر على الأرض. هل كان للحرية، حقاً، هذا الاسم؟ وهل استحقت الحرية حقاً هذا الثمن؟ وهل في وسع أحد أن يسأل، بعد الآن عن التباس العلاقة بين الضعف والقوة، حين لا تجد القوة قُوَّتها في الفولاذ، ولا يجد الضعف ضعفه في الروح المصقولة من حجر؟ لم يعد تغلُب الدم على السيف أغنية للتعويض عن إحالة الحاضر إلى المستقبل، بما فيه من أسرار، بل صار واقعاً يمدّ أساطير الماضي الإنساني بأكثر من دليل على فقر الخيال المعاصر.

إن أربعين عاماً من وعي الزمن الجامد تتبخّر في لحظات، وها هي الحدود الفاصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل تتشابك وتختلط في فوضى تجريدية كانفجار قذيفة في الظلام...

فهل أتيح لكثير من البشر أن يعاصر هذا المشهد التاريخي المدهش، حيث يقدم الغد صُورهُ التفصيلية بمثل هذا الوضوح، لشعب كان مرشحاً لأن يكون أثراً من آثار الماضي، لشعب قال عنه الأعداء إنه لم يكن ولن يكون... وما كادوا يصحون من نشوة الإنكار حتى فاجأهم المستقبل بإعادة وعيهم إلى تيه الزمن الرملي. فانتقل السؤال عن أزمة الوجود من المفقود إلى الموجود...

في وسعنا أن نضحك، إذاً، من هشاشة التكوين التي يعبر عنها المحتلون، وهم يحاصرون تاريخ وجودهم كله بتساؤل خائف، أو يدَّعي الخوف، على المستقبل الذي يهدّده انبثاق جيل الاحتلال الجديد من أزقَّة النسيان...

إنه الحجر البسيط، الحجر المعجزة هو الذي يبني الآن صورة جديدة للزمن المتنازع عليه، وللحدود الفاصلة بين الوطن الخرافي وبين الوطن الواقعي. فالاحتلال لا يسأل الآن عن مصير احتلاله، ليبقى احتلالاً، بل يتساءل عن مصير وجوده، لا ليبرّر فقط «شرعية» عدوانه، بل ليحمي «شرعية وجوده» المشروطة دائماً بهروب إلى أمام المجزرة. لذلك اختار أن يواصل التخبط في حلقة الدم المفرغة، لأنه يعتقد أن التراجع عن أي شيء يضيفه إلى غنائم الأرض المسروقة يشكل سابقة التراجع عما سبق. ومن هنا، يحكم على نفسه بإعلان هوية كان حريصاً على إخفائها: أما المزيد من الاحتلال، وإما الزوال!

...وعلى مرأى من صورته على شاشة تلفزيون أصدقائه، يجدِّد العدو إعلان عجزه عن الحياة مع قوة الحياة التي يعبِّر عنها الفلسطينيون، لا ليضع الديموقراطية نقيضاً لليهودية الإسرائيلية فحسب، بل ليحتكر دور الضحية المحتاجة إلى القتل «دفاعاً عن النفس»، وليفضح مأزقه التاريخي المزمن الذي بدأ بمقولة: لا مفر، ولا خيار...

ليس من واجبنا أن ندلَّه، نحن، على خيار الانسحاب والاعتراف بالحقيقة الفلسطينية، وبالدولة الفلسطينية المولودة من هذا المخاض العظيم. ولكن التطوُّر العميق الذي حدث في الوعي العالمي هو الذي يدله على عزلته، وهو الذي سيضع يهود

العالـم في حالة تناقضـ بين الولاء للاحتـلال الإسرائيلي وبين الولاء للقيـم الإنسانيـة. ومن هنا، فـإن استمرار العـدوان الإسرائيلي على الإنســان الفلسطيني وعلى الأرض والحقـوق الفلسطينية هو شكل مــن أشكال الزج باليهود فـي تناقض مع المجتمعـات التي يعيشون فيها، يهدِّد بانبعاث تعابيــر لا سامية قد يحتاجها جنرالات إسرائيل، ولكــن الضمير العالمي الذي عرَّفتـه الانتفاضة على مخاطر تقصيره لا يحتاجهـا. ولذلـك فإننا قادرون علـى الاعتقاد بـأن القضاء على الاحتلال الإسرائيلي يتحول إلى شرط من شروط الحيلولة دون عودة ما يهدد الضمير الإنساني.

لقـد عرفتنـا الانتفاضـة على سرنـا البسيـط، البسيـط إلى حد المعجزة، وعلى سرنا الخارق، الخارق إلى حدّ المألوف. عرفتنا على مصادر قوتنا الذاتية وفي وطــن الوطن، وفي المنافي التي استطعمنا أن ننجز فيها معجزة البقاء، بقاء الهوية والأداة، المتمثلة في منظمة التحرير الفلسطينيـة، وهي نتاج كدح اليومي والتاريخـي، السياسي والثقافي. فــي مناخها أتيـح للشعب الفلسطينـي أن يُعَبِّر عن ذاتـه الوطنية. وفي مناخها تمت عملية الانصهار الكبرى لإرادة شعب تزوج الحرية وطناً ورسالـة، في علاقـة لا التباس فيها بين الداخل والخـارج، فإن خارج الوطـن هو داخل خارجه الصامـد. وإن داخل الوطن هو حياة خارجه العائـد. إنه جسد واحـد، روح واحدة، شعب واحـد، ووطن واحد. فمتى يكف لصوص التمثيـل الفلسطيني، في عروشهم وفي نعوشهم، عــن الاستعانة بالجنرال رابيــن ليحميهم من الطيـر الأبابيل، ومن قوة شرعيـة التمثيل؟ ومتى يكف البترول الصحافي عــن النباح، ليل نهار، للإيقاع بين معاني مخيم شاتيلا وبين معاني مخيم جباليا؟

وعرفتنـا الانتفاضة على هشاشة تكوين العدو، وعلى التوتر بين دور البوليسـ المعدّ لتأديب منطقة الشـرق الأوسط؟ وبين دور سلاح الجـو العاجز عن مواجهة الحجر. إنه عدو مُعَدٌّ لمجابهة صور الفيديو التي صنعها لنفسه وبنفسه، ولكنه غير قادر على التعايش مع قوة الأشياء والطبيعة، كما يعبر عنها أولاد ليسوا أولاداً يلعبون بالحجارة، ولكنهم تعبير عن روح شعب، وقد انفجر فيه جنون الحرية.

لقـد وضعتنـا الانتفاضـة علـى بوابـة زمـن جديد، زمـن واضح القسمات. إنه زمن الدولة الفلسطينية التي بدأت مسار التأسيس، بما تعنيه من عوامل حسم لا تخصُّ الحاضر وحده، بل تخص زمن الصراع كله.

وهل يحتاج شاعر إلى أكثر من هذا المستقبل؟

المجد لشاعر الشعب، والمجد لشعب الشاعر...

خمسون عاماً بلا لوركا

لـم يكن المغنّـي يغنّي، كان ينبثـق من بلور لـوركا المكسور. لم يكـن أمانيثيو برادا يغني لنا. كان يلمُّ لروحـه شتات الجسد. وكان علينـا أن نصرخ لنشفى من حريق الورد: أولّي... اللـه، في مساء مدينة البرتقال الإسباني فالينسيا.

ولم يكـفَّ خوان غويتسولو عـن تأكيد البهجـة: أن سوناتات الحبّ المعتم هذه، هي أحبُّ قصائد لوركا إلى قلبي.

إسبانيـا فـي جميع أرجـاء الذاكـرة. إسبانيـا في تمـام إيقاعها المحـاذي لموت يقدَّس. ونحن على هامش الهامش، لا ندخل ولا نخرج، نتحرر قليلاً من عقدة الخوف من الطرب. ولكن، من هو هذا المغنّي الذي يتلاشى، جسدياً، مع الأغنية؟

إنـه متخصِّص فـي غناء قصائد لـوركا... إنه يسبـح ضدَّ التيار الجـارف الذي يعزل الغناء عن الشعر، كما فعل لوركا وهو يقاوم عزل الشعر عن الغناء.

كان لـوركا ينشد. كان لوركا يقـول إن الشعر يحتاج إلى ناقل، يحتاج إلى كائن حيّ، سواء كان هذا الناقل مغنياً أو منشداً. وكان لوركا

يمتحن حاسّة الـذوق ويمتحن القصيدة ذاتها بالإلقاء. كان يبحث عن العلاقة المباشرة بين الصوت والقلب. فالشعر ليس فناً بصرياً. لا بد من أذن. لا بد من جِرْس.

ساعـة واحـدة. ساعة واحدة فقـد كانت كافيـة لأن تنقلنا مما نحـن فيه، من زماننا ومكاننا إلى... ما لا ندري، بشفافية الشعر وفضّة الصـوت وأُمهات البرتقال الإسباني. لماذا نُصـاب بهذا الفرح وبهذا الشجـن، لماذا ننتفض؟ هـل نسينا أن هذه الرهافة وهـذا الغياب هما وطـن الشعر الذي لا وطن له؟ وهل نسينا هـذا الزواج الأبدي السعيد بين الشعر والموسيقى، لتعيد لنا تلك الساعة مشهد الروح وهي تحوِّل البصريَّ إلى صوت، وتطلع من الصوت رائحةً لخريف؟

نسمـةُ ملح تنقشـ أسماءنا على الرخام. إيقاعـاتُ زهر تنثر في الـدم دبابيس الرغبـة. بعيدٌ يبتعد. ويدٌ تحضن الـكلام نوافير من ضوء ينسكب من بين غضون. إسبانيا، لوركا، خوفٌ من قمر يرى ويَفْضح. لا نفهـم هذه اللغة ولكننا نُحسّ ونؤلـف كلاماً لمشهد يُطِل علينا منا. لذلـك ندرك الشعر الـذي تقوله لأنه أشكال داخلنـا، ولأننا نعرف ما حـدث في تلك الليلة التي نحاول طردها عنا كما نطرد ذبابةً بمروحة، علـى الرغم من أن سلفـادور دالي واصل تنـاول السردين بشهية حين قالـوا له إنهم قتلوا لوركا. هناك دالي وهناك بابلو بيكاسو الذي احتاج عشرين سنة أخرى ليرسم الحمام.

خمســون سنة على غياب لوركا. خمسون سنة على غياب وعد الجمهورية. ماذا نفعل بلا لوركا. ماذا نفعل بلا جمهورية؟

المغنـي يـوح بحساسية أُخـرى، باعتراف مظلـم هو جزء من حريـة. ولكن كنائس الكلام كانـت تنتشر فينا كغابـة صنوبر متباعدة الأشجـار. إذ ليس لوركا، فينا، سرّه الشخصي بقدر مـا هو فضيحة الإبـداع المُعْديـة... ولا أستطيع التحرر من الإحساس بأنهم يقتلون لـوركا الآن. هنا. أمامي. لقـد فتحتْ لي الأغنية باب خوفي الأول من القمر الـذي كان يُكبّر الأشبـاح. وأعادتني إلى درسـي الأول، الحادّ الغامض، فـي قابلية الألفاظ الحسية على نشـر مشاهد بصرية. هو... هو الذي أخذني إلى هذه الظلال، إلى هذا المزيج الناريّ، وإلى تسليط القلـب على «الطبيعة الميتة» كما يقـول الرسامون، وعلى إغراء العقل فـي التسلّل العلني إلى القصيدة. هو الذي علّمني شد الوَتَر من الحجر، والسيـر في غابات الزيتون. هو الذي دلّني علـى طريق الخيل والمطر فوق منحدرات الجيتار، وهو هو الذي علمني الرحيل إلى قرطبة...

خمسون سنة على غيابه. ماذا فعلنا في غيابه؟ لقد توقّف الجَسَدُ الإسباني، ذو السلالة العربية، عن التساؤل الخبيث: هل الأسطورة هي التـي خلقت الشاعر، أم الشاعر هو الـذي خلق الأُسطورة؟ يريدون – لكي لا يحجبهم ضـوؤه– أن يستبدلوا مجال الشاعرية بساحة إعدام. الشفقـة لا الحب. ويريدون أن يقايضوا جداول حبنا القادمة من ينبوع شعـر نـادر برصاصة تثيـر التعاطـف الشهير. لقد توقف هـذا الحسد الإسبانـي منذ عجزت الحواس عن العمـل بلا أصوات لوركا الملوّنة، ومنذ عجز الدكتاتور القابع فـي القصر، وصغار الضباط المندسين في الشعر، عن الحيلولة دون انبثاق أغنية لوركا من كل أعضاء الجسد ومن جميـع مجالات الروح التي تمتد إلى قدمي الراقصة الإسبانية الطامحة إلـى الإقـلاع عن جاذبيـة الأرض، ومنذ عجـزوا عن اقتـلاع أشجار الزيتـون مـن أي حلق أندلسي، ومنذ عجزوا عـن تحويل الغجري إلى موظف. لوركا! من يستطيع وقف الرعشة إزاء هذا الاسم المكهرب؟

المغني يتسلل على حبل الظل. يرسم أُغنية لوركا الهشة. يتلوى، يصلّـي، يزني، يعود على حافة الوتر الـذي يجرح الهواء. ونحن نُصفّق لمـا تبقّى فينا من قدرة على الافتتان: أُولّـي... أُولّي... اللـه. هل نسينا طابع الشعر هذا، هذا الطابع؟ وهل في وسع الشعر أن يجدّد إنتاج حياته بغير هذا الحلق... وبغير هذه الأُذن... وبغير هذا الاتصال؟ ليس مقياس الشاعريـة أن يُقـرأ الشعر – من وضع هذا المقياس؟ – بل أن يُسمع، أن يغنّى، وأن يعاد إنتاجه على مستوى علاقة – من رفض هذا المقياس؟

خواطـر. فرح. من سمّى الطرب عيباً؟ سـؤال يُحال إلى عملية التدميـر الذاتـي التـي يمارسها الشعـراء بتطهير شعرهم مـن العاطفة، وباستبـدال غموض الأحاسيس المعلقة على أشجـار الليل بوضوح الرياضيـات الذي لا يُفهم. أهذا ما يريده الذين ضاقوا ذرعاً، أو جهلاً، بالموسيقى فحاولوا استحضارها من الكيمياء؟

غـنِّ أكثر، أيها الكائن الحي، غنِّ أكثر يا ناقل الأُغنية إلينا – نحن الجمهور. الموسيقى تعلن انتسابها العضوي ولا تشرح. الموسيقى تنبثق ولا تصاحب. الموسيقى أحد أرواح الشعر، ما أعلن منها وما بُطِن. غنّ أكثر، ولكن لا تذكر كلمة «لونا» لا تذكر القمر. الليلة قتلوا لوركا...

وهكذا قدَّم القاتل شهادته في رواية فيلالونغا: «ذهبتُ في طلب لوركا، في منتصف ليلة التاسع عشر من آب، انهض... هذا هو الوعد. قـال: متى شئـت – أنا جاهز. نظـرتُ إلى ساعتي: علـى مهلك. معنا وقت. قـال لوركا: أُحبُّ ألا يحدث ذلك في المقبرة، فالمقابر ليست ليمـوت فيها الناس. إنهـا فقط للصمت والأزهـار والغيوم. ولا أُحب الموت على مرأى من القمر.

«... وحيـن وصلنا، سـاده فرح غامر فهمت معنـاه: لا يوجد قمـر. توقفـت السيارة. نزل منها رجـال الفصيل السبعـة، كما ترجَّل قسٌّ طرز على ثوبـه الكهنوتي قلب يسوع المقدسـ. وضعتُ إصبعاً علـى كتف الشاعـر وقلت له: «تقـدَّم... وأنا أدلُّهُ علـى الطريق. سار راكضاً في الطريق المحاذي لمجرى ساقية جافّ. وبعد عدة دقائق من المشي توقَّف. ظهرت أمامه في الأفق لاسيرا وقد غطَّاها ضباب الليل الأزرق، وقربها وراء غابة الحور السوداء، قريةُ الشاعر ومسقط رأسه. سمعته يتمتـم مرتين: لماذا يا ربي... لمـاذا؟ كان أحد رجال الفصيل يمشـي إلى جانبـي ومُسدَّسه في يده. أدخل فوهته فـي صُلْب الشاعر وانتهـره بجلافة: إمش، وإلا بقرتُ بطنك. استأنف لوركا سيره متعثراً بالحجـارة وسقط ثلاث مرات على ركبتيه. وفجأة توقف وسألني: قل لي الحقيقة... هل هذا مؤلم كثيراً؟

«... فجـأة ندَّتْ صرخـة... صرخة لا يبـدو أنها خرجت من حنجـرة إنسـان: توقف لوركا عنـد حافة الجـرف... أخدود عريض طويـل حفر في بطن الأرض، كاشفاً عن جـذور الأشجار. العميقة... عشرات القبور أخذت شكل الأجسام المواراة تحت التراب الرمادي الناعـم... وهناك علـى مرمى أبصارنا منظر فاحشـ فظيع: ساق امرأة عارية ظلَّت خارج القبر فوق التراب المحرك منذ وقت قريب. أجهش لوركا في البكاء...

«... تقـدم الكاهـن وفي يـده صليب. قال للشاعـر: اعترف؟ تسـاءل: بماذا اعترف؟ قال الكاهن: بمـا تريد... مدَّ لوركا يده وأبعد الكاهن. عبَّأ رجـال الفصيل سلاحهم. قلت له: أركض! نظر إليَّ وهو لا يفهـم قصدي، وأنا أُؤكد: أقول لك أركض! قال: بأي اتجاه؟ قلت: على خـط مستقيم... إلى أمام! ركض عشرين متـراً تقريباً بشكل يثير

الشفقة وتوقـف. أركض أيضاً! استأنف الركض ويـداه تهتزان ورأسه يتداعى كأنه تمثال لا حياة فيه. وأصدرت أمري: نار. ولما اقتربتُ منه رأيـتُ وجهه معفَّراً بالدم والتراب الأحمـر. وكانت عيناه جاحظتين. قال بصـوت خافت: أنا ما زلت حيّاً. حشـوتُ مسدَّسي وصوَّبته إلى الصـدغ. انطلقـت الرصاصة ونفذت مـن البطن. ودفنَّـاه عند جذع شجرة زيتون»......

غـنِّ أكثر، أيها الكائن الحـي، لنصدِّق أنَّ على مثل هذه الأرض المجبولـة بالجريمـة، شيئاً ما يستحـق الحياة. إنهـم يذبحون الشاعر كالأرنـب. وحين يعجـزون عن ذبح الأغنية يحيلون هـذه المهمة إلى شعـراء آخرين يُحيلونها بدورهم إلى نقاد آخرين. وحين ينتابنا الخوف من قَمَر أو خَنْجر نتحسَّسُ قلوبنا. وبقدر ما نجد لوركا نواصل البحث عن الروح في الغناء، والبحثَ عن الغناء في الروح.

خمسون عاماً بلا فيدريكو غارسيا لوركا...

شعراء أكثر... وشعر أقل...

تلك الأغنية
هذه الأغنية

لا نعرف متى رحل عاصي الرحباني؛

فقد وَدَّعَنا أكثر من مرة وهو يحاول أن يودِّع قلقه الشرس،

واستدرَجنَـا إلى مألوف غيابه، منذ انفصلت أصابع العازف عن أوتار العـود، ومنذ تَمَّ الطلاق المدوِّي بين كلمـات المبدع وحنجرة المغنّـيٍ، دون أن يتمكن دفاع الجسد عن الماضي من حماية الحاضر مما يهدِّده من انهيار...

علـى بياض الفضاء كان يخربش صـورةً لحصانٍ لم يجد سهلاً ليركض، فليس بعد القمة إلا حقول الهواء...

ولكـن عاصـي الرحباني، الراحـل بانكسـاره، وبأشلاء حلمه الكبيـر، وبصورة لبنان النهايـة المختلف عن بدايـة الأغنية، لم يرحل بأغنيته كما قال له يأسه، وكما كان يحلو لإغراء الملاحظة أن يلاحظ...

فـإن هذا التطابـق العبثي بين ما حلَّ بلبنـان على مستوى طفولة الأغنيـة الدائمة، وبين مـا حلَّ بمشروع الثلاثـي الرحباني هو حادث مصادفة تراجيدية، يمسُّ ظـروف الأغنية أكثر مما يمسّ ما أنجزته من قـدرة علـى الاستقلال عن ظروفهـا، وخلق واقعهـا الخصوصي فينا.

لقد حققت نجاتها الخاصـة بتاريخها الخاص ودورها الخاص في ما أحدثته من انعطاف حـادّ في علاقاتها بعناصرها الداخلية والخارجية، وفـي هيمنتها الحانية على ذوق عام ظلَّت تسوسه أكثر من ثلاثين عاماً إلى زمن لا نرى بدايته... في اتجاه يرفع أي كلام إلى مستوى القصيدة. ويرفع الأغنية إلى مستوى الصلاة الحرة...

لـكل أغنية انفصال عن المغني، لـكل أغنية نهاية جسد. ولكن هـذه النهاية تواصـل تطوير بدايتها فينا. فلمـاذا يستثني البعض عاصي الرحبانـي مـن الأزمة فـي الموت، ومـن الموت في الأزمـة، ويطالبه بحمايـة لبنـان، السياسي والاجتماعـي، من الانهيار شرطـاً لحقِّه في تأسيس مشروعه الفني، وشرطاً لصلاحية أغنيته للغناء وسط الانهيار؟

للخراب أيضاً أغنية. لم يتمكن عاصي الرحباني، الوفيُّ لإيقاعه ولمملكته الجمالية، من الغناء للخراب، ولم يشأ دخول الصراع حول الخـراب. فذلك هـو اختياره النظـري. ولكن الجيـل الطالع من هذا الخـراب ومن هذا الصراع، الجيل المسكـون بالروح الفنية الرحبانية علـى كلام آخر وموقـع آخر، استطاع أن يُجَـرِّب الغناء لما حل بوطن الرحباني وأحلامه من خراب...

أليسـ في وسع هـذا التناسُل الفني أن يُغرينا بـأن نفكَّ الارتباط الميكانيكـي بين فـروق الانهيار، وبأن نواصل الدفـاع عن منطقة في النفسـ لا مصلحة جمالية لأحد فـي أن يشملها الانهيار، حتى لو أخلَّ ذلك بتوازن جُملتنا المنطقية المفتوحة على شهية مُفَارقة؟ عَمَّ أدافع؟

عـن جمـال لا تدمـره الحـرب، حتـى لو عجـز عـن الاحتفاظ

بمؤسسته، وعن مَنْفَعَة حَيِّز مُطْلق أدافع... عن جمال يحمينا الدفاع عنه مما تهدِّدنا به حرب انتقلت، أو نُقلتْ من مشروع توحيد وطن ولغة إلى تفكيك الوطن واللغة والنفس. لقد بلغت بنا نزعة الدلالات الجاهزة حدّاً يجعلنا نربط بين انهيار البنك المركزي وضرورة انهيار الأغنية الرحبانية!

أدافع عن جمال كان يشير إلى ما فات من براءة إنسانية في علاقتها بالبشر والطبيعة، وعن جمال كان أحد الإشارات الساطعة إلى مشترك، حتى ولو حاصرت القبائل والطوائف هذا المشترك الواقعي وأغرت بتحويله إلى مشترك سابق، خيالي ومثالي. وعن جمال يتشبث إلى درجة الاستعانة بالوهم الخلّاق بملكية عاطفة جماعية وذاكرة جماعية وفولكلور. وأدافع عن دفاع الأغنية عن نفسها أمام دور أراد اليوميُّ المتغيّر القناع والخطاب أن يحولها إلى سلاحه الشخصي لإبادة «الآخر»... على الرغم من أن هذا الدفاع كان يتحدَّرُ من حيرة إيديولوجية أرهقت نفسها بمحاولة التعبير عن الجميع الذين لم يعودوا جميعاً؛ لتوطين الجميع فيها...

لقد طمحتْ الأغنية الرحبانية إلى أن تكون أغنية الجميع على مسرح منهار، تحول كل فرد عليه إلى «آخر» الآخر.

قد يقول البعض إنها أغمضت وعيها أو زيَّفته، لتخفي انحياز نوايا المغني إلى ما لا يُغَنِّي. فما تقوله من هروب إلى السابق، أو هروب إلى الوهمي هو مجرَّد غطاء. قد تكون محاكمة النوايا الرحبانية، عن كثب ومن بعيد، صحيحة. ولكن الصحيح أيضاً هو أن الأغنية المستقرة في روحنا الجماعية قد حققت هذه المكانة فينا بانفصالها عن اعتباراتها وحساباتها. وتمكنت من أن تكون أغنية المشترك اللبناني. والمشترك العربي، لأنها أغنية الحنين الإنساني إلى دفء إنساني، وإلى فرح مفقود، وخوف من بلوغ الساحة الخالية حيث تصرخ الهشاشةُ الإنسانية: ما في حدا...

نريد أن ندافع عن شيء فينا... لا ينهار لأنه لا يُسْلَخُ عن نسيجنا العاطفي.

إن تفكُّك الأسرة الفنية الرحبانية، بتأثير الحرب أو طبيعة الزواج القمعيـة، لا يعنينا إلا باعتبارنا أصدقاء العائلـة. أما خارج هذا الاعتبار الشخصي، فليس من حقّ شبـق البحث عن المطابقات والدلالات أن يدفـن الإنجاز الرحباني مع جثمان عاصي الرحباني، كما يُهيل التراب على فضاء، أو كما يقتلع ما فينا من طفولة وشوق ما لا نعرف...

لقد جرت محاولة هذا الرثاء الكلي للتراث وللشخص من قبل، جـرت بطريقة تشي بأن المُؤبِّنين قد تدربوا، جيداً، على التجاهل بغناء النفـس البشريـة، وعلى إخضاع الفني للسياسـي بطريقة آلية في حُمّى تقسيم البشر إلى مرآة أو عدو. يومئذ دافعتُ عما أدافع عنه الآن: صارت أغنية فيـروز الرحبانية أحد أسماء هويتنا العاطفية، الهوية المُلْتَبِسة التي تعرفنـا على قلوبنا وتزيدنا جهلاً بها في آن. صار من طقوس المحبين، ومـن عفويتهـم، أن يستعينوا بها على ترويض قلـوب أحبابهم. وصار مـن المألوف أن يستنجد بها الأعداء علـى أعدائهم وأن يودِّع الشهيد حياتـه بالأغنية إيَّاها التي يستلُّ منها القاتـل خنجره. فالقاتل والضحية يُحبَّـان الأغنية ذاتها عن بيروت وعن القدس معاً، كأن القُدْوة العاطفية قد تحققت في ذاكرة جمالية جماعية بلغت حدَّ المجرَّد.

إنها أغنية الجميع للجميـع... حيادُ طبيعة... يوم ربيعي جميل تجري فيه الأعراس، وترتكب فيه المذابح... وهو جميل.

هـي المشترك في الإنسان، هي الانبهـار الجماعي أمام صاعقة تتجمَّـد على طرف الأفق. هـي حنيننا المشترك – أنـا وعَدُوِّي – إلى

إنسانـيٍّ بعيد. وهي تَوْقٌ إلى إلغاء العـدو من العلاقة بين الناس، ونقطةُ التلاقي بين الشخص ونقيضه. وهي اللغة التي أخاطب بها حُبِّي الأول، وهـي التي تدفعني إلـى الفداء. وهي هـي - يا للمفارقـة - التي تدفع شخصـاً إلـى اغتيالي دفاعاً عنها، و أستشهد دفاعـاً عنها. وقد ينشدها القاتل والضحية معاً في لحظة المواجهة.

لأنهـا أمسكت بما فـي الإنسان مـن مُطلْق... مطلـق لا يلغيه الصراع، ولا الخطاب السياسي، ولا الانهيارات.

من البديهيات: أن لكُلِّ بداية نهاية...

ولكن ليس بديهياً أن الشعب الفلسطيني لم يبدع أُغنيته الوطنية كمـا أبدعتها له وللعرب الظاهـرة الرحبانية... لقـد أشهر الفلسطيني هويته الجماليـة بالأغنية الرحبانية العربية: راجعـون، بيسان، شوارع القدسـ، أجراس العودة، جسر العودة، مرَّ نهار آخر، سنرجع... حتى صـارت هي إطار قلوبنا المرجعيّ، هي الوطن المستعاد، وحافز السير على طريق القوافل الطويل.

فمن يستطيع دفن الأغنيـة مع المغني؟ وهلٍ في وسع ما سينهال علينـا من ركام، وما سنتعرض له من محاولات فَكِ اشتباك بين القدس وسائـر العواصم، أن يشمل هـذا الغناء الذي يعيدنا إلـى الوطن ويعيد الوطن إلينا كل يوم؟

ومـن سيتذكر، ولمـاذا يتذكَّر، حوافز سعيد عقـل «السورية»، بمعناهـا الانفصالي، حين تفرش لنا أغنيـة فيروز الرحبانية طريق الشام بحريـر الحنين؟ أليسـ انفصال الأغنية عـن يومها السياسـي هو أحد أشكال الالتباس العظيمة، المحروسة بنسيان المؤقت، لقوة الفن الذي

يوحد ما لا يتوحد في الخارج وفي النفس وفي الزمن، حين يخترق فينا ذلك الغامض، ويحولنا جميعاً إلى أطفال وحيدين في غابة موحشة؟

وحتى لو بدا لنا، ذات يوم، أن المسافة بين أنطلياس وبيروت أبعد من المسافة بين دمشق والقاهرة، فإن مساحة الأغنية توحدنا، حين تخاطب ما فينا من حنين مشترك إلى وردة على حائط، تجعل الوهم ضرورياً لتحلَّ هذا الواقع.

هذه الأغنية، التي يرشحها البعض لأن تكون بنادق في أيدي القناصة في الحي الواحد، واللغة الواحدة، والشعب الواحد، لا تستطيع أن تكون غير ما هي عليه: رفوف سنونو، وفضاء عودة... وأسرار قلب... وخراب الخراب... لأن وطن الأغنية ليس دائماً هو الوطن.

... ويا عاصي الرحباني، ما قيمةُ أن أشكرك الآن على ما تنتجُ فينا من لبنان وبيسان، وإنسانٍ لا يقوى على نسيان أنه... إنسان!

شاعر القمر والطّين

هو واحد من معالم مصر. يـدل عليها وتدل عليه. نايات البعيد وشقـاء الأزقـة ودفوف الأعيـاد. سخرية لا تجرح، وقلـب يسير على قدمين. صلاح جاهين يجلـس على ضفة النيل تمثالاً من ضوء، يعجن أسطورته من اليومي؛ ولا يتوقف عن الضحك إلا لينكسر. يوزع نفسه فـي نفوس كثيرة؛ وينتشر فـي كل فن ليعثر على الشعـر في اللا شعر. صلاح جاهين يأكل نفسه وينمو في كل ظاهرة، ينمو لينفجر...

وخيـط رفيـع من ضـوء القمر في حقـل مفتوح، يعـج بالقطن والـذرة والبؤساء، هو أحد المشاهد التـي يغدقها علينا هذا الغناء. غناء جديد يحاذي الخبر، كأنه يضع جدول أعمال للقلب. غناء كان يأخذنا إلـى السفوح ونار المعجزة، غنـاء يحرك الآن فينا حنيناً واضحاً إلى ما ابتعـد في الغموض. غناء يتلمس ما كان فينا من قوة العمل وقوة الأمل. غناء يتطلع إلينا لنعود إليه، لنمسك بطرف الغناء السابق...

صـلاح جاهين، صـلاح جاهين، لا أعرف كيـف أستعيد ذلك الفصـل الضائع من عمر جميل جرَّنا إلـى اليقين. ولا أعرف كيف أجد الـكلام الجدير باستعـادة كلام تحول فينا إلى مصـر، ولا أعرف كيف أمشي في وطن تحول إلى شجن، وكيف أتحمل شجناً تحول إلى وطن.

ومصر في مكانها. والنيل في مصر...

ما فينا من مصر هو الذي يشرق ويغرب. هو الذي يقترب ويبتعد. هو الذي ينكسر ويلتئم. ومصر في مكانها وفي تاريخها. وصلاح جاهين هو الذي قال لنا، بطريقة لم يقلها غيره، أن ما فينا من مصر يكفي لنفرح...

فهل استطاع النشيد أن يفرح؟

عرفت صلاح جاهين منذ تعرفت على صواب قلبي الأول، منذ يممت مع أبناء جيلي شطر الصعود إلى أعالي الأمل. ولم يكن في مقدور ولد مثلي أن يسلّم بأنه يتيم الوطن والهوية ما دامت مصر ذلك الزمان تقدم للعرب هوية روحهم، وتقود القوافل المشتتة إلى شمال البوصلة. عبد الناصر يصوغ مشروع الوعد الكبير، عبد الحليم حافظ ينشد للعمل والموج والصعود، أم كلثوم تشهر شوقنا للسلاح، وصلاح جاهين يسيِّس حناجر المغنين، ويؤسس تاريخ الأغنية الجديدة ويحوِّل العمل إلى ورشة أفراح.

لقد انصهر الوطني في القومي في المشروع التوحيدي الكبير الذي انكمشت على ضفافه لُغَةُ الاحتكام، هنا وهناك، إلى مرجعية الخرافة، مرجعية السلالات الأولى الرامية إلى الاغتراب والاستلاب، لتستبدل بمرجعية واحدة هي وحدة الوعي بما يتطلبه الحاضر العربي من استنفار ما فينا من مشترك اللغة والثقافة والتاريخ والجغرافيا والمصلحة والخطر. كنا نتأهب، لأول مرة، للدخول في تاريخنا من بوابة الصراع الشامل... كنا نحلم بالحضور.

لذلك استطاع مطلع النشيد أن يفرح...

صاعدون إلى مغامرة الحرية والجمال، صاعدون إلى مدار الشعر، صاعدون إلى ترويض المستحيل.

«أنا اللي بالأمر المحال اغتوى
شفت القمر نطيّت لفوق الهوا
طلته ما طلتوش؟ إيه أنا يهمني
وليه؟ ما دام بالنشوة قلبي ارتوى...

صلاح جاهين يسير على الطريق الطويل، ونحن نمشي، في معارك لا تنتهي «يا أهلاً بالمعارك» دون أن يهمنا القطاف السريع بقدر ما تهمنا نشوة المحاولة في السير. تلك هي لذة الإبداع، وتلك هي متعة التضحية. أما حساب الربح والخسارة فلا يدخل في أقاليم المخاطرة الشعرية: هل نقطف القمر؟ أم يخطفنا القدر؟ ليس هذا التردد سؤال القصيدة. المهم هو أن نلتصق بطريق لا بديل عنه سوى هزيمة الروح، وهشاشة الدفاع.

إن محاكمة السير على طريق الحرية بمعايير سلامة الوصول المضمون هو المدخل الفكري، شديد الذكاء والخبث، للتراجع عن الهدف وعن الطريق معاً، تماماً كمحاكمة الشهيد على اندفاعه واقتحامه. أليس هذا ما حدث فيما بعد؟ أليس هذا ما أشاع لغة الاعتذار عن كل نقطة دم حاولت أن تستدرج القمر؟ ولكن سؤالنا، ذلك السؤال الساطع الأول، مختلف. إن مهمة الطريق هي أن يواصل طريقه دون مقايضة النتيجة بخوف الحساب، وما على الغناء إلا أن يغني: «ثوار، ولآخر مدى ثوار، مطرح ما نمشي يفتح النوار. ننهض في كل صباح بحلم جديد. وطول ما إيد شعب العرب في الإيد، الثورة قايمة والكفاح دوار. ثوار، نهزك يا تاريخ تنطلق، نحكم عليك يا مستحيل تنخلق،

نؤمر رحابك يا مدى تمتلئ، والخطوة منا تسبق المواعيد...».

ولذلك، فرح النشيد.

هل يطمح الشاعر إلى أكثر من تحوّل صوته الفردي إلى صوت شعب، والى ختم شخصي على مرحلة؟ لقد وقّع صلاح جاهين على قلوبنا وعلى فصل من عمر جيل الوعود الباهرة، ومضى فجأة بعدما تعرض العمر إلى صدمات. ها هو يمضي، يحمل جسده المثقل بالعسل المر وبارتفاع المقر إلى أعلى وأعلى. ولكن هل يمضي وحده؟

كم نظلم الشعراء لنتماسك! لهذا نقول للصديق الراحل: اذهب وحدك. أما النشيد فهو لنا. لنا نشيدك، فاذهب إلى حيث شئت ما دمنا قد امتلكناك. وأنت صوتنا، وأحد أسمائنا الأولى...

صلاح جاهين، الشاعر الذي قال نيابة عنا ما عجزنا عن قوله بالفصحى، هو الشاعر الذي قال لنا ما عجزت عن قوله العامية، الشاعر الذي حل لجمالية الشعر ولفاعليته العقدة الصعبة: وعورة المسافة بين لغة الشعر ولغة الناس وما بينهما من تباين والتحام. صلاح جاهين، نتطلع الآن إلى غيابه المحمَّل بما يغيب منا، نتطلع إلى ما يحضر من غياب، فلا ننكسر تماماً لأننا نرى قامات الخطى الأولى وهي تهيمن على الظل، ولأن ما تبقى من روح فينا يبحث عما تبقى من قوة النشيد لا نتذكر فحسب، بل لنصد عنا غزوات الاعتذار الرائجة.

لا، لم نخطئ حين انتمينا، بقوة البديهة والوعي معاً، إلى ما فينا من مصر. ولم نخطئ حين اندفعنا، بدافع الدفاع عن النفس وعن الحلم، حين استندنا إلى ما فينا من واحدٍ عربي. ولم نخطئ حين وجدنا الطريق في هتاف اللحم البشري الجريح: ما أخذ بالقوة لا

يستـرد بغير القوة. ولـم نخطئ حين أنشدنا مـن كل القبور المفتوحة: والله زمان يا سلاحي...

فهل ابتعد النشيد؟

ليـس تماماً، يا صـلاح جاهين، فقـد التوى قليـلاً ليلتف على صخـور وليأخـذ مسـاره الحاسـم. القمر ليـس قريباً إلى هـذا الحد وليـس بعيداً إلى هـذه الكآبة، وليس محالاً إلى درجـة تعيدنا إلى البئر المهجورة. سلام... سلام، ولا سلام: لأن مصر ليست ملكية شخصية لحاكم تمزح الأقدار لتطبعه على شاشة أمريكية. فمن يعيدنا إلى مصر؟ ومـن يعيد مصر إلى ذاتها من خارجها؟ ذاك سؤال أحمق يقوله موظفو الجامعـة العربية لتبرير العجز عن عقـد قمة على حضيض ولتحضر في غيـاب. حـرب... حرب، ولا حرب. هل غابت مصـر حقاً؟ هذا هو سـؤال الذين صدقوا النشيـد لأنهم صدقوا دمهم. سـؤال الناجين من المؤقت الطائفي والإقليمي والقبلي والذاهبين إلى معنى مصر الدائم...

فاذهـب، يا صـلاح جاهين، إلى حيـث شئت. أتـرك صباحنا بـلا ورد ساخر فينا من نشيدك ما يكفـي لنواصل الغناء لمصر العرب، ولعـرب مصر. فينا منك ما يـزوِّد الذاكرة بمطلع العمـر الجميل وبما هـو جدير بأن نقبـل مزيداً من العمـر العنيد. اذهب إلـى حيث شئت ولا تصـدق أن حزيران هو أقسى الشهـور، فسنشهد بعدك على سنين أقسى، طالما أن التدهـور لم يبلغ قاع تدهوره، وطالما لم يفرغ ملوك الطوائف، بعد، من تكوين طوائفهم. زمن رديء – قالوا – زمن وغد، فودعـه بلا ندم. واترك لنا ذاكرة البدايات المؤمنة بقدرة النشيد وقدرة سـكان النشيد على إعادة صياغة الواقع الجديد، وعلى استبدال شرعية الفصحى الرسمية، فصحى الكاتب الرسمي وفصحى الحاكم بشرعية

الشارع والنيل والطين، بفصحى جديدة تعبِّر عن امتلاء الكلام بشرايين الحياة واستغاثة الروح.

صلاح جاهين سنتسلح منك بما نشاء من وعود. سنختار من الأشجار أوفرها خضرة. سنأخذ منك ما يجعلنا أقوى، وما يصل فينا ما انقطع في علاقات الفصول. وسنأخذ منك عبرة التطابق بين الأغنية والمغني، لنشهد على براءة جيل من اختلال الشبه بين الواقع والمرآة، وبين الإرادة والأداة، ولنبقى قريبين حتى التلاشي من جوهر الشعر ومن جوهر مصر.

لا تفتح أمامي الباب...

اختنق راشد حسين بدخان القصائد.

عثر على نفسه وحيداً في ليل نيويورك. لم يجد أحداً يقاسمه ذلك الليل... ولم يجد لغة تصالحه مع نفسه، ومع مكان لا مكان له فيه...

لم يجد في قاع الوحشة، الذي حفره بيديه، قصيدة ترفعه عن خصومة مع الذات لا تنتهي إلا بالشعر...

لم يجد الشعر...

فأضرم النار في أشرطة كان قد سجَّل عليها القصائد، واختنق...

تُرى، هل حدث من قبل أن شنق عاشق نفسه بضفائر الحبيبة، كما اختنق هذا الشاعر الفلسطيني بدخان شعره؟

لقد رحل منذ عشر سنين، ولكن راشد حسين لم يأخذ شعره معه ويرحل، كما يفعل الكثيرون من الشعراء...

لا لأن السيرة الذاتية، المتوجة بهذا الموت النادر، تواصل فينا لعبتها الساخرة القادرة على إشاعة الالتباس بين النصِّ والحادثة، بل

لأن تجربـة راشد حسين الشعرية تستغني عن «فضيلة» الموت لترتفع، باستقـلال صارخ، عن مأساويـة صاحبها، ولتستقر فـي كتاب شعرنا الفلسطيني، هناك، واحدة من أجمل البدايات...

لأنه كان شاعر البدايات...

وإذا كان فـي اتّكاء بعضـ الشعر الفلسطيني علـى موضوعه ما يصـرف النقـد الأدبي عن التعامـل الجمالي مع هذا الشعـر، لأسباب تتفاوت مستويات إيديولوجيتها، فإن في شعر راشد حسين من بدايات البحـث عن القصيدة مـا يدين الاستهتـار النقدي بالشعـر الفلسطيني مـن ناحيـة، وما يدفع أبناء جيلـي، من ناحية ثانية، إلـى الاعتراف بأن البدايات التي أسسها راشد حسين هي التي أذنت لنا بأن نطور الهاجس الجمالـي، والهامش الاستقلالي للإبداع، عن السياق التوظيفي للشعر كمـا شـاع في الخمسينـات، حيـث كان الحكم العام علـى استجابة القصيدة للأحداث يتقدم شروط جماليتها...

كان راشد حسين ينفصل منذ البداية، عن الحماسة الخطابية التي التهمت لغة الشعر في الأرض المحتلة، ويصوغ لغته الجديدة البسيطة من نسيج حياتنا البسيطة، ليشير إلى ما في حياتنا من شاعرية، ليس النصُّ السابـق مصدرها ومرجعهـا الوحيد. فالواقع ليس مـا يقول الخطاب السياسـي، بل ما يعبِّـر عنه سكان هذا الواقع فـي بحثهم الإنساني عن أسمائهم وخبزهم وأهلهم وشكواهم من واقعهم ونزاعهم مع حياتهم. وكان راشـد أحد الأوائل الذيـن سمّوا لنا هؤلاء السـكان، وأمكنتهم ونباتاتهم. كان يسمِّينا، وينتقل بنا من واقعية الشعر إلى شاعرية الواقع. ويستبدل الموضوع بالإنسان.

لـم يكبر نـا كثيراً في العمر. غيـر أنه كان مثالنا عندمـا هبّت علينا قصائده الأولى، ونحن ننسخ على دفاترنا المدرسية شعر علي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل الرومانسية، ليأخذنا إلى صورة واقعنا، وليقول نيابة عنا ما حاولنا أن نقوله مقلّدين البكاء على غياب الأحباب، وهو ليس بكاءنا إلا بقدر ما يقوى الشعر على الزجّ بقارئه في هموم قابلة للتبنّي.

ولعـل قصائد راشد حسين هي بداية الانعطاف الذي ميَّز الشعر الفلسطيني في الداخـل فيما بعد، بأرق البحث عن الارتباط المنسجم بيـن فاعلية الشعر وجماليته. لقد كان مطلع نشيدنا المبكر. وحن أنظر إلى الوراء، إلى فتوّة تلك الأيام، أرى الفارس الأسمر، ذا الصوت الفاتح والقامـة المديدة، الذي فتن جيلاً كامـلاً بأغاني الفلاحين، واللاجئين فـي بلادهـم، والعشاق المضرجيـن بأشواك الفـوارق، والذاهبين من القرية الصغيرة إلى المدينة الصغيرة...

هل كان راشد حسين ومضة، أو شالاً من برق، ليطوي بريقه في مثل هذه السرعة، ويرحل؟

... وكان أول المسافريـن. المغنـي الرعـوي، القـادم من قرية لا اسـم لها قبله «مصمصـ» إلى تل أبيب، يُمسـك بجيتارته الطازجة ليضرب بهـا جداراً، ويرحل إلى نيويورك فـي أوج غنائه الأول. طائر السرب بلا سرب. وما حسبه أفقاً لم يكن أوسع من قفص. فماذا يفعل بصوته، ماذا يصنع بلغة ما زالت هشة؟

«إفتـح أمامي البـاب» - من هذه الصرخة التـي أطلقها الشاعر على مَنْ طالبـوه بوصف «جمال» الاستيطـان الإسرائيلي، الكيبوتس والموشـاف، تبدأ رحلـة الخيبة لشاعر فرد اختـار أن يكون بلا إطار،

في ظـروف الرؤيتين الواضحتيـن المتناحرتين، حين ظـن الليبراليون الإسرائيليـون، الاشتراكيون الصهيونيون، أنهم قـد استدرجوا الشاعر القومي إلى منبرهم. وحين ظن الشاعر أن موقفه أقوى من موقعه، وأن في مقدور صوته الواحد، الوحيد، أن يستولي على المنبر.

كان ناصريـاً حتى النخـاع. وكان المنبـر صهيونياً بـلا موارية. وكانت الفترة عصيبة ساديـة، وساخرة إلى درجة كانت تستخدم المنابر الصهيونية معها صوت جمال عبد الناصر لتشتيت «القوى التقدمية»، في محاولة كبرى لتحطيم سلّم الأولويات، واستبدال مهام الدفاع عن النفس والأرض بمعارك إيديولوجية مصطنعة بين القومية العربية والماركسية.

في تلك الأيام السوداء، كان الشاعر الأعزل طيِّب القلب. وماذا لـو فتحوا أمامـه الباب؟ ماذا لو وفَّـروا له حرية التجـوّل؟ سيعرف أنه الضحيـة بعد هـدوء العاصفة. وحين أنزلوه عـن المنبر كان الجرح قد انفتـح. ووجد الشاعر نفسه وحيداً على أرصفـة تل أبيب. لا يستطيع العودة إلى قريته الصغيرة، ولا يستطيع الذهاب إلى البديل.

واختـار هـو أن ينكسـر لا أن يُعتصـر. ولم تتوفـر في ظروف الصراع إمكانية لتسييج الشاعر الذي لم يجد في قوته الذاتية ما يحمي نزعتـه الفردية نحو الارتفـاع على ظروفه. وهكـذا اكتشف أن واقعه أقوى من لغته، وأن ما بين الموقع والموقف جدلية أُخرى.

فرحل...

وواصل أفراد السرب الشعري غناءهم الجماعي، مشدودين إلى شـرط وجودهم، ثنائية الكتابة والإطار، ثنائيـة الإبداع والانتماء. كانوا يكبـرون بلا توقف. وكان نشيـد الهوية الوطنية يتبلـور. وكان الحائط بيـن الداخل والخارج ينهـار... وكانـت الظاهرة الفلسطينيـة تتأسس

وتستقر...

وفي نيويورك، كان راشد حسين يبكي. كنت أُقابله هناك كما كنت أُقابله في عكا وحيفا والناصرة. لم تتغير - كنت أقول له. وأنت تغيّرت - كان يقول لي. أمن الضروري أن لا تتغير يا راشد؟ أمن الضروري أن تتغير يا محمود!

لا أعرف ما هو الضروري، بقدر ما أعرف ما هو الطبيعي. ومن الطبيعي أن تتغير اللغة، من الطبيعي أن تتغير الناس!

لم يتقن راشد فنَّ منفاه. لم يتعلم شيئاً من منفاه. في هذا العصر المليء بالمنافي والمنفيين وآداب المنفى، لم يتغلغل شاعرنا في نسيج الظاهرة. لقد ازدادت لغته هشاشة أمام غابات الإسمنت، دون أن يتحاور مع المنفى، دون أن يزج بنفسه في المنفى. ظل هناك غريباً، وغريباً حتى عن الغربة. وكان يجرحه أن تحاوره: لم لا تدخل في المنفى، ما دمت في المنفى؟ أو... لم لا تعود؟

جلس على منتصف الجسر. لا يتقدم ولا يتراجع. يقاوم المنفى، ووعي المنفى، ولغة المنفى بأدوات شبه بدائية: ذكريات تتغلب على راويها، ذكريات لا تستخلص قوة الشاعر. وقصيدة أولى تعيد أولها. وإقامة دائمة في ومضة البرق الأول. الأول لم يعد أول. وفي النهر تجري مياه جديدة. لعله... لعله أضرب عن النمو احتجاجاً على عالم لا يأبه...

تعال إلى العالم العربي! ذهب إلى العالم العربي ولم يذهب. ذهب إلى صورة العالم العربي في مخيلته فلم يجدها. غضب وعاد إلى نيويورك، إلى هامش نيويورك. إن مأساة راشد حسين الثانية هي أنه لم يعرف المنفى تماماً. لم يرتطم به فلم تخرج الشرارة. وظلت النار حبيسة. لا الوهم

يخلق القصيدة، ولا القصيدة تخلق الوهم. كأنه كان يكرر صرخة مأساته الأولى: «افتح أمامي الباب». ولا أحد يفتح الباب أمام أحد...

ولـم يفتح هو بـاب قصيدة المنفـى. إن شاعر الوطـن، الوطن البسيـط، المتكـون، النهائي، الواضـح، قد ذهب إلى منفـاه الذي لم يكـن منفاه بقدر ما هو منفى مواطنيـه، ومنفى الوعي البشري، ومنفى الإنسانية، ذهب بأسلحة البساطـة التي كانت قادرة على إنشاء عالمها الخاص، نقيضها الساخر، المندهش، المسحوق، دون أن يستخدمها، أو دون أن يبذل المحاولة القاسية.

ظل يطـل على الـوراء، الوراء الـذي لم يعد مكانـه. فخسرت قصيدتـه وطنها وخسرت منفاها معاً. فانتقم الشاعر من الشعر، بكتابة جسده قصيدة أخيرة.

وهكـذا تحـول الشاعر من كاتـب شعر إلى موضـوع للشعر، ليكـون هو النشيد لا المنشد... ولتبقـى البداية هي البداية ولكن، أمن الضروري أن نجهش:

من لا وطن له لا منفى له؟.

اغتيال الشّيخ

فـي زحام الموت العـام في بيروت، يفتح حسيـن مروة شارعه الخاص، ليمرَّ موته الخاص على آخر المعاني...

هل من معنى؟

هل من مبنى؟

علـى الرغم من تواضعـه الفذّ، في مدينـة لا يتواضع فيها شيء، يخرج موته من بين الصفوف، ليتمّيز بما تميَّز به الرجل من حياة كانت تختلف عمَّا شاع في المدينة من فكر ونمط وحياة.

فمـا ذنبه، أن قُتل في وقت قُتلت فيه مئات الأسماء التي لم تعلن أسماؤها؟ ما ذَنْبه ليجرف مع مئات الضحايا إلى مقبرة جماعية، ليقال: ليس لمقتول على مقتول، في هذه الغابة، من فضل إلّا في النسيان!

كلا؛

لا لأن حسيـن مروة ليس ضحية حـادث طائش، بل لأنه رجل يختلـف عمَّا حوله، ويتفوق على ما حوله ومَـنْ حوله بإنسانية تفضح ساحـة الفارق. ومن الصعب إدراجه في «عداد الآخرين» منذ استطاع أن يبرّئ قلبه، ولغته... من آفة التلوّث العام التي ضربت مدينة بكاملها، تـارةً بذريعة الاعتراف العلمي بالطائفيـة كأداة فهم لا بُدَّ منها لتأسيس

حداثة الانحطاط، وتارةً لضرورات ردَّ الاعتبار إلى ميكيافيلّي المظلوم النافعة لاستقطاب غرائز الشارع المتعب من ثبات المعاني من جهة، ولتقديم انتهازية التحالف على أي مبدأ آخر من جهة ثانية...

لذلك، كان حسين مروة «قديماً» في نظر حداثة الانحطاط، وكان «حديثاً» في نظر مَنْ توسلتهم الحداثة، من السلفيين والظلاميين، وتوَّجتْ تاريخها المرن باستبدال مرجعيتها العلمية بمرجعية طائفية.

ذلك عاديٌّ في بيروت.

لأن بيروت مدينة غير عادية!

أما حسين مروة، فلم يكن غير ما هو، الماركسيّ العلماني، ابن تاريخه القومي، المسلَّح بأدوات البحث عن خلط التطور في تاريخ لا يلزمه بالخروج من التاريخ، والعاجز عن إعادة القراءة لتبرير عاهة طائفية طارئة أصابت من عاصروه ممن قرأوا التاريخ بأرثوذكسية مقلوبة، لا هاجس لها إلَّا تغليب فشل ما غاب على نجاح ما هو مهَّده بالغياب، والاحتكام إلى عملية بتر سهلة، من فرط ما هي مستقيمة، تشطر التاريخ إلى اثنين: خير، وشر...

ولذلك أيضاً، لم يُشاهد حسين مروة في مقاهي بورصة المعرفة في بيروت.

ولم يُشاهد في مسرح انقلاب الحليف على الحليف.

ولم يشاهد في أزياء حداثة العراء من الذات ومن التاريخ.

كان كلاسيكياً في احتفاظه بأدوات منهجه من جهة، وبإيمان صلب لا يرتدّ على ذاته في كل منعطف أو مأزق، من جهة ثانية.

كان شيـخ الشباب المفتون بتصويـب «عقيدته الجمالية» على كل مـا تقدمه الحياة من جديد إنساني فـي الثقافة، ليبرهن ما اعتقد أنه قانـون للتطور: الجديد ينبثـق من القديم، وما هو جديـد الآن سيصير قديماً غداً عندما يخرج منه جديدٌ جديد...

مأثرته الكبرى، وتميّـزه على مَنْ حوله وفيه، ينبعان من أنه كان مخلصـاً لطريقته في الإدراك، والقـراءة، والكتابة... لا يتقطّع ويتعرَّج ولا يقطـع السياق، في مدينة تقدِّم اعتـذاراً يومياً عن وعيها وذاكرتها. لذا، كان ظاهرة شاذة، بقدر ما يكون الشذوذ عن الشذوذ شاذاً!

ولـم يمجِّد بيروت الفسيفساء، بيروت السياحة، بيروت الحلم المصـاب بالتضخـم المرضـي، ولا بيـروت الاستهلاكية فـي الثقافة والسياسة...

مجَّـد بيروت حين فجـرت قوة إرادتها فـي دفاعها عن هويتها الوطنية وعـن إنسانيتها ضد العـدو المشترك، ضد العـدو الإسرائيلي المشترك، وصاغت ملحمة صمـود تجلَّت ذروةَ نشيد لأحلام الشيخ المناضل الذي توَّج عمره بهذا المشهد، مشهد قيام بيروته الصغيرة من سُبـات أمّة، لتردّ إليها الروح المشردة، ولتردَّ إليه فتوة شباب لم يذهب سدى. فها هي معانيه، ها هي طاقة الصراع، ها هي أشواق الكتابة، ها هي قوى التحالف الحقيقي تنهض ممَّ اقترحوا عليها من زيف، لتتوحد وتتجسَّد في نشيد بيروت العظيم.

كان أكثر منا شباباً، لأنه كان يدافع عن صواب قلبه، وعن مقطع الوداع.

وحيـن حطَّت سحابـة الوعي الزائـف وإعادة النظـر بالمعاني

كلهـا - مـن بسيطها إلى مُعَقّدهـا - على مناخ قابـل للتلوّث من شدة الحيـرة والبلبلة، لم يعد العـدو المشترك عدوّاً مشتـركاً واحداً، إذ تمَّ خلـط الاحتلال الإسرائيلي «بالاحتلال الفلسطيني»، وتمَّ الاصطفاف الانتحـاري على شعار «لا عـودة إلى ما قبل حزيـران 82»، ومُنحت قطعـان الطائفية» حقّ التعبير الحـر، وبطريقتها الخاصة، عن الحرمان وعن الوطن معاً، واختلط حابل الوعي بنابله...

حينئـذ، تميَّز حسين مروة عن المناخ العـام وعن الإطار العام. صمت قليلاً، لتمر همجية الكلام...

ومنـذ ذلك الوقت، بـدأ مشروع اغتياله، واغتيـال ما يمثِّل من تميّز عن سياق عام طائش، حيث أسست انتهازية التحالفات مقدمات الانتحـار الذاتـي والاغتيـال معـاً، بانحناء حلفـاء الأمس أمـام تمدد «الطائفية»، وأمام أسيادها، بلا شروط تفاوض، وبتبرّع كريم في هجاء الفلسطينيين، والتخفيف من خطورة ذبحهم في مخيماتهم...

فما ذنبه، ما ذنبه هو؟

ذنبـه أنه كان يعرف، ويعرف جيـداً أن وضع دم في مفاضلة مع دم آخـر، وتصعيد الهوة بين المقاومة الفلسطينيـة والمقاومة اللبنانية، سيتيح للوحش الطائفي بـأن ينهش لحم الفلسطيني، ولحم الشيوعي، ولحم الاشتراكي...

وها هو ينهش...

وعلى مرأى من حامية الطائفية، التي قدَّم لها بعض قادة حسين مروة مـن المدائح والولاء المجاني ما لم يحرك فيهـا النخوة والنجدة في وقت الشـدة، نشهد الآن الفصل الثاني من المجـزرة: اغتيال الحزب الشيوعي

اللبناني... الحزب العريق الـذي يشكل أحد الأسماء الساطعة لهوية لبنان العلماني الديموقراطي، ولطريقة اجتهاد في الذهاب إلى المستقبل.

لقد اغتالوا حسين مروة ثلاثة مرات:

اغتالوه حين اغتالوا الفلسطينيين،

واغتالوه حين اغتالوا رفاقه في الحزب،

واغتالوه حين اغتالوه...

فمن يوقف هذا الاغتيال؟ من يدافع عن الحزب الشيوعي اللبناني ليدافع عنه وعن نفسه؟

هل يكفي أن يقال: لكلٍّ غطاء غطاء، وفوق كل سقف سقف أعلى. وحرب النجوم تبدأ من حروب الأرض؟

لم يعد في وُسع أحد أن يدّعي اللافهم أمام سريالية سياسية تنتج موتاً واضحاً. المشهد واضح. القتلة واضحون. حلفاء القتلة واضحون. وأصدقاء حلفاء القتلة واضحون أيضاً، لمن يريد أن يرى.

ومرة أخرى نتساءل بسخرية: ألم يبق من معوِّقات أمام «قادة» العرب، أمام مهمة التصدي للامبريالية الأمريكية والمطامح الصهيونية، غير القضاء على الوجودين الزائدين: الوجود الشيوعي والوجود الفلسطيني في لبنان؟ ومن يقوم بهذه المهمة، من هو القاتل؟

ولماذا عاش حسين مروة إلى هذا الحد؟ لماذا أصرَّ على بلوغ الثمانين دون أن يسأم؟ ألأن أمامه ما يعمل... وما يعلم؟

أم ليتمكن القتلة في بيروت من استخراج هوية أخرى لم يستخرجها قتلة من قبل: وهي هوية قتل الجدّ!

وهـل يصدِّق أحد أن درجـة التسمّم الروحـي والأخلاقي في لبنان قد بلغت حداً يدفع شاباً إلى التقدم من سرير الشيخ حسين مروة، حارس الطفولة والبراءة، وإفراغ الرصاص في رأسه؟

نعـم، هذا يحـدث فـي لبنـان، لينسجـم مشهـد الجريمة مع حوافـز الجريمـة، وليختلط الوضـوح الوحشي مع الغموض الأشد وضوحـاً لخارطة قوى تمزقها صلابةُ القـوى الظلامية الأشد إخلاصاً لمشروعهـا، مشروعها الراسي على الخطـة الإسرائيلية، في زمن مائع ميوعـة التحالفـات اليائسـة أو البائسة، منذ اعتذر وعـي البدايات عن شبابه، ودخل في «شيخوخة الفكرة»...

لعل اغتيال حسين مروة هـو محاولة اغتيال الثوابت الأولى في الجدل السياسي والفكري والثقافي الذي أصيب بالضلال منذ وُضعت القضيـة اللبنانية، كما يفهمهـا المعبرون الطائفيـون والمذهبيون، في مواجهة القضية الفلسطينية. ومنـذ استعصى على الفهم الاعتراف بأن ريـح الشمال قد تلتقي مع ريح الجنوب، فـي محاولة للإطاحة بوعود حقيقية رفعتها بيروت، للبنان ولما يحيط بلبنان، قبل أن يتحول التلاحم اللبناني – الفلسطيني الثوري إلى نكتة في المجالس السياسية، ليس في لغة الصهيونيين العرب فقط، بل في لغة أطراف هذا التلاحم أيضاً.

فهـل يستخلص أحـد العبرة مـن مشهـد الاغتيـال الجماعي والفردي الطويل؟

وهـل ما زال مثيراً للسخرية والضحـك أن ينادي أحد بعودة ما إلى وعي بداية لم تكن خطأ؟

لا أعرف...

خليل الوزير، ومرارة الحريّة



كان المشهد مهيأ لطقس آخر...

كانت قرطاج، منذ قليل، محطة قصيرة لسرب الطيور العائدة من هجرة البحر...

وكان البحر يدل على أول البحر.

أما اللغة، لغتنا، فقد استعادت بهاء الأبجدية الأولى، وشرعت في حل ما يفيض عنها من خيبة وخيام.

... فنحن الذين صرنا قادرين على الفرح، قد صرنا قادرين على تركيب الوطن، حجراً على حجر، من حجر لا من كلام. كأننا ندخل في النشيد الحافي، أو نخرج منه واضحين واضحين، على طريق واضح وحاد، اليوم لا غداً بعدما صار الوقت في أيدينا ملك أيدينا. وعما قليل عما قليل... تمشي أمنية العمر على قدميها الداميتين إلى بيتها الأول.

كنا ننشد صعوبة الفرح، بعدما أدمنّا ما يدمينا من أحزان الرحيل. كنا نقرع باب البهجة البعيد. كنا نسمع الصدى القريب.

لكن خليل الوزير...

ماذا فعل خليل الوزير؟

لـم يجرحنـا من قبل، ولـم يغضـب أحداً منا: أصابـع يد ترقص العاصفة، وتعد الأيام الموعودة على سبابة وإبهام. بشاشة تضحك من أعمـاق الليل وألفة تصطاد النحل والنمور الشرسة. أخ للجميع... أب للجميع وعيد بلا ميعاد.

فلماذا يجرحنا حبيبنا الآن؟ لماذا يغدر بأقحوان السفوح: لماذا «يجعل أبريل أقسى الشهور» لماذا يغافلنا، ويصرخ: جدوا لي قبراً في أي مكان. هذا الذي يؤسس ذاك الوطن، لماذا يرمي بهذا السؤال؟

لماذا يطلب جملة اعتراضية؟

لقـد رمينا، منذ قليل، بالمفـردات التي لا تليق بهذا الوقت، ولا تليق بما أعد لجيل النصر من نصر.

تلـك عادات البطل الذي لا يعرف أنه بطـل. في قلبه سلام يراه على الخارج... في قلبه سلام يحجب المفاجأة...

وتلـك عـادات البطل التراجيـدي: على الأسطـورة أن تكتمل بتدخل مباغت من قدر لا يعمل إلا بشروطه الخاصة الساخرة. إذ ليس مـن حق البطـل أن يشهد ختام النشيـد. عليه أن يعـد النصر ولا يتمتع بالنصـر. عليه أن يعد حفل الزفاف ولا يزف. عليه أن يصنع الحرية ولا يتحرر. عليه أن يسقط على اللحظة القصيرة الفاصلة بين زمنين... على برزخ هو جسده. وعليه أن يورث لا أن يرث.

قال أبوه: إني أنتظر هذه اللحظة منذ عشرين سنة.

أمـا ابنـه الأصغر، «نضال» ابـن العامين، فقـد كان يلعب بلعبة العمـر: شارة النصـر... شارة النصر التي أعدها لـه أبوه، قبل أن ينجبه

بعشرين عامـاً. واشتد تعلق «نضال» بشارة النصر، منذ تسلل من وابل الرصاص، ليلة السبـت الماضي، ورأى أباه نائماً في بحيرة من شقائق النعمـان. وها هـو، على سلم الطائـرة التي تحمل قلبنـا الجماعي من تونس إلى الشام، يُودِّعُنا بشارة النصر ويودِعُنا شارة النصر...

لكـن «حنان» و«إيمـان» لا تعرفان تماماً متـى تبتسمان ومتى تبكيـان، منذ أخذهما أبوهما، أبو جهاد إلى مطلع القصيدة الطويلة... ومنذ أمسك «جهاد» بذيل الريح.

فماذا فعل القتلة؟

لقـد جرحونا في أوج الصعود إلى درج الغد والبرتقال جرحونا فـي النخـاع، إن الجـرح عميق وموجع إلـى درجة لا نشعـر معها إلا بمرارة الحريـة. فالحرية ليست قرصاً من عسـل. الحرية ليست ورداً على سياج بعيد.

لقـد جرحونا، لنـدرك ما لا يدركون، لندرك أنـه ليس في وسع العاصفـة أن تتوقـف فـي منتصـف الصفصافة جرحونا، لنـدرك ما لا يدركون، لندرك أن الانتفاضة هي الوطن والحرية معاً...

إن اغتيـال خليل الوزير هو محاولة لاغتيـال الانتفاضة فهل في مقدور الأعداء أن يطفئوا بدم خليل الوزير لهيب الانتفاضة؟

لقـد توهجت، وتأججت، وتزوجت دمه النازي لأن الجرح لا يقوّي مناعة الجسـد فحسب، بل ينشب مخالب الروح أيضاً. وخليل الوزيـر يتحول في هذه الأقاليم من بطـل إلى أسطورة تنفخ في حجارة الوطن نفس الحياة الأولى ونداء الرعد النبوي:

انهضي انهضي.
انهضي يا حجارة أرضي...
لتبني لنا وطناً من سلام.
لتبني لنا لغة من رخام!...
فماذا فعل القتلة؟

لقد احتاجوا إلى ساحتهم الخاصة ليرسموا مشهدهم الخاص، ولينقلوا المعركة إلى مجالهم الحيوي: الإرهاب. لأنهم في حاجة إلى انتصار المقومات الأولى على انفجار الأرض في نسيج الوجود. وكأنهم، وهم يعلنون جوهر هويتهم الإرهابية، يريدون أن يستدرجونا إلى الملامح التي يحددونها لصورتنا، بعدما اتضح الفارق الشاسع، بين صورتين:

صورة المدافعين عن الحرية والوطن
وصورة الغزاة المتخمين بآلة القتل.

فماذا فعل القتلة أكثر من الإفصاح عن هويتهم؟ لقد اغتالونا كثيراً كثيراً في كل مكان، بكاتم الصوت ذاته، وبالقناع ذاته. وانتصروا علينا في شروط الغابة، غابتهم، في معركة ليست معركتنا. هم الإرهابيون بامتياز، هم القتلة بامتياز، هم القراصنة بامتياز، هم قطاع الطرق بامتياز...

فماذا بعد... ماذا بعد!

سيحتاج الوعي العالمي المتفرج إلى وقت أطول وإلى اغتيال أكثر، كي يعيد صياغة مفهوم جديد عن الإرهاب إزاء حرج قانوني يسببه تباهي دولة بتفوقها في فن الإرهاب، بعدما اعتاد إلصاق هذه التهمة بالضحية. ومن الترف أن نعيد طرح السؤال الساذج: من هو الإرهابي؟ من هو الإرهابي؟.

هل هو الولد الذي يقاوم الدبابة بحجر. أم هي الدولة التي تغتال الولد بدبابة.

من هو الإرهابي؟ هل هو الشعب الذي يدافع عن حقه في الوجود أمام حرب الإبادة. أم هي الدولة التي تغتال خليل الوزير في تونس؟

لتذهب هذه الأسئلة إلى الجحيم!

فلن يتمكن العدو من استدراجنا إلى ناموسه وإلى عمليات التباس الفوارق. فإن الانتفاضة التي كانت أحد التجليات الكبرى لأحلام خليل الوزير ولتضحياته العظيمة، ستواصل إبداع قدرتها على الاستمرار والتطور. لقد سقط فارس الانتفاضة وهو يتلمس سنابل القمح الذي أمضى حياته في بذاره، في كل حقل وعلى كل صخرة. لقد سقط الزارع بعدما نما الزرع وانتهت فصول الجفاف.

لم تذهب لحظة من حياة خليل الوزير سدى لقد وزع جسده على كل الخنادق، واخترق الحصار تلو الحصار. وها هو الآن يرش دمه المتفجر على مشهد الميلاد العظيم... ها هو يرى الجنين في ساعة الولادة الكبرى... ها هو يتحرر من المنافي التي لا حصر لها، ويفرغها على عتبة الوطن.

لن ندرك، حتى هذه اللحظة، أن خليل الوزير قد غاب. فهو الذي يدفع الانتفاضة الآن إلى مستوى أعلى من التصعيد. وهو الذي يحرك في الواقع الملتهب، هنا وهناك، شبق الساعات التي تسبق النصر.

ولكننا كنا ندرك، دائماً، أنه أكثر من مبنى، وأوسع من مؤسسة. إنه أفق في رجل في كل واحد منا أثر فيه. وفيه موسوعة البلاد: أسماء

الناس، وأسماء النبات، وأسماء الجماد. كان يحفظ الوطن، ويتلوه بتدفق التفاصيل كما يحفظ الطالب درسه الأول.

ولا مكان لمكانه... إنه منتشر كالأنهار التي تعرف مصبها ولا تعرف ضفافها. وهو رمز لكل ما هو حيوي في حياتنا المحرومة من انضباط التقاليد.

ألى هذا الحد يستطيع الرجل الزاهد أن يتحول إلى مجتمع؟

ألى هذا الحد يصل به الزهد: إلى حد حرمان نفسه من لذة المشاركة في النصر!

لم نفتقده بعد، لأنه لا يزال بيننا، ومعنا، وحارساً لحدود الحلم...

سنفتقده، أكثر، هناك... حين نهنئ بعضنا البعض بالنصر، ولن نجده بيننا.

هناك... أمام الشجرة التي غرسها، وتحت الراية التي رفعها.

هناك... سيختلط العيد بالحداد؟

هناك... سنبكي عليه أكثر؟

هناك... سنذوق مرارة الحرية؟

هناك... سنجهش: أين أبو جهاد؟



المحتويات

P R O S E W O R K S

الأعمال النثرية

في وصفِ حالتِنا

في انتظارِ البرابرة

الرسائلُ مع سميح القاسم

عابرونَ في كلامٍ عابرٍ

telegram
@soramnqraa



مؤسسة محمود درويش، رام الله، فلسطين

دار الناشر

رام الله، فلسطين / هاتف 2961911 2 00970
عمّان، الأردن / هاتف 5694861 6 00962



الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2019
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962

ISBN 978-9950-385-81-8

9 789950 385818